



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر
عليه السلام

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَشْكُرَهُ لَوْلَا رَحْمَتُ اللَّهِ عَلَيْنَا لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ

مختصر الأمم

في
تفسير كتابي الله المنزلي

الحجرات والآيات

المختصر أحمد علي بابي

القرآن البصري

مطبعة دار الفقه الإسلامي - بيروت - لبنان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابى طالب عليه السلام

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٦	مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ٣
٦	اشارة
٦	١٦ سورة النحل
٣٨	١٧ سورة الإسراء
٧٣	١٨ سورة الكهف
١٠٣	١٩ سورة مريم
١٢٠	٢٠ سورة طه
١٤٢	٢١ سورة الأنبياء
١٦٦	٢٢ سورة الحج
١٨٧	٢٣ سورة المؤمنون
٢٠٤	٢٤ سورة التور
٢٢٥	٢٥ سورة الفرقان
٢٤٣	٢٦ سورة الشعراء
٢٦٩	٢٧ سورة التمل
٢٨٧	٢٨ سورة القصص
٣١٠	٢٩ سورة العنكبوت
٣٢٨	٣٠ سورة الزوم
٣٤٤	تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ٣

إشارة

عنوان و نام پديدآور : مختصر الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل/ناصر مكارم شيرازى

مشخصات نشر : قم: مدرسه الامام على بن ابى طالب عليه السلام، ١٤٢٨

مشخصات ظاهرى : ج

وضعيت فهرست نویسى : در انتظار فهرستنویسى

شماره کتابشناسى ملی : ١١٤٨٣٩٣

١٦ سورة النحل

محتوى السورة: من خلال ملاحظة السورة يبدو لنا أن بحوثها تتناول ما تناوله الآيات المكية تارة مثل: التوحيد، المعاد، محاربة الشرك وعبادة الأصنام، وتارة اخرى ما تناوله الآيات المدنية مثل: الأحكام الاجتماعية ومسائل الجهاد والهجرة. ويمكننا إجمال محتويات السورة المسبوكة بعناية وإحكام بما يلي:

١- ذكر النعم الإلهية، وتفصيلها بما يثير دافع الشكر عند كل ذى حس حى، ليقترب الإنسان من خالق هذه النعم وواهبها. ومن النعم المذكورة فى السورة: نعمة المطر، نور الشمس، أنواع النباتات والثمار، المواد الغذائية الاخرى، الحيوانات الداجنة بما تقدمه من خدمات ومنافع للإنسان، مستلزمات وسائل الحياة وحتى نعمة الولد والزوجة، وبعبارة شاملة (أنواع الطيبات). ولهذا أطلق البعض عليها (سورة النعم).

وعرفت بسورة النحل لورود تلك الإشارة القصيرة ذات المعانى الجليلة والعجيبة للنحل، ضمن ما ذكر من النعم الإلهية الواسعة، وبخصوص اعتبار النحل مصدراً للغذاء مهم من أغذية الإنسان، وباعتبار حياة هذه الحشرة تعبير ناطق لتوحيد الله. ٢- الحديث عن أدلة التوحيد، عظمه ما خلق الخالق، المعاد، إنذار المشركين والمجرمين.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧

٣- تناول الأحكام الإسلامية المختلفة.

٤- الحديث عن بدع المشركين مع ذكر أمثلة جميلة حية.

٥- وأخيراً تحذير الإنسانية من وساوس الشيطان.

فضيلة تلاوة السورة: فى تفسير مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه و آله أنه قال: «من قرأها لم يحاسبه الله تعالى بالنعم التى أنعمها عليه من دار الدنيا».

فقراءة الآيات بتدبر وتفكر مع وجود العزم على العمل والسير وفق الشكر للمنعم، تكون سبيلاً لأن يستعمل الإنسان كل نعمه بما ينبغى عليه أن يستعمل، فلا يحبس ولا يهمل، ويكون من الشاكرين.

أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١) يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢)

أتى أمر الله: ذكرنا سابقاً أن قسماً مهماً من الآيات التى جاءت فى أول السورة هى آيات مكية نزلت حينما كان النبى صلى الله عليه و آله يخوض صراعاً مشتبداً مع المشركين وعبدة الأصنام، وما يمرّ يوم حتى يطلع أعداء الرسالة بمواجهته جديدة ضد الدعوة الإسلامية المباركة، لأنها تريد بناء صرح الحرية، بل كل الحياة من جديد.

ومن جملة مواجهاتهم اليأسه قولهم للنبي صلى الله عليه وآله حينما يهددهم وينذرهم بعذاب الله: إن كان ذلك حقاً فلم لا يحلّ العذاب والعقاب بنا إذن؟!

ولعلمهم يضيفون: وحتى لو نزل العذاب فسنلتجىء إلى الأصنام لتشفع لنا عند الله في رفع العذاب ... ولم لا يكون ذلك، أو لسن شفيعات؟!!

وأول آية من السورة تبطل أو هام اولئك بقوله تعالى: «أَتَىٰ أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ».

وإن اعتقدتم أن الأصنام شافعة لكم عند الله فقد أخطأتم الظن «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

وبما أن مستلزمات العدل الإلهي اقتضت عدم العقاب إلا بعد البيان الكافي والحجة التامة، فقد أضاف سبحانه: «يُنزِلُ الْمَلِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَإِلَهِ إِلَّا أَنَا». بناء على هذا الإنذار والتذكير «فَأَتَّقُوا».

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٨

أما المقصود من «الروح» في الآية هو: الوحي والقرآن والنبوة، والتي هي مصدر الحياة المعنوية للبشرية.

إن كلمة «الروح» في هذا الموضوع ذات جانب معنوي وإشارة إلى كل ما هو سبب لإحياء القلوب وتهذيب النفوس وهداية العقول. خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفْعٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (٦) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا لِيَسْتَأْذِنُوا لَكُمْ لِيَبْذَرُوا فِيهَا لَرُبُّكُمْ رَبُّكُمْ رَبُّ رَوْفٍ رَحِيمٍ (٧) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨)

بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن نفى الشرك، جاءت هذه الآيات لتفعل جذوره بالكامل، وتوجه الإنسان نحو خالقه بطريقتين:

الأول: عن طريق الأدلة العقلية من خلال فهم ومحاولة استيعاب ما في الخلائق من نظام عجيب.

الثاني: عن طريق العاطفة ببيان نعم الله الواسعة على الإنسان، عسى أن يتحرك فيه حس الشكر على النعم فيتقرب من خلاله إلى المنعم سبحانه.

فيقول: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ». وتتضح حقانية السماوات والأرض من نظامها المحكم وخلقها المنظم وكذلك من هدف خلقها وما فيها من منافع.

ثم يضيف: «تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ». فهل تستطيع الأصنام إيجاد ما أوجده الله؟!

بل هل تستطيع أن تخلق بعوضه صغيرة أو ذرة تراب؟!

فكيف إذن جعلوها شريكة الله سبحانه!

وبعد الإشارة إلى خلق السماوات والأرض وما فيها من أسرار لا متناهية يعرج القرآن الكريم إلى بعض تفاصيل خلق الإنسان من الناحية التكوينية فيقول: «خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ».

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٩

«النطفة»: في الأصل بمعنى الماء القليل، أو الماء الصافي، ثم أطلقت على قطرات الماء التي تكون سبباً لوجود الإنسان بعد تلقيحها. وحقائقه التعبير يراد به تبيان عظمه وقدره الله عز وجل، حيث يخلق هذا المخلوق العجيب من قطرة ماء حقيرة مع ما له من قيمة وتكريم وشرف بين باقى المخلوقات وعند الله أيضاً.

ثم يشير القرآن الكريم إلى نعمه خلق الحيوانات وما تدر من فوائد كثيرة للإنسان فيقول: «وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دَفْعٌ وَمَنَافِعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ». فخلق الأنعام الدال على علم وقدره الباري سبحانه، فيها من الفوائد الكثيرة للإنسان.

ولم يكتف بذكر منافعها المادية، بل أشار إلى المنافع النفسية والمعنوية كذلك حين قال:

«وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ».

«تريحون»: (من مادة الإراحة) بمعنى إرجاع الحيوانات عند الغروب إلى محل إستراحتها، ولهذا يطلق على ذلك المحل اسم (المراح). و «تسرحون»: (من مادة السروح) بمعنى خروج الحيوانات صباحاً إلى مراعيها. عبر القرآن بكلمة «جمال» عن تلك الحركة الجماعية للأنعام حين تسرح إلى مراعيها وتعود إلى مراعيها. ف «الجمال» جمال استغناء واكتفاء ذاتي، وجمال إنتاج وتأمين متطلبات أمه كامله، وبعبارة أوضح: جمال الإستقلال الاقتصادي وقطع كل تبعيته للغير.

ثم يشير تعالى في الآية التي تليها إلى إحدى المنافع المهمة الأخرى فيقول: «وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا يَشِقُّ الْإِنْسَانُ». وهذا مظهر من مظاهر رحمة الله عز وجل ورافته حيث سخر لنا هذه الحيوانات مع ما تملك من قدره وقوة «إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ».

فالأنعام إذن: تعطى للإنسان ما يلبسه ويدفع عنه الحر والبرد. وكذلك تعطيه الألبان واللحوم ليتقوت بها. وترتك في نفس الإنسان آثاراً نفسية طيبة. وأخيراً تحمل أثقاله.

ثم يعرج على نوع آخر من الحيوانات، يستفيد الإنسان منها في تنقلاته، فيقول: «وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً».

وتأتى الإشارة في ذيل الآية إلى ما سيصل إليه مآل الإنسان في الحصول على الوسائط مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠

النقلية المدنية من غير الحيوانات، فيقول: «وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ» من المراكب ووسائل النقل.

وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (٩) هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجْرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ (١٠) يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١١) وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّلَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (١٢) وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣)

بعد ذكر مختلف النعم في الآيات السابقة، تشير هذه الآيات إلى نعم أخرى ... فتشير أولاً إلى نعمة معنوية عالية في مرماها: «وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ». أى: عليه سبحانه سلامة الصراط المستقيم وهو الحافظ له من كل انحراف، وقد وضعه في متناول الإنسان.

ولكن أى النحويين من الصراط المستقيم هو المراد، التكويني أم التشريعي؟ اختلف المفسرون في ذلك، إلا أنه لا مانع من قصد الجانبين معاً.

فقد هدى الله الإنسان بالعقل والقدرة وبقوة القوى التكوينية التي تعينه للسير على الصراط المستقيم.

كما أرسل له الأنبياء والوحي السماوي وأعطاه التعليمات الكافية والقوانين اللازمة للمضى بهدى التشريع الرباني في تكمله مشوار المسيرة، وترك باقي السبل المنحرفة.

ثم يحذّر البارى جلّ شأنه الإنسان من وجود سبل منحرفة كثيرة: «وَمِنْهَا جَائِزٌ».

وبما أن نعمة الإرادة وحرية الاختيار في الإنسان من أهم عوامل التكامل فيه، فقد أشارت إليها الآية بجملة قصيرة: «وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ» ولا تستطيعون عندها غير ما يريد الله.

إلا أنه سبحانه لم يفعل ذلك، لأن الهداية الجبرية لا تسمو بالإنسان إلى درجات التكامل والفخر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١

وفي الآية التالية يعود إلى الجانب المادى بما يشير حس الشكر للمنع عند الناس، ويوقد نار عشق الله في قلوبهم بدعوتهم للتقرب أكثر وأكثر لمعرفة المنعم الحق، فيقول: «هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً»، ماء فيه سبب الحياة، وزلاً شفافاً خال من أى تلوث «لَكُمْ مِنْهُ

شَرَابٍ». وتخرج به النباتات والأشجار فترعى أنعامكم «وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ».

«تسيمون»: من مادة «الإسامة» بمعنى رعى الحيوانات.

ومما لا شك فيه أيضاً أن ماء المطر لا تقتصر فائدته لشرب الإنسان وإرواء النباتات، بل ومن فوائده أيضاً: تطهير الأرض، تصفية الهواء، إيجاد الرطوبة اللازمة لطراوة جلد الإنسان وتنفسه براحه، وما شابه ذلك .. فالمذكور من فوائده في هذه الآية ليس حصراً وإنما من باب الأهم.

ويكتمل الموضوع بقوله: «يُنَبِّئُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ».

ولا شك أن خلق هذه الثمار المتنوعة وكل ما هو موجود من المحاصيل الزراعية لآية للمتفكرين «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ». ثم يشير إلى نعمة تسخير الموجودات المختلفة في العالم للإنسان بقوله: «وَسَيَخْرُجُ لَكُمْ الْيَلَّ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». على عظمه وقدره الله وعظمه ما خلق.

وإضافه لكل ما تقدم: «وَمَا ذَرَأَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ» من مخلوقات سخرها لكم و «مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ» من الأغطية والملابس والأغذية

والزوجات العفيفات ووسائل الترفيه، حتى أنواع المعادن وكنوز الأرض وسائر النعم الاخرى «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ».

وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٤) وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥) وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦) أَمْ مَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٧) وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢

نعمة الجبال والبحار والنجوم: تبين هذه الآيات قسماً آخر من النعم الإلهية غير المحدودة التي تفضل بها الله عز وجل على الإنسان، فيبدأ القرآن الكريم بذكر البحار، المنبع الحيوى للحياة، فيقول: «وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ».

وكما هو معلوم أن البحار تشكل القسم الأكبر من سطح الكرة الأرضية، وأن الماء أساس الحياة، ولا زالت البحار تعتبر المنبع المهم في إدامة الحياة البشرية وحياة جميع الكائنات الحية على سطح الكرة الأرضية.

فما أكبرها من نعمة حين جعلت البحار في خدمة الإنسان ...

ثم يشير البارئ سبحانه إلى ثلاثة أنواع من منافع البحار: «لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا». فقد جعل الله في البحار لحماً ليتناوله الإنسان من غير أن يبذل أدنى جهد في تربيته، بل أوجدته ونمته يد القدرة الإلهية.

ومن فوائد البحار أيضاً تلك المواد التجميلية المستخرجة من قاعه: «وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا».

الحس الجمالى من الامور الفطرية التي فطر الإنسان عليها وهو الباعث على إثارة الشعر والفن الأصيل وما شاكلها عنده.

وينبغى العمل على إشباعه بشكل صحيح وسالم بعيداً عن أى نوع من الإفراط والتفريط.

ولهذا أوصى الإسلام كثيراً بالترين المعقول الخالى من أى إسراف مثل: لبس اللباس الجيد، التطيب بالعمور، استعمال الأحجار الكريمة ... الخ.

ثم يتطرق القرآن إلى الفائدة الثالثة في البحار: حركة السفن على سطح مياهها، كوسيلة مهمة لتنقل الإنسان ونقل ما يحتاجه، فيقول: «وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ».

وأعطاكم الله هذه النعمة لتستفيدوا منها في التجارة أيضاً «وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ».

وبعد ذكر هذه النعم التي تستلزم من الإنسان العاقل أن يشكر واهبها، يأتي في ذيل الآية: «وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

ثم يأتي الحديث عن الجبال بعد عرض فوائد البحار: «وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣

ثم يتطرق القرآن الكريم مباشرة إلى نعمه الأنهار، لما بين الجبال والأنهار من علاقة وثيقة حيث تعتبر الجبال المخازن الأصلية للمياه، فيقول: «وَأَنْهَارًا».

ثم يقطع القرآن الكريم الوهم الحاصل عند البعض من أن الجبال حاجز بين إرتباط الأراضي فيما بينها بالإضافة لكونها مانعاً رهيباً أمام حركة النقل، فيقول: «وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ».

ثم يضيف قائلاً: «وَعَلِمْتَ». لأنَّ الطرق لوحدها لا- يمكنها أن توصل الإنسان لمقصده دون وجود علامات فارقة ومميزات شاخصه يستهدى بها الإنسان لسلك ما يوصله لمأربه، ولذا ذكر هذه النعمة.

ومن تلك العلامات: شكل الجبال، الأودية، الممرات، الإرتفاع والإخفاض، لون الأرض والجبال وحتى طبيعة حركة الهواء. وأما في حال عدم تشخيص هذه العلامات بسبب ظلمة الليل في أيّ من سفر البر أو البحر، فقد جعل الله تعالى علامات في السماء تعوّض عن علامات الأرض.

وقد فسّرت «النجم» برسول الله صلى الله عليه وآله و «العلامات» بالأئمة عليهم السلام في روايات كثيرة وردت عن أهل البيت عليهم السلام وفي بعضها فسّر «النجم» و «العلامات» كلاهما بالأئمة عليهم السلام وكل ذلك يشير إلى التفسير المعنوي لهذه الآيات. في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «النجم رسول الله صلى الله عليه وآله، والعلامات الأئمة عليهم السلام». وبعد أن بين القرآن كل هذه النعم الجليلة والألطف الإلهية الخفية، راح يدعو الوجدان الإنساني للحكم في ذلك «أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ».

وكما اعتدنا عليه من القرآن في اسلوبه التربوي الهادف المؤثر، فقد طرح مسألة المحاجة بصيغته سؤال يترك الجواب عنه في عهدة الوجدان الحي للإنسان.

وفي نهاية المطاف، يفند الباري سبحانه مسألة حصر النعم الإلهية بما ذكر، بقوله: «وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا».

ونواجه في هذا المقام سؤالاً وإستفساراً: كيف إذن تؤدّي حق الشكر لله؟ و.. ألسنا مع ما نحن فيه، في زمرة الجاحدين؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤

وقوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَّحِيمٌ» خير جواب لذلك السؤال.

نعم، فهو سبحانه أرحم وأرأف من أن يؤاخذنا على عدم الاستطاعة في أداء أتم الشكر على نعمه.

ويكفينا من لطفه تعالى بأن يحسبنا من الشاكرين في حال اعتذرنا له واعترافنا بالعجز عن أداء حق الشكر الكامل.

ولكن هذا لا يمنع من أن نتبع ونحصى النعم الربانية بقدر المستطاع، لأنّ ذلك يزيدنا معرفته لله، وعلماً بعالم الخلقه، وآفاق التوحيد الرحبه، كما يزيد من حرارة عشقه سبحانه في أعماق قلوبنا، وكذا يحرك فينا الشعور المتحسس بضروره ووجوب شكر المنعم جلّ وعلا.

ولهذا نجد أن الأئمة عليهم السلام يتطرقون في أقوالهم وأدعيتهم ومناجاتهم إلى النعم الإلهية ويعدون جوانب منها، عبادة لله وتذكيراً ودرساً للآخرين.

وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُغْلِبُونَ (١٩) وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (٢٠) أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١) إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢) لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَمَا يُغْلِبُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ (٢٣)

آلهة لا تشعر: تناولت الآيات السابقة ذكر صفتين ربانيتين لا تنطبق أيه منها على الأصنام، أما الآية الاولى أعلاه فتشير إلى الصفة الثالثة للمعبود الحقيقي (وهي العلم) فتقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُغْلِبُونَ». فلماذا تسجدون للأصنام التي لم تكن هي الخالقة لكم، ولم تمنّ عليكم بأية نعمه، ولا تعرف عن علانيتكم شيئاً فضلاً عن سرّكم!؟

ثم يعود القرآن إلى مسألة الخالقية بافق أوسع من الآية السابقة: «وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ».

وقد بحث لحد الآن في عدم صلاحية الأصنام لتكون معبودة لأنها ليست خالقة، ومع

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥

ذلك كله، فإنها «أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ». ثم يضيف قائلاً عنها: «وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ».

فإذا كان الثواب والعقاب بيد الأصنام، فلا أقل من معرفتها بوقت بعث عبادهن، ومع جهلها بيوم البعث والحساب كيف تكون لائقه للعبادة؟!!

وهذه هي الصفة الخامسة التي يجب توفرها في المعبود الحقيقي وتفتقدها الأصنام.

إن مفهوم الصنم وعبادة الأصنام في المنطق القرآني أوسع من أن يحدد بالألوهة المصنوعة، فكل موجود نجعله ملجأ لنا مقابل الله عز وجل، ونسلم له أمر مصائرنا، فهو صنم وإن كان بشراً.

ولهذا فكل ما جاء في الآيات أعلاه يشمل الذين يعبدون الله بألسنتهم، ولكن في واقع حياتهم مستسلمون لمعبود ضعيف، وقد تبعوه لكونه المخلص لهم من دون الله، بعد أن فقد زمام استقلال المؤمن الحق.

وبعد هذه الإستدلالات الحية والواضحة على عدم صلاحية الأصنام يخلص القرآن إلى النتيجة المنطقية لما ذكر: «إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ». وبما أن العلاقة بين المبدأ والمعاد مترابطة ربطاً لا انفصام فيه، يضيف القرآن الكريم من غير فاصلة: «فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ». فأدلة التوحيد والمعاد قائمة لمن أراد الحق وطلب الحقيقة، إلا أن سبب عدم قبول الحق وإنكاره يرجع إلى حالة الإستكبار وعدم التسليم له، ويصبح ملكة في وجود المنكرين.

ثم تتطرق الآية الأخيرة إلى علم الله في الغيب والشهادة: «لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ».

والآية في واقعها تهديد للكفار وأعداء الحق، بأن الله عز وجل ليس بغافل عنهم.

فهم مستكبرون و «إِنَّهُ لَأَيُّحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ». والإستكبار على الحق من علامات الجهل بالله عز وجل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مِمَّا ذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٤) لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٢٥) قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَى اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَيْدَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٢٦) ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْرِبُهُمْ وَيَقُولُ أَيِّنْ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ قَالِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (٢٧) الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٨) فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبَلِيسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ (٢٩)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: يروى أنها نزلت في المقتسمين وهم ستة عشر رجلاً خرجوا إلى عقاب مكة أيام الحج على طريق الناس على كل عقبة أربعة منهم ليصدوا الناس عن النبي صلى الله عليه وآله وإذا سألهم الناس عما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وآله قالوا: أحاديث الأولين وأباطيلهم.

التفسير

حمل أوزار الآخرين: دار الحديث في الآيات السابقة حول عناد المستكبرين واستكبارهم أمام الحق، وسعيهم الحثيث في التنصل عن المسؤولية وعدم التسليم للحق. أما في هذه الآيات فيدور الحديث حول منطق المستكبرين الدائم، فيقول القرآن: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مِمَّا ذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ». فليس هو وحى إلهي، بل أكاذيب القدمات.

«الأساطير»: جمع أسطورة، وتطلق على الحكايات والقصص الخرافية والكاذبة، وقد وردت هذه الكلمة تسع مرات في القرآن الكريم

نقلًا عن لسان الكفار ضدّ الأنبياء تبريراً لمخالفتهم الدعوة إلى الله عزّ وجل.

وفى جميع المواطن ذكروا معها كلمة «الأولين» ليؤكدوا أنّها ليست بجديدة وأنّ الأيام ستتجاوزها حتى وصل بهم الحال ليغالوا فيما يقولون، كما جاء عن لسانهم فى الآية (٣١) من

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧

سورة الأنفال: «قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا».

والملاحظ على مستكبرى يومنا توسلهم بنفس تلك التهم الباطلة هروباً من الحق وإضلالاً للآخرين، ووصلت بهم حماقة لأن يعتبروا منشأ الدين من الجهل البشرى، وما الآراء الدينية إلّا أساطير وخرافات، حتى أنّهم اثبتوا ذلك فى كتب (علم الاجتماع ودونوه بصياغة علمية) كما يدعون). أما لو نفذنا فى أعماق تفكيرهم لوجدنا صورة أخرى: فهم لم يحاربوا الأديان والمذاهب الخرافية المجعولة أبداً، فهم مؤسسوها والداعون لنشرها، إنّما محاربتهم للأصالة والدين الحق الذى يوقظ الفكر الإنسانى ويحطم الأغلال الاستعمارية ويقطع دابر المنحرفين عن جادة الصواب.

توضح الآية الاخرى أعمالهم بالقول: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ».

ثم تتحرك الآية الاخرى لتقرر أنّ تهمه وصف الوحي الإلهى بأساطير الأولين ليست بالأمر المستجد: «قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهَ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ».

ومن لطيف دقة العبارة القرآنية، أنّ الآية أشارت إلى أنّ الله عزّ وجل لا- يدمرّ البناء العلوى للمستكبرين فحسب، بل سيدمره من القواعد لينهار بكله عليهم.

وقد يكون تخريب القواعد وإسقاط السقف إشارة إلى أبنيتهم الظاهرية، من خلال الزلازل والصواعق لتنهيار على رؤوسهم، وقد يكون إشارة إلى قلع جذور تجمعاتهم وأحزابهم بأمر الله عزّ وجل، بل لا مانع من شمول الأمرين معاً.

وعذابهم فى الحياة الدنيا لا يعنى تمام الجزاء، بل تكملته ستكون يوم الجزاء الأكبر «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ».

فيسألهم الله تعالى: «وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقِقُونَ فِيهِمْ». أى تجادلون وتعادون فيهم، فلا يتمكنون من الإجابة، ولكن: «قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ».

وهو نوع من العذاب الروحى، ويصف ذيل الآية السابقة حال الكافرين بالقول:

«الَّذِينَ تَتَوَفَّوهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِى أَنْفُسِهِمْ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨

لأنّ ممارسة الظلم فى حقيقتها ظلم للنفس قبل الآخرين، لأنّ الظالم يتلف ملكاته الوجدانية، ويهتك حرمة الصفات الفطرية الكامنة فيه.

أما حين تحين ساعة الموت ويزول حجاب الغفلة عن العيون «فَأَلْقَوْا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ».

لماذا ينكرون عملهم القبيح؟ فهل إنهم يكذبون وقد أصبح الكذب صفة ذاتية لهم من كثرة تكراره، أم يريدون القول: إنّنا نعلم سوء أعمالنا، ولكننا اخطأنا ولم تكن لدينا نوايا سيئة فيه.

يمكن القول بإرادة كلا الأمرين.

ولكن الجواب يأتيهم فوراً: إنكم تكذبون فقد ارتكبتم ذنوباً كثيرة: «بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» حتى بتياتكم.

وليس المقام محلاً للإنكار أو التبرير... «فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ».

وقيل للذين اتفقوا ما ذاك أنزل ربكم قالوا خيراً للذين أحسبوا فى هذه الدنيا حسنة و لمدار الآخرة خيراً و لنعم دار المتقين (٣٠) جنات عدن يدخلونها تجري من تحتها الأنهار لهم فيها ما يشاءون كذلك يجزي الله المتقين (٣١) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٢)

عاقبة المتقين والمحسنين: قرأنا في الآيات السابقة أقوال المشركين حول القرآن وعاقبه ذلك، والآن ندخل مع المؤمنين في اعتقادهم وعاقبه .. فيقول القرآن: «وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا».

ما أجمل هذا التعبير وأكمله «خيراً» خير مطلق يشمل كل: صلاح، سعادة، رفاه، تقدم مادي ومعنوي، خير للعالم والآخرة، خير للإنسان الفرد والمجتمع.

وتبين الآية مورد البحث نتيجة وعاقبه ما أظهره المؤمنون من اعتقاد، كما عرضت

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩

الآيات السابقة عاقبه ما قاله المشركين من عقاب دنيوي وأخروي، ومادى ومعنوي مضاعف: «لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ».

وقد أطلق الجزاء بال «حسنه» كما أطلقوا القول «خيراً»، ليشمل كل أنواع الحسنات والنعم في الحياة الدنيا، بالإضافة إلى: «وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ». ثم تصف الآية التالية - بشكل عام - محل المتقين في الآخرة بالقول: «جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ».

وقلنا أن الآيات مورد البحث توضح كيفية حياة وموت المتقين مقارنة مع ما ورد في الآيات السابقة حول المشركين والمستكبرين، وقد مررنا علينا هناك أن الملائكة عندما تقبض أرواحهم يكون موتهم بداية لمرحلة جديدة من العذاب والمشقة، ثم يقال لهم: «ادخلوا أبواب جهنم...».

وأما عن المتقين: «الَّذِينَ تَتَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ» طاهرين من كل تلوثات الشرك والظلم والإستكبار، ومخلصين من كل ذنب: «يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا». السلام الذى هو رمز الأمن والنجاة.

ثم يقال لهم: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

والتعبير عن موتهم ب «تَتَوَفَّهُمْ» يحمل بين طياته اللطف، ويشير إلى أن الموت لا يعنى الفناء والعدم أو نهاية كل شىء، بل هو مرحلة انتقالية إلى عالم آخر.

وفى تفسير الميزان: أن فى هذه الآية ثلاثة مسائل:

١- طهارة المؤمنين من خبث الظلم.

٢- يقولون لهم: «سَلِّمْ عَلَيْنَا» وهو تأمين قولى لهم.

٣- «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» وهو هداية لهم إليها.

وهذه المواهب الثلاث هى التى ذكرت فى الآية (٨٢) من سورة الأنعام: «الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسِهِمْ يَظْلِمُونَ (٣٣)
فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٤) وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٣٥) وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَمَنْ يَبْصُرْ فِي الْبَازِئِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ (٣٦) إِنَّ تَحْرِصَ عَلَى هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٣٧)

يعود القرآن الكريم مرّة اخرى ليعرض لنا واقع وأفكار المشركين والمستكبرين ويقول بلهجة وعيد وتهديد: ماذا ينتظرون؟ «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ». أى:

ملائكة الموت فتغلق أبواب التوبة أمامهم حيث لا سبيل للرجوع بعد إغلاق صحائف الأعمال. أو هل ينتظرون أن يأتي أمر الله بعذابهم: «أَوْ يَأْتِي أَمْرٌ رَبِّكَ» حيث تغلق أبواب التوبة أيضاً ولا سبيل عندها للإصلاح. ثم يضيف: إن هؤلاء ليس أول من كانوا على هذه الحال والصفة وإنما «كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وسوف يلاقون نتيجة ما كسبت أيديهم من أعمال. ثم يذكر عاقبة أمرهم بقوله: «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ». فتعبير الآية ب «فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَّا عَمِلُوا» يؤكد مرّة أخرى على عودة الأعمال على فاعلها سواء في الدنيا أو في الآخرة، وتتجسم له بصور شتى، وتعذبه وتؤلمه ولا شيء غير هذه الأعمال في عذابه.

وتشير الآية التالية إلى أحد أقوال المشركين الخاوية، فنقول: «وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١

شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا ءَابَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ».

إن قولهم «وَلَا حَرَمْنَا» إشارة إلى بعض أنواع الحيوانات التي حرّم لحومها المشركون في عصر الجاهلية، والتي أنكرها رسول الله صلى الله عليه وآله بشدة. وكانهم يقولون: إن كانت أعمالنا لا ترضى الله تعالى فلماذا لم يرسل إلينا الأنبياء لينهونا عما نقوم به، فسكوتهم وعدم منعه ما كنا نعمل دليل على رضاه.

ولهذا يقول تعالى مباشرة: «كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ».

وهذا هو خط جميع دعاة الحق (من الأنبياء وغيرهم) .. فهم: لا- يداهنون في دعوتهم أبداً ولا يجاملون الباطل وأهله، متحملين كل عواقب هذه الصراحة والقاطعية.

وبعد ذكر وظيفة الأنبياء (البلاغ المبين)، تشير الآية التالية باختصار جامع إلى دعوة الأنبياء السابقين، بقولها: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا».

«الامة»: من «الأم» بمعنى الوالدة، أو بمعنى كل ما يتضمن شيئاً آخر في داخله؛ ومن هنا يطلق على جماعة تربطها وحدة معينة من حيث الزمان أو المكان أو الفكر أو الهدف «امة».

وبيّن القرآن محتوى دعوة الأنبياء عليهم السلام بالقول: «أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ».

لأنّ اسس التوحيد إذا لم تحكم ولم يطرد الطواغيت من بين المجتمعات البشرية فلا يمكن إجراء أى برنامج إصلاحى.

«الطاغوت»: صيغة مبالغة للطغيان .. أى التجاوز والتعدى وعبور الحد، فتطلق على كل ما يكون سبباً لتجاوز الحد المعقول، ولهذا يطلق

اسم الطاغوت على الشيطان، الصنم، الحاكم المستبد، المستكبر وعلى كل مسير يؤدى إلى غير طريق الحق.

ونعود لنرى ما وصلت إليه دعوة الأنبياء عليهم السلام إلى التوحيد من نتائج، فالقرآن الكريم يقول: «فَمِنْهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ».

والآية (٧٩) من سورة النساء تشير إلى المعنى المذكور بقولها: «مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ».

وفى نهاية الآية يصدر الأمر العام لأجل إيقاظ الضالين وتقوية روحية المهتدين، بالقول: «فَسَبِّرُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظِرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ».

فالآية دليل ناطق على حرية إرادة الإنسان، فإن كانت الهداية والضلال أمرين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢

إجباريين، لم يكن هناك معنى للسير في الأرض والنظر إلى عاقبة المكذبين.

الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث تؤكد التسليّة لقلب النبي صلى الله عليه وآله بتبيان ما وصلت إليه حال الضالين: «إِنْ تَحْرِصْ عَلَيَّ هُدَيْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ».

«تحرص»: من مادة (حرص)، وهو طلب الشيء بجديّة وسعى شديد.

بديهي، أن الآية لا تشمل كل المنحرفين، لأن الشمول يتعارض مع وظيفة النبي (هداية وتبليغ).

فعليه ... تكون الجملة المتقدمة خاصة بمجموعة معينة من الضالين الذين وصل بهم العناد واللجاجه في الباطل لأقصى درجات الضلال، وأصبحوا غرقى في بحر الإستكبار والغرور والغفلة والمعصية فاغلقت أمامهم أبواب الهداية. وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٨) لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَيُعَلِّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ (٣٩) إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠) سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قالوا: كان لرجل من المسلمين على مشرك دين، فتقاضاه فوق في كلامه والذي أرجوه بعد الموت أنه لكذا. فقال المشرك: وإنك لترعم أنك تبعث بعد الموت وأقسم بالله لا يبعث الله من يموت. فأنزل الله الآية.

التفسير

المعاد ونهاية الاختلافات: تعرض الآيات أعلاه جانباً من موضوع «المعاد» تكميلاً لما بحث في الآيات السابقة ضمن موضوع التوحيد ورسالة الأنبياء. فتقول الآية الأولى:

«وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ».

وهذا الإنكار الخالي من الدليل والذي ابتدأه بالقسم المؤكّد، ليؤكد بكل وضوح على جهلهم ولهذا يجيبهم القرآن بقوله: «بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ».

ثم يتطرق القرآن الكريم إلى ذكر أحد أهداف المعاد وقدره الله عز وجل على ذلك، ليردّ الإشتباه القائل بعدم إعادة الحياة بعد الموت، أو بعثية المعاد ... فيقول: «لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣

يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَيُعَلِّمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ» في إنكارهم للمعاد وبأنّ الله لا يبعث من يموت. فالرجوع إلى الوحدة وانتهاء الخلافات العقائدية من أهداف المعاد وقد أشارت إليه الآية مورد البحث.

ثم يشير القرآن إلى الفقرة الثانية من بيان حقيقة المعاد، للرد على من يرى عدم إمكان إعادة الإنسان من جديد إلى الحياة من بعد موته: «إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ».

إن «كن» إنّما ذكرت لضرورة اللفظ، وإلا لا حاجة في أمر الله ل «كن» أيضاً، فأرادته سبحانه وتعالى كافية في تحقيق ما يريد.

فأرادته إحدائه لا غير ذلك، لأنه لا يُروى ولا يهيم ولا يتفكر، وهذه الصفات منفية عنه وهي من صفات الخلق، فأرادة الله تعالى هي الفعل لا غير ذلك، يقول له: كن فيكون، بلا لفظ ولا نطق بلسان ولا همّة ولا تفكر ولا كيف كذلك كما أنّه بلا كيف.

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسْبَئِنَّهُ وَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: الآية الأولى نزلت في المعذبين بمكة مثل صهيب، وعمار، وبلال، وخباب، وغيرهم مكّتهم الله بالمدينة، وذكر أنّ صهيباً قال لأهل مكة: أنا رجل كبير إن كنت معكم لم ينفعكم وإن كنت عليكم لم يضركم فخذوا مالي ودعوني. فأعطاهم ماله وهاجر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال له أبو بكر: ربح البيع يا صهيب.

التفسير

ثواب المهاجرين: نرى في الآيات السابقة الحديث عن المشركين ومنكرى يوم القيامة، وينتقل الحديث في الآيات مورد البحث إلى المهاجرين المخلصين، يقارن بين المجموعتين ويبين طبيعتهما فيقول أولًا: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً». أما في الآخرة: «وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

ثم يصف في الآية التالية المهاجرين المؤمنين الصالحين بصفتين، فيقول: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤

إنَّ للمسلمين هجرتين؛ الاولى: كانت محدودة نسبيًا (هجرة جمع من المسلمين على رأسهم جعفر بن أبي طالب إلى الحبشة)، والثانية: الهجرة العامة للنبي صلى الله عليه وآله والمسلمين من مكة إلى المدينة. وظاهر الآية يشير إلى الهجرة الثانية، كما يؤيد ذلك شأن النزول.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣) بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٤٤)

اسألوا إن كنتم لا تعلمون: هذه الآية يعود إلى بيان المسائل السابقة فيما يتعلق باصول الدين من خلال إجابته لأحد الإشكالات المعروفة؛ حين يتقوّل المشركون: لماذا لم ينزل الله ملائكةً لإبلاغ رسالته؟ أو يقولون: لم لم يجهز النبي صلى الله عليه وآله بقدره خارقة ليَجبرنا على ترك أعمالنا؟ فيجيبهم الله عز وجل بقوله: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ».

نعم. فإنَّ أنبياء الله جميعهم من البشر، وبكل ما يحمل البشر من غرائز وعواطف إنسانية، حتى يحس بالألم ويدرك الحاجة كما يحس ويدرك الآخرون. في حين أنَّ الملائكة لا تتمكن من إدراك هذه الامور جيداً.

ثم يضيف القول (تأكيداً لهذه الحقيقة): «فَسَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

«الذكر»: بمعنى العلم والإطلاع؛ و «أهل الذكر»: له من شمولية المفهوم بحيث يستوعب جميع العالمين والعارفين في كافة المجالات.

فالآية مبيّنة لأصل إسلامي يتعيّن الأخذ به في كل مجالات الحياة المادية والمعنوية، وتؤكد على المسلمين ضرورة السؤال فيما لا يعلمونه ممن يعلمه، وأن لا يورطوا أنفسهم فيما لا يعلمون.

وعلى هذا فإنَّ «مسألة التخصص» لم يقررها القرآن الكريم ويحصرها في المسائل الدينية بل هي شاملة لكل المواضيع والعلوم المختلفة، ويجب أن يكون من بين المسلمين علماء في كافة التخصصات للرجوع إليهم.

ثم تقول الآية التالية: «بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ».

«البيّنات»: جمع بيّنة، بمعنى الدلائل الواضحة، ويمكن أن تكون هنا إشارة إلى معاجز وأدلة إثبات صدق الأنبياء في دعوتهم؛ و «الزبر»: جمع زبور، بمعنى الكتاب.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥

فالبيّنات تتحدث عن دلائل إثبات النبوة، والزبر إشارة إلى الكتب التي جمعت فيها تعليمات الأنبياء. ومن ثم يتوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ»، ليبين للناس مسؤوليتهم تجاه آيات ربهم الحق.

فدعوتك ورسالتك ليست بجديدة من الناحية الأساسية، وكما أنزلنا على الذين من قبلك من الرسل كتباً ليعلموا الناس تكاليفهم الشرعية، فقد أنزلنا عليك القرآن لتبين تعاليمه ومفاهيمه، وتوقظ به الفكر الإنساني ليسيروا في طريق الحق.

أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلِبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)

لكل ذنب عقابه: ثمة ربط في كثير من بحوث القرآن بين الوسائل الاستدلالية والمسائل الوجدانية بشكل مؤثر في نفوس السامعين،

والآيات أعلاه نموذج لهذا الاسلوب. فالآيات السابقة عبارة عن بحث منطقي مع المشركين في شأن النبوة والمعاد، في حين جاءت هذه الآيات بالتهديد للجبابرة والطغاة والمذنبين. فتبتدأ القول: «أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ» من الذين حاكوا الدسائس المتعددة لإطفاء نور الحق والإيمان «أَنْ يَخْسِفَ بِهِمُ الْأَرْضَ».

فهل يبعيد (بعد فعلتهم النكراء) أن تتزلزل الأرض زلزلة شديدة فتشق القشرة الأرضية لتبتلعهم وما يملكون، كما حصل مراراً لأقوام سابقة؟!!

«مكروا السيئات»: بمعنى وضعوا الدسائس والخطط ووصلوا لأهدافهم المشؤمة السيئة، كما فعل المشركون للنيل من نور القرآن ومحاولة قتل النبي صلى الله عليه وآله.

«يخسف»: من مادة «خسف» بمعنى الإختفاء، ولهذا يطلق على اختفاء نور القمر في ظل الأرض اسم (الخسوف).

ثم يضيف: «أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ». أى:

عند ذهابهم ومجيئهم وحركتهم في اكتساب الأموال وجمع الثروات. «فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ».

إن «معجزين» من الإعجاز بمعنى إزالة قدرة الطرف الآخر، وهى هنا بمعنى الفرار من العذاب ومقاومته.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦

أو أن العذاب الإلهي لا يأتيهم على حين غفلة منهم بل بشكل تدريجي ومقروناً بالإنذار المتكرر: «أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ».

فاليوم مثلاً، يصاب جارهم ببلاء، وغداً يصاب أحد أقربائهم، وفي يوم آخر تلتف بعض أموالهم ... والخلاصة، تأتيهم تنبيهات وتذكيرات الواحدة تلو الاخرى، فإن استيقظوا فما أحسن ذلك، وإلا فسيصيبهم العقاب الإلهي ويهلكهم.

إن العذاب التدريجي في هذه الحالات يكون لاحتمال أن تهتدى هذه المجموعة، والله عز وجل لا يريد أن يعامل هؤلاء كالباقين: «فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَّءُوفٌ رَحِيمٌ».

أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ (٤٨) وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٤٩) يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٥٠)

سجود الكائنات لله عز وجل: تعود هذه الآيات مرّة اخرى إلى التوحيد بادئاً ب «أَوْ لَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَتَّحُونَ ظِلَالَهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّداً لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ» «١».

أى: ألم يشاهد المشركون كيف تتحرك ظلال مخلوقات الله يميناً وشمالاً لتعبّر عن خضوعها وسجودها له سبحانه؟

وهنا ... يعرض البارى سبحانه حركة ظلال الأجسام يميناً وشمالاً بعنوانها مظهراً لعظمته جلّ وعلا واصفاً حركتها بالسجود والخضوع. وجاء في الآية أعلاه ذكر سجود الظلال بمفهومه الواسع، أمّا في الآية التالية فقد جاء ذكر السجود بعنوانه برنامجاً عاماً شاملاً لكل الموجودات المادية وغير المادية، وفي أى مكان، فتقول: «وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ»، مسلمين لله ولأوامره تسليمًا كاملاً.

وحقيقة السجود نهاية الخضوع والتواضع والعبادة، وما تؤدّيه من سجود على الأعضاء السبعة ما هو إلّا مصداق لهذا المفهوم العام ولا ينحصر به.

وبما أن جميع مخلوقات الله في عالم التكوين والخلق مسلمة للقوانين العامة لعالم الوجود،

(١) «داخر»: في الأصل من مادة (دخور) أى: التواضع.

التي أفاضتها الإرادة الإلهية فإنّ جميع المخلوقات في حالة سجود له جلّ وعلا، ولا ينبغي لها أن تنحرف عن مسير هذه القوانين، وكلها

مظهره لعظمه وعلم وقدره البارى عز وجل، ولتدل على أنها آية على غناه وجلاله ... والخلاصة: كلها دليل على ذاته المقدسة. «الدابة»: بمعنى الموجودات الحيّة، ويستفاد من ذكر الآية لسجود الكائنات الحيّة فى السماوات والأرض على وجود كائنات حيّة فى الأجرام السماوية المختلفة علاوة على ما موجود على الأرض.

أما جملة «وَهُمْ لَا يَشْتَكِبُونَ» إشارة لحال وشأن الملائكة التى لا يداخلها أى استكبار عند سجودها وخضوعها لله عز وجل. ولهذا ذكر صفتين للملائكة بعد تلك الآية مباشرة وتأكيداً لنفى حالة الإستكبار عنهم:

«يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ».

ويستفاد من هذه الآية بوضوح أنّ علامة نفي الإستكبار شيان:

أ) الشعور بالمسؤولية وإطاعة الأوامر الإلهية من دون أى اعتراض.

ب) ممارسة الأوامر الإلهية بما ينبغى والعمل وفق القوانين المعدة لذلك.

وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِذْنًا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِلَآئِي فَارْهُبُونِ (٥١) وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ (٥٢) وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٥٥)

دين حق ومعبود واحد: تتناول هذه الآيات موضوع نفي الشرك تعقيباً لبحث التوحيد ومعرفة الله عن طريق نظام الخلق الذى ورد فى الآيات السابقة، لتتضح الحقيقة من خلال المقارنة بين الموضوع، ويبدأ ب «وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ إِذْنًا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِلَآئِي فَارْهُبُونِ».

ثم يوضح القرآن أدلة توحيد العبادة بأربعة بيانات ضمن ثلاث آيات ... فيقول أولاً «وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» فهل ينبغى السجود للأصنام التى لا تملك شيئاً، أم لمن له ما فى السماوات والأرض؟

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٢٨

ثم يضيف: «وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا».

ثم يقول فى نهاية الآية: «أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ».

فهل يمكن للأصنام أن تصدّ عنكم المكروه أو أن تفيض عليكم نعمه حتى تتقوها وتواظبوا على عبادتها؟!

هذا ... «وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ».

فهذه الآية تحمل البيان الثالث بخصوص لزوم عبادة الله الواحد جلّ وعلا، وأنّ عبادة الأصنام إن كانت شكراً على نعمه فهى ليست بمنعمه.

وعلاوة على ذلك ... «ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْرُونَ».

فإن كانت عبادتكم للأصنام دفعاً للضرر وحلاً للمعضلات، فهذا من الله.

وهذا البيان الرابع حول مسألة التوحيد بالعبادة.

«تجرون»: من مادة (الجؤار) على وزن (غبار)، بمعنى صوت الحيوانات والوحوش الحاصل بلا اختيار عند الألم، ثم استعملت كناية فى كل الآهات غير الاختيارية الناتجة عن ضيق أو ألم.

نعم. فالله سبحانه يسمع نداءكم فى كل الحالات ويغيثكم ويرفع عنكم البلاء «ثُمَّ إِذَا كَسَفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ» بالعود إلى الأصنام.

فالقرآن فى الآية يشير إلى فطرة التوحيد فى جميع الناس، إلّا أنّ حجب الغفلة والغرور والجهل والتعصب والخرافات تغطّيها فى الأحوال الاعتيادية.

وفي آخر آية (من الآيات مورد البحث) يأتي التهديد بعد إيضاح الحقيقة بالأدلة المنطقية: «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ تَاللَّهِ لَتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ (٥٦) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (٥٨) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٥٩) لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩

بعد أن عرضت الآيات السابقة بحثاً استدلالية في نفى الشرك وعبادة الأصنام، تأتي هذه الآيات لتتناول قسماً من بدع المشركين وصوراً من عاداتهم القبيحة، لتضيف دليلاً آخراً على بطلان الشرك وعبادة الأصنام، فتشير الآيات إلى ثلاثة أنواع من بدع وعادات المشركين: وتقول أولاً: «وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ».

وكان النصيب عبارة عن قسم من الإبل بقية من المواشى بالإضافة إلى قسم من المحاصيل الزراعية، وهو ما تشير إليه الآية (١٣٦) من سورة الأنعام. ثم يضيف القرآن الكريم قائلاً: «تَاللَّهِ لَتَسَلَّنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ».

وعليه فما تقومون به له ضرر مادي من خلال ما تعملونه بلا فائدة، وله عقاب أخروي لأنكم أسأتم الظن بالله واتجهتم إلى غيره. أمّا البدعة الثانية فكانت: «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ» من التجسم ومن هذه النسبة. «وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ». أي: إنهم لم يكونوا يقبلوا لأنفسهم ما نسبوه إلى الله، ويعتبرون البنات عاراً وسبباً للشقاء.

وإكمالاً للموضوع تشير الآية التالية إلى العادة القبيحة الثالثة: «وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ».

ولا ينتهي الأمر إلى هذا الحد بل «يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ».

ولم ينته المطاف بعد، ويغوص في فكر عميق: «أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ».

وفي ذيل الآية، يستنكر الباري حكمهم الظالم الشقي بقوله: «أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ».

وأخيراً يشير تعالى إلى السبب الحقيقي وراء تلك التلوثات، ألا- هو عدم الإيمان بالآخرة: «لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فالسبب الرئيسي لكل انحراف وقبح وخرافة هو الغفلة عن ذكر الله وعن محكمته العادلة في الآخرة.

دور الإسلام في إعادة اعتبار المرأة: لم يكن احتقار المرأة مختصاً بعرب الجاهلية، فلم تلق المرأة أدنى درجات الإحترام والتقدير حتى في أكثر الامم تمدناً في ذلك الزمان، وكانت المرأة غالباً ما يتعامل معها باعتبارها بضاعة وليست إنساناً محترماً، ولكن عرب الجاهلية جسّدوا تحقير المرأة بأشكال أكثر قباحة ووحشية من غيرهم.

وعندما ظهر الإسلام حارب بشدة هذه المهانة من كافة أبعادها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠

وأولى النبي صلى الله عليه وآله ابنته فاطمة الزهراء عليها السلام من الإحترام ما جعل الناس في عجب من أمره، حيث كان صلى الله عليه وآله مع ما يحظى به من شرف ومقام، كان يقبل يد الزهراء عليها السلام وعندما يعود من السفر يذهب إليها قبل أي أحد.

فالإحترام الذي أولاه الإسلام للمرأة قد أعاد لها شخصيتها الضائعة بين حوالك الجاهلية، وحررها من العادات البالية، وأنهى عصر تحقيرها.

وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهِمْ مِنْ دَائِهِمْ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَمَّا يَشِرْتَأْخِرُونَ سَاعِيَةً وَلَا يَسْتَفِيدُونَ (٦١) وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسَيْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ (٦٢) تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ

لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤)

بعد أن تحدّث الآيات السابقة عن جرائم المشركين البشعة في وأدهم للبنات، يطرق بعض الأذهان السؤال التالي: لماذا لم يعذب الله المدنيين بسرعة نتيجة لما قاموا به من فعل قبيح وظلم فجيح؟ والآية الاولى (٦١) تجيب بالقول: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ». أى: إن الله لو يؤاخذ الناس على ما ارتكبوه من ظلم لما بقى إنسان على سطح البسيطة.

فعندما يذهب الإنسان فسينتفى سبب وجود الكائنات الاخرى وينقطع نسلها.

ويضيف القرآن الكريم قائلاً: «وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فِإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَحْزِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ». بل يدركهم الموت فى نفس اللحظة المقررة.

ويعود القرآن الكريم ليستنكر بدع المشركين وخرافاتهم فى الجاهلية (حول كراهية المولود الأنثى والإعتقاد بأن الملائكة إناثاً) فيقول: «وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ».

فهذا تناقض عجيب، فإن كانت الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى فينبغى أن تكون البنت أمراً حسناً فلماذا تكرهون ولادتها؟ وإن كانت شيئاً سيئاً فلماذا تنسبونها إلى الله؟

ومع كل ذلك ... «وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى .

فبأى عمل تنتظرون حسنى الثواب؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١

ولهذا يقول القرآن: «لَمَجْرَمٌ أَنْ لَهُمُ النَّارَ». أى: أنهم ليسوا فاقدين لحسن العاقبة فقط، بل و «لهم النار» «وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ» أى: من المتقدمين فى دخول النار.

والمفراط: من فرط، على وزن (فقط) بمعنى التقدم.

وربما يراود البعض من الإستغراب عند سماعه لقصة عرب الجاهلية فى وأدهم للبنات، ويسأل: كيف يصدّق أن نسمع عن إنسان ما يدفن فلذة كبده بيده وهى على قيد الحياة!؟

وكان الآيه التالية تجيب على ذلك: «تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ».

ثم يضيف القرآن: إن مشركى اليوم على سنّه من سبقهم من الماضين من الذين زينوا أعمالهم بزخرف ما أوحى لهم الشيطان «فَهُوَ وَوَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ»، يستفيدون مما يعطيهم إياه.

ولهذا ... «وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

وتبين آخر آية من الآيات مورد البحث هدف بعث الأنبياء، ولتؤكد حقيقة أن الأقوام والامم لو اتبعت الأنبياء وتخلت عن أهوائها ورغباتها الشخصية لما بقى أثر لأى خرافة وانحراف، ولزالت تناقضات الأعمال، فتقول: «وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَ هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٦٥) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّشْفِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَ دَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ (٦٦) وَ مِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَ الْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سِكْرًا وَ رِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧)

المياه، الثمار، الأنعام: مرّة اخرى، يستعرض القرآن الكريم النعم والعطايا الإلهية الكثيرة، تأكيداً لمسألة التوحيد ومعرفة الله، وإشارة إلى مسألة المعاد، وتحريكاً لحس الشكر لدى العباد ليتقربوا إليه سبحانه أكثر، ومن خلال هذا التوجيه الربانى تتضح علاقة الربط بين هذه الآيات وما سبقها من آيات. فيقول: «وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَشْكُرُونَ».

وهذا المظهر من مظاهر قدرة وعظمة الخالق عزّ وجل يدلل بما لا يقبل الشك على إمكان المعاد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢

وإنَّ نعمة الأمطار دليل آخر على قدره وعظمه الخالق سبحانه.

وبعد ذكر نعمة الماء (الذي يعتبر الخطوة الاولى على طريق الحياة) يشير القرآن الكريم إلى نعمة وجود الأنعام، وبخصوص ما يؤخذ منها من اللبن كمادة غذائية كثيرة الفائدة، فيقول: «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً».

وأية عبرة أكثر من أن: «نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبْنَا خَالِصًا سَائِعًا لِلشَّارِبِينَ».

«الفرث»: لغة بمعنى الأغذية المهضومة في المعدة والتي بمجرد وصولها إلى الأمعاء تزود البدن بمادتها الحياتية، بينما يدفع الزائد منها إلى الخارج.. فما يهضم من غذاء داخل المعدة يسمّى «فرثاً» وما يدفع إلى الخارج يسمّى (روثاً).

ونعلم بأن جدار المعدة لا يمتص إلا مقداراً قليلاً من الغذاء (كبعض المواد السكرية) والقسم الأكبر منه ينتقل إلى الأمعاء كي يمتص الدم ما يحتاجه منه.

وكما نعلم أيضاً بأن اللبن يترشح من غدد خاصة داخل ثدي الإنث، ومادته الأصلية تؤخذ من الدم والغدد الدهنية.

فهذه المادة الناصعة البيضاء ذات القوة الغذائية العالية تنتج من الأغذية المهضومة المخلوطة بالفضلات، ومن الدم.

والعجب يكمن في استخلاص هذا النتاج الخالص الرائع من عين ملوثة.

وبعد حديثه عن الأنعام وألبانها يتناول القرآن ذكر النعم النباتية، فيقول: «وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسِينًا

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ

كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩)

«وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّخْلِ»: انتقل الأسلوب القرآني بهاتين الآيتين من عرض النعم الإلهية المختلفة وبيان أسرار الخليقة إلى الحديث

عن «النحل» وما يدره من منتج (العسل) ورمز إلى ذلك الإلهام الخفي بالوحي الإلهي إلى النحل: «أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ

الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣

إنَّ الوحي في هذا المورد يعنى الأمر الغريزي والباعث الباطني الذي أودعه الله في الكائنات الحية.

وأول مهمة أمر بها النحل في هذه الآية هي: بناء البيت، ولعل ذلك إشارة إلى أن اتخاذ المسكن المناسب بمثابة الشرط الأول للحياة،

ومن ثم القيام ببقية الفعاليات.

ويذكر القرآن الكريم في الآية التالية المهمة الثانية للنحل: «ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا».

وأخيراً يعرض القرآن المهمة الأخيرة للنحل (كنتيجة لما قامت به من مهام سابقة):

«يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

في طبيعتها حياتها وما تعطيه من غذاء للإنسان (فيه شفاء)، وهو دليل على عظمة وقدره الباري عز وجل.

كما نعلم بأن للنباتات والأوراد استعمالات علاجية فعالة لكثير من الأمراض، والشىء المهم في موضوعنا ما توصل إليه العلماء من

خلال تجاربهم التي أكدت على أن للنحل من المهارة بحيث إنه في علميه صنعه للعسل لم يبذّر فيما تحويه النباتات والأوراد من

خواص علاجية، فالنحل ينقل تلك الخواص بالكامل ويجعلها في العسل.

وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعِيدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (٧٠) وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى

بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَى رِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَلَيْسَ لِلَّهِ يَجْحَدُونَ (٧١) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ

أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَلَيْسَ بِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ (٧٢)

سبب اختلاف الأزواج: بينت الآيات السابقة قسماً من النعم الإلهية المَجْعولة في عالمي النبات والحيوان، لتكون دليلاً حسياً لمعرفة جل

شأنه، وتواصل هذه الآيات مسألة إثبات الخالق جلّ وعلا بأسلوب آخر، وذلك بأنّ تغيير النعم خارج عن اختيار الإنسان، وذلك كاشف بقليل من الدقّة والتأمل على وجود المقدّر لذلك. فيبدأ القول ب «وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّكُمْ». فمنه الممات كما كانت الحياة منه، ولتعلموا بأنكم لستم خالقين لأى من الطرفين (الحياة والموت).

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤

ومقدار عمركم ليس باختياركم أيضاً، فمنكم من يموت في شبابه أو في كهولته «وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ» (١). ونتيجة هذا العمر الموهل في سنى الحياة «لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا».

فيكون كما كان في مرحلة الطفولة من الغفلة والنسيان وعدم الفهم ... نعم ف «إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ». فكل القدرات بيده جلّ وعلا، وعطاؤه بما يوافق الحكمة والمصلحة، وكذا أخذه لا يكون إلا عندما يلزم ذلك.

ويواصل القرآن الكريم استدلاله في الآية التالية من خلال بيان أنّ مسألة الرزق ليست بيد الإنسان وإنما ... «وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ». فاصحاب الثروة والطول غير مستعدين لإعطاء عبيدهم منها ومشاركتهم فيها خوفاً أن يكونوا معهم على قدم المساواة: «فَمَا الَّذِينَ فَضَّلُوا بِرِزْقِهِمْ عَلَى مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ».

والذى نستفيده من الآية المبحوثة أنّ الإسلام يوصى بمراعاة المساواة كبرنامج أخلاقي بين أفراد العائلة الواحدة ومن يكون تحت التكفل قدر الإمكان، وأن لا يجعلوا لأنفسهم فضلاً عليهم.

فالتفاوت بين دخل الأفراد ينبع من التفاوت بالإستعدادات، وهو من المواهب والنعم الإلهية أيضاً، وإن أمكن أن يكون بعض ذلك اكتسابياً، فالبعض الآخر غير اكتسابي قطعاً.

فإذن وجود التفاوت في الأرزاق أمر غير قابل للإنكار من الناحية الاقتصادية، ويتم ذلك حتى داخل المجتمعات السليمة، إلّا أنّ أساس النجاح يكمن في السعى والمثابرة والجد، وينبغي أن لا يكون وجود التفاوت والاختلاف في الإستعدادات وفي الدخل اليومي للأفراد دافعاً لسوء الاستفادة وذلك بتشكيل مجتمع طبقي.

ولهذا يقول القرآن الكريم في ذيل الآية مورد البحث: «أَفِينَعْمَ اللَّهُ يَجْحَدُونَ».

وذلك إشارة إلى أنّ هذه الاختلافات في حالتها الطبيعية (وليست الظالمة المصطنعة) إنّما هي من النعم الإلهية التي أوجدها لحفظ النظام الاجتماعي البشرى.

وتبدأ الآية الأخيرة من الآيات مورد البحث بلفظ الجلالة «الله» كما كان في الآيتين السابقتين، ولتحدث عن النعم الإلهية في إيجاد القوى البشرية، ولتحدث عن الأرزاق الطيبة أيضاً تكميلاً للحلقات الثلاثة من النعم المذكورة في آخر ثلاث آيات، حيث استهلّت

(١) «أردل»: من «ردل» بمعنى الحقارة وعدم المرغوبية؛ والمقصود من «أردل العمر»: السنين المتقدمة جداً من عمر الإنسان حيث الضعف والنسيان، ولا يستطيع تأمين احتياجاته الأولية، ولهذا سماها القرآن بأردل العمر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥

البحث بنظام الحياة والموت، ثم التفاوت في الأرزاق والإستعدادات الكاشف لنظام (تنوع الحياة) لتنتهي بالآية مورد البحث، حيث النظر إلى نظام تكثير النسل البشرى و ...

الأرزاق الطيبة. وتقول الآية: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا» لتكون سكناً لأرواحكم وأجسادكم وسبباً لبقاء النسل البشرى.

ولهذا تقول وبلافاصلة: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيِّنَ وَحَفْدَةً».

«الحفدة»: بمعنى (حافد) وهى فى الأصل بمعنى الإنسان الذى يعمل بسرعة ونشاط دون انتظار أجر وجزاء، أمّا فى هذه الآية فالمقصود منها أولاد الأولاد.

ثم يقول القرآن الكريم: «وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ».

وبعد كل العرض القرآني لآثار وعظمه قدرة الله، ومع كل ما أفاض على البشرية من نعم، نرى المشركين بالرغم من مشاهدتهم لكل ما أعطاهم مولاهم الحق، يذهبون إلى الأصنام ويتركون السبيل التي توصلهم إلى جاده الحق «أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ».

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٧٣) فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧٤)

تواصل هاتان الآيتان بحوث التوحيد السابقة، وتشير إلى موضوع الشرك، وتقول بلهجة شديدة ملؤها اللوم والتوبيخ: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا».

وليس لا يملك شيئاً فقط، بل «وَلَا يَسْتَطِيعُونَ» أن يخلقوا شيئاً.

وهذه إشارة إلى المشركين بأن لا أمل لكم في عبادتكم للأصنام.

ثم تقول الآية التالية كنتيجة لما قبلها: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ». وذلك «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

إن عبارة «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ» تشير إلى منطق المشركين في عصر الجاهلية (ولا يخلو عصرنا الحاضر من أشباه اولئك المشركين) حيث كانوا يقولون: إننا نعبد الأصنام لأننا لا نمتلك الأهلية لعبادة الله، فنعبدها لتقربنا إلى الله! وإن الله مثل ملك عظيم لا يصل إليه إلا الوزراء والخواص، وما على عوام الناس إلا أن تتقرب للحاشية والخواص لتصل إلى خدمة الله!

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦

ولذا يجيبهم القرآن الكريم قائلاً: «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ» التي هي من صنع أفكاركم المحدودة ومن صنع موجودات (ممكئة الوجود) ومليئة بالنواقص.

فالله الذي دعاكم لأن تدعوه وتناجوه، وفتح لكم أبواب دعائه ليل نهار، لا ينبغي أن تشبهوه بجبار مستكبر لا يتمكن أى أحد من الوصول إليه ودخول قصره إلا لبعض الخواص «فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ».

ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسِينًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٦) وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمَحٍ الْبَصِيرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧)

مثالان للمؤمن والكافر: ضمن التعقيب على الآيات السابقة التي تحدثت عن: الإيمان، الكفر، المؤمنين، الكافرين والمشركين، تشخص الآيات مورد البحث حال المجموعتين (المؤمنين والكافرين) بضرب مثلين حيين وواضحين.

يشبه المثال الأول المشركين بعبد مملوك لا يستطيع القيام بأية خدمة لمولاه، ويشبه المؤمنين بإنسان غني، يستفيد الجميع من إمكانياته... «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ».

أما ما يقابل ذلك فالإنسان المؤمن الذي يتمتع بأنواع المواهب والرزق الحسن: «وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسِينًا» والإنسان الحر مع ما له من إمكانيات واسعة «وَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا». فاحكموا: «هَلْ يَسْتَوُونَ».

قطعاً، لا... فإذن: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» الذي يكون عبده حر وقادر ومنفق، وليس الأصنام التي يكون عبادهما أسرى وعديمو القدرة ومحددون «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

ثم يضرب مثلاً آخر لعبدة الأصنام والمؤمنين والصادقين، فيشبه الأول بالعبد الأبكم الذي لا يقدر على شيء، ويشبه الآخر بإنسان حر يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧

«وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ.. ولهذا ..

«أَيْنَمَا يُوَجِّهُهُ لآيَاتٍ بِخَيْرٍ». وعلى هذا فيكون له أربع صفات سلبية:

- أبكم (لا ينطق ولا يسمع ولا يبصر منذ الولادة).

- وعاجز لا يقدر على شيء.

- وكل على مولا.

- وأينما يوجهه لا يأت بخير.

كما رأينا من ربط القرآن في بحوثه المتعلقة بالتوحيد ومحاربة الشرك مع بحث المعاد ومحكمة القيامة الكبرى، نراه هنا يتناول

الإجابة على إشكالات المشركين فيما يخص المعاد، فيقول لهم: «لِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

ثم يضيف قائلاً: «وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ».

فالعبارتان إشارة حية لقدرة الله عز وجل المطلقة، وبخصوص مسألتى المعاد والقيامة، ولهذا يقول الباري في ذيل الآية: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى

كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَمَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٨) أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ

مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٧٩) وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ

جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَتَانَا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٨٠) وَاللَّهُ جَعَلَ

لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ

لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨١) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٨٢) يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ (٨٣)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨

أنواع النعم المادية والمعنوية: يعود القرآن الكريم مرّة اخرى بعرض جملة اخرى من النعم الإلهية كدرس في التوحيد ومعرفة الله،

وأول ما يشير في هذه الآيات المباركات إلى نعمة العلم والمعرفة ووسائل تحصيله ... ويقول: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَمَا

تَعْلَمُونَ شَيْئًا». فمن الطبيعي أنكم في ذلك المحيط المحدود المظلم تجهلون كل شيء، ولكن عندما تنتقلون إلى هذا العالم فليس من

الحكمة أن تستمروا على حالة الجهل، ولهذا فقد زودكم الباري سبحانه بوسائل إدراك الحقائق ومعرفة الموجودات «وَجَعَلَ لَكُمْ

السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ». لكي يتحرك حس الشكر للمنع في أعماقكم من خلال إدراككم لهذه النعم الربانية الجليلة «لَعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ».

وتستمر الآية التالية في بيان أسرار عظمة الله عز وجل في علم الوجود، وتقول: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ».

وبما أن الأجسام تنجذب إلى الأرض طبيعياً فقد وصف القرآن الكريم حركة الطيور في الهواء بالتسخير.

ويضيف قائلاً: «مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ».

صحيح أن نعمة أمور مجتمعة تعطى للطيور إمكانيه التحليق وال الطيران، مثل: الخاصية الطبيعية للأجنحة، قدره عضلات الطيور، هيكل

الطير بالإضافة إلى خواص الهواء الملائمة ... ولكن، من الذي خلق هذه الهيئه وتلك الخواص؟

وفي نهاية الآية، يأتي قوله عز من قائل: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». أي: إنهم ينظرون إلى هذه الامور بعين باصرة وأذن سمعية

ويتفكرون فيما يرون ويسمعون، وبذلك يقوى إيمانهم ويرسخ أكثر فأكثر.

وتستمر الآيات في الإشارة إلى النعم الإلهية حتى نصل إلى الآية الثالثة (مورد البحث) لتقول: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا».

وحقاً إن هذه النعمة المباركة من أهم النعم، فلولاها لم يمكن التمتع بغيرها.

«البيوت»: جمع بيت، مأخوذ من «البيتوتة» وهي في الأصل بمعنى التوقف ليلاً، واطلقت كلمة «بيت» على الحجرة أو الدار لحصول الاستفادة منهما للسكن ليلاً.

وبعد أن تطرّق القرآن الكريم إلى ذكر البيوت الثابتة عرّج على ذكر البيوت المتنقلة فقال: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا».

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٣٩

وهي من الخفة بحيث «تَسْتَخْفُونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ أَي: رحيلكم - وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ».

بل وجعل لكم: «وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ».

فاستعمل المصطلحين «أَثَاثًا وَمَتَاعًا» على التوالي يمكن أن يشير إلى هذا المعنى: إنكم تستطيعون أن تهينوا من أصوافها وأوبارها وأشعارها وسائل بيتية كثيرة تتمتعون بها.

الظلال، المساكن، الأغطية: ويشير القرآن الكريم إلى نعمة أخرى بقوله: «وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلًّا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا».

«الأكنان»: جمع (كن) بمعنى وسائل التغطية والحفظ، ولهذا فقد اطلقت على المغارات وأماكن الإختفاء وفي الجبال.

وكأن ذكر نعمة «الظلال» و «أكنان الجبال» بعد ذكر نعمة «المسكن» و «الخيام» في الآية السابقة، للإشارة إلى أن طوائف الناس لا تخرج عن إحدى ثلاثة... واحدة تعيش في المدن والقرى وتستفيد من بناء البيوت لسكنائها، وأخرى تعيش الترحال والتنقل فتحمل معها الخيام، وثالثة أولئك الذين يسافرون وليس معهم مستلزمات المأوى... ولم يترك الباري جلّ شأنه المجموعة الثالثة تعيش حالة الحيرة من أمرها، بل في طريقهم الظلال والمغارات لتقيهم. وبعد ذكر القرآن الكريم لنعمة الظلال الطبيعية والصناعية، ينتقل لذكر ملابس الإنسان فيقول: «وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَائِلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ»، وثمة ألبسة أخرى تستعمل لحفظ أبدانكم في الحروب «وَسَرَائِلَ تَقِيكُمْ بِأَسْكُمْ».

«السرايل»: جمع «سربال» بمعنى الثوب من أي جنس كان.

فإن فائدة الألبسة لا تنحصر في حفظ الإنسان من الحر والبرد، بل تلبس الإنسان ثوب الكرامة وتقي بدنه من الأخطار الموجهة إليه.

وفي ذيل الآية يقول القرآن مذكراً: «كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ». أي:

تطيعون أمره.

وطبيعي جداً أن يفكر الإنسان بخالق النعم، خصوصاً عند تتبّعه للنعم المختلفة التي تحيط بوجوده.

وبعد ذكر هذه النعم الجليلة، يقول عزّ وجلّ أنهم لو عرضوا ولم يسلموا للحق فلا تحزن ولا تقلق، لأنّ وظيفتك ابلاغهم: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ الْمُبِينُ».

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٤٠

والمراد من هذا المقطع القرآني هو مواساة النبي صلى الله عليه وآله وتسليته.

وتكميلاً للحديث... يضيف القرآن الكريم القول: «يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا».

فعلمه كفرهم ليست في عدم معرفتهم بالنعم الإلهية وإنما بحملهم تلك الصفات القبيحة التي تمنعهم من الإيمان كالتعصب الأعمى والعناد في معاداة الحق.

ولعل ما جاء في آخر الآية «وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ» إشارة لهذه الأسباب المذكورة.

إن أكثرية الكفار هم من أهل التعصب والعناد، والذين كفروا نتيجة جهلهم أو غفلتهم، فهم القلة قياساً إلى أولئك.

وَيَوْمَ نَبَعْتُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفِّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ

لَكَادِبُونَ (٨٦) وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧) الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ (٨٨) وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ (٨٩)

عندما تغلق الأبواب أمام المجرمين: بعد أن عرض القرآن الكريم في الآيات السابقة جحود منكري الحق وعدم اعترافهم بالنعم الإلهية، يتطرق في هذه الآيات إلى جانب من العقاب الإلهي الشديد الذي ينتظر اولئك في عالم الآخرة، ليتبه الغافل من سباته، فعسى أن يعيد النظر في مواقفه المنحرفة قبل فوات الأوان، فيقول أولاً: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا».

وبخصوص تلك المحكمة، تأتي الآية لتقول: «ثُمَّ لَأَيُّودُنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا».

وهل من الممكن أن لا يأذن الله للمجرمين في الدفاع عن أنفسهم؟

نعم، وذلك لعدم الحاجة للسان في ذلك اليوم العظيم، لأن الجوارح من رجل وأذن وعين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١

وكذلك الجلد، بل وحتى الأرض التي أطاع الإنسان عليها أو عصى، كلها ستشهد عليه، بل ويزاد على عدم السماح لهم بالكلام ب «وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ». لأن هناك محل مواجهته نتائج الأعمال وليس يوم العمل والإصلاح.

وتشرح الآية التالية حال الظالمين بعد انتهاء مرحلة حسابهم ودخولهم في العذاب، وكيف أنهم يطلبون تخفيف شدة العذاب تارةً، ويطلبون إمهالهم مدةً تارةً أخرى، فتقول:

«وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

وفي الآية التالية يستمر الحديث عن عاقبة المشركين، وكيف أنهم سيحشرون في جهنم مع ما أشركوا من معبوداتهم الحجرية والبشرية، فتقول الآية المباركة واصفةً حالهم: «وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ»، فهذه المعبودات هي التي وسوست لنا للوقوع في درك العمل القبيح، وهي شريكنا في الجرم أيضاً، فارفع عنا بعض العذاب واجعله لها.

وعندها ... تبدأ تلك الأصنام بالتكلم (بإذن الله): «فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَادِبُونَ»، فلم تكن شركاء لله، ومهما وسوسنا لكم فلا نستحق حمل بعض أوزاركم.

وتأتي الآية التالية لتبين أن الجميع بعد أن يقولوا كل ما عندهم، ويسمعوا جواب قولهم، سيتوجهون إلى حالة أخرى ... «وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلْمَ» مسلمين لله، مذعنين لعظمته جلّ وعلا، لأن غرور وتعصب الجاهلين قد ازيل برؤية الحق الذي لا مفر من تصديقه والإذعان إليه.

وفي هذه الأثناء، وحيث كل شيء جليّ كوضوح الشمس .. «وَضَلَّ عَنْهُمْ مِآ كَانُوا يَفْتَرُونَ». فتبطل كذبتهم بوجود شريك لله، وكذلك يبطل ادعاؤهم بشفاعه الأصنام لهم عند الله، عندما يلمسون عدم قدرة الأصنام للقيام بأي عمل، بل ويرونها محشورة معهم في نار جهنم.

وبهذا المقدار من الآيات كان الحديث منصباً حول انحراف المشركين الضالين وغرقهم في درك الشرك، دون أن يدعوا الآخرين إلى ما هم فيه .. وبعد ذلك ينتقل القرآن الكريم إلى الكافرين من الذين لم يكتفوا بأن يكونوا كافرين، وإنما كانوا يبذلون أقصى جهودهم لإضلال الآخرين! فيقول: «الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢

لأنهم كانوا عاملاً مؤثراً للفساد على الأرض وإضلال خلق الله بالصد عن سبيله.

والحديث المشهور يبين لنا هذا المعنى بوضوح: «من استن بسنة عدل فاتبع كان له أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم

شيء ومن استن سنة جور فاتبع كان عليه مثل وزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء».

وتتناول الآية أيضاً مسألة وجود الشهيد في كل أمة (والذي ذكر قبل آيات معدودة)، ولمزيد من التوضيح يقول القرآن الكريم: «وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِّنْ أَنفُسِهِمْ».

ومع أن عموم الحكم في هذه الآية يشمل المجتمع الإسلامي والنبى صلى الله عليه وآله إلا أن القرآن الكريم في مقام التأكيد قال: «وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ».

وبما أن جعل الشاهد فرع لوجود برنامج كامل وجامع للناس بما تتم فيه الحجج عليهم، ويصح فيه مفهوم النظارة والمراقبة، لذا يقول القرآن بعد ذلك مباشرة: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ».

إن الآية أعلاه ذكرت أربعة تعابير متلازمة حسب تسلسلها لتوضيح الهدف من نزول القرآن: ١- تبياناً لكل شيء. ٢- هدى. ٣- رحمة. ٤- بشرى للمسلمين.

إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٩٠)

أكمل برنامج إجتماعي: بعد أن ذكرت الآيات السابقة أن القرآن فيه تبيان لكل شيء، جاءت هذه الآية لتقدم نموذجاً من التعليمات الإسلامية في شأن المسائل الاجتماعية والإنسانية والأخلاقية، فتقول في البدء: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ».

فالعدل هو القانون الذي تدور حول محوره جميع أنظمة الوجود.

والمعنى الواقعي للعدل يتجسد في جعل كل شيء في مكانه المناسب، فالانحراف والإفراط والتفريط وتجاوز الحد والتعدى على حقوق الآخرين، ما هي إلا صور لخلاف أصل العدل.

ومع ما للعدالة من قدرة وجلال وتأثير عميق في كل الأوقات - الطبيعية والاستثنائية -

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣

في عملية بناء المجتمع السليم، إلا أنها ليست العامل الوحيد الذي يقوم بهذه المهمة، ولذلك جاء الأمر ب «الإحسان» بعد «العدل» مباشرة ومن غير فاصلة. في نهج البلاغة عن علي عليه السلام أنه قال: «العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل».

وبعد ذكر القرآن الكريم للأصول الإيجابية الثلاثة يتطرق للأصول المقابلة لها (السلبية) فيقول: «وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ».

إن «الفحشاء»: إشارة إلى الذنوب الخفية؛ و «المنكر»: إشارة إلى الذنوب العلنية؛ و «البغي»: إشارة إلى كل تجاوز عن حق الإنسان، وظلم الآخرين والاستعلاء عليهم.

وفي آخر الآية المباركة يأتي التأكيد مجدداً على أهميته هذه الأصول الستة: «يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

فإحياء الأصول الثلاثة «العدل، والإحسان، وإيتاء ذى القربى» ومكافحة الانحرافات الثلاث «الفحشاء والمنكر، والبغي» على صعيد العالم كفيل بأن يجعل الدنيا عامرة بالخير، وهادئة من كل اضطراب، وخالية من أى سوء وفساد، وإذا روى عن ابن مسعود (الصحابي

المعروف) قوله: (هذه الآية أجمع آية في كتاب الله للخير والشر) فهو للسبب الذي ذكرناه.

وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعِيدَ تَوَكُّدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعِيدٍ قُوَّةً أَنْكَاثًا تَتَخَذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَظُوا أَيْمَانَهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ لَجْعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَكُنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: الآية الاولى نزلت في الذين بايعوا النبي صلى الله عليه وآله على الإسلام فقال

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤

سبحانه للمسلمين الذين بايعوه: لا- يحملنكم قلة المسلمين وكثرة المشركين على نقض البيعة فإن الله حافظكم. أى: اثبتوا على ما عاهدتم عليه الرسول وأكدتموه بالإيمان.

التفسير

الوفاء بالعهد دليل الإيمان: فى هذه الآيات قسماً آخر من تعاليم الإسلام المهمة (الوفاء بالعهد والإيمان). يقول أولاً: «وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ». ثم يضيف: «وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ».

إن معنى «عهد الله» هو: العهود التى يبرمها الناس مع الله تعالى (وبديهي أن العهد مع النبي عهد مع الله أيضاً)، وعليه فهو يشمل كل عهد إلهي وبيعه فى طريق الإيمان والجهاد وغير ذلك.

أما مسألة «الإيمان» (جمع يمين، أى: القسم) التى وردت فى الآية- والتى عرض فيها المفسرون آراء كثيرة- فلها معنى واسع، ويتضح ذلك عند ملاحظة مفهوم الجملة حيث إنه يشمل العهود التى يعقدها الإنسان مع الله عز وجل، بالإضافة إلى ما يستعمله من إيمان فى تعامله مع خلق الله.

وحيث إن الوفاء بالعهد أهم الاسس فى ثبات أى مجتمع كان، تواصل الآية التالية ذكره بأسلوب يتسم بنوع من اللوم والتوبيخ، فتقول: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا» (١).

والآية تشير إلى (رايطة) تلك المرأة التى عاشت فى قريش زمن الجاهلية، وكانت هى وعاملاتها يعملن من الصباح حتى منتصف النهار فى غزل ما عندهن من الصوف والشعر، وبعد أن ينتهين من عملهن تأمرهن بنقض ما غزلن، ولهذا عرفت بين قومها ب (الحمقاء).

ثم يضيف القرآن الكريم قائلاً: «تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ» (٢). أى: لا- تنقضوا عهودكم مع الله بسبب أن تلك المجموعة أكبر من هذه فتقعوا فى الخيانة والفساد. واعلموا: «إِنَّمَا يَنْبَلُوكُمْ اللَّهُ بِهِ».

(١) «أنكاث»: جمع (نكث) على وزن (قسط) بمعنى حلّ خيوط الصوف والشعر بعد برمها، وتطلق أيضاً على اللباس الذى يصنع من الصوف والشعر.

(٢) «الدخل»: (على وزن الدغل)، بمعنى الفساد والتقلب ومنها اخذ معنى (الداخل).

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥

وستتضح النتيجة فى الآخرة ليلاقى كل فرد جزاءه العادل: «وَلْيَبْيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ» من هذا الأمر وغيره. و الآية التالية تجيب على توهم، غالباً ما يطرق الأذهان عند الحديث عن الامتحان الإلهي والتأكيد على الالتزام بالعهد والوظائف، وخلاصته: هل أن الله لا يقدر على إجبار الناس جميعاً على قبول الحق؟ فتقول: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً».

«أمة واحدة» من حيث الإيمان والعمل على الحق بشكل إجباري، ولكن ذلك سوف لا يكون خطوة نحو التكامل والتسامي ولا فيه أفضلية للإنسان فى قبوله الحق، وعليه فقد جرت سُنَّةُ الله بترك الناس أحراراً ليسيروا على طريق الحق مختارين.

ولا تعنى هذه الحرية بأن الله سترك عباده ولا يعينهم فى سيرهم، وإنما بقدر ما يقدمون على السير والمجاهدة سيحصلون على التوفيق والهداية والسداد منه جل شأنه، حتى يصلوا لهدفهم، بينما يحرم السائرون على طريق الباطل من هذه النعمة الربانية، فتراهم كلما طال المقام بهم ازدادوا ضلالاً.

ولهذا يواصل القرآن الكريم القول ب: «وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ».

ولكن الهداية الإلهية أو الإضلال لا- تسلب المسؤولية عنكم، حيث إن الخطوات الاولى على عواتقكم، ولهذا يأتي النداء الرباني:

«وَلْتَسَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

وتشير هذه العبارة إلى نسبة أعمال البشر إلى أنفسهم، وتؤكد على تحميلهم مسؤولية تلك الأعمال، وتعتبر من القرائن الواضحة في تفسير مفهوم الهداية والإضلال الإلهيين وأن أياً منهما لا يستبطن صفة الإجبار أبداً. وقد بحثنا هذا الموضوع سابقاً (راجع تفسير الآية ٢٦ من سورة البقرة).

وتأكيداً على مسألة الوفاء بالعهد والثبات في الإيمان (باعتبار ذلك من العوامل المهمة في ثبات المجتمع) يقول القرآن: «وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ». أى: وسيلة للخداع والنفاق، لأن في ذلك خطرين كبيرين: الأول: «فَتَرَلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا».

الثاني: «وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» في هذه الدنيا «وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» في الآخرة.

من الآثار السلبية لنقض العهود والأيمان شياع سوء ظن الناس وتنفرهم من الدين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦

الحق، وتشنت الصفوف وفقدان الثقة حتى لا يرغب الناس في الإسلام، وإن عقدوا معكم عهداً فسوف لا يجدون أنفسهم ملزمين بالوفاء به، وهذا ما يؤدي لمساوى ومفاسد كثيرة، وبروز حالة التخلف في الحياة الدنيا.

وأما على صعيد الحياة الاخرى فإنه سيكون سبباً للعقاب والعذاب الإلهي.

وَلَمَّا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥) مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: إن رجلاً من حضر موت يقال له عبدان الأشرع قال: يا رسول الله، إن امرأ القيس الكندي جاورني في أرضي فاقتطعت من أرضي فذهب بها مني. فسأل رسول الله صلى الله عليه وآله امرأ القيس عنه، فقال: لا أدري ما يقول. فأمره أن يحلف، فقال عبدان: إنه فاجر لا يبالي أن يحلف، فقال: إن لم يكن لك شهود فخذ بيمينه. فلما قام ليحلف أنظره فانصرفا فنزل قوله: «وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ» الآيتان. فلما قرأهما رسول الله صلى الله عليه وآله قال امرؤ القيس: أما ما عندي فينفد، وهو صادق فيما يقول. لقد اقتطعت أرضه ولم أدر كم هي، فليأخذ من أرضي ما شاء، ومثلها معها، بما أكلت من ثمرها. فنزل فيه «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا» الآية.

التفسير

جاءت الآية الاولى من هذه الآيات لتؤكد على قبح نقض العهد مرة اخرى ولتبين عذراً آخراً من أعداء نقض العهد الواهية، فحيث تطرقت الآيات السابقة إلى عذر الخوف من كثرة الأعداء تأتي هذه الآية لتطرح ما للمصلحة الشخصية (المادية) من أثر سلبي على حياة الإنسان. ولهذا تقول: «وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا».

أى: إن قيمة الوفاء بعهد الله لا تدانيها قيمة، ولو استلتمت زمام ملك الدنيا بأسرها فإنه

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧

لا يساوي قيمة لحظة واحدة من الوفاء بعهد الله. وتضيف الآية المباركة للدلالة على هذا الأمر: «إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

ويبين القرآن في الآية التالية سبب الأفضلية بقوله: «مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ».

ثم يضيف قائلاً: «وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ» - وعلى الأخص في الثبات على العهد والأيمان - «بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

إنّ التعبير «أحسن» دليل على أنّ أعمالهم الحسنه ليست بدرجه واحده، فبعضها حسن والبعض الآخر أحسن، ولكن الله تعالى يجزي الجميع بأحسن ما كانوا يعملون، وهو ذروه اللطف والرحمة الربانيه.

ثم يبين القرآن الكريم بعد ذلك - على صورة قانون عام - نتائج الأعمال الصالحه المرافقه للإيمان في هذه الدنيا وفي الآخرة، فيقول: «مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْتَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وعليه، فالمقياس هو الأعمال الصالحه الناتجه عن الإيمان بلا قيد أو شرط، من حيث السن أو الجنس أو المكانه الإجتماعيه أو ما شابه ذلك.

الحياة الطيبه، تعنى الحياة الطيبه بجميع جهاتها، وخاليه من التلوثات والظلم والخيانه والعداوه والذل وكل ألوان الآلام والهموم، وفيها ما يجعل حياة الإنسان صافيه كماء زلال.

فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨) إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)

تبيّن الآيات مورد البحث طريقه الاستفاده من القرآن وتطرق إلى كفيته تلاوته، فكثافه المحتوى القرآني لا تكفي وحدها لتوجيهنا، ولا بد من رفع الحجب المخيمه على وجودنا وإزالتها عن محيط فكرنا وروحنا، كي نتمكن من تحصيل هذا المحتوى الثر الغني.

ولهذا يقول القرآن: «فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

ولا يقصد من الإستعاذه الاكتفاء بالذكر، بل ينبغي لها أن تكون مقدمه لتحقيق وإيجاد الحاله الروحيه المطلوبه. حاله: التوجه إلى الله عزّ وجل، الإنفصال عن هوى النفس والعناد

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨

المانع للفهم والدرك الصحيح للإنسان، وعندما نقرأ آيه، نستعيد بالله من أن تستحوذ وساوس الشيطان علينا، وتحول بيننا وبين كلام الله جلّ وعلا.

وإن لم تتحقق للإنسان هذه الحاله فسيستعذر عليه إدراك الحقائق القرآنيه.

وتأتى الآيه التاليه لتكون دليلاً على ما جاء في الآيه التي قلبها: «إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ». «إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ»، لأنهم يعتبرون أمر الشيطان واجب الطاعه دون أمر الله.

فالآيه تؤكد حقيقه أنّ سلطه الشيطان ليست إجباريه على الإنسان، ولا يتمكن من التأثير على الإنسان من دون أن يمهد الإنسان السبيل لدخول الشيطان في نفسه، ويعطيه إجازة المرور من بوابه قلبه.

وَإِذَا يَدُلُّنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزَّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعَلْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ (١٠٣) إِنَّ الَّذِينَ لَمَّا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)

سبب التزلزل

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: كانوا يقولون: يسخر محمّد بأصحابه، يأمرهم اليوم بأمر وغداً يأمرهم بأمر، وإنه لكاذب، يأتيهم بما يقول من عند نفسه.

التفسير

تحدثت الآيات السابقه عن اسلوب الاستفاده من القرآن الكريم، وتتناول الآيات

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩

مورد البحث جوانب اخرى من المسائل المرتبطة بالقرآن، وتبتدىء ببعض الشبهات التي كانت عالقَةً في أذهان المشركين حول الآيات القرآنية المباركة، فتقول: «وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا نُنزِّلُ». فهذا التغيير والتبديل يخضع لحكمة الله، فهو أعلم بما ينزل، وكيف ينزل، ولكن المشركين لجهلهم «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ». إنَّ المشركين لم يدخل في تصوراتهم وأذهانهم أنَّ القرآن في صدد بناء مجتمع إنساني جديد يسوده التطوُّر والتقدم والحرية والمعنوية العالية.

فبديهى والحال هذه أن يطرأ على التغيير والتبديل تدرجاً مع ما يعيشونه، فغفلة المشركين عن هذه الحقائق وابتعادهم عن ظروف نزول القرآن، دفعهم للإعتقاد بأنَّ أقوال النبي صلى الله عليه وآله تحمل بين ثناياها التناقض أو الإفتراء على الله عزَّ وجل وإلا لعلموا أنَّ النسخ في الأحكام جزء من أوامر وآيات القرآن المنظمة على شكل برنامج تربوي دقيق لا- يمكن الوصول للهدف النهائي لنيل التكامل إلابه.

وتستمر الآية التالية بنفس الموضوع، وللتأكيد عليه تأمر النبي صلى الله عليه وآله أن: «قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ». «روح القدس» أو (الروح المقدسة) هو أمين الوحي الإلهي «جبرائيل الأمين» وبواسطته كانت الآيات القرآنية تنزل بأمر الله تعالى على النبي الأكرم صلى الله عليه وآله سواء الناسخ منها أو المنسوخ. فكل الآيات حق، وهدفها واحد يتركز في توجيه الإنسان ضمن التربية الربانية له، وظروف وتركيبه الإنسان استلزمت وجود الأحكام الناسخة والمنسوخة في العملية التربوية.

ولهذا، جاء في تكملة الآية المباركة: «لَيُبَيِّنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ».

يقول صاحب تفسير الميزان: إنَّ تعريف الآثار بتخصيص التثبيت بالمؤمنين والهدى والبشرى للمسلمين إنما هو لما بين الإيمان والإسلام من الفرق، فالإيمان للقلب، ونصيبه التثبيت في العلم والإذعان، والإسلام في ظاهر العمل ومرحلة الجوارح ونصيبها الإهتمام إلى واجب العمل والبشرى بأنَّ الغاية هي الجنة والسعادة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠

مختصر الامثل ج ٣، ص: ٩٩

وعلى أية حال، فلأجل تقوية الروح الإيمانية والسير في طريق الهدى والبشرى لابد من برامج قصيرة الأمد ومؤقتة، وبالتدرج يحل البرنامج النهائي الثابت محلها، وهو سبب وجود الناسخ والمنسوخ في الآيات الإلهية.

وبعد أن فنَّد القرآن شبهات المشركين يتطرق لذكر شبهة اخرى، أو على الأصح لذكر إفتراء آخر لمخالفى نبي الرحمة صلى الله عليه وآله فيقول: «وَلَقَدْ نَعَلْمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ».

فالقرآن أجابهم بقوة وأبطل كل ما كانوا يفترونه، بقوله: «لَسَانَ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ» (١).

فالآية المباركة دليل الإعجاز القرآني من حيث اللفظ والمضمون، فحلاوة القرآن وبلاغته وجاذبيته والتناسق الخاص في ألفاظه وعباراته ما يفوق قدرة أى إنسان.

وبلهجة المهذد المتوعّد يبين القرآن الكريم أنَّ حقيقة هذه الإتهامات والانحرافات ناشئة من عدم انطباق الإيمان في نفوس هؤلاء، فيقول: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللَّهِ لَيَهْدِيَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». لأنهم غير لائقين للهداية ولا يناسبهم إلا العذاب الإلهي، لما باتوا عليه من التعصب والعناد والعداء للحق.

وفي آخر آية يقول: «إِنَّ الْأَشْخَاصَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ هُمُ الْكَافِرُونَ: «إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَاذِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ». فأية أكاذيب أكبر من تلك التي تطلق على رجال الحق لتحويل بينهم وبين المتعطين للحقائق.

قبح الكذب في المنظور الإسلامي: الآية الأخيرة بحثت مسألة قبح الكذب بشكل عنيف، وقد جعلت الكاذبين بدرجته الكافرين

والمنكرين للآيات الإلهية.

ولأهمية هذا الموضوع فقد أعطت التعاليم الإسلامية إفاضات خاصة لمسألة الصدق والنهي عن الكذب.

وقد اعتبرت الأحاديث الشريفة الكذب مفتاح الذنوب.

فمن على عليه السلام أنه قال: «الصدق يهدى إلى البرِّ والبرِّ يدعو إلى الجنة» (٢).

(١) «يلحدون»: من الإلحاد بمعنى الانحراف عن الحق إلى الباطل، وقد يطلق على أى انحراف، والمراد هنا: إن الكاذبين يريدون نسبة

القرآن إلى إنسان ويدعون بأنه معلم النبي صلى الله عليه وآله.

«الإعجام» و «العجمة» لغة: بمعنى الإيهام، ويطلق الأعجمى على الذى فى بيانه لحن (نقص) سواء كان من العرب أو من غيرهم،

وباعتبار أن العرب ما كانوا يفهمون لغة غيرهم فقد استعملوا اسم (العجم) على غير العرب.

(٢) مشكاة الأنوار للطبرسى / ٣٠٠.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١

مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَ لَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صِدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ سَمِعِهِمْ وَ أَبْصَارِهِمْ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ (١٠٨) لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَ صَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٠) يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَ تُؤْفَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا عَمِلَتْ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١)

سبب الترويل

فى تفسير مجمع البيان: الآية الاولى نزلت فى جماعة اكرهوا وهم: عمار، وياسر أبوه وامه سمية، وصهيب، وبلال، وخباب، عذبوا وقتل أبو عمار وأمه، وأعطاهم عمار بلسانه ما أرادوا منه. ثم أخبر سبحانه بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله فقال قوم: كفر عمار. فقال صلى الله عليه وآله: «كلما، إن عماراً ملئ إيماناً من قرنه إلى قدمه واختلط الإيمان بلحمه ودمه». وجاء عمار إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وهو يبكى، فقال صلى الله عليه وآله: «ما وراءك؟» فقال: شرّ يا رسول الله، ما تركت حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير، فجعل رسول الله صلى الله عليه وآله يمسح عينيه ويقول: «إن عادوا لك فعد لهم بما قلت». فنزلت الآية.

التفسير

المرتدون عن الإسلام: تكمل هذه الآيات ما شرعت به الآيات السابقة من الحديث عن المشركين والكفار وما كانوا يقومون به، فتتناول الآيات فئة اخرى من الكفرة وهم المرتدون. حيث تقول الآية الاولى: «مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَ لَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صِدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

تشير الآية إلى نوعين من الذين كفروا بعد إيمانهم:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢

النوع الأول: هم الذين يقعون فى قبضة العدو الغاشم ويتحملون أذاه وتعذيبه، ولكنهم لا يصبرون تحت ضغط ما يلاقوه من أعداء

الإسلام، فيعلنون براءتهم من الإسلام وولاءهم للكفر، على أن ما يعلنوه لا يتعدى حركة اللسان، وأما قلوبهم فتبقى ممتلئة بالإيمان.

فهذا النوع يكون مشمولاً بالعفو الإلهى بلا ريب، بل لم يصدر منهم ذنب، لأنهم قد مارسوا التقيّة التى أحلها الإسلام لحفظ النفس وحفظ الطاقات للاستفادة منها فى طريق خدمة دين الله عزّ وجل.

النوع الثانى: هم الذين يفتحون للكفر أبواب قلوبهم حقيقة، ويغيرون مسيرتهم ويتحلون عن إيمانهم، فهؤلاء يشملهم غضب الله عزّ

وجل وعذابه العظيم.

وتتطرق الآية التالية إلى أسباب ارتداد هؤلاء، فتقول: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» الذين يصرون على كفرهم وعنادهم.

وخلاصة المقال: حين أسلم هؤلاء تضررت مصالحهم المادية وتعرضت للخطر المؤقت، فندموا على إسلامهم لشدة حُبهم لدينهم، وعادوا خاسئين إلى كفرهم.

وبديهى أن من لا يرغب في الإيمان ولا يسمح له بالدخول إلى أعماق نفسه، لا تشمله الهداية الإلهية.

وتأتى الآية الاخرى لتبين سبب عدم هدايتهم، فتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ طَغَىٰ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ» بحيث إنهم حرموا من نعمة الرؤية والسمع وإدراك الحقائق: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ».

إن ارتكاب الذنوب وفعل القبائح يترك أثره السلبي على إدراك الإنسان للحقائق، وتغلق أبواب روجه من تقبل أية حقيقة.

ثم تعرض الآية التالية عاقبه أمرهم، فتقول: «لَا جَزَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ».

وهل هناك من هو أتعس حالاً من هذا الإنسان الذى خسر جميع طاقاته وإمكاناته لنيل السعادة الدائمة بإتباعه هوى النفس.

وبعد ذكر الفيتين السابقتين، أى الذين يتلفظون بكلمات الكفر وقلوبهم ملأى بالإيمان، والذين ينقلبون إلى الكفر مرة اخرى بكامل اختيارهم ورغبتهم، فبعد ذلك تتطرق الآية التالية إلى فئة ثالثة وهم البسطاء المخدوعون فى دينهم، فتقول: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِن بَعْدِ مَا قُتِلُوا تُمْ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ».

فالأية دليل واضح على قبول توبة المرتد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣

وتأتى الآية الأخيرة لتقدم تذكيراً عاماً بقولها: «يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا» لتنقذها من العقاب والعذاب. ولكن ... لا فائدة من كل ذلك ... «وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ».

وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَزِيَّةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَّرَتْ بِأَنعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣) فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤)

الذين كفروا فأصابهم العذاب: قلنا مراراً: إن هذه السورة هي سورة النعم، النعم المادية والمعنوية وعلى كافة الأصعدة، وقد مر ذكر ذلك فى آيات متعددة من هذه السورة المباركة، وتصور لنا الآيات أعلاه عاقبة الكفر بالنعم الإلهية على شكل مثل واقعى.

ويتبدأ التصوير القرآنى بضرب مثل لمن لم يشكر نعمة الله عليه: «وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَزِيَّةً كَانَتْ ءَامِنَةً» لا تضطر إلى هجرة إجبارية، بل تعيش فى أمن وأمان (مطمئنة) ومضافاً إلى ذلك «يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ».

ولكن حالها قد تبدل فى النهاية «فَكَفَّرَتْ بِأَنعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ».

وإضافة لاستكمال نعم الله المادية عليهم، فقد أضاف لهم من النعم المعنوية ما يستقر به حالهم فى الدنيا، ويدام لهم ذلك فى الآخرة، فبعث بين ظهرانيهم رسل وأنبياء وأرسلت إليهم التعاليم السماوية «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ».

فكانت النتيجة أن: «فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ».

وإنكم حين تطلعون على هذه النماذج الواقعية من الامم السابقة، فاعتبروا بها ولا تنهجوا طريق اولئك الغافلين الظالمين من الكافرين بأنعم الله «فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ».

يحتمل حدثت هذه القصة لجمع من بنى إسرائيل فى منطقة ما، وأنهم ابتلوا بالقحط والخوف على أثر كفرانهم بنعم الله.

ومما يؤيد ذلك ما روى - في العياشي - عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إن قوماً كان في بني

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤

إسرائيل يؤتى لهم من طعامهم حتى جعلوا منه تماثيل بمدن كانت في بلادهم يستنجون بها فلم يزل الله بهم حتى اضطروا إلى التماثيل يبيعونها ويأكلون منها وهو قول الله: ضرب الله مثلاً.

وثمة احتمال آخر وهو أن الآية تشير إلى قوم «سبأ» الذين عاشوا في اليمن، وقد ذكر القرآن الكريم قصتهم في الآيات (١٥-١٩) من سورة سبأ، وكيف أنهم كانوا يعيشون على أرض ملؤها الثمار والخيرات في أمن وسلام، حتى أصابهم الغرور والطغيان والإستكبار وكفران النعم الإلهية، فأهلكهم الله وشتت جمعهم وجعلهم عبرة للآخرين.

فالتعبير إشارة إلى أن القحط والخوف كانا من الشدة وكأنهما لباس قد أحاط بأبدانهم من كل الجهات، وأبدانهم في تماس معه. وعرض الحادثة ما هو إلتئيبه للناس ولكل الأمم الغارقة بالنعم الإلهية، على أن الإسراف والتبذير وتضييع النعم لا ينجو من عقوبة وغرامة ثقيلة الوقع.

وهو تنبيه أيضاً للذين يرمون نصف غذائهم (الزائد عن الحاجة) في أكياس الأوساخ دائماً.

وهو تنبيه للذين يجمعون المواد الغذائية في بيوتهم لاستعمالهم الخاص، ويملؤون مخازنهم إنتظاراً لارتفاع سعرها في الأسواق حتى يفسد ويذهب هباءً من غير أن يستفيدوا من بيعها بسعر مناسب قبل فسادها.

نعم، فلا يخلو أى عمل مما ذكر من عقوبة إلهية، وأقل ما يعاقبون به هو سلب تلك النعم عنهم.

إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٥) وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتُرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوَاءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١١٩)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥

لا يفلح الكاذبون: بعد أن تحدثت الآيات السابقة عن النعم الإلهية ومسألة شكر النعمة، تأتي الآيات أعلاه لتتحدث عن آخر حلقات الموضوع وتطرح مسألة المحرمات الواقعية وغير الواقعية لتفصل بين الدين الحق وبين البدع التي احدثت في دين الله، وتشرع بالقول: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» (١).

إن تلوث هذه المواد الثلاث بات اليوم ليس خافياً على أحد، فالميتة مصدر لأنواع الجراثيم، والدم من أكثر مكونات البدن تقبلاً للتلوث بالجراثيم، وأما لحم الخنزير فيعتبر سبباً للإصابة بالكثير من الأمراض الخطرة.

أما فلسفة تحريم ما يذبح لغير الله فليست صحيحة، بل هي أخلاقية ومعنوية.

فمن جهة يكون التحريم حرباً على الشرك وعبادة الأصنام، ومن جهة أخرى يكون دعوة إلى خالق هذه النعم.

ويستفاد من المحتوى العام للآية والآيات التالية أن الإسلام يوصى بالإعتدال في تناول اللحوم، فلا يكون المسلم كالذين حرّموا على أنفسهم تناول اللحم واكتفوا بالأغذية النباتية، ولا كالذين أحلّوا لأنفسهم أكل اللحم أياً كانت كاهل الجاهلية والبعض ممن يدعى التمدن في عصرنا الحاضر، ممن يجيزون أكل كل لحم (كالسحالي والسرطان وأنواع الديدان).

وفي نهاية الآية سياقاً مع الأسلوب القرآني، ذكرت الحالات والموارد الاستثنائية، يقول: «فَمَنْ اضْطُرَّ». كأن يكون في صحراء ولا يملك غذاء؛ «غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

«باغ» أو الباغى: (من البغى) بمعنى «الطلب» ويأتى هنا بمعنى طلب اللذة أو تحليل ما حرّم الله. و«عاد» أو العادى: (من العدو) أى «التجاوز» ويأتى هنا بمعنى أكل المضطر لأكثر من حد الضرورة.

وتأتى الآية التالية لتطرح موضوع تحريم المشركين لبعض اللحوم بلا سبب أو دليل، والذي تطرق القرآن إليه سابقاً بشكل غير مباشر، فتأتى الآية لتطرحه صراحة حيث

(١) «اهل»: من الإهلال، مأخوذ من الهلال، بمعنى إعلاء الصوت عند رؤية الهلال، وباعتبار أن المشركين كانوا إذا ذبحوا حيواناتهم للأصنام صرخوا عالياً بأسماء أصنامهم، فقد عبّر عنه ب «اهل».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦

تقول: «وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتِكُمُ الْكُذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ لَتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ». أى: إن ما جئتم به ليس إلا كذبه صريحة أطلقتها ألسنتكم فى تحليلكم أشياء بحسب ما تهوى أنفسكم، وتحريمكم لأخرى! (إشارة إلى الأنعام التى حرّمها البعض على نفسه، والبعض الآخر حلّها لنفسه بعد أن جعل قسماً منها لأصنامها).

فهل أعطاكم الله حقّ سنّ القوانين؟ أم أنّ أفكاركم المنحرفة وتقاليدكم العمياء هى التى دفعتكم لإحداث هذه البدع؟ ... أو ليس هذا كذباً وافتراءً على الله؟

ويحذّر القرآن فى آخر الآية بقوله: «إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ».

لأنّ من مسببات الشقاء الأساسية الكذب والإفراء على أى إنسان، فكيف به إذا كان على الله عزّ وجلّ؟ فلا أقلّ والحال هذه من مضاعفة آثاره السيئة.

وتوضّح الآية التالية ذلك الخسران، فتقول: «مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

ويمكن أن تكون «مَتَاعٌ قَلِيلٌ» إشارة إلى أجنّة الحيوانات الميتة التى كانوا يحللونها لأنفسهم ويأكلون لحومها.

ويطرح السؤال التالى: لماذا حرّمت على اليهود محرّمات إضافية؟

الآية التالية كأنها جواب على السؤال المطروح، حيث تقول: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ».

وهو إشارة إلى ما ذكر فى الآية (١٤٦) من سورة الأنعام: «وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِذَا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَعْثِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

وحقيقته هذه المحرّمات الإضافية العقاب والجزاء لليهود جرّاء ظلمهم، ولذلك يقول القرآن الكريم فى آخر الآيات مورد البحث: «وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

وفى آخر آية من الآيات مورد البحث، وتمشياً مع الاسلوب القرآنى، يبدأ القرآن بفتح أبواب التوبة أمام المخدوعين من الناس والنادمين من ضلالهم، فيقول: «ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا الشُّوَاءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ».

وفى هذه الآية ملاحظتان:

أولاً: اعتبرت علّة ارتكاب الذنب «الجهالة» والجاهل المذنب يعود إلى طريق الحق بعد ارتفاع حالة الجهل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧

ثانياً: إنّ الآية لا تحدّد الموضوع بالتوبة القلبية والندم، بل تؤكّد على أثر التوبة من الناحية العملية وتعتبر الإصلاح مكتملاً للتوبة، لتبطل الزعم القائل بإمكان مسح آلاف الذنوب بتلفظ «أستغفر الله».

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١) وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢) ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣) إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٢٤)

كان إبراهيم لوحده أمية: كما قلنا مراراً بأن هذه السورة هي سورة النعم، وهدفها تحريك حس الشكر لدى الإنسان بشكل يدفعه لمعرفة خالق وواهب هذه النعم، والآيات تتحدث عن مصداق كامل للعبد الشكور لله، ألا وهو «إبراهيم» بطل التوحيد، وأول قدوة للمسلمين عامة وللعرب خاصة، والآيات تشير إلى خمس من الصفات الحميدة التي كان يتحلّى بها إبراهيم عليه السلام.

١- «إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً». إِنَّ «أُمَّةً» اسم مفعول يطلق على الذي تقتدى به الناس وتنصاع له. كان إبراهيم عليه السلام منبعاً لوجود أمة ولهذا أطلق القرآن عليه كلمة «أمة».

نعم فقد كان إبراهيم أمةً وكان إماماً عظيماً، وكان رجلاً صانع أمة، وكان منادياً بالتوحيد وسط بيئة اجتماعية خالية من أيّ موحد.

٢- صفته الثانية في هذه الآيات: أنه كان «قَانِتًا لِلَّهِ».

٣- وكان دائماً على الصراط المستقيم سائراً على طريق الله، طريق الحق «حَنِيفًا».

٤- «وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» بل كان نور الله يملأ كل حياته وفكره، ويشغل كل زوايا قلبه.

٥- وبعد كل هذه الصفات، فقد كان «شَاكِرًا لِنِعْمِهِ».

وبعد عرض الصفات الخمسة يبيّن القرآن الكريم النتائج المهمة لها، فيقول:

١- «اجْتَبَيْتَهُ» للنبوّة وإبلاغ دعوته.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨

٢- «وَهَدَيْتُهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، وحفظه من كل انحراف، لأن الهداية لا تأتي لأحد عبثاً، بل لابد من توفر الاستعداد والأهلية لذلك.

٣- «وَأَتَيْنَهُ فِي الدُّنْيَا حَسْبَةً». «الحسنة»: في معناها العام كل خير وإحسان، فتشمل منح مقام النبوّة، مروراً بالنعم المادية حتى نعمة الأولاد وما شابهها.

٤- «وَأَنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ». ومع أن إبراهيم كان على رأس الصالحين في الدنيا، فإنه سيكون منهم في الآخرة كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم، وهذه دلالة على عظمه مقام الصالحين بأن يحسب إبراهيم عليه السلام على ما له من مقام سام كأحدهم في دار الآخرة، ولم لا يكون ذلك وقد طلب إبراهيم عليه السلام ذلك من ربه حين قال: «رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ».

٥- وختمت عطايا الله عزّ وجل لإبراهيم عليه السلام لما ظهر منه من صفات متكاملة، بأن جعل دينه عامّاً وشاملاً لما ما سيأتي بعده من أزمان- وخصوصاً للمسلمين- ولم يجعل دينه مختصاً بعصر أهل زمانه، فقال الله عزّ وجل: «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا» (١).

ويأتي التأكيد مرّة أخرى: «وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

وبملاحظة الآيات السابقة يبدو لنا هذا السؤال: إن كان دين الإسلام هو نفس دين إبراهيم وأن المسلمين يتبعون سنن إبراهيم عليه السلام في كثير من المسائل ومنها إحترام يوم الجمعة، فلماذا اتخذ اليهود يوم السبت عيداً لهم بدلاً من الجمعة ويعطلون فيه أعمالهم؟ إن آخر آية من الآيات مورد البحث تجيب على السؤال المذكور حين تقول: «إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ». أي: إن السبت وما حرّم في السبت كان عقوبة لليهود، وقد اختلفوا فيه أيضاً، فمنهم من قبله ومنهم من أهمله.

وتقول بعض الروايات: أن موسى عليه السلام دعا قومه- بني اسرائيل- لاحترام يوم الجمعة وتعطيل أعمالهم فيه، وهو دين إبراهيم عليه السلام إلّا إنهم تعللوا، واختاروا يوم السبت، فجعله الله عطلة لهم ولكن بضيق وشدة، ولهذا لا ينبغي الإعتماد على تعطيل يوم السبت، لأنه إنّما كان استثنائياً وذا طابع جزائي، وأفضل دليل على هذا الأمر أن اليهود أنفسهم اختلفوا في يومهم

(١) «الحنيف»: بمعنى الذي يترك الانحراف ويتّجه إلى الاستقامة والصلاح. وبعبارة أخرى: يغضّ نظره عن الأديان والأوضاع المنحرفة ويتوجّه نحو صراط الله المستقيم، الدين الموافق للفرط، ولهذا يسمى الصراط المستقيم، فالتعبير بالحنيف يحمل بين طياته إشارة خفية

إلى أن التوحيد هو دين الفطرة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٩

المنتخب هذا، فبعض إحترمه وبعض آخر خالف ذلك وأدام العمل والكسب فيه حتى أصابهم عذاب الله. ويقول القرآن الكريم في آخر الآية: «وَإِنَّ رَبَّكَ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِلَا تِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (١٢٨)

عشره قواعد أخلاقية ... سلاح داعية الحق: حملت آيات السورة بين طياتها أحاديث كثيرة ومتنوعة، فقد تناولت المشركين واليهود وأصناف المخالفين بشكل عام، تارة بلهجة لينة واخرى بأسلوب تقريع وشدة، وخصوصاً الآيات السابقة لما لها من عمق وشدة أكثر مما سبقها من الآيات المباركات. أمراً الآيات أعلاه والتي تمثل خاتمة بحوث وأحاديث سورة النحل، فتبين أهم الأوامر الأخلاقية الأساسية التي ينبغي التحصن بها عند مواجهة المخالفين على أساس منطقي، كما وتبين كيفية العقاب والعفو واسلوب الصمود أمام مؤامراتهم وما شابه ذلك.

ويمكن تسمية ذلك بالأصول التكتيكية ومنهج المواجهة في الإسلام ضد المخالفين، كما وينبغي العمل به كقانون كلي شامل لكل زمان ومكان.

ويتلخص هذا البرنامج الرباني بعشرة اصول، تم ترتيبها وفقاً لتسلسل الآيات مورد البحث:

١- «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ»: فأول خطوة على طريق الدعوة إلى الحق هي التمكن من الاستدلال وفق المنطق السليم، أو النفوذ إلى داخل فكر الناس ومحاولة تحريك وإيقاظ عقولهم، كخطوة أولى في هذا الطريق.

٢- «وَالْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ»: وهي الخطوة الثانية في طريق الدعوة إلى الله، بالاستفادة من

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٠

عملية تحريك الوجدان الإنساني، وذلك لما للموعظة الحسنة من أثر دقيق وفاعل على عاطفة الإنسان وأحاسيسه، وتوجيه مختلف طبقات الناس نحو الحق.

٣- «وَاجِدِلْهُمْ بِلَا تِي هِيَ أَحْسَنُ»: الخطوة الثالثة تختص بتخليه أذهان الطرف المخالف من الشبهات العالقة فيه والأفكار المغلوطة ليكون مستعداً لتلقى الحق عند المناظرة.

وفي ذيل الآية الأولى، يقول القرآن: «إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

فالآية تشير إلى أن وظيفتكم هي الدعوة إلى طريق الحق بالطرق الثلاثة المتقدمة، أما مسألة من الذي سيهدى ومن سيبقى على ضلاله، فعلم ذلك عند الله وحده سبحانه.

٤- إنصب الحديث في الأصول الثلاثة حول البحث المنطقي والاسلوب العاطفي والمناقشة المعقولة مع المخالفين، وإذا حصلت المواجهة معهم ولم يتقبلوا الحق وراحوا يعتدون، فهنا يأتي الأصل الرابع: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ».

٥- «وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ». في تفسير العياشي: إن الآية نزلت يوم احد لما رأى رسول الله صلى الله عليه وآله ما صنع بحمزة بن عبد المطلب (فشقوا بطنه وأخذت هند بنت عتبة كبده فجعلت تلوكه وجدعوا أنفه وأذنه) قال: «اللهم لك الحمد وإليك المشتكى وأنت المستعان على ما أرى». ثم قال: «لئن ظفرت لأمثلن ولأمثلن». وعن ابن عباس قال قال رسول الله:

«لأمثلن بسبعين رجلاً منهم». - فأنزل الله: «وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ». قال فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أصبر أصبر».

ربما كانت تلك اللحظة من أشد لحظات حياة النبي صلى الله عليه وآله ولكنه تمالك زمام امور نفسه واختار الطريق الثاني، طريق العفو والصبر.

٦- «وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ». والصبر إنما يكون مؤثراً وفاعلاً إذا قصد به رضوانه تعالى ولا يلحظ فيه أى شىء دون ذلك.

٧- وإذا لم ينفع الصبر فى التبليغ والدعوة إلى الله، ولا- العفو والتسامح، فلا- ينبغى أن يحلّ اليأس فى قلب المؤمن أو يجزع، بل عليه الاستمرار فى التبليغ بسعه صدر وهدوء أعصاب أكثر، ولهذا يقول القرآن الكريم فى الأصل السابع: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ».

٨- «وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ»: فمهما كانت دسائس العدو العنيد واسعة ودقيقه وخطرة فلا ينبغى لك ترك الميدان، لظنك أن قد وقعت فى زوايه ضيقة وحصار محكم، بل

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦١

لابد من التوكل على الله، وسوف تفشل كل الدسائس وتبطل مفعولها بقوة الإيمان والثبات والمثابرة والعقل والحكمة.

و آخر آية من سورة النحل تعرض الأمرين التاسع والعاشر حيث تقول: ٩- «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا»: التقوى فى جميع أبعادها وبمفهومها الواسع، ومنها: التقوى فى مواجهة المخالفين بمراعاة اصول الأخلاق الإسلامية عند المواجهة، فمع الأسير لابد من مراعاة اصول المعاملة الإسلامية، ومع المنحرف ينبغى مراعاة الإنصاف والأدب والتورع عن الكذب والإتهام، وفى ميدان القتال لابد من التعامل على ضوء التعليمات العسكرية وفق الموازين والضوابط الإسلامية، فمثلاً: ينبغى عدم الهجوم على العزل من الأعداء، وعدم التعرض للأطفال والنساء والعجزة، ولا التعرض للمواشى والمزارع لأجل إتلافها، ولا يقطع الماء على العدو... وخلاصة القول: تجب مراعاة اصول العدل مع العدو والصديق (وطبيعى أن تخرج بعض الموارد عن هذا الحكم إستثناءً وليس قاعدة).

١٠- «وَالَّذِينَ هُمْ مُّحْسِنُونَ». وإذا عمل بالإحسان فى محله المناسب، فإنه أفضل أسلوب للمواجهة، والتاريخ الإسلامى يرفدنا بعينات رائعة فى هذا المجال... منها: موقف معاملة النبي صلى الله عليه وآله مع مشركى مكة بعد الفتح.

وبنظرة تأملية معنئة إلى الأصول العشرة المذكورة، تتبين لنا جميع الخطوط الأصلية والفرعية لأسلوب مواجهة المخالفين، وأن هذه الاصول إنما احتوت كل الاسس المنطقية والعاطفية والنفسية والتكتيكية، وكل ما يؤدى للنفوذ إلى أعماق نفوس المخالفين للتأثير الايجابى فيها.

ولو عمل المسلمون وفق هذا البرنامج الشامل لساد الإسلام كل أرض المعمورة أو معظمها على أقل التقادير.

«نهاية تفسير سورة النحل»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٢

١٧ سورة الإسراء

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٣

أسماء السورة: بالرغم من أن الإسم المشهور لهذه السورة هو «بنى إسرائيل» إلا أن لها أسماء اخرى مثل «الإسراء» و «سبحان». ومن الواضح أن ثمة علاقة بين أى اسم من أسماء السورة وبين محتواها ومضمونها، فهى «بنى إسرائيل» لأن هناك قسماً مهماً فى بداية السورة ونهايتها يرتبط بالحديث عن بنى إسرائيل.

وإذا قلنا أنها سورة «الإسراء» فإن ذلك يعود إلى الآية الاولى فيها التى تتحدث عن إسراء (ومعراج) النبي الأكرم صلى الله عليه وآله. وأما تسميتها ب «سبحان» فإن ذلك يعود إلى الكلمة الاولى فى السورة المباركة.

محتوى السورة: هذه السورة مكية وفق القول المشهور بين المفسرين، لذا فإن محتوى السورة يوافق خصوصيات السور المكية.

وبالامكان فرز المحاور المهمة الآتية التى يدور حولها مضمون السورة:

- ١- الإشارة إلى أدلة النبوة الخاتمة وبراهينها، وفي مقدمتها معجزة القرآن وقضية المعراج.
 - ٢- ثمة بحوث في السورة ترتبط بقضية المعاد.
 - ٣- تتحدث السورة في بدايتها ونهايتها عن قسم من تاريخ بني إسرائيل الملىء بالأحداث. مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٤.
 - ٤- تتعرض السورة إلى حرية الاختيار لدى الإنسان وأن الإنسان غير مجبر في أعماله، وبالتالي فإن على الإنسان أن يتحمل مسؤوليته تلك الحرية من خلال تحمله لمسؤولية أعماله سواء كانت حسنة أو سيئة.
 - ٥- تبحث السورة قضية الحساب والكتاب في هذه الدنيا، لكي يعي الإنسان قضية الحساب والكتاب على أعماله وأقواله في اليوم الآخر.
 - ٦- تشير إلى الحقوق في المستويات المختلفة، خصوصاً فيما يتعلق بحقوق الأقرباء، وبالأخص منهم الأم والأب.
 - ٧- تتعرض السورة إلى حرمة «الإسراف»، و«التبذير»، و«البخل»، و«قتل الأبناء»، و«الزنا»، و«أكل مال اليتيم»، و«البخس في المكيال»، و«التكبر»، و«إرافة الدماء».
 - ٨- في السورة بحوث حول التوحيد ومعرفة الله تعالى.
 - ٩- تواجه السورة مواقف العناد والمكابرة إزاء الحق، وأن الذنوب تتحول إلى حجب تمنع الإنسان من رؤية الحق.
 - ١٠- تركّز السورة على أفضلية الإنسان على سائر الموجودات.
 - ١١- تؤكد السورة على تأثير القرآن الكريم في معالجة الأشكال المختلفة من الأمراض الأخلاقية والاجتماعية.
 - ١٢- تبحث السورة في المعجزة القرآنية وعدم تمكن الخصوم وعجزهم عن مواجهه هذه المعجزة.
 - ١٣- تحذّر السورة المؤمنين من وساوس الشيطان وإغوائه، وتنبههم إلى المسالك التي ينفذ من خلالها إلى شخصية المؤمن.
 - ١٤- تتعرض السورة إلى مجموعة مختلفة من القضايا والمفاهيم والتعاليم الأخلاقية.
 - ١٥- أخيراً تتعرض السورة إلى مقاطع من قصص الأنبياء عليهم السلام ليتسنى للإنسان استكناه الدروس والعبر من هذه القصص. في كل الأحوال تعكس سورة الإسراء في مضمونها ومحتواها العقائدي والأخلاقي والاجتماعي لوحه متكامله ومتناسقه لسمو وتكامل البشر في المجالات المختلفة.
- فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «من قرأ سورة بني إسرائيل في كل ليلة جمعه لم يمت حتى يدرك القائم ويكون من أصحابه».
- مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٥.
- وينبغي أن يلاحظ أن التلاوة ينبغي أن تقتن بالتفكر في معانيها والتأمل في مفاهيمها، وأن يعقب ذلك جميعاً العمل بها، وتحويلها إلى قواعد يسترشدها الإنسان المسلم في سلوكه.
- سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)
- معراج النبي صلى الله عليه وآله: الآية الأولى في سورة الإسراء تتحدث عن إسراء النبي صلى الله عليه وآله أي سفره ليلاً من المسجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى (في القدس الشريف). وقد كان هذا السفر «الإسراء» مقدمة لمعراجة صلى الله عليه وآله إلى السماء. وقد لوحظ في هذا السفر أنه تم في زمن قياسي حيث إنه لم يستغرق سوى ليلة واحدة بالنسبة إلى وسائل نقل ذلك الزمن ولهذا كان أمراً اعجازياً وخارقاً للعادة.
- السورة المباركة تبدأ بالقول: «سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ».
- وقد كان القصد من هذا السفر الليلي الإعجازي هو «لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا».

وبالرغم من أن الرسول صلى الله عليه وآله كان عارفاً بعظمة الله سبحانه، وكان عارفاً أيضاً بعظمة خلقه، لقد كان الهدف من هذا السفر الإعجازي أن تمتليء روح رسول الله صلى الله عليه وآله أكثر بدلائل العظمة الربانية، وآيات الله في السماوات، ولتجد روحه السامية في هذه الآيات زخماً إضافياً يوظفه صلى الله عليه وآله في هداية الناس إلى رب السماوات والأرض.

ثم حُتمت الآية بالقول: «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ». وهذه إشارة إلى أن الله تبارك وتعالى لم يختر رسوله ولم يصطفه لشرف الإسراء والمعراج، إلا بعد أن اختبر استعداده لهذا الشرف ولياقته لهذا المقام، فالله تبارك وتعالى سمع قول رسوله ورأى عمله وسلوكه فاصطفاه للمقام السامي الذي اختاره له في الإسراء والمعراج (١).

(١) من المشهور بين علماء الإسلام أن رسول الله صلى الله عليه وآله عندما كان في مكة أسرى به الله تبارك وتعالى بقدرته من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ومن هناك صعد به إلى السماء «المعراج» ليرى آثار العظمة الربانية وآيات الله الكبرى في فضاء السماوات، ثم عاد صلى الله عليه وآله في نفس الليلة إلى مكة المكرمة.

والمعروف أيضاً أن سفر الرسول صلى الله عليه وآله في الإسراء والمعراج قد تم بجسم رسول الله وروحه معاً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٦

إنّ تعبير «أسرى» في الآية يشير إلى وقوع السفر ليلاً. وبالرغم من أن كلمة «ليلاً» جاءت في الآية تأكيداً لكلمة «أسرى» إلا أنها تريد أن تبين أن سفر الرسول صلى الله عليه وآله قد تم في ليلة واحدة فقط على الرغم من أن المسافة بين المسجد الحرام وبيت المقدس تقدر بأكثر من مائة فرسخ، هذا السفر يقع في ليلة واحدة فقط.

وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلاً (٢) ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣) وَ قَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَ لَتَعْلُنَّ عُلُوقًا كَبِيرًا (٤) فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَ كَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا (٥) ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَ أَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَ بَيْنِينَ وَ جَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا (٦) إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَ إِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوءُوا وَ جُوهَكُمْ وَ لِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ لِيُبَيِّرُوا مَا عَلَوْا تَبِيرًا (٧) عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَ إِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَ جَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا (٨)

بعد أن أشارت الآية الأولى في السورة إلى معجزة إسرائ النبي صلى الله عليه وآله كشفت آيات السورة الأخرى عن موقف المشركين والمعارضين لمثل هذه الأحداث، وأبانت استنكارهم لها، وعنادهم إزاء الحق، في هذا الإتجاه انعطفت الآية الأولى - من الآيات مورد البحث - على قوم موسى، لتقول لرسول الله صلى الله عليه وآله: إن تاريخ النبوات واحد، وإن موقف المعاندين واحد أيضاً، وأنه ليس من الجديد أن يقف الشرك القرشي موقفه هذا منك، وبين يديك الآن تاريخ بني إسرائيل في موقفهم من موسى عليه السلام. تقول الآية أولاً: «وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ».

وصفه هذا الكتاب أنه: «وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ». والكتاب الذي تعنيه الآية هنا هو «التوراة» الذي نزل على موسى عليه السلام هدى لبني إسرائيل.

ثم تشير الآية إلى الهدف من بعثه الأنبياء بما فيهم موسى عليه السلام فتقول: «أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلاً».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٧

إنّ التوحيد في العمل هو واحدٌ من معالم أصل التوحيد، وهو علامة على التوحيد العقائدي. الآية تقول: لا تتكئ على أحد سوى الله. ومن أجل أن تحرك الآية التالية عواطف بني إسرائيل وتحفزهم لشكر النعم الإلهية عليهم، خصوصاً نعمه نزول الكتاب السماوي، فإنها تضع لهم نموذجاً للعبد الشكور فتقول:

«ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ». ولا تنسوا: «إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا».

والآية تخاطب بنى إسرائيل بأنهم أولاد من كان مع نوح، وعليهم أن يقتدوا ببرنامج أسلافهم وآبائهم فى الشكر لأنعم الله.

بعد هذه الإشارة تدخل الآيات إلى تاريخ بنى إسرائيل الملىء بالأحداث، فتقول:

«وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا».

والمقصود من «الأرض» فى الآية- بقرينة الآيات الاخرى- هى أرض فلسطين المقدسة التى يقع المسجد الأقصى المبارك فى ربوعها.

الآية التى تليها تفضّل ما أجملته من إشارة إلى الإفسادين الكبارين لبنى إسرائيل والحوادث التى تلى ذلك على أنها عقوبة إلهية

فتقول: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا» وإرتكبت ألوان الفساد والظلم والعدوان «بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَىٰ بَأْسٍ شَدِيدٍ».

وهؤلاء القوم المحاربون الشجعان يدخلون دياركم للبحث عنكم: «فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ». وهذا الأمر لا مناص منه: «وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا».

ثم تشير بعد ذلك إلى أنّ الألفاظ الإلهية ستعود لتشملكم، وسوف تعينكم فى النصر على أعدائكم، فتقول: «ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ

عَلَيْهِمْ وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا».

وهذه المنّة واللطف الإلهى بكم على أمل أن تعودوا إلى أنفسكم وتصلحوا أعمالكم وتركوا القبائح والذنوب لأنه: «إِنْ أَحْسَنْتُمْ

أَحْسَنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا».

إنّ الآية تعبّر عن سنّة ثابتة، إذ إنّ محصله ما يعمله الإنسان من سوء أو خير تعود لنفسه.

تقول الآية فى وصف المشهد الثانى أنه حين يحين الوعد الإلهى سوف تغطّيكم جحافل من المحاربين ويحقيق بكم البلاء إلى درجة

أنّ آثار الحزن والغم تظهر على وجوهكم: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيُسُوا وَجُوهَكُمْ». بل ويأخذون منكم حتى بيت المقدس: «وَلِيَدْخُلُوا

الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٨

وسوف لا يكتفون بذلك بل سيحتلون جميع بلادكم ويدمرونها عن آخرها:

«وَلِيُتَبَّرُوا مَا عَلُوا تَتَبِيرًا». وفى هذه الحالة فإنّ أبواب التوبة الإلهية مفتوحة: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ». «وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا». أى: إن عدتم

لنا بالتوبة فسوف نعود عليكم بالرحمة، وإن عدتم للإفساد عدنا عليكم بالعقوبة. وإذا كان هذا جزاؤكم فى الدنيا ففى الآخرة مصيركم

جهنم:

«وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا» (١). الإفسادان التاريخيان لبنى إسرائيل: تحدثت الآيات أعلاه عن فسادين اجتماعيين كبيرين لبنى

إسرائيل، يقود كل منهما إلى الطغيان والعلو، وقد لاحظنا أنّ الله سلط على بنى إسرائيل عقب كل فساد، رجالاً أشدّاء شجعاناً

يذيقونهم جزاء فسادهم وعلوهم وطغيانهم، هذا مع استثناء الجزء الأخرى الذى أعده الله لهم.

يستفاد من تاريخ بنى إسرائيل بأنّ أوّل من هجم على بيت المقدس وخزبه هو ملك بابل «نبوخذ نصر» حيث بقى الخراب ضارباً فيه

لسبعين عاماً، إلى أنّ نهض اليهود بعد ذلك لإعمارهم وبنائه، أمّا الهجوم الثانى الذى تعرّض له، فقد كان من قبل قيصر الروم

«أسيانوس» الذى أمر وزيره «طرطوز» بتخريب بيت المقدس وقتل بنى إسرائيل. وقد تمّ ذلك فى حدود مائة سنة قبل الميلاد.

وبذلك يحتمل أن تكون الحادثتان اللتان أشارت إليهما الآيات أعلاه هما نفس حادثتى «نبوخذ نصر» و «أسيانوس».

إنّ هذا القرآن يهتدى للتى هى أقوم وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا (٩) وَأَنَّ الَّذِينَ لَمَّا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ

أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٠) وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا (١١) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحْوَنًا آيَةَ اللَّيْلِ

وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُنَا تَفْصِيلًا (١٢)

(١) «حصير»: مشتقّه من «حصر» بمعنى الحبس، وكل شىء ليس له منفذ للخروج يطلق عليه اسم «حصير» ويقال للحصير العادية حصيراً

لأنّ خيوطها وموادها نسجت إلى بعضها البعض.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٦٩

أقصر الطرق للهداية والسعادة: الآيات السابقة تحدّثت عن بنى إسرائيل وكتابهم السماوى «التوراة» وكيف تخلّفوا عن برنامج الهداية الإلهية ليلقوا بعض جزائهم فى هذه الحياة الدنيا، والباقى مدّخر ليوم القيامة. وفى هذا المقطع من الآيات، إنتقل الحديث إلى القرآن الكريم، الكتاب السماوى للمسلمين، وآخر حلقة فى الكتب السماوية، فقال تعالى أولاً: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ». إن معنى الآية أعلاه، هو أن القرآن الكريم يمثّل أقصر وأفضل طرق الإستقامة والثبات والهداية.

وبهذا فإن الطريق القويم من وجهة نظر العقائد والأفكار.

العقيدة الأقوم من هذه الزاوية، هى التى توافق بين الإعتقاد والعمل، والظاهر والباطن، الفكر والمنهج، وتدفع الإنسان والجميع نحو الله. أمّا الأقوم من وجهة نظر القوانين الاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والسياسية، التى تسود المجتمع.

وأخيراً فإن المنهج الأقوم بالنسبة للنظم والسلطات الحاكمة، هو كل ما يدفعها إلى إقامة العدل، والدعوة إلى إشاعة الإنصاف، ومواجهة الظلم والظالمين.

بعد ذلك تشير الآيات إلى موقف الناس فى مقابل الكتاب الأقوم، هذا الموقف الذى ينقسم فيه الناس إلى فئتين، فالاولى يكون حالها كما يقول تعالى: «وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا».

أمّا الفئة الثانية فيكون مصيرها تبعاً لموقفها كما يقول تعالى: «وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَغْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا».

وإذا كان استخدام «بشارة» واضح هنا بالنسبة للمؤمنين، فهو بالنسبة لغيرهم من غير المؤمنين يقع على معنى السخرية والإستهزاء.

الآية التى بعدها تنساق فى نفس اتجاه البحث وتشير إلى احدى العلل المهمة لعدم الإيمان وتقول بأنّ عجلة الإنسان وتسرع وعدم اطلاعه على الامور وإحاطته بها تسوقه إلى أن يساوى فى جهده بين دعائه بالخير وطلبه، وبين دعائه بالشر وطلبه له.

تقول الآية: «وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ». لماذا؟: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا».

إنّ استعجال الإنسان واندفاعه فى سبيل تحصيل المنافع لنفسه، تقوده إلى النظرة السطحية للأمر بحيث إنّ لا يحيط الأشياء بالدراسة الشاملة مما يفوت عليه تشخيص

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٠

منفعته الواقعية، وهكذا بنتيجة تعجّله واندفاعه المضطرب يضيع عليه وجه الحقيقة، ويتغير مضمونها بنظره، فيقود نفسه باتجاه الشر والأعمال السيئة الضارة. وهكذا ينتهى الإنسان - نتيجة سوء تشخيصه واضطراب مقياسه فى رؤية الخير والحقيقة - إلى أن يطلب من الله الشر، تماماً كما يطلب منه الخير، وأن يسعى وراء الأعمال السيئة، كسعيه وراء الأعمال الحسنة، وهذا الإضطراب وفقدان الموازين هو أسوأ بلاء يصاب به الإنسان ويحول بينه وبين السعادة الحقيقية.

فى محاسن البرقى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله إنّما أهلك الناس العجلة، ولو أنّ الناس تثبتوا لم يهلك أحد».

طبعاً هناك باب فى الروايات الإسلامية بعنوان «تعجيل فعل الخير» فى الكافى عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إنّ الله يحبّ من الخير ما يعجل».

إنّ العجلة المذمومة هى التى تكون أثناء البحث والدراسة لمعرفة جوانب العمل المختلفة، أمّا السرعة والعجلة الممدوحتان فهما اللتان يكونان بعد اتخاذ قرار الشروع بالعمل، والتصميم على التنفيذ، لذلك نقرأ فى الروايات: «سارعوا فى عمل الخير». أى: بعد أن يثبت أنّ هذا العمل خير فلا مجال للتأخير والتسويق.

الآية التى بعدها تتحدث عن تعاقب الليل والنهار ومنافع هذا التعاقب، لتجعل من هذا الشاهد مثلاً على معرفة الله والتمعن بآياته، والمثال أيضاً يفيد معنى التأمل والهدوء ويدعو إلى محاذرة التعجل والتسرع. الآية تقول أولاً: «وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ». ثم: «فَمَحَوْنَا

ءَايَةَ الْبَيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً». ولنا في ذلك هدفان: الأول: «لَتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ» حيث تنطلقون نهاراً في الكسب والعمل والمعاش مستثمرين العطايا الإلهية، وتنعمون ليلاً بالراحة والهدوء والاستقرار. والهدف الثاني فهو: «وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّئِينَ وَالْحَسَابَ» لكي لا تبقى شبهة لأحد «وَكُلُّ شَيْءٍ فَضْلُهُ تَفْصِيلًا».

وَ كُلِّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَ نُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَ مَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا (١٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧١

لقد تحدّث الآيات القرآنية السابقة عن القضايا التي تتصل بالمعاد والحساب، لذلك فإن الآيات التي نبهنا الآن تتحدّث عن قضية «حساب الأعمال» التي يتعرض لها البشر، وكيفية ومراحل إنجاز ذلك في يوم المعاد والقيامة حيث يقول تعالى: «وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ». «الطائر»: يعنى الطير، ولكن الكلمة هنا تشير إلى معنى آخر كان سائداً ومعروفاً بين العرب؛ إذ كانوا يتفألون بواسطة الطير؛ وكانوا يعتمدون في ذلك على طبيعة الحركة التي يقوم بها الطير. فمثلاً إذا تحرّك الطير من الجهة اليمنى، فهم يعتبرون ذلك فألاً حسناً وجميلاً، أما إذا تحرّك الطير من اليسرى فإن ذلك في عرفهم وعاداتهم علامة الفأل السيء، أو ما يعرف بلغتهم بالتطير. إن القرآن يبيّن أن التفؤل الحسن والسيء أو الحظ النحس والجميل، إنّما هي أعمالكم لا غير، والتي ترجع عهدتها إليكم وتحملون على عاتقكم مسؤولياتها، وهذه الأعمال لا تنفصل عنكم في الدنيا ولا في الآخرة.

يقول القرآن بعد ذلك: «وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا».

والمقصود من «الكتاب» في الآية الكريمة هي صحيفة الأعمال لا غير، وهي نفس الصحيفة الموجودة في هذه الدنيا والتي تثبت فيها الأعمال، ولكنها هنا (في الدنيا) مخفية عنّا ومكتومة، بينما في الآخرة مكشوفة ومعروفة. في هذه اللحظة يقال للإنسان: «أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا».

يعنى أن المسألة- مسألة المصير- بدرجته من الوضوح والعلنية والإنكشاف، بحيث لا مجال لانكارها.

وفي تفسير العياشي عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله «أَقْرَأُ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ» قال: «يذكر العبد جميع ما عمل، وما كتب عليه، حتى كأنه فعله تلك الساعة، فلذلك قالوا يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها». الآية التي بعدها توضّح أربعة أحكام أساسية فيما يخص مسألة الحساب والجزاء على الأعمال، وهذه الأحكام هي:

١- أولاً تُقرر أن «مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ» حيث تعود النتيجة عليه.

٢- ثم تُقرر أيضاً أن «وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا».

وقرأنا نظير هذين الحكيمين في الآية السابعة من هذه السورة في قوله تعالى: «إِن

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٢

أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا». ٣- ثم تنتقل الآية لتقول: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ». «الوزر»: بمعنى الحمل الثقيل؛ وأيضاً تأتي بمعنى المسؤولية، لأنّ المسؤولية- أيضاً- حمل معنوي ثقيل على عاتق الإنسان.

طبعاً هذا القانون الكلي الذي تُقرره آية «وَلَمَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ» لا يتنافى مع ما جاء في الآية (٢٥) من سورة النحل التي تقول: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ» لأنّ هؤلاء بسبب تضليلهم للآخرين يكونون فاعلين للذنوب أيضاً، أو يُعتبرون بحكم الفاعلين له، ولذلك فهم في واقع الأمر يتحملون أوزارهم وذنوبهم.

٤- الحكم الرابع يتمثل في قوله تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا» يقوم ببيان التكليف وإلقاء الحجة.

وَ إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَوْمًا أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا (١٦) وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (١٧)

مراحل العقاب الإلهي: إن موضوع البحث في هذه الآيات يُكْمَل ما كُنّا بصدده بحثه في نهاية الآيات السابقة، ولكن بصورة أخرى، إذ تقول الآية الكريمة: «وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْبَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا» (١). إن الآيات التي كُنّا قبل قليل بصددها بحثها، كانت تتحدث عن أن العقاب الإلهي لا يمكن أن ينزل بساحة شخص أو مجموعة أو أمة، من دون أن تكون هناك حجة وبيان للتكليف من قبل الرسل والأنبياء عليهم السلام والآية التي نحن بصددها الآن، تتحدث عن نفس هذا الأصل ولكن بطريقة أخرى.

إن الله لا يعاقب أو يؤخذ أحداً بالعذاب، قبل أن يتم الحجة عليه، وقبل أن يتضح ويستبين تكليفه، ففي البداية يضع الله تعليماته وأوامره أمام الناس، فإذا التزموا بها وأطاعوا فستنالهم سعادة الدنيا والآخرة. أما إذا عصوا وخالفوا ولم يلتزموا بالأوامر والنواهي الربانية، فسيحقيق بهم العذاب، ويؤدى إلى هلاكهم.

(١) بالرغم من أن كلمة «قول» لها معنى واسع ولكنها هنا تعنى إعطاء الأمر بالعذاب.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٣

إضافه إلى ذلك، فإن التعبير في الآية الكريمة ينطوي على إشارة مهمة، هي أن أغلب المفاصل الاجتماعية تنبع من المترفين، أصحاب الأموال، البعيدين عن الله تعالى، والذين يعيشون حياة مترفة بعيدة عن الشرع مملوءة بالأهواء والمفاصل. الآية التي بعدها تشير إلى نماذج بهذا الخصوص، على أنها أصل عام، وقاعدة سارية، إذ تقول: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَفَقَّا لِهَذِهِ الْقَاعِدَةِ وَالسَّنَةِ، ثم تضيف بعد ذلك: «وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا». أى: إن ظلم وذنوب فرد أو مجموعة لا يمكنها أن تكون خافية على العين البصيرة التي لا تنام لرب العالمين.

أما لماذا أكدت الآية على القرون من بعد نوح عليه السلام؟ فقد يكون ذلك بسبب أن الحياة قبل نوح عليه السلام كانت حياة بسيطة، والاختلافات التي تقسم المجتمعات إلى مترف ومستضعف، كانت بسيطة وضيئة، لذلك فالعذاب الإلهي لم يشملهم بكثرة.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْطَلُهَا مِذْمُومًا مَدْحُورًا (١٨) وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا (١٩) كُلًّا نَمِذُّ هُوْلَاءِ وَهُوْلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا (٢٠) انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا (٢١)

طلّاب الدنيا والآخرة: لقد تحدّثت الآيات السابقة عن الذين عصوا أوامر الله تعالى، وكيفيه هلاكهم، لذا فإن هذه الآيات - التي نحن بصددها الآن - تشير إلى سبب التمرد على شريعته الله، والعصيان لأوامره، وهذا السبب هو حب الدنيا، إذ يقول تعالى: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْطَلُهَا مِذْمُومًا مَدْحُورًا».

«العاجلة»: تعنى النعم الزائلة، أو الحياة الزائلة.

والظريف في الآية، أنها لا تقول: إن من يسعى وراء الدنيا، ويجعلها كل همّه، يحصل على كل ما يريد، بل قيدت ذلك بشرطين هما: أولاً: سيحصل على جزء مما يريده؛ وأن هذا الجزء هو المقدار الذي نريده نحن، أى «مَا نَشَاءُ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٤

ثانياً: إن جميع الأشخاص - رغم سعيهم الدنيوى - لا يحصلون على هذا المقدار، وإنما قسم منهم سيحصل على جزء من متاع الدنيا. وهذا معنى قوله: «لِمَنْ نُرِيدُ».

وبناءً على ذلك، فلا كل طلب الدنيا يحصلون عليها، ولا أولئك الذين يحصلون على شىء منها، يحصلون على ما يريدون. ومسار الحياة اليومية يوضح لنا هذين الشرطين، إذ ما أكثر الذين يكذبون ليلاً ونهاراً ولكنهم لا يحصلون على شىء. وما أكثر الذين لهم امنيات كبيرة وطموحات متعددة ومشاريع بعيدة، ولكن لا يحصلون إلا على القليل منها.

والجدير بالانتباه هنا، أن عاقبة هذه المجموعة من الناس، والتي هي نار جهنم، قد تم تأكيدها في الآية، بكلمتي «مذمومًا» و «مذخورًا» إذ التعبير الأول يأتي بمعنى اللوم، بينما الثاني يعنى الإبتعاد عن رحمة الخالق، وإن نار جهنم تمثل العقاب الجسدى لهم، أما «مذموم» و «مذخور» فهما عقاب الروح، لأن المعاد هو للروح وللجسد، والجزاء والعقاب يكون للإثنين معاً.

بعد ذلك تنتقل الآيات إلى توضيح وضع المجموعة الثانية ومصيرها، وبقرينة المقابلة- وهي أسلوب قرآنى مميز- يتوضح الموضوع أكثر إذ يقول تعالى: «وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا».

بناءً على ذلك هناك ثلاثة شروط أساسية للوصول إلى السعادة الأبدية، هي:

أولاً: إرادة الإنسان: وهي الإرادة التي ترتبط بالحياة الأبدية، ولا تكون مرتبطة بالذات الزائلة والنعم غير الثابتة، والأهداف المادية. ثانياً: هذه الإرادة يجب أن لا تكون ضعيفة وقاصرة في المجال الفكرى والروحي للإنسان، بل إنها يجب أن تشمل جميع ذرات الوجود الإنسانى، وتدفعه للحركة، وببذل كل ما يستطيع من السعى فى هذا المجال.

ثالثاً: إن كل ما سبق من حديث عن الإرادة فى النقطتين السابقتين، ينبغى أن يقترن بالإيمان؛ الإيمان الثابت القوى. لأن أى تصميم وجهد، إذا أريد له أن يُثمر يجب أن تكون أهدافه صحيحة، ومصدر هذه الأهداف هو الإيمان بالله لا غير.

وقد يتوهم البعض ويلتبس عليه الأمر، ظاناً أن نعم الدنيا هي من نصيب عبيدها وطلابها فقط، وأن طلاب الآخرة وأهلها محرومون منها، لذلك فإن الآية التي بعدها تقف

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٥

أمام هذا اللبس، وتمنع هذا الظن، عندما تقول: «كَلَّا نُمَدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ لَنُحْضِرَنَّ لَهُمْ».

هذه النعم هي تعبير عن مقام الرحمانية الإلهية التي تشمل فيوضاتها جميع الناس، المؤمن والكافر ولكن هناك نعم لا تحصي وراء ذلك تختص بالمؤمنين والمحسنين دون غيرهم.

الآية التي بعدها تشير إلى أصل مهم فى هذا الخصوص وتقول: كما أن السعى فى هذه الدنيا متفاوت، وتتفاوت معه الأجور، فكذلك الأمر فى الآخرة، ولكن التفاوت الدنيوى محدود، لأن الدنيا هي نفسها محدودة، وأما الآخرة- ولكونها غير محدودة- فإن تفاوتها غير محدود، إذ يقول تعالى: «انظرو كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً».

هل الدنيا والآخرة تقعان على طرفى نقيض؟ إننا نرى فى كثير من الآيات القرآنية مدحاً وتمجيداً للدنيا وبإمكاناتها المادية، ولكن، وبرغم الأهمية الكبرى التي تختص بها النعم المادية، فإن القرآن الكريم استخدم تعابير اخرى تحقرها وتحط منها بقوة.

هذه المعانى المزوجة إزاء النعم والمواهب المادية، يمكن ملاحظتها أيضاً فى الأحاديث والروايات الإسلامية.

إنه إذا تمت الاستفادة من مواهب الدنيا وعطاياها التي تُعتبر من النعم الإلهية؛ ويعتبر وجودها ضرورياً فى نظام الخلق والوجود، وتمت الاستفادة فى سعادة الإنسان الأخروية وتكامله المعنوى، فإن ذلك يعتبر أمراً جيداً، وتمتدح معه الدنيا، أما إذا اعتبرناها هدفاً لا وسيلة، وأبعدناها عن القيم المعنوية والإنسانية، عندها سيصاب الإنسان بالغرور والغفلة والطغيان والبغى والظلم.

لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْدُومًا (٢٢) وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا (٢٣) وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا (٢٤) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غُفُورًا (٢٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٦

أحكام إسلامية مهمة: الآيات التي نحن بصدد بحثها هي بداية لسلسلة من الأحكام الإسلامية الأساسية، والتي تبدأ بالدعوة إلى التوحيد والإيمان؛ التوحيد الذى يعتبر الأساس والأصل لكل النشاطات الإيمانية، والأعمال الحسنة والبناءة. فى البداية تبدأ هذه الآيات

بالتوحيد وتقول: «لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ».

إنها لم تقل: لا تعبد مع الله إلهاً آخر، بل تقول: «لَا تَجْعَلْ» هذا اللفظ أشمل وأوسع، إذ هو يعنى: لا تجعل معبوداً آخر مع الله لا فى العقيدة، ولا فى العمل، ولا فى الدعاء، ولا فى العبودية. بعد ذلك توضّح الآية النتيجة القاتلة للشرك: «فَتَقَعْدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا». إن استعمال كلمة «القعود» تدل على الضعف والعجز. ومن هذا التعبير يمكن أن نستفيد أن للشرك ثلاثة آثار سيئة جداً فى وجود الإنسان، هى:

١- الشرك يؤدّى إلى الضعف والعجز والذلة.

٢- الشرك موجب للدم واللوم، لأنه خط انحرافى واضح فى قبال منطوق العقل، ويعتبر كفراً واضحاً بالنعم الإلهية.

٣- الشرك يكون سبباً فى أن يترك الله سبحانه وتعالى الإنسان إلى الأشياء التى يعبدها، فإنهم يصبحون «مخذولين» أى بدون ناصر ومعين.

بعد تبيان هذا الأصل التوحيدى، تشير الآيات إلى واحدة من أهم توجيهات الأنبياء عليهم السلام للإنسان، فالآية- بعد أن تؤكد مرة أخرى على التوحيد- تقول: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا».

كلمة «قضاء» لها مفهوم توكيدى أكثر من كلمة «أمر» وهى تعنى القرار والأمر المحكم الذى لا نقاش فيه، وهذا أول تأكيد فى هذه القضية. أما التأكيد الثانى الذى يدل على أهمية هذا القانون الإسلامى، فهو ربط التوحيد الذى يعتبر أهم أصل إسلامى، مع الإحسان إلى الوالدين.

أمّا التأكيدان الثالث والرابع فهما يتمثلان فى معنى الإطلاق الذى تفيدته كلمة «إحسان» التى تشمل كل أنواع الإحسان. وكذلك معنى الإطلاق الذى تفيدته كلمة «والدين» إذ هى تشمل الأم والأب، سواء كانا مسلمين أم كافرين.

أما التأكيد الخامس فهو يتمثل بمجىء كلمة «إحساناً» نكرة، لتأكيد أهميتها وعظمتها.

ثم تنتقل إلى أحد مصاديق هذه العبادة متمثلاً بالإحسان إلى الوالدين فتقول: «إِمَّا

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٧٧

يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا» بحيث يحتاجان إلى الرعاية والإهتمام الدائم، فلا تبخل عليهما بأى شكل من أشكال المحبة واللفظ ولا تؤذيها أو تجرح عواطفهما بأقل إهانة حتى بكلمة «اف»: «فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَوْ «١» وَلَا تَنْهَرْهُمَا». بل: «وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا». وكن أمامهما فى غاية التواضع «وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْنِي صَغِيرًا».

إضافة إلى ما ذكرناه، فتمية ملاحظة لطيفة أخرى يطويها التعبير القرآنى، هذه الملاحظة خطاب للإنسان يقول: إذ أصبح والداك مستين وضعيفين وكهليلين لا يستطيعان الحركة أو رفع الخبائث عنهما، فلا تنس أنك عندما كنت صغيراً كنت على هذه الشاكلة أيضاً، ولكن والديك لم يقصرا فى مداراتك والعناية بك، لذا فلا تقصر أنت فى مداراتهم ومحبتهم.

وقد تحدث من قبل بعض الأبناء انحرافات فيما يتعلق بحقوق الوالدين واحترامهم والتواضع لهم، وقد يصدر هذا العقوق عن جهل فى بعض الأحيان، وعن قصد وعلم فى أحيان أخرى، لذا فإن الآية الأخيرة فى بحثنا هذا تشير إلى هذا المعنى بالقول: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ». وهذه إشارة إلى أن علم الله ثابت وأزلى وأبدى وبعيد عن الإشتباهات، بينما علمكم أيها الناس لا يحمل هذه الصفات! لذلك فإذا طغى الإنسان وعصى أوامر خالقه فى مجال احترام الوالدين والإحسان إليهم، ولكن بدون قصد وعن جهل، ثم تاب بعد ذلك وأتاب، وندم على ما فعل وأصلح، فإنه سيكون مشمولاً لعفو الله تعالى: «إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غُفُورًا».

إحترام الوالدين فى المنطق الإسلامى: إن الإسلام يعطى التعليمات اللازمة إزاء قضية احترام الوالدين ورعاية حقوقهما، إلأى قضايا نادرة أخرى.

وعلى سبيل المثال يمكن أن تشير الفقرات الآتية إلى هذا المعنى:

أ) في أربع سور قرآنية ذكر الإحسان إلى الوالدين بعد التوحيد مباشرة، وهذا الإقتران يدل على مدى الأهمية التي يوليها الإسلام للوالدين.

ب) إن مسألة احترام الوالدين ورعايتهما من المنزلة بمكان، حتى أن القرآن

(١) إن هذه الكلمة مأخوذ من «الصوت» الذي يخرج من الفم عندما ينفخ الإنسان لتنظيف بدنه أو ملابسه من الغبار الموجود عليها. إن الآية تريد أن تقول لا يجوز تجاوز الحدود أمامهما أو إيذاؤهما حتى بمستوى ما تحمله كلمة «أف» من معنى مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٨

والأحاديث والروايات الإسلامية، تؤكدان معاً على الإحسان للوالدين حتى ولو كانا مشركين. ج) رفع القرآن الكريم منزلة شكر الوالدين إلى منزلة شكر الله تعالى.

د) القرآن الكريم لا يسمح بأدنى إهانة للوالدين، ولا يجيز ذلك.

ه) بالرغم من أن الجهاد يعتبر من أهم التعاليم الإسلامية، إلا أن رعاية الوالدين تعتبر أهم منه، بل لا يجوز إذا أدى الأمر إلى أذية الوالدين.

و) في الكافي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إياكم وعقوق الوالدين فإن ريح الجنة توجد من ميسرة ألف عام ولا يجدها عاق».

وفي الكافي عن الإمام موسى الكاظم عليه السلام قال: «سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وآله ما حق الوالد على ولده؟ قال: لا يسميه باسمه، ولا يمشى بين يديه، ولا يجلس قبله، ولا يستسب له». (أى:

لا يفعل شيئاً يؤدي إلى أن يسب الناس والديه).

رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلأَوَّابِينَ غَفُوراً (٢٥) وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً (٢٦) إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً (٢٧) وَإِنَّمَا تَعْرِضَنَّ عَنْهُمْ اتِّغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُوراً (٢٨) وَلَمَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعِدَ مَلُوماً مَحْسُوراً (٢٩) إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبيراً بَصِيراً (٣٠)

رعاية الاعتدال في الإنفاق والهبات: مع هذه الآيات يبدأ الحديث عن فصل آخر من سلسلة الأحكام الإسلامية الأساسية، التي لها علاقة بحقوق القربى والفقراء والمساكين، والإنفاق بشكل عام ينبغي أن يكون بعيداً عن كل نوع من أنواع الإسراف والتبذير، حيث تقول الآية: «وَأَتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً».

إن كلمة «ذِي الْقُرْبَىٰ» لها مفهوم عام وتشمل كل الأرحام والمقربين، إلا أن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله هم من أوضح مصاديق القربى له والرسول في طليعة المخاطبين بالآية الكريمة.

إن «التبذير» هو هدر المال في غير موقعه ولو كان قليلاً، بينما إذا صرف في محلّه فلا يعتبر تبذيراً ولو كان كثيراً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٧٩

الآية التي بعدها هي لتأكيد النهي عن التبذير: «إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً».

لأن الله أعطاه قدرةً وقوةً وإستعداداً وذكاءً خارقاً للعادة، ولكن الشيطان استفاد من هذه الامور في غير محلّها، أي في طريق إغواء الناس وإبعادهم عن الصراط المستقيم.

ثم إن استخدام «إخوان» تعني أن أعمالهم متطابقة ومتناسقة مع أعمال الشيطان، كالأخوين اللذين تكون أعمالهما متشابهة، أو أنهم قرناء وجلساء للشيطان في الجحيم.

ثم أن الإنسان قد لا يملك ما يعطيه للمسكين أحياناً، وفي هذه الحالة ترسم الآية الكريمة طريقه التصرف بالنحو الآتي: «وَأِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا».

«ميسور»: مشتقة من «يسر» وهي بمعنى الراحة والسهولة، أما هنا فلها مفهوم واسع، يشمل كل كلام جميل وسلوك مقرون بالاحترام والمحبة.

الإعتدال هو شرط في كل الامور بما فيها الإنفاق ومساعدة الآخرين، لذلك تنتقل الآية للقول: «وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ». وهذا تعبير جميل يفيد أن الإنسان ينبغي أن يكون ذا يد مفتوحة، لا أن يكون مثل البخلاء وكأن أيديهم مغلولة إلى أعناقهم بخلاً وخشية من الإنفاق، ولكن في نفس الوقت تقرّر الآية أن بسط اليد لا ينبغي أن يتجاوز الحد المقرر والمعقول في الصرف والبذل والعتاء، حتى لا ينتهي المصير إلى الملامة والابتعاد عن الناس: «وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا».

سؤال: لماذا يجب أن يكون هناك مساكين وفقراء ومحرومون حتى ننفق عليهم؟ أليس من الافضل أن يعطيهم الله ما يريدون حتى لا يحتاجون إلى إنفاقنا؟

الجواب: تعتبر الآية الأخيرة بمثابة جواب على هذا السؤال: «إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا». إنه اختبار لنا، فالله قادر على كل شيء، ولكنه يريد بهذا الطريق تربيتنا على روح السخاء والتضحية والعتاء، إضافة إلى ذلك، إذا أصبح أكثر الناس في حالة الكفاية وعدم الحاجة فإن ذلك يقود إلى الطغيان والتمرد «إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ»؛ لذلك من المفيد أن يبقوا في حد معين من الحاجة. هذا الحد لا- يسبب الفقر ولا- الطغيان، من ناحية اخرى يرتبط التقدير والبسط في رزق الإنسان بمقدار السعي وبذل الجهد (باستثناء بعض الموارد من قبيل العجزة والمعلولين)، وهكذا تقتضى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٠

المشيئة الإلهية بسط الرزق وتقديره لمن يشاء، وهذا دليل الحكمة، إذ تقتضى الحكمة بزيادة رزق من يسعى وببذل الجهد، بينما تقتضى بتضييقه لمن هو أقل جهداً وسعيًا.

وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً (٣١) وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا (٣٢) وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا (٣٣) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (٣٤) وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا (٣٥)

سته أحكام مهمة: في متابعه للأحكام الإسلامية التي أثارها الآيات السابقة، نتحدث هذه الآيات عن سته أحكام إسلامية اخرى وردت في ست آيات.

أولاً: تشير الآية إلى عمل قبيح وجاهلي هو من أعظم الذنوب، فتنهى عنه: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ». فرزق هؤلاء ليس عليكم «نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ». أما علّة الحكم فهي: «إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطَاً كَبِيراً».

هذه الآية تفيد أن الوضع الاقتصادي للعرب في الجاهلية كان صعباً وسيئاً. بحيث إنهم كانوا يقتلون أبناءهم في بعض الأحيان خوف العيلة والفقر، وهناك كلام بين المفسرين فيما إذا كان العرب في الجاهلية يدفنون البنات أحياء وحسب، أو أنهم كانوا يقتلون البنات أيضاً خوفاً من الفقر.

وفي الوقت الذي نستغرب فيه ارتكاب الجاهليين لهذه الجرائم بحق النوع البشري، فإنّ عصرنا الحاضر- وفي أكثر مجتمعاته رُقياً وتقدماً- يعيد تكرار هذه الجريمة ولكن بأسلوب آخر، إذ أن العمليات الواسعة في إسقاط الجنين وقتله خوفاً من الضائقة المالية وازدياد عدد السكان، هي نموذج آخر للقتل.

ثانياً: الآية التي بعدها تشير إلى ذنب عظيم آخر هو الزنا: «وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨١

لم تقل الآية: لا- تزنوا، بل قالت: لا تقربوا هذا العمل الشائن، وهذا الاسلوب في النهي فضلاً عما يحمله من تأكيد، فإنه يوضح أنّ هناك مقدمات تجر إلى الزنا ينبغي تجنّبها وعدم مقاربتها، فخيانه العين تعتبر واحدة من المقدمات، والسفور والتعري مقدمة اخرى، الكتب السيئة والأفلام الملوثة والمجلات الفاسدة ومراكز الفساد كل واحدة منها تعتبر مقدمة لهذا العمل.

كذلك فإنّ الخلوة بالأجنبية (يعنى خلوة المرأة والرجل الأجنبي في مكان واحد ولو حدهما) يعتبر عاملاً في إثارة الشهوة. وأخيراً فإنّ امتناع الشباب عن الزواج خاصة مع ملاحظة الصعوبات الموضوعه أمام الطرفين، هي من العوامل التي قد تؤدي إلى الزنا. والآية نهت عن كل ذلك بشكل بليغ مختصر، ولكننا نرى في الأحاديث والروايات نهياً مفصلاً عن كل واحدة من هذه المقدمات. فلسفة تحريم الزنا: يمكن الإشارة إلى ثلاثة عوامل في فلسفة تحريم الزنا، هي:

١- شياع حالة الفوضى في النظام العائلي، وانقطاع العلاقة بين الأبناء والآباء، هذه الرابطة التي تختص بكونها سبباً للتعرف الاجتماعي، بل إنها تكون سبباً لصيانة الأبناء. إنّ العلاقات الاجتماعية القائمة على أساس العلاقات العائلية ستعرض للانهاك والتصدع إذا شاع وجود الابناء غير الشرعيين «أبناء الزنا».

وعلاوة على ذلك، فإنهم سيحرمون من الحبّ الاسرى الذي يعتبر عاملاً في الحدّ من الجريمة في المجتمع الإسلامي، وحينئذ يتحوّل المجتمع الإنساني بالزنا إلى مجتمع حيواني تغزوه الجريمة والقساوة من كل جانب.

٢- لقد أثبت العلم ودلت التجارب على أنّ إشاعة الزنا سبب لكثير من الأمراض والمآسى الصحية وكل المعطيات تشير إلى فشل مكافحة هذه الأمراض من دون مكافحة الزنا. (يمكن أن تلاحظ موجات مرض الإيدز في المجتمعات المعاصرة، وتنتجها الصحية والنفسية المدمرة).

٣- يجب أن لا- ننسى أنّ هدف الزواج ليس إشباع الغريزة الجنسية وحسب، بل المشاركة في تأسيس الحياة على أساس تحقيق الإستقرار الفكري والأنس الروحي للزوجين. وأما تربية الأبناء والتعامل مع قضايا الحياة، فهي آثار طبيعية للزواج، وكل هذه الامور لا يمكن لها أن تثمر من دون أن تختص المرأة بالرجل، وقطع دابر الزنا وأشكال المشاعية الجنسية.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٢

ثالثاً: الحكم الآخر الذي تشير إليه الآية التي بعدها، هو احترام دماء البشر، وتحريم قتل النفس حيث تقول: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ».

إنّ الإسلام يحاسب على أقل أذى ممكن أن يلحقه الإنسان بالآخرين، فكيف بقضية القتل وإراقه الدماء؟! وهنا نستطيع أن نقول- باطمئنان-: إنّنا لا نرى أيّ شريعة غير الإسلام أعطت هذه الحرمة الاستثنائية لدم الإنسان، بالطبع هناك حالات ينتفى معها إحترام دم الإنسان، كما لو قام بالقتل أو ما يوجب إزال العقوبة به، لذلك فإنّ الآية بعد أن تُثبت حرمة الدم كأصل، تشير للإستثناء بالقول: «إِلَّا بِالْحَقِّ».

إنّ حرمة دم الإنسان في الإسلام لا تختص بالمسلمين وحسب، بل تشمل غير المسلمين أيضاً من غير المحاربين، والذين يعيشون مع المسلمين عيشة مُسالمة، فإنّ دماءهم- أيضاً- وأعراضهم وأرواحهم مصونة ويحرم التجاوز عليها.

تشير الآية بعد ذلك إلى إثبات حق القصاص بالمثل لولى القتل فتقول: «وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا». ولكن في نفس الوقت ينبغي لولى المقتول أن يلتزم حدّ الاعتدال ولا يسرف «فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا». إذ ما دام ولى الدم يتحرّك في الحدود الشرعية فإنه سيكون مورداً لنصرة الله تعالى.

والنهي عن الإسراف تشير إلى واقع كان سائداً في الجاهلية، واليوم أيضاً يمكن مشاهدة نماذج لها، فحين يُقتل فرد من قبيلة معينة،

فإنها تقوم بهدر الكثير من الدماء البريئة من قبيلة القاتل.

أو أن يقوم أولياء الدم بقتل أناس أبرياء أو الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم.

رابعاً: الآية التي بعدها تشير إلى حفظ مال اليتيم، والملاحظ أن الآية استخدمت نفس أسلوب الآية التي سبقتها، فلم تقل: لا تأكلوا مال اليتيم وحسب، وإنما قالت: «وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ».

وفي هذا التعبير تأكيد على حرمة مال اليتيم. ولكن قد تكون هذه الآية حجة لبعض الجهلاء الذين سيتركون مال اليتامى يُهدر ويكون عرضه للحوادث بدون أن يكون عليه قيم، لذلك استثنت بقوله: «إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». وبناء على هذا الاستثناء يمكن التصرف بأموال اليتامى بشرط حفظ هذه الأموال، وتنميتها وتكثيرها. وهذا الوضع يستمر إلى أن يبلغ اليتيم سن الرشد ويستطيع فكراً واقتصادياً أن يكون قيماً على نفسه وأمواله «حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٣

خامساً: تشير الآية بعد ذلك إلى الوفاء بالعهد فنقول: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا». إن الكثير من العلاقات الاجتماعية وخطوط النظام الاقتصادي والمسائل السياسية قائمة على محور العهود، بحيث إذا ضعف هذا المحور وانهارت الثقة بين الناس، فسينهار النظام الاجتماعي وستحل الفوضى

سادساً: آخر حكم من الأحكام الستة، يتصل بالعدل في الوزن والكيل ورعاية حقوق الناس في ذلك ومحاربة التطفيف في الميزان حيث تقول الآية الكريمة: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا».

وعادة، فإن الحق والعدل والنظام والحساب، كل هذه الأمور تعتبر أصولاً أساسية للحياة، بل وتدخل في نظام الوجود والخلق، لذلك فابتعاد الناس عن هذا الأصل - خصوصاً بالنسبة لبخس الكيل والتطفيف في الميزان - يؤدي إلى إنزال ضربه شديدة بالثقة التي تعتبر جوهر استقرار التعامل الاقتصادي بين الناس.

«قسطاس»: بكسر القاف أو ضمها على وزن «مقياس» وأحياناً تقاس على وزن «قرآن» بمعنى «الميزان» والبعض يعتبرها كلمة رومية، بينما البعض يرى بأنها كلمة عربية.

وهناك من يقول بأنها مركبة من كلمتين هما «قسط» بمعنى العدل و «طاس» بمعنى كفة الميزان.

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا (٣٦) وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا (٣٧) كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا (٣٨) ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا (٣٩) أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا (٤٠) الإنقياد للعلم: في الآيات السابقة وقفنا على مجموعة من الاصول والأحكام الإسلامية وفي الآيات التي نبحثها الآن نلتقي مع آخر مجموعة من سلسلة هذه الأحكام حيث تشير الآيات أعلاه إلى عدّة أحكام مهمة:

أولاً: في البداية ينبغي للإنسان المسلم أن يلتزم الدقة في كل الأمور ويجعل العلم رائده

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٤

«وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ». وفي النهاية تعلق الآية عدم اتباع ما دون العمل، فنقول: «إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا».

والسؤال الذي تواجه به الأعضاء المذكورة يعود إلى مسؤولياتها عن الأعمال، إذ السمع مسؤول عن الكلام المشكوك غير الموثق، والبصر عن موارد ادعاء الإنسان للمشاهدة والرؤية مع أنه لم يشاهد أو يرى، والفؤاد يُسأل عن الأفكار الخاطئة التي تدخل في الأحكام الخاطئة.

ثانياً: الكبر والغرور: الآية التي بعدها تدعو إلى محاربة الكبر والغرور، وتنهى المؤمنين عن هاتين الصفتين حيث تخاطب النبي صلى الله

عليه وآله بالقول: «وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا» (١). وهذه إشارة إلى سلوك المتكبرين والمغرورين الذي يضربون الأرض بعنف أثناء مشيهم لكي يلتفت الناس إليهم، ويرفعون رؤوسهم في السماء علامة على أفضليتهم المزعومة بين الناس، لهؤلاء تقول الآية: «إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا». إذ مثل هؤلاء كالنملة التي تمشي على صخرة كبيرة وتضرب برجلها عليها، إلا أن الصخرة تسخر من حماقتها.

ويمكن أن نفهم من خلال هذه الآية، وما ذكر في القرآن الكريم أن التكبر والغرور مرفوضان بشكل عام. لماذا؟ لأن الغرور هو مصدر الغربة عن الله وعن النفس السليمة، وهو سبب الخطأ في الحكم والقضاء، وسبيل ضياع الحق والإرتباط بخط الشيطان والتلوث بأنواع الذنوب.

البرنامج الحياتي العملي لقادة الإسلام يعتبر درساً مفيداً لكل مسلم حقيقى في هذا المجال. ففي سيرة الرسول صلى الله عليه وآله نرى أنه لم يكن يسمح لأحد أن يمشى بين يديه وهو راكب. ونقرأ - أيضاً - أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يجلس على التراب تواضعاً، ويأكل الطعام كما يأكله العبيد، وكان يحلب الماعز بنفسه، ويركب الدابة دون غطاء. وقد كان الرسول صلى الله عليه وآله يلتزم هذا السلوك في كل مواقفه حتى عند فتح مكة. وفي سيرة الإمام على عليه السلام نقرأ أنه كان يجلب الماء إلى البيت، وفي بعض الأحيان كان ينظف البيت. أما في سيرة الإمام الحسن عليه السلام فنقرأ أنه عليه السلام حج إلى بيت الله عشرين مرة مشياً على

(١) «مَرَح»: على وزن فَرَح، وهى تعنى الفرح الشديد قبال موضوع باطل لا أساس له.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٥

الأقدام، والنجائب (المحامل والدواب) تقاد بين يديه، وكان عليه السلام يبين أن هذا العمل تواضع لله تعالى. أمّا الآية التي بعدها فهى تؤكد على ما تمّ تحريمه فى الآيات السابقة كالشرك وقتل النفس والزنا وقتل الأولاد والتصرف فى مال اليتيم وإيذاء الوالدين وما شابه ذلك، حيث تقول الآية: «كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا». ومن هذا التعبير يتضح أن الله سبحانه وتعالى ليس فقط لا يجبر الإنسان على الذنب، وإنما لا يريد له (بمعنى لا يرغب ولا يود) أن يرتكب الذنب أيضاً، وإلا لو كان الأمر كما يقول أصحاب مذهب الجبر، لما أكد الله سبحانه وتعالى على كراهية هذه الذنوب. ثالثاً: لا تكن مشركاً: من أجل التأكيد أكثر على أن كل هذه التعليمات إنما تصدر من الوحي وتتسم بالحكمة، تقول الآية: «ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ».

إن هذه التعاليم ثابتة عن طريق العقل كما هى ثابتة عن طريق الوحي الإلهي. وعادة ما تكون جميع الأحكام الإلهية على هذه الشاكلة، بالرغم من أن الإنسان لا يستطيع فى كثير من الأحيان أن يشخص انسجام جزئيات الأحكام الإلهية مع العقل بحكم عدم كماله، ويبقى بعد ذلك الوحي هو المجال الوحيد لمصادقية دركها والإيمان بها.

بعد ذلك ينتهى الحديث عن مجموع هذه الأحكام بنفس البداية التى انطلق منها، حيث يقول تعالى: «وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ». لماذا؟ لأن المصير سيكون «فَتَلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا». إن الشرك هو أساس جميع الإنحرافات والجرائم والذنوب، لذلك فإن هذه المجموعة من الأحكام بدأت بالشرك وانتهت به.

آخر آية - من الآيات التى نبعتها - تشير إلى واحدة من الأفكار الخرافية للمشركين، إذ الكثير منهم كان يعتقد بأن الملائكة هم بنات الله، فى حين أنهم كانوا يعتبرون البنت عاراً وشناراً، وولادتها فى بيت يؤدى إلى سوء الحظ. القرآن يساير هذا المنطق فيقول لهم: «أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالنِّينِ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلِكَةِ إِنْتًا».

إن البنات - بدون شك - كالبنين، هم عطايا الإله ومواهبه، ولا يوجد أى تفاوت بينهم فى القيمة الإنسانية. هدف القرآن هو مقابلتهم

بمنطقهم فيقول لهم: كيف تنسبون لربكم ما تحسبوه عاراً لكم؟
بعد ذلك يقول القرآن بأسلوب قاطع: «إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا». إذ هذا الكلام لا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٦

يتلاءم مع أى منطق ويعتبر ضعيفاً من عدّه جهات، هي: ١- إن الاعتقاد بوجود ابن لله يعتبر إهانة عظيمة لمحضره المقدّس، لأنّه سبحانه وتعالى ليس بجسم، وليست فيه الصفات الجسمانية، ولا يحتاج فى بقائه إلى النسل. لذا فالإعتقاد بهذا الأمر يدل على عدم المعرفة بالصفات الإلهية.

٢- كيف تعتقدون بأنّ أولاد الله كلّهم بنات، فى حين أنّكم ترون البنات أدنى مكانة واحتراماً من الأولاد؟ هذا الإعتقاد السفية يعتبر إهانة اخرى إلى مقام الله تبارك وتعالى.

٣- هذا الإعتقاد يعتبر إهانة لمقام ملائكة الله الذين يعتبرون من المقربين للعرش، فأنتم تصابون بالرعب بمجرد سماع كلمة «بنت»، فى حين تعتبرون هؤلاء المقربين من العرش إناثاً؟

وَلَقَدْ صَيَّرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤١) قُلْ لَوْ كَان مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابَتَّغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا (٤٢) سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوهَا كَبِيرًا (٤٣) تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا (٤٤)

كيف يفرون من الحق؟ كان الحديث فى الآيات السابقة يتعلق بقصيتى التوحيد والشرك، لذا فإنّ هذه الآيات تتابع هذا الموضوع بوضوح وقاطعية أكبر، ففى البداية تتحدث عن لجاجة بعض المشركين وعنادهم فى قبال أدلة التوحيد فتقول: «وَلَقَدْ صَيَّرَفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذْكُرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا».

«صرّف»: مشتقّة من «تصريف» وتعنى التغيير والتحويل، وكونها على وزن «تفعيل» يؤكّد معنى الكثرة، وبما أنّ القرآن يستخدم تعابير متنوعة وفنوناً كلامية مختلفة من أجل تنبيه المشركين، إذ يستخدم الاستدلال العقلى المنطقى والفطرى أو التهديد والترغيب، لذا فإنّ كلمة «صرّفنا» تناسب هذا التنوع فى هذا المقام.

وهنا قد يطرح هذا السؤال: إذاً ما الفائدة من ذكر كل ذلك، إذا كانت النتائج معكوسة؟

إنّ جواب هذا السؤال واضح، إذ أنّ القرآن لم ينزل لفرد أو لمجموعة خاصه، ولكنه للمجتمع كاه، وطبيعى أنّ جميع الناس ليسوا على منوال المعاندين، إذ هناك الكثير ممن يتبع

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٧

طريق الحق إذا استبانته له أدلته كما فى هذا النوع من الأدلة القرآنية، بالرغم من أنّها تؤدّى بمجموعة اخرى من فاقدى بصيرة القلب إلى المزيد من العناد.

الآية التى بعدها تشير إلى واحد من أدلة التوحيد الذى يعرف بين العلماء والفلاسفة بعنوان «دليل التمانع» إذ الآية تقول للنبي صلى الله عليه وآله: قل لهم: «قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَابَتَّغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا».

وبما أنّ كل صاحب قدره يسعى لمدّ قدرته وتكميلها، لذا فإنّ وجود عدّه آلهة يؤدّى إلى التنازع والتمانع فيما بينهم حول الحكم والسلطة فى عالم الوجود.

وبما أنّ كلام المشركين وعباراتهم توحى بأنهم نزلوا فى إدراكهم لله عزّ وجلّ إلى مستوى أن يكون طرفاً للنزاع، لذا فإنّ الآية تقول بعد ذلك مباشرة: «سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوهَا كَبِيرًا».

ثم لأجل إثبات عظمة الخالق وأته منزه عن خيالات واعتقادات وأوهام المشركين، تتحدث الآية التالية عن تسبيح كائنات الوجود لذاته المقدّسة إذ تقول: «تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ». ثم تتطرق الآية إلى أنّ التسبيح لا يقتصر على ما هو موجود فى

السموات والأرض، وإنما ليس هناك موجود إلا ويسبح ويحمد الله، ولكن لا تدركون تسييحهم: «وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسييحهم». ومع ذلك:

«إِنَّهٗ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا». أى: لا يؤاخذكم ولا يعاقبكم بسبب كفركم وشرككم مباشرة، ولكن يمهلكم بالقدر الكافى، ويفتح لكم أبواب التوبة ويتركها مفتوحة لإتمام الحجة.

وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحِيدَهُ وَلَوْ أَعْلَىٰ أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا (٤٧) أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزل قوله «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ» الآية في قوم كانوا يؤذون

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٨

النبي صلى الله عليه وآله بالليل إذا تلا القرآن وصلى عند الكعبة، وكانوا يرمونهم بالحجارة ويمنعونه عن دعاء الناس إلى الدين، فقال الله سبحانه بينه وبينهم حتى لا يؤذوه. وروى - في تفسير الكبير - عن ابن عباس، أن أبا سفيان والنضر بن الحرث وأبا جهل وغيرهم كانوا يجالسون النبي صلى الله عليه وآله ويستمعون إلى حديثه، فقال النضر يوماً: ما أدرى ما يقول محمد غير أنى أرى شفتيه تتحركان بشيء. وقال أبو سفيان: إنى لأرى بعض ما يقوله حقاً. وقال أبو جهل: هو مجنون. وقال أبو لهب: هو كاهن. وقال حويطب بن عبد العزى: هو شاعر. فنزلت هذه الآية: «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ...».

التفسير

المغرورون وموانع المعرفة: بعد الآيات السابقة قد يطرح الكثيرون هذا السؤال: رغم وضوح قضية التوحيد بحيث إن جميع مخلوقات العالم تشهد بذلك؛ فلماذا - إذن - لا يقبل المشركون هذه الحقيقة ولا ينصاعون للآيات القرآنية بالرغم من سماعهم لها؟ الآيات التي نبحتها يمكن أن تكون جواباً على هذا السؤال، إذ تقول الآية الأولى: «وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا». وهذا الحجاب والساتر هو نفسه التعصب واللجاجه والغرور والجهل، حيث تقوم هذه الصفات بصد حقائق القرآن عن أفكارهم وعقولهم ولا تسمح لهم بدرك الحقائق الواضحة مثل التوحيد والمعاد وصدق الرسول في دعوته وغير ذلك.

أما الآية التي بعدها فتقول: «وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا». أى:

إننا غطينا قلوبهم بأستار لكي لا يفهموا معناه، وجعلنا في آذانهم ثقلاً. لذلك فإنهم: «وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحِيدَهُ وَلَوْ أَعْلَىٰ أَذْبَارِهِمْ نُفُورًا».

ثم يضيف الله تبارك وتعالى مرة أخرى: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ». أى: إن الله تعالى يعلم الغرض من استماعهم لكلامك وحضورهم في مجلسك و «إِذْ هُمْ نَجْوَىٰ يَتَشَاوَرُونَ وَيَتَنَاجَوْنَ» «إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا». إذ إنهم لا يأتون إليك من أجل سماع كلامك بقلوبهم وأرواحهم، بل هدفهم هو التخريب، وتصييد الأخطاء.

الآية الأخيرة خطاب للنبي صلى الله عليه وآله وبالرغم من أن عبارة الآية قصيرة، إلا أنها كانت قاضية بالنسبة لهذه المجموعة حيث قالت: «أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا». والآية لا تعنى أن الطريق غير واضح والحق خاف، بل على أبصارهم غشاوة، وقلوبهم مغلقة دون الاستجابة للحق، وعقولهم معطلة عن الهدى بسبب الجهل والحقد والتعصب والعناد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٨٩

وَقَالُوا أِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرَفَاتًا أِنَّا لَكَبُوعُوتُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) يَوْمَ

يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا (٥٢)

حتمية البعث ويوم الحساب: الآيات السابقة تحدّثت عن التوحيد وحاربت الشرك، أما الآيات التي نبهتها الآن فتحدّثت عن المعاد والذي يعتبر مكتملاً للتوحيد.

الآيات التي نحن بصددّها أجابت على ثلاثة أسئلة- أو شكوك- يثيرها منكر المعاد، ففي البداية تحكى الآيات على لسان المنكرين استفهامهم: «وَقَالُوا أَذًا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَمْ نَحْنُ لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا» (١).

إنّ التعبير القرآني في هذه الآية الكريمة يدل على أنّ الرسول صلى الله عليه وآله كان يبيّن في دعوته «المعاد الجسماني» بعد موت الإنسان، إذ لو كان الكلام عن معاد الروح فقط، لم يكن ثمّة سبب لإيراد مثل هذه الإشكالات من قبل المعارضين والمنكرين. القرآن في إجابته على هؤلاء يبيّن أنّ قضية بعث عظام الإنسان سهلة وممكنة، بل وأكثر من ذلك، فحتى لو كنتم حجارة أو حديدًا: «قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا». وحتى لو كنتم أشدّ من الحجر والحديد وأبعد منهما من الحياة: «أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ». فإنّ البعث سيكون مصيركم.

السؤال التشكيكي الآخر الذي يثيره منكر المعاد هو: إذا سلّمنا بأنّ هذه العظام المنذرّة المتلاشية يمكن أن تعود إلى الحياة، فمن يستطيع أن يقوم بهذا الأمر، ومن الذي له قدرة القيام بهذه العملية المعقّدة للغاية؟ هذا السؤال تصوّغه الآية بالقول على لسان المنكرين: «فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا». القرآن يجيب على هذا السؤال حيث يقول: «قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

بعد الانتهاء من الشك الأول والثاني الذي يطلقه المنكرون للمعاد، تنتقل الآيات إلى الشك الثالث الذي تصوّغه على لسانهم بهذا السؤال: «فَسَيُغْضَبُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ». «سينغضون»: مشتقّه من مادة «إنغاض» بمعنى مدّ الرأس نحو الطرف المقابل بسبب التعجب.

(١) «رُفَات»: على وزن «كُرات» وهو معنى يطلق على كل شيء قديم ومتلاش.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٠

ما يقصده هؤلاء من سؤالهم هو قولهم: لو اعترفنا بقدرة الخالق على إعادة بعث الإنسان من التراب من جديد، فإنّ هذا يبقى مجرد وعد لا ندري متى يتحقق، إذا كان سيحصل هذا في آلاف أو ملايين السنين القادمة فما تأثيره في يومنا هذا ... إنّ المهم أن نتحدّث عن الحاضر لا عن المستقبل!

ويجيب القرآن بقوله: «قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا». إنّ يوم المعاد- طبعاً- قريب، لأنّ عمر العالم والحياة على الأرض، مهما طالت، فإنّها في قبال الحياة الأبدية تعتبر لا شيء، إذ هي مجرد لحظات سريعة وعابرة وسرعان ما تنتهي.

إضافة إلى ذلك، فإنّ القيامة إذا كانت في تصوراتنا المحدودة بعيدة فإنّ مقدمه القيامة والتي هي الموت، تعتبر قريبة منا جميعاً، لأنّ الموت هو القيامة الصغرى (إذا مات الإنسان قامت قيامته)، صحيح أنّ الموت لا يمثل القيامة الكبرى، ولكنه علامة عليها ومذكّر بها. في الآية التي بعدها إشارة إلى بعض خصوصيات القيامة في قوله تعالى: «يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ». أي: إنّ بعثكم يكون يوم يدعوكم من القبور فتمثلون لأمره طوعاً أو كرهاً، والآية- بالطبع- تتحدّث عن خصوصية يوم القيامة لا عن موعد القيامة.

في ذلك اليوم ستظنون أنّكم لبثتم قليلاً في عالم ما بعد الموت (البرزخ) وهو قوله تعالى:

«وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا». إنّ هذا الإحساس سيظغى على الإنسان في يوم القيامة، وهو يظن أنّه لم يلبث في عالم البرزخ إلّا قليلاً، بالرغم من طول الفترة التي قضاها هناك، وهذه إشارة إلى أنّ حياة البرزخ لا تعتبر في مدتها شيئاً في قبال عالم الخلود الآخروي.

وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عِدُوًّا مُّبِينًا (٥٣) رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنَّ يَسْأُ يَرْحَمُكُمْ

أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا (٥٤) وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا (٥٥) قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَمَّا يَمْلِكُونَ كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ وَ لَّا تَحْوِيلًا (٥٦) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩١

التعامل المنطقي مع المعارضين: الآيات السابقة تعرّضت لقضية المبدأ والمعاد، أما الآيات التي نحن بصددتها فهي توضّح أسلوب المحادثة والاستدلال مع المعارضين وخصوصاً المشركين، لأنه مهما كان المذهب عالى المستوى، والمنطق قوياً، فإن ذلك لا تأثير له ما دام لا يتزامن مع أسلوب صحيح للبحث والمجادلة مرفقاً بالمحبة بدلاً من الخشونة، لذا فإن أول آية من هذه المجموعة تقول: «وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ».

الأحسن من حيث المحتوى والبيان، والأحسن من حيث التلازم بين الدليل ومكارم الأخلاق والأساليب الإنسانية، ولكن لماذا يستعمل هذا الاسلوب مع المعارضين؟

الجواب: إذا ترك الناس القول الأحسن واتبعوا الخشونة في الكلام والمجادلة ف «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ» ويثير بينهم الفتنة والفساد، فلا تنسوا: «إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا».

وكلمة «عبادى» خطاب للمؤمنين، حيث تعلّمهم الآية أسلوب النقاش مع الأعداء، فقد يحدث في بعض الأحيان أن يتعامل المؤمنون الجدد بخشونة مع معارضى عقيدتهم ويقولون لهم بأنهم من أهل النار والعذاب، وأنهم ضالون، قد يكون هذا الموقف سبباً في أن يقف المعارضون موقفاً سلبياً إزاء دعوة الرسول صلى الله عليه وآله.

إضافة لذلك، فإنّ الإتهامات التي يطلقها المشركون ضد شخص رسول الله صلى الله عليه وآله ويتهمون به فيها بالسحر والجنون والكهانة والشعر، قد تكون سبباً في أن يفقد المؤمنون السيطرة على أنفسهم ويبدأوا بالتشاجر مع المشركين ويستخدموا الألفاظ الخشنة ضدّهم ... القرآن يمنع المؤمنين من هذا العمل ويدعوهم إلى التزام اللين والتلطّف بالكلام واختيار أفضل الكلمات في أسلوب التخاطب، حتى يأمنوا من إفساد الشيطان.

الآية التي بعدها تضيف: «رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يُزَحِّمَكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ».

وفي آخر الآية مواساة للرسول صلى الله عليه وآله الذي كان يتأذى ويتألم من عدم إيمان المشركين، إذ يقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا».

إنّ مسؤوليتك- يا رسول الله- هي الإبلاغ الواضح، والدعوة الحثيثة نحو الحق، فإذا آمنوا فهو الأفضل، وإن لم يؤمنوا فسوف لن يصيبك ضرر.

الآية التالية ذهبت أكثر من الآية السابقة في التعبير عن إحاطة الله تبارك وتعالى وعلمه بأعمال ونيات عباده، فقالت: «وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». ثم أضافت:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٢

«وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا».

هذا التعبير القرآني جواب على أحد أسئلة المشركين وشكوكهم، حيث كانوا يقولون- بأسلوب استهزائي- لماذا انتخب الله للنبوة محمّد اليتيم، ثم ما الذى حصل حتى أصبح هذا اليتيم ليس نبياً وحسب، وإنما خاتم الأنبياء. القرآن يقول لهؤلاء: لا تعجبوا من ذلك، لأنّ الله عليم بقيمة كل إنسان، وهو سبحانه وتعالى ينتخب أنبياءه من بين عاوية الناس، ويفضّل بعضهم على بعض، إذ جعل أحدهم (خليل الله) والآخر (كليم الله) والثالث (روح الله)، أما نبينا فقد أنتخبه بعنوان (حبيب الله).

وباختصار: لقد فضّل الله بعض النبيين على بعض لموازين يعلمها هو وتختص بها حكمته جلّ وعلا.

بالرغم من أن داود عليه السلام كان له حكم عظيم ودولة كبيرة وملك واسع، إلا أن الله سبحانه لم يجعل هذه الامور سبباً لإفتخاره، بل اعتبر كتاب الزبور فخره، حتى يدرك المشركون أن عظمة الإنسان، ليس لها علاقة بالمال والثروة ووجود الحكومة والسلطة، كما أن اليتيم والفقير ليس مدعاةً للذل أو دليلاً على الحقارة.

الآية التي تليها تستمر في اتجاه الآيات السابقة، إذ تقول للرسول صلى الله عليه وآله أن يخاطب المشركين بقوله تعالى: «قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِّنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضَّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا».

إن هذه الآية- كما في آيات اخرى كثيرة- تبطل منطق المشركين وتضرب صميم عقيدتهم من هذا الطريق، وهو أن عبادة الآلهة من دون الله، إما بسبب جلب المنفعة أو دفع الضرر، في حين أن الآلهة التي يعبدونها ليس لها القدرة على حل مشكلة معينة أو حتى تحريكها؛ أي نقل المشكلة من مستوى معين إلى مستوى أقل.

إن استخدام تعبير «الذين» في هذه الآية لا يشمل جميع المعبودات التي يشركها الإنسان مع الله (كالأصنام وغيرها) بل يشمل الملائكة والمسيح وأمثالهم.

بعد ذلك تؤكد الآية التالية على ما ذكرناه في الآية السابقة، فتقول: هل تعلمون لماذا لا يستطيع الذين تدعونهم من دون الله أن يحلوا مشاكلكم، أو أن يجيئوا لكم طلباتكم بدون إذن الله سبحانه وتعالى؟ الآية تجيب على ذلك بأن هؤلاء أنفسهم يذهبون إلى بيت الله، ويلجأون للتقرب من الذات الإلهية المقدسة لقضاء حوائجهم وحل مشاكلهم وتحقيق ما

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٣

يريدونه: «أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا». إن كلمة «الوسيلة» يشمل كل عمل جميل ولاتق، وتدخل في مفهومها كل صفة بارزة اخرى، لأن كل هذه الامور تكون سبباً في التقرب من الله.

وإن من قزيه إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معدبؤها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطوراً (٥٨) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون و آتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً (٥٩) و إذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً (٦٠)

بعد أن تحدثت الآيات السابقة مع المشركين في قضايا التوحيد والمعاد، تبدأ أول آية من هذه الآيات بكلام على شكل نصيحة لتوعيتهم، حيث تجسم هذه الآية النهاية الفانية لهذه الدنيا أمام عقولهم حتى يعرفوا أن هذه الدنيا دار زوال وأن البقاء الأبدى في مكان آخر، لذلك ما عليهم إلا تهيه أنفسهم لمواجهة نتائج أعمالهم، حيث تقول الآية: «وإن من قزيه إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيمة أو معدبؤها عذاباً شديداً». فالطغاة والظالمون نيدهم بواسطة العذاب، أما الآخرون فيهلكون بالموت أو الحوادث الطبيعية.

وأخيراً، فإن هذه الدنيا زائلة والكل يسلك طريق الفناء: «كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا». و «الكتاب» هنا هو نفس اللوح المحفوظ وهو العلم اللامتناهي للخالق جلّ وعلا، ومجموعة القوانين الإلهية التي لا يمكن التخلف عنها في عالم الوجود هذا.

وهنا قد يقول المشركون: نحن لا- مانع لدينا من الإيمان ولكن بشرط أن يقوم الرسول صلى الله عليه وآله بجميع المعجزات التي نقترحها عليه، أي أن يستسلم لحججنا، القرآن يجب أمثال هؤلاء بقوله تعالى: «وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأُولُونَ».

الآية تشير إلى أن الله تبارك وتعالى أرسل معجزات كثيرة وكافية للدلالة على صدق الرسول صلى الله عليه وآله، أما ما تقترحونه من معجزات فهي غير مقبولة، لأنكم بعد وقوعها ومشاهدتها سوف لا تؤمنون، بدليل أن الأمم السابقة والتي كانت أوضاعها وحالاتها

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٤

مماثلة لأوضاعكم وحالاتكم، اقترحت نفس الإقتراحات ثم لم تؤمن بعد ذلك.

تشير الآية بعد ذلك إلى نموذج واضح لهذه الحالة فتقول: «وَأَتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً».

لقد طلب قوم صالح الناقة فاخرجها الله لهم من الجبل، وأجيب بذلك المعجزة التي طلبوها، وقد كانت معجزة واضحة وموضحة! ولكن بالرغم من كل ذلك «فَطَلَمُوا بِهَا».

وعادة فإنه ليس من مقتضيات البرنامج الإلهي أن يستجيب لأي معجزة يقترحها إنسان، أو ينصاع إلى تنفيذها الرسول، ولكن الهدف هو: «وَمَا تُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا».

ثم يواسى الله تبارك وتعالى نبيه صلى الله عليه وآله في مقابل عناد المشركين وإلحاحهم بالباطل، إذ يبين له أن ليس هذا بالشيء الجديد: «وَإِذْ قُلْنَا لِمَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ». ففي قبال دعوة الأنبياء عليهم السلام هناك دائماً مجموعة مؤمنة نظيفة القلب نقيّة السريرة، صافية الفطرة، في مقابل مجموعة أخرى معاندة مكابرة لجوجة تتحجج وتجد لنفسها المعاذير في معاداة الدعوات وإيذاء الأنبياء، وهكذا يتشابه الحال بين الأمس واليوم.

ثم يضيف تعالى: «وَمَا جَعَلْنَا الرُّءْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ». وامتحنائهم، وكذلك الشجرة الملعونة هي أيضاً امتحان وفتنة للناس: «وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ».

وفي الختام يأتي قوله تعالى: «وَنُحُوفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا». لماذا؟ لأنه ما دام قلب الإنسان غير مستعد لقبول الحق والتسليم له، فإن الكلام ليس لا يؤثر فيه وحسب، بل إن له آثاراً معكوسة، حيث يزيد في ضلال هؤلاء وعنادهم بسبب تعصبهم ومقاومتهم السلبية وانغلاق نفوسهم عن الحق. (تأمل ذلك).

رؤيا النبي صلى الله عليه وآله والشجرة الملعونة: مجموعة من المفسرين الشيعة والسنة، نقلوا أن هذه الرؤيا إشارة للحادثة المعروفة والتي رأى فيها النبي صلى الله عليه وآله في المنام أن عدداً من القروء تصعد منبره وتنزل منه (تنزو على منبره صلى الله عليه وآله)، وقد حزن صلى الله عليه وآله كثيراً لهذا الأمر بحيث لم ير ضاحكاً من بعدها إلا قليلاً (وقد تم تفسير هذه القروء التي تنزو على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله بنبي أمية الذين جلسوا مكان النبي صلى الله عليه وآله الواحد تلو الآخر، يقلد بعضهم بعضاً، وكانوا ممسوخى الشخصية، وقد جلبوا الفساد للحكومة الإسلامية، وخلافه رسول الله صلى الله عليه وآله).

ومن الممكن أن تكون (الشجرة الملعونة) في القرآن إشارة إلى أي مجموعة منافقة وخبيثة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٥

ومطرودة من رحمة الله تعالى ومقام الربوبية، خصوصاً تلك المجاميع مثل بنى أمية واليهود قساء القلب، والمعاندين وكل الذين يسرون على خطاهم. وشجرة الزقوم في القيامة تمثل الأشجار الخبيثة في العالم الآخر، وكل هذه الأشجار الخبيثة (المجاميع المعيبة) هي لاختبار وتمحيص المؤمنين الصادقين في الحياة الدنيا.

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا (٦١) قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا (٦٢) قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا (٦٣) وَاسْتَفْزَزَ مَنْ اسْتَفْزَعَتْ مِنْهُمْ بِصُورَتِكَ وَأَجْلَبَ عَلَيْهِمْ بِخِيَلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدَّهُمْ وَمَا يَعْبُدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا (٦٥)

هذه الآيات تشير إلى قضية امتناع إبليس عن إطاعة أمر الله في السجود لآدم عليه السلام، والعاقبة السيئة التي انتهت إليها.

إن طرح هذه القضية بعد ما ذكر عن المشركين المعاندين هو إشارة إلى أن الشيطان يعتبر نموذجاً كاملاً للإستكبار والكفر والعصيان. ثم انظروا إلى أين وصلت عاقبته، لذا فإن من يتبعه سيصير إلى نفس العاقبة. الآية تقول: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ».

إن هذه السجدة التي أمر الله تعالى بها هي نوع من الخضوع والتواضع بسبب عظمة خلق آدم عليه السلام وتميزه عن سائر الموجودات، أو هي سجود للخالق جلّ وعلا في قبال خلقه لهذا المخلوق المتميز.

فقد سيطر الكبر والغرور على إبليس وتحكمت الأنانية في عقله، ظناً منه بأن التراب والطين اللذان يعتبران مصدراً لكل الخيرات ومنبعاً للحياة أقل شأنًا وأهمية من النار، لذا اعترض على الخالق جلّ وعلا وقال: «قَالَ أَشْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٦

ولكنه عندما طرد- إلى الأبد- من حضرة الساحة الإلهية بسبب استكباره وطغيانه في مقابل أمر الله له، قال: «قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لِنِئْنِ أَنْزَلْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْتِنِكَ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا». «أحتنكن»: مشتقة من «احتناك» وهي تعني قطع جذور شيء ما. لذا فإن هذا القول يشير إلى أن إبليس سيحرف كل بني آدم عن طريق الله وطاعته، إلّا القليل منهم.

ويحتمل أن تكون كلمة «أحتنكن» مشتقة من «حنك» وهي المنطقه التي تحت البلعوم؛ وفي الواقع، فإن الشيطان يريد أن يقول بأنه سيضع جبل الوسوسة في أعناق الناس ويجرهم إلى طريق الغواية والضلال.

وهكذا كان، فقد أعطى الشيطان إمكانية البقاء والفعالية حتى يتحقق الاختبار للجميع، ويكون وجوده سبباً لتمحيص واختبار المؤمنين الحقيقيين لأنّ الإنسان يشتدّ عزمه عندما تهاجمه الحوادث ويقوى عوده في مواجهة الأعداء، لذلك قالت الآية: «قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا». وبهذه الوسيلة للاختبار ينكشف الفاشل من الناجح في الامتحان الإلهي الكبير.

ثم ذكرت الآيات بعد ذلك- بأسلوب جميل- الطرق التي ينفذ منها الشيطان والأساليب التي يستخدمها في الوسوسة والإغواء فقالت:

«وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ...».

«وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ...».

«وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ...».

«وَعَدَّهُمْ...».

ثم يجيء التحذير الإلهي: «وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا...».

ثم اعلم أيها الشيطان: «إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَنٌ...». «وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا».

«إستفزز»: مشتقة من «استفزاز» وهي تعني الإثارة؛ الإثارة السريعة والعادية، ولكن الكلمة في الأصل تعني قطع شيء ما. واستعمال هذه الكلمة هنا للدلالة على تحريك الشخص وإثارته لينقطع عن الحق ويتوجه نحو الباطل.

«اجلب»: مأخوذ من «إجلاب» وفي الأصل من «جلبه» وهي تعني الصرخة الشديدة، والإجلاب تعني الطرد مع الأصوات والصرخات. وأمّا النهي عن «الجلب» الوارد في

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٧

الروايات فهو إما أن يعني أن الذي يذهب إلى المزارع لجمع الزكاة يجب عليه أن لا يصيح ويصرخ بحيث يخيف الأحياء، أو أنه يعني أن على المتسابقين عند سباق الخيل أن لا يصرخوا في وجوه الخيل الاخرى لتكون لهم الأسبقية.

«خيل»: لها معنيان، فهي تعني «الخيول» وأيضاً تعني (الخيالة)، أمّا في هذه الآية فقد وردت للتدليل على المعنى الثاني.

أمّا «رَجِل»: فهي تعني معكوس (الخيالة) أي (جيش الرجال والمشاة) وبهذا يتكوّن جيش الشيطان من (الخيالة والرجال) من جنسه أو من غير جنسه، وهذا يعني أن البعض يتأثر بسرعة بغواية الشيطان ويصبح من أعوانه ومساعديه فهؤلاء كالخيالة، أمّا البعض الآخر فيتأثر ببطء وعلى مهل كالمشاة والرجال.

رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٦٦) وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهًا فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا (٦٧) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩)

لماذا الكفران مع كل هذه النعم؟ هذه الآيات تابعت البحوث السابقة في مجال التوحيد ومحاربة الشرك، ودخلت في البحث من

خلال طريقين مختلفين، هما: طريق الاستدلال والبرهان، وطريق الوجدان ومخاطبة الإنسان من الداخل. ففي البداية تشير الآية إلى التوحيد الاستدلالي فتقول: «رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ».

طبعاً هناك أنظمة لأجل حركة الفلك في البحار.

تعلمون- طبعاً- بأن السفن تعتبر أضخم وسيلة لحمل الإنسان، واليوم فإن هناك من السفن العملاقة ما يكون بعضها بمساحة مدينة صغيرة.

ثم يضيف تعالى: «لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ». حتى تساعدكم في أسفاركم ونقل أموالكم

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٨

وتجارتكم وتعينكم في كل ما يخص أمور دنياكم ودينكم. أما لماذا؟ فلأن الله تبارك وتعالى «إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا».

من هذا التوحيد الاستدلالي والذي يعكس جانباً صغيراً من نظام الخلق، وعلم وقدره وحكمة الخالق جلّ وعلا، تنتقل الآية إلى أسلوب الاستدلال الفطري فتقول: لا تنسوا «وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ». حيث يضل أي شيء من دون الله، لأن ضرر البحر إذا وقع، كالتوفان وغيره يذهب بكل الحواجز وأستار التقليد والتعصب اللاصقة على صفاء الفطرة الإنسانية، لينكشف نور الفطرة الذي هو نور التوحيد والإيمان والعبودية لله دون غيره.

إن الآية تعبر عن قانون عام، عرفه كل من جزب ذلك، حيث تؤدي المشاكل والصعوبات الحادة التي يمر بها الإنسان- ويصل السكين العظم- إلى الغاء كل الأسباب الظاهرية التي كان يتعلق بها الإنسان، وتنعدم فاعلية العلل المادية التي كان يتشبث بها، وتنقطع كل الأسباب، إلا السبب الذي يصل الإنسان بمصدر العلم والقدرة المطلقتين، والذي هو- لوحده سبحانه وتعالى- قادر على حلّ أعقد المشكلات.

ثم تضيف الآية: «فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا».

مرة أخرى تغطي حجب الغرور والغفلة والتعصب هذا النور الإلهي، ويغطي غبار العصيان والذنوب وملاهي الحياة المادية فطرة الإنسان ووجدانه.

ولكن هل تظنون أن الله لا يستطيع أن ينزل بكم عقابه الشديد وأنتم على اليأس وفي قلب الصحارى والبراري؟

لذلك تقول الآية: «أَفَأَمْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ». ثم أضافت: «أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا».

بعد ذلك تضيف الآية مذكرة أمثال هؤلاء بأنكم هل تظنون أن هذه هي المرة الأخيرة التي تحتاجون فيها إلى السفر في البحر: «أَمْ أَمْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِبًا مِّنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَاتَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا» (١). أي: لا أحد حينئذٍ

(١) «حاصب»: تعني الهواء الذي يحرك معه الأحجار الصغيرة.

«قاصف»: بمعنى المحطم، وهي هنا تشير إلى العاصفة الشديدة التي تقلع كل شيء من مكانه.

«تبيع»: بمعنى تابع، وهي تشير هنا إلى الشخص الذي ينهض للمطالبة بالدم، وثمان الدم والثأر ويستمر في ذلك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٩٩

يطالب بدمكم ويثأر لكم منا.

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٧٠) يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِأِيمَانِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا (٧١) وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا (٧٢)

الإنسان سيد الموجودات: إنَّ واحدة من أبرز طرق الهداية والتربية، هي التنويه بشخصية الإنسان ومكانته ومواهبه، لذا فإنَّ القرآن الكريم وبعد بحوثه عن المشركين والمنحرفين في الآيات السابقة، يقوم هنا بتبيان الشخصية الممتازة للإنسان والمواهب التي منحها إياها رب العالمين، لكي لا يلوّث الإنسان جوهره الثمين، ولا يبيع نفسه بثمن بخس، حيث يقول تعالى: «وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ». ثم تشير الآيات القرآنية إلى ثلاثة أقسام من المواهب الإلهية التي حباها الله لبنى البشر، هذه المواهب هي أولاً: «وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرْ وَالْبَحْرِ».

ثم قوله تعالى: «وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ» ومع الالتفات إلى سعة مفهوم (الطيب) الذي يشمل كل موجود طيب وظاهر تتضح عظمه وشموليته هذه النعمة الإلهية الكبيرة.

أما القسم الثالث من المواهب فينص عليه قوله تعالى: «وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا».

لماذا كان الإنسان أفضل المخلوقات؟ إننا نعلم أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذي يتكوّن من قوى مختلفة، مادية ومعنوية؛ جسمية وروحية، وينمو وسط المتضادات، وله استعدادات غير محدودة للتكامل والتقدم.

في كتاب علل الشرايع عن الإمام علي عليه السلام قال: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ رَكَّبَ فِي الْمَلَائِكَةِ عَقْلاً بِلا شهوة، وركَّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركَّب في بني آدم كليهما، فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو شرٌّ من البهائم».

الآية التي بعدها تشير إلى موهبة أخرى من المواهب الإلهية التي حباها الله للإنسان، ورتبت عليه المسؤوليات الثقيلة بسبب هذه المواهب. ففي البداية تشير الآية إلى قضية

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٠

مختصر الامثل ج ٣ ١٤٩

القيادة ودورها في مستقبل البشر فتقول: «يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ». يعني أن الذين اعتقدوا بقيادة الأنبياء وأوصيائهم ومن ينوب عنهم في كل زمان وعصر، سوف يكونون مع قادتهم ويحشرون معهم، أمّا الذين انتخبوا الشيطان وأئمة الضلال والظالمين والمستكبرين قادة لهم، فإنهم سيكونون معهم ويحشرون معهم. هذا التعبير والإشارة إلى دور الإمامة وكونها من أسباب تكامل الإنسان، يعتبر في نفس الوقت تحذيراً لكل البشرية كي تدقق في انتخاب القيادة، ولا تعطى أزمية وجودها الفكرية والحياتية بيد أي شخص كان.

ثم تقسم الآية الناس يوم القيامة إلى قسمين: «فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا» (١). أما القسم الآخر فهو: من كان في الدنيا أعمى القلب: «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ. وَطَبِيعِي أَنْ يَكُونَ هَؤُلَاءِ الْعَمِيَانِ الْقُلُوبِ أَضَلُّ مِنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ وَأَضَلُّ سَبِيلًا».

وفي كتاب التوحيد للصدوق عن الإمام الباقر عليه السلام في قول الله عز وجل «وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ قَالَ: «من لم يدلّه خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار، ودوران الفلك والشمس والقمر والآيات العجيبات، على أن وراء ذلك أمر أعظم منه، فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً».

لذلك نقرأ في الآيات (١٢٤-١٢٦) من سورة طه، قوله تعالى: «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا» قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيَتْهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ .

دور القيادة في الإسلام: في الكافي عن الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام ينقل أنه عندما كان يتحدث عن الأركان الأساسية في الإسلام ذكر (الولاية) كخامس وأهم ركن، في حين أن الصلاة التي توضّح العلاقة بين الخالق والخلق، والصيام الذي هو رمز محاربة الشهوات، والزكاة التي تحدّد العلاقة بين الخلق والخالق، والحج الذي يكشف الجانب الاجتماعي في

(١) «فتيل»: تعنى الخيط الرقيق الموجود فى شق نوى التمر، وفى المقابل فإن «نقير» تعنى مؤخره نوى التمر، بينما تعنى «قطمير» الطبقة الرقيقة التى تغطى نوى التمر. وكل هذه التعبيرات كناية عن الشيء الصغير جداً والحقير.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠١

الإسلام، اعتبرت الأركان الأربعة الأساسية الأخرى. ثم يضيف الإمام الباقر عليه السلام: «ولم يناد بشيء كما نودى بالولاية» لماذا؟ لأن تنفيذ الأركان الأخرى لن يتحقق إلّا فى ظل هذا الأصل، أى فى ظل الولاية «١».

وفى تفسير العياشى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا تترك الأرض بغير إمام يحلّ حلال الله ويحرم حرامه وهو قول الله: (يوم ندعو كل أناس بإمامهم)». ثم قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله: من مات بغير إمام مات ميتة جاهليّة».

التاريخ يشهد أنّ بعض الامم تكون فى الصف الأول بين دول العالم وامم بسبب قيادتها العظيمة والكفوءة، ولكن نفس الامة تنهار وتسقط فى الهاوية، برغم امتلاكها لنفس القوى البشرية والمصادر الأخرى، إذا كانت قيادتها ضعيفة وغير كفوءة.

وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا (٧٣) وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (٧٤) إِذَا لَادَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا (٧٥)

بما أنّ الآيات السابقة كانت تبحث حول الشرك والمشركين، لذا فإن الآيات التى نبهت على تحذّر الرسول صلى الله عليه وآله من وساوس وإغواءات هذه المجموعة، حيث لا يجوز أن يبدى أدنى ضعف فى محاربة الشرك وعبادة الأصنام، بل يجب الاستمرار بصلابه أكبر. فى البداية تقول الآية أنّ وساوس المشركين كادت أن تؤثر فيك: «وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَأْخُذُوكَ خَلِيلًا».

ثم بعد ذلك تضيف أنه لولا نور العصمة وأن الله تعالى ثبتك على الحق: «وَلَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا».

وأخيراً لو أنّك ركنت اليهم فسوف يكون جزاءك ضعف عذاب المشركين فى الحياة الدنيا، وضعف عذابهم فى الآخرة: «إِذَا لَادَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا».

(١) فى الكافى عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «بنى الإسلام على خمس، على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية، ولم يُناد بشيء كما نودى بالولاية».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٢

إن كلما زاد مقام الإنسان من حيث العلم والوعى والمعرفة والإيمان، ازدادت قيمة وعمق الأعمال الخيرة التى يقوم بها، وبالتالى سيكون ثوابها أكثر، أمّا الثواب والعقاب فسوف يزداد تبعاً لهذه النسبة. إلهى لا تكنلى إلى نفسى: فى تفسير مجمع البيان قال ابن عباس إنه لما نزلت هذه الآية، قال النبى صلى الله عليه وآله: «اللهم لا تكنلى إلى نفسى طرفه عين أبداً».

وهذا الدعاء المهم لرسول الهدى صلى الله عليه وآله يعطينا درساً مهماً، وهو أنه يجب أن نذكر الله دائماً ونلتجىء إليه، ونعتمد على لطفه، حيث إنّ الأنبياء المعصومين لم يسلموا من المزالق بدون نصرة الله وتثيبتهم لهم، إذن فكيف بنا نحن مع كل ما يحيطنا من أشكال الوسوسة والإغواء الشيطانية.

وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا (٧٦) سُبْحَانَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا (٧٧)

سبب النزول

نزلت فى أهل مكة لما هموا بإخراج النبى صلى الله عليه وآله من مكة.

التفسير

مؤامرة خبيثة اخرى: في الآيات السابقة رأينا كيف أن المشركين أرادوا من خلال مكائدهم المختلفة أن يحرفوا رسول الله صلى الله عليه وآله عن الطريق المستقيم، لكن الله أنجاه بلطفه له ورعايته إياه، وبذلك فشلت خطط المشركين.

بعد تلك الأحداث، وطبقاً للآيات التي بين أيدينا، وضع المشركون خطة أخرى للقضاء على دعوة الرسول صلى الله عليه وآله، وهذه الخطة تقضى بإبعاد الرسول صلى الله عليه وآله عن مسقط رأسه (مكة) إلى مكان آخر قد يكون مجهولاً وبعيداً عن الأنظار، إلا أن هذه الخطة فشلت أيضاً بلطف الله أيضاً.

الآية الأولى تقول: «وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّوكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا». بخطة دقيقة.

ثم يحذّرهم القرآن بعد ذلك بقوله: «وَإِذَا لَمَّا يَلْبُثُونَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا». فهؤلاء سيبادون بسرعة بسبب ذنبهم العظيم في إخراج القائد الكفوء - الذي تذهب نفسه حسرات على

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٣

العباد - من البلد، إذ يعتبر ذلك أوضح مداليل كفران النعمة، ومثل هؤلاء القوم لا يستحقون الحياة ويستحقون العذاب الإلهي.

إن هذا الأمر لا يخص مشركي العرب وحسب، بل هو «سُنَّةٌ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا». وهذه السنة تنبع من منطق واضح، حيث إن هؤلاء القوم لا يشكرون النعم، ويحطمون مصباح هدايتهم ومنبع النور إليهم بأيديهم، إن مثل هؤلاء الأقوام لا يستحقون رحمة الخالق، وإن العقاب سيثملهم، ونعلم هنا أن الله تبارك وتعالى لا يفرق بين عباده، وبذلك فإن الأعمال المتشابهة في الظروف المتشابهة لها عقاب متشابه، وهذا هو معنى عدم اختلاف سنن الخالق جلّ وعلا.

أَقِمِ الصَّلَاةَ لِتُدْلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا (٧٩) وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا (٨٠) وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)

بعد سلسلة الآيات التي تحدثت عن التوحيد والشرك وعن مكائده المشركين ومؤامراتهم، تبحث هذه الآيات عن الصلاة والدعاء والإرتباط بالله والتي تعتبر عوامل مؤثرة في مجاهدة الشرك، ووسيلة لطرد إغواءات الشيطان من قلب وروح الإنسان، إذ تقول الآيات في البداية: «أَقِمِ الصَّلَاةَ لِتُدْلُوكَ الشَّمْسِ إِلَى عَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا».

في الروايات التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام توّضح لنا أن معنى «دلوك» هو زوال الشمس؛ وأما «عسق الليل» فإنها تعني منتصف الليل، حيث إن «عسق» تعني الظلمة الشديدة، وأكثر ما يكون الليل ظلمة في منتصفه.

أما «قرآن» فهي تعني كلاماً يقرأ، و«قرآن الفجر» هنا تعني صلاة الفجر.

وبهذا الدليل تعتبر هذه الآية من الآيات التي تشير بشكل إجمالي إلى أوقات الصلوات الخمس، ومع أخذ الآيات القرآنية الأخرى بنظر الاعتبار في مجال وقت الصلوات والروايات الكثيرة الواردة في هذا الشأن، يمكن تحديد أوقات الصلوات الخمس بشكل دقيق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٤

الآية بعد ذلك تقول: «إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا». والروايات الواردة في تفسير هذه الآية تقول إن ملائكة الليل والنهار هي التي تشاهد، لأنه في بداية الصباح تأتي ملائكة النهار لتحل محل ملائكة الليل التي كانت تراقب العباد، وحيث إن صلاة الصبح هي في أول وقت الطلوع، لذلك فإن المجموعتين من الملائكة تشاهداها وتشهد عليها.

وبعد أن تذكر الآية أوقات الصلوات الخمس تنتقل الآية التي بعدها إلى قوله تعالى:

«وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ». المفسرون الإسلاميون المعروفون يعتبرون هذا التعبير إشارة إلى نافلة الليل التي وردت روايات عديدة في فضيلتها.

ثم تقول الآية: «نَافِلَةٌ لَكَ». أي: برنامج إضافي علاوة على الفرائض اليومية.

وهذا التعبير اعتبره الكثير بأنه دليل على وجوب صلاة الليل على الرسول صلى الله عليه وآله، حيث إن هذه (النافلة) والتي هي بمعنى (زيادة في الفريضة) تخصك أنت دون غيرك يا رسول الله صلى الله عليه وآله.

في ختام الآية تتوضح نتيجة هذا البرنامج الإلهي الروحاني الرفيع حيث تقول: «عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا». ولا ريب فإنَّ المقام المحمود هو مقام مرتفع جداً يستثير الحمد، وبما أن هذه الكلمة وردت بشكل مطلق، لذا فقد تكون إشارة إلى أن حمد الأولين والآخرين يشملك.

الروايات الإسلامية تشير إلى أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة الكبرى. فالنبي صلى الله عليه وآله هو أكبر الشفعاء في ذلك العالم، وشفاعته تشمل الذين يستحقونها.

أما الآية التي بعدها فإنها تشير إلى أحد التعاليم الإسلامية الأساسية والذي ينبع من روح التوحيد والإيمان: «وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ» (١). فأى عمل فردى أو اجتماعي لا أبدؤه إلا بالصدق ولا انهيته إلا بالصدق، فالصدق والإخلاص والأمانة هي الخط الأساس لبداية ونهاية مسيرتي.

وفي الحقيقة فإنَّ سَرَ الانتصار يكمن هنا، وهذا هو طريق الأنبياء والأولياء الربانيين حيث كانوا يتجنبون كل غش وخداع وحيلة في أفكارهم وأقوالهم وأعمالهم وكل ما يتعارض مع الصدق.

وعادة فإنَّ المصائب التي نشاهدها اليوم والتي تصيب الأفراد والمجتمعات والأقوام

(١) «مدخل» و «مخرج»: هي تعنى الإدخال والإخراج، تؤدى هنا المعنى المصدرى.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٥

والشعوب، إنما هي بسبب الانحرافات عن هذا الأساس، ففي بعض الأحيان يكون أساس عملهم قائماً على الكذب والغش والحيلة، وفي بعض الأحيان يدخلون إلى عمل معين بصدق ولكنهم لا يستمرون على صدقهم حتى النهاية. وهذا هو سبب الفشل والهزيمة. أما الأصل الثاني الذي يعتبر من ناحية ثمرة لشجرة التوحيد، ومن ناحية أخرى نتيجة للدخول والخروج الصادق في الأعمال، فهو ما ذكرته الآية في نهايتها: «وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا».

وبعد أن ذكرت الآيات (الصدق) و (التوكل) جاء بعدها الأمل بالنصر النهائي، والذي يعتبر بحد ذاته عاملاً للتوفيق في الأعمال، إذ خاطبت الآية الرسول صلى الله عليه وآله بوعد الله تعالى:

«وَقُلْ حَيَاءَ الْحَقِّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ» (١)، لأنَّ طبيعة الباطل الفناء والدمار: «إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا». فللباطل جولة، إلّا أنه لا يدوم والعاقبة تكون لانتصار الحق وأصاحبه وأنصاره.

وفي الآيات أعلاه تمت الإشارة إلى ثلاثة عوامل للانتصار، العوامل التي ابتعد عنها مسلمو اليوم، ولهذا السبب نرى هزائمهم المتكررة في مقابل الأعداء والمستكبرين.

والعوامل الثلاثة هي: الدخول الصادق والخالص في الأعمال، والاستمرار على هذه الحالة الصادقة حتى النهاية «رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ». ثم الإعتدال على قدرة الخالق جلّ وعلا، والإعتدال على النفس، وترك أىّ إعتدال أو تبعية للأجانب «وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا».

وفي بعض الروايات تم تفسير قوله «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ» بقيام دولته المهدي عليه السلام فالإمام الباقر عليه السلام يبين أن مفهوم الكلام الإلهي هو: «إذا قام القائم عليه السلام ذهبت دولة الباطل».

وفي تفسير نور الثقلين عن الخرايج والجرايح عن حكيمة خبر طويل وفيه لما ولد القائم عليه السلام كان نظيفاً مفروغاً منه وعلى ذراعه الأيمن مكتوب: «جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا».

إن مفهوم هذه الأحاديث لا يحصر المعنى الواسع للآية بهذا المصداق، بل إن ثورة المهدي عليه السلام ونهضته هي من أوضح المصاديق حيث تكون نتيجتها الانتصار النهائي للحق على الباطل في كل العالم.

(١) «زهق»: من مادة «زهوق» بمعنى الإضمحلال والهلاك والإبادة، و «زهوق»: على وزن «قبول» صيغة مبالغه وهي تعنى الشيء الذى تمت إبادته بالكامل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٦

وخلاصة القول: إن حقيقة إنتصار الحق وانهزام الباطل هي تعبير عن قانون عام يجرى فى مختلف العصور، وإنتصار الرسول صلى الله عليه وآله على الشرك والأصنام، ونهضة المهدي عليه السلام الموعودة وانتصاره على الظالمين فى العالم، هما من أوضح المصاديق لهذا القانون العام.

وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا (٨٢)

القرآن وصفه للشفاء: الآية التى نبحتها الآن تشير إلى التأثير الكبير للقرآن الكريم ودوره البناء فى هذا المجال حيث تقول: «وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ».

إن «الشفاء» هو فى مقابل الأمراض والعيوب والنواقص، لذا فإن أول عمل يقوم به القرآن فى وجود الإنسان هو تطهيره من أنواع الأمراض الفكرية والأخلاقية الفردية منها والاجتماعية.

ثم تأتى بعدها مرحلة «الرحمة» وهى مرحلة التخلّق بأخلاق الله، وتفتح براعم الفضائل الإنسانية فى أعماق الأفراد الذين يخضعون للتربية القرآنية.

أمّا الظالمون فإنهم بدلاً من أن يستفيدوا من هذا الكتاب العظيم، فإنهم يتمسكون بما لا ينتج لهم سوى الذل والهوان «وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا».

لا ريب أن القرآن قادر على هداية الضالين، ولكن بشرط أن يبحث هؤلاء عن الحق، أما واقع المعاندين وأعداء الحق فإنه يكشف عن تعامل هؤلاء سلبياً مع القرآن، ولذلك لا يستفيدون من القرآن، بل يزداد عنادهم وكفرهم، لأن تكرار الذنب يكرّس فى روح الإنسان حالة الكفر والعناد.

وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا (٨٣) قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا (٨٤)

بعد أن تحدثت الآية السابقة عن شفاء القرآن، تشير الآية التى بين أيدينا إلى أحد أكثر الأمراض تجذراً فتقول: «وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ». ولكن عندما نسلب منه النعمة ويتضرر من ذلك ولو قليلاً: «وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا». «أعرض»: مشتقة من «إعراض» وهى تعنى عدم الالتفات، والمقصود منها هنا هو عدم الالتفات للخالق عزّ وجل، وإعراض الوجه عنه وعن الحق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٧

«نأى»: مشتقة من «نأى» وهى على وزن «رأى» وهى بمعنى الإبتعاد، وعند إضافة كلمة «بجانبه» إليها يكون المعنى التكبر والغرور والتزام المواقف المعادية. ويمكن الاستفادة من مجموع هذه الجملة أن الأشخاص الدنيويين يصابون بالغرور عند مجيء النعم، بحيث إنهم ينسون واهب ومعطى هذه النعم، ولا يقتصر الأمر على النسيان وحسب، بل ينتقل إلى الإعتراض والتكبر وعدم الالتفات للخالق.

جملة «مَسَّهُ الشَّرُّ» تشير إلى أدنى سوء يصيب الإنسان. والمعنى أن هؤلاء من الضعف وعدم التحمل بحيث إنهم ينسون أنفسهم ويغرقون فى دوامة اليأس بمجرد أن تصيبهم أبسط مشكلة.

الآية الثانية تخاطب الرسول صلى الله عليه وآله فتقول: «قُلْ كَلِّمْ يَعْملُ عَلَيَّ شَاكِلِيهِ». فالمؤمنون يطلبون الرحمة والشفاء من آيات القرآن الكريم، والظالمون لا- يستفيدون من القرآن سوى مزيد من الخسران، أما الأفراد الضعفاء فيصابون بالغرور في حال النعمة، ويصابون باليأس في حال ظهور المشاكل ... هؤلاء جميعاً يتصرفون وفق أمزجتهم، هذه الأمزجة التي تتغير وفق التربية والتعليم والأعمال المتكررة للإنسان نفسه.

وفي هذه الأحوال جميعاً فإن هناك علم الله الشاهد والمحيط بالجميع وخاصة بالأشخاص المهتمين: «فَرُبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا».

«شاكلة»: في الأصل مشتقة من «شكل» وهي تعنى وضع الزمام والرباط للحيوان.

و (شكال) يقال لنفس الزمام؛ وبما أن طبائع وعادات كل إنسان تقيده بصفات معينة لذا يقال لذلك «شاكلة».

إن الشاكلة تطلق على كل عادة وطريقة ومذهب وأسلوب يعطى للإنسان اتجاه معيناً.

لذا فإن العادات والصفات التي يكتسبها الإنسان بتكرار الأعمال اختيارياً وإرادياً، وكذلك الإعتقادات التي يقتنع بها ويعتمدها بسبب الاستدلال أو التعصب لرأى معين يطلق عليها كلها كلمة «شاكلة».

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)

ما هي الروح؟ تبدأ هذه الآية في الإجابة على بعض الأسئلة المهمة للمشركين ولأهل الكتاب، إذ تقول: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٨

يمكن أن نستفيد من مجموع القرائن الموجودة في الآية أن المستفسرين سألوا عن حقيقة الروح الإنسانية، هذه الروح العظيمة التي تميز الإنسان عن الحيوان، وقد شرفتنا بأفضل الشرف، حيث تتبع كل نشاطاتنا وفعاليتنا منها، وبمساعدها نكتشف أسرار العلوم. ولأن الروح لها بناء يختلف عن بناء المادة، ولها اصول تحكمها تختلف عن الاصول التي تحكم المادة في خواصها الفيزيائية والكيميائية، لذا فقد صدر الأمر إلى الرسول صلى الله عليه وآله أن يقول لهؤلاء في جملة قصيرة قاطعة: «قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي». ولكي لا يتعجب هؤلاء أو يندهشوا من هذا الجواب فقد أضافت الآية: «وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا». حيث لا مجال للعجب بسبب عدم معرفتكم بأسرار الروح بالرغم من أنها أقرب شيء إليكم.

وفي تفسير العياشي عن زرارة عن الإمام الباقر والصادق عليهما السلام عن قوله تعالى «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ» قالوا: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَحَدُ صَمَدٍ، وَالصَّمَدُ الشَّيْءُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ جَوْفٌ، فَإِنَّمَا الرُّوحُ خَلَقَ مِنْ خَلْقِهِ، لَهُ بَصَرٌ وَقُوَّةٌ وَتَأْيِيدٌ يَجْعَلُهُ فِي قُلُوبِ الرُّسُلِ وَالْمُؤْمِنِينَ».

إن الروح الإنسانية لها مراتب ودرجات، فتلجك المرتبة من الروح الموجودة عند الأنبياء والأئمة عليهم السلام، هي في مرتبة ودرجة عالية جداً، ومن آثارها العصمة من الخطأ والذنب وكذلك يترتب عليها العلم الخارق. وبالطبع فإن روحاً مثل هذه هي أفضل من الملائكة بما في ذلك جبرئيل وميكائيل. (فتدبر)

وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا (٨٦) إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا (٨٧)

ما عندك هو من رحمته وبركته: تحدثت الآيات السابقة عن القرآن، أمياً الآيات اللتان نبهتاهما الآن فهما أيضاً ينصبان في نفس الاتجاه. ففي البداية تقول الآية: «وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ». وبعد ذلك: «ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا». إننا نحن الذين أعطيناك هذه العلوم حتى تكون قائداً وهادياً للناس، ونحن الذين إذا شئنا استرجعناها منك، وليس لأحد أن يعترض على ذلك.

الآية التي بعدها جاءت لتستثنى، فهي تبين أننا إذا لم نأخذ ما أعطيناك، فليس ذلك سوى رحمة من عندنا، حيث يقول تعالى: «إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ». وهذه الرحمة لأجل هدايتك وإنقاذك، وكذلك لهداية وإنقاذ العالم البشري، وهذه الرحمة مكتملة لرحمة الخلق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٠٩

وفى نهاية الآية ولأجل تأكيد المعنى السابق جاء قوله تعالى: «إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا».

إنَّ وجود القابلية لهذا الفضل في قلبك الكبير بجهدك وعبادتك من جهة، وحاجة العباد إلى مثل قيادتك من جهة أخرى، جعلاً فضل الله عليك كبيراً للغاية فقد فتح الله أمامك أبواب العلم، وأنبأك بأسرار هداية الإنسان، وعصمك من الخطأ، حتى تكون أسوة وقدوة لجميع الناس إلى نهاية هذا العالم.

قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا (٨٩)

معجزة القرآن: الآيات التي بين أيدينا تتحدث عن إعجاز القرآن، ولأنَّ الآيات اللاحقة تتحدث عن حجج المشركين في مجال المعجزات، فإنَّ الآية التي بين أيدينا مقدمة للبحث القادم حول المعجزات. إنَّ الله يخاطب رسوله صلى الله عليه وآله ويقول له: «قُلْ لِّئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا».

إنَّ هذه الآية دعت - بصراحة - العالمين جميعهم، صغاراً وكباراً، عرباً وغير عرب، الإنسان أو أى كائن عاقل آخر، العلماء والفلاسفة والأدباء والمؤرخين والنوابع وغيرهم لقد دعتهم جميعاً لمواجهة القرآن، وتحديه الكبير لهم، وقالت لهم: إذا كنتم تظنون أن هذا الكلام ليس من الخالق وأنه من صنع الإنسان، فأنتم أيضاً بشر، فأتوا إذاً بمثله، وإذا لم تستطيعوا ذلك بأجمعكم، فهذا العجز أفضل دليل على إعجاز القرآن.

إنَّ هذه الدعوة للمقابلة والتي يصطلح عليها علماء العقائد بـ «التحدى» هي أحد أركان المعجزة، وعندما يرد هذا التعبير في أى مكان، نفهم بوضوح أن هذا الموضوع هو من المعجزات.

و تتحرك الآية التي بعدها لتوضيح جانب من جوانب الإعجاز القرآني، متمثلاً في شموليته وإحاطته بكل شيء، إذ يقول تعالى: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ». ولكن بالرغم من ذلك: «فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٠

حقاً إنَّ التنوع الذي يتضمَّنه القرآن الكريم تنوع عجيب، خاصة وأنه صدر من شخص لا يعرف القراءة والكتابة، ففي هذا الكتاب وردت الأدلة العقلية بجزئياتها الخاصة حول قضايا العقائد، وذكرت - أيضاً - الأحكام المتعلقة بحاجات البشر في المجالات كافة.

وتعرض القرآن - أيضاً - إلى قضايا وأحداث تاريخية تعتبر فريدة في نوعها ومثيرة في بابها، وخالية من الخرافات.

وتعرض إلى البحوث الأخلاقية التي تؤثر في القلوب المستعدة كتأثير المطر في الأرض الميتة. القضايا العلمية ورد ذكرها في القرآن الكريم، إذ ذكرت بعض الحقائق التي لم تكن تعرف في ذلك الزمان من قبل أى عالم.

والخلاصة: إنَّ القرآن سلك كل واد وتناول في آياته أفضل النماذج.

ولهذا السبب إذا اجتمعت الجن والإنس على أن يأتوا بمثله فلا يستطيعون ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَنَا بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تُزْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (٩٣)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: إنَّ جماعة من قريش - وفيهم الوليد بن المغيرة وأبو سفيان وأبو جهل - اجتمعوا عند الكعبة، وقال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمَّد فكلموه وخاصموه، فبعثوا إليه إنَّ أشرف قومك قد اجتمعوا لك، فبادر صلى الله عليه وآله إليهم ظناً منه أنهم بدا لهم في أمره، وكان حريصاً على رشدهم، فجلس إليهم، فقالوا: يا محمَّد إننا دعوناك لنعذر إليك، فلا نعلم

أحداً أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، شتمت الآلهة، وعبت الدين وسفّته الأحكام، وفرقت الجماعة، فإن كنت جئت بهذا لتطلب مالاً أعطيناك، وإن كنت

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١١

تطلب الشرف سودناك علينا، وإن كانت علة غلبت عليك طلبنا لك الأطباء.

فقال صلى الله عليه وآله: «ليس شيء من ذلك، بل بعثني الله إليكم رسولاً، وأنزل كتاباً، فإن قبلتم ما جئت به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه أصبر حتى يحكم الله بيننا».

قالوا: فإذاً ليس أحد أضيق بلداً منا فاسأل ربك أن يسيّر هذه الجبال، ويجرى لنا أنهاراً كأنهار الشام والعراق ...

فقال صلى الله عليه وآله: «ما بهذا بعثت» ...

قالوا: فأسقط علينا السماء كما زعمت إن ربك إن شاء فعل ذلك.

قال صلى الله عليه وآله: «ذاك إلى الله إن شاء فعل».

وقال قائل منهم: لا نؤمن حتى تأتي بالله والملائكة قبلاً. فقام النبي صلى الله عليه وآله وقام معه عبد الله بن أبي أمية المخزومي ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، فقال: يا محمّد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله ... فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ سبيلاً

إلى السماء ثم ترقى فيه وأنا أنظر، ويأتي معك نفر من الملائكة يشهدون لك، وكتاب يشهد لك ...

فانصرف رسول الله صلى الله عليه وآله حزينا لما رأى من قومه، فأنزل الله سبحانه الآيات.

التفسير

بعد الآيات السابقة التي تحدثت عن عظمه وإعجاز القرآن، جاءت هذه الآيات تشير إلى ذرائع المشركين، هذه الطلبات وردت على

سته أقسام هي:

١- في البداية يقولون: «وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَبُوعًا».

٢- قولهم كما في الآية: «أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجَّرَ الْأَنْهَارُ خِلْفَهَا تَفْجِيرًا».

٣- «أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمَتَ عَلَيْنَا كَيْفًا».

٤- «أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا».

٥- «أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرُفٍ».

٦- «أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِزُفَيْكَ حَتَّى تُنَزَّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ».

ثم يصدر الأمر من الخالق جلّ وعلا لرسوله صلى الله عليه وآله أن يقول لهؤلاء في مقابل اقتراحاتهم هذه: «قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٢

وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا (٩٤) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا (٩٥)

ذريعة عامة: الآيات السابقة تحدثت عن تذرّع المشركين - أو قسم منهم - في قضية التوحيد، أما الآيات التي نبحتها فإنها تشير إلى

ذريعة عامة في مقابل دعوة الأنبياء، حيث تقول: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا».

هل يمكن التصديق بأن هذه المهمة والمنزلة الرفيعة تقع على عاتق الإنسان، ثم - والكلام للمشركين - ألم يكن الأولى والأجدر أن

تقع هذه المهمة وهذه المسؤولية على عاتق مخلوق أفضل كالملائكة - مثلاً - كي يستطيعوا أداء هذه المهمة بجدارة ... إذ أين الإنسان

الترابي والرسالة الإلهية؟!

إنّ هذا المنطق الواهي الذي تحكيه الآيه على لسان المشركين لا يخصّ مجموعة أو مجموعتين من الناس، بل إنّ أكثر الناس وفي امتداد تاريخ التّبوّات قد تدرّعوا به في مقابل الأنبياء والرسل.

القرآن الكريم أجاب هؤلاء جميعاً في جملة قصيرة واحدة مليئة بالمعاني والدلالات، قال تعالى: «قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلِكَةٌ يَمْسُوْنَ مُطْمِنِينَ لَنَزَلْنَا عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا». يعني أنّ القائد يجب أن يكون من سنخ من بعث إليه، ومن جنس أتباعه، فالإنسان لجماعة البشر، والملك لجماعة الملائكة.

ودليل هذا التجانس والتطابق بين القائد وأتباعه واضح؛ فمن جانب يعتبر التبليغ العملي أهمّ وظيفته في عمل القائد من خلال كونه قدوة واسوة، وهذا لا يتمّ إلّا أن يكون القائد من جنسهم، يمتلك نفس الغرائز والأحاسيس، ونفس مكوّنات البناء الجسمي والروحي الذي يملكه كل فرد من أفراد جماعته.

من جانب آخر ينبغي للقائد أن يدرك جميع احتياجات ومشاكل أتباعه كي يكون قادراً على علاجهم، والإجابة على أسئلتهم، لهذا السبب نرى أنّ الأنبياء برزوا من بين عامة الناس.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٣

قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا (٩٦) وَ مَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَ مَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ عُمِّيًّا وَ بُكْمًا وَ صُمًّا مَا وَآهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧)

بعد أن قطعت الآيات السابقة أشواطاً في مجال التوحيد والنبوة وعرض حديث المعارضين والمشركين، فإنّ هذه الآيات عبارة عن خاتمة المطاف في هذا الحديث، إذ تضع النتيجة الأخيرة لكل ذلك. ففي البداية تقول الآية إذا لم يقبل اولئك أدلتك الواضحة حول التوحيد والنبوة والمعاد فقل لهم: «قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا».

إنّ هذه الآية تستهدف أمرين فهي أولاً: تهدّد المعارضين المتعصّبين والمعاندين، بأنّ الله خير وبصير ويشهد أعمالنا وأعمالكم، فلا تظنّوا بأنكم خارجون عن محيط قدرته أو أنّ شيئاً من أعمالكم خاف عنه.

الأمر الثاني هو أنّ الرسول صلى الله عليه وآله أظهر إيمانه القاطع بما قال، حيث إنّ إيمان المتحدّث القوي بما يقول، له أثر نفسي عميق في المستمع، وعسى أن يكون هذا التعبير القاطع والحاسم المقرون بنوع من التهديد مؤثراً فيهم، ويهزّ وجودهم، ويوقظ فكرهم ووجدانهم ويهديهم إلى الطريق الصحيح.

الآية التالية تؤكد على أنّ الشخص المهتدي هو الذي قذف الله تعالى نور الإيمان في قلبه:

«وَمَنْ يَهْدِ اللّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ». أمّا من أضله الله بسوء أعماله: «وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ». فالطريق الوحيد هو أن يرجعوا إليه ويطلبوا نور الهداية منه.

هاتان الجملتان تثبتان أنّ الدليل القوي والقاطع لا يكفي للإيمان، فما لم يكن هناك توفيق إلهي لا يستقر الإيمان أبداً.

أمّا عن سبب مجيء «أولياء» بصيغة الجمع، فقد يعود ذلك للإشارة إلى تعدد الآلهة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٤

الوهمية أو تنوع الوسائل التي يلجأون إليها، فيكون المقصود أنّ جميع هذه الوسائل وجميع البشر وغير البشر، وكل ما تؤلّهون من آلهة من دون الله، لا يستطيع أن ينقذكم من الضلالة وسوء العاقبة. ثم تذكر الآيات - بصيغة التهديد القاطع - جانباً من مصيرهم بسبب أعمالهم في يوم القيامة فتقول: «وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وَجْهِهِمْ». فبدلاً من الدخول بشكل عادي وبقامته منتصبه، فإنّ الملائكة الموكلين بهم يسحبونهم إلى جهنم على وجوههم تعذيباً لهم.

أو يزحفون كالزواحف على وجوههم وصدورهم بشكل ذليل ومؤلم.

ثم هم يحشرون: «عُمِّيًّا وَبُكْمًا وَصُمًّا».

إنّ مراحل ومواقف يوم القيامة متعددة، ففي بعض المراحل والمواقف يكون هؤلاء صماً وبكماً وعمياً، وهذا نوع من العقاب لهم، إلّا أنّ عيونهم في مراحل لاحقة تبدأ بالنظر، وآذانهم بالسمع، وألسنتهم بالنطق حتى يروا منظر العذاب ويسمعون كلام الشامتين، ويبدأون بالتأوّه والصراخ وإظهار ضعفهم، حيث إنّ كل هذه الامور هي نوع آخر من العقاب لهم.

إنّ المجرمين وأهل النار محرومون من رؤية ما هو سارّ ومن سماع امور تبعث على الفرح، ومن قول وكلام يستوجب نجاتهم، بل على العكس من ذلك، فهم لا ينظرون ولا يسمعون ولا يقولون إلّا ما يؤذى ويؤلم.

في الختام تقول الآية: «مَأْوِيَهُمْ جَهَنَّمُ». لكن لا تظنوا أنّ نارها كمنار الدنيا تنطفئ في النهاية، بل هي: «كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا». ذلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا (٩٩) قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا (١٠٠)

كيف يكون المعاد ممكناً؟ في الآيات السابقة رأينا كيف أنّ يوماً سيئاً ينتظر المجرمين في العالم الآخر، هذه العاقبة التي تجعل أيّ عاقل يفكر في هذا المصير، لذلك فإنّ الآيات التي بين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٥

أيدينا تقف على هذا الموضوع بشكل آخر. في البداية تقول: «ذلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا».

وبعد تعجبهم من المعاد الجسماني واعتبارهم ذلك أمراً غير ممكن، يقول القرآن بأسلوب واضح ومباشر وبلا فصل: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ». وعلى هؤلاء أن لا يعجلوا فإنّ القيامة وإن تأخرت، إلّا أنّها سوف تتحقق بلا ريب: «وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ».

ولكن هؤلاء الظالمين والمعادين مستمرون على ما هم فيه رغم سماعهم هذه الآيات: «فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا».

وحيث إنهم كانوا يصرخون ويصرّون على أن لا يكون النبي من البشر حسداً من عند أنفسهم وجهلاً وضلالاً، وقد منعهم هذا الحسد والجهل من التصديق بإمكانية أن يعطى الله كل هذه المواهب لإنسان، لذا فإنّ الخالق جلّ وعلا يخاطبهم بقوله: «قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ». ثم يقول: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا».

«قتور»: من «قتّر» على وزن «قتل» وهي تعنى الإمساك في الصرف، وبما أنّ (قتور) صيغة مبالغة فإنّها تعنى شدة الإمساك وضيق النظر. المعاد الجسماني: الآيات أعلاه من أوضح الآيات المرتبطة بإثبات المعاد الجسماني، فالمشركين كانوا يعجبون من إمكانية عودة الحياة إلى العظام النخرة، والقرآن يجيبهم بأنّ القادر على خلق السماوات والأرض، لديه القدرة على جمع الأجزاء المتناثرة للإنسان وأن يهبها الحياة مرة أخرى.

كما إنّ الاستدلال بالقدرة الكلية للخالق عزّ وجل في إثبات المعاد، هو واحد من الأدلة التي يذكرها القرآن مراراً ويعتمد عليها كثيراً. وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْتَأْذَنَّا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتُمَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثُورًا (١٠٢) فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِرَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا (١٠٣) وَقُلْنَا مَنْ بَعْدَهُ لِنَبِيِّ إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا (١٠٤)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٦

لم يؤمنوا رغم الآيات: قبل بضعة آيات عرفنا كيف أنّ المشركين طلبوا اموراً عجيبه غريبه من الرسول صلى الله عليه وآله، وهذه الآيات- التي نبحتها- تقف على نماذج للامم السابقة ممن شاهدوا أنواع المعجزات والأعمال غير العادية، إلّا أنّهم استمروا في الإنكار

وعدم الإيمان.

في البدء يقول تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ».

والآيات التسع هي: العصا، اليد البيضاء، الطوفان، الجراد، القمل، الضفادع، الدم، الجفاف، ونقص الثمرات. ولأجل التأكيد على الموضوع أسأل- والخطاب موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله- بنى إسرائيل (اليهود) أمام قومك المعارضين والمنكرين: «فَسَلِّ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ».

إلما أن الطاغية الجبار فرعون- برغم الآيات- لم يستسلم للحق، بل أكثر من ذلك إتهم موسى «فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا».

إن التعبير القرآني يكشف عن الاسلوب الدعائي التحريضي الذي يستخدمه المستكبرون ويتهمون فيه الرجال الإلهيين بسبب حركتهم الإصلاحية الربانية ضد الفساد والظلم، إذ يصف الظالمون والطاغاة معجزاتهم بالسحر أو ينعنونهم بالجنون كي يؤثروا من هذا الطريق في قلوب الناس ويفرقوهم عن الأنبياء.

ولكن موسى عليه السلام لم يسكت أمام اتهام فرعون له، بل أجابه بلغة قاطعة يعرف فرعون مغزاها الدقيق، إذ قال له: «قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَائِرٍ».

لذا فإنك- يا فرعون- تعلم بوضوح أنك تتنكر للحقائق، برغم علمك بأنها من الله! فهذه «بصائر» أى أدلة واضحة للناس كي يتعرفوا بواسطتها على طريق الحق، وعندها سيسلكون طريق السعادة، وبما أنك- يا فرعون- تعرف الحق وتنكره، لذا: «وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا». «مثبور»: من «ثبور» وتعنى الهلاك.

ولأن فرعون لم يستطع أن يقف بوجه استدالات موسى القوية، فإنه سلك طريقاً يسلكه جميع الطواغيت عديمي المنطق في جميع القرون وكافة الأعصار، وذاك قوله تعالى:

«فَأَرَادَ أَنْ يَنْتَفِزَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا».

«يستفز»: من «استفزاز» وتعنى الإخراج بقوة وعنف.

ومن بعد هذا النصر العظيم: «وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٧

الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا». فتأتون مجموعات يوم القيامة للحساب.

«لفيف»: من مادة «لف» وهنا تعنى المجموعة المتداخلة المعقدة بحيث لا يعرف الأشخاص، ولا من أى قبيلة هم.

وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَلْنَاهُ تَنْزِيلًا (١٠٦) قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِنَّا كُنَّا وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)

مرّة اخرى يشير القرآن العظيم إلى أهمية وعظمته هذا الكتاب السماوى ويجب على بعض ذرائع المعارضين. فى البداية تقول الآيات: «وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ». ثم تضيف: «وَبِالْحَقِّ نَزَلَ». ثم تقول: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا». إذ ليس لك الحق فى تغيير محتوى القرآن.

والفرق بين الجملة الاولى: «وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ» والجملة الثانية: «وَبِالْحَقِّ نَزَلَ» هو أن الإنسان قد يبدأ فى بعض الأحيان بعمل ما، ولكنه لا يستطيع اتمامه بشكل صحيح وذلك بسبب من ضعفه، أما بالنسبة للشخص الذى يعلم بكل شىء ويقدر على كل شىء، فإنه يبدأ بداية صحيحة، وينهى العمل نهاية صحيحة. وكمثال على ذلك: الشخص الذى يخرج ماء صافياً من أحد العيون، ولكن خلال مسير هذا الماء لا يستطيع ذلك الشخص أن يحافظ على صفاء هذا الماء ونظافته ويمنعه من التلوث، فيصل الماء فى هذه الحالة إلى الآخرين وهو ملوث، إلما أن الشخص القادر والمحيط بالامور، يحافظ على بقاء الماء صافياً وبعيداً عن عوامل التلوث حتى يصل إلى العطاشى

والمحتاجين له.

القرآن كتاب نزل بالحق من قبل الخالق، وهو محفوظ في جميع مراحلها سواء في المرحلة التي كان الوسيط فيها جبرائيل الأمين، أو المرحلة التي كان الرسول فيها هو المتلقى، وبمرور الزمن لاستطيع يد التحريف والتزوير أن تمتد إليه بمقتضى قوله تعالى: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» فالله هو الذى يتكفل حمايته وحراسته.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٨

لذا فإن هذا الماء النقى الصافى الوحي الإلهي القويم لم تناله يد التحريف والتبديل منذ عصر الرسول صلى الله عليه وآله وحتى نهاية العالم. الآية التي تليها ترد على واحدة من ذرائع المعارضين وحججهم، إذ كانوا يقولون: لماذا لم ينزل القرآن دفعة واحدة على الرسول صلى الله عليه وآله، ولماذا كان نزوله تدريجياً؟ كما تشير إلى ذلك الآية (٣٢) من سورة الفرقان التي تقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً». فيقول الله في جواب هؤلاء: «وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ». حتى يدخل القلوب والأفكار ويترجم عملياً بشكل كامل. ومن أجل التأكيد أكثر تبين الآية- بشكل قاطع- أن جميع هذا القرآن أنزلناه نحن: «وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا».

إن القرآن له إرتباط دقيق بعصره، أى إرتباط ب (٢٣) سنة، هي عصر نبوة نبي الخاتم بكل ما كانت تتمخض به من حوادث وقضايا. هل يمكن جمع حوادث (٢٣) سنة نفسها في يوم واحد، حتى ينزل القرآن في يوم واحد؟ النزول التدريجي يعنى الإرتباط الدائم للرسول صلى الله عليه وآله مع مصدر الوحي، إلّا أن النزول الدفعي يتم بمرحلة واحدة لا يتسنى للرسول صلى الله عليه وآله الإرتباط بمصدر الوحي لأكثر من مرة واحدة. الآية التي تليها استهدفت غرور المعارضين الجهلة حيث تقول: «قُلْ ءَامِنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا». إن المقصود من «الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ» هم مجموعة من علماء اليهود والنصارى من الذين آمنوا بعد أن سمعوا آيات القرآن، وشاهدوا العلامات التي قرأوها في التوراة والإنجيل، والتحقوا بصف المؤمنين الحقيقيين، وأصبحوا من علماء الإسلام. «يخرون»: بمعنى يسقطون على الأرض بدون إرادتهم، واستخدام هذه الكلمة بدلاً من السجود ينطوى على إشارة لطيفة، هي أن الواعين وذوى القلوب اليقظة عندما يسمعون آيات القرآن وكلام الخالق عز وجل ينجذبون إليه ويولعون به إلى درجة أنهم يسقطون على الأرض ويسجدون خشية بدون وعى واختيار (١).

(١) يقول الراغب في (المفردات): «يخرون» من مادة «خري» ويقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو. وقوله تعالى: «خَرُّوا لَهُ سُجَّدًا» تنبيه على اجتماع أمرين: السقوط وحصول الصوت منهم بالتسبيح، والتنبيه أن ذلك الخري كان صوت تسبيحهم بحمد الله لا بشيء آخر، ودليله قوله تعالى فيما بعد: «وَسَبِّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١١٩

«أذقان»: جمع «ذقن» ومن المعلوم أن ذقن الإنسان عند السجود لا يلمس الأرض، إلّا أن تعبير الآية إشارة إلى أن هؤلاء يضعون كامل وجههم على الأرض قبال خالقهم حتى أن ذقنهم قد يلمس الأرض عند السجود. الآية التي بعدها توضّح قولهم عندما يسجدون: «وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبَّنَا إِن كَان وَعْدُ رَبَّنَا لَمَفْعُولًا». هؤلاء يعبرون بهذا الكلام عن عمق إيمانهم واعتقادهم بالله وبصفاته وبوعده. والكلام على هذا الأساس يجمع اصول الدين في جملة واحدة.

وللتأكيد - أكثر - على تأثر هؤلاء بآيات ربهم، وعلى سجدة الحب التي يسجدونها تقول الآية التي بعدها: «وَيَخْرُونَ لِلذُّقَانِ يَكُونُونَ وَيَزِيدُهُمْ حُشُوعًا». «الخشوع»: هو حاله من التواضع والأدب الجسدى والروحي للإنسان في مقابل شخصية معينة أو حقيقة معينة. قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا (١١١)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: إن النبي صلى الله عليه وآله كان ساجداً ذات ليلة بمكة يدعو: يا رحمن يا رحيم، فقال المشركون: هذا يزعم أن له إلهاً واحداً، وهو يدعو مثني مثني.

التفسير

آخر الذرائع والأعدار: بعد سلسلة من الذرائع التي تشبث بها المشركون امام دعوة الرسول صلى الله عليه وآله، نصل مع الآيات التي بين أيدينا إلى آخر ذريعة لهم، وهي قولهم: لماذا يذكر رسول الله صلى الله عليه وآله الخالق بأسماء متعددة بالرغم من أنه يدعى التوحيد. القرآن رد على هؤلاء بقوله: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ .

إن هؤلاء عميان البصيرة والقلب، غافلون عن أحداث ووقائع حياتهم اليومية حيث كانوا يذكرون أسماء مختلفة لشخص واحد أو لمكان واحد، وكل اسم من هذه الأسماء كان

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٠

يعرف بشرط أو بصفه من صفات ذلك الشخص أو المكان. بعد ذلك، هل من العجيب أن تكون للخالق أسماء متعددة تناسب مع افعاله وكمالاته وهو المطلق في وجوده وفي صفاته والمنبع لكل صفات الكمال وجميع النعم، وهو وحده عز وجل الذي يدير دفة هذا العالم والوجود؟

ففي نهاية الآية التي نبحتها نرى المشركين يتحدثون عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وآله ويقولون: إنه يؤذينا بصوته المرتفع في صلاته وعبادته، فما هذه العبادة؟ فجاءت التعليمات لرسول الله صلى الله عليه وآله عبر قوله تعالى: «وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا».

إن الآية أعلاه تقول: لا تقرأ بصوت مرتفع بحيث يشبه الصراخ، ولا أقل من الحد الطبيعي بحيث تكون حركه شفاه وحسب ولا صوت فيها.

هذا الحكم الإسلامى في الدعوة إلى الاعتدال بين الجهر والإخفات يعطينا فهماً وإدراكاً من جهتين:

الاولى: لا تؤدوا العبادات بشكل تكون فيه ذريعة بيد الأعداء، فيقومون بالاستهزاء والتحجج ضدكم، إذ الأفضل أن تكون مقرونة بالوقار والهدوء والأدب.

الثانية: يجب أن يكون هذا التوجيه مبدأ لنا في جميع أعمالنا وبرامجنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وتكون جميع هذه الامور بعيدة عن الإفراط والتفريط، إذ الأساس هو: «وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا».

أخيراً نصل إلى الآية الأخيرة من سورة الإسراء، هذه الآية تنهى السورة المباركة بحمد الله، كما افتتحت بتسبيحه وتنزيه ذاته عز وجل. إن هذه الآية هي خلاصة أخيرة لكل البحوث التوحيدية التي وردت في السورة، وهي ثمرة لمفاهيمها جميعاً، إذ هي تخاطب الرسول صلى الله عليه وآله بالقول: «وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ».

ومثل هذا الرب في مثل هذه الصفات، هو أفضل من كل ما تفكر به: «وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا».

روى العلامة الطبرسى رحمه الله في تفسير مجمع البيان: إن في هذه الآية رداً على اليهود والنصارى، حين قالوا اتخذ الله الولد، وعلى مشركى العرب حيث قالوا: لبيك لا شريك لك، إلاً شريكاً هو لك. وعلى الصابئين والمجوس حين قالوا: لولا أولياء الله لذل الله.

«نهاية تفسير سورة الإسراء»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢١

١٨ سورة الكهف

محتوى السورة: تبدأ السورة بحمد الخالق جلّ وعلا، وتنتهي بالتوحيد والإيمان والعمل الصالح.

يشير محتوى السورة- كما في أغلب السور المكية- إلى قضية المبدأ والمعاد والترغيب والإنذار. وتشير أيضاً إلى قضية مهمة كان المسلمون يحتاجونها في تلك الأيام بشدة، وهي عدم استسلام الأقلية- مهما كانت صغيرة- إلى الأكثرية مهما كانت قوية في المقاييس الظاهرية، بل عليهم أن يفعلوا كما فعلت المجموعة الصغيرة القليلة من أصحاب الكهف، أن يتعدوا عن المحيط الفاسد ويتحركوا ضده.

فإذا كانت لديهم القدرة على المواجهة، فعليهم خوض الجهاد والصراع، وإن عجزوا عن المواجهة فعليهم بالهجرة.

إنّ السورة تشير إلى ثلاث قصص (قصة أصحاب الكهف، قصة موسى والخضر، وقصة ذى القرنين) حيث إنّ هذه القصص بخلاف أغلب القصص القرآنية لم تتكرر في مكان آخر من القرآن (أشارت الآية ٩٦ من سورة الأنبياء إلى يأجوج ومأجوج دون ذكر ذى القرنين). وهذه الإشارة تعتبر واحدة من خصائص هذه السورة المباركة.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ألا أدلكم على سورة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٢

شيعها سبعون ألف ملك، حين نزلت ملأت عظمتها ما بين السماء والأرض؟ قالوا: بلى. قال:

«سورة أصحاب الكهف، من قرأها يوم الجمعة غفر الله له إلى الجمعة الاخرى، وزيادة ثلاثة أيام، واعطى نوراً يبلغ السماء، ووُقي فتنه الدجال».

وعن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة الكهف في كل ليلة جمعة لم يمت إلّا شهيداً، وبعثه الله مع الشهداء، ووقف يوم القيامة مع الشهداء».

إنّ عظمة السور القرآنية وتأثيرها المعنوي، وبركاتها الأخلاقية، إنّما يكون بسبب الإيمان بها والعمل وفقاً لمضامينها.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَا كَثِيرٌ فِيهِ أُبْدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبِرَتْ كَلِمَةٌ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥)

البداية باسم الله، والقرآن: تبدأ سورة الكهف- كما في بعض السور الاخرى- بحمد الله، وبما أنّ الحمد يكون لأجل عمل أو صفة معينة مهمة ومطلوبة، لذا فإنّ الحمد هنا لأجل نزول القرآن الخالي من كل اعوجاج، فتقول الآية: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا».

هذا الكتاب هو كتاب ثابت ومحكم ومعتمد ومستقيم، وهو يحفظ المجتمع الإنساني ويحمي سائر الكتب السماوية.

«قَيِّمًا». وينذر الظالمين من عذاب شديد: «لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ». وفي نفس الوقت فهو: «وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا». وهؤلاء في نعيمهم «مَكِينِينَ فِيهِ أُبْدًا».

ثم تشير الآيات إلى واحدة من انحرافات المعارضين، سواء كانوا نصارى أو يهود أو مشركين، حيث تنذرهم هذا الأمر فتقول: «وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا». فهي تحذّر النصارى بسبب اعتقادهم بأنّ المسيح ابن الله، وتحذّر اليهود لأنهم اعتقدوا بأنّ عزير ابن الله، وتحذّر المشركين لأنّ الملائكة بنات الله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٣

ثم تشير الآيات إلى أصل أساسى فى إبطال هذه الإدعاءات الفارغة فتقول: **إِنَّ هَؤُلَاءِ لَا عِلْمَ لَهُمْ وَلَا يَتَّقِينَ** بهذا الكلام، وإنما هم مقلدون فيه للآباء، وإن آباءهم على شاكلتهم فى الجهل وعدم العلم: **«مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ»**. ومع ذلك فإنهم يتفوهون بكلام رهيب **«كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ»**. فهل يعقل أن يكون الله جسماً أو يكون له ولد، أو أن يحتاج إلى الصفات المادية وأن يكون محدوداً... إنه كلام رهيب، ومثل هؤلاء الذين يتفوهون به لا ينطقون إلا كذباً: **«إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا»**.

«قيم»: على وزن كلمة «سيد» مشتقة من مصدر الكلمة «قيام» وهنا تأتى بمعنى (الثبات والصمود) إضافة إلى أنها هى وصف للقرآن فى عدم وجود أى اعوجاج فى آياته، بل إن فى مضمونها تأكيد على استقامته واعتدال القرآن، وخلوه من أى شكل من أشكال التناقض، وإشارة إلى أبدية وخلود هذا الكتاب السماوى العظيم، وكونه أسوة لحفظ الأصالة، وإصلاح الخلل، وحفظ الأحكام الإلهية والعدل والفضائل البشرية.

صفه «القيم»: مشتقة من «قيومه» البارى عز وجل التى تعنى اهتمام البارى عز وجل وحفظه جميع الكائنات، والقرآن الذى هو كلام الله له نفس الصفة أيضاً.

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (٦) إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٧) وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (٨)

العالم ساحة اختبار: الآيات السابقة كانت تتحدث عن الرسالة وقيادة النبى صلى الله عليه وآله، لذا فإن أول آية نبحتها الآن، تشير إلى أحد أهم شروط القيادة، ألا وهى الإشفاق على الأمة فتقول: **«فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا»**. وهنا يجب الإلتباه إلى بعض الملاحظات:

«باخع»: من «بخع» على وزن «نخل» وهى بمعنى إهلاك النفس من شدة الحزن والغم.

استخدام كلمة «حديث» للتعبير عن القرآن، هو إشارة إلى ما ورد من معارف جديدة فى هذا الكتاب السماوى الكبير.

الآية التى بعدها تجسد وضع هذا العالم وتكشف عن أنه ساحة للاختبار والتمحيص

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٤

والبلاء، وتوضح الخط الذى ينبغى أن يسلكه الإنسان: **«إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا»**. لقد ملأنا العالم بأنواع الزينة، بحيث إن كل جانب فيه يذهب بالقلب، ويحير الأبصار، ويثير الدوافع الداخلية فى الإنسان، كيما يتسنى امتحانه فى ظل هذه الإحساسات والمشاعر ووسط أنواع الزينة وأشكالها، لتظهر قدرته الإيمانية، ومؤهلاته المعنوية.

لذلك تضيف الآية مباشرة قوله تعالى: **«لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا»**.

إن هنا إنذار لكل الناس، لكل المسلمين كى لا ينخدعوا فى ساحة الاختبار بزينة الحياة الدنيا، وبدلاً من ذلك عليهم أن يفكروا بتحسين أعمالهم.

ثم يبين تعالى أن أشياء الحياة الدنيا ليست ثابتة ولا دائمة، بل مصيرها إلى المحو والزوال:

«وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا».

«صعيد»: مشتقة من «صعود» وهى هنا تعنى وجه الأرض، الوجه الذى يتضح فيه التراب؛ و «جرز»: تطلق على الأرض الموات بسبب الجفاف وقلة المطر.

إن المنظر الذى نشاهده فى الربيع فى الصحارى والجبال لا تبقى إذ لا بد أن يأتى الخريف، وتسكت فيها نغمة الحياة.

حياة الإنسان المادية تشبه هذا التحول، فلا بد أن يأتى ذلك اليوم الذى يضع نهاية للقصور التى تناطح السماء، وللملابس الباذخة والنعم الكثيرة التى يرفل بها الإنسان، كذلك تنتهى المناصب والمواقع والإعتبارات، وسوف لن يبقى شىء من المجتمعات البشرية

سوى القبور الساكنة اليابسة، وهذا درس عظيم.

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذِ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (١٠) فَضَرْبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِئُوا أَمَدًا (١٢)

أسباب التزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس أن النضر بن الحرث بن كلدة وعقبه بن أبي معيط

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٥

أنفذهما قريش إلى أحبار اليهود بالمدينة وقالوا لهما: سلاهم عن محمد وصداقهم صفة، وخبراهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم من علم الأنبياء ما ليس عندنا. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار اليهود عن النبي صلى الله عليه وآله وقال لهم ما قالت قريش. فقال لهما أحبار اليهود: إسألوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فهو رجل متقول فأرأوا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه، وسلوه عن الروح ما هو؟

وفي رواية اخرى قالوا: فإن أخبركم عن اثنتين ولم يخبركم بالروح فهو نبي.

فانصرفا إلى مكة فقالا: يا معشر قريش! قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد وقصا عليهم القصة. فجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وآله و آله فسألوه، فقال صلى الله عليه وآله: «أخبركم بما سألتكم عنه غداً» ولم يستثن فانصرفوا عنه، فمكث صلى الله عليه وآله خمس عشرة ليلة لا يحدث الله إليه في ذلك وحيًا، ولا يأتيه جبرائيل حتى أرجف أهل مكة وتكلموا في ذلك. فشق على رسول الله صلى الله عليه وآله ما يتكلم به أهل مكة عليه، ثم جاءه جبرائيل عليه السلام عن الله سبحانه بسورة الكهف، وفيها ما سأله عنه عن أمر الفتية والرجل الطواف، وأنزل عليه: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ» الآية.

التفسير

بداية قصة أصحاب الكهف: في الآيات السابقة كانت هناك صورة للحياة الدنيا، وكيفية اختبار الناس فيها، ومسير حياتهم عليها، ولأن القرآن غالباً ما يقوم بضرب الأمثلة للقضايا الحساسة، أو أنه يذكر نماذج من التاريخ لتجسيد الوعي بالقضية، لذا قام في هذه السورة بتوضيح قصة أصحاب الكهف، وعبرت عنهم الآيات بأنهم (أنموذج) أو (أسوة).

إنهم مجموعة من الفتية الأذكياء المؤمنين، الذين كانوا يعيشون في ظل حياة مترفة بالزينة وأنواع النعم، إلا أنهم انسلخوا من كل ذلك لأجل حفظ عقيدتهم وللصراع ضد الطاغوت - طاغوت زمانهم - وذهبوا إلى غار خال من جميع أشكال الزينة والنعم، وقد أثبتوا بهذا المسلك أمر استقامتهم في سبيل الإيمان والثبات عليه.

في البداية يقول تعالى: «أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا».

إن لنا آيات أكثر عجباً في السماوات والأرض، وإن كل واحد منها نموذج لعظمة الخالق جلّ وعلا، وفي حياتكم - أيضاً - أسرار عجيبة تعتبر كل واحدة منها علامة على صدق دعوتك، وفي كتابك السماوي الكبير آيات عجيبة كثيرة، وبالطبع فإن قصة أصحاب الكهف ليست بأعجب منها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٦

«الرقيم»: في الأصل مأخوذة من «رقم» وتعني الكتابة، وهو اسم ثان لأصحاب الكهف، لأنه في النهاية تمت كتابة أسمائهم على لوحة وضعت على باب الغار.

البعض يرى أن «الرقيم» اسم الجبل الذي كان فيه الغار.

ثم تقول الآيات بعد ذلك: «إِذِ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ» وعندما انقطعوا عن كل أمل توجهوا نحو خالقهم: «فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ

رَحْمَةً». ثم: «وَهَيَّيْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا».

أى: أُرشدنا إلى طريق ينقذنا من هذا الضيق ويقربنا من مرضاتك وسعادتك، الطريق الذى فيه الخير والسعادة وإطاعة أوامر الله تعالى. وقد إستجيب دعوتهم: «فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا». «ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنُعَلِّمَ أَيُّ الْحَزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا».

بحوث

١- جملة «أَوَى الْفِتْيَةُ» من مادة (مأوى) وتعنى المكان الآمن، وهو إشارة إلى أن هؤلاء الفتية الهاربين من بيئتهم الفاسدة المنحرفة قد أحسوا بالأمن عندما وصلوا إلى الغار.

٢- «فتية»: جمع «فتى» وهو الشاب الحدث، ولكنها تطلق أحياناً على الأشخاص الكبار والمستنين الذين يملكون روحية شايبة، وقد ذكرت هذه الكلمة مع نوع من الإشادة والمدح لأصحاب الكهف بسبب صفات الفتوة والشهامة والتسليم فى مقابل الحق.

٣- جملة «ضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ» كناية لطيفة عن (التنويم)، كأنما يوضع ستار على أذن الشخص بحيث لا يسمع أى شىء، وهو ستار النوم.

٤- جملة «لِنُعَلِّمَ...» لا- تعنى أن الله يريد أن يعلم شيئاً جديداً، ويكثر استخدام هذا التعبير فى القرآن، والغرض منه هو تحقيق العلم الإلهي، بمعنى نحن أيقظناهم من المنام حتى يتحقق هذا المعنى، أى حتى يسأل كل واحد الآخر عن مقدار نومهم.

نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَّا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ لَآتَيْنَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْ لَّا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ لَآتَيْنَهُمْ مِنَ الْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٥) وَإِذِ اعْتَرَّتْهُمُ الْمَوْتُ وَمَا يُعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئُ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا (١٦)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٧

القصة المفصلة لأصحاب الكهف: بعد أن ذكرت الآيات بشكل مختصر قصة أصحاب الكهف، بدأت الآن مرحلة الشرح المفصل لها ضمن (١٤) آية وكان المنطلق فى ذلك قوله تعالى: «نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ». كلام خال من أى شكل من أشكال الخرافة والتزوير. «إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى».

وتشير الآيات القرآنية- وما هو ثابت فى التاريخ- إلى أن أصحاب الكهف كانوا يعيشون فى بيئه فاسدة وزمان شاعت فيه عبادة الأصنام والكفر، وكانت هناك حكومة ظالمة تحمى مظاهر الشرك والكفر والانحراف.

مجموعة أهل الكهف أحسوا بالفساد وقرروا القيام ضد هذا المجتمع، وفى حال عدم تمكنهم من المواجهه والتغيير فإنهم سيهجرون هذا المجتمع والمحيط الفاسد.

لذا يقول القرآن بعد البحث السابق: «وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا». فإذا عبدنا غيره: «لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا».

«شطط»: على وزن (وسط) تعنى الخروج عن الحد والإفراط فى الإبتعاد لذا فإن (شطط) تقال للكلام البعيد عن الحق، ويقال لحواشى وضاف الأنهار الكبيرة (شط) لكونها بعيدة عن الماء، وكونها ذات جدران مرتفعة.

إن هؤلاء الفتية المؤمنين ذكروا دليلاً واضحاً لإثبات التوحيد ونفى الآلهة، وهو قولهم:

إِنَّا نَرَىٰ وَبِوَضُوحٍ أَنَّ لِهَذِهِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ خَالِقًا وَاحِدًا، وَأَنَّ نِظَامَ الْخَلْقِ دَلِيلٌ عَلَىٰ وُجُودِهِ، وَمَا نَحْنُ إِلَّا جُزْءٌ مِنْ هَذَا الْوُجُودِ، لِذَا فَإِنَّ رَبَّنَا هُوَ نَفْسُهُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ.

ثم ذكروا دليلاً آخر وهو: «هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً».

فهل يمكن الاعتقاد بشىء بدون دليل وبرهان؟: «لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيْنَ يَدَيْهِمْ».

وهل يمكن أن يكون الظن أو التقليد الأعمى دليلاً على مثل هذا الاعتقاد؟ ما هذا الظلم الفاحش والانحراف الكبير: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا».

وهذا الإفراء هو ظلم للنفس، لأنَّ الإنسان يستسلم حينئذ لأسباب السقوط والشقاء، وهو أيضاً ظلم بحق المجتمع الذي تسرى فيه هذه الانحرافات، وأخيراً هو ظلم لله وتعزُّض لمقامه العظيم سبحانه وتعالى.

هؤلاء الفتية الموحدون قاموا بما يستطيعون لإزالة صدا الشرك عن قلوب الناس،

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٨

وزرع غرسه التوحيد في مكانها، إلَّا أنَّ ضجعه عبادة الأصنام في ذلك المحيط الفاسد، وظلم الحاكم الجبار كانتا من الشدة بحيث حبستا أنفاس عبادة الله في صدورهم وانكشمت مهممات التوحيد في حناجرهم. وهكذا اضطروا للهجرة لانتقاد أنفسهم والحصول على محيط أكثر استعداداً وقد تشاوروا فيما بينهم عن المكان الذي سيذهبون إليه ثم كان قرارهم: «وَإِذِ اعْتَرَلْتُمُوهُمْ وَمَا يُعْبِدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْوَا إِلَى الْكَهْفِ». حتى: «يَسْئُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَوْفِقًا».

«يهيئ» مشتقة من «تهيئة» بمعنى الإعداد.

«مرفق»: تعنى الوسيلة التي تكون سبباً للطف والرفق والراحة.

وليس من المستبعد أن يكون (نشر الرحمة) الوارد في الجملة الاولى إشارة إلى الألفاظ المعنوية لله تبارك وتعالى، في حين أنَّ الجملة الثانية تشير إلى الجوانب المادية التي تؤدي إلى خلاصهم ونجاتهم.

وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا (١٧) وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَكَلَمْتُمْ مِنْهُمْ رُجْبًا (١٨)

مكان أصحاب الكهف: يشير القرآن في الآيتين أعلاه إلى التفاصيل الدقيقة المتعلقة بالحياة العجيبة لأصحاب الكهف في الغار، وكأنها تحكى على لسان شخص جالس في مقابل الغار ينظر إليهم. في هاتين الآيتين إشارة إلى ست خصوصيات هي:

أولاً: فتحة الغار كانت باتجاه الشمال، ولكونه في الجزء الشمالي من الكرة الأرضية، فإنَّ ضوء الشمس كان لا يدخل الغار بشكل مباشر، فالقرآن يقول إنك إذا رأيت الشمس حين طلوعها لرأيت أنها تطلع من جهة يمين الغار، وتغرب من جهة الشمال: «وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٢٩

طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ».

وعلى هذا الأساس لم يكن ضوء الشمس يصل إلى أجسادهم بشكل مباشر، وهو أمر لو حصل فقد يؤدي إلى تلف أجسادهم، ولكن الأشعة غير المباشرة كانت تدخل الغار بمقدار كاف.

إنَّ عبارة (تزاور) التي تعنى (التمايل) تؤكد على هذا المعنى، وكأنَّ الشمس كانت مأمورة بأن تمر من اليمين (يمين الغار). وكلمة «تقرض»: التي تعنى (القطع) تؤكد نفس مفهوم السابق.

ثانياً: «وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ».

لقد كان اولئك في مكان واسع من الغار، وهذا يدل على أنَّهم لم يأخذوا مستقرهم في فتحة الغار التي تتسم بالضيق عادة، بل إنهم انتخبوا وسط الغار مستقراً لهم كي يكونوا بعيدين عن الأنظار، وبعيدين أيضاً عن الأشعة المباشرة لضوء الشمس.

وهنا يقطع القرآن تسلسل الكلام ويستنتج نتيجة معنوية، حيث يبين أنَّ الهدف من ذكر هذه القصة هو لتحقيق هذا الغرض: «ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا».

نعم، إن الذين يضعون أقدامهم في طريق الله، ويجاهدون لأجله فإن الله سيضملمهم بلطفه في كل خطوة وليس في بداية العمل فقط. إن الله يرضى هؤلاء حتى في أدق التفاصيل.

ثالثاً: إن نوم أصحاب الكهف لم يكن نوماً عادياً: «وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ».

هذه الحالة الاستثنائية لكي لا تقترب منهم الحيوانات المؤذية التي تخاف الإنسان اليقظ، أو لكي يكون شكلهم مربعاً كي لا يتجرأ إنسان على الإقتراب منهم، وهذا بنفسه اسلوب للحفاظ عليهم.

رابعاً: وحتى لا- تنهراً أجسامهم بسبب السنين الطويلة التي مكثوا فيها نياماً في الكهف، فإن الله تبارك وتعالى يقول: «وَنُقَلِّبُهم ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ».

حتى لا يتركز الدم في مكان معين، ولا تكون هناك آثار سيئة على العضلات الملاصقة للأرض بسبب الضغط عليها لمدة طويلة.

خامساً: في وصف جديد يقول تعالى: «وَكَلَّبُهُمْ بِسِطِّ ذِرَاعِيهِ بِالْوَصِيدِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٠

«وصيد»: كما يقول الراغب في المفردات، تعنى في الأصل الغرفة أو المخزن الذي يتم إيجاده في الجبال لأجل خزن الأموال، إلّا أن المقصود به هنا هو فتحة الغار.

سادساً: قوله تعالى: «لَوْ اَطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَاَلَمَلَيْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا».

وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لَلِئْسَاءِ لَوْ اَبْنَاهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْنَا قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لِيَتَلَطَّفَ وَ لَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا (٢٠)

اليقظة بعد نوم طويل: سوف نقرأ في الآيات القادمة أن نوم أصحاب الكهف كان طويلاً للغاية بحيث استمر (٣٠٩) سنة، وعلى هذا الأساس كان نومهم أشبه بالموت، ويقظتهم أشبه بالبعث، لذا فإن القرآن يقول في الآيات التي نبهتها: «وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ».

يعنى مثلما كنا قادرين على إنامتهم نوماً طويلاً فإننا أيضاً قادرين على إيقاظهم. لقد أيقظناهم من النوم، «لِئْسَاءِ لَوْ اَبْنَاهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ». «قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ».

وأخيراً، بسبب عدم معرفتهم لمقدار نومهم، «قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ».

ولكنهم كانوا يحسّون بالجوع وبالحاجة الشديدة إلى الطعام، لأن المخزون الحيوى في جسمهم انتهى أو كاد، لذا فأول اقتراح لهم هو إرسال واحد منهم مع نقود ومسكوكات فضية لشراء الغذاء: «فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ». ثم أردفوا: «وَلِيَتَلَطَّفَ وَ لَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا». لماذا هذا التلطف:

«إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ». ثم: «وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا».

وتوصيتهم هي توصية لكافة أنصار الحق، في أن لا- يفكروا بطهارة غذائهم المعنوى وحسب، بل عليهم أيضاً الإهتمام بطهارة طعام الأجسام كي يكون زكياً نقياً من جميع الأرجاس والشبهات.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣١

وَكَذَلِكَ أَغْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُغْلَبُوا أَنْ وَعِدَ اللَّهُ حَقًّا وَ أَنَّ السَّاعِيَةَ لَأَرْبَبٍ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِدًا (٢١) سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَذِبٌ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبٌ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثَامِنُهُمْ كَذِبٌ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَغْلِبُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَ لَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٢٢) وَ لَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكِ غَدًا (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَ اذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَ قُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا (٢٤)

هذا رشداً (٢٤)

نهاية قصة أصحاب الكهف: لقد وصلت بسرعة أصداء هجرة هذه المجموعة من الرجال المتشخصين إلى كل مكان وأغاضت بشدة الملك الظالم. لقد أصدر الحاكم تعليماته إلى جهاز شرطته للبحث عن أصحاب الكهف في كل مكان، وعليهم أن يتبعوا آثارهم حتى إلقاء القبض عليهم ومعاقبتهم.

وقد يكون هذا الأمر - وهو قيام مجموعة من ذوى المناصب فى الدولة بترك مواقعهم العالية فى الدولة وتعريض أنفسهم للخطر - هو بحد ذاته سبباً ليقظة الناس ومصدراً لوعيهم، أو لوعي قسم منهم على الأقل. إن قصة هؤلاء نفر قد استقرت فى صفحات التاريخ وأخذت الأجيال والأقوام تتناقلها عبر مئات السنين. والآن لنعد إلى الشخص المكلف بشراء الطعام ولننظر ماذا جرى له.

لقد دخل المدينة ولكنه فغر فاه من شدة التعجب، فالشكل العام للبناء قد تغير، هندام الجميع ولباسهم غريب عليه، الملابس من طراز جديد، خرائب الأمس تحولت إلى قصور، وقصور الأمس تحولت إلى خرائب. إنه لا يزال يعتقد بأن نومهم فى الغار كان ليوم أو بعض يوم.

لقد انتهى عجبه عندما مد يده إلى جيبه ليسد مبلغ الطعام الذى اشتراه، فالبائع وقع مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٢

نظره على قطعة نقود ترجع فى قدمها إلى (٣٠٠) سنة، وقد يكون اسم (دقيانوس) الملك الجبار مكتوباً عليها، وعندما طلب منه توضيحاً قال له بأنه حصل عليها حديثاً. وهنا أحس الشخص بأنه وأصحابه كانوا فى نوم عميق وطويل.

هذه القضية كان لها صدى كالقنبلة فى المدينة، وقد انتقلت عبر الألسن إلى جميع الأماكن. فقسم منهم لم يكن قادراً على التصديق بأن الإنسان يمكن أن يعود للحياة بعد الموت، إلا أن قصة أصحاب الكهف أصبحت دليلاً قاطعاً لأولئك الذين يعتقدون بالمعاد الجسمانى. ولذا فإن القرآن يبين أننا كما قمنا بإنامتهم نقوم الآن بإيقاظهم حتى ينتبه الناس: «وَكَذَلِكَ أَعْتَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيُعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». ثم أضاف تعالى: «وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَرِيْبٌ فِيهَا».

إن هذه الإنامة والإيقاظ هى أكثر إثارة للعجب من الموت والحياة فى بعض جوانبهما، فمن جهة قد مرت عليهم مئات السنين وهم نيام وأجسامهم لم تفن أو تتأثر، وقد بقوا طوال هذه المدة بدون طعام أو شراب، إذن كيف بقوا أحياء طيلة هذه المدة؟ ليس هذا دليلاً قاطعاً على قدرة الله على كل شىء؟ فالحياة بعد الموت، بعد مشاهدة هذه القضية ممكنة حتماً.

بعض المؤرخين كتب يقول: إن الشخص الذى أرسل لتهيئة الطعام وشراؤه، عاد بسرعة إلى الكهف وأخبر رفقاءه بما جرى، وقد تعجب كل منهم، فطلبوا من الخالق جلّ وعلا أن يميتهم، وينتقلون بذلك إلى جوار رحمة، وهذا ما حدث. لقد ماتوا ومضوا إلى رحمة ربهم، وبقيت أجسادهم فى الكهف عندما وصله الناس.

وهنا حدث النزاع بين أنصار المعاد الجسمانى وبين من لم يعتقد به، فالمعارضون للمعاد كانوا يريدون أن تنسى قضية نوم ويقظة أصحاب الكهف بسرعة، كى يسلبوا أنصار المعاد الجسمانى هذا الدليل القاطع، لذا فقد اقترح هؤلاء أن تغلق فتحة الغار، حتى يكون الكهف خافياً إلى الأبد عن أنظار الناس. قال تعالى: «إِذِ تَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُيُوتًا».

ولأجل إسكات الناس عن قصصهم كانوا يقولون: لا تتحدثوا عنهم كثيراً، إن قضيتهم معقدة ومصيرهم محاط بالألغاز. لذلك فإن: «رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ». أى: اتركوهم وشأنهم واتركوا الحديث عن قصصهم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٣

أما المؤمنون الحقيقيون الذين عرفوا حقيقة الأمر واعتبروه دليلاً حياً لإثبات المعاد بعد الموت، فقد جاهدوا على أن لا تنسى القصة أبداً لذلك اقترحوا أن يتخذوا قرب مكانهم مسجداً، وبقرينة وجود المسجد فإن الناس سوف لن ينسوه أبداً، بالإضافة إلى ما يتبرك به

الناس من آثارهم: «قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا».

الآية التي بعدها تشير إلى بعض الاختلافات الموجودة بين الناس حول أصحاب الكهف، فمثلاً تتحدث الآية عن اختلافهم في عددهم فتقول: «سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ». وبعضهم «وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ». وذلك منهم «رَجْمًا بِالْغَيْبِ». وبعضهم «وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَتَأْمُنُهُمْ كَلْبُهُمْ». أما الحقيقة فهي: «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ». ولذلك «مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ».

إن عدد أصحاب الكهف الحقيقي هو سبعة، حيث إن القرآن بعد ذكر الأقوال الباطلة، أبان في الأخير العدد الحقيقي لهم. إن الآية تنتهي بنصيحة تحث على عدم الجدل حولهم إلا بالجدل القائم على أساس المنطق والدليل: «فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهْرًا». بمعنى قل لهم قولاً منطقياً بحيث تتوضّح رجحان منطقك.

إن مفهوم الكلام هو: عليك أن تتحدث معهم بالإعتماد على الوحي الإلهي، لأن أقوى الأدلة هو ما يصدر عن الوحي دون غيره: «وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا».

الآية التي بعدها تعطى توجيهاً عاماً لرسول الله صلى الله عليه وآله: «وَلَا تَقُولَنَّ لِيْ سَائِيءٍ إِنَّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا». «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ». يعنى يجب أن تقول (إن شاء الله) لكل ما يخص أخبار المستقبل وأحداثه ولكل تصميم تتخذه، لأنك أولاً غير مستقل في اتخاذ القرارات، وإذا لم يشأ الله فإن كائناً من كان لا يستطيع القيام بأي عمل.

ثانياً: لا يصح للإنسان - من الوجهة المنطقية - أن يقطع في أخباره المستقبلية ومواقفه وتصميماته، لأن قدرته محدودة مع احتمال ظهور الموانع المختلفة، لذلك الأفضل له ذكر جملة (إن شاء الله) مع كل تصميم لفعل شيء.

وبعد ذلك يقول القرآن: «وَأَذْكُرُ رَبِّكَ إِذَا نَسَيْتَ». وهذه إشارة إلى أن الإنسان إذا نسي قول (إن شاء الله) وهو يتحدث عن أمر مستقبلي، فعليه أن يقولها فور تذكّره، حيث يعوّض بذلك عما مضى منه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٤

وبعد ذلك جاء قوله تعالى: «وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا».

وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (٢٥) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (٢٦) وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحِدًا (٢٧)

نوم أصحاب الكهف: من القرائن الموجودة في الآيات السابقة نفهم إجمالاً أن نوم أصحاب الكهف كان طويلاً جداً. هذا الموضوع يثير غريزة الاستطلاع عند كل مستمع، إذ يريد أن يعرف كم سنة بالضبط استمر نومهم؟

في المقطع الأخير من مجموعة الآيات التي تتحدث عن أصحاب الكهف، تبعد الآيات الشك عن المستمع وتقول له: «وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا».

ووفقاً للآية فإن مجموع نومهم وبقائهم في الكهف هو (٣٠٩) سنة.

ومن أجل وضع حدّ لأقوال الناس حول مكنتهم في الكهف تؤكّد الآية: «قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا». لماذا؟ لأن: «لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

والذي يعرف خفايا وظواهر عالم الوجود ويحيط بها جميعاً، كيف لا يعرف مدّة بقاء أصحاب الكهف: «أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ» (١). ولهذا السبب فإن سكان السماوات والأرض: «مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ».

وفي نهاية الآية يأتي قوله تعالى: «وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا». هذا الكلام هو تأكيد على الولاية المطلقة للخالق جلّ وعلا.

وفي آخر آية يتوجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وآله ويقول الله له: «وَآتِلْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ». أي: لا تعر أيّة

أهمية إلى أقوال الآخرين المخلوطة بالكذب والخرافة والوضع، يجب أن يكون اعتمادك في هذه الامور على الوحي الإلهي فقط، لأنه لا يوجد شيء يستطيع أن يغير كلامه تعالى: «لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ». فكلام الله تعالى وعلمه ليس من سنخ علم

(١) جملة «أُبَصِّرُ بِهِ وَأَسْمِعُ» هي صيغته تعجب، تبين لنا عظمة علم الخالق جلّ وعلا، والمعنى أنه بصير سميع بحيث إن الإنسان يعجب من ذلك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٥

الإنسان الذي يخضع يومياً للتغيير والتبديل بسبب الاكتشافات الجديدة والمعرفة الحديثة، لذلك لا يمكن الإعتماد عليه والركون إليه مائة في المائة، ولهذه الأسباب: «وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا». «ملتحد»: مشتقة من «لحد» على وزن «مهد» وهي الحفرة التي يميل وسطها إلى أحد الأطراف (كالحلح الذي يحفر لقبر الإنسان).

الجوانب التربوية لقصّة أهل الكهف: هذه القصّة التاريخية العجيبة التي يذكرها القرآن خالية من أيّ خرافة أو وضع، وفيها العديد من الدروس التربوية البناءة، تماماً كما في قصص القرآن الاخرى.

(أ) إن أول دروس هذه القصّة هو تحطيم حاجز التقليد، والإبتعاد عن التلّون بلون المجتمع الفاسد.

(ب) الهجرة من الأوساط المنحرفة درس آخر في هذه القصّة ذات العبر.

(ج) التقيّة بمعناها البناء درس آخر نستفيدة من هذه القصّة.

ونحن نعرف أن التقيّة ليست سوى أن يتكتم الإنسان على حقيقة أمره في الأماكن والمواقف التي لا يرتجى منها فائدة في ذكر الحقيقة، بل تكون سبباً للضرر، والتقيّة وقاية للنفس واحتفاظ بقوة الإنسان لوقت جهاد العدو حيث لا تقيّة.

(د) عدم وجود تفاوت بين الناس وهم في طريق الله، فالوزير كان إلى جانب الراعي، بل كان الاثنان إلى جانب الكلب الذي كان يقوم بالحراسة، وهذا درس آخر يتضح من خلاله أن إمتيازات الدنيا المادية، والمناصب المختلفة ليس لها أدنى نصيب أو تأثير على تصنيف الناس من أهل الحق وسالكيه، إذ الكل فيه سواء ... إن طريق الحق هو طريق التوحيد، وطريق التوحيد هو طرق وحدة جميع الناس.

(ه) الإمدادات الإلهية العجيبة عند ظهور المشاكل، هي نتيجة اخرى يجب الاعتبار بها.

(و) لقد تعلّمنا من أصحاب الكهف قيمة (طهارة الطعام) حتى في أصعب الظروف وأدقّها، لأنّ طعام الإنسان له آثار عميقة في روحه وفكره وقلبه، وعندما يختلط الطعام بالحرام والنجاسة، يتعد الإنسان عن طريق الله؛ طريق التقوى.

(ز) ضرورة الاعتماد على مشيئة الله وطلب العون من لطفه تعالى: وقول (إن شاء الله) في كل ما يتعلق بامور المستقبل ... درس آخر نتعلّمه من قصة أصحاب الكهف.

(ح) ضرورة النقاش المنطقي مع المعارضين درس آخر نستفيدة من قصة أصحاب الكهف.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٦

(ط) وأخيراً، فإنّ إمكانية المعاد الجسماني وعودة الناس إلى الحياة مرّة اخرى عند البعث، يعتبر عاشر وآخر درس نستفيدة من هذه القصّة.

إنّ هدف القرآن ليس قصّ القصص لغرض التسليّة، بل بناء الناس المقاومين المؤمنين الشجعان الواعين، وأحد الطرق لذلك هو ذكر نماذج أصيلة مما حدث طوال التاريخ البشري الملىء بالحوادث والمواقف.

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُتُطًا (٢٨) وَقَلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ

بِهِمْ سَرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضَيِّعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (٣٠) أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا (٣١)

سبب التزول

في تفسير مجمع البيان: نزلت الآية الاولى في سلمان، وأبي ذر، وصهيب، وعمار، وخباب، وغيرهم من فقراء أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وذلك أن مؤلفه قلوبهم جاؤوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا: يا رسول الله! إن جلست في صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء روائح صنانهم وكانت عليهم جبات الصوف، جلسنا نحن إليك، وأخذنا عنك، فلا يمنعنا من الدخول عليك إلا هؤلاء.

فلما نزلت الآية قام النبي صلى الله عليه وآله يلتمسهم فأصابهم في مؤخر المسجد يذكرن الله عز وجل، فقال: «الحمد لله الذي لم يمتني حتى أمرني أن أصبر نفسي مع رجال من أمتي، معكم المحيا ومعكم الممات».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٧

التفسير

الحفاه الأظهار: من الدروس التي نستفيدها من قصة أصحاب الكهف أن مقياس قيمة البشر ليست بالمنصب الظاهري أو بالثروة، بل عندما يكون المسير في سبيل الله يتساوى الوزير والراعي، والآيات التي نبحتها تؤكد هذه الحقيقة المهمة وتعطى للرسول صلى الله عليه وآله هذا الأمر: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ».

ثم تستمر الآيات مؤكدة خطابها للرسول صلى الله عليه وآله: «وَلَمَّا تَعِدُّ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» فلا تنظر إلى هؤلاء المستكبرين بدل المستضعفين من أجل بهارج الدنيا وزخارفها.

ثم من أجل التأكيد مجدداً، يقول تعالى: «وَلَا تَطْعَ مَنْ أَعْغَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا». «وَاتَّبَعِ هَوِيَهُ» والمطبع لأهوائه النفسية، والمفرط في أفعاله دائماً «وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا» (١).

إن الموضوع أعلاه من الأهمية بمكان، بحيث إن القرآن يقول للرسول صلى الله عليه وآله - بصراحة - في الآية التي بعدها: «وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ».

ولكن اعلمو أن هؤلاء عباد الدنيا الذين يسخرون من الألبسة الخشنة التي يرتديها أمثال سلمان وأبي ذر خاصة، والذين يعيشون حياة مرفهة باذخه ومليئة بالزينة، تنتهي عاقبتهم إلى سوء وظلام وعذاب: «إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا».

نعم، إنهم كانوا إذا عطشوا في هذه الدنيا كان الخدم يجلبون لهم أنواع المشروبات، ولكنهم عندما يطلبون الماء في جهنم يؤتى إليهم بماء كالمهل: «وَإِنْ يَسْتَعِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ» (٢). «بِئْسَ الشَّرَابُ». ثم «وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا» (٣).

وفي هذه الدنيا تتوفر لديهم أنواع المشروبات التي تحضر بين أيديهم بمجرد مناداة الساقى، وفي جهنم يوجد أيضاً ساقٍ وأشربة، أما ما هو نوع الشراب؟ إنه ماء كالمعدن المذاب! حرارته كحرارة دموع اليتامى وآهات المستضعفين والفقراء الذين ظلمهم هؤلاء الأغنياء. نعم، إن كل ما هو موجود هناك (في الآخرة) هو تجسيد لما هو موجود هنا (في الدنيا).

وبما أن أسلوب القرآن أسلوب تروبي وتطبيقي، فإنه بعدما بين أوصاف وجزاء عبيد

(١) «فرط»: تعني التجاوز عن الحد، وكل شيء يخرج عن حده ويتحول إلى إسراف يقال له (فرط).

(٢) «مهل»: على وزن «قفل» وهي تعني أي معدن مذاب.

(٣) «مرتفق»: من كلمة «رفق ورفيق» بمعنى محل اجتماع الأصدقاء.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٨

الدنيا، ذكر حال المؤمنين الحقيقيين وجوائزهم الثمينة الغالية التي تنتظرهم جزاء ما فعلوا.

لقد أجملت الآية كل ذلك بشكل مختصر، ثم بشكل تفصيلي نوعاً ما. ففي البدء قال تعالى:

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَأُنْصِفُ بِعَاجِرٍ مِّنْ أَحْسَنِ عَمَلِنَا». أى: إِنَّا لَا نَضِيعُ أَعْمَالَ الْعَامِلِينَ قَلِيلَهُ كَانَتْ أَوْ كَثِيرَهُ، كَلِيَهُ أَوْ

جَزِيَهُ، وَمِنْ أَى شَخْصٍ وَفَى أَى عَمْرٍ كَانَ:

«أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّتٌ عَدْنٌ». (الجنات الخالدة).

«تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ». (من تحت الأشجار والقصور).

«يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ» (١).

«وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ». (من حرير ناعم وسميك).

«مُتَّكِنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ» (٢).

«نِعْمَ الثَّوَابُ». «وَحَسَنَتْ مَرْتَفَعًا». (وحسنت مجعماً للأحبة).

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا (٣٢) كَلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْهُمَا أَكْلَهُمَا وَلَمْ

تَظْلِمَ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا (٣٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَ

هُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا (٣٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا (٣٦)

تجسيد لموقف المستكبرين من المستضعفين: فى الآيات السابقة رأينا كيف أن عبيد الدنيا كانوا يحاولون الإبتعاد فى كل شىء عن

رجال الحق وأهله المستضعفين، ثم عرّفنا الآيات جزاءهم فى الحياة الأخرى. الآيات التى نبثها تشير إلى حادثه اثنين من الأصدقاء أو

الإخوة الذين يعتبر كل واحد منهم نموذجاً لإحدى المجموعتين، ويوضّحان طريقة تفكير وقول وعمل هاتين المجموعتين. فى البداية

تخاطب الآيات الرسول صلى الله عليه وآله

(١) «أساور»: جمع «أسورة» على وزن «مشورة» وهى بدورها جمع (سوار) على وزن (غبار) و (كتاب) وهى فى الأصل مأخوذة من

كلمة فارسية عُرِبَتْ واشتقت منها الأفعال العربية.

(٢) «أرائك»: جمع «أريكة» وتطلق على السرير الذى تكون جوانبه جميعاً مغطاة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٣٩

فتقول: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا».

البستان والمزرعة كان فيهما كل شىء: العنب والتمر والحنطة وباقى الحبوب، لقد كانت مزرعة كاملة ومكفية من كل شىء: «كَلْتَا

الْجَنَّتَيْنِ آتَتْهُمَا أَكْلَهُمَا وَلَمْ تَظْلِمَ مِنْهُ شَيْئًا».

والأهم من ذلك هو توفر الماء الذى يعتبر سرّ الحياة، وأمرًا مهمًا لا غنى للبستان والمزرعة عنه، وقد كان الماء بقدر كاف: «وَفَجَّرْنَا

خِلَالَهُمَا نَهْرًا».

على هذا الأساس كانت لصاحب البستان كل أنواع الثمار: «وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ».

ولأنّ الدنيا قد استهوته فقد أصيب بالغرور لضعف شخصيته وشعر بالأفضلية والتعالى على الآخرين، حيث إلتفت وهو بهذه الحالة إلى

صاحبه: «فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا».

لقد تضخّم هذا الإحساس ونما تدريجيًا- كما هو حاله- ووصل صاحب البستان إلى حالة بدأ يظن معها أنّ هذه الثروة والمال والجاه

والنفوذ إنّما هى امور أبدية، فدخل بغرور إلى بستانه (فى حين أنّه لا- يعلم بأنّه يظلم نفسه) ونظر إلى أشجاره الخضراء التى كادت

أغصانها أن تنحني من شدة ثقل الثمر، وسمع صوت الماء الذي يجري في النهر القريب من البستان والذي كان يسقى أشجاره، وبغفلة قال: لا أظن أن يفنى هذا البستان، ولسان الآية وتصوير القرآن الكريم: «وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا». بل عمد إلى ما هو أكثر من هذا، إذ بما أن الخلود في هذا العالم بتعارض مع البعث والمعاد، لذا فقد فكر في إنكار القيامة وقال: «وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً». وهذا كلام يعكس وهم قائله وتمنياته.

ثم أضاف: حتى لو فرضنا وجود القيامة فإنني بموقعي ووجهتي سأحصل عند ربي - إذا ذهبت إليه - على مقام وموقع أفضل، لقد كان غارقاً في أوهامه: «وَلَيْنَ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا».

لقد أخذ صاحب البستان ضمن الحالة النفسية التي يعيشها والتي صورها القرآن الكريم، يضيف إلى نفسه في كل فترة وهماً بعد آخر من أمثال ما حكته عنه الآيات آنفاً، وعند هذا الحد انبرى له صديقه المؤمن وأجابه بكلمات يشرحهما لنا القرآن الكريم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٠

قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١)

جواب المؤمن: هذه الآيات هي رد على ما نسجه من أوهام ذلك الغنى المغرور العديم الإيمان، نسمعها تجرى على لسان صاحبه المؤمن. لقد بدأ الكلام بعد أن ظل صامتاً يستمع إلى كلام ذلك الرجل ذى الأفق الضيق والفكر المحدود، حتى ينتهي من كلامه، ثم قال له:

«قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا».

ثم عمد الرجل الموحد المؤمن إلى تحطيم كفر وغرور ذلك الرجل (صاحب البستان) فقال: «لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي».

إنك تتباهى بدنياك وأنا أفتخر بعقيدي وإيماني وتوحيدي: «وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا».

وبعد أن أشار إلى قضية التوحيد والشرك اللذين يعتبران من أهم المسائل المصيرية، جدد لومه لصاحبه قائلاً: «وَلَوْ لَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتِكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ».

وقد وضع سبحانه وتعالى الوسائل والإمكانات تحت تصرفك، حيث إنك لا تملك شيئاً من عندك، وبدونه تكون لا شيء.

ثم يقول له: ليس من المهم أن أكون أقل منك مالاً وولداً: «إِنَّ تَرَنِّ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا». «فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ».

وليس فقط أن يعطيني أفضل مما عندك، بل ويرسل صاعقه من السماء على بستانك، فتصبح الأرض الخضراء أرض محروقة جرداء:

«وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَيُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا».

أو أنه سبحانه وتعالى يعطى أوامره إلى الأرض كي تمنعك الماء: «أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا».

«حُسبان»: على وزن «لقمان» وهي في الأصل مأخوذة من كلمة «حساب»، ثم وردت

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤١

بعد ذلك بمعنى السهام التي تحسب عند رميها، وتأتي أيضاً بمعنى الجزء المرتبط بحساب الأشخاص، وهذا هو ما تشير إليه الآية أعلاه.

«صعيد»: تعني القشرة التي فوق الأرض، وهي في الأصل مأخوذة من كلمة صعود.

«زلق»: بمعنى الأرض الملساء بدون أى نباتات بحيث إن قدم الإنسان تنزلق عليها.

في الواقع، إن الرجل المؤمن والموحد حذر صديقه المغرور أن لا يطمأن لهذه النعم، لأنها جميعاً في طريقها إلى الزوال وهي غير قابلة للإعتماد.

وَ أَحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَ لَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ مَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ عُقْبًا (٤٤)

العاقبة السوداء: أخيراً انتهى الحوار بين الرجلين دون أن يؤثر الشخص الموحد المؤمن في أعماق الغنى المغرور، الذي رجع إلى بيته وهو يعيش نفس الحالة الروحية والفكرية، وغافل أن الأوامر الإلهية قد صدرت بإبادة بساتينه ومزروعاته الخضراء، وأنه وجب أن ينال جزاء غروره وشركه في هذه الدنيا، لتكون عاقبته عبرة للآخرين.

ويحتمل أن العذاب الإلهي قد نزل في تلك اللحظة من الليل عندما خيم الظلام، على شكل صاعقة مميته أو عاصفه هوجاء مخيفه، أو على شكل زلزال مخزب ومدمر. وأيضاً كان فقد دمرت هذه البساتين الجميلة والأشجار العالية والزرع المثمر، حيث أحاط العذاب الإلهي بتلك المحصولات من كل جانب: «وَأَحِيطَ بِثَمَرِهِ».

«أحيط»: مشتقة من «إحاطة» وهي في هذه الموارد تأتي بمعنى (العذاب الشامل) الذي تكون نتيجته الإبادة الكاملة.

وعند الصباح جاء صاحب البستان وتدور في رأسه الأحلام العديدة ليتفقد ويستفيد من محصولات البستان، ولكنه قبل أن يقترب منه واجهه منظر مدهش وموحش، يبس الماء في فمه، وتحطم الكبرياء والغرور اللذان كانا يثقلان نفسه وعقله. كأنه صحا من نوم عميق: «فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَ هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا».

وفي هذه اللحظة ندم على أقواله وأفكاره الباطلة: «وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٢

والأكثر حزناً وأسفاً بالنسبة له هو ما أصبح عليه من الوحدة في مقابل كل هذه المصائب والابتلاءات: «وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

ولأنه فقد ما كان يملكه من رأس المال ولم يبق لديه شيء آخر، فإن مصيره: «وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا».

وهكذا انتهى كل شيء ولا ينفع الندم، لأن مثل هذه اليقظة الإجبارية التي تحدث عند نزول الابتلاءات العظيمة يمكن ملاحظتها حتى عند أمثال فرعون ونمرود، وهي بلا قيمة، لهذا فإنها لا تؤثر على حال من ينتبه.

«هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ». نعم، لقد إتضح أن جميع النعم منه تعالى، وأن كل ما يريده تعالى يكون طوع إرادته، وأنه بدون الاعتماد على لطفه لا يمكن إنجاز عمل: «هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ عُقْبًا».

إذن، لو أراد الإنسان أن يحب أحداً ويعتمد على شيء ما، أو يأمل بهديته من شخص ما، فمن الأفضل أن يكون الله سبحانه محط أنظاره، وموقع آماله، ومن الأفضل أن يتعلق بلطفه تعالى وإحسانه.

وَ اضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَ كَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا (٤٥) الْمَالُ وَ الْبُنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَ خَيْرٌ أَمَلًا (٤٦)

بداية ونهاية الحياة في لوحة حية: الآيات السابقة تحدثت عن عدم دوام نعم الدنيا، ولأن إدراك هذه الحقيقة في عمر (٦٠-٨٠) سنة يعتبر أمراً صعباً بالنسبة للأفراد العاديين، لذا فإن القرآن قد جسّد هذه الحقيقة من خلال مثال حي ومعبر كي يستيقظ الغافلون المغرورون من غفلتهم ونومهم عندما يشاهدون تكرار هذا الأمر عدة مرّات خلال عمرهم. يقول تعالى: «وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ». هذه القطرات الواهبة للحياة تسقط على الجبال والصحراء، وتعيد الحياة للبذور المستعدة الكامنة في الأرض المستعدة بدورها، لتبدأ حركتها التكاملية.

إن الطبقة الخارجية السميكة للبذور تلين قبال المطر، وتسمح للبراعم في الخروج منها، وأخيراً تشق هذه البراعم التراب وتخرقه، الشمس تشع، النسيم يهب، المواد الغذائية في الأرض تقدّم ما تستطيع، تتقوى البراعم بسبب عوامل الحياة هذه ثم تواصل نموها،

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٣

- بعد فترة- نرى أن نباتات الأرض تتشابه فيما بينها: «فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ».

الجبل والصحراء يتحولان إلى قوة حياتية دافعة، أما البراعم والفواكه والأوراد فإنها تزين الأغصان، وكأن الجميع يضحك، يصرخون صراخ الفرح؛ يرقصون فرحاً.

لكن هذا الواقع الجذاب لا يدوم طويلاً، حيث تهب رياح الخريف وتلقى بغبار الموت على النباتات، يبرد الهواء، وتشح المياه، ولا تمضي مدة حتى يمسي ذلك الزرع الجميل الأخضر ذو الأغصان المورقة، ميتاً ويابساً: «فَأَصْبَحَ هَشِيمًا» (١).

تلك الأوراق التي لم تتمكن العواصف الهوجاء من فصلها عن الأغصان في فصل الربيع، قد أصبحت ضعيفة بدون روح بحيث إن أي نسيم يهب عليها يستطيع فصلها عن الأغصان ويرسلها إلى أي مكان شاء: «تَذْرُوهُ الرِّيحُ» (٢).

نعم: «وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا».

الآية التي بعدها تذكر وضع المال والثروة والقوة الإنسانية اللذين يعتبران ركنين أساسيين في الحياة الدنيا، حيث تقول: «الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».

إن هذه الآية تشير إلى أهم قسمين في رأسمال الحياة حيث ترتبط الأشياء الاخرى بهما، إنها تشير إلى (القوة الاقتصادية) و (القوة الإنسانية).

ثم يضيف القرآن: «وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً».

إن مفهوم (الباقيات الصالحات) يشمل كل فكره وقول وعمل صالح تدوم وتبقى آثاره وبركاته بين الأفراد والمجتمعات.

وَيَوْمَ نَسِيتُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاَهُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا (٤٧) وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صِيْفًا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا (٤٨) وَوَضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)

(١) «هشيم»: من «هشم» بمعنى محطّم، وهي هنا تطلق على النباتات المتيسّسة والمتحطّمة.

(٢) «تذروه»: من «ذرو» وتعنى التشتيت.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٤

يا ويلتاه من هذا الكتاب: تعقياً لما كانت تتحدث به الآيات السابقة عن غرور الإنسان وإعجابه بنفسه، وما تؤدى إليه هذه الصفات من إنكار للبعث والمعاد، ينصب المقطع الراهن من الآيات التي بين أيدينا على تبيان المراحل الممهدة للقيامة وفق الترتيب الآتي:

١- مرحلة ما قبل بعث الإنسان.

٢- مرحلة البعث.

٣- قسم من مرحلة ما بعد البعث.

الآية الاولى تذكر الإنسان بمقدمات البعث والقيامة فتقول: إن إنهار معالم الشكل الراهن للعالم هي أول مقدمات البعث، وسيتم هذا التغيير لشكل العالم من خلال مجموعة مظاهر، في الطليعة منها تسيير الجبال الرواسي وكل ما يمسك الأرض ويبرز عليها، حتى تبدو الأرض خالية من أي من المظاهر السابقة: «وَيَوْمَ نَسِيتُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً».

هذه الآية تشير إلى حوادث قبيل البعث، وهي حوادث كثيرة جداً. والملاحظ أن السور القصار تتحدث عنها بشكل بارز في إطار حديثها عما بات يعرف اصطلاحاً ب «أشراط الساعة».

إن الاستفادة من مجموعة تلك السور أن وجه العالم الراهن يتغير بشكل كلي حيث تتلاشى الجبال، وعلى حطام كل ذلك تظهر إلى

الوجود سماء جديدة، وأرض جديدة، ليبدأ الإنسان حينئذ حياته الاخرى في مرحلة البعث والحساب.

بعد ذلك تضيف الآية قوله تعالى: «وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا».

«نغادر»: من «غدر» بمعنى الترك. ولذلك يقال للذي يخلف الوعد والميثاق ويتركه بأنه «غدر» ويقال لمياه الامطار المتجمعة في مكان واحد ب «الغدير» لأنها قد تركت هناك.

تؤكد الآية الآنفه الذكر على أن المعاد هو حالة عامة لا يستثنى منها أحد.

الآية التي بعدها تتحدث عن كيفية بعث الناس فتقول: «وَعَرَضُوا عَلَيَّ رَبِّكَ صِفًا». إن استخدام هذا التعبير قد يكون إشارة إلى حشر كل مجموعة من الناس تتشابه في أعمالها في صف واحد؛ أو أن الجميع سيكونون في صف واحد دون أية إمتيازات أو تفاوت، وسوف يقال لهم: «لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ».

فليس ثمة كلام عن الأموال والثروات، ولا الذهب والزينة، ولا الإمتيازات والمناصب

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٥

المادية، ولا الملابس المختلفة، وليس هناك ناصر أو معين، ستعودون كمثلكم الحالة التي خلقناكم فيها أول مرة، بالرغم من أنكم كنتم تتوهمون عدم امكان ذلك: «بَلْ زَعَمْتُمْ أَنَّنِي نَجْعَلُ لَكُمْ مَوْعِدًا».

وذلك في وقت سيطرت فيه حالة الغرور عليكم بما أوتيتم من إمكانيات مادية غفلتم معها عن الآخرة، وأصبحتم تفكرون في حياتكم الدنيا وخلودها، وغفلتم عن نداء الفطرة فيكم.

ثم تشير الآيات إلى مراحل اخرى من يوم البعث والمعاد فتقول: «وَوُضِعَ الْكِتَابُ».

هذا الكتاب الذي يحتوي على أحوال الناس بكل تفصيلاتها: «فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ». وذلك عندما يطلعون على محتواه فتتجلى آثار الخوف والوحشة على وجوههم.

في هذه الأثناء يصرخون: «وَيَقُولُونَ يَوْمَئِذٍ مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا».

بالإضافة إلى الكتاب المكتوب ثمة دليل آخر: «وَوَحِّدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا». وجدوا الحسنات والسيئات، الظلم والعدل، السليبات والخيانات، كل هذه وغيرها وجدوها متجسدة أمامهم.

في الواقع إنهم يلاقون مصير أعمالهم: «وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا». الذي سيشملهم هناك هو - لا محالة - ما قاموا به في هذه الحياة الدنيا، لذلك فلا يلومون أحداً سوى أنفسهم.

ترى ما مقدار ما يعكسه الإيمان بهذا اليوم - بهذه المحكمة بكل ما تتخلله من مشاهد ومواقف - على قضية تربية الإنسان ودفعه

ليتحرك في خط الرسالة والاستقامة والابتعاد عن الشهوات. فهل يمكن أن يجمع الإنسان بين الذنب، وبين إيمانه ويقينه بهذا اليوم؟!

وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ

بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا (٥٠) مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَوَمَا كُنْتُمْ تُتَّخَذُونَ الْمُضَلَّلِينَ عَضُدًا (٥١) وَيَوْمَ يَقُولُ

نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا (٥٢) وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعُوها وَ لَمْ

يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا (٥٣)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٦

لا تتخذوا الشياطين أولياء: لقد تحدثت الآيات مرات عدة عن خلق آدم وسجود الملائكة له، وعدم انصياع إبليس. وقد قلنا: إن هذا

التكرار يتضمن دروساً متعددة، وفي كل مقطع مكرر هناك دروس وعبر جديدة.

ولأن الآيات السابقة ذكرت مثلاً واقعياً عن كيفية وقوف الأثرياء المستكبرين والمغرورين في مقابل الفقراء المستضعفين وتجسد عاقبة

عملهم، ولأن الغرور كان هو السبب الأصلي لإنحراف هؤلاء وانجرارهم إلى الكفر والطغيان، لذا فإن الآيات تعطف الكلام على قصة

إبليس وكيف أبى السجود لآدم غروراً منه وعلوّاً، وكيف قاده هذا الغرور والعلو إلى الكفر والطغيان.

إضافة إلى ذلك، فإنّ هذه القصة توضّح أنّ الانحرافات تنبع من وساوس الشيطان.

في البداية تقول الآيات: تذكروا ذلك اليوم الذي فيه: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ».

هذا الاستثناء يمكن أن يوهمنا بأنّ إبليس كان من جنس الملائكة، في حين أنّ الملائكة معصومون، فكيف سلك إبليس - إذاً - طريق

الطغيان والكفر إذا كان من جملتهم؟! لذلك فإنّ الآيات - منعاً لهذا الوهم - تقول مباشرة إنّه: «كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ».

إنّه إذاً لم يكن من الملائكة، لكنه - بسبب عبوديته وطاعته للخالق جلّ وعلا - قرّب وكان في صف الملائكة، إلّا أنّه - بسبب لحظة من

الغرور والكبر - سقط وأصبح أكثر الموجودات نفرةً وابتعاداً عن الله تبارك وتعالى.

ثم تقول الآية: «أَفْتَنَّاكَ مِنْهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْ لِيَاءَ مِنْ دُونِي».

والعجب أنّهم: «وَهُمْ لَكُمْ عِدُوٌّ». وهذا العدو، هو عدوّ صعب مصمّم على ضلالكم وأن يوردكم سوء العاقبة، وقد أظهر عدوانه منذ

اليوم الأوّل لأبيكم آدم عليه السلام.

فاتخاذ الشيطان وأولاده بدلاً من الخالق المتعال أمر قبيح: «بُنِسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا».

الآية التي بعدها هي دليل آخر على إبطال هذا التصور الخاطيء، إذ تقول: عن إبليس وابنائهم أنّهم لم يكن لهم وجود حين خلق

السموات والأرض، بل لم يشهدوا حتى خلق أنفسهم: «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ». حتى نطلب العون منهم

في خلق العالم، أو نطلعهم على أسرار الخلق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٧

لذا فإنّ الشخص الذي ليس له أيّ دور في خلق العالم، وحتى في خلق من يقع على شاكلته ومن هو من نوعه، ولا يعرف شيئاً من

أسرار الخلق، كيف يكون مستحقاً للولاية، أو العبادة، وأيّ قدرة أو دور يملك؟

ثم تقول: «وَمَا كُنْتَ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا».

يعنى أنّ الخلق قائم على أساس الصدق والصحة والهداية، أمّا الكائن الذي يقوم منهج حياته على الإضلال والإفساد، فليس له مكان

في إدارة هذا النظام.

آخر آية من الآيات التي نبحثها، تحذّر مرّة أخرى، وتقول: تذكروا يوماً يأتي فيه النداء الإلهي: «وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ

زَعَمْتُمْ».

لقد كنتم تنادونهم عمراً كاملاً، وكنتم تسجدون لهم، واليوم وبعد أن أحاطت بكم أمواج العذاب في ساحة الجزاء، نادوهم ليأتوا

لمساعدتكم ولو لساعة واحدة فقط.

هناك ينادى الأشخاص الذين لا تزال ترسّيات أفكار الدنيا في عقولهم: «فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ». فلم يجيبوا على نداءهم، فكيف

بمساعدهم وانقاذهم!

«وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا» (١).

ثم تقول الآية التي بعدها موضّحة عاقبة الذين اتبعوا الشيطان والمشركين: «وَرَاءَ الْمُجْرِمُونَ النَّارَ».

لقد انكشفت لهم النار التي لم يكونوا يصدّقون بها أبداً، وظهرت أمام أعينهم، وحينئذ يشعرون بأخطائهم، ويتيقنون بأنهم سيدخلون

النار: «فَطَنُوا أَنَّهُمْ مُؤَاقِعُهَا».

ثم يتيقنون أيضاً أن لا منقذ لهم منها: «وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا».

فلا تنقذهم اليوم منها لا معبوداتهم ولا شفاعة الشفعاء، ولا الكذب أو التوسل بالذهب والقوة، إنّها النار التي يزداد سعيها بسبب

أعمالهم.

«مواقعها»: مشتقة من «مواقعة» بمعنى الوقوع على الآخرين، وهى إشارة إلى أنهم يقعون على النار، وأن النار تقع عليهم، فالنار تنفذ فيهم وهم ينفذون فى النار؛ وقد قرأنا فى الآية (٢٤) من سورة البقرة قوله تعالى: «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ».

(١) «موبق»: من «وبوق» على وزن «نبوغ» وهى تعنى الهلاك، و «موبق» تقال للمهلكة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٨

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا (٥٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَ يَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا (٥٥) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا (٥٦)

فى انتظار العقاب: تنطوى هذه الآيات على تلخيص واستنتاج لما ورد فى الآيات السابقة، وهى تشير - أيضاً - إلى بحوث قادمة. الآية الاولى تقول: «وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ».

لقد ذكرنا نماذج من تاريخ الماضين المليء بالإثارة، وقد أوضحنا للناس الحوادث المرّة للحياة واللحظات الحلوة فى التاريخ، وقد فصلنا بيان هذه الامور بحيث تتقبلها القلوب المستعدة للحق، وتكون الحجّة على الآخرين تامّة، ولا يبقى ثمة مجال للشك.

ولكن بالرغم من هذا فإن مجموعة عصاة لم يؤمنوا أبداً: «وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا».

الآية التى بعدها تقول: إنه بالرغم من كل هذه الأمثلة المختلفة والتوضيحات المثيرة والأساليب المختلفة التى ينبغى أن تنفذ إلى داخل الإنسان المستعد لقبول الحق، فإن هناك مجموعة كبيرة من الناس لم تؤمن: «وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ». أى مصير الامم السالفة: «أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا» (١).

فيرونه بأم أعينهم.

إنّ هذه الآية إشارة إلى أنّ هذه المجموعة المعاندة والمغرورة لا تؤمن بإرادتها وبشكل طبيعى أبداً، بل هم يؤمنون فى حالتين فقط:

أولاً: عندما يصيبهم العذاب الأليم الذى نزل مثله فى الأقوام والامم السابقة.

ثانياً: عندما يشاهدون العذاب الإلهى بأعينهم، وقد أشرنا مراراً إلى أنّ مثل هذا الإيمان هو إيمان عديم الفائدة.

(١) «قبل»: تعنى التقابل، بمعنى مشاهدة العذاب الإلهى بالعين.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٤٩

ومن أجل طمأنة الرسول صلى الله عليه وآله فى مقابل صلافة وعناد أمثال هؤلاء، تقول الآية:

«وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ».

ثم تقول الآية: إنّ هذه القضية ليست جديدة، بل إنّ من واقع هؤلاء الأشخاص المعارضة والاستهزاء بآيات الله: «وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا» (١).

وهذه الآية تشبه الآيات (٤٢-٤٥) من سورة الحج التى تقول: «وَإِنْ يَكْذِبُواكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ» الآيات.

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا (٥٧) وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا (٥٨) وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا (٥٩)

لا استعجال فى العقاب الإلهى: الآيات السابقة كانت تتحدث عن مجموعة من الكافرين المتعصبين والمظلمة قلوبهم؛ والآيات التى بين

أيدينا تستمر فى نفس البحث. فى البدايةً قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاؤُهُ».

إن استخدام تعبير (ذَكَرَ) يوحى إلى أن تعليمات الأنبياء عليهم السلام هي بمثابة التذكير بالحقائق الموجودة بشكل فطري في أعماق الإنسان، وإن مهمة الأنبياء هي رفع الحجب عن نقاء وشفافية هذه الفطرة. الطريف في الأمر أن الآية الكريمة رسمت ثلاثة مسالك ليقظة هؤلاء وإعادتهم إلى نور الهداية، هي:

(١) «يدحضوا»: مشتقة من «إدحاض» بمعنى الإبطال والإزالة، وهي في الأصل مأخوذة من كلمة «دحض» بمعنى الإنزلاق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٠

مختصر الامثل ج ٣، ١٩٩

أولاً: إن هذه الحقائق تلائم بشكل كامل ما هو مكنون في فطرتكم ووجدانكم وأرواحكم. ثانياً: إنها جاءت من قبل خالقكم.

ثالثاً: عليكم أن لا تنسوا أنكم اقترعتم الذنوب، وأن مناجاة عمل الأنبياء هو فتح باب التوبة من الذنوب والهداية للصواب.

لكن هذه الفئة من الناس لم تؤمن برغم كل ذلك: «إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا». وبذلك لا تنفع معهم دعوتك: «وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا».

إن البرنامج التربوي للخالق جلّ وعلا هو أن يعطى لعباده الفرصة بعد الاخرى، وهو جلّ وعلا لا يعاقب بشكل فوري مثل الجبارين والظالمين، بل إن رحمته الواسعة تقتضى دوماً إعطاء أوسع الفرص للمذنبين، لذا فإن الآية التي بعدها تقول: «وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ». «لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ». فاذا كانت الإرادة الإلهية تقتضى انزال العذاب بسبب ارتكابهم للذنوب لتحقق ذلك فوراً.

«بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا» (١).

فغفرانه تعالى يقضى أن يرحم التوابين، ورحمته تقضى أن لا يعجزل عذاب غيرهم، إذ من المحتمل أن يلتحق بعضهم بصنفوف التوابين، إلا أن عدالته تعالى تقتضى مجازاة المذنبين العاصين الظالمين عندما يصل طغيانهم وتمردهم إلى أقصى درجاته.

وأخيراً تنتهى هذه المجموعة من الآيات إلى توجيه التحذير الأخير من خلال التذكير بالعاقبة المؤلمة المرّة لمن ظلم من السابقين ليكون مصيرهم عبرة لمن يسمع، فتقول: إن هذه المدن والقرى أمامكم، ولكم أن تشاهدوا خرائبها والدمار الذي حلّ فيها، وقد أهلكنا أهلها بما ارتكبوا من ظلم، في نفس الوقت الذي لم نعجزل فيه لهم العذاب، بل جعلنا موعداً لمهلكهم: «وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا».

(١) «موئل»: من كلمة «وئل» وتعنى الملجأ ووسيلة النجاة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥١

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا (٦٠) فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا (٦١) فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا (٦٢) قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا (٦٣) قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا (٦٤)

لقاء موسى والخضر عليهما السلام: ذكر على بن إبراهيم في تفسيره: لما أخبر رسول الله صلى الله عليه وآله قريشاً بخبر أصحاب الكهف، قالوا: أخبرنا عن العالم الذي أمر الله موسى عليه السلام أن يتبعه، من هو؟ كيف تبعه؟ وما قصته؟ فأنزل الله تعالى.

لقد ذكرت في سورة الكهف ثلاث قصص متناسقة وهذه القصص هي: قصة أصحاب الكهف التي إنتهينا منها؛ وقصة موسى والخضر عليهما السلام؛ وقصة ذى القرنين التي سنقف على ذكرها فيما بعد.

هذه القصص الثلاث تخرجنا من الأفق المحدود في حياتنا وما تعودنا عليه وألفناه، وتبين لنا أن حدود العالم لا تنحصر في نطاق ما

نرى وما نشاهد، وأن الشكل العام للحوادث والأحداث ليس هو ما نفهمه من خلال النظرة الاولى.

فإن قصة موسى والخضر لها أبعاد عجيبة اخرى. ففي القصة يواجهنا مشهد عجيب نرى فيه نبياً من أولى العزم بكل وعيه ومكانته في زمانه يعيش محدودية في علمه ومعرفته من بعض النواحي، وهو لذلك يذهب إلى معلم (هو عالم زمانه) ليدرس ويتعلم على يديه.

في أول آية نقرأ قوله تعالى: «وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَأَبْرُحَ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْصِيَ حُقُبًا».

إن المعنى بالآية هو بلا شك موسى بن عمران النبي المعروف من أولى العزم.

أما المعنى من (فتاه) فهو يوشع بن نون، الرجل الشجاع الرشيد المؤمن من بني اسرائيل.

«مجمع البحرين»: بمعنى محل التقاء البحرين، والمقصود بمجمع البحرين هو محل اتصال «خليج العقبة» مع «خليج السويس»، وهذان الخليجان يتصلان بالبحر الأحمر.

«حقب»: تعني المدة الطويلة والتي فسرها البعض بثمانين عاماً، وغرض موسى عليه السلام من هذه الكلمة، هو أنني سوف لا أترك الجهد والمحاولة للعثور على ما ضيعته ولو أدى ذلك أن أسير عدة سنين.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٢

قوله تعالى «فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا» أي السمكة التي كانت معهما، أما العجيب في الأمر فإن الحوت «فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا».

هذه السمكة الذي كان معداً للغذاء كانت سمكة طازجة حيث بعثت فيها الحياة بشكل اعجازي وقفزت إلى الماء وغاصت فيه، حيث يوجد بعض أنواع السمك يبقى على قيد الحياة فترة بعد إخراجها من الماء، ويعود إلى الحياة الكاملة إذا أعيد في هذه الفترة إلى الماء. وفي تنمة القصة نقرأ أن موسى وصاحبه بعد أن جاوزا مجمع البحرين شعرا بالجوع، وفي هذه الأثناء تذكر موسى عليه السلام أنه قد جلب معه طعاماً، وعند ذلك قال لصاحبه: «فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا جَاءْنَا غَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا».

إن هذه الجملة تظهر أن موسى ويوشع قد سلكا طريقاً يمكن أن نسميه بالسفر، إلا أن نفس هذه التعابير تفيد أن هذا السفر لم يكن طويلاً.

وفي هذه الأثناء قال له صاحبه: «قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسِينِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا».

ولأن هذا الحادث والموضوع - بشكل عام - كان علامة لموسى عليه السلام، لكي يصل من خلاله إلى موقع (العالم) الذي خرج يبحث عنه، لذا فقد قال: «قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ».

وهنا رجعا في نفس الطريق: «فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا».

وهنا قد يطرح هذا السؤال: هل يمكن لنبي مثل موسى عليه السلام أن يصاب بالنسيان حيث يقول القرآن ف «نَسِيَا حُوتَهُمَا».

في الجواب نقول: إنه لا يوجد ثمة مانع من الإصابة بالنسيان في المسائل والموارد التي لا ترتبط بالأحكام الإلهية والامور التبليغية، أي في مسائل الحياة العادية.

فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحِيمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَبِيحَ مَعِيَ صَبْرًا (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا (٧٠)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٣

رؤية المعلم الكبير: عندما رجع موسى عليه السلام وصاحبه إلى المكان الأول، أي قرب الصخرة وقرب (مجمع البحرين)، فجاءه: «فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتِيَاهُ رَحِيمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا».

إن استخدام كلمة «وجدا» تفيد أنهم كانوا يبحثون عن نفس هذا الرجل العالم، وقد وجده أخيراً. أمّا استخدام عبارة «عَبِيدًا مِّنْ عِبَادِنَا» فهي تبين أن أفضل فخر للإنسان هو أن يكون عبداً حقيقياً للخالق جلّ وعلا، وإنّ مقام العبودية هذا يكون سبباً في شمول الإنسان بالرحمة الإلهية، وفتح أبواب المعرفة والعلم في قلبه. كما أنّ استخدام عبارة «مِن لَّدُنَّا» تبين أنّ علم ذلك العالم لم يكن علماً عادياً، بل كان يعرف جزءاً من أسرار هذا العالم، وأسرار الحوادث التي لا يعلمها سوى الله تعالى. والمقصود من عبارة «رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا» هو الإستعداد الكبير والروح الواسعة، وسعة الصدر التي وهبها الله تعالى لهذا الرجل كي يكون قادراً على استقبال العلم الإلهي.

في هذه الأثناء قال موسى للرجل العالم باستفهام وبأدب كبير: «قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَيَّ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا». في معرض الجواب نرى أنّ الرجل العالم يجيب موسى عليه بالسلام بكلام عجيب: «قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا». ثم بين سبب ذلك مباشرة وقال: «وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَيَّ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا». إنّ هذا الرجل العالم كان يحيط بأبواب من العلوم التي تخصّ أسرار وبواطن الأحداث، في حين أنّ موسى عليه السلام لم يكن مأوراً بمعرفة البواطن، وبالتالي لم يكن يعرف عنها الكثير.

في مثل هذه الحالة يفقد الشخص الذي ينظر إلى الظاهر صبره وتماسكه فيقوم بالإعتراض وحتى بالتشاجر. وقد يكون موسى عليه السلام اضطرب عندما سمع هذا الكلام وخشى أن يحرم من فيض هذا العالم الكبير، لذا فقد تعهد بأن يصبر على جميع الحوادث و «قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا». مرّة أخرى كشف موسى عليه السلام عن قميّة أدبه في هذه العبارة، فقد اعتمد على خالقه حيث لم يقل للرجل العالم: إني صابر، بل قال: إن شاء الله ستجدني صابراً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٤

ولأنّ الصبر على حوادث غريبة وسيئة في الظاهر والتي لا يعرف الإنسان أسرارها، ليس بالأمر الهين، لذا فقد طلب الرجل العالم من موسى عليه السلام أن يتعهد له مرّة أخرى، وحدّره: «قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسِيلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُخْبِرَكَ مِنْهُ ذِكْرًا» (١). وقد أعطى موسى العهد مجدداً وانطلق مع العالم الأستاذ.

المعلم الإلهي والأفعال المنكرة: نعم، لقد ذهب موسى وصاحبه وركبا السفينة: «فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا».

«خرق»: (كما يقول الراغب في المفردات) الخرق، قطع الشيء على سبيل الإفساد بلا تدبّر ولا تفكّر حيث كان ظاهر عمل الرجل العالم على هذا المنوال.

وبحكم كون موسى عليه السلام نبياً إلهياً فقد كان من جانب يرى أنّ من واجبه الحفاظ على أرواح وأموال الناس، وأن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن جانب آخر كان وجدانه الإنساني يضغط عليه ولا يدعه يسكت أمام أعمال الرجل العالم التي يبدو ظاهرها سيئاً قبيحاً، لذا فقد نسي العهد الذي قطعه للخضر (العالم) فاعترض و «قَالَ أَخْرَقْتَهَا لِتُغْرَقَ أَهْلُهَا

(١) إنّ عبارة «أُخْبِرْتُكَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا» يكون مفهومها بعد الأخذ بنظر الإعتبار كلمة «أحدث» هو: إني أنا الذي أبدأ بالكلام وأكشف للمرّة الأولى؛ أما أنت فلا تتكلم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٥

لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا».

وفى هذه الأثناء نظر الرجل العالم إلى موسى عليه السلام نظرة خاصة وخاطبه: «قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا». أما موسى الذي ندم على استعجاله، بسبب أهمية الحادثة، فقد تذكّر عهده الذي قطعه لهذا العالم الأستاذ، لذا فقد التفت إليه قائلاً: «قَالَ لَأَتَوَّأخِذَنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُزْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عَشْرًا». يعنى لقد أخطأت ونسيت الوعد فلا تؤاخذنى بهذا الإشتباه. «ترهقنى»: مشتقة من «إرهاق» وتعنى تغطيه شىء ما بالقهر والغلبه، وتأتى فى بعض الأحيان بمعنى التكليف، وفى الآية- أعلاه- يكون معناها: لا تصعب الأمور على، ولا تقطع فيضك عني بسبب هذا العمل.

لقد انتهت سفرتهم البحريه وترجلوا من السفينة: «فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَمًا فَاقْتَلَهُ»، وقد تم ذلك بدون أى مقدمات. وهنا ثار موسى عليه السلام مرّة اخرى حيث لم يستطع السكوت على قتل طفل برىء بدون أى سبب، وظهرت آثار الغضب على وجهه وملاً الحزن وعدم الرضا عينيه ونسى وعده مرّة اخرى، فقام للإعتراض، وكان اعتراضه هذه المرّة أشد من اعتراضه فى المرّة الاولى، لأنّ الحادثة هذه المرّة كانت موحشة أكثر من الاولى: «قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ». أى إنك قتلت انساناً بريئاً من دون أن يرتكب جريمة قتل، «لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا نُكْرًا». ومرّة اخرى كثر العالم الكبير جملته السابقة التى إتسمت ببرود خاص، حيث قال لموسى عليه السلام: «قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا».

تذكّر موسى تعهده فانتبه إلى ذلك وهو خجل، حيث أخلّ بالعهد مرتين- ولو بسبب النسيان- وبدأ تدريجياً يشعر بصدق عبارة الأستاذ فى أنّ موسى لا- يستطيع تحمل أعماله، لذا فلا يطيق رفقته كما قال له عندما عرض عليه موسى الرفقة، لذا فقد بادر إلى الاعتذار وقال: إذا اعترضت عليك مرّة اخرى فلا تصاحبني وأنت فى حلّ مني: «قَالَ إِنْ سَأَلْتَكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا».

صيغة العذر هنا تدل على انصاف موسى عليه السلام ورؤيته البعيدة للأمر، وتبين أنّه عليه السلام كان

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٦

يستسلم للحقائق ولو كانت مرّة.

بعد هذا الكلام والعهد الجديد: «فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتِيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتِطَعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا». والمقصود من كلمة قريه هو مدينة (الناصره) أو ميناء (أيلة). المهم فى الأمر، أننا نستنتج من خلال ما جرى لموسى عليه السلام وصاحبه من أهل هذه المدينة أنّهم كانوا لئاماً دينيى الهمة. فى مجمع البيان عن النبى صلى الله عليه وآله قال: «كانوا أهل قريه لئام».

ثم يضيف القرآن: «فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ فَاقَامَهُ». وقد كان موسى عليه السلام شاهد كيف أنّ الخضر قام بترميم الجدار بالرغم من سلوك أهل القريه القبيح إزاءهما، وكأنه بذلك أراد أن يجازى أهل القريه بفعالهم السيئه؛ وكان موسى يعتقد بأنّ على صاحبه أن يطالب بالأجر على هذا العمل حتى يستطيعا أن يعدّا لأنفسهما طعاماً.

لذا فقد نسي موسى عليه السلام عهده مرّة اخرى وبدأ بالإعتراض، إلّا أنّ اعتراضه هذه المرّة بدا خفيفاً ف «قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا».

وفى الواقع فإنّ موسى يعتقد بأنّ قيام الإنسان بالتضحيه فى سبيل أناس سيئين عمل مجاف لروح العدالة.

وهنا قال الرجل العالم كلامه الأخير لموسى بأنك ومن خلال حوادث مختلفه، لا تستطيع معى صبراً، لذلك قرّر العالم قراره الأخير: «قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا». «تأويل»: من «أول» على وزن «قول» وتعنى الإرجاع، لذا فإنّ أى عمل أو كلام يرجعنا إلى الهدف الأصلي يسمّى «تأويل» كما أنّ رفع الحجب عن أسرار شىء هو نوع من التأويل.

إنّ مفارقة رجل بهذه الخصائص أمرٌ صعب للغاية، لكن على موسى عليه السلام أن ينصاع لهذه الحقيقة المرّة.

المفسر المعروف أبو الفتوح الرازى يقول: ورد فى الخبر، أنّ موسى عليه السلام عندما سئل عن أصعب ما لاقى من مشكلات فى طول

حياته، أجاب قائلاً: لقد واجهت الكثير من المشاكل والصعوبات (إشارة إلى ما لاقاه عليه السلام من فرعون، وما عاناه من بنى إسرائيل) ولكن لم يكن أيًا منها أصعب وأكثر ألماً على قلبي من قرار الخضر في فراقى إياه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٧

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْذُتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنِينَ فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ الْوَيْهَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرْذُنَا أَنْ يَبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا (٨٢)

الأسرار الداخلية لهذه الحوادث: بعد أن أصبح الفراق بين موسى والخضر عليهما السلام أمرًا حتميًا، كان من اللازم أن يقوم الأستاذ الإلهي بتوضيح أسرار أعماله التي لم يستطع موسى أن يصبر عليها، وفي الواقع فإن استفادة موسى من صحبته تتمثل في معرفة أسرار هذه الحوادث الثلاثة العجيبة، والتي يمكن أن تكون مفتاحاً للعديد من المسائل، وجواباً لكثير من الأسئلة. ففي البداية ذكر قصة السفينة وقال: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرْذُتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا». وبهذا الترتيب كان ثمّة هدف خيّر وراء ثقب السفينة الذي بدأ في حينه عملاً مشيناً سيئاً، والهدف هو نجاتهم من قبضة ملك غاصب، وكان هذا الملك يترك السفينة المعيبة ويصرف النظر عنها، إذ خلاصة المقصود في الحادثة الأولى هو حفظ مصالح مجموعة من المساكين.

كلمة «وراء» لا تعني هنا الجانب المكاني، وإنما هي كناية عن الخطر المحيط بهم (خطر الملك) بدون أن يعلموا به، وبما أن الإنسان لا يحيط بالحوادث التي سوف تصيبه لاحقاً، لذا استخدمت الآية التعبير الأنف الذكر. بعد ذلك ينتقل العالم إلى بيان سر الحادثة الثانية التي قتل فيها الفتى، فيقول: «وَأَمَّا الْعُلَمَاءُ فَكَانَ أَبُوهُمَا مُؤْمِنِينَ فَأَخَذْنَا مِنْهُمُ الْوَيْهَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا».

إنّ تعبير (خشينا) جاء هنا بمعنى: لم نكن نرغب، وإلا لا معنى للخوف في هذه الموارد بالنسبة لشخص بهذا المستوى من العلم والوعى والقدرة.

وبعبارة اخرى: فإنّ الهدف هو الإتيان من حادث سىء نرغب أن نقي الأبوين منه على أساس المودة لهما.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٨

ثم تحكى الآيات على لسان العالم قوله: «فَأَرْذُنَا أَنْ يَبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَوَةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا». «زكاة»: هنا بمعنى الطهارة والنظافة، ولها مفهوم واسع حيث تشمل الإيمان والعمل الصالح، وتتسع للامور الدينية والمادية، وقد يكون في هذا التعبير ما هو جواب على اعتراض موسى عليه السلام الذي قال: «أَقْتُلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً...» فقال له العالم في الجواب: إنّ هذه النفس ليست زكية، وأردنا أن يبدلها ربهما ابناً طاهراً بدلاً عن ذلك.

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «أبدلها الله به جارية ولدت سبعين نبياً».

في آخر آية من الآيات التي نبحتها، كشف الرجل العالم عن السر الثالث الذي دعاه إلى بناء الجدار فقال: «وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا». «فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا». «رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ».

وأنا كنت مأموراً ببناء هذا الجدار بسبب جميل وإحسان أبوي هذين اليتيمين، كي لا يسقط وينكشف الكنز ويكون معرضاً للخطر. وفي خاتمة الحديث، ولأجل أن تنتفي أي شبهة محتملة، أو شك لدى موسى عليه السلام، ولكي يكون على يقين بأن هذه الأعمال كانت طبقاً لمخطط وتوجيه غيبي، قال العالم: «وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي» بل بأمر من الله.

وذلك سر ما لم يستطع عليه موسى عليه السلام صبراً، إذ قال: «ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا».

دروس قصة خضر وموسى عليهما السلام: هناك جملة دروس يمكن أن نستفيد منها من القصة، ويمكن لنا أن ندرجها كما يلي:
 أ: أهمية العثور على قائد عالم والاستفادة من علمه، بحيث رأينا أن نبياً من اولي العزم مثل موسى عليه السلام يسلك هذا الطريق الطويل، وقد بذل ما بذل لتحقيقه، وهذا درس لجميع الناس مهما كان علمهم وفي أي عمر كانوا.
 ب: جوهره العلم الإلهي تنبع من العبودية لله تعالى.

ج: يجب تعلّم العلم للعمل، كما يقول موسى عليه السلام لصاحبه «مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا». أي:

علمني عملاً يقربني من هدفي ومقصدي، فأنا لا أطلب العلم لنفسه، بل للوصول إلى الهدف.

د: يجب عدم الإستعجال في الأعمال، إذ العديد من الامور تحتاج إلى الفرص المناسبة.

ه: الظاهر والباطن من المسائل المهمة الاخرى التي نتعلمها من القصة، إذ يجب علينا أن

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٥٩

لا نصدر أحكاماً سريعة تجاه الحوادث التي تقع في مجرى حياتنا مما قد لا يعجبنا، إذ ما أكثر الحوادث التي نكرهاها، ولكن يتضح بعد مدة أن هذه الحوادث لم تكن سوى نوع من الألفاظ الخفية الإلهية، والقرآن يصرح بضمون هذه الحقيقة في الآية (٢١٦) من سورة البقرة قوله تعالى: «عَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».
 و: من دروس القصة الاعتراف بالحقائق واتخاذ المواقف المطابقة لها، فعندما تخلف موسى ثلاث مرّات عن الوفاء بالتزامه لصاحبه العالم، عرف أنه لا يستطيع الاستمرار معه في الصحبة.

يجب على الإنسان أن لا يستمر إلى آخر عمره في اختبار نفسه، بحيث تتحوّل حياته إلى مختبر للأمور المستقبلية التي قد لا تحصل أبداً، إذ عليه عندما يختبر موضوعاً ما عدّة مرّات، أن يلتزم العمل بنتائج الاختبار وأن يقنع به.

ز: تأثير إيمان الآباء على الأبناء؛ لقد تحمل الخضر مسؤولية حماية الأبناء بالمقدار الذي كان يستطيعه، وذلك بسبب الأب الصالح الملتزم، بمعنى أن الابن يستطيع أن يسعد في ظل الإيمان وأمانه والتزام الأب، وإنّ نتيجة العمل الصالح الذي يلتزمه الأب تعود على الابن أيضاً.

ح: قصر العمر بسبب إيذاء الوالدين عندما يطال الموت الابن بسبب ما يلحقه من أذى بوالديه في مستقبل حياته، وبسبب ما يرهقهما به من أذى وطغيان وكفر، قد يحرفهم عن الطريق الإلهي، كما رأينا ذلك في القصة التي بين أيدينا.

ط: الناس أعداء ما جهلوا؛ قد يحدث أن يقوم شخص بالإحسان إلينا، إلّا أننا نتصوره عدواً لنا، لأننا لا نعرف بواطن الامور، وتسرّع ونفقد الصبر، خصوصاً إزاء الأحداث والامور التي نجهلها ولا نحيط بأسبابها علماً. من الطبيعي أن يفقد الإنسان صبره إزاء ما لا يحيط به علماً من الأحداث والقضايا، إلّا أنّ الدرس المستفاد من القصة هو أن لا تسرّع في إصدار الأحكام على مثل هذه القضايا حتى تكتمل لدينا الرؤية التي نحيط من خلالها بجوانب وزوايا الموضوع المختلفة.

ي: أدب التلميذ والأستاذ؛ ثمّة ملاحظات لطيفة حول أدب التلميذ والأستاذ ظهرت في مقاطع الحديث بين موسى عليه السلام والرجل الرباني العالم، فمن ذلك مثلاً:

١- اعتبر موسى عليه السلام نفسه تابعاً للخضر قوله: «أَتَّبِعُكَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٠

٢- وللتواضع فقد اعتبر علم أستاذه كثيراً، وهو يطلب جانباً من هذا العلم، فقال:

«مِمَّا عَلَّمْتَ».

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرُونَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَبًا (٨٥) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَا ذَا الْقُرُونَيْنِ إِنَّمَا أَنْ تَعَذَّبَ وَإِنَّمَا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسَيْنًا

(٨٦) قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَ سَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا (٨٨) ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٨٩) حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا (٩٠) كَذَلِكَ وَ قَدْ أَحْطَيْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا (٩١)

قصة ذو القرنين العجيبه: قلنا في بدايه حديثنا عن أصحاب الكهف: إن مجموعه من قريش قررت اختبار الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، وقامت هذه المجموعه بالتنسيق مع اليهود واستشارتهم بطرح ثلاث قضايا ونحن الآن بصدد ذكر قصة «ذو القرنين»: إن قصة ذو القرنين تدور حول شخصيه أثارت اهتمامات الفلاسفه والباحثين منذ القدم. وقد بذلت جهود ومساعي كثيره للتعرف على هذه الشخصيه.

وسنقوم أولًا بتفسير الآيات الست عشره الخاصه بذي القرنين، ثم ننتقل إلى بحوث لمعرفة شخصيه ذى القرنين نفسه. بتعبير آخر: إن ما يهمنا أولًا هو الحديث عن شخصيه ذى القرنين، وهو ما فعله القرآن، حيث يقول تعالى: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ».

فيكون الجواب على لسان الرسول المصطفى صلى الله عليه وآله: «قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا».

إن بدايه الآيه تبين لنا أن قصة ذو القرنين كانت متداوله ومعروفه بين الناس، ولكنها كانت محاطه بالغموض والإبهام، لهذا السبب طالبوا الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الإدلاء حولها بالتوضيحات اللازمه. وفي إستئناف الحديث عن ذى القرنين يقول تعالى: «إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ» أي: منحناه سبل القوه والقدرة والحكم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦١

«وَأَتَيْنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا». إن الله تبارك وتعالى منح «ذو القرنين» أسباب الوصول لكل الأشياء: العقل، العلم الكافي، الإدارة السليمه، القوه والقدرة، الجيوش والقوى البشريه، بالإضافة إلى الإمكانيات الماديه، أي إنه منح كل الأسباب والسبل الماديه والمعنويه الكفيله بتحقيق الأهداف المنشوده.

ثم يشير القرآن بعد ذلك إلى استفادة ذى القرنين من هذه الأسباب والسبل فيقول:

«فَأَتْبَعَ سَبَبًا». ثم «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ». فرأى أنها تغرب في بحر غامق أو عين ذات ماء آسن: «وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ» (١).

«وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا». أي مجموعه من الناس فيهم الصالح والطالح، هؤلاء القوم هم الذين خاطب الله ذا القرنين في شأنهم: «قُلْنَا يَا الْقُرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا».

بعد ذلك تحكى الآيات جواب «ذو القرنين» الذي قال: «قَالَ أَمَا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا» (٢). أي إن الظالمين سينالون العذاب الدنيوي والأخروي معاً.

«وَأَمَا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ». «وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا». أي:

أنا سنتعامل معه بالقول الحسن، فضلاً عن أننا سنخفف عنه ولا نجعله يواجه المشاكل والصعاب، بالإضافة إلى أننا سوف لن نجبي منه ضرائب كثيره.

وعندما إنتهى «ذو القرنين» من سفره إلى الغرب توجه إلى الشرق حيث يقول القرآن في ذلك: «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا». أي استخدم الوسائل والإمكانيات التي كانت بحوزته.

«حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ». وهنا رأى أنها: «وَجَدَهَا تَطَّلِعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا». وفي اللفظ كناية عن أن حياة هؤلاء الناس بدايه جداء، ولا يملكون سوى القليل من الملابس التي لا تكفي لتغطية أبدانهم من الشمس.

أما بعض المفسرين فلم يستبعدوا افتقار هؤلاء الناس إلى المساكن التي تحميهم من الشمس.

(١) «حمئة»: تعني في الأصل الطين الأسود ذا الرائحة الكريهة، أو الماء الآسن الموجود في المستنقعات. وهذا الوصف يبين لنا بأن الأرض التي بلغها «ذو القرنين» كانت مليئة بالمستنقعات، بشكل كان ذو القرنين يشعر معه بأن الشمس كانت تغرب في هذه المستنقعات، تماماً.

(٢) «نكر»: مشتقة من «منكر» بمعنى الشيء المجهول؛ أي العذاب المجهول الذي لم يمكن تصويره.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٢

بالطبع ليس هناك تعارض بين التفاسير هذه، قوله تعالى: «كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا». هكذا كانت أعمال «ذو القرنين» ونحن نعلم جيداً بإمكاناته.

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا (٩٢) حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا (٩٣) قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا (٩٤) قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغَ عَلَيْهِ قَطْرًا (٩٦) فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا (٩٧) قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا (٩٨)

كيف تم بناء سد ذي القرنين: الآيات أعلاه تشير إلى سفره أخرى من أسفار ذي القرنين حيث تقول: «ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا». أي: بعد هذه الحادثة استفاد من الوسائل المهمة التي كانت تحت تصرفه ومضى في سفره حتى وصل إلى موضع بين جبلين: «حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا».

والآية تشير إلى أنه وصل إلى منطقة جبلية، وهناك وجد اناساً كانوا على مستوى دان من المدينة، لأنّ الكلام أحد أوضح علائم التمدن لدى البشر.

في هذه الأثناء اغتتم هؤلاء القوم مجيء ذي القرنين، لأنهم كانوا في عذاب شديد من قبل أعدائهم يأجوج ومأجوج، لذا فقد طلبوا العون منه قائلين: «قَالُوا يَا ذَا الْقُرْنَيْنِ إِنَّ يَا جُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا». قد يكون كلامهم هذا تم عن طريق تبادل العلامات والإشارات، لأنهم لا يفهمون لغة ذي القرنين.

أمّا ذو القرنين فقد أجابهم: «قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ»، وأتى لا احتاج إلى مساعدتك المالية وإنما: «فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا».

«ردم»: على وزن «طرد» في الأصل تعني ملء الشق بالأحجار، إلّا أنها فيما بعد أخذت معنىً واسعاً بحيث شمل كل سد، بل وشمل حتى ترقيع الملابس.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٣

يعتقد بعض المفسرين أن كلمة «ردم» تقال للسد القوي.

ثم أمر ذو القرنين فقال: «آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ».

«زبر»: جمع «زبرة» على وزن (غرفة)، وتعني القطع الكبيرة والضخمة من الحديد.

وعندما تهيأت قطع الحديد أعطى أمراً بوضع بعضها فوق البعض الآخر حتى غطى بين الجبلين بشكل كامل: «حَتَّىٰ إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ». «صدف»: تعني هنا حافة الجبل.

الأمر الثالث لدى القرنين هو طلبه منهم أن يجلبوا الحطب وما شابهه، ووضعه على جانبي هذا السد، وأشعل النار فيه ثم أمرهم بالنفخ فيه حتى احمر الحديد من شدة النار:

«قَالَ انْفُخُوا حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا».

لقد كان يهدف ذو القرنين من ذلك ربط قطع الحديد بعضها ببعض ليصنع منها سدًا من قطعة واحدة، وعن طريق ذلك، قام ذو القرنين بنفس عمل «اللحام» الذي يقام به اليوم في ربط أجزاء الحديد بعضها ببعض.

أخيراً أصدر لهم الأمر الأخير فقال: اجلبوا لى النحاس المذاب حتى أضعه فوق هذا السد: «قَالَ أَتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا».

وبهذا الشكل قام بتغطية هذا السدّ الحديدى بطبقة من النحاس حتى لا ينفذ فيه الهواء ويحفظ من التآكل.

وأخيراً، أصبح هذا السد بقدر من القوة والإحكام بحيث: «فَمَا اسْتَطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَتَعُوا لَهُ نَقْبًا».

لقد كان عمل ذى القرنين عظيماً ومهماً، وكان له وفقاً لمنطق المستكبرين ونهجهم أن يتباهى به أو يمين به، إلا أنه قال بأدب كامل: «قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي»، لأن أخلاقه كانت أخلاقاً إلهية.

إنه أراد أن يقول: إذا كنت أملك العلم والمعرفة وأستطيع بواسطتهما أن أخطو خطوات مهمة، فإن كل ذلك إنما كان من قبل الخالق جلّ وعلا.

ثم استطرده قائلاً: لا تظنوا أن هذا السد سيكون أبدياً وخالدًا: «فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ». «وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا».

لقد أشار ذو القرنين في كلامه هذا إلى قضية فناء الدنيا وتحطم هيكل نظام الوجود فيها عند البعث.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٤

بحثان

أولاً- ملاحظات التربوية في هذه القصة التاريخية: هذه القصة تحوى على دروس تربوية كثيرة وفي الواقع أنها هي الهدف القرآنى من إيرادها.

١- إن أول درس تعلمنا إياه أن العمل الدنيوى لا يتم دون توفير أسبابه، لذا فإن الله تبارك وتعالى وهب الوسائل والأسباب لتقدم وانتصار ذى القرنين فى عمله.

٢- لا تستطيع أى حكومة أن تنتصر بدون ترغيب الأنصار والأتباع، ومعاقبة المذنبين والمخطئين، وهذا هو نفس الأساس الذى اعتمد عليه ذو القرنين.

والإمام أمير المؤمنين على عليه السلام بلور هذا المعنى فى رسالته إلى مالك الأشتر التى هى برنامج كامل لإدارة البلاد، إذ يقول عليه السلام: «ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء، فإن فى ذلك ترهيداً لأهل الإحسان فى الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة» (١).

٣- التكليف الشاق والتصعب فى الامور وتحميل الناس ما لا يطيقون، كل هذه الامور لا تناسب الحكومة الإلهية العادلة أبداً.

٤- الحكومة الكبيرة ذات الإمكانيات الواسعة لا تتغاضى عن التفاوت والاختلاف القائم فى حياة الناس وتراعى شرائط حياتهم المختلفة.

٥- إن «ذو القرنين» لم يستبعد حتى تلك المجموعة التى لم تكن تفهم الكلام، أو كما وصفهم القرآن: «لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا» بل إنه استمع إلى مشاكلهم، ودأب على رفع احتياجاتهم بأى اسلوب كان.

٦- الأمن هو أول وأهم شرط من شروط الحياة الاجتماعية السالمة، لهذا السبب تحمل «ذو القرنين» أصعب الأعمال وأشقها لتأمين أمن القوم من أعدائهم.

٧- الدرس الآخر الذى يمكن أن نتعلمه من هذه القصة، هو أن أصحاب المشكلة الأصليين معنيين بالدرجة الاولى فى الإشتراك فى الجهد المبذول لحل مشكلتهم.

وعادة فإن العمل الذى يتم بمساهمة وحضور الأطراف الأصليين فى المشكلة يؤدى إلى إظهار استعداداتهم ويعطى قيمة خاصة للنتائج

الحاصلة منه، وللجهود المبذولة فيه، ومن ثم يحرص الجميع للحفاظ عليه وإدامته بحكم تحمّلهم لمجهودات إنشائه.

(١) نهج البلاغة، الرسالة ٥٣.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٥

كما يتّضح من هذه النقطة أنّ المجتمع المتخلف والمتأخر يستطيع أن ينجز أعمالاً مهمة وعظيمة إذا تمّتع ببرنامج صحيح وإدارة مخلصه.

٨- الزعيم الإلهي والقائد الرباني لا يلتفت إلى الجزء المادي والنفع المالى وإنما يقتنع بما حباه الله.

وفى القرآن الكريم نقرأ مراراً فى قصص الأنبياء أنّهم لم يكونوا يطلبون المال جزاءً لأعمالهم ودعواتهم.

٩- إحكام الامور هو درس آخر نستفيده من هذه القصة.

١٠- مهما كان الإنسان قوياً ومتمكناً وصاحب قدرة واستطاعة فى إنجاز الأعمال، فعليه أن لا يغتر بنفسه، وهذا هو درس آخر نتعلّمه من قصة «ذو القرنين».

١١- كل شى إلى زوال مهما كان محكماً وصلداً. هذا هو الدرس الأخير فى هذه القصة، وهو درس للذين يتمنون أو يظنون خلود المال أو المنصب والجاه.

ثانياً- من هم يأجوج ومأجوج؟ ذكر القرآن الكريم يأجوج ومأجوج فى سورتين، إذ وردت المرّة الاولى فى الآيات التى نبجثها، والثانية فى سورة الأنبياء، الآية (٩٦).

الآيات القرآنية تؤيد بوضوح أنّ هذين الاسمين هما لقبيلتين همجيتين كانتا تؤذيان سكّان المناطق المحيطة بهم. حيث طلب أهل القفقاز من «كورش» عند سفره إليهم أن ينفذهم من هجمات هذه القبائل، لذلك أقدم على تأسيس السد المعروف بسدّ ذى القرنين. وَ تَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَ نَفَخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا (٩٩) وَ عَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا (١٠٠) الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَ كَانُوا لَا يَسِدِّ تَطِيعُونَ سِمْعًا (١٠١) أَ فَحَسِبْتَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا (١٠٢)

عاقبة الكافرين: لقد تناولت الآية السابقة سد يأجوج ومأجوج وانهدامه عند البعث، وهذه الآيات تستمر فى قضايا القيامة، فتقول أولاً: إِنَّا سَتَرْنَا فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ- الذى ينتهى فيه العالم- بعضهم يموج ببعض: «وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ».

إنّ استخدام كلمة «يموج» إمّا بسبب الكثرة الكاثرة للناس فى تلك الواقعة، أو بسبب

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٦

الإضطراب والخوف الذى يصيب الناس فى ذلك اليوم، وكأنّما أجسادهم تهتز كأموج الماء.

بعد ذلك تضيف الآيات: «وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا». وبلا شك فإنّ كافه الناس سيجمعون فى تلك الساحة ولن يستثنى منهم أحد، وتعبير «فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا» إشارة إلى هذه الحقيقة.

من مجموع الآيات نستفيد أنّ ثمة تحوّلان عظيمان سيحصلان عند نهاية هذا العالم وبداية العالم الجديد:

الأول: فناء الموجودات والناس بشكل آنى.

والثانى: إحياء الموتى بشكل آنى أيضاً.

ولا نعلم مقدار الفاصل بين الحدثين، ولكنّ القرآن يعبر عن هذين التحوّلين بعنوان (نفخ الصور).

ثم تتناول الآيات تفصيل حال الكافرين، حيث توضّح عاقبة أعمالهم، والصفات التى تقود إلى هذه العاقبة، فتقول: «وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا».

إِنَّ جَهَنَّمَ سَتَظْهَرُ لَهُمْ، وَتَتَّضِحُ لَهُمُ الْأَنْوَاعُ الْمُخْتَلِفَةُ مِنْ عَذَابِهَا، وَهَذَا هُوَ بَحْدَ ذَاتِهِ عَذَابُ أَلِيمٍ مُوجِعٍ، فَكَيْفَ إِذَا وَلَجُوا فِيهَا؟! وَلَكِنْ مِنْ هَمِّ الْكَافِرِينَ؟ وَلِمَاذَا يَصَابُونَ بِمِثْلِ هَذِهِ الْعَاقِبَةِ؟ الْآيَةُ تَعْرِفُ هَؤُلَاءَ بِجُمْلَةٍ قَصِيرَةٍ وَاحِدَةٍ بِقَوْلِهَا: «الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنِ ذِكْرِي». وبالرغم من أنهم يمتلكون آذاناً، إلا أنهم يفقدون القدرة على السماع: «وَكَانُوا لَا يَسْمَعُونَ سَمْعًا».

فهؤلاء أسقطوا في الواقع أهم وسيلة لمعرفة الحق وإدارته، وأهملوا الوسيلة الهامة في شقاء أو سعادة الإنسان. يعنى أنهم غطوا أعينهم وأسماعهم بحجاب وستار بسبب أفكارهم الخاطئة وتعصبهم وحقدهم وصفاتهم القبيحة الأخرى.

الآية التي بعدها تشير إلى نقطة انحراف فكرية لدى هؤلاء هي أصل انحرافاتهم الأخرى، فتقول: «أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ».

هل يملك هؤلاء المعبودون - كالمسيح والملائكة - شيئاً للدفاع عن الآخرين بالرغم من مكانتهم العالية، أو أن الأمر بالعكس إذ كل ما عند هؤلاء هو من الله، وأنهم أنفسهم يحتاجون إلى هدايته؟ إن هذه حقيقة واضحة، ولكن هؤلاء تناسوها وتورطوا في شرك الشرك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٧

في ختام الآية وللمزيد من التأكيد، تقول الآية: «إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا».

«نُزُلًا»: بمعنى الإقامة، وتعنى أيضاً الشيء الذي يهتأ لتقديمه للضيوف.

قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوعًا (١٠٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفُزْدُوسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا (١٠٨)

أخسر الناس: هذه الآيات والآيات اللاحقة - إلى نهاية السورة المباركة - في الوقت الذي تتحدث فيه عن صفات غير المؤمنين، فإنها تعتبر نوعاً من التلخيص لكافة البحوث التي وردت في هذه السورة، خاصة البحوث المتعلقة بقصة أصحاب الكهف وموسى والخضر وذى القرنين، وما بذلوه من جهود إزاء معارضتهم.

فآيات تكشف أولاً عن أخسر الناس، ولكنها - بهدف إثارة حب الإستطلاع لدى المستمع إزاء هذه القضية - تعتمد على إثارتها على شكل سؤال موجه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فتقول: «قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا».

ثم يأتى الجواب بدون أى توقف حتى لا يبقى المستمع فى حيرة، فتقول: «الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا».

مفهوم الخسران لا ينطبق على خسران الأرباح وحسب، بل إن الخسران الواقعي هو خسران أصل رأس المال، وهل هناك رأس مال أربح وأفضل وأحسن من العقل والذكاء والطاقات الإلهية الموهوبة للإنسان من عمر وشباب وصحة؟

إن نتاج كل هذه المواهب هي أعمال الإنسان، وأعمال الإنسان هي في الواقع انعكاس وتجسيد لطاقتنا وقدراتنا.

عندما تتحول هذه الطاقات إلى أعمال مخزبة أو غير هادفة، فكأنها قد فئت أو ضاعت؛ إلا أن الخسران الحقيقي والمضاعف هو أن يفقد الإنسان رأسماله المادى والمعنوى في مسالك خاطئة ومجالات منحرفة ويظن أنه أحسن العمل، فهو في هذه الحالة لم يحصل على ثمرة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٨

لعمله، وفي نفس الوقت لم يلتفت إلى ما هو فيه، فيركز العمل. الآيات الأخرى تذكر صفات ومعتقدات هذه المجموعة من الخاسرين، حيث تبدأ بتلك الصفات التي تكون أساساً في مصائبهم فتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ».

إنهم كفروا بالآيات التي تفتح الأبصار والسماع، الآيات التي ترفع حجب الغرور وتجسد الحقائق أمام الإنسان، وأخيراً فإنها آيات

النور والضيء التي تخرج الإنسان من ظلمات الأوهام والتصورات الخاطئة وترشده إلى عالم الحقائق.

ثم إنهم بعد ذلك نسوا الله وكفروا بالمعاد وبلقاء الله «وَلَقَاءِهِ».

يعنى أن الإنسان في يوم القيامة يشاهد آثار الخالق أكثر وأفضل من أى زمان، لذا فإنه ينظر إليه بوضوح، بعين القلب الواعى البصير. نعم، فما لم يكن الإيمان بالمعاد إلى جانب الإيمان بالمبدأ، وما لم يحس الإنسان بأن هناك قوة تراقب أعماله فإن الإنسان سوف لا يعير أهميته إلى أعماله وسوف لا يصلح نفسه.

ثم تضيف الآية أنهم بسبب من كفرهم بالمبدأ والمعاد فإن أعمالهم قد حبطت وضاعت:

«فَحَبَطَتْ أَعْمَلُهُمْ». وغدت تماماً كالرماد فى مقابل العاصفة الهوجاء.

ولأنهم لا يملكون عملاً قيماً ثميناً لذا: «فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا».

لأن الوزن يخص الامور الموجودة، أما هؤلاء فلا يملكون شيئاً من الأعمال، ولذلك ليس لهم وزن ولا قيمة. روى فى تفسير مجمع البيان أن النبى صلى الله عليه وآله قال: «إنه لياتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن جناح بعوضه».

لماذا؟ لأن أعمال مثل هؤلاء وأفكارهم وشخصيتهم كانت فى الحياة الدنيا عديمة الأهمية والفائدة.

وفى إطار بيان جزاء هؤلاء، تكشف الآية عن ثالث سبب فى انحراف وخسران هؤلاء، وهو الاستهزاء بما أنزل الله، فتقول: «ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا».

وبذلك فإن هؤلاء انتهوا إلى إنكار الأصول الأساسية الثلاثة فى الاعتقاد الدينى (المبدأ، والمعاد، ورسالة الأنبياء) والأكثر من الإنكار أنهم استهزؤوا بهذه الامور.

والآن بعد أن عرفنا علامات الكفار والأخسرين أعمالاً، وبعد أن انكشفت عاقبة أعمالهم، تتوجه الآيات إلى المؤمنين فتبين عاقبتهم، وبمقاييسه بين الاثنين نستطيع تشخيص

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٦٩

كل طرف بشكل كامل. تقول الآية: «إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا». «الفردوس»: البستان الذى يشتمل على كل النعم والمواهب اللازمة، وبذلك فالفردوس هو أفضل وأكمل البساتين فى الجنة.

وبما أن كمال النعم بدوامها وأن لا تطالها يد الزوال، لذا فإن الآية تقول: «خَالِدِينَ فِيهَا».

وبالرغم من أن طبع الإنسان قائم على التغير والتنوع، إلا أن سكان الجنة لا يطلبون تغيير مكانهم أو حالهم أبداً: «لَا يَبْتَغُونَ عَنْهَا حِوَلًا». ذلك لأنهم يجدون كل ما يطلبون حتى التنوع والتكامل كما سيأتى شرح ذلك.

قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا (١٠٩) قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا (١١٠)

سبب النزول

فى تفسير مجمع البيان عن ابن عباس قال: لما نزل قوله «وَمَا أوتيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا» «١»، قالت اليهود: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراه، وفيها علم كثير، فأنزل الله هذه الآية «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي».

التفسير

الذين يأملون لقاء الله: الآيات أعلاه فى نفس الوقت الذى تبحث بحثاً مستقلاً، إلا أنها متصله مع بحوث هذه السوره، وكأنما القرآن يريد أن يقول فى هذه الآيات: إن الإطلاع على قصه أصحاب الكهف، وموسى والخضر، وذى القرنين، يعتبر لا شىء إزاء علم الله غير المحدود. القرآن الكريم يخاطب الرسول صلى الله عليه وآله فى أول آيه نبختها- بقوله: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا».

«مداد»: تعنى الحبر، أو أى مادة ملوثة تساعد فى الكتابة.

«كلمات»: جمع كلمة، وهى فى الأصل تعنى الألفاظ التى يتمّ التحدّث بها. أو بعبارة

(١) سورة الإسراء / ٨٥.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٠

اخرى: «الكلمة» لفظ يدل على المعنى، وبما أنّ كل موجود من موجودات هذا العالم هو دليل على علم وقدره الخالق، لذا فإنه يطلق فى بعض الأحيان على كل موجود اسم (كلمة الله) ويختص هذا التعبير أكثر بالموجودات المهمة العظيمة. وفى الآية التى نبهنا فيها أنّ (كلمة) قد استخدمت بهذا المعنى أى إشارة إلى موجودات عالم الوجود التى تدل كل واحدة فيه على الصفات المختلفة لله تبارك وتعالى.

إنّ القرآن يلفت أنظارنا فى هذه الآية إلى هذه الحقيقة وهى: لا تظنوا أنّ عالم الوجود محدود بما تشاهدونه أو تعلمونه أو تحسّونه، بل هو على قدر من السعة والعظمة بحيث لو أنّ البحار تتحوّل إلى حبر، وتكتب صفاته وخصائصه، فإنّها- أى البحار- ستجف قبل أن تحصى موجودات عالم الوجود.

وينبغى الإنباه هنا إلى أنّ الآية أعلاه فى الوقت الذى تجسّد فيه سعة عالم الوجود اللامتناهية فى الماضى والحاضر والمستقبل، فإنّها توضّح- أيضاً- العلم المطلق وغير المحدود للخالق جلّ وعلا، لأننا نعلم أنّ الله سبحانه وتعالى يحيط علمه بما كان موجوداً فى عالم الوجود، وبما سيكون موجوداً، وفى الوقت الذى يعتبر فيه علم الله تعالى «علماً حضورياً» فإنه لا يفترق عن وجود هذه الموجودات (فدقق فى ذلك).

إذن نستطيع أن نقول: لو أنّ جميع المحيطات وبحار الأرض تحوّلت إلى حبر ومداد، ولو أنّ كافة الأشجار تحوّلت إلى أقلام، فإنّ ذلك كلّ لا يستطيع الإحاطة بما هو موجود فى علم الخالق جلّ وعلا.

العدد الحى هو العدد الذى تشغل أفكارنا به، ويجسّد الحقائق كما هى ويملك روحاً ولساناً وعظمة.

والقرآن الكريم بدلاً من أن يقول: إنّ مخلوقات عالم الوجود تتجاوز فى كثرتها الرقم الذى تقع على يمينه مئات الكيلومترات من الأصفار، يقول: إذا تحوّلت جميع الأشجار إلى أقلام، وكل البحار إلى مواد وحبر، فإنّ الأقلام ستتكرر ومياه البحار ستنتهى، ولا تنتهى أسرار ورموز وحقائق عالم الوجود، هذه الأسرار التى يحيط بها جميعاً علم الله تعالى.

الآية الثانية فى البحث والتى هى آخر آية فى سورة الكهف، عبارة عن مجموعته من

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧١

الأسس والأصول للإعتقادات الدينية، التى تتركز فى التوحيد والمعاد ورسالة الرسول صلى الله عليه وآله.

ففى البداية تحدّثت السورة عن الله والوحى والجزاء والقيامة، والآية الأخيرة هى خلاصة لمجموع ما ورد فى السورة، التى اشتملت فى قسم مهم منها على الأصول الثلاثة الآنفه باعتبارها محاور للسورة.

ولأنّ قضية النبوة قد اقترنت مع أشكال من الغلو والمبالغة على طول التاريخ، لذا فإنّ الآية تقول: «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ».

وهذا التعبير القرآنى نسف جميع الإمتيازات المقرونة بالشرك التى تخرج الأنبياء من صفه البشرية إلى صفه الألوهية.

ثم تشير الآية إلى قضية التوحيد من بين جميع القضايا الأخرى فى الوحي الإلهى حيث تقول: «أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ».

أمّا لماذا تمّت الإشارة إلى هذه القضية؟ فذلك لأنّ التوحيد هو خلاصة جميع المعتقدات، وغاية كل البرامج الفردية والاجتماعية التى تجلب السعادة للإنسان.

وفى مكان آخر، أشرنا إلى أنّ التوحيد ليس أصلاً من أصول الدين وحسب، وإنّما هو خلاصة لجميع أصول وفروع الإسلام.

لهذا السبب نقرأ في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «حدثني جبرائيل عليه السلام قال: سمعت رب العزة سبحانه وتعالى يقول: كلمة لا إله إلا الله حصني فمن قالها دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي» (١).

الجملة الثالثة في الآية الكريمة تشير إلى قضية البعث وتربطها بالتوحيد بواسطة (فاء التفریع)، حيث تقول: «فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا».

بالرغم من أن لقاء الله بمعنى المشاهدة الباطنية ورؤية الذات المقدسة بعين البصيرة هو أمر ممكن في هذه الدنيا بالنسبة للمؤمنين الحقيقيين، إلا أن هذه القضية تكتسب جانباً عاماً يوم القيامة بسبب مشاهدة الآثار الكبيرة والواضحة والصریحة للخالق تبارك وتعالى. لذا فإن القرآن استخدم هذا التعبير في خصوص يوم القيامة.

(١) بحار الأنوار ١٢٧/٤٩.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٢

وفي آخر جملة ثمّة توضيح للعمل الصالح في جملة قصيرة، هي قوله تعالى: «وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا». عبارة اخرى: لا يكون العمل صالحاً ما لم تتجلى فيه حقيقة الإخلاص.

في الحقيقة إن العمل الصالح الذي ينبع من أهداف إلهية، ويمتج بالإخلاص ويتفاعل معه، هو الذي يكون جوازاً للقاء الله تبارك وتعالى.

فالعمل الخالص يعتبر مهماً في الإسلام إلى الحد الذي يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وآله: «من أخلص لله أربعين يوماً فبخر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه» (١).

«نهاية تفسير سورة الكهف»

(١) بحار الأنوار ٢٤٩/٦٧.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٣

١٩ سورة مريم

محتوى السورة: لهذه السورة من جهة المحتوى عدة أقسام مهمّة:

١- يشكّل القسم الذي يتحدث عن قصص زكريا ومريم والمسيح عليهم السلام ويحيى وإبراهيم عليهما السلام بطل التوحيد، وولده إسماعيل، وإدريس وبعض آخر من كبار أنبياء الله- الجزء الأهم في هذه السورة- ويحتوي على أمور تربوية لها خصوصيات مهمّة.

٢- ثم يتحدث عن المسائل المرتبطة بالقيامة، وكيفية البعث، ومصير المجرمين، وثواب المتقين، وأمثال ذلك.

٣- القسم الثالث، وهو المواعظ والنصائح التي تكمل الأقسام السابقة.

٤- إن آخر قسم عبارة عن الإشارات المرتبطة بالقرآن، ونفى الولد عن الله سبحانه، ومسألة الشفاعة، وتشكّل بمجموعها برنامجاً تربوياً مؤثراً من أجل دفع النفوس الإنسانية إلى الإيمان والطهارة والتقوى.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أدمن قراءة سورة مريم لم يمت في الدنيا حتى يصيب منها ما يغنيه في نفسه وماله وولده وكان في الآخرة من أصحاب عيسى بن مريم عليه السلام واعطى من الأجر في الآخرة ملك سليمان بن داود في الدنيا».

إنّ هذا الغنى وعدم الإحتياج- حتماً- قيس من وجود محتوى السورة وسريانها في أعماق روح الإنسان، وانعكاسها من خلال أعماله

وأقواله وسلوكه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٤

كهيعص (١) ذِكْرٌ رَحْمَتِهِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذِ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦)

دعاء زكريا المستجاب: مرّة اخرى نواجه الحروف المقطعة في بداية هذه السورة، ولما كنا قد بحثنا تفسير هذه الحروف المقطعة بصورة مفصلة في بداية ثلاث سور مختلفة فيما سبق - سورة البقرة وآل عمران والأعراف - فلا نرى حاجة للتكرار هنا.

ولكن ما ينبغي اضافته هنا هو وجود طائفتين من الروايات في المصادر الإسلامية تتعلق بالحروف المقطعة في هذه السورة «كهيعص». الاولى: تقول بأن كل حرف من هذه الحروف يشير إلى اسم من أسماء الله الحسنى، فالكاف يشير إلى الكافي، وهو من أسماء الله الحسنى، والهاء تشير إلى الهادي، والياء إشارة إلى الولي، والعين إشارة إلى العالم، والصاد إشارة إلى صادق الوعد «١». الثانية: تفسّر هذه الحروف المقطعة بحادثه ثورة الإمام الحسين عليه السلام في كربلاء: فالكاف اسم كربلاء، والهاء هلاك العترة، والياء يزيد لعنه الله وهو ظالم الحسين، والعين عطشه، والصاد إشارة إلى صبره «٢».

وكما قلنا مراراً، فإنّ آيات القرآن أنوار ومعان مختلفة، ومع تنوعها واختلافها فإنه لا يوجد تناقض بينها.

وبعد ذكر الحروف المقطعة، تشرع الكلمات الاولى باستعراض قصة زكريا عليه السلام فتقول:

«ذِكْرٌ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا». وفي ذلك الوقت الذي كان زكريا عليه السلام مغتماً ومتألماً فيه

(١) تفسير نور الثقلين ٣/ ٣٢٠.

(٢) المصدر السابق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٥

من عدم إنجاب الولد، توجه إلى رحمة ربه: «إِذِ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا» بحيث لم يسمعه أحد. وذكر في دعائه وهن وضعف العظام باعتبارها عمود بدن الإنسان ودعامته وأقوى جزء من اجزائه: «قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا».

لقد شبه زكريا نزول الكبر، وياض كل شعر رأسه باشتعال النار، والرماد الأبيض الذي تتركه، وهذا التشبيه جميل وبلغ جداً.

ثم يضيف: «وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا». فقد عودتني دائماً - فيما مضى - على استجابته أدعيتي، ولم تحرمني منها أبداً، والآن وقد أصبحت كبيراً وعاجزاً فأجدني أحوج من السابق إلى أن تستجيب دعائي ولا تخيبنني.

إنّ الشقاء هنا بمعنى التعب والأذى أي إنني لم أتعب ولم أتأذ في طلباتي منك، لأنك كنت تقضيها بسرعة.

ثم يبين حاجته: «وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي». أي إنني أخشى من أقربائي أن يسلكوا سبيل الانحراف والظلم، «وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا» يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا». أي مرضياً عندك.

إنّ للارث هنا مفهوماً ومعنى واسعاً يشمل إرث الأموال كما يشمل إرث المقامات المعنوية، لأنّ الأشخاص الفاسدين إذا تولوا أمر هذه الأموال، فإنهم سيكونون مصدر قلق حقاً، وإذا وقعت زمام الامور وقيادة الناس المعنوية بيد أناس منحرفين، فإن ذلك أيضاً يثير المخاوف، وعلى هذا فإن خوف زكريا يمكن توجيهه في كلا صورتين.

يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَنْ تُكَلِّمَ

النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا (١٠) فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (١١)

بلوغ زكريا أمه: تبين هذه الآيات استجابة دعاء زكريا عليه السلام من قبل الله تعالى استجابة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٦

ممزوجة بلطفه الكريم وعنايته الخاصة، وتبدأ بهذه الجملة: «يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلْمٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمَّ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا». أما زكريا الذي كان يرى أن الأسباب الظاهرية لا تساعد على الوصول إلى مثل هذه الأمنية، فإنه طلب توضيحاً لهذه الحالة من الله سبحانه: «قَالَ رَبِّ أُنثَى يَكُونُ لِي غُلْمٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا».

«عاقراً»: في الأصل من لفظه «عقر» بمعنى الجذر والنهاية، أو بمعنى الحبس، وإنما يقال للمرأة، عاقراً؛ لأن قابليتها على الولادة قد انتهت، أو لأن إنجاب الأولاد محبوس عنها.

«العتى»: تعنى الشخص الذى نحل جسمه وضعف هيكله، وهى الحالة التى تظهر على الإنسان عند شيخوخته.

إلا أن زكريا سمع فى جواب سؤاله قول الله سبحانه: «قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ».

إن هذه ليست بالمسألة العجيبة، أن يولد مولود من رجل طاعن فى السن مثلك، وامرأة عقيم ظاهراً «وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا»، فإن الله قادر على أن يخلق كل شىء من العدم، فلا عجب أن يتلطف عليك بولد فى هذا السن وفى هذه الظروف.

وقد سرّ زكريا وفرح كثيراً لدى سماعه هذه البشارة، وغمر نور الأمل نفسه، لكن لما كان هذا النداء بالنسبة إليه مصيرياً ومهماً جداً، فإنه طلب من ربه آية على هذا العمل:

«قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً».

لا- شك أن زكريا كان مؤمناً بوعده الله، وكان مطمئناً لذلك، إلا أنه لزيادة الإطمئنان- كما أن إبراهيم الذى كان مؤمناً بالمعاد طلب مشاهدة صورة وكيفية المعاد فى هذه الحياة ليطمئن قلبه- طلب من ربه مثل هذه العلامة والآية، فخاطبه الله: «قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا»، واشغل لسانك بذكر الله ومناجاته.

وهذه واقعة معجزة بينه حيث إن إنساناً يمتلك لساناً سليماً، وقدرة على كل نحو من المناجاة مع الله، ومع ذلك لا تكون له القدرة على التحدث أمام الناس.

بعد هذه البشارة والآية الواضحة، خرج زكريا من محراب عبادته إلى الناس، فكلمهم بالإشارة: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا»، لأن النعمة الكبيرة التى من الله بها على زكريا قد أخذت بأطراف القوم، وكان لها تأثير على مصير ومستقبل كل هؤلاء.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٧

وإذا تجاوزنا ذلك، فإن بإمكان هذه الموهبة التى تعتبر إعجازاً أن تحكّم أسس الإيمان فى قلوب الناس، وكانت هذه أيضاً موهبة أخرى.

لقد ورد اسم «يحيى» فى القرآن الكريم خمس مرات- فى سور آل عمران، والأنعام، ومريم، والأنبياء- فهو واحد من أنبياء الله الكبار، ومن جملة امتيازاته ومختصاتاته أنه وصل إلى مقام النبوة فى مرحلة الطفولة.

يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا (١٢) وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا (١٣) وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا (١٤) وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا (١٥)

صفات يحيى عليه السلام البارزة: رأينا فى الآيات السابقة كيف أن الله سبحانه منّ على زكريا عند كبره بيحيى، وبعد ذلك فإن أول ما نلاحظه فى هذه الآيات هو الأمر الإلهى المهم الذى يخاطب يحيى: «يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ».

إنّ المراد من الكتاب هنا هو التوراة، فإنّ المراد من أخذ الكتاب بقوة هو إجراء وتنفيذ ما جاء فى كتاب التوراة السماوى وأن يعمل بكلّ ما فيه، وأن يستعين بكل القوى المادية والمعنوية فى سبيل نشره وتعميمه.

ثم أشار القرآن الكريم إلى المواهب العشرة التي منحها الله ليحيى والتي اكتسبها بتوفيق الله:

- ١- «وَأَتَيْنَهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا». وهو أمر النبوة والعقل والذكاء والدراية.
 - ٢- «وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا». و «الحنان» في الأصل بمعنى الرحمة والشفقة والمحبة وإظهار العلاقة والمودة للآخرين.
 - ٣- «وَزَكَاةً». أى أعطيناه روحاً طاهرة وزكية.
 - ٤- «وَكَانَ تَقِيًّا». فكان يجتنب كل ما يخالف الأوامر الالهية.
 - ٥- «وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ».
 - ٦- «وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا» فلم يكن رجلاً ظالماً ومتكبراً وانائياً.
 - ٧- ولم يكن «عَصِيًّا» ولم يقترف ذنباً ومعصية.
- مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٨

٨، ٩، ١٠- ولما كان جامعاً لكل هذه الصفات البارزة، والأوسمة الكبيرة، فإن الله سبحانه قد سلم عليه في ثلاثة مواطن: «وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا». إن جملة «سَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ...» يبين أن في تاريخ حياة الإنسان وانتقاله من عالم إلى عالم آخر ثلاثة أيام صعبة: يوم يضع قدمه في هذه الدنيا: «يَوْمَ وُلِدَ» ويوم موته وانتقاله إلى عالم البرزخ «وَيَوْمَ يَمُوتُ» ويوم بعثه في العالم الآخر «وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا». ولما كان من الطبيعي أن تكون هذه الأيام مرافقة للإضطرابات والقلق، فإن الله سبحانه يكتنف خاصة عباده بلطفه وعافيته، ويجعل هؤلاء في ظل حمايته ومنعته في هذه المراحل العسيرة الثلاثة.

شهادة يحيى عليه السلام: لقد أصبح يحيى ضحية للعلاقات غير الشرعية لأحد طواغيت زمانه مع أحد محارمه، حيث تعلق «هروديس» ملك فلسطين اللاهث وراء شهواته بنتت أخته «هروديا» ولذلك صمم على الزواج منها. فبلغ هذا الخبر نبى الله العظيم يحيى عليه السلام، فأعلن بصراحة أن هذا الزواج غير شرعى ومخالف لتعليمات التوراء، وسأقف أمام مثل هذا العمل.

لقد انتشر صخب ووضواء هذه المسألة في كل أرجاء المدينة، وسمعت تلك الفتاة (هروديا) بذلك، فكانت ترى يحيى أكبر عائق في طريقها، ولذلك صممت على الانتقام منه في فرصة مناسبة، فعمقت علاقتها بخالها ووطدتها، وجعلت من جمالها مصيدة له، فقالت هروديا: لا أريد منك إلأ رأس يحيى.

فسلم هيروديس لما أرادت من دون أن يفكر ويتنبه إلى عاقبة هذا العمل، ولم يمض قليل من الزمن حتى احضر رأس يحيى عند تلك المرأة الفاجرة، إلأ أن عواقب هذا العمل الشنيع قد أحاطت به، وأخذت بأطرافه في النهاية.

في تفسير مجمع البيان عن على بن الحسين عليهما السلام قال: «خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلأ ذكر يحيى بن زكريا وقتله، وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على الله عز وجل أن رأس يحيى بن زكريا اهدى إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل». أى إن ظروفى تشابه من هذه الناحية ظروف وأحوال يحيى، لأن أحد أهداف ثورتى محاربة الأعمال المخزية لطاغوت زمانى يزيد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٧٩

وَ اذْكَرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا (١٨) قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا (١٩) قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا (٢٠) قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّئْ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا (٢١)

ولادة عيسى عليه السلام: بعد ذكر قصة يحيى عليه السلام، حوّلت الآيات مجرى الحديث إلى قصة عيسى عليه السلام لوجود علاقة قوية وتقارب واضح جداً بين مجريات هاتين الحادثتين.

فإن كانت ولادة يحيى من أب كبير طاعن فى السن وأم عقيم عجيبة، فإن ولادة عيسى من أم دون أب أعجب.

وإن كان الوصول إلى مقام النبوة وبلوغ العقل الكامل - في مرحلة الطفولة - باعثاً على الحيرة ومعجزاً، فإنَّ التحدّث في المهده عن الكتاب والنبوة أبعث على التعجب والحيرة، وأكثر إعجازاً.

وعلى كل حال، فإنَّ كلا الأمرين آيتان على قدرة الله الكبير المتعال، إحداهما أكبر من الاخرى، وقد صادف أن تكون كلتا الآيتين مرتبطتان بشخصين تربطهما أواصر نسب قويه، فكل منهما قريب للآخر من ناحية النسب، حيث إنَّ أم يحيى كانت أخت أم مريم، وكانت كلتاهما عقيمتين وتعيشان أمل الولد الصالح.

تقول الآية الاولى: «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا».

«انتبذت»: أخذت من مادة «نبد» وهي تعنى إلقاء وإبعاد الأشياء التي لا تسترعى الإنباه، وربما كان هذا التعبير في الآية إشارة إلى أن مريم قد اعتزلت بصورة متواضعة ومجهولة وخالية من كل ما يجلب الإنباه، واختارت ذلك المكان من بيت الله للعبادة. في هذه الأثناء ومن أجل أن تكمل مريم مكان خلوتها واعتكافها من كل جهة، فإنها «فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا». «فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا». والروح هنا جبرئيل ملك الله العظيم حيث تجسّد لمريم على شكل انسان جميل لا عيب فيه ولا نقص.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٠

إنَّ الحالة التي اعترت مريم في تلك اللحظة واضحة جداً، كم داخلها من الرعب والإضطراب عند مشاهدة هذا المنظر، وهو دخول رجل أجنبي جميل في محل خلوتها، ولذلك فإنها مباشرة: «قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا». وكانت هذه أول هزة عمّت كل وجود مريم.

إنَّ ذكر اسم الرحمان، ووصفه برحمته العامة من جهة، وترغيب الرجل في التقوى والإمتناع عن المعصية من جهة اخرى، كان من أجل أن يردع هذا الشخص المجهول إن كانت له نية سيئة في ارتكاب المعصية.

لقد كانت مريم تنتظر رد فعل ذلك الشخص المجهول بعد أن تفوّت بهذه الكلمات إنتظاراً مشوباً بالإضطراب والقلق الشديد، إلّا أنّ هذه الحالة لم تطل، فقد كلّمها ذلك الشخص، ووضّح مهمته ورسالته العظيمة «قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ».

لقد كانت هذه الجملة كالماء الذي يلقي على النار، فقد طمأن قلب مريم الطاهر، إلّا أنّ هذا الإطمئنان لم يدم طويلاً، لأنه أضاف مباشرة: «لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا».

لقد اهتز كيان ووجود مريم لدى سماع هذا الكلام، وغاصت مرّة اخرى في قلق شديد:

«قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا».

لقد كانت تفكر في تلك الحالة في الأسباب الطبيعية فقط. إلّا أنّ أمواج هذا القلق المتلاطمه هدأت بسرعة عند سماع كلام آخر من رسول الله إليها، فقد خاطب مريم بصراحة: «قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ». فأنت الواقفة على قدرتي والعالمه بها جيداً ...

أنت التي رأيت ثمر الجنه في فصل لا يوجد شبيه لتلك الفاكهه في الدنيا جنب محراب عبادتك، أنت التي سمعت نداء الملائكة حين شهدت بعفتك وطهارتك ... أنت التي تعلمين أن جدك آدم قد خلق من التراب، فلماذا هذا التعجب من سماعك هذا الخبر؟

ثم أضاف: «وَلَنَجْعَلَنَّ آيَاتَهُ لِلنَّاسِ وَرَحِمَةً مِّنَّا». فنحن نريد أن نبعثه للناس رحمة من عندنا، ونجعله معجزة، وعلى كل حال، «وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا». فلا مجال بعد ذلك للمناقشه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨١

مريم في عاصفة: وأخيراً حملت مريم، واستقرّ ذلك الولد الموعود في رحمها:

«فَحَمَلَتْهُ».

إنَّ هذا الأمر قد تسبب في أن تبتعد عن بيت المقدس «فَاتَّخَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا».

لقد كانت تعيش في حالة بين الخوف والأمل، حالة من القلق والإضطراب المشوب بالسرور، فهي تفكر أحياناً بأنَّ هذا الحمل

سيفتضح أمره في النهاية.

فمن الذى سيقنتع بأن امرأة لا زوج لها تحمل دون أن تكون قد تلوثت بالرديلة؟ فماذا سأفعل تجاه هذا الإتهام؟
إلا أنها من جهة اخرى كانت تحس أن هذا المولود، نبي الله الموعود، تحفه سماوية نفيسة، فإن الله الذى بشرنى بمثل هذا الغلام،
وخلقه بهذه الصورة الإعجازية كيف سيدرنى وحيدة؟
ومهما كان فقد انتهت مدّة الحمل.

ومع أن النساء يلجان عادة في مثل هذه الحالة إلى المعارف والأصدقاء ليساعدوهن على الولادة، إلا أن وضع مريم لما كان استثنائياً،
ولم تكن تريد أن يرى أحد وضع حملها مطلقاً، فإنها اتخذت طريق الصحراء بمجرّد أن بدأ ألم الولادة؛ ويقول القرآن في ذلك:
«فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ».

إن التعبير بجذع النخلة، وبملاحظة أن الجذع يعنى بدن الشجرة، يوحى بأنه لم يبق من تلك الشجرة إلا جذعها وبدنها، أى إن الشجرة
كانت يابسة.

في هذا الحال غمر كل وجود مريم الطاهر سيل من الغم والحزن، لقد كان هذا الإضطراب والصراع صعباً جداً، وقد أثقل كاهلها إلى
الحد الذى تكلمت فيه بلا إرادة و «قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا».

إن من البديهي أن الخوف من التهم فى المستقبل لم يكن الشئ الوحيد، وإن كان هذا الموضوع يشغل فكر مريم أكثر من أية مسألة
اخرى، إلا أن مشاكل ومصائب اخرى كوضع الحمل لوحدها بدون قابله وصديق ومعين فى الصحارى الخالية، وعدم وجود مكان
للإستراحة، وعدم وجود الماء للشرب، والطعام للأكل، وعدم وجود وسيلة لحفظ المولود الجديد، وغير هذه الامور كانت تهزها من
الأعماق بشدة.

إلا أن هذه الحالة لم تدم طويلاً، فقد سطعت ومضة الأمل التى كانت موجودة دائماً فى

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ١٨٢

أعماق قلبها، وطرق سمعها صوت، «فَنَادَيْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزِنِي أَلَّا تَحْزِنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا». وانظرى إلى الأعلى كيف أن هذا
الجذع اليابس قد تحوّل إلى نخلة مثمرة، «وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا» فكلّى وأشرى وقزى عينا بالمولود
الجديد، «فَأِمَّا تَرِينَ مِنْ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا». وهذا الصوم هو المعروف بصوم السكوت.
وعلى هذا فليهدأ روعك من كل الجهات، ولا تدعى اللهم طريقاً إلى نفسك.

ويظهر من تعبير الآية أن نذر صوم السكوت كان أمراً معروفاً فى ذلك المجتمع، ولهذا لم يعترضوا على هذا العمل؛ غير أن هذا النوع
من الصوم غير جائز فى شريعتنا.

عن على بن الحسين عليه السلام (فى حديث) قال: «وصوم الصمت حرام» (١).

استفاد المفسرون مما جاء صريحاً فى هذه الآيات، أن الله سبحانه قد جعل غذاء مريم حين ولادة مولودها الرطب.

فى الكافى عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله ليكن أول ما تأكل النفساء الرطب، فإن الله عز وجل
قال لمريم: «وَهَزَى إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا»».

ويستفاد من الروايات أن أفضل غذاء ودواء للحامل هو الرطب.

فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا (٢٨)
فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا (٢٩) قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَمَا
كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)

المسيح يتكلم في المهد: وأخيراً رجعت مريم عليها السلام من الصحراء إلى المدينة وقد احتضنت طفلها «فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلَةً». فلما رأوا طفلاً حديث الولادة بين يديها فغروا أفواههم تعجباً، وتعجل آخرون في القضاء والحكم، وقالوا: إن من المؤسف هذا الإنحدار مع ذلك الماضي المضيء، ومع الأسف على تلوث سمعة تلك الأسرة الطاهرة، «قَالُوا يَا مَرْيَمُ

(١) وسائل الشيعة ٧ / ٣٩٠.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٣

لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا».

والبعض الآخر واجهها، بالقول: «يَا أُخْتِ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعِيًّا».

أمياً قولهم لمريم: «يَا أُخْتِ هَرُونَ» لأن هارون رجل طاهر صالح إلى الدرجة التي يضرب به المثل بين بني إسرائيل، فإذا أرادوا أن يصفوا شخصاً بالطهارة والنزاهة، كانوا يقولون: إنه أخو أو أخت هارون.

في هذه الساعة، سكتت مريم بأمر الله، والعمل الوحيد الذي قامت به، هو أنها أشارت إلى وليدها «فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ». إلا أن هذا العمل جعل هؤلاء يتعجبون أكثر، ثم غضبوا فقالوا:

مع قيامك بهذا العمل تسخرين من قومك أيضاً؟ «قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا».

إن الناس قلقوا واضطربوا من سماع كلام مريم هذا، بل وربما غضبوا وقالوا لبعضهم البعض - حسب بعض الروايات -: إن استهزاءها وسخريتها أشد علينا من انحرافها عن جادة العفة.

إلا أن هذه الحالة لم تدم طويلاً، لأن ذلك الطفل الذي ولد حديثاً قد فتح فاه وتكلم:

«قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا * وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ»، ومفيداً من كل الجهات للعباد «وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا».

وكذلك جعلني مطيعاً ووفياً لأمي «وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا».

وروى - في التفسير الكبير - أن عيسى عليه السلام قال: «قلبي لين وأنا صغير في نفسي». وهو إشارة إلى أن هذين الوصفين يقعان في مقابل الجبار والشقي.

وفي النهاية يقول هذا المولود - أي المسيح -: «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا».

هذه الآية في حق يحيى عليه السلام كما وردت في شأن المسيح عليه السلام، مع الاختلاف بأن الله هو الذي قالها في المورد الأول، أما في المورد الثاني فإن المسيح قد طلب ذلك.

ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٣٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٤

أيمكن أن يكون لله ولد؟! بعد تجسيد القرآن الكريم في الآيات السابقة حادثه ولادة المسيح عليه السلام بصورة حية وواضحة جداً، انتقل إلى نفى الخرافات وكلمات الشرك التي قالوها في شأن عيسى، فيقول: «ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ». خاصية وأنه يؤكد على كونه «ابن مريم» ليكون ذلك مقدمه لنفي نبوته لله سبحانه. ثم يضيف: «قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ».

وتقول الآية التالية بصراحة: «مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ». وهذا إشارة إلى أن اتخاذ الولد - كما يظن المسيحيون في شأن الله - لا يناسب قداسة مقام الألوهية والربوبية، فهو يستلزم من جهة الجسمية، ومن جانب آخر المحدودية، ومن جهة ثالثة الإحتياج.

إِنَّ تَعْبِيرَ «كُنْ فَيَكُونُ» تَجْسِيدٌ حَى جَدًّا عَن مَدَى سَعَةِ قَدْرَةِ اللَّهِ، وَتَسْلُطُهُ وَحَاكِمِيَّتِهِ فِي أَمْرِ الْخَلْقَةِ.

وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٣٦) فَاخْتَلَفَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٣٧) أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٨) وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٩) إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠)

إِنَّ آخِرَ كَلَامِ لِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَعْدَ تَعْرِيفِهِ لِنَفْسِهِ بِالصِّفَاتِ الَّتِي ذَكَرْتَ، هُوَ التَّأَكِيدُ عَلَى مَسْأَلَةِ التَّوْحِيدِ، وَخَاصَّةً فِي مَجَالِ الْعِبَادَةِ، فَيَقُولُ: «وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ».

وَعَلَى هَذَا فَإِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَدَأَ بِمُحَارَبَةِ كُلِّ أَنْوَاعِ الشَّرِكِ وَعِبَادَةِ الْأَلْهَةِ الْمَزْدُوجَةِ وَالْمُتَعَدِّدَةِ مِنْذُ بَدَايَةِ حَيَاتِهِ.

غَيْرَ أَنَّهُ بِالرَّغْمِ مِنْ كُلِّ هَذِهِ التَّأَكِيدَاتِ الَّتِي أَكَّدَ عَلَيْهَا الْمَسِيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي مَجَالِ التَّوْحِيدِ وَعِبَادَةِ اللَّهِ، فَقَدْ اخْتَلَفَتِ الْفِئَاتُ، وَأَظْهَرُوا اعْتِقَادَاتٍ مُخْتَلِفَةً، وَخَاصَّةً فِي شَأْنِ الْمَسِيحِ:

«فَاخْتَلَفَ الْأَخْرَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

إِنَّ تَارِيخَ الْمَسِيحِيَّةِ يَشْهَدُ بِوَضُوحٍ عَلَى مَدَى الْاِخْتِلَافِ الَّتِي حَصَلَ بَعْدَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي شَأْنِهِ، وَحَوْلَ مَسْأَلَةِ التَّوْحِيدِ.

فَذَهَبَ الْبَعْضُ: إِنَّ الْمَسِيحَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ! فَأَحْيَى جَمَاعَةً، وَأَمَاتَ أُخْرَى، ثُمَّ صَعَدَ إِلَى السَّمَاءِ!

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ١٨٥

وقال البعض الآخر: إنه ابن الله!

ورأى آخرون: إنه أحد الأقانيم الثلاثة- الذوات الثلاثة المقدسة- الأب والابن وروح القدس، والله الأب، والله الابن وروح القدس.

وآخرون قالوا: إنه ثالث ثلاثة: فالله معبود، وهو معبود، وأمه معبودة!

وأخيراً قال البعض: إنه عبد الله ورسوله.

وَلَمَّا كَانَ الْاِنْحِرَافُ عَنِ أَصْلِ التَّوْحِيدِ يَعْتَبَرُ أَكْبَرَ انْحِرَافٍ لِلْمَسِيحِيِّينَ، فَقَدْ رَأَيْنَا كَيْفَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ هَدَّدَ هَؤُلَاءِ فِي ذَيْلِ الْآيَةِ بِأَنَّهُمْ سَيَكُونُ لَهُمْ مَصِيرٌ مَوْجُودٌ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فِي ذَلِكَ الْمَشْهَدِ الْعَامِ، وَأَمَامَ مَحْكَمَةِ اللَّهِ الْعَادِلَةِ.

ثُمَّ تَبَيَّنَ الْآيَةُ التَّالِيَةُ وَضَعُ أَوْلَئِكَ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ، فَتَقُولُ عِنْدَمَا يَقْدُمُونَ عَلَيْنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَسَوْفَ تَكُونُ لَهُمْ أَسْمَاعٌ قَوِيَّةٌ وَأَبْصَارٌ حَادَّةٌ فَيَسْمَعُونَ وَيَرَوْنَ جَمِيعَ الْحَقَائِقِ الَّتِي كَانَتْ خَافِيَةً عَلَيْهِمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَلَكِنِ الظَّالِمِينَ الْيَوْمَ، أَيْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَافِلُونَ عَنِ هَذِهِ الْعَاقِبَةِ: «أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُوتُنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ».

وَمِنَ الطَّبِيعِيِّ أَنْ تَسْلُبَ الْمَحْكَمَةُ وَأَثَارُ الْأَعْمَالِ نَوْمَ الْغَفْلَةِ مِنَ الْعَيْنِ وَالْأَذْنِ، وَحَتَّى عَمَى الْقُلُوبَ فَإِنَّهُمْ سَيَعُونَ الْأَمْرَ وَيَعْلَمُونَ الْحَقَّ، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْوَعْيَ وَالْعِلْمَ لَا يَنْفَعُهُمْ شَيْئًا.

ثُمَّ تَوَكَّدَ الْآيَةُ التَّالِيَةُ مَرَّةً أُخْرَى عَلَى مَصِيرِ الْمُنْحَرِفِينَ وَالظَّالِمِينَ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، فَتَقُولُ:

«وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ».

حَيْثُ يَتَحَسَّرُ الْمُؤْمِنُونَ الْمَحْسَنُونَ عَلَى قَلْبِهِمْ عَمَلُهُمْ، وَيَالِيَتُهُمْ كَانُوا قَدْ عَمِلُوا أَكْثَرَ، وَكَذَلِكَ يَتَحَسَّرُ الْمَسِيئُونَ، لِأَنَّ الْحَجْبَ تَزُولُ، وَتَتَضَحَّ حَقَائِقُ الْأَعْمَالِ وَتَتَأَنَّبُهَا لِلْجَمِيعِ.

ثُمَّ تَحَدَّرَ الْآيَةُ الْأُخْرَى- مِنْ آيَاتِ الْبَحْثِ- كُلِّ الظَّالِمِينَ وَالْجَائِرِينَ، وَتَذَكَّرَهُمْ بِأَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالَ الَّتِي تَحْتَ تَصَرُّفِهِمُ الْآنَ لَيْسَتْ خَالِدَةً، كَمَا أَنَّ حَيَاتِهِمْ لَيْسَتْ خَالِدَةً، بَلْ إِنَّ الْوَارِثَ الْأَخِيرَ لِكُلِّ شَيْءٍ هُوَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ: «إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ».

وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٤١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (٤٢) يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (٤٣) يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (٤٤) يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (٤٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٦

إبراهيم ومنطقه المؤثر والقاطع: تزيح هذه الآيات الستار عن جانب من حياة بطل التوحيد إبراهيم الخليل عليه السلام، وتؤكد على أن دعوة هذا النبي الكبير - كسائر المرشدين الإلهيين - تبدأ من نقطة التوحيد، فتقول أولاً: «وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا». إن أبرز صفة يلزم وجودها في كل الانبياء وحمله الوحي الإلهي أن يوصلوا أوامر الله إلى العباد دون زيادة أو نقصان.

ثم تتطرق الآية التي بعدها إلى شرح محاورته مع أبيه آزر - والأب هنا إشارة إلى العم، فإن كلمة الأب، كما قلنا سابقاً، ترد أحياناً في لغة العرب بمعنى الأب، وأحياناً بمعنى العم - فتقول: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا». إن هذا البيان القصير القاطع من أحسن أدلة نفي الشرك وعبادة الأوثان، لأن أحد بواعث الإنسان في معرفته الرب هو باعث الريح والخسارة، والضرر والنفع، والذي يعتبر عنه علماء العقائد بمسألة (دفع الضرر المحتمل). فهو يقول: لماذا تتجه إلى معبود ليس عاجزاً عن حل مشكلة من مشاكلك وحسب، بل إنه لا يملك أصلاً القدرة على السمع والبصر.

بعد ذلك دعاه - عن طريق المنطق الواضح - إلى اتباعه، فقال: «يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا». فإني قد وعيت أموراً كثيرة عن طريق الوحي، وأستطيع أن أقول باطمئنان: إنني سوف لا - أسلك طريق الضلال والخطأ، ولا أدعوك أبداً إلى هذا الطريق المعوج.

ثم يعطف نظره إلى الجانب السلبي من القضية بعد ما ذكر بعدها الايجابي ويشير إلى الآثار التي تترتب على مخالفة هذه الدعوة، فيقول: «يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا». إن العبادة هنا بمعنى الطاعة واتباع الأوامر، وهذا بنفسه يعتبر نوعاً من العبادة.

ثم يذكره ويتبهنه مرة أخرى بعواقب الشرك وعبادة الأصنام المشؤومة، ويقول: «يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا».

إن تعبير إبراهيم هذا رائع جداً، فهو من جانب يخاطب عمه دائماً ب «يَا أَبَتِ» وهذا يدل على الأدب واحترام المخاطب، ومن جانب آخر فإن قوله «أَنْ يَمَسَّكَ» توحى بأن

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٧

إبراهيم كان قلقاً ومتأثراً من وصول أدنى أذى إلى آزر.

قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (٤٦) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَعْفِفُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (٤٧) وَاعْتَرَلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَى أَنْ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (٤٨) فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا (٤٩) وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا (٥٠)

نتيجة البعد عن الشرك والمشركين: مرت في الآيات السابقة كلمات إبراهيم عليه السلام التي كانت ممتزجة باللطف والمحبة في طريق الهداية، والآن جاء دور ذكر أجوبة آزر، لكي تتضح الحقيقة والواقع من خلال مقارنة الكلامين مع بعضهما. يقول القرآن الكريم: إن حرص وتحرق إبراهيم، وبيانه الغنى العميق لم ينفذ إلى قلب آزر، بل إنه غضب لدى سماعه هذا الكلام، و «قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمَ لَئِن لَّمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا».

لكن، ورغم كل ذلك، فقد سيطر إبراهيم على أعصابه، كبقية الأنبياء والقادة الإلهيين، ومقابل هذه الغلظة والحدة وقف بكل سمو وعظمة، و «قَالَ سَلَّمَ عَلَيْكَ».

إن هذا السلام يمكن أن يكون سلام التوديع، وأن إبراهيم بقوله: «سَلَّمَ عَلَيْكَ» وما يأتي بعده من كلام يقصد ترك آزر؛ ويمكن أن يكون سلاماً يقال لفض النزاع.

ثم أضاف: «سَأَسْتَعْفِفُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا». إن إبراهيم في الواقع قابل خشونة وتهديد آزر بالعكس، ووعد بالاستغفار وطلب

مغفرة الله له.

ثم يقول: «وَأَعْتَرَلِكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ». أي: الأصنام. «وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا».

تبيّن هذه الآية من جهة أدب إبراهيم في مقابل آزر، ومن جهة أخرى فإنها تبيّن حزمه في عقيدته.

لقد وفي إبراهيم بقوله، وثبت على عقيدته بكلّ صلابه وصمود، وكان دائماً ينادى بالتوحيد، بالرغم من أن كل ذلك المجتمع الفاسد في ذلك اليوم قد وقف ضده وثار عليه، إلّا أنه لم يبق وحده في النهاية، فقد وجد أتباعاً كثيرين على مرّ القرون والأعصار، بحيث إن كل

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٨

الموحدين وعباد الله في العالم يفتخرون بوجوده. يقول القرآن الكريم: «فَلَمَّا اعْتَرَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا».

إنّ هذه الموهبة العظيمة كانت نتيجة صبر إبراهيم عليه السلام واستقامته التي أظهرها في طريق محاربه الأصنام، واعتزال المنهج الباطل والإبتعاد عنه. وإضافة إلى ذلك: «وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا». تلك الرحمة الخاصة بالمخلصين، والرجال المجاهدين في سبيل الله. وأخيراً: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا».

إنّ هذا في الحقيقة إجابة لطلب ودعاء إبراهيم الذي جاء في الآية (٨٤) من سورة الشعراء: «وَأَجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ». واذكر في الكتاب موسى إنّه كان مُخْلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا (٥٢) وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا (٥٣)

موسى النبي المخلص: في هذه الآيات الثلاث إشارة قصيرة إلى موسى عليه السلام - وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام وموهبه من مواهب ذلك الرجل العظيم - حيث سار على خطاه.

وتوجه الآية الخطاب إلى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وتقول: «وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى».

ثم تذكر خمس مواهب وصفات من المواهب التي أعطيت لهذا النبي الكبير:

١- إنّه وصل في طاعته وعبوديته لله إلى حدّ «إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا». ولا ريب أنّ الذي يصل إلى هذه المرتبة سيكون مصوناً من خطر الانحراف والتلوّث، لأنّ الشيطان رغم كل إصراره على إضلال عباد الله، يعترف هو نفسه بعدم قدرته على إضلال المخلصين: «قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُعْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إَلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ» (١).

٢- «وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا». فحقيقه الرسالة أن تلقى مهمّة على عاتق شخص، وهو مسؤول عن أدائها وإبلاغها، وهذا المقام كان لجميع الأنبياء المأمورين بالدعوة.

إنّ ذكر كونه «نبيًّا» هنا إشارة إلى علو مقام هذا النبي العظيم، لأنّ هذه اللفظة في الأصل مأخوذة من (النّبوة) وتعنى رفعة المقام وعلوه.

٣- وأشارت الآية التالية إلى بداية رسالة موسى، فقالت: «وَنَدَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ

(١) سورة ص / ٨٢ و ٨٣.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٨٩

الْأَيْمَنِ». ففي تلك الليلة المظلمة الموحشة، حيث قطع موسى صحارى مدين متوجّهاً إلى مصر، أخذ زوجته الطلق وألم الولادة، وكان البرد شديداً، فكان يبحث عن شعله نار، وفجأة سطع نور من بعيد، وسمع نداء يبلغه رسالة الله، وكان هذا أعظم وسام وألذ لحظة في حياته.

٤- إضافة إلى ذلك: «وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا» (١) فإنّ النداء كان موهبه، والتكلم موهبه أخرى.

٥- وأخيراً «وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا» ليكون معينه ونصيره.

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥٤) وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (٥٥)

إسماعيل نبي صادق الوعد: بعد ذكر إبراهيم عليه السلام وتضحيته، وبعد الإشارة القصيرة إلى حياة موسى عليه السلام المتسامية، يأتي الحديث عن إسماعيل، أكبر ولد إبراهيم، ويكمل ذكر إبراهيم بذكر ولده إسماعيل، وبرامجه ببرامج ولده، ويبين القرآن الكريم خمس صفات من صفاته البارزة التي يمكن أن تكون قدوة للجميع.

ويبدأ الكلام بخطاب الآية الشريفة للنبي صلى الله عليه وآله فتقول: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَ كَانَ رَسُولًا نَبِيًّا» وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا.

وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (٥٦) وَ رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا (٥٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْرَائِيلَ وَ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَ اجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَ بُكْيًا (٥٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَ آمَنَ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَ لَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)

هؤلاء أنبياء الله، ولكن...: في آخر قسم من تذكيرات هذه السورة، جاء الحديث عن

(١) وهنا ينادى الله موسى من بعيد، ولما اقترب ناجاه. ومن المعلوم أن الله سبحانه ليس له لسان ولا مكان، بل يوجد الأمواج الصوتية في الفضاء، ويتكلم مع عبد كموسى.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٠

«إدريس» النبي، فقالت الآية أولاً: «وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا».

«الصديق»: هو الشخص الصادق جداً، والمصدق بآيات الله سبحانه، والمذعن للحق والحقيقة. ثم تشير الآية إلى مقامه العالى وتقول: «وَ رَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا». والمراد هو عظمه المقامات المعنوية والدرجات الروحية لهذا النبي الكبير.

ثم تبين الآية التالية بصورة جماعية عن كل الإمتيازات والخصائص التي مرّت في الآيات السابقة حول الأنبياء العظام وصفاتهم وحالاتهم والموهب التي أعطاهم الله إياها، فتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَ مِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَ مِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْرَائِيلَ».

إن المراد من ذرية آدم في هذه الآية هو إدريس، حيث كان - حسب المشهور - جد النبي نوح.

والمراد من الذرية، هم الذين ركبوا مع نوح في السفينة، لأن إبراهيم كان من أولاد سام بن نوح. والمراد من ذرية إبراهيم: إسحاق وإسماعيل ويعقوب؛ والمراد من ذرية إسرائيل:

موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى.

ثم تكمل الآية هذا البحث بذكر الأتباع الحقيقيين لهؤلاء الأنبياء، فتقول: «وَ مِمَّنْ هَدَيْنَا وَ اجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَ بُكْيًا» (١).

ثم تتحدث الآيات عن جماعة انفصلوا عن دين الأنبياء المربي للإنسان، وكانوا خلفاً سيئاً لم ينفذوا ما أريد منهم، وتعدد الآية قسماً من أعمالهم القبيحة، فتقول: «فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَ اتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا».

«خلف» بمعنى الأولاد الطالحين؛ و «خلف» بمعنى الأولاد الصالحين.

وهذه الجملة قد تكون إشارة إلى جماعة من بنى إسرائيل ساروا في طريق الضلال، فنسوا الله، ورجحوا اتباع الشهوات على ذكر الله.

إن المراد من (إضاعة الصلاة) هنا القيام بأعمال تضيع الصلاة في المجتمع. ولما كان منهج القرآن في كل موضع هو فتح ابواب الرجوع إلى الإيمان والحق دائماً، فإنه

(١) «سجد»: جمع ساجد؛ و «بكى»: جمع باك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩١

يقول هنا أيضاً بعد ذكر مصير الأجيال المنحرفة: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا»، وعلى هذا فلا يعنى أن الإنسان إذا غاص يوماً في الشهوات فسيكتب على جبينه اليأس من رحمة الله.

طبقاً لنقل كثير من المفسرين، فإن إدريس جد سيدنا نوح عليه السلام واسمه في التوراة «أخنوخ» وفي العربية (إدريس)، وذهب البعض أنه من مادة (درس) لأنه أول من كتب بالقلم، فقد كان إضافة إلى النبوة عالماً بالنجوم والحساب والهيئة، وكان أول من علم البشر خياطة الملابس.

جَنَاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا (٦١) لَمَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا (٦٢) تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا (٦٣)

بعض صفات الجنة: وصفت الجنة ونعمها في هذه الآيات بأنها «جَنَاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا».

ثم تشير بعد ذلك إلى نعمة اخرى من أكبر نعم الجنة فتقول: «لَمَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا» فلا كذب، ولا عداء، لا تهمه ولا جرح لسان، لا سخرية ولا حتى كلام لا فائدة فيه، بل الشيء الوحيد الذي يسمعون هو السلام «إِلَّا سَلَامًا».

السلام الذي هو علامته على المحيط الآمن، المحيط الملي بالصفاء والعلاقة الحميمة والطهارة والتقوى والصلح والهدوء والإطمئنان.

وبعد هذه النعمة تشير الآية إلى نعمة اخرى فتقول: «وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا».

وبعد الوصف الإجمالي للجنة ونعمها المادية والمعنوية، تعرّف الآية أهل الجنة في جملة قصيرة، فتقول: «تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا». وعلى هذا فإن مفتاح باب الجنة مع كل تلك النعم التي مرّت ليس إلا «التقوى».

وَمَا يَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَيْدِينَا وَمِمَّا خَلَفْنَا وَمَا يَبَيِّنُ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا (٦٤) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا (٦٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٢

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: احتبس الوحي أياماً، لما سئل النبي صلى الله عليه وآله عن قصة أصحاب الكهف، وذى القرنين، والروح، فسق ذلك عليه فلما أتاه جبرائيل استبطأه فنزلت «وَمَا يَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» الآية.

التفسير

الطاعة التامة: بالرغم من أن لهذه الآية سبب نزول ذكر أعلاه، إلا أن هذا لا يكون مانعاً من أن يكون لها ارتباطاً منطقياً بالآيات السابقة، لأنها تأكيد على أن كل ما أتى به جبرئيل من الآيات السابقة قد بلغه عن الله بدون زيادة أو نقصان، ولا شيء من عنده، فتحدث الآية الأولى على لسان رسول الوحي فتقول: «وَمَا يَنْتَظِرُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ»، فكل شيء منه، ونحن عباد وضعنا أرواحنا وقلوبنا على الألف، «لَهُ مِمَّا يُبَيِّنُ أَيْدِينَا وَمِمَّا خَلَفْنَا وَمِمَّا يَبَيِّنُ ذَلِكَ». والخلاصة: فإن الماضي والحاضر والمستقبل، وهنا وهناك وكل مكان، والدنيا والآخرة والبرزخ، كل ذلك متعلق بذات الله المقدسة.

ثم تضيف الآية: إن كل ذلك بأمر ربك «رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمِمَّا بَيْنَهُمَا» فإذا كان الأمر كذلك، وكل الخطوط تنتهي إليه «فَاعْبُدْهُ» عبادة مقترنة بالتوحيد والإخلاص.

ولما كان هذا الطريق - طريق العبودية والطاعة وعبادة الله الخالصة - ملئاً بالمشاكل والمصاعب، فقد أضافت: «وَاصْبِرْ لِعِبَادَتِهِ». وتقول في آخر جملة: «هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا».

وهذه الجملة في الواقع، دليل على ما جاء في الجملة السابقة، يعنى: هل لذاته المقدسة شريك ومثيل حتى تمد يدك إليه وتعبده؟ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا (٦٦) أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧) فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْهَمٌ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا (٧٠)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان أن الآيات الأولى نزلت في ابى بن خلف الجمحي، وذلك أنه أخذ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٣

عظماً بالياً فجعل يفتنه بيده ويذريه في الريح ويقول: زعم محمد أن الله يبعثنا بعد أن نموت ونكون عظماً مثل هذا، إن هذا شيء لا يكون أبداً.

التفسير

حال أهل النار: مرت في الآيات السابقة بحوث عديدة حول القيامة والجنة والجحيم، وتحدثت هذه الآيات التي نبحتها حول نفس الموضوع، فتعيد الآية الأولى أقوال منكرو المعاد، فتقول: «وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ إِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا». أى إن هذا الشيء غير ممكن.

ثم يجيبهم مباشرة بنفس التعبير: «أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَ لَمْ يَكُ شَيْئًا».

ثم تهدد الآية التالية منكرو المعاد، والمجرمين الكافرين: «فَوَرَبُّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا».

إن هذه الآية توحى بأن محكمة الأفراد الكافرين والمجرمين قريبة من جهنم.

ولما كانت الأولويات تلاحظ في تلك المحكمة العادلة، فإن الآية التالية تقول: «ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شَيْعَةٍ أَيْهَمٌ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا» (١). ونبدأ بحسابهم أولاً، فإنهم عتوا عتواً نسوا معه كل مواهب الله الرحمان، وجنحوا إلى التمرد والعصيان وإظهار الوقاحة أمام ولى نعمتهم.

ثم تؤكد على هذا المعنى مرة أخرى فتقول: «ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا».

فسنختار هؤلاء بدقه، وسوف لا يقع أى اشتباه في هذا الإختيار.

وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)

الجميع يردون جهنم: تستمر الآيات في بحث خصائص القيامة والثواب والعقاب، وأشارت في البداية إلى مسألة يثير سماعها الحيرة والعجب لدى أغلب الناس، فتقول: «وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا». فجميع الناس سيدخلون جهنم بدون استثناء لأنه أمر حتمى.

(١) «الشيعة»: فى الأصل بمعنى الجماعة التى يتعاون أفرادها للقيام بعمل ما، وانتخاب هذا التعبير فى الآية يمكن أن يكون إشارة إلى أن العتاء المردة والضالين الكافرين كانوا يتعاونون فى طريق الطغيان، ونحن سنحاسب هؤلاء أولاً، لأنهم أكثر تمرداً وعصيانياً من الجميع.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٤

«ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا». فتركهم فيها جالسين على الركب من الضعف والذل.

وهناك بحث مفصّل بين المفسرين في تفسير هاتين الآيتين حول المراد من «الورود» في جملة «وَأِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا»؛ فاختر أكثر المفسرين، أن الورود هنا بمعنى الدخول، وعلى هذا الأساس فإن كل الناس بدون استثناء - محسنهم ومسيؤهم - يدخلون جهنم، إلا أنها ستكون برداً وسلاماً على المحسنين، كحال نار نمرود على إبراهيم «يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ»، لأن النار ليست من سنخ هؤلاء الصالحين، فقد تفرّ منهم وتبتعد عنهم، إلا أنها تناسب الجهنميين فهم بالنسبة للحجيم كالمادة القابلة للاشتعال، فما أن تمسّهم النار حتى يشتعلوا.

إن مشاهدة جهنم وعذابها في الحقيقة، ستكون مقدمة لكي يلتذّ المؤمنون بنعم الجنة بأعلى مراتب اللذة.

إن أهل النار أيضاً سيلقون عذاباً أشد من رؤيته هذا المشهد.

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا (٧٣) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِئًا (٧٤) قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا (٧٥) وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا (٧٦)

هذه الآيات تتابع ما مرّ في الآيات السابقة في الحديث عن الظالمين الذين لا- إيمان لهم، وتعرّض لجانب آخر من منطلق هؤلاء الظالمين ومصيرهم.

ومن المعلوم أن أول جماعة آمنت بالرسول الأعظم صلى الله عليه وآله كانوا من المستضعفين الطاهري القلوب، والذين خلت أيديهم من مال الدنيا ومغرياتها.

ولما كان المعيار في المجتمع الجاهلي في ذلك الزمان- وكذا في كل مجتمع جاهلي آخر- هو الذهب والزينة والمال والمقام والمنصب والهيئة الظاهرية، فكان الأثرياء الظالمون، كالنضر بن الحارث وأمثلة يفتخرون على المؤمنين الفقراء بذلك ويقولون: إن علامة شخصيتنا معنا، وعلامة عدم شخصيتكم فقركم ومحروميتكم، وهذا بنفسه دليل على أحقيتنا وباطلكم، كما يقول القرآن الكريم في أول آية من الآيات مورد البحث: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٥

الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا».

إلّا أن القرآن الكريم يجيب هؤلاء بجواب منطقي ومستدل تماماً، وفي الوقت نفسه قاطع ومفحم، فيقول: كأن هؤلاء قد نسوا تاريخ البشر، ولم ينظروا كم دبرنا من الأقسام السابقين عند تمردهم وعصيانهم: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَانًا وَرِئًا» (١). فهل استطاعت أموالهم وثروتهم، ومجالسهم الفاسقة، وملابسهم الفاخرة، وصورهم الجميلة أن تمنع العذاب الإلهي وتقف أمامه.

ثم تحذّروهم تحذيراً آخر، بأن لا تظنوا أيها الظالمون الكافرون أن مالكم وثروتكم هذه رحمة، بل كثيراً ما تكون دليلاً على العذاب الإلهي: «قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ». أي: إمّا العذاب في هذه الدنيا، وإمّا عذاب الآخرة، «فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا».

وهذا هو ما ذكر في بعض آيات القرآن بعنوان عقاب «الإستدراج».

هذه عاقبة ومصير الظالمين المخدوعين بزخرف الدنيا وزبرجها، أمّا اولئك الذين آمنوا واهتدوا، فإن الله يزيدهم هدى وإيماناً «وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى».

من البديهي أن للهداية درجات، فإذا طوى الإنسان درجاتها الأولى فإن الله يأخذه بيده ويرفعه إلى درجات أعلى.

وفي النهاية تجيب الآية هؤلاء الذين اعتمدوا على زينة الدنيا السريعة الزوال، وجعلوها وسيلة للتفاخر على الآخرين، فتقول: «وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا».

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَالًا وَوَلَدًا (٧٧) أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٧٨) كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ

الْعَذَابِ مَدًّا (٧٩) وَ نَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا (٨٠) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا (٨١) كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَ يَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا (٨٢)

تفكير خرافي ومنحرف: يعتقد بعض الناس أن الإيمان والطهارة والتقوى لا تناسبهم،

(١) «الأناث»: بمعنى المتاع وزينة الدنيا؛ و «رئى»: بمعنى الهيئة والمنظر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٦

وأنها السبب في أن تدبر الدنيا عنهم، أما إذا خرجوا من دائرة الإيمان والتقوى فإن الدنيا ستقبل عليهم، وتزيد ثروتهم وأموالهم. فقد كان في عصر النبي - وكذلك في عصرنا - أفراد جاهلون يظنون هذه الظنون والأوهام، أو كانوا يتظاهرون بها على الأقل، فيتحدث القرآن - كمواصله للبحث الذى بينه سابقاً حول مصير الكفار والظالمين - فى الآيات مورد البحث عن طريقه التفكير هذه وعاقبتها، فيقول فى أول آية من هذه الآيات: «أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا».

ثم يجيبهم القرآن الكريم: «أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا». فإن الذى يستطيع أن يتكهن بمثل هذا التكهن، ويقول بوجود علاقة بين الكفر والغنى وامتلاك الأموال والأولاد، مطلع على الغيب، لأننا لا نرى أى علاقة بين هاتين المسألتين، أو يكون قد أخذ عهداً من الله سبحانه، وهذا الكلام أيضاً لا معنى له.

ثم يضيف بلهجة حادة: إن الأمر ليس كذلك، ولا يمكن أن يكون الكفر أساساً لزيادة مال وولد أحد مطلقاً: «كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ». أجل، فإن هذا الكلام الذى لا أساس له قد يكون سبباً فى انحراف بعض البسطاء، وسيثبت كل ذلك فى صحيفة أعمال هؤلاء، «وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا».

إن هذه الأموال والأولاد التى هى أساس الغرور والضلال هى بنفسها عذاب مستمر لهؤلاء. «وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ» من الأموال والأولاد، «وَيَأْتِينَا فَرْدًا».

نعم، إنه سياترك فى النهاية كل هذه الإمكانيات والأملات المادية ويرحل، ويحضر فى محكمة العدل الإلهية بأيد خالية، وفى الوقت الذى اسودت فيه صحيفة أعماله من الذنوب والمعاصى، وخلت من الحسنات ... هناك، حيث يرى نتيجة أقواله الجوفاء فى دار الدنيا. وتشير الآية التالية إلى علة أخرى فى عبادة هؤلاء الأفراد للأصنام، فتقول: «وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا». وليشفعوا لهم عند الله، ويعينوهم فى حل مشاكلهم، لكن، أى ظن خاطيء وخيال ساذج هذا؟!

ليس الأمر كما يظن هؤلاء أبداً، فليست الأصنام سوف لا تكون لهم عزاً وحسب، بل ستكون منبعاً لذلتهم وعذابهم، ولهذا فإنهم سوف ينكرون عبادتهم لها فى يوم القيامة: «كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٧

إن هذه الجملة إشارة إلى نفس ذلك المطلب الذى نقرؤه فى الآية (١٤) من سورة فاطر.

يستفاد هذا التفسير من حديث مروي عن الإمام الصادق عليه السلام حيث قال فى تفسير هذه الآية: «يكون هؤلاء الذين اتخذوهم آلهة من دون الله ضداً يوم القيامة ويتبرؤون منهم ومن عبادتهم إلى يوم القيامة».

أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا (٨٣) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا (٨٤) يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا (٨٥) وَ نَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا (٨٦) لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا (٨٧)

بملاحظة البحث فى الآيات السابقة الذى كان حول المشركين، فإن البحث فى هذه الآيات، إشارة إلى بعض علل انحراف هؤلاء، ثم تبين الآيات فى النهاية عاقبتهم المشؤومة، وثبت هذه الحقيقة، وهى أن هذه الآلهة لم تكن سبب عزتهم بل أصبحت سبب ذلهم وشقائهم، فتقول أولاً: «أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا».

«الأز»: في الأصل يعنى غليان القدر، وتقلب محتواه عند شدة غليانه؛ وهو هنا كناية عن مدى تسلط الشياطين على هؤلاء، بحيث إنهم يوجهونهم بالصورة التي يريدونها، وفي المسير الذي يشاؤون، ويقلبونهم كيف يشتهون.

ومن البديهي أن تسلط الشياطين على بنى آدم ليس تسلطاً إجبارياً، بل إن الإنسان الذي يسمح للشياطين بالنفوذ إلى قلبه وروحه. ثم يوجه القرآن المجيد الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله فيقول: «فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا» وسنسجل كل شيء لذلك اليوم الذي تشكل فيه محكمة العدل الإلهي.

وهناك احتمال آخر في تفسير الآيه، وهو أن المراد من عد أيام عمر- بل أنفاس- هؤلاء، أن مدة بقائهم قصيرة وداخله تحت إمكان الحساب والعد.

ثم تبين المسير النهائي للمتقين والمجرمين في عبارات موجزة، فتقول: إن كل هذه الأعمال جمعناها وإدخناها لهم: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا».

في تفسير علي بن ابراهيم عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «سأل على عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وآله عن تفسير قوله: «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفَدًا» قال: يا على، الوفد لا يكون إلّا رباناً، أولئك رجال اتقوا الله فأحبهم واختصهم ورضى أعمالهم فسماهم الله المتقين. ثم قال: يا على أما

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٨

والذي فلق الحبة وبرىء النسمة إنهم ليخرجون من قبورهم وبياض وجوههم كبياض الثلج، عليهم ثياب بياضها كبياض اللبن، عليهم نعال الذهب شراكها من لؤلؤ يتلألأ. ثم تقول في المقابل: «وَنَشُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًا». كما تساق الإبل العطشى إلى محل الماء، إلّا أنه لا ماء هناك، بل نار جهنم.

وإذا كانوا يتصورون أنهم يستطيعون الخلاص عن طريق الشفاعة، فإنهم يجب أن يعلموا أن هؤلاء الذين يرجونهم «لَأَيْمَلِكُونَ الشَّفَعَةَ» فلا أحد يشفع لهؤلاء، فمن طريق أولى أن لا يقدر على الشفاعة لأحد «إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» فهؤلاء هم الوحيدون الذين تنفعهم وتسلمهم شفاعة الشافعين، أو أن مقامهم أعلى من هذه الرتبة أيضاً، ولهم القدرة والصلاحية لأن يشفعوا للعاصين الذين يستحقون الشفاعة.

والمراد من العهد في الآيه الشريفه كل نوع من أنواع الارتباط بالله ومعرفته وطاعته، وكذلك الارتباط بمذهب أولياء الحق، وكل عمل صالح.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَيْدًا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِنْ كُنْتُمْ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَذَابًا (٩٣) لَقَدْ أَحْضَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (٩٥)

لما كان الكلام في الآيات السابقة عن الشرك، وعاقبه عمل المشركين، فقد أشارت هذه الآيات في نهاية البحث إلى فرع من فروع الشرك، أي الاعتقاد بوجود ولد لله سبحانه، وتبين مرة أخرى قبح هذا الكلام بأشد وأحد بيان، فتقول: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا».

فليس المسيحيون لوحدهم كانوا يعتقدون بأن «المسيح» هو الابن الحقيقي لله سبحانه، بل إن اليهود كانوا يعتقدون أيضاً مثل هذا الاعتقاد في (عزير)، وكذلك عبدة الأصنام في (الملائكة) فكانوا يظنون أنها بنات الله.

عند ذلك قالت الآيه بلهجه شديدة: «لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا». «الإد»: معناه في الأصل الصوت القبيح المضطرب الذي يصل الأذن نتيجة الاضطراب الشديد للأموج الصوتية في

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ١٩٩

حجرة البعير، ثم أطلق على الأعمال القبيحة والموحشة جداً.

ولما كانت مثل هذه النسبة غير الصحيحة مخالفة لأصل التوحيد فكأن كل عالم الوجود، الذي بنى على أساس التوحيد، قد اضطرب وتصدع إثر هذه النسبة الكاذبة، ولذلك تضيف الآية التالية: «تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا».

ومن أجل تأكيد وبيان أهمية الموضوع فإنها تقول: إن كل ذلك من أجل «أن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا».

إن هؤلاء لم يعرفوا الله قط، لأنه: «وَمَا يَتَّبِعِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا».

فإن الإنسان يطلب الولد لواحد من عدة أشياء:

إما لأن عمره ينتهي فيحتاج لولد مثله يحمل صفاته ليبقى نسله وذكره.

أو لأنه يطلب الصديق والرفيق لأن قوته محدودة.

لكن أيًا من هذه المعاني لا ينطبق على الله سبحانه، ولا يصح، فلا قدرته محدودة، ولا حياته تنتهي، ولا يعتره الضعف والوهن، ولا يحس بالوحدة والحاجة، ولذلك قالت الآية الأخرى: «إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا».

فمع أن كل العباد مطيعون له، وقد وضعوا أرواحهم وقلوبهم على الألف طاعة لأمره، فهو غير محتاج لطاعتهم، بل هم المحتاجون.

ثم تقول الآية التالية: «لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا». أى لا تتصور بأن محاسبة كل هؤلاء العباد غير ممكن، وعسير عليه سبحانه.

«وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا». وبناء على هذا فإن المسيح وعزير والملائكة وكل البشر يشملهم حكمه ولا يستثنى منه أحد، ومع هذه الحال فما أقبح أن نعتقد ونقول بوجود ولد له، وكم نقص من قدر ذاته المقدسة ونزلها من أوج العظمة وقمتها، وننكر صفاته الجلالية والجمالية حينما ندعى أن له ولداً.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا (٩٦) فَإِنَّمَا يَسْرِنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا (٩٧) وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هَلْ تَحْسُبُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا (٩٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٠

مختصر الامثل ج ٣ ٢٤٩

الإيمان والمحبوبة: هذه الآيات الثلاث نهاية سورة مريم، والكلام فيها أيضاً عن المؤمنين، والظالمين الكافرين، وعن القرآن وبياناته وإنذاراته، وهى - فى الحقيقة - عصاره البحوث السابقة بملاحظات ونكات جديدة. تقول أولاً: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا».

إن للإيمان والعمل الصالح نوراً وضياءاً بسعة عالم الوجود، ويعم نور المحبة الحاصل منهما كل أرجاء عالم الخلق، وإن الذات الإلهية المقدسة تحب أمثال هذا الفرد، فهم محبوبون عند كل أهل السماء، وتقذف هذه المحبة فى قلوب أهل الأرض.

ثم تشير الآية التالية إلى القرآن الذى هو منبع ومصدر تنمية الإيمان والعمل الصالح، فتقول: «إِنَّمَا يَسْرِنَاهُ بِلِسَانِكَ لِنُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا».

«اللُد»: - بضم اللام وتشديد الدال - جمع «اللد» بمعنى العدو الشديد العداوة، وتطلق على المتعصب العنود فى عداوته، ولا منطق له.

وتقول الآية الأخيرة كتهدئة لخاطر النبى صلى الله عليه وآله والمؤمنين، وتسلياً لهم، خاصة مع ملاحظة أن هذه السورة نزلت فى مكة، وكان المسلمون يومذاك تحت ضغط شديد جداً؛ وكذلك تقول بنبوة التهديد والتحذير لكل الأعداء اللجوجين العنودين: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمٍ هَلْ تَحْسُبُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا».

«الركز»: بمعنى الصوت الهادىء، ويقال للأشياء التى يخفونها تحت الأرض: «ركاز»، أى إن هؤلاء الأقوام الظالمين، وأعداء الحق

والحقيقة المتعصبين، قد تم تدميرهم وسحقهم إلى حد لا يسمع صوت خفى منهم.

لقد صدرت روايات عديدة عن النبى صلى الله عليه وآله فى سبب نزول قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا». فى كثير من كتب الحديث وتفسير السنة والشيعه، وهى تبين أن هذه الآية نزلت لأول مرة فى حق على عليه السلام.

«نهاية تفسير سورة مريم»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠١

٢٠ سورة طه

محتوى السورة: إن أكثر ما يتحدث سورة (طه) عن المبدأ والمعاد كسائر السور المكية، ويذكر نتائج التوحيد وتعاينات الشرك.

١- تشير هذه السورة إلى عظمة القرآن، وبعض صفات الله الجليلية والجمالية.

٢- يتحدث أكثر من ثمانين آية عن قصة موسى عليه السلام من حين بعثته، إلى نهوضه لمقارعة فرعون الجبار وأعوانه.

٣- جاءت بعض المسائل حول المعاد.

٤- تناول جزء آخر من هذه السورة الحديث عن القرآن وعظمته.

٥- واحتوى قسم آخر قصة آدم وحواء في الجنة، ثم حادثة وسوسة إبليس، وأخيراً هبوطهما إلى الأرض.

٦- وفي القسم الأخير، تبين السورة المواعظ والنصائح، لكل المؤمنين، مع توجيه الخطاب في كثير من الآيات إلى نبي الخاتم صلى الله عليه وآله.

فضيلة تلاوة السورة: في كتاب ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «لا تدعوا قراءة سورة طه، فإن الله يحبها، ويحب من قرأها، ومن أدمن قراءتها أعطاه الله يوم القيامة كتابه يمينه، ولم يحاسبه بما عمل في الإسلام، وأعطى في الآخرة من الأجر حتى يرضى».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٢

والمراد من التلاوة هي أن تكون التلاوة مقدمة للتفكير والتدبير، التفكير الذي تتجلى آثاره في كل أعمال وأقوال الإنسان.

طه (١) مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (٢) إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى (٣) تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى (٤) الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى (٥) لَهُ مَآ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى (٦) وَإِن تَجَهَّزْ بِمَا الْقَوْلُ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى (٨)

سبب النزول

وردت روايات كثيرة في سبب نزول الآيات الأولى من هذه السورة، يستفاد من مجموعها أن النبي صلى الله عليه وآله بعد نزول الوحي والقرآن كان يعبد الله كثيراً، وخاصة أنه كان يكثر القيام والوقوف في العبادة حتى تورمت قدماه، وكان من شدة التعب أحياناً يستند في وقوفه على إحدى قدميه، ثم يستند على الأخرى حيناً آخر، وحيناً على كعب قدمه، وآخر على أصابع رجله، فنزلت الآيات المذكورة وأمرت النبي صلى الله عليه وآله أن لا يحمل نفسه كل هذا التعب والمشقة.

التفسير

مرة أخرى نواجه الحروف المقطعة في بداية هذه السورة، والتي تثير حب الاستطلاع لدى الإنسان: «طه».

في كتاب معاني الأخبار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «... وأما طه فإسم من أسماء النبي صلى الله عليه وآله ومعناه: يا طالب الحق الهادي إليه». ويظهر من هذا الحديث أن طه مركب من حرفين رمزيين، فالطاء إشارة إلى طالب الحق، والهاء إلى الهادي إليه، ونحن نعلم أن استعمال الحروف الرمزية وعلامات الاختصار فيما مضى وفي يومنا هذا أمر طبيعي وكثير الاستعمال، خاصة في عصرنا الحاضر فإنه كثير التداول والاستعمال جداً.

وآخر كلام في هذا الباب هو أن (طه) كك (يس) قد أصبحت تدريجياً وبمرور الزمان اسماً خاصاً للنبي صلى الله عليه وآله، حتى أنهم يسمون آل النبي صلى الله عليه وآله، (آل طه) أيضاً؛ وعبر عن الإمام المهدي - عجل الله تعالى فرجه - في دعاء الندبة ب (يابن طه).

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٣

ثم تقول الآية: «مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى . «تشقى : مأخوذة من مادة الشقاء ضدّ السعادة، إلّا أنّ هذه المادة تأتي أحياناً بمعنى المشقّة والتعب، والمراد في الآية هذا المعنى.

ثم تبيّن الآية الاخرى الهدف من نزول القرآن فتقول: «إِلَّا تَذَكَّرُ لَمَنْ يَخْشَى .

إنّ التعبير ب «تذكرة» من جهه، وب «من يخشى» من جهه اخرى يشير إلى واقع لا يمكن إنكاره، وهو: إنّ التذكرة توحى بأنّ أسس ومقومات كل التعليمات الإلهية موجودة في أعماق روح الإنسان وطبيعته، وتعليمات الأنبياء تجعلها مثمرة، وتوصلها إلى حدّ النضج، كما نذكر أحياناً بمطلب وأمر ما.

إنّ تعبير «من يخشى» يبيّن أنّ نوعاً من الإحساس بالمسؤولية، والذي سمّاه القرآن بالخشية، إذا لم يكن موجوداً في الإنسان، فسوف لا يقبل الحقائق.

ثم تتطرق الآيات إلى التعريف بالله تعالى المنزل للقرآن، لتتضح عظمه القرآن من خلال معرفته، فتقول: «تَنْزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى».

إنّ هذا التعبير إشارة إلى ابتداء وانتهاء نزول القرآن، انتهائه إلى الأرض وابتدائه من السماوات.

ثم تستمر في تعريف الله المنزل للقرآن فتقول: «الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى .

إنّ هذا التعبير كناية عن تسلط الله، وإحاطته الكاملة بعالم الوجود، ونفوذ أمره وتدييره في جميع أنحاء العالم.

ثم تتحدث عن مالكية الله بعد حاكميته فتقول: «لَهُ مِا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى . «الثرى»: فى الأصل بمعنى التراب الرطب، ولما كانت قشرة الأرض - فقط - هى التى تجف نتيجة لأشعة الشمس وهبوب الرياح، وتبقى الطبقة السفلى - غالباً - رطبة، فإنه يقال لهذه الطبقة: ثرى. وعلى هذا فإنّ «وَمَا تَحْتَ الثَّرَى» تعنى أعماق الأرض وجوفها، وكلها مملوكة لمالك الملك وخالق عالم الوجود.

وأشارت الآية التالية إلى الركن الرابع، أى «العالمية»، فقالت: «وَأِنْ تَجَهَّزْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى».

وعرف منزل القرآن من مجموع الآيات أعلاه معرفه إجمالية فى الأبعاد الأربعة: الخلقه، والحكومة، والمالكية، والعلم.

و الآية التالية ربّما تشير إلى ما ذكرنا: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى .

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٤

إنّ التعبير بالأسماء الحسنی قد ورد مراراً وتكراراً فى الآيات القرآنية، ومن البديهي أنّ كل أسماء الله حسنه، ولكن لما كانت لبعض أسماء الله وصفاته أهمية أكبر، فقد سميت بالأسماء الحسنی.

وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى (٩) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُيْدَى (١٠) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى (١١) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (١٢) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (١٣) إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥) فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى (١٦)

نار فى الجانب الآخر من الصحراء: من هنا تبدأ قصة نبي الله الكبير موسى عليه السلام، وتفصيل الجوانب المهمة من هذه القصة المليئة بالأحداث سيأتي فى أكثر من ثمانين آية، لتكون تهدئة ومواساة وتسليه لخاطر النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين الذين كانوا يعانون خلال تلك الفترة فى مكة ضغوطاً شديدة من الأعداء.

ويمكن تقسيم مجموع الآيات فى هذه السورة إلى أربعة أقسام:

القسم الأول: يتحدث عن بداية نبوه موسى وبعثته، وأول ومضات الوحي.

القسم الثاني: يتحدث عن دعوة موسى وأخيه هارون لفرعون وملئه إلى دين التوحيد، ثم اشتباكهما بالأعداء.

القسم الثالث: يبحث عن خروج موسى وبنى إسرائيل من مصر، وكيفيه نجاتهم من قبضة فرعون وأتباعه، وغرق هؤلاء وهلاكهم.

القسم الرابع: ويتحدث حول الإنجاهات الانحرافية الشديدة لبنى إسرائيل عن دين التوحيد إلى الشرك، وقبول وساوس السامري، ومواجهه موسى الحازمه لهذا الإنحراف.

فهذه الآيات تقول بتعبير رقيق وجذاب: «وَهَلْ أَتَكَ حَدِيثُ مُوسَى .

إِنَّ هَذَا الِاسْتِفْهَامَ لَيْسَ هَدَفُهُ تَحْصِيلَ الْخَبْرِ، بَلْ مَقْدَمُهُ لِيَبَيِّنَ خَبْرَ مَهْمٍ.

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٢٠٥

ثم تقول: «إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدُ عَلَى النَّارِ هُدًى». «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى».

ويستفاد من الآية (٣٠) من سورة القصص، أن موسى قد سمع هذا النداء من جهة شجرة كانت هناك: «فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يُمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ». إن موسى لما اقترب شاهد النار في داخل الشجرة، وهذه النار ليست ناراً عادية، بل إن هذا النور الإلهي الذي ليس له يحرق الشجرة وحسب، بل إنه منسجم معها، ألا وهو نور الحياة.

وقد هام موسى لدى سماعه هذا النداء المحيي للروح: «إِنِّي أَنَا رَبُّكَ» وشعر بكل وجوده بلذته لا يمكن وصفها.

لقد امر أن يخلع نعليه، لأنه قد وضع قدمه في أرض مقدسه... الأرض التي تجلى فيها النور الإلهي، ويسمع فيها نداء الله، ويتحمل مسؤوليه الرسالة، فيجب أن يخطو في الأرض بمنتهى الخضوع والتواضع، وهذا هو سبب خلعه النعل عن رجليه.

ثم سمع هذا الكلام من نفس المتكلم: «وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . ومن بعدها تلقى موسى أول جملة من الوحي على شكل ثلاثة امور: «إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي». شرعت هذه الآية في بيان أهم أصل لدعوة الأنبياء في هذه الآية، ألا وهو مسألة التوحيد، وبعدها ذكرت موضوع عبادة الله الواحد كثرمة لشجرة الإيمان والتوحيد، ثم أصدرت له أمر الصلاة بعد ذلك، وهي تعنى أكبر عبادة وأهم إرتباط بين الخلق والخالق، وأكثر الطرق تأثيراً في عدم الغفلة عن الذات المقدسة.

ولما كان المعاد هو الأصل والأساس الثاني، فبعد ذكر التوحيد وأغصانه وفروعه، أضافت الآية التالية: «إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَعْسَى .

إن علمه إخفاء تاريخ القيامة حسب الآية، هي: «لِيُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَعْسَى . وبتعبير آخر: فإن كون الساعة مخفية سيوجد نوعاً من حرية العمل للجميع.

وأشارت الآية الأخيرة إلى أصل اساسي يضمن تنفيذ كل البرامج العقائدية والتربوية، فنقول: «فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَآيُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ» والآ فسوف تهلك «فَتَزِدِّي فَاصمِد في مقابل الكافرين ووساوسهم وعراقيلهم، ولا تدع للخوف من كثرتهم

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٢٠٦

ومؤامرتهم وخططهم الخبيثة إلى قلبك سبيلاً، ولا- تشك مطلقاً في أحقية دعوتك وأصاله دينك نتيجة هذه الضوضاء. إن جملة «يؤمن» وردت هنا بصيغة المضارع، وجملة «واتبع هواه» بصيغة الماضي، وهي أشارت إلى هذه النكته، وهي أن عدم إيمان منكري القيامة ينبع من أتباع هوى النفس، فهم يريدون أن يكونوا أحراراً ويفعلون ما تشتهي أنفسهم.

وَمَا تَلَكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى (١٧) قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهْوَسُ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِي فِيهَا مَارَبُّ أُخْرَى (١٨) قَالَ أَلْقَهَا يَا مُوسَى (١٩) فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى (٢٠) قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى (٢١) وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةٌ أُخْرَى (٢٢) لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى (٢٣)

عصا موسى واليد البيضاء: لا شك أن الأنبياء يحتاجون إلى المعجزة لإثبات إرتباطهم بالله، وإلا فإن أي واحد يستطيع أن يدعى النبوة.

إن موسى عليه السلام بعد تلقيه أمر النبوة، يجب أن يتلقى دليلها وسندها أيضاً، وهكذا تلقى موسى عليه السلام في تلك الليلة المليئة بالذكريات والحوادث معجزتين كبيرتين من الله، ويبيّن القرآن الكريم هذه الحادثة فيقول: «وَمَا تَلْكَ بِبَيْمِينِكَ يَمُوسَى .

فأجاب موسى: «قَالَ هِيَ عَصَايَ». ولما كان راغباً في أن يستمر في حديثه مع محبوبه الذي فتح الباب بوجهه لأول مرة، وربّما كان يظن أيضاً أن قوله: «هِيَ عَصَايَ» غير كاف، فأراد أن يبيّن آثارها وفوائدها فأضاف: «أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهشُّ بِهَا عَلَيَّ غَنَمِي» (١). أى أضرب بها على اغصان الشجر فتساقط اوراقها لتأكلها الأغنام «وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى» (٢).

إن موسى غطّ في تفكير عميق: أى سؤال هذا في هذا المجلس العظيم، وأى جواب أعطيه؟ وماذا كانت تلك الأوامر؟ ولماذا هذا السؤال؟

وفجأة: «قَالَ أَلْفَهَا يَمُوسَى فَأَلْفَهَا فَإِذَا حَيَّةٌ تَسْعَى . «تسعى»: من مادة السعى أى المشى السريع الذى لا يصل إلى الركض.

(١) «أهش»: من مادة هشّ - بفتح الهاء - أى ضرب أوراق الشجر وتساقطها.

(٢) «مارب»: جمع ماربة، أى الحاجة والقصد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٧

وهنا صدر الأمر لموسى: «قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سُنْعِيدَهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى .

ثم أشارت الآية التالية إلى المعجزة الثانية لموسى، فأمرته: «وَأَضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَى . إن موسى كان مأموراً أن يدخل يده في جيبه ويوصلها إلى تحت إبطه.

وجملته «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» إشارة إلى أنّ بياض يدك ليس نتيجة مرض البرص وأمثاله، بدليل أنّ لها لمعاناً وبريقاً خاصاً يظهر في لحظة ويختفى في لحظة أخرى.

وتقول الآية الأخيرة، وكنتيجه لما مرّ بيانه في الآيات السابقة: «لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى». والمراد من الآيات الكبرى هو تلكما المعجزتان المهمتان اللتان وردتا أعلاه.

أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٤) قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي (٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي (٢٦) وَاخْلُلْ عُقْمَهُ مِنْ لِسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي (٢٨) وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي (٢٩) هَارُونَ أَخِي (٣٠) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي (٣١) وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي (٣٢) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (٣٣) وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً (٣٤) إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً (٣٥) قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى (٣٦)

موسى وطلباته القيمة: إلى هنا وصل موسى إلى مقام النبوة، وتلقى معجز مهمّة تسترعى الانتباه، إلّا أنّه من الآن فصاعداً صدر له أمر الرسالة ... رسالة عظيمة وثقيلة جداً ... الرسالة التي تبدأ بإبلاغ أعتى وأخطر شخص في ذلك المحيط، فتقول الآية: «أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى .

أجل ... فمن أجل إصلاح بيئه فاسدة، وإيجاد ثورة شاملة يجب البدء برؤوس الفساد وأئمة الكفر ... اولئك الذين لهم تأثير في جميع أركان المجتمع.

ومضافاً إلى أنّ موسى عليه السلام لم يستوحش ولم يخف من هذه المهمّة الثقيلة الصعبة، ولم يطلب من الله أى تخفيف في هذه المهمّة، فإنّه قد تقبلها بصدر رحب، غاية ما في الأمر أنّه طلب من الله أسباب النصر في هذه المهمّة. ولما كان أهم وأول أسباب النصر الروح الكبيرة، والفكر الوقّاد، والعقل المقتدر، وبعبارة أخرى: رحابة الصدر، فقد «قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي».

ولما كان هذا الطريق مليئاً بالمشاكل والمصاعب التي لا يمكن تجاوزها إلّا بلطف الله، فقد

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٨

طلب موسى من الله في المرحلة الثانية أن تيسر له اموره وأعماله، وأن تذلل هذه العقبات التي تعترضه، فقال: «وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي». ثم

طلب موسى أن تكون له قدرة على البيان بأعلى المراتب فقال: «وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لَّسَانِي».

خاصة وأنه بين علة هذا الطلب فقال: «يَفْقَهُوا قَوْلِي». فهذه الجملة تفسير للآية التي قبلها. أى: أريد أتكلم بدرجة من الفصاحة والبلاغة والتعبير بحيث يدرك أى سامع مرادى من الكلام جيداً.

ولمّا كان إيصال هذا الحمل الثقيل - حمل رسالة الله، وقيادة البشر وهدايتهم، ومحاربة الطواغيت والجبابرة- إلى المحل المقصود يحتاج إلى معين ومساعد، ولا- يمكن أن يقوم به إنسان بمفرده، فقد كان الطلب الرابع لموسى من الله هو: «وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي».

ثم يشير إلى أخيه، فيقول: «هَرُونَ أَخِي». وهارون كان الأخ الأكبر لموسى، وكان يكبره بثلاث سنين، وكان طويل القامة، جميلاً بليغاً، عالى الإدراك والفهم، وقد رحل عن الدنيا قبل وفاة موسى بثلاث سنين. وقد كان نبياً مرسلًا كما كان نبياً وهدى الله لموسى من رحمته.

ثم يبين موسى عليه السلام هدفه من تعيين هارون للوزارة والمعونه فيقول: «أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي».

ويطلب، من أجل تكميل هذا المقصد والمطلب: «وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي». فيكون شريكاً في مقام الرسالة، وفي إجراء وتنفيذ هذا البرنامج الكبير، إلّا أنه يتبع موسى على كل حال، فموسى إمامه ومقتداه.

وفي النهاية يبين نتيجة هذه المطالب فيقول: «كَيْ نَسْبَحَكَ كَثِيرًا * وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا * إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا».

ولمّا كان موسى لم يهدف من طلباته المخلصه هذه إلّا الخدمة الأكثر والأكمل، فإنّ الله سبحانه قد لبى طلباته في نفس الوقت: «قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى».

إنّ موسى طلب كل ما كان يلزمه في هذه اللحظات الحساسة الحاسمة التي يجلس فيها لأول مره على مائدة الضيافة الإلهية ويأبى بساطها، والله سبحانه كان يحبّ ضيفه أيضاً، حيث لبى كل طلباته وأجاب فيها في جملة قصيرة تبعث الحياة، وبدون قيد وشرط.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٠٩

وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (٣٧) إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٣٨) أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عِدُوُّ لِي وَعَدُوُّ لَهُ وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَتُضَيِّعُ عَلَيَّ عَيْنِي (٣٩) إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَمَّا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِتِّينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيَّ قَدَرًا يَا مُوسَى (٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (٤١)

الرب الرحيم: يشير الله سبحانه في هذه الآيات إلى فصل آخر من فصول حياة موسى عليه السلام، والذي يرتبط بمرحلة الطفولة ونجاته من قبضة الفراعنة. وهذا الفصل وإن كان من ناحية التسلسل التاريخي قبل فصل الرسالة والنبوة، إلّا أنه ذكر كشاهد على شمول عناية الله عزّ وجل لموسى عليه السلام من بداية عمره، وهى فى الدرجة الثانية من الأهمية بالنسبة إلى الرسالة، فيقول أولاً: «وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى (١)».

وبعد ذكر هذا الإجمال تنطرق الآيات إلى الشرح والتفصيل، فتقول: «إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَى».

وهو إشارة إلى أننا قد علمنا أمه كل الطرق التي تنتهى إلى نجاه موسى عليه السلام من قبضة الفراعنة، لأنه يستفاد من سائر آيات القرآن أنّ فرعون شدّد ارهابه على بنى إسرائيل للتصدى لقوتهم وعصيانهم المحتمل، أو أنّه كان قد أمر بقتل أبنائهم وإبقاء البنات للخدمة، لكى يمنع ولادة ولد من بنى إسرائيل كان قد أخبره المنجمون أنّه يثور عليه ويزيل ملكه.

إنّ هذه الام أحست بأنّ حياة وليدها فى خطر، وإخفاؤه مؤقتاً سوف لا يحل المشكلة ...

فى هذه الأثناء ألهمها الله- الذى رشح هذا الطفل لثورة كبيرة؛ فألقى فى قلب الام: «أَنْ اقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ». «اليم»: هنا يعنى نهر النيل العظيم الذى يطلق عليه

(١) «المنة»: في الأصل من المن، وهو يعنى الأحجار الكبيرة التى كانوا يزنون بها، ولذلك فإن كل نعمة كبيرة ونفيسة يقال عنها: إنها منة. والمراد فى الآية هو هذا المعنى، وهذا المعنى مفهوم جميل وإيجابى للمنة، إلا أن الإنسان إذا عظم عمله الصغير بكلامه، وذكر الطرف الآخر به، فإنه مصداق حى للمنة السلبية المذمومة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٠

أحياناً اسم البحر لسعته وكثرة مياهه؛ و «التابوت»: تعنى الصندوق الخشبى، ولا يعنى دائماً الصندوق الذى يوضع فيه الأموات كما يظن البعض، بل إن له معنى واسعاً. ثم تضيف: «فَلْيَلْقِهِ الْيَوْمَ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذُهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ».

إن كلمة «عدو» قد تكررت هنا، وهذا تأكيد على عداة فرعون لله، ولموسى وبنى إسرائيل، وأشارت إلى أن الشخص الذى انغمس إلى هذا الحد فى العداة هو الذى سيتولى فى النهاية تربية موسى.

ولما كان موسى عليه السلام يجب أن يحفظ فى حصن أمين فى هذا الطريق الملىء بالمخاطر، فقد ألقى الله قبساً من محبته عليه، إلى الحد الذى لم ينظر إليه أحد إلا ويعشقه، فلا يكف عن قتله وحسب، بل لا يرضى أن تنقص شعرة من رأسه، كما يقول القرآن فى بقیة هذه الآيات:

«وَالْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي».

يقولون: إن قابله موسى كانت من الفراعنة، وكانت مصممة على رفع خبر ولادته إلى فرعون، إلا أنه لما وقعت عينها على عين المولود الجديد، فكأن ومضة برقت من عينه وأضاءت أعماق قلبها، وطوّقت محبته رقبته، وابتعدت عن رأسها كل الأفكار السيئة.

وتقول الآية فى النهاية: «وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي».

وكان قصر فرعون قد بنى على جانب شط النيل، وبينما كان فرعون وزوجته على حافة الماء ينظرون إلى الأمواج، وإذا بهذا الصندوق الغريب يلفت انتباههما، فأمر جنوده أن يخرجوا الصندوق من الماء، فلما فتحوا الصندوق شاهدوا بكامل العجب مولوداً جميلاً فيه، وهو شىء لم يكن بالحسبان.

وهنا تتبه فرعون إلى أن هذا الوليد ينبغى أن يكون من بنى إسرائيل، وإنما لاقى هذا المصير خوفاً من جلاوزته، فأمر بقتله، إلا أن زوجته - التى كانت عقيماً - تعلقت جداً بالطفل، فقد نفذ النور الذى كان ينبعث من عيني الطفل إلى زوايا قلبها، وجذبها إليه، فضربت على يد فرعون وطلبت منه أن يصرف النظر عن قتله، وعبرت عن هذا الطفل بأنه (قرّة عين)، بل وتمادت فى طلبها، فطلبت منه أن يتخذه ولداً ليكون مبعث أمل لهما، ويكبر فى أحضانها، وأصرّت على طلبها حتى أصابت سهامها، وحققت ما تصبو إليه.

غير أن الطفل جاع، وأراد لبناً، فاخذ بيكى ويذرف الدموع.

والآن نقرأ بقیة القصة على ضوء الآيات الشريفة:

نعم يا موسى، فإننا كنّا قدّرنا أن تتربى بأعيننا وعلّمنا «إِذِ تَمْشِي أُخْتُكَ» بأمر أمك

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١١

لتراقب مصيرك، فرأت جنود فرعون: «فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ». وربما أضافت بأن هذه المرأة لها لبن نظيف، وأنا مطمئنة بأن هذا الرضيع سيقبلها.

فاستبشر الجنود على أمل أن يجدوا ضالّتهم عن هذا الطريق، فذهبوا معها، فأطلعت اخت موسى - التى كانت تظهر نفسها بمظهر الشخص الغريب والمجهول - أمها على الأمر، فجاءت أمه إلى بلاط فرعون، من دون أن تفقد سيطرتها على أعصابها، بالرغم من أن أمواجاً من الحب والأمل كانت قد أحاطت بكل قلبها، واحتضنت الطفل، فلما شمّ الطفل رائحة أمه، وكانت رائحة مألوفة لديه، التقم ثديها كأنه تضمّن لذة الروح وحلاوتها، واشتغل الطفل بشرب اللبن بلهفة وعشق شديد، فانطلقت صرخات الفرح من الحاضرين،

وبدت آثار الفرح والسرور على زوجة فرعون.

فقد أمرها فرعون بالاهتمام بالطفل، وأكدت زوجته كثيراً على حفظه وحراسته، وأمرت أن يعرض عليها الطفل بين فترة وأخرى. هنا تحقق ما قاله القرآن: «فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ».

ومرّت السنون والاعوام، وتربى موسى عليه السلام وسط هالة من لطف الله ومحبه، وفي محيط آمن، وشيئاً فشيئاً أصبح شاباً. وكان ذات يوم يمرّ من طريق فرأى رجلين يتشاجران، أحدهما من بنى إسرائيل والآخر من الأقباط - وهم المصريون، قوم فرعون - ولما كان بنو إسرائيل يعيشون دائماً تحت ضغط الأقباط الظالمين وأذاهم، هبّ موسى لمعونته المظلوم الذي كان من بنى إسرائيل، ومن أجل الدفاع عنه وجه ضربة قاتلة إلى ذلك القبطي، فقضت عليه.

إنّ موسى، وحسب إشارة بعض أصدقائه عليه، خرج متخفياً من مصر، وتوجّه إلى مدين، فوجد محيطاً وجوّاً آمناً في ظلّ النبي «شعيب»، والذي سيأتي شرح حاله في تفسير سورة القصص إن شاء الله تعالى

هنا حيث يقول القرآن الكريم: «وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا». فبعد حادثه القتل اختبرناك كثيراً والقينا بك في اتون الحوادث والشدائد «فَلَبِثْتَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ». وبعد اجتياز هذا الطريق الطويل، والإستعداد الروحي والجسمي، والخروج من دوامة الأحداث بشموخ وانتصار «ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يُمُوسَىٰ . أَى لاسلام مهمه الرساله في زمان مقدر إلى هذا المكان.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٢

ثم يضيف: «وَاصْبِرْ لِنَفْسِكَ» فمّن أجل مهمّة تلقى الوحي الصعبة، ومن أجل قبول الرساله، ومن أجل هداية العباد وإرشادهم ربّيتك واختبرتك في الحوادث الصعبة ومشاقها، ومنحتك القوة والقدرة، والآن حيث ألقيت هذه المهمه الكبرى على عاتقك، فإنّك مؤهّل من جميع الجوانب. «اصطناع»: من مادة «صنع» بمعنى الإصرار والاقدام الأکید على اصلاح شىء. ويعنى إننى قد اصلحتك من كل الجهات.

أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَبَيِّنْ فِي ذِكْرِي (٤٢) أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَىٰ (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَىٰ (٤٦) فَأَتَيْنَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ (٤٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ (٤٨)

أول لقاء مع فرعون الجبار: الآن وقد أصبح كل شىء مهياً، وكل الوسائل قد جعلت تحت تصرّف موسى، فقد خاطب الله سبحانه موسى وهارون بقوله: «أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي». الآيات التي تشمل المعجزتين الكبيرتين لموسى عليه السلام، كما تشمل كل آيات الله وتعليماته التي هي بذاتها دليل على أحقيّة دعوته.

ومن أجل رفع معنوياتهما، والتأكيد على بذل أقصى ما يمكن من المساعي والجهود، فقد أضاف سبحانه قائلاً: «وَلَا تَبَيِّنْ فِي ذِكْرِي» وتنفيذ أوامري، لأنّ الضعف واللين وترك الحزم سيذهب بكل جهودكما أدراج الرياح، فأثبتنا ولا تخافا من أىّ حادثه، ولا تضعفا أمام أىّ قدرة.

بعد ذلك، يبيّن الهدف الأساس لهذه الحركة، والنقطة التي يجب أن تكون هدفاً لتشخيص المسار، فيقول: «أَذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ». فإنّه سبب كل الشقاء والتعاسة في هذه المنطقه الواسعه، وما لم يتمّ إصلاحه فسوف لا ينجح أىّ عمل، لأنّ عامل تقدّم الامه أو تخلفها، سعادتها أو شقائها وبؤسها هو قاداتها وحكامها.

ثم بيّن الآيه طريقه التعامل المؤثره مع فرعون، فمّن أجل أن تنفذنا إليه وتؤثرا فيه «فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٣

ومع هذه الحال، فقد كان موسى وهارون قلقين من أنّ هذا الرجل القوى المتعطرس المستكبر، الذي عمّ رعبه وخشونته كل مكان، قد

يقدم على عمل قبل أن يبلغان الدعوة، ويهلكهما، لذلك «قَالَ رَبُّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى .
إِلْمَا أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ قَدْ أَجَابَهُمَا بِحَزْمٍ: ف «قَالَ لَاتَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى وَبِنَاءٍ عَلَى هَذَا، فمع وجود الله القادر معكما في كل
مكان، الله الذي يسمع كل شيء، ويرى كل شيء، وهو حاميكما وسندكما، فلا معنى للخوف والرعب.
ثم يبين لهما بدقته كيفية إلقاء دعوتهما في محضر فرعون في خمس جمل قصار قاطعة غتية المحتوى، ترتبط أولها بأصل المهمة،
والثانية ببيان محتوى المهمة، والثالثة بذكر الدليل والسند، والرابعة بترغيب الذين يقبلونها، وأخيراً فإن الخامسة تكفلت بتهديد
المعارضين.

فتقول أولاً: «فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ».

ثم تقول: «فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ».

ثم أشارت إلى دليلهما ووثيقتهما، فتقول: قولاً له: «قَدْ جُنَّكَ بَارِيَةٌ مِنْ رَبِّكَ». وبناءً على هذا، فإن العقل يحكم بأن تفكر في كلامنا
على الأقل، وأن تقبله إن كان صحيحاً ومنطقياً.

ثم تضيف الآية من باب ترغيب المؤمنين: «وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتَّبَعَ الْهُدَى . وهذه الجملة يمكن أن تشير أيضاً إلى معنى آخر، وهو أن
السلامة في هذه الدنيا، والعالم الآخر من الآلام والعذاب الإلهي الأليم، ومن مشاكل الحياة الفردية والاجتماعية، من نصيب اولئك
الذين يتبعون الهدى الإلهي، وهذه في الحقيقة هي النتيجة النهائية لدعوة موسى.

وأخيراً، فإن الله يأمرهما أن يفهما العاقبة المشؤومة للتمرد على هذه الدعوة وعصيانها، بقولهما له: «إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ
مَنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى .

إن هذه حقيقة يجب أن تقال لفرعون بدون لف ودوران، وبدون أي تغطية وتورية.

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠) قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي
فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسِي (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا
مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (٥٣) كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمُ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً
أُخْرَى (٥٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٤

لقد حذف القرآن المجيد هنا بعض المطالب التي يمكن فهمها بمعونة الأبحاث الآتية، وتوجه مباشرة إلى محاوره موسى وهارون مع
فرعون، والمبحث في الواقع هكذا:

لما أصبح موسى أمام فرعون وجهاً لوجه، أعاد تلك الجمل الدقيقة المؤثرة التي علمه الله إياها أثناء الأمر بالرسالة. فلما سمع فرعون
هذا الكلام، كان أول رد فعله أن «قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى . والعجيب أن فرعون المغرور والمعجب بنفسه لم يكن مستعداً حتى أن
يقول: من ربي الذي تدعيانه؟ بل قال: من ربكما؟

فأجابه موسى مباشرة بجواب جامع جداً، وقصير في الوقت نفسه، عن الله: «قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى . ففي هذه
العبارة الموجزة إشارة إلى أصليين أساسيين من الخلق والوجود، وكل واحد منهما دليل وبرهان مستقل يوصل إلى معرفة الله:
الأول: إن الله سبحانه قد وهب لكل موجود ما يحتاجه.

والثاني: مسألة هداية وإرشاد الموجودات.

إن من الممكن أن يمتلك الإنسان أي شيء من أسباب الحياة، إلا أنه يجهل كيفية الاستفادة منها، والمهم أن يعرف طريقة استعمالها،
وهذا هو الشيء الذي نراه في الموجودات المختلفة بوضوح، وكيف أن كلاً منها يستغل طاقته بصورة دقيقة في إدامه حياته، كيف
يبني بيتاً، وكيف يتكاثر، وكيف يربي أولاده ويخفيهم ويبيدهم عن تناول الأعداء، أو يعلمهم كيف يواجهون الأعداء.

والبشر- أيضاً- لديهم هذه الهداية التكوينية.

فإنَّ الإنسان نتيجة لإملاكه العقل والإرادة، فإنَّ له واجبات ومسؤوليات، وبعد ذلك مناهج تكاملية ليس للحيوانات مثلها، ولذلك فإنَّه إضافة إلى الهداية التكوينية محتاج إلى الهداية التشريعية.

فلما سمع فرعون هذا الجواب الجامع الجميل، ألقى سؤالاً آخر «قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى .

أجابه موسى عليه السلام بقوله: «قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى».

إنَّ موسى قد تبَّه بصورة ضمنيَّة على إحاطة علم الله بكلِّ شيء، لينتبه فرعون إلى هذه الحقيقة، وهي أنَّ أيَّ شيء من عمله لا يخفى على الله وإن كان بمقدار رأس الإبرة، وسوف ينال عقابه أو ثوابه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٥

ولما كان جانب من حديث موسى عليه السلام حول مسألة التوحيد ومعرفة الله، فإنَّه يبيِّن هنا فصلاً آخر في هذا المجال، فيقول: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْ نَّبَاتٍ شَتَّى . وفي مجموع هذه الآية إشارة إلى أربعة أنواع من نعم الله الكبرى.

إنَّ هذه النعم الأربع الكبرى تشكِّل حسب الترتيب الذي ورد في الآية أولويات حياة الإنسان، فقبل كلِّ شيء يحتاج الإنسان إلى محلِّ سكن وهدوء، وبعده إلى طرق المواصلات، ثم الماء، ثم المحاصيل الزراعية.

ثم أشار إلى خامس النعم وآخرها من سلسلة النعم الإلهية هذه، فقال: «كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ».

وفي النهاية، وبعد أن أشار إلى كلِّ هذه النعم، قال: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى .

«النهى»: جمع «نهيَّة» وهي في الأصل مأخوذة من مادة «نهي» مقابل الأمر، وتعني العقل الذي ينهي الإنسان عن القبائح والسيئات، يعنى إنَّ العقل والفكر المسؤول هو الذي يستطيع أن يدرك ويطلع على هذه الحقيقة.

وبما أنَّ هذه الآيات دلَّت على التوحيد بخلق الأرض ونعمها، فقد بينت مسألة المعاد بالإشارة إلى الأرض في آخر آية من هذه الآيات أيضاً فقالت: «مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّمَّا نُخَلِّفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوِيًّا (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّى فُزْعُونٌ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَيَّ اللَّهُ كَذِبًا فَيُسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ

أَسْرَوْا النَّجْوَى (٦٢) قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا لِسِيَاحِرٍ إِيْرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَّى (٦٣) فَأَجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتَّوَصَفُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى (٦٤)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٦

فرعون يهَيء نفسه للجولة الأخيرة: تعكس هذه الآيات مرحلة أخرى من المواجهة بين موسى وفرعون، ويبدأ القرآن الكريم هذا الفصل بهذه الجملة: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى . ومن المسلم أنَّ المراد من هذه الآيات هي المعجزات التي أراها فرعون في بداية دعوته، معجزة العصا، واليد البيضاء، ومحتوى دعوته السماوية الجامعة.

والآن، لنر ماذا قال فرعون الطاغى المستكبر العنود في مقابل موسى ومعجزاته، وكيف اتَّهمه كما هي عادة كل المتسلطين والحكام المتعنتين؟ «قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . وهو إشارة إلى أننا نعلم أنَّ مسألة النبوة والدعوة إلى التوحيد، وإظهار هذه المعجزات تشكِّل بمجموعها خطَّة منسَّقة للإنتصار علينا، وبالتالي إخراجنا مع الأقباط من أرض آباءنا وأجدادنا.

إنَّ هذه التهمة هي نفس الحربة التي يستخدمها الطواغيت والمستعمرون على إمتداد التاريخ، ويلوحون بها ويشهرونها كلما رأوا أنفسهم في خطر، ومن أجل إثارة الناس لصالحهم يثيرون مسألة تعرُّض مصالح البلد للخطر، فالبلد يعنى حكومه هؤلاء العتاة، ووجوده

يعنى وجودهم!

ثم أضاف فرعون بأن لا تظن بأننا نعجز عن أن نأتى بمثل هذا السحر: «فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ». ولكى يظهر حزمًا أكثر فإنه قال: «فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَأُنْخِلُفَهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سَوَى».

إلا أن موسى لم يفقد هدوء أعصابه، ولم يدع للخوف من عنجهيته فرعون إلى قلبه طريقاً، بل قال بحزم: «قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِرَ النَّاسُ ضُحَى» (١).

إن التعبير «يَوْمَ الزَّيْنَةِ» إشارة إلى يوم عيد إلا أن المهم هو أن الناس كانوا يعطلون أعمالهم فيه.

إن فرعون بعد مشاهدة معجزات موسى العجيبة، وتأثيرها النفسى فى أنصاره، صمّم على مواجهة موسى عليه السلام بالاستعانة بالسحرة، ولذلك وضع الإتفاق المذكور مع موسى «فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى».

وأخيراً حلّ اليوم الموعود، ووقف موسى أمام جميع الحاضرين، الذين كان بعضهم

(١) «الضحى»: بمعنى زيادة أشعة الشمس، أو ارتفاع الشمس.

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٢١٧

السحرة، وكان عددهم - على رأى بعض المفسرين - إثنين وسبعين ساحراً، وقال آخرون إنهم بلغوا أربعمائه، وذكر البعض أعداداً أكبر أيضاً، وكان قسم من ذلك الجمع عبارة عن فرعون وأنصاره وحاشيته، وأخيراً القسم الثالث الذى كان يشكل الأكريه، وهم الناس المتفرجون.

هنا توجه موسى إلى السحرة، أو إلى الفراعنة والسحرة، و «قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيَلِكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحِتْكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى».

وواضح أن مراد موسى من الإفتراء على الله سبحانه هو أن يجعلوا شخصاً أو شيئاً شريكاً له، أو ينسبوا معجزات رسول الله إلى السحر، ويظنوا أن فرعون إلههم ومعبودهم.

إنّ كلام موسى المتين الذى لا يشبه كلام السحرة بوجه، بل إن نبرته كانت نبرة دعوة كل الأنبياء الحقيقيين، ونابعة من صميم قلب موسى الطاهر، فأثرت على بعض القلوب، وأوجدت إختلافاً بين ذلك الحشد من السحرة، فبعض كان يناصر المواجهة والمبارزة، وبعض تردّد فى الأمر، واحتمل أن يكون موسى عليه السلام نبياً إلهياً، وأثرت فيهم تهديداته، خاصة وأنّ لباس موسى وهارون البسيط كان لباس رعاة الأغنام، وعدم مشاهدته الضعف والتراجع على محياهما بالرغم من كونهما وحيدين، كان يعتبر دليلاً آخر على أصالة أقوالهما وصدق نواياهما، ولذلك فإنّ القرآن يقول: «فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى».

إلا أن أنصار الاستمرار فى المواجهة إنتصروا أخيراً وأخذوا زمام المبادرة بيدهم، وشرعوا فى تحريك السحرة بطرق مختلفة، فأولاً «قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسَاحِرَانِ». وبناءً على هذا فلا يجب أن تخافوا مواجهتهما، لأنكم كبار وأساتذة السحر فى هذه البلاد العريضة، ولأنّ قوتكم وقدرتكم أكبر منهما.

ثم إنهما «يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا». الوطن الذى هو أعزّ من أنفسكم. إضافة إلى أنّهما لا يقنعان بإخراجكم من أرضكم، بل إنهما يريدان أيضاً أن يجعلوا مقدساتكم اضحوكة ومحلاً للسخرية «وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى» (١).

والآن حيث أصبح الأمر كذلك، فلا تدعوا للتردد إلى أنفسكم طريقاً مطلقاً، بل

(١) «الطريقة»: تعنى العادة والاسلوب المتبع، والمراد منها هنا المذهب؛ و «مثلى»: من مادّة «مثل» وهى هنا تعنى العالى والأفضل، أى الأشبه بالفضيلة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٨

«فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ آتُوا صَفًّا» لأنَّ الوحده رمز إنتصاركم في هذه المعركة المصيرية الحاسمه «وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى .
فَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى
(٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَ أَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَدَّعُوا إِنَّمَا صَدَّعُوا كَيْدُ
سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩)

موسى عليه السلام ينزل إلى الساحة: لقد اتحد السحرة ظاهراً، وعزموا على محاربة موسى عليه السلام ومواجهته، فلما نزلوا إلى الميدان
«قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوْلَ مَنْ أَلْقَى .

غير أن موسى عليه السلام بدون أن يبدى عجله، لإطمئنانه بأن النصر سوف يكون حليفه، بل وبغض النظر عن أن الذي يسبق إلى
الحلبة في هذه المجابهات هو الذي يفوز «قَالَ بَلْ أَلْقُوا».

فقبل السحرة ذلك أيضاً، وألقوا كل ما جلبوه معهم من عصي وحبال للسحر في وسط الساحة دفعه واحده، وإذا قبلنا الروايه التي
تقول: إنهم كانوا آلاف الأفراد، فإن معناها أن في لحظه واحده القيت في وسط الميدان آلاف العصي والحبال التي ملئت أجوافها
بمواد خاصه «فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى .

إنَّ المشهد كان عجيباً جداً، فإنَّ السحرة الذين كان عددهم كبيراً، وتمرسهم وإطلاعهم في هذا الفن عميقاً، وكانوا يعرفون جيِّداً
طريقه الاستفادة من خواص هذه الأجسام الفيزيائية والكيميائية الخفيه، استطاعوا أن ينفذوا إلى أفكار الحاضرين ليصدقوا أن كل هذه
الأشياء الميته قد ولجتها الروح، فعلت صرخات السرور من الفراعنه، بينما كان بعض الناس يصرخون من الخوف والرعب، ويتراجعون
إلى الخلف.

في هذه الأثناء «فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . «أوجس»: أخذت من ماده «إيجاس» وفي الأصل من (وجس) على وزن (حبس)
بمعنى الصوت الخفى، وبناءً على هذا فإنَّ الإيجاس يعنى الإحساس الخفى والداخلى، وهذا يوحى بأنَّ خوف موسى الداخلى كان
سطحياً وخفيفاً. كما نقرأ في خطبه الإمام على عليه السلام: «لم يوجس موسى عليه السلام خيفه على نفسه، بل

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢١٩

أشفق من غلبه الجهال ودول الضلال» (١).

فقد نزل النصر والمدد الإلهى على موسى فى تلك الحال، وبين له الوحي الإلهى أن النصر حليفه كما يقول القرآن: «قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ
أَنْتَ الْأَعْلَى .

فقد أرجعت لموسى إطمئنانه الذى تزلزل للحظات قصيرة.

وخاطبه الله مره اخرى بقوله تعالى: «وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى .

ومما يلفت النظر أنه لم يقل (الق عصاك) بل يقول: «أَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ» وربما كان هذا التعبير إشارة إلى عدم الإهتمام بالعصا،
وإشارة إلى أن العصا ليست مسأله مهمه، بل المهم إرادة الله وأمره، فإنه إذا أراد الله شيئاً، فليست العصا فقط، بل أقل وأصغر منها قادر
على إظهار مثل هذه القدره.

فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُدَّجِدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبِيلَ أَنْ أَدْنَا لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَمَّا قَطَعَنَّ
أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صَلْبَتِكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَتَعَلَّمَنَّ أَتَيْنَا أَسْدًا عَذَابًا وَ أَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنْ
الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضَى هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ
وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى (٧٤) وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمَلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ
لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٌ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧٦)

الإنتصار العظيم لموسى عليه السلام: إنتهينا في الآيات السابقة إلى أن موسى أمر أن يلقي عصاه ليبطل سحر السّاحرين، وقد عُقبت هذه المسألة في هذه الآية، غاية الأمر أن العبارات والجمل التي كانت واضحة قد حذفت، وهي (أن موسى قد ألقى عصاه، فتحوّلت إلى حيّة

(١) لقد قال الإمام على عليه السلام هذا الكلام في وقت كان قلقاً من انحراف الناس، ويشير إلى هذه الحقيقة، وهي أن قلقي ليس نابعاً من شكّي في الحق. (نهج البلاغة الخطبة ٤).

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٠

عظيمه لقفت كل آلات وأدوات سحر السّحرة، فعلت الصّيحة والغوغاء من الحاضرين، فاستوحش فرعون وإرتبك، وفغر أتباعه أفواههم من العجب. فأيقن السحرة الذين لم يواجهوا مثل هذا المشهد من قبل، وكانوا يفترقون جيداً بين السحر وغيره، إن هذا الأمر ليس إلامعجزة إلهية، وأن هذا الرجل الذي يدعوهم إلى ربهم هو رسول الله، فاضطربت قلوبهم، وتبين التحول العظيم في أرواحهم ووجودهم).

والآن نسمع بقيّة الحديث من لسان الآيات:

«فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سِجِّدًا قَالُوا ءَأَمَّا رَبِّ هُرُونَ وَمُوسَى . إِنَّ التَّعْبِيرَ (القي) - وهو فعل مبنى للمجهول - ربّما كان إشارة إلى أنهم قد صدّقوا موسى، وتأثروا بمعجزته إلى الحد الذي سجدوا معه دون إرادة.

إنّ عمل السّحرة هذا قد وجّه صفعه قويّة إلى فرعون وحكومته الجبارة المستبدّة الظالمة، ولذلك لم ير فرعون بداً إلا أن يجمع كيانه ويلملم ما تبقى من هيئته وسلطانه عن طريق الصراخ والتهديد والوعيد الغليظ، فتوجّه نحو السحرة و «قَالَ ءَأَمْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَأَذَنَ لَكُمْ». إنّ هذا الجبار المستكبر لم يكن يدعى الحكومه على أجسام وأرواح الناس وحسب، بل كان يريد أن يقول: إن قلوبكم تحت تصرفي أيضاً، ويجب على أحدكم إذا أراد أن يصمّم على أمر ما أن يستأذني.

إنّ فرعون لم يكتف بذلك، بل إنّه ألصق بالساحرين التهمة وقال: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ».

لا شكّ أن فرعون كان على يقين ومعرفة تامّة بكذب كلامه وبطلانه، إلا أنّنا نعلم أن الطغاة لا يتورعون عن إصاق أي كذب وتهمة بخصومهم عندما يرون مركزهم الذي حصلوا عليه بغير حق يتعرّض للخطر.

ثم إنّه لم يكتف بهذا، بل إنّه هدّد السحرة أشدّ تهديد، التهديد بالموت، فقال: «فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمَنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى .

لكن نرى ماذا كان ردّ فعل السحرة تجاه تهديدات فرعون الشديدة؟ إنهم لم يخافوا ولم يهربوا من ساحة المواجهة، أثبتوا صمودهم في الميدان بصورة قاطعة، و «قَالُوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ لَكِن، ينبغي أن تعلم بأنك تقدر على

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢١

القضاء في هذه الدنيا، أمّا في الآخرة فنحن المنتصرون، وستلاقي أنت أشدّ العقاب «إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا».

ثم أضافوا بأننا قد إرتكبنا ذنوباً كثيرة نتيجة السحر، ف «إِنَّا ءَأَمْنَا بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السَّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى . وخلصه القول: إن هدفتنا هو الطهارة من الذنوب الماضية، ومن جملتها محاربه نبي الله الحقيقي، فإذا كنت تهددنا بالموت في الدنيا، فإننا نتقبّل هذا الضرر القليل في مقابل ذلك الخير العظيم.

ثم واصل السحرة قولهم بأننا إذا كنّا قد آمنّا فإن سبب ذلك واضح ف «إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ وَمصيبيته الكبرى في الجحيم هي أنه «لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى بل إنّه يتقلّب دائماً بين الموت والحياة، تلك الحياة التي هي أمر من الموت، وأكثر مشقّة منه.

«وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى جَنَّاتٌ عَدْنٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى .
عندما صمّموا على قبول الحقّ والثبات عليه بعشق، وعلى قول المفسر الكبير العلامة الطبرسي رحمه الله: «كانوا أول النهار كفّاراً سحره،
وآخر النهار شهداء برره».

نجاه بنى إسرائيل وغرق الفراعنة: بعد حادثه المجابهة بين موسى والسحرة، وإنتصاره الباهر عليهم، وإيمان جمع عظيم منهم، فقد غزا
موسى عليه السلام ودينه أفكار الناس في مصر، بالرغم من أن أكثر الأقباط لم يؤمنوا به، إلّا أنّ هذا كان ديدنهم دائماً، وكان بنو
إسرائيل تحت قيادة موسى مع قلّه من المصريين في حالة صراع دائم مع الفراعنة، ومزّت أعوام على هذا المنوال، وحدثت حوادث مرّة
موحشة وحوادث جميلة مؤنسة، أورد بعضها القرآن الكريم في الآية (١٢٧) وما بعدها من سورة الأعراف.

وتشير الآيات التي نبهت على آخر فصل من هذه القصة، أي خروج بنى إسرائيل من مصر، فتقول: «وَلَقَدْ أُوحِينَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسِرَّ
بِعِبَادِي». فتهدى بنو إسرائيل للتوجه إلى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٢

الوطن الموعود (فلسطين)، إلّا أنّهم لما وصلوا إلى سواحل النيل علم الفراعنة بهم، فتعقبهم فرعون في جيش عظيم، فرأى بنو إسرائيل
أنفسهم محاصرين بين البحر والعدو، إلّا أنّ الله أمر موسى أن امض بقومك «فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا». طريقاً متى ما مضت
فيه ف «لَاتَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى . وبذلك فإنّ موسى وبنى إسرائيل قد ساروا في تلك الطرق التي فتحت في أعماق البحر بعد إنحسار
المياه عنها، في هذه الأثناء وصل فرعون وجنوده إلى ساحل البحر فدُهِشوا لهذا المشهد المذهل المثير غير المتوقع، ولذلك أعطى
فرعون أمراً لجنوده باتباعهم، وسار هو أيضاً في نفس الطريق: «فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ».

إنّ فرعون الذي ركب الغرور والعصبيّة رأسه، وغرق في بحر العناد والحماقة، لم يهتمّ لهذه المعجزة الكبيرة، وأمر جيشه في المسير في
هذه الطرق البحرية المريبة حتى دخل من هذه الجهة آخر جندي فرعونى، في وقت خرج من الجانب الآخر آخر فرد من بنى إسرائيل.
في هذه الأثناء صدر الأمر لأموج المياه أن ترجع إلى حالتها الأولى، فوقعت عليهم الأمواج كما تسقط البناية الشامخة إذا هدّمت
قواعدها «فَعَشِيَهُمْ مِّنَ اللَّيْلِ مَا عَاشَيْهِمْ». أجل، «وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى .

صحيح أنّ جملة (أضلّ) وجملة (ما هدى) تعطى معنى واحداً تقريباً إلّا أنّ الظاهر أنّ هناك تفاوتاً فيما بينهما، وهو أنّ (أضلّ) إشارة
إلى الإضلال، و (ما هدى) إشارة إلى عدم الهداية بعد وضوح الضلالة.

إنّ فرعون كان عنيداً إلى الحد الذي لم يبيّن لقومه الحقيقة حتى بعد وضوح الضلال ومشاهدته.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ
اهْتَدَى (٨٢)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٣

طريق النجاة الوحيد: تعقياً على البحث السابق في نجاة بنى إسرائيل بصورة إعجازية من قبضة الفراعنة، خاطبت هذه الآيات الثلاث
بنى إسرائيل بصورة عامّة، وفي كل عصر وزمان، وذكرتهم بالنعمة الكبيرة التي منحها الله إياهم، وأوضحت طريق نجاتهم.

فقال أولاً: «يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ».

ثم تشير إلى واحدة من النعم المعنوية المهمة، فتقول: «وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ». وهذه إشارة إلى حادثه ذهاب موسى عليه
السلام مع جماعة من بنى إسرائيل إلى مكان ميعادهم في الطور، ففي ذلك المكان أنزل الله سبحانه ألواح التوراة على موسى وكلمه،
وشاهدوا جميعاً تجلّى الله سبحانه.

وأخيراً أشارت إلى نعمة ماديّة مهمة من نعم الله الخاصة ببنى إسرائيل، فتقول: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى . ففي تلك الصحراء كنتم

حيارى، ولم يكن عندكم شىء من الطعام المناسب، فأدر ككم لطف الله، ورزقكم من الطعام الطيب اللذيذ ما كنتم بأمس الحاجة إليه.

و «المن» نوعاً من العسل الطبيعي كان موجوداً في الجبال المجاورة لتلك الصحراء؛ و «السلوى» نوع من الطيور المحللة اللحم شبيهاً بالحمام.

ثم تخاطبهم الآية التالية بعد ذكر هذه النعم الثلاث العظيمة، فتقول: «كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ».

الطغيان في النعمة هو أن يتخذ الإنسان هذه النعم وسيلة للذنب والجحود والكفران والتمرد والعصيان، بدل أن يستغلها في طاعة الله وسعادته، تماماً كما فعل بنو إسرائيل، ولذلك حذرتهم الآية بعد ذلك فقالت: «فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلُّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى

«هوى»: في الأصل بمعنى السقوط من المكان المرتفع، والذي تكون نتيجته الهلاك عادةً، إضافة إلى أنه هنا إشارة إلى السقوط الرتبي والبعد عن قرب الله، والطرده من رحمته.

ولما كان من الضروري أن يقترن التحذير والتهديد بالترغيب والبشارة دائماً، لتساوى كفتا الخوف والرجاء، حيث تشكّلان العامل الأساسى فى تكامل الإنسان، ولتفتح أبواب التوبة والرجوع بوجه التائبين، فقد قالت الآية التالية: «وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى .

«غفار»: صيغته مبالغة، وتوحى أن الله سبحانه لا يقبل هؤلاء التائبين ويشملهم برحمته مرّة واحدة فقط، بل سيعمهم عفوه ومغفرته مرّات ومرّات.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٤

وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءِ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَ فَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حُمُلْنَا أَوزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَ فَلَا يَرَوْنَ أَنْ يُرْجَعَ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلِ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١)

صخب السامرى: ذكر فى هذه الآيات فصل آخر من حياة موسى عليه السلام وبنى إسرائيل، ويتعلق بذهاب موسى عليه السلام مع وكلاء وممثلى بنى إسرائيل إلى الطور حيث موعدهم هناك، ثم عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غياب هؤلاء.

كان من المقرر أن يذهب موسى عليه السلام إلى «الطور» لتلقى أحكام التوراة، ويصطحب معه جماعة من بنى إسرائيل، غير أن شوق موسى عليه السلام إلى المناجاة مع الله وسماع ترتيل الوحي، وصل لوحده قبل الآخرين إلى ميقات الله وميعاده. هنا نزل عليه الوحي: «وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى .

شوق المناجاة وسماع كلامك قد سلب قرارى، كنت مشتاقاً إلى أن آخذ منك أحكام التوراة بأسرع ما يمكن لأؤديها إلى عبادك، ولأنال رضاك عني بذلك ...

وفى هذا اللقاء امتدت مدة الإشراقات والتجليات المعنوية الإلهية من ثلاثين ليلة إلى أربعين، وأدت الأجواء المهيأة لانحراف بنى إسرائيل دورها، فالسامرى، ذلك الرجل الفطن والمنحرف صنع باستعماله الوسائل عجلًا، ودعا تلك الجماعة إلى عبادته، وأوقعهم فيها.

وأخيراً أخبر الله موسى فى الميعاد بما جرى لقومه والسامرى إذ تحكى الآية التالية ذلك

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٥

فتقول: «قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ». «فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا».

وما أن وقعت عينه على ذلك المنظر القبيح، منظر عبادة العجل «قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسِينًا». وهذا الوعد الحسن إما أن يكون وعد بني إسرائيل بنزول التوراة وبيان الأحكام السماوية فيها، أو الوعد بالإنقاذ والانتصار على الفراعنة ووراثه حكومة الأرض، أو الوعد بالمغفرة والعفو للذين يتوبون ويؤمنون ويعملون الصالحات، أو أنه كل هذه الامور.

ثم أضاف: «أَفْطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ».

وحتى لو نأيت عنكم سنين طويلة فينبغي أن تلتزموا بالتعاليم الإلهية التي تعلمتموها وتؤمنوا بالمعجزات التي رأيتموها: «أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُمْ مَّوْعِدِي». فقد عاهدتكم على أن تثبتوا على خط التوحيد وطريق طاعة الله الخالصة، وأن لا تنحرفوا عنه قيد أنملة، إلا أنتم نسيتم كل كلامي في غيابي، وكذلك تمردت على طاعة أمر أخي هارون وعصيتموه.

فلما رأى بنو إسرائيل أن موسى عليه السلام قد عففهم بشدة ولا مهم على فعلهم وتبتهوا إلى قبح ما قاموا به من عمل، هبوا للإعتذار ف «قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا» فلم تكن في الواقع قد رغبتنا وصممنا على عبادة العجل «وَلَكِنَّا حُمِلْنَا أَوْزَارًا مِّنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَدْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ».

إن كبير القوم إذا لام من تحت إمرته على ارتكابهم ذنباً ما، فإنهم يسعون إلى نفي ذلك الذنب عنهم، ويلقونه على عاتق غيرهم، وكذلك عبادة العجل من بني إسرائيل، فإنهم كانوا قد انحرفوا بإرادتهم ورغبتهم عن التوحيد إلى الشرك، إلا أنهم أرادوا أن يلقوا كل التبعة على السامري.

على كل، فإن السامري ألقى كل أدوات زينة الفراعنة وجليهم التي كانوا قد حصلوا عليها عن طريق الظلم والمعصية- ولم يكن لها قيمة إلا أن تصرف في مثل هذا العمل المحرم- في النار «فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ» (١) فلما رأى بنو إسرائيل هذا المشهد، نسوا فجأة كل تعليمات موسى التوحيدية «فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى .

وبهذا فإن السامري قد نسي عهده وميثاقه مع موسى، وإله موسى: «فَنَسِيَ».

وهنا قال الله سبحانه توبيخاً وملامة لعبدة الأوثان هؤلاء: «أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا». فإن المعبود الواقعي يستطيع على الأقل أن يلبي طلبات

(١) «الخوار»: صوت البقرة والعجل، ويطلق أحياناً على صوت البعير.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٦

عباده ويجب على أسئلتهم، فهل يمكن أن يكون سماع خوار العجل من هذا الجسد الذهبي لوحده، دليلاً على جواز عبادة العجل، وصحة تلك العبادة؟ ولا شك أن هارون، خليفة موسى ونبي الله الكبير، لم يرفع يده عن رسالته في هذا الصخب والغوغاء، وأدى واجبه في محاربة الانحراف والفساد قدر ما يستطيع، كما يقول القرآن: «وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ» ثم أضاف: «وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ».

لقد كنتم عبيداً فحزركم، وكنتم أسرى فأطلقكم، وكنتم ضالين فهداكم، وكنتم متفرقين مبعثرين فجمعكم ووحدكم تحت رايه رجل رباني، وكنتم جاهلين فألقى عليكم نور العلم وهداكم إلى صراط التوحيد المستقيم، فالآن «فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي».

أنسيتم أن أخي موسى قد نصبني خليفة له وفرض عليكم طاعتي؟ فلماذا تنقضون الميثاق؟ ولماذا ترمون بأنفسكم في هاوية الفناء؟ إلا أن بني إسرائيل تمسكوا بهذا العجل عناداً، ولم يؤثر فيهم المنطق السليم القوي لهذا الرجل، ولا أدله هذا القائد الحريص، وأعلنوا مخالفتهم بصراحة: «قَالُوا لَنْ نُبْرِحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى .

وبهذا لم يدعن بنو إسرائيل لأمر العقل ولا لأمر خليفته قائدهم وزعيمهم أيضاً.

ولكن إفتقر عنهم هارون مع القلة من المؤمنين الثابتين، والذين كان عددهم قرابة إثني عشر ألفاً، في حين أن الأغلبية الجاهلة كادوا أن يقتلوه.

قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَنْ تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَلَّمْتَ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٧

نهاية السامري المريرة: تعقيباً على البحث الذي تناولته الآيات السابقة حول تفرغ موسى وملازمته لبنى إسرائيل الشديدة على عبادتهم العجل، تعكس هذه الآيات التي نبحتها- في البداية- محاوره موسى عليه السلام مع أخيه هارون عليه السلام، ثم مع السامري. فخاطب أولاً أخاه هارون «قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا» أَلَا تَتَّبِعَنِ «أفلم أقل لك أن «اخلفني في قومي وأصيخ ولا تتبع سبيل المفسدين» (١). فلماذا لم تهب لمحاربة عبادة العجل هذه؟

إن المراد من جملة «أَلَا تَتَّبِعَنِ» هو: لماذا لم تتبع طريقة عملي في شدة مواجهة عبادة الأصنام؟

ثم أضاف: «أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي». لقد كان موسى عليه السلام يتحدث بهذا الكلام مع أخيه وهو في فورة وسورة من الغضب، وكان يصرخ في وجهه، وقد أخذ برأسه ولحيته يجزه إليه، فلما رأى هارون غضب أخيه الشديد قال له- من أجل تهدئته وليقلل من فورته، وكذلك ليبيّن عذره وحجته في هذه الحادثة ضمناً... «قَالَ يَبْنَؤُمْ لَأَتَأْخُذَ بِلِحْيَتِي وَلَمَّا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَلَّمْتَ قَوْلِي».

إن هارون يريد أن يقول: إنني إذا كنت قد أقدمت على الإشتباك معهم كان ذلك خلاف أمرك، وكان من حقك أن تؤاخذني. وبهذا أثبت هارون براءته.

وبعد الانتهاء من محادثة أخيه هارون وتبرئة ساحته، بدأ بمحاكمة السامري: لماذا فعلت ما فعلت، وما هدفك من ذلك: «قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ». فأجابه و «قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي». إن كلمة «الأثر» يعني بعض تعليمات موسى عليه السلام؛ و «نبذتها» بمعنى ترك تعليمات موسى عليه السلام. وأخيراً فإن «بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا» تشير إلى ما كان لديه من معلومات خاصة عن دين موسى عليه السلام.

ومن الواضح أن جواب السامري عن سؤال موسى عليه السلام لم يكن مقبولاً بأي وجه، ولذلك فإن موسى عليه السلام أصدر قرار الحكم في هذه المحكمة، وحكم بثلاثة أحكام عليه وعلى عجله، فأولاً: «قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ». أي يجب عليك الإبتعاد عن الناس وعدم الإتصال بهم إلى آخر العمر، فكلما أراد شخص الإقتراب منك، فعليك أن

(١) سورة الأعراف / ١٤٢.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٨

تقول له: لا تتصل بي ولا تقريني، وبهذا الحكم الحازم طرد السامري من المجتمع وجعله في عزلة تامة. منزوياً بعيداً عنهم. قال بعض المفسرين: إن جملة «لَا مِسَاسَ» إشارة إلى أحد القوانين الجزائية في شريعة موسى عليه السلام التي كانت تصدر في حق من يرتكب جريمة كبيرة، وكان ذلك الفرد يبدو كموجود شرير نجس قدر، فلا يخالط أحداً أو يخالطه أحد (١). والعقاب الثاني: إن موسى عليه السلام قد أسمعته وأعلمه بجزائه في القيامة فقال: «وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ».

والثالث: «وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْتَحَرَّفَهُ تُمْ لَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا».

وشخص موسى في آخر جملة، ومع التأكيد الشديد على مسألة التوحيد، وحاكمية نهج الله، فقال: «إِنَّمَا إِلْهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لآ إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا». فليس هو كالأوثان المصنوعة التي لا تسمع كلاماً، ولا تجيب سائلاً، ولا تحل مشكلة، ولا تدفع ضراً. كذلك نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)

مع أن الآيات السابقة كانت تتحدث حول تاريخ موسى وبنى إسرائيل والفراعنة والسامري المليء بالحوادث، وقد بينت في طياتها بحوثاً مختلفة، فإن القرآن الكريم بعد الانتهاء منها يستخلص نتيجة عامة فيقول: «كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ». ثم يضيف: «وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا» قرآنًا مليئاً بالدروس والعبر، والأدلة العقلية، وأخبار الماضين وما يتبه المقبلين ويحذرهم. إن كلمة (ذكر) هنا، وفي آيات كثيرة أخرى من آيات القرآن الكريم تشير إلى القرآن نفسه، لأن آياته سبب لتذكر وتذكير البشر، والوعى والحوذر.

ولهذا السبب فإن الآية التالية تتحدث عن الذين ينسون حقائق القرآن ودروس التاريخ

(١) تفسير في ظلال القرآن ٥/ ٤٩٤.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٢٩

وعبره، فتقول: «مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا».

نعم ... إن الإعراض عن القرآن يجرّ الإنسان إلى مثل هذه المتاهات التي تحمله أعباءً ثقيلة من أنواع الذنوب والانحرافات الفكرية والعقائدية.

ثم تضيف: «خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا».

ثم تتطرق الآيات إلى وصف يوم القيامة وبيداته، فتقول: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا». «زُرْقًا»: جمع «أزرق» تأتي عادةً بمعنى زرقة العين، إلا أنها تطلق أحياناً على القاتم جسده بسبب الشدة والألم، فإن البدن عند تحمّل الألم والتعب والعذاب يضعف، ويفقد طراوته، فيبدو قاتمًا وكأنه أزرق.

في هذه الحال يتحدث المجرمون فيما بينهم بإخفات حول مقدار مكوثهم وبقائهم في عالم البرزخ، فبعضهم يقول: لم تلبثوا إلا عشر ليال، أو عشرة أيام بلياليها: «يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا».

وإن تخافتهم هذا بالكلام إقياً هو للرعب والخوف الشديد الذي ينتابهم عند مشاهدة أهوال القيامة، أو أنه نتيجة شدة ضعفهم وعجزهم.

ثم يضيف: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ» سواء تكلموا بهمس أم بصراخ، وبصوت خفى أم عال «إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا».

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَمَّا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَ لَأَ أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَأَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَأَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَ لَأَ يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنَتِ الِوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَ لَأَ هَضْمًا (١١٢)

مشهد القيامة المهول: تتابع هذه الآيات الكلام في الآيات السابقة عن الحوادث المرتبطة بانتهاء الدنيا وبداية القيامة. ويظهر من الآية الأولى أن الناس كانوا قد سألوا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٠

النبي صلى الله عليه وآله عن مصير الجبال عند انتهاء الدنيا. ولذلك يقول: «وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ».

والجواب: «فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا» (١).

يستفاد من مجموع آيات القرآن حول مصير الجبال أنها تمرّ عند حلول القيامة بمراحل مختلفة:

فهي ترجف وتهتزّ أولاً: «يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ» (٢).

ثم تتحرك: «وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا» (٣).

وفي المرحلة الثالثة تتلاشى وتتحوّل إلى كئبان من الرمل: «وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيًّا مَهِيلًا» (٤).

وفي المرحلة الأخيرة سيزحزحها الهواء والظوفان من مكانها ويبعثها في الهواء وتبدو كالصوف المنفوش: «وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمُنْفُوشِ» (٥).

ثم تقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ» بعد تلاشى الجبال وتطاير ذراتها يأتي أمره إلى الأرض «فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا» لَأَتْرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا»

(٦). وفي ذلك الحين يدعو الداعي الإلهي جميع البشر إلى الحياة والاجتماع في المحشر للحساب فيلبي الجميع دعوته ويتبعونه «يَوْمَئِذٍ

يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَعِوَجَ لَهُ». كما أن سطح الأرض يصبح صافياً ومستوياً بحيث لا يبقى فيه أى إعوجاج، فإن أمر الله والداعي أيضاً كل

منهما صافٍ ومستقيم جلي، واتباعه واضح لا سبيل لأى إنحراف وإعوجاج إليه.

عند ذلك: «وَوَحَّشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا». إن هدوء الأصوات أو خشوعها هذا إما هو لهيمنة العظمة الإلهية على

عرصة المحشر حيث يخضع لها الجميع، أو خوفاً من الحساب ونتيجة الأعمال، أو لكليهما.

(١) «نسف»: تعنى وضع الحبوب الغذائية في الغربال وغربلتها، أو ذرها في الهواء لينفصل الحبّ عن القشر، وهنا إشارة إلى تلاشى

الجبال وتهشمها، ثم تناثرها في الهواء.

(٢) سورة المزمل / ١٤.

(٣) سورة الطور / ١٠.

(٤) سورة المزمل / ١٤.

(٥) سورة القارعة / ٥.

(٦) يستفاد من مجموع هذين الوصفين (القاع وصفصفاً) أن كل الجبال والنباتات ستمحي من على وجه الأرض في ذلك اليوم

وستبقى الأرض مستوية خالية.

«العوج»: بمعنى الإعوجاج؛ و «الامت»: أى الأرض المرتفعة والريبة، وبناءً على هذا فإن معنى الآية هو أنه لا يرى في ذلك اليوم أى

ارتفاع وإنخفاض على وجه الأرض.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣١

وبما أن بعض الغارقين في الذنوب والمعاصي قد يحتمل أن تنالهم شفاعت الشافعين وتنجيهم، فإنه يضيف مباشرة: «يَوْمَئِذٍ لَأَتَنَفَعُ الشَّفَعَةَ

إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا». وهذا إشارة إلى أن الشفاعت هناك ليست إعتباطية وعشوائية، بل إن هناك تخطيطاً دقيقاً لها،

سواء ما يتعلق بالشافعين أو المشفوع لهم، وما دام الأفراد لا يملكون الأهلية والاستحقاق للشفاعة، فلا معنى حينئذ لها.

ولما كان حضور الناس في عرصات القيامة للحساب والجزاء لا بدّ معه من علم الله سبحانه بأعمالهم وسلوكهم ومعاملاتهم، فإن الآية

التالية تضيف: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا». فهو يعلم ما قدّم المجرمون وما فعلوه في الدنيا، وهو مطلع على

كل أفعالهم وأقوالهم وثباتهم في الماضى وما سيلاقونه من الجزاء في المستقبل، إلّا أنهم لا يحيطون بعلم الله، وبهذا فإن إحاطة علم

اللَّهِ سبحانه تشمل العلم بأعمال هؤلاء وبيزائهم، وهذان الركبان في الحقيقة هما دعامة القضاء التام العادل. في ذلك اليوم: «وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ».

«العت»: من مادة العنوة، وقد وردت بمعنى الخضوع والذلة، ولذلك يقال للأسير:

«عاني»، لأنه خاضع وذليل في يد الأسر، وإذا رأينا الخضوع قد نسب إلى الوجوه هنا، فلأن كل الإحساسات النفسية، ومن جملتها الخضوع، تظهر آثارها أولاً على وجه الإنسان.

إنّ إنتخاب صفتي «الحى والقيوم» هنا من بين صفات الله سبحانه، لأنهما يناسبان النشور أو الحياة وقيام الناس جميعاً من قبورهم «يوم القيامة».

وتختتم الآية بالقول: «وَقَدْ حَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا» فالظلم والجور كالحمل العظيم الذى يتقل كاهل الإنسان، ويمنعه من السير والرقى إلى نعم الله الخالدة.

ولما كانت طريقة القرآن غالباً هي بيان تطبيقى للمسائل، فإنه بعد أن بين مصير الظالمين في ذلك اليوم، تطرّق إلى بيان حال المؤمنين فقال: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا» (١).

التعبير ب «مِنَ الصَّالِحَاتِ» إشارة إلى أنهم إن لم يستطيعوا أن يعملوا كل الصالحات فليقوموا ببعضها، لأنّ الإيمان بدون العمل الصالح كالشجرة بلا ثمرة، كما أنّ العمل الصالح

(١) «الهضم»: بمعنى النقص، وإذا قيل لجذب الغذاء إلى البدن: هضم، فلأنّ الغذاء يقلّ ظاهراً وتبقى فضلاته.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٢

بدون إيمان كالشجرة من دون جذر، إذ قد تبقى عدة أيام لكنها تجفّ آخر الأمر. مراحل القيامة: وردت الإشارة في الآيات - محل البحث - إلى سلسلة من الحوادث التى تقع عند حلول القيامة وبعدها:

١- رجوع الأموات إلى الحياة: «يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ».

٢- جمع المجرمين وحشرهم: «نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ».

٣- تلاشى جبال الأرض، ثم تبعثرها في كل مكان، وإستواء سطح الأرض تماماً:

«يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا».

٤- إستماع الجميع لدعوة داعى الله، وإنقطاع جميع الأصوات: «يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ...».

٥- عدم تأثير الشفاعة في ذلك اليوم بدون إذن الله: «يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ ...».

٦- إعداد الله تعالى جميع خلقه للحساب بعلمه المطلق غير المتناهى «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا».

٧- خضوع الجميع في مقابل حكمه: «وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ».

٨- ياس الظالمين: «وَقَدْ حَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا».

٩- رجاء المؤمنين لطف الله ورحمته: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ...».

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)

الآيات محل البحث - فى الواقع - إشارة إلى مجموع ما مرّ فى الآيات السابقة حول المسائل التربوية المرتبطة بالقيامة والوعد والوعيد، فتقول: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا».

التعبير ب (كذلك) إشارة إلى المطالب التى بينت قبل هذه الآية.

كلمة «عربيًا» وإن كانت بمعنى اللغة العربية، إلّا أنّها هنا إشارة إلى فصاحة القرآن وبلاغته وسرعة إيصاله للمفهوم والمراد من جهتين: الأولى: إنّ اللغة العربية - بشهادة علماء اللغة في العالم - واحدة من أبلغ لغات العالم، وأدبها من أقوى الأداب.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٣

والثانية: إنّ جملة (صرفنا) أحياناً تشير إلى التعبيرات القرآنية المختلفة حول حادثه واحدة، فمثلما نراه يبيّن مسألة الوعيد وعقاب المجرمين من خلال ذكر قصص الامم السابقة وحوادثها تارة، وتارة اخرى على هيئة خطاب موجّه للحاضرين، وثالثه بتجسيد حالهم في مشهد القيامة، وهكذا.

أما الآية التالية فتضيف قائلة: «فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ».

وبما أنّ النبي صلى الله عليه وآله كان يعجّل في إبلاغ الوحي وما ينزل من القرآن لاهتمامه به وتعشقه أن يحفظه المسلمون ويستظروه، ولم يتمّ جبرئيل ما يلقيه عليه من الوحي فيبلغه عنه، فإنّ الآية محلّ البحث تذكره بأن يتمهّل فتقول: «وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا».

فإذا كان النبي صلى الله عليه وآله مأموراً أن يطلب زيادة العلم من ربه إلى آخر عمره مع غزارة علمه، وروحه المليئة وعياً وعلماً، فإنّ واجب الآخرين واضح جداً، وفي الحقيقة، فإنّ العلم من وجهه نظر الإسلام لا يعرف حداً، وزيادة الطلب في كثير من الامور مذمومة إلّا في طلب العلم فإنّها ممدوحة، والإفراط قبيح في كل شيء إلّا في طلب العلم.

وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أُنْثَىٰ تَتَّوَعَّجُ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنْتَ لَهَا تَطْمَأْنِنُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسَّسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفَحَا بِخِصْفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ رَوْقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ (١٢٢)

آدم ومكر الشيطان: إنّ هذه الآيات وما بعدها تتحدث عن قصة آدم وحواء، وعداء ومحاربة إبليس لهما، وربما كانت إشارة إلى أنّ الصراع بين الحق والباطل لا ينحصر بالأمس واليوم، وموسى عليه السلام وفرعون، بل كان منذ بداية خلق آدم وسيستمر كذلك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٤

وبالرغم من أنّ قصة آدم وإبليس قد وردت مراراً في القرآن، إلّا أنّها تبرز في كل مورد بملاحظات ومسائل جديدة، وهنا نتحدث أولاً عن عهد الله إلى آدم فتقول: «وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَتَسَىٰ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا». والمراد من العهد المذكور، أمر الله بعدم الإقتراب من الشجرة الممنوعة.

فلا شك أنّ آدم لم يرتكب معصية، بل بدر منه ترك الأولى. أو بتعبير آخر، فإنّ مرحلة وجود آدم في الجنة لم تكن مرحلة تكليف، بل كانت مرحلة تجريبية للإستعداد للحياة في هذه الدنيا وتقبل المسؤولية.

ثم أشارت إلى جانب آخر من هذه القصة، فقالت: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ». ومن هنا يتضح مقام آدم العظيم، آدم الذي سجدت له الملائكة، كما أنّ عداوة إبليس تجلّت له ضمناً من أول الأمر إذ لم يخضع لآدم ولم يعظمه.

لا شك أنّ السجدة لا تعنى السجدة الخاصة بعبادة الله، ولا أحد أو موجود يستحق أن يكون معبوداً من دون الله سبحانه، وبناءً على هذا فإنّ هذه السجدة كانت لله، غاية ما هناك أنّها كانت من أجل خلق هذا الموجود العظيم. فإنّ الله سبحانه تعالى أنذر آدم بقوله: «فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ».

من الواضح أنّ الجنة هنا لا يراد منها جنّة الخلود في العالم الآخر، والتي هي نقطة تكامل لا يمكن الخروج منها أو التراجع عن نعيمها، بل كانت بستاناً فيه كل شيء مما في بساتين هذه الدنيا، ولم يكن فيها نصب ولا غصّة بلطف الله.

ثم يبيّن الله لآدم راحة الجنة وهدوءها، وألم ومشقة الخروج منها، فيقول: «إِنَّ لَكَ أَلًا تَجُوعُ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنْتَ لَهَا تَطْمَأْنِنُ فِيهَا وَلَا

تَضْحَى .

فقد اشير في هاتين الآيتين إلى أربع إحتياجات أصلية وابتدائية للإنسان، أى: الحاجة إلى الغذاء، والماء، واللباس - للحماية من حرارة الشمس - والمسكن، لكن ومع كل ذلك، فإن الشيطان قد ربط رباط العداوة حول آدم، ولهذا لم يهدأ له بال: «فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى .

«الوسوسة»: فى الأصل تعنى الصوت المنخفض جداً، ثم قيلت لخطور الأفكار السافلة والخواطر السيئة سواء كانت تنبع من داخل الإنسان، أو من خارجه.

إن الشيطان تتبع رغبة آدم وأنها فى أى شىء، فوجد أن رغبته فى الحياة الخالدة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٥

والوصول إلى القدرة الأزلية، ولذلك جاء إليه عن هذين العاملين وإستغلهما فى سبيل جزه إلى مخالفة أمر الله.

وأخيراً وقع المحذور، وأكل آدم وحواء من الشجرة الممنوعة، فتساقط عنهما لباس الجنة، فبدت أعضاءهما: «فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا» (١). فلما رأى آدم وحواء ذلك إستحيا «وَوَطِفَقَا يَخْصِمَا عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ» (٢). نعم، لقد كانت العاقبة المؤسفة «وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى . «غوى»: اخذت من مادة الغى، أى العمل الصيبانى الناشىء من إعتقاد خاطىء، ولما كان آدم هنا قد أكل - جهلاً وإشتهاءً - من الشجرة المحرمة، نتيجة للظن الذى حصل له من قول الشيطان، فقد عبّر عن عمله ب (غوى).

ولكن لما كان آدم نقيماً ومؤمناً فى ذاته، وكان يسير فى طريق رضى الله سبحانه، وكان لهذا الخطأ الذى أحاط به نتيجة وسوسة الشيطان صفة إستثنائية، فإن الله سبحانه لم يبعده عن رحمته إلى الأبد، بل «ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى .

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)

مع أن توبه آدم قد قبلت، إلا أن عمله أدى إلى عدم استطاعته الرجوع إلى الحالة الاولى، ولذا فإن الله سبحانه أصدر أمره لآدم وحواء كليهما وكذلك الشيطان أن يهبطوا جميعاً من الجنة: «قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ». إلا أنى اعلمكم بأن طريق النجاة والسعادة مفتوح أمامكم «فَأِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى .

(١) «سوءات»: جمع سوءة، وهى فى الأصل كل شىء غير سار ويسىء الإنسان، ولذلك تطلق أحياناً على جسد الميت، وأحياناً على العورة، والمراد هنا هو المعنى الأخير.

(٢) «يخصفان»: من مادة خصف، وهى هنا تعنى خياطة اللباس.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٦

ومن أجل أن يتضح أيضاً مصير الذين ينسون أمر الحق، فقد أضاف تعالى «وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١)».

هنا «قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا». فيسمع الجواب مباشرة: «قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى . وتعمى عينك عن رؤيته نعم الله ومقام قربه.

أما الآية الأخيرة من الآيات محل البحث فهى بمثابة الاستنتاج والخلاصة إذ تقول:

«وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى .

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَلَوْ لَّا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ

لَكَانَ لِرَامًا وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ (١٣٠)

لما كانت عدّة بحوث في الآيات السابقة قد وردت عن المجرمين، فقد أشارت الآيات الاولى من الآيات محلّ البحث إلى واحد من أفضل طرق التوعية وأكثرها تأثيراً، وهو مطالعة تاريخ الماضين، فتقول: «أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كُمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ». اولئك الذين عمهم العذاب الإلهي الأليم «يَمُشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ».

إنّ هؤلاء يَمْرُونَ في مسيرهم وذهابهم وإيابهم على منازل قوم عاد- في أسفارهم إلى اليمن- وعلى مساكن ثمود المتهدمة الخربة- في سفرهم إلى الشام- وعلى منازل قوم لوط التي جعل عاليها سافلها- في سفرهم إلى فلسطين- ويرون آثارهم، إلّا أنّهم لا يعتبرون. نعم ... «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ (٢)».

إنّ موضوع أخذ العبرة من تاريخ الماضين من الامور التي يؤكّد عليها القرآن والأحاديث الإسلامية كثيراً. في كتاب معانى الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «... وأغفل الناس من لم يتعظ بتغيّر الدنيا من حال إلى حال». ولا يفكر في تقلّب الليل والنهار وتعاقبهما.

الآية التالية جواب عن سؤال يثار هنا، وهو: لماذا لا يجرى الله سبحانه على هذا القسم

(١) «الضنك»: المشقّة والضيق، وهذه الكلمة تأتي دائماً بصيغة المفرد، وليس لها تشبيه ولا جمع ولا تأنيث.

(٢) «النهى»: من مادّة نهى، وهى هنا بمعنى العقل، لأنّ العقل ينهى الإنسان عن القبائح والسيئات.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٧

من المجرمين ما أجراه على المجرمين السابقين، فيقول القرآن: «وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى». إنّ هذه السنّة الإلهية التي ذكرت في مواضع عديدة من القرآن باسم (كلمة) إشارة إلى قانون الخلق المبتنى على حرية البشر، لأنّ كل مجرم إذا عوقب مباشرة وبدون أن يمهل، فإنّ الإيمان والعمل الصالح سيّصف بالجبر تقريباً، وسيكون على الأغلب خوفاً من العقاب الآتى، وبناءً على هذا فسوف لا يكون وسيلة للتكامل الذى هو الهدف الأصلي.

إضافةً إلى أنّه إذا تقرر أن يعاقب جميع المجرمين فوراً، فسوف لا يبقى أحد حياً على وجه الأرض: «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَابَّةٍ» (١). وبناءً على هذا فيجب أن تكون هناك مهلة وفترة تعطى لكل المرتبطين بطريق الحق حتى يرجع المجرمون إلى أنفسهم ويسلكوا سبيل الصلاح، ولتكون كذلك فرصة لتهديب النفس.

إنّ التعبير (أجل مسمّى) بالشكل الذى يفهم من مجموع آيات القرآن، إشارة إلى الزمان الحتمى لنهاية حياة الإنسان.

ثم يوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله، فيقول: «فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ». ومن أجل رفع معنويات النبي صلى الله عليه وآله وتقوية قلبه، وتسليته خاطره، فإنّه يؤمر بمناجاة الله والصلاة والتسبيح فيقول: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ولا يتأثر قلبك جزاء كلامهم المؤلم.

لا شك أنّ هذا الحمد والتسبيح محاربة للشرك وعبادة الأصنام، وفي الوقت نفسه صبر وتحمل أمام أقوال المشركين السيئة، وكلامهم الخشن.

وَلَمَّا تَمَيَّدَنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَ أَمُرُ أَهْلِكَ بِالصَّلَاةِ وَ اصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) وَ قَالُوا لَوْ لَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ تأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) وَ لَوْ أَنَا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَمَّا أُرْسِلَتْ إِلَيْنَا رَسُولًا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ نَحْزَىٰ (١٣٤) قُلْ كُلُّ

مُتْرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ (١٣٥)

(١) سورة النحل / ٦١.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٨

لقد أصدرت في هذه الآيات أوامر وتوجيهات للنبي صلى الله عليه وآله، والمراد منها والمخاطب فيها عموم المسلمين، وهي تتمه للبحث الذي قرأناه آنفاً حول الصبر والتحمل. فتقول أولاً:

«وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ». فَإِنَّ هَذِهِ النِّعَمَ الْمَتْرَلِزَةَ الزَّائِلَةَ مَا هِيَ إِلَّا «زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».

في الوقت الذي أمددناهم بها «لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ». فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَهَبَ لَكَ مَوَاهِبَ وَنِعْمًا مَتَّوَعَةً، فَأَعْطَاكَ الْإِيمَانَ وَالْإِسْلَامَ، وَالْقُرْآنَ وَالآيَاتِ الْإِلَهِيَّةَ وَالرِّزْقَ الْحَلَالَ الطَّاهِرَ، وَأَخِيرًا نِعْمَ الْآخِرَةَ الْخَالِدَةَ، هَذِهِ الْهَبَاتِ وَالْعَطَايَا الْمُسْتَمْرَةَ الدَّائِمَةَ.

وتقول الآية التالية تلطيفاً لنفس النبي صلى الله عليه وآله وتقوية لروحه: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا» لَأَنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ بِالنِّسْبَةِ لَكَ وَأَهْلِكَ أَسَاسَ الْعَفَّةِ وَالطَّهَارَةِ وَصِفَاءِ الْقَلْبِ وَسَمُوِّ الرُّوحِ وَدَوَامِ ذِكْرِ اللَّهِ.

إِنَّ هَذِهِ السُّورَةَ لَمَّا كَانَتْ قَدْ نَزَلَتْ فِي مَكَّةَ، فَإِنَّ مِصْدَاقَ الْأَهْلِ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ كَانَ (خَدِيجَةً وَعَلِيًّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ) إِلَّا أَنَّ مِصْطَلَحَ أَهْلِ بَيْتِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ أَصْبَحَ وَاسِعَ الدَّلَالَةِ بِمَرُورِ الزَّمَنِ.

ثم تضيف بأنه إذا كان قد صدر الأمر لك ولأهلك بالصلاة فإن نفعها وبركاتهما إنما يعود كل ذلك عليكم، فإننا «لَأَنْسَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَزْرُقُكَ» فَإِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا تَزِيدُ شَيْئًا مِنْ عِظْمَةِ اللَّهِ، بَلْ هِيَ رَأْسُ مَالٍ عَظِيمٍ لِكِتَابَةِ الْبَشَرِ وَإِرْتِقَائِهِمْ وَدَرَسِ تَعْلِيمِي وَتَرْبَوِي عَالٍ.

وتضيف الآية في النهاية: «وَالْعَقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ». فَإِنَّ مَا يَبْقَى وَيَفِيدُ فِي نِهَائِهِ الْأَمْرَ هُوَ التَّقْوَىٰ، وَالْمَتَّقُونَ هُمُ الْفَائِزُونَ فِي النِّهَائَةِ، أَمَّا الَّذِينَ لَا تَقْوَىٰ لَهُمْ فَهَمُ مَحْكُومُونَ بِالْهَزِيمَةِ وَالْإِنْكَسَارِ.

ثم أشارت الآية التالية إلى واحدة من حجج الكفار الواهية فقالت: «وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ» واجابتهم مباشرة: «أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ». حَيْثُ كَانُوا يَشْكُكُونَ وَيَطْلُبُونَ الْأَعْدَارَ بِصُورَةٍ مُتَلَحِّقَةٍ مِنْ أَجْلِ الْإِتْيَانِ بِالْمُعْجَزَاتِ، وَبَعْدَ رُؤْيِهِ وَمَشَاهِدَةٍ تِلْكَ الْمَعَاجِزِ إِسْتَمْرَوْا فِي كُفْرِهِمْ وَإِنْكَارِهِمْ، فَحَاقَ بِهِمُ الْعَذَابُ الْإِلَهِيُّ، أَفَلَا يَعْلَمُونَ بِأَنَّهُمْ إِذَا سَارُوا فِي نَفْسِ الطَّرِيقِ فَسَيَنْتَظِرُهُمُ الْمَصِيرُ نَفْسَهُ.

إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَتَدَّرِعِينَ لَيْسُوا أَنْسَاءً طَلَّابِ حَقٍّ، بَلْ إِنَّهُمْ دَائِمًا فِي صَدَدٍ إِيجَادِ أَعْدَارٍ وَتَبْرِيرَاتٍ جَدِيدَةٍ، فَحَتَّىٰ «وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنْذَلَ وَنُخْزَىٰ إِلَّا أَنَّهُمْ الْآنَ وَقَدْ جَاءَهُمْ هَذَا النَّبِيُّ الْكَرِيمُ بِهَذَا الْكِتَابِ الْعَظِيمِ، يَقُولُونَ كُلَّ يَوْمٍ كَلَامًا، وَيَخْتَلِقُونَ الْأَعْدَارَ لِلْفِرَارِ مِنَ الْحَقِّ.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٣٩

وقالت الآية التالية: أُنْذِرْ هَؤُلَاءِ وَ«قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ» فَنَحْنُ يَنْتَظِرُ الْوَعْدَ الْإِلَهِيَّةَ فِي حَقِّكُمْ، وَأَنْتُمْ يَنْتَظِرُونَ أَنْ تَحِيطَ بِنَا الْمَشَاكِلِ وَالْمِصَائِبِ «فَتَرَبَّصُوا فَسَيَتَعَلَّمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الصِّيرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنْ اهْتَدَىٰ». وَبِهَذِهِ الْجُمْلَةُ الْحَاسِمَةُ الْعَمِيقَةُ الْمَعْنَى تَنْتَهِي الْمَحَاوَرَةَ مَعَ هَؤُلَاءِ الْمُنْكَرِينَ الْعُنُودِينَ الْمَتَدَّرِعِينَ.

«نهاية تفسير سورة طه»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤١

٢١ سورة الأنبياء

محتوى السورة:

١- إن هذه السورة كما تدل عليها تسميتها هي سورة الأنبياء، لأن اسم سته عشر نبياً قد جاء في هذه السورة، بعضهم بذكر نماذج

وصور من حالاتهم، والبعض كإشارة، وهم:

موسى - هارون - إبراهيم - لوط - إسحاق - يعقوب - نوح - داود - سليمان - أيوب - إسماعيل - إدريس - ذو الكفل - ذو النون (يونس) - زكريا - يحيى عليهم السلام.

٢- إضافة إلى ما مرّ، فإنّ خاصية السور المكية التي تتحدث عن العقائد الدينيه، وبالأخصّ المبدأ والمعاد، منعكسة تماماً في هذه السورة.

٣- وتحدّث جانب آخر من هذه السورة عن إنتصار الحق على الباطل، والتوحيد على الشرك، وجنود الحق على جنود إبليس. والذي يلفت النظر هنا أنّ هذه السورة تبتدىء بتهديد الناس الغافلين الجاهلين بالحساب الشديد، وتنتهى بتهديدات اخرى في هذا المجال أيضاً.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة الأنبياء حاسبه الله حساباً يسيراً، وصافحه وسلم عليه كل نبي ذكر اسمه في القرآن».

وقد قلنا مراراً: إنّ القرآن كتاب عقيدة وعمل، والقراءة مقدمة للتفكير والتدبر، وهو مقدمة للإيمان والعمل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٢

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُورًا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ (٥)

تبدأ هذه السورة بتحذير قوى شديد موجه لعموم الناس، تحذير يهزّ الوجدان ويوقظ الغافلين، فتقول: «أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ».

إنّ عمل هؤلاء يدلّ على أنّ هذه الغفلة عمّت كل وجودهم، وإلّا فكيف يمكن للإنسان أن يؤمن بإقتراب الحساب ... الحساب الدقيق المتناهي في الدقة، ومع كل ذلك لا يكثرث بالامور ويرتكب أنواع الذنوب.

كلمة (أقترب) لها دلالة على التأكيد أكثر من (قرب) وهي إشارة إلى أنّ هذا الحساب قد أصبح قريباً جداً.

ثم إنّ الفرق بين «الغفلة» و «الإعراض» يمكن أن يكون من جهة أنّ هؤلاء غافلون عن إقتراب الحساب، وهذه الغفلة هي تسبب الإعراض عن آيات الله سبحانه.

إنّ المراد من إقتراب الحساب والقيامة هو أنّ ما بقى من الدنيا قليل في مقابل ما مضى منها، ولهذا فإنّ القيامة ستكون قريبة - قريباً نسبياً - خاصة وأنه قد روى - في تفسير مجمع البيان - عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «بعثت أنا والساعة كهاتين» وأشار إلى السبابة والوسطى اللتين تقع إحداهما إلى جنب الاخرى.

ثم تبين الآية التالية علامة من علامات إعراض هؤلاء بهذه الصورة: «مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ».

كلمة «ذكر» في الآية إشارة إلى كل كلام منبه يوقظ الغافلين، والتعبير ب (محدث) إشارة إلى أنّ الكتب السماوية كانت تنزل الواحد تلو الآخر، وتحتوي كل سورة من سور القرآن، وكل آية من آياته محتوى جديداً ينفذ إلى قلوب الغافلين بطرق مختلفة، لكن أيّ فائدة مع من يتخذ كل ذلك هزواً؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٣

ثم تقول من أجل زيادة التأكيد: «لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ» لأنهم في الظاهر يتخذون كل المسائل الجدية لهواً ولعباً. ومن الطبيعي أنّ مثل هؤلاء الأشخاص سوف لا يجدون طريق السعادة، ولا يوفقون إليه.

ثم تشير إلى جانب من الخطط الشيطانية فتقول: «وَأَسْرُورًا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ». وإذا لم يكن سوى بشر

إعتيادي، فلا بد أن تكون أعماله الخارقة ونفوذ كلامه سحراً، ولا يمكن أن يكون شيئاً آخر: «أَفْتَاتُونَ السَّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ». إن هؤلاء قد أكدوا على مسألتين في أقوالهم: إحداهما: كون النبي صلى الله عليه وآله بشراً، والاخرى: تهمة السحر، وستأتى الإتهامات الاخرى في الآيات التالية أيضاً، ويتصدى القرآن الكريم لجوابها.

إلما أن القرآن يجيبهم بصورة عامة على لسان النبي صلى الله عليه وآله فيقول: «قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ» فلا تتصوروا أن نجواكم ومؤامراتكم المخفية تخفى عليه «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» فهو يعلم كل شيء، ومطلع على كل شيء، فلا يسمع كلامكم وحسب، بل هو مطلع حتى على الأفكار التي تمر في أذهانكم، والقرارات التي في صدوركم.

بعد ذكر نوعين من تذرعات المخالفين، يتطرق القرآن إلى ذكر أربعة أنواع اخرى منها، فيقول: «يَلِّ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَمُ» (١) وهم يعتقدون أنها حقيقة.

وقد يغيرون كلامهم هذا أحياناً فيقولون: «بَلِ افْتَرِيَهُ» ونسبه إلى الله.

ويقولون أحياناً: «بَلِ هُوَ شَاعِرٌ»، وهذه الآيات مجموعة من خيالاته الشعرية.

وفي المرحلة الرابعة يقولون: إننا نتجاوز عن كل ذلك فإذا كان مرسلًا من الله حقاً «فَلْيَأْتِنَا بآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ».

إن التحقيق في هذه الإدعاءات المتضادة المتناقضة في حق النبي صلى الله عليه وآله سيوضح أنها بنفسها دليل على أنهم لم يكونوا طلاب حق، بل كان هدفهم خلق الأعداء، وإخراج خصمهم من الحلبة بآية قيمة وثمان، وبأي صورة كانت.

(١) «أضغاث»: جمع ضغث، وهو حزمة الحطب أو الأعشاب اليابسة وما شاكل ذلك؛ و «الأحلام»: جمع حلم وهو المنام والرؤية، ولما كان جمع حزمة حطب يحتاج أن يجمعوا عدده أشياء متفرقة إلى بعضها، فإن هذا التعبير اطلق على المنامات المضطربة المتفرقة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٤

مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ أَهْلُكُنَاهَا أَفْهَمْ يُؤْمِنُونَ (٦) وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٧) وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠)

كل الأنبياء كانوا بشراً: قلنا: إن سته إشكالات وإيرادات قد اعيد ذكرها في الآيات السابقة، وهذه الآيات التي نبحتها تجيب عنها، تارة بصورة عامة جامعة، واخرى تجيب عن بعضها بالخصوص. أشارت الآية الاولى إلى المعجزات المقترحة لأولئك، ونقصد منها:

المعجزات المقترحة حسب أهوائهم تذرعا، فتقول: إن جميع المدن والقرى التي أهلكتها سابقاً كانت قد طلبت مثل هذه المعاجز، ولكن لما استجيب طلبهم كذبوا بها، فهل يؤمن هؤلاء؟: «مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ أَهْلُكُنَاهَا أَفْهَمْ يُؤْمِنُونَ». وهي تذرهم بصورة ضمنية بأن الآيات لو تحققت على ما اقترحتهم لم تؤمنوا، فإن فناءكم حتمي!

ثم تطرقت الآية التالية إلى جواب الإشكال الأول - خاصة - حول كون النبي صلى الله عليه وآله بشراً، فتقول: إنك لست الوحيد في كونك نبياً، وفي نفس الوقت أنت بشر «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ» فإن هذه حقيقة تاريخية يعرفها الجميع «فَسِئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

لا شك أن «أهل الذكْرِ» تشمل من الناحية اللغوية كل العلماء والمطلعين، والآية أعلاه تبين قانوناً عقلائياً عاماً في مسألة (رجوع الجاهل إلى العالم) فإن مورد ومصداق الآية وإن كان علماء أهل الكتاب، إلا أن هذا لا يمنع من عمومية القانون، ولهذه العلة استدلت علماء وفقهاء الإسلام بهذه الآية في مسألة «جواز تقليد المجتهدين المسلمين».

ثم تعطى الآية التالية توضيحاً أكثر حول كون الأنبياء بشراً، فتقول: «وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ».

لا شك في أنه يجب أن يكون قائد البشر ومرشدهم من جنسهم، بنفس تلك الغرائز والعواطف والأحاسيس والحاجات والعلاقات

حتى يحس بالامهم وعذابهم، وليتخب

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٦

أفضل طرق العلاج باستلهامه من معلوماته ليكون قدوة واسوة لكل البشر، وقيم الحجة على الجميع.

ثم تحذر الآية وتهدد المنكرين المتعصين العنودين، فتقول: إِنَّا كُنَّا قَدْ وَعَدْنَا رَسُلَنَا بِأَنْ نَنْقِذَهُمْ مِنْ قَبْضَةِ الْأَعْدَاءِ، وَنَبْطِلَ كَيْدَ أَوْلَائِكَ الْأَشْرَارِ «ثُمَّ صَدَقْتُهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ».

أجل، فكما أن ستننا كانت إختيار قادة البشر من بين أفراد البشر، كذلك كانت ستننا أن نحميمهم من مكائد المخالفين، وإذا لم تؤثر المواعظ والنصائح المتلاحقة أثرها في المخالفين، فإننا سنظهر الأرض من وجودهم القدر.

أما آخر آية من الآيات مورد البحث، فتجيب- مرّة أخرى- في جملة قصيرة عميقة المعنى عن أكثر إشكالات المشركين، فتقول: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ». فَإِنَّ كُلَّ مَنْ يَتَدَبَّرُ آيَاتِ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي هُوَ أَسَاسُ التَّذَكُّرِ وَحَيَاةِ الْقَلْبِ، وَحِرْكَةِ الْفِكْرِ، وَطَهَارَةِ الْمَجْتَمَعِ، سَيَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّهُ مَعْجَزَةٌ وَاضِحَةٌ وَخَالِدَةٌ، وَمَعَ وجود هذه المعجزة البينة التي تظهر فيها آثار الإعجاز من جهات مختلفة ... من جهة الجاذبية الخارقة، ومن جهة المحتوى، الأحكام والقوانين، العقائد والمعارف، و... فهل لا زلتما بانتظار معجزة أخرى؟

إِنَّ كَوْنَ الْقُرْآنِ مَوْقِفًا وَمَتَبِّهًا لَا يَعْنِي إِجْبَارَهُ النَّاسَ عَلَى هَذَا الْوَعْيِ، بَلْ إِنَّ الْوَعْيَ مَشْرُوطٌ بِأَنْ يَرِيدَ الْإِنْسَانُ وَيَصْمَمُ، وَأَنْ يَفْتَحَ نَوَافِذَ قَلْبِهِ أَمَامَ الْقُرْآنِ.

وَ كَمْ قَصِيْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَّا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مِيَآ أْتَرَفْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ (١٣) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)

كيف وقع الظالمون في قبضة العذاب: تبين هذه الآيات مصير المشركين والكافرين مع مقارنته بمصير الأقسام الماضين، وذلك بعد البحث الذي مرّ حول هؤلاء. فتقول الآية الاولى:

«وَ كَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٧

«القصم»: يعنى الكسر المقترن بالشدة، فإنها توحى بأن الله سبحانه قد أعد أشد العقاب والانتقام للأقسام الظالمين الجائرين. عند ذلك توضح الآية حال هؤلاء عندما تتسع دائرة العذاب لتشمل ديارهم العامرة، وعجزهم أمام العقاب الإلهي، فتقول: «فَلَمَّا أَحْسَبُوا بِأَسِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ» (١).

إِلَّا أَنَّهُ يُقَالُ لَهُؤَلَاءِ مِنْ بَابِ التَّوْبِيخِ وَالتَّقْرِيعِ: «لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أْتَرَفْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ».

إِنَّ هَذِهِ الْعِبَارَةُ قَدْ تَكُونُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ هؤَلَاءِ حِينَمَا كَانُوا غَارِقِينَ فِي تِلْكَ النِّعْمَةِ الْوَفِيرَةِ، كَانَ السَّائِلُونَ وَطَالِبُو الْحَاجَاتِ يَتَرَدَّدُونَ دَائِمًا إِلَى أَوْبَابِهِمْ، يَأْتُونَ وَالْأَمَلُ يَقْدَمُهُمْ، وَيَرْجِعُونَ بِالْخَيْبَةِ وَالْحَرَمَانِ، فَالْآيَةُ تَقُولُ لَهُمْ: إِرْجِعُوا وَأَعِيدُوا ذَلِكَ الْمَشْهَدَ الْعَيْنِ، وَهَذَا فِي الْحَقِيقَةِ نَوْعٌ مِنَ الْاسْتِهْزَاءِ وَالْمَلَامَةِ.

إِنَّ هؤَلَاءِ يَعُونَ فِي هَذَا الْوَقْتِ حَقِيقَةَ الْأَمْرِ، وَيُرُونَ مَا كَانُوا يَسْخَرُونَ مِنْهُ مِنْ قَبْلِ قَدْ تَجَلَّى أَمَامَهُمْ بِصُورَةٍ جَدِيدَةٍ تَمَامًا، فَتَعْلُو صرْخَتَهُمْ: «قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».

إِلَّا أَنَّ هَذَا الْوَعْيَ الْاضْطْرَارِي لِلْإِنْسَانِ عِنْدَمَا يُوَاجِهُ مَشَاهِدَ الْعَذَابِ لَا قِيمَةَ لَهُ، وَلَا يُؤَثِّرُ فِي تَغْيِيرِ مَصِيرِ هؤَلَاءِ، وَلِذَلِكَ فَإِنَّ الْقُرْآنَ فِي آخِرِ آيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ مَحَلُّ الْبَحْثِ يَضِيفُ:

«فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا» فَيَلْقُونَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ كَالزَّرْعِ الْمَحْصُودِ، وَتَبْدَلُ مَدِينَتَهُمُ الَّتِي غَمَرَتْهَا الْحَيَاةُ وَالْحَرَكَةُ

والعمران إلى قبور مهذمة مظلمة، فيصبحوا «خمدين» (٢).

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ (١٨)

خلق السماء والأرض ليس لهواً؛ لما كانت الآيات السابقة قد عكست هذه الحقيقة وهي: إن الظالمين الذين لا إيمان لهم لا يعتقدون بوجود هدف وغاية من خلقهم إلا الأكل

(١) «الركض»: يأتي بمعنى ركض الإنسان بنفسه، أو بمعنى إركاض المركب والدابة، ويأتي أحياناً بمعنى ضرب الرجل على الأرض؛ مثل «أرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ» - سورة ص / ٤٢.

(٢) «خامد»: من مادة الخمود، بمعنى إنطفاء النار، ثم اطلقت على كل شيء يفقد حرته وفاعليته ونشاطه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٨

والشرب والملذات، ويظنون أن العالم بلا هدف، القرآن الكريم يقول في الآيات التي نبحتها من أجل إبطال هذا النوع من التفكير، وإثبات وجود هدف عال وسام من وراء خلق كل العالم، وخاصة البشر: «وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ».

إن هذه الأرض الواسعة، وهذه السماء المترامية الأطراف، وكل هذه الموجودات المتنوعة البديعة التي توجد في ساحتها تبين أن هدفاً مهماً في خلقها ... نعم، إن الهدف هو بيان قدرة الخالق الجليل، وإبراز جانب من عظمته من جهة، ومن جهة أخرى ليكون دليلاً على المعاد، وإلا فإن كل هذه الضججة والغوغاء إن كانت لبضعة أيام فلا معنى لها.

ثم تقول الآية التالية: الآن وقد ثبت أن العالم له هدف فإنه لا ريب في أن الهدف من هذا الخلق لم يكن أن يلهو الله سبحانه وتعالى عن ذلك، فإن هذا الله غير معقول، ف «لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُنَّا فَاعِلِينَ». «اللعب»: يعني العمل غير الهادف، و «اللهو»:

إشارة إلى الأهداف غير المعقولة والملاهي.

هذه الآية تبين حقيقتين:

الاولى: أنه تشير إلى أن من المحال أن يكون هدف الله هو اللهو.

والاخرى: إنه على فرض أن الهدف هو اللهو، فيجب أن يكون لهواً مناسباً لذاته، كأن يكون من عالم المجردات وأمثال ذلك، لا من عالم المادة المحدود.

ثم تقول بلهجة قاطعة من أجل إبطال أوهم الجاهلين الذين يظنون عدم هدفية الدنيا، بل هي للهو واللعب فقط: إن هذا العالم مجموعة من الحق والواقع، ولم يقم أساسه على الباطل «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ». وتقول في النهاية: «وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ» وتحدثون عن عدم هدفية الخلق.

أى إننا نجعل الأدلة العقلية والاستدلالات الواضحة والمعجزات البينة إلى جانب ظنون وأوهام اللاهدين، لتبخر وتتلاشى هذه الأوهام في نظر العلماء وأصحاب الفكر والرأى.

«نقذف»: من مادة «قذف» بمعنى الإلقاء، وخاصة الإلقاء من طريق بعيد، ولما كان للقذف من بعيد سرعة وقوة أكثر، فإن هذا التعبير يبين قدرة إنتصار الحق على الباطل.

«يدمغه»: (على قول الراغب) كسر «الجمجمة والدماغ»، وتعتبر أكثر نقطة في بدن الإنسان حساسية، وهو تعبير بليغ عن غلبه جند الحق غلبه واضحة قاطعة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٤٩

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠) أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْسِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)

كان الكلام في الآيات السابقة عن أن عالم الوجود ليس عبثياً لا هدف من ورائه، فلا مزاح ولا عبث، ولا لهو ولا لعب، بل له هدف تكاملي دقيق للبشر.

ولما كان من الممكن أن يوجد هذا التوهم، وهو: ما حاجة الله إلى إيماننا وعبادتنا؟ فإن الآيات التي نبحتها تجيب أولاً عن هذا التوهم، وتقول: «وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ (أى: الملائكة) لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ» (١). ومع هذا الحال فأى حاجة لطاعتكم وعبادتكم؟ فإذا كنتم قد امرتم بالإيمان والعمل الصالح والعبودية فإن كل ذلك سيعود بالنفع عليكم.

وبعد أن نفت في الآيات السابقة عبثية ولا هدفية عالم الوجود، وأصبح من المسلم أن لهذا العالم هدفاً مقدساً، فإن هذه الآيات تتطرق إلى بحث مسألة وحدة المعبود ومدبر هذا العالم، فتقول: «أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْسِرُونَ» (٢). وهذه الجملة إشارة إلى أن المعبود يجب أن يكون خالقاً، وخاصة خلق الحياة، لأنها أوضح مظاهر الخلق ومصاديقه. التعبير «آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ» إشارة إلى الأصنام والمعبودات التي كانوا يصنعونها من الحجارة والخشب، وكانوا يظنونها حاكمة على السماوات.

(١) «يستحسرون»: في الأصل من مادة حسر، وفي الأصل تعنى رفع النقاب والستار عن الشيء المغطى، ثم استعملت بمعنى التعب والضعف، فكأن كل قوى الإنسان تصرف في مثل هذه الحالة، ولا يبقى منها شيء مخفى في بدنه.

(٢) «ينشرون»: من مادة نشر، أى فك الشيء المعقد الملفوف، وهو كناية عن الخلق وإنتشار المخلوقات في أرجاء الأرض والسماء.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٠

مختصر الامثل ج ٣، ص: ٢٩٩

وتبين الآية التالية أحد الأدلة الواضحة على نفى آلهة وأرباب المشركين، فتقول: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ».

هذه الإدعاءات غير الصحيحة وهذه الأرباب المصنوعة والآلهة المظنونة ليست إلا أوهاماً، وساحة كبرياء ذاته المقدسة لا تتلوث بهذه النسب المغلوطة.

إن الدليل الوارد في الآية آنفة الذكر الذى يتحرك لإثبات التوحيد ونفى الآلهة، فى الوقت الذى هو بسيط وواضح، فإنه من البراهين الفلسفية الدقيقة فى هذا الباب، ويذكره العلماء تحت عنوان (برهان التمانع). ويمكن إيضاح خلاصة هذا البرهان بما يلى:

إننا نرى نظاماً واحداً حاكماً فى هذا العالم، إن إنسجام القوانين وأنظمة الخلق هذه يحكى أنها تنبع من عين واحدة، لأن البدايات إن كانت متعددة، والإرادات مختلفة، لم يكن يوجد هذا الإنسجام مطلقاً. لأن لكل واحدة قضاء، وكانت الاخرى تمحو أثر الاولى، وسيؤول العالم إلى الفساد عندئذ.

وبعد أن ثبت بالإستدلال الذى ورد فى الآية توحيد مدبر ومدير هذا العالم، فتقول الآية التالية: إنه قد نظم العالم بحكمة لا مجال فيها للإشكال والإنتقاص ولا أحد يعترض عليه فى خلقه: «لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ».

إن لدينا نوعين من الأسئلة:

الأول: السؤال التوضيحي، وهو أن يكون الإنسان يريد أن يعلم النقطة الأصلية والهدف الحقيقي من المسائل، ومثل هذا السؤال جائز حتى حول أفعال الله.

أمّا النوع الثاني: فهو السؤال الإعتراضي، والذي يعنى أن العمل الذي تمّ كان خطأً. من المسلم أن هذا النوع من السؤال لا معنى له حول أفعال الله الحكيم، إلّا أن مجال هذا السؤال حول أفعال الآخرين واسع.

وتشتمل الآية التالية على دليلين آخرين في مجال نفى الشرك، فمضافاً إلى الدليل السابق يصبح مجموعها ثلاثة أدلة. تقول الآية أولاً: «أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ إِلَهًا قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ». وهو إشارة إلى أنكم إذا صرفتم النظر عن الدليل السابق القائم على أن نظام عالم الوجود دليل على التوحيد، فإنه لا يوجد أي دليل - على الأقل - على إثبات الشرك والوهية هذه الآلهة، فكيف يتقبل إنسان عاقل مطلباً لا دليل عليه؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥١

ثم تشير إلى الدليل الأخير فتقول: «هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي» وهذا هو الدليل الذي ذكره علماء العقائد تحت عنوان: (إجماع وإتفاق الأنبياء على التوحيد).

ولما كانت كثرة المشركين (وخاصة في ظروف حياة المسلمين في مكة، والتي نزلت فيها هذه السورة) مانعاً أحياناً من قبول التوحيد من قبل بعض الأفراد، فهي تضيف: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ».

لقد كانت مخالفة الأكثرية الجاهلة في كثير من المجتمعات دليلاً وحجة لإعراض الغافلين الجاهلين دائماً، وقد إنتقد القرآن الإستناد إلى هذه الأكثرية بشدة في كثير من الآيات، سواء التي نزلت في مكة أو المدينة.

ولما كان من المحتمل أن يقول بعض الجهلة الغافلين أن لدينا أنبياء كعيسى مثلاً دعوا إلى آلهة متعددة، فإن القرآن الكريم يقول في آخر آية من الآيات محل البحث بصراحة تامة:

«وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لِلَّهِ إِلًّا أَنَا فَاعْبُدُونِ». وبهذا يثبت أنه لا عيسى ولا غيره قد دعا إلى الشرك، ومثل هذه النسبة إليه تهمة وإفراء.

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَغْلِبُهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَ لَمْ يَشْفَعُوا إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشِيَّتِهِ مُسْتَفْقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)

لما كان الكلام في آخر آية عن الأنبياء، ونفى كل أنواع الشرك، ونفى كون المسيح عليه السلام ولداً، فإن كل الآيات محل البحث تتحدث حول نفى كون الملائكة أولاداً.

وتوضيح ذلك أن كثيراً من مشركي العرب كانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله سبحانه، ولهذا السبب كانوا يعبدونها أحياناً، والقرآن الكريم إنتقد هذه العقيدة الخرافية التي لا أساس لها، وبين بطلانها بالأدلة المختلفة. يقول أولاً: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا». فإن كان مرادهم الولد الحقيقي، فإنه يلزم من هذا الجسمية، وإن كان المراد التنبى - والذي كان إعتيادياً ومتداولاً بين العرب - فإن ذلك أيضاً دليل على الضعف والإحتياج، إلّا أن الوجود الأزلي الأبدى وغير الجسماني، وغير المحتاج من جميع الجهات، لا معنى لوجود الولد له، ولذلك فإن القرآن يقول مباشرة: «سُبْحَانَهُ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٢

ثم تبين أوصاف الملائكة في ستة أقسام تشكل بمجموعها دليلاً واضحاً على نفى كونهم أولاداً:

١- «بَلْ عِبَادٌ».

٢- «مُكْرَمُونَ».

فليس هؤلاء عبادةً هاربيين خضعوا للخدمة تحت ضغط المولى، ولذلك فإن الله سبحانه قد أحبهم، وأفاض عليهم من مواهبه نتيجة لإخلاصهم في العبودية.

٣- إن هؤلاء على درجة من الأدب والخضوع والطاعة لله بحيث «لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ».

٤- وكذلك من ناحية العمل أيضاً فهم مطيعون «وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ».

فهل هذه صفات الأولاد، أم صفات العبيد؟

ثم أشارت إلى إحاطة علم الله بهؤلاء فتقول: إن الله تعالى يعلم أعمالهم الحاضرة والمستقبلية، وكذلك أعمالهم السالفة، وأيضاً يعلم ما في دنياهم وآخرتهم، وقبل وجودهم وبعده: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ» ومن المسلم أن الملائكة مطلعون على هذا الموضوع، وهو أن لله إحاطة علمية بهم، وهذا العرفان هو السبب في أنهم لا يسبقونه بالقول، ولا يعصون أمره، ولهذا فإن هذه الجملة يمكن أن تكون بمثابة تعليل للآية السابقة.

٥- ولا شك أن هؤلاء الذين هم عباد الله المكرمون المحترمون يشفعون للمحتاجين، لكن ينبغي الالتفات إلى أن هؤلاء «وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى».

ثم إن هذه الجملة تجيب ضمناً أولئك الذين يقولون: إننا نعبد الملائكة لتشفع لنا عند الله، فيقول القرآن لهم: إن هؤلاء لا يقدر على فعل شيء من تلقاء أنفسهم، وكل ما تريدونه يجب أن تطلبوه من الله مباشرة، وحتى إذن شفاعة الشافعين.

٦- ونتيجة لهذه المعرفة والوعى «وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ».

«الخشية»: تعنى الخوف المقترن بالتعظيم والإحترام؛ و «مشفق»: من مادة الإشفاق، بمعنى التوجه الممتزج بالخوف، لأنها في الأصل مأخوذة من الشفق، وهو الضياء الممتزج بالظلمة. فبناءً على هذا، فإن خوف الملائكة ليس كخوف الإنسان من حادثه مرعبه مخيفه، وكذلك إشفاقهم فإنه لا يشبه خوف الإنسان من موجود خطر، بل إن خوفهم وإشفاقهم ممزوجان بالإحترام، والعناية والتوجه، والمعرفة والإحساس بالمسؤولية.

من الواضح أن الملائكة مع هذه الصفات البارزة والممتازة، ومقام العبودية الخالصة لا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٣

يدعون الالوهية مطلقاً، أمّا إذا فرضنا ذلك «وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ». إن إدعاء الالوهية في الحقيقة مصداق واضح على ظلم النفس والمجتمع، ويندرج في القانون العام «كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ».

أَ وَ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَ فَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَ جَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَ هُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ (٣٢) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

علامات اخرى لله في عالم الوجود: تعقياً على البحوث السابقة حول عقائد المشركين الخرافية، والأدلة التي ذكرت على التوحيد، فإن في هذه الآيات سلسلة من براهين الله في عالم الوجود، وتدبيره المنظم، وتأكيده على هذه البحوث تقول أولاً: «أَوَلَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَ فَلَا يُؤْمِنُونَ».

إن المراد من رتق السماء هو أنها لم تكن تمطر في البداية، والمراد من رتق الأرض أنها لم تكن تنبت النبات في ذلك الزمان، إلا أن الله سبحانه فتح الإثنين، فأنزل من السماء المطر، وأخرج من الأرض أنواع النباتات.

وأما فيما يتعلق بإيجاد كل الكائنات الحية من الماء، فهناك تفسيران مشهوران:

أحدهما: إن حياة كل الكائنات الحية - سواء كانت النباتات أم الحيوانات - ترتبط بالماء، هذا الماء الذي كان مبدؤه المطر الذي نزل من السماء.

والآخر: إن الماء هنا إشارة إلى النطفة التي تتولد منها الكائنات الحية عادةً.

وما يلفت النظر أن علماء عصرنا الحديث يعتقدون أن أول إنشائه للحياة وجدت في أعماق البحار، ولذلك يرون أن بداية الحياة من الماء، وإذا كان القرآن يعتبر خلق الإنسان من التراب، فيجب أن لا ننسى أن المراد من التراب هو الطين المركب من الماء والتراب. وأشارت الآية التالية إلى جانب آخر من آيات التوحيد ونعم الله الكبيرة، فقالت:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٤

«وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ» (١).

إن الجبال كالدرع الذى يحمى الأرض، وهذا هو الذى يمنع - إلى حد كبير - من الزلازل الأرضية الشديدة التى تحدث نتيجة ضغط الغازات الداخلية، إضافة إلى أن وضع الجبال هذا يقلل من حركات القشرة الأرضية أمام ظاهرة المدّ والجزر الناشئة بواسطة القمر إلى الحد الأدنى.

ومن جهة اخرى فلولا الجبال، فإن سطح الأرض سيكون معرضاً للرياح القوية دائماً، وسوف لا تستقر على حال أبداً، كما هي حال الصحارى المقفرة المحرقة.

ثم أشارت الآية إلى نعمة اخرى، وهى أيضاً من آيات عظمة الله، فقالت: «وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ».

ولو لم تكن هذه الوديان والفجاج، فإن سلاسل الجبال العظيمة الموجودة فى المناطق المختلفة من الأرض كانت ستفصل بعضها عن بعض بحيث ينفصل إرتباطها تماماً، وهذا يدل أن هذه الظواهر الكونية خلقت كلها وفق حساب دقيق.

ولما كان إستقرار الأرض لا يكفى لوحده لإستقرار حياة الإنسان، بل يجب أن يكون آمناً مما فوقه، فإن الآية التالية تضيف: «وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ».

المراد من السماء هنا هو الجو الذى يحيط بالأرض دائماً، وتبلغ ضخامته مئات الكيلومترات كما توصل إليه العلماء.

وهذه الطبقة رقيقة ظاهراً، وتتكون من الهواء والغازات، وهى محكمة ومنيعه إلى الحد الذى لا ينفذ جسم من خارجها إلى الأرض إلّا ويبنى ويتحطم، فهى تحفظ الكرة الأرضية من سقوط الشهب والنيازك «ليل نهار» التى تعتبر أشد خطراً حتى من القذائف والصواريخ الحربية.

إضافة إلى أن هذا الغلاف الجوى يقوم بتصفيه أشعة الشمس التى تحتوى على أشعة قاتلة وتمنع من نفوذ تلك الأشعة الكونية القاتلة. وتطرت الآية الأخيرة إلى خلق الليل والنهار والشمس والقمر، فقالت: «وَهُوَ الَّذِى

(١) «رواسى»: جمع راسية، أى الجبال الثابتة، ولما كانت هذه الجبال تتصل جذورها، فيمكن أن تكون إشارة إلى هذا الإرتباط؛ و

«تميد»: من الميد، وهو الهزة والحركة غير الموزونة للأشياء الكبيرة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٥

خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ».

إن المراد من حركة الشمس فى الآية إما الدوران حول نفسها، أو حركتها ضمن المنظومة الشمسية.

وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥)

الموت يترتب بالجميع: قرأنا فى الآيات السابقة أن المشركين قد تشبثوا بمسألة كون النبی صلى الله عليه وآله بشراً من أجل التشكيك بنبوته. إن الآيات محل البحث أشارت إلى بعض إشكالات هؤلاء، فهم يشيعون تارة أن إنتفاضة النبی (وفى نظرهم شاعر) لا دوام لها، وسيتهى بموته كل شىء، كما جاء فى الآية (٣٠) من سورة الطور: «أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ».

وكانوا يظنون تارةً اخرى أنّ هذا الرجل لما كان يعتقد أنّه خاتم النبيين، فيجب أن لا يموت أبداً ليحفظ دينه، وبناء على هذا فإنّ موته في المستقبل سيكون دليلاً على بطلان إدعائه. فيجيهم القرآن في أول آية فيقول: «وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ». إنّ قانون الخلقه هذا لا يقبل التغيير، أي أنّه لا يكتب لأحد الخلود، وإذا كان هؤلاء يفرحون بموتك: «أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ». إنّ بقاء الشريعة والدين لا يحتاج إلى بقاء الرسول، فمن الممكن أن يستمر خلفاؤه في إقامة دينه والسير على خطاه. ثم يذكر قانون الموت العام الذي يصيب كل النفوس بدون استثناء فيقول: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ».

إنّ لفظه (النفوس) قد استعملت في القرآن بمعانٍ مختلفة، فأول معنى للنفوس هو الذات، وهذا المعنى واسع يطلق حتى على ذات الله المقدسة، كما جاء في الآية (١٢) من سورة الأنعام: «كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِي الرَّحْمَةَ».

ثم استعملت هذه الكلمة في الإنسان، أي مجموع جسمه وروحه، كما في الآية (٣٢) من سورة المائدة: «مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا».

واستعملت أحياناً في خصوص روح الإنسان كما في الآية (٩٣) من سورة الأنعام: «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٦

والمراد من النفس في الآيات التي نبهتها هو المعنى الثاني.

وبعد ذكر قانون الموت الكلي يطرح هذا السؤال، وهو: ما هو الهدف من هذه الحياة الزائلة؟ وأي فائدة منها؟

فيقول القرآن حول هذا الكلام: «وَتَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ». أي: إنّ مكانكم الأصلي ليس هو هذه الدنيا، بل هو مكان آخر، وإنّما تأتون هنا لتؤدّوا الإختبار والامتحان، وبعد إكتسابكم التكامل اللازم سترجعون إلى مكانكم الأصلي وهو الدار الآخرة. وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَلَا هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَمَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٤٠)

نواجه في هذه الآيات مرّةً اخرى، بحثاً اخرى حول موقف المشركين من رسول الله صلى الله عليه وآله، حيث يتضح نمط تفكيرهم المنحرف في المسائل الاصولية، فنقول أولاً: «وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا». فهؤلاء لا عمل لهم إلا السخرية والاستهزاء، ويشيرون إليك بعدم إكتراث ويقولون: «أهذا الذي يذكُرُ آلهتكم وهم يذكُرُ الرَّحْمَنِ هُمْ كَفِرُونَ».

مما يثير العجب هو أنّه لو إزدري أحد هذه الأصنام الخشبية والحجرية (وما هو بمزدر لها، بل يُفصح عن حقيقتها) فيقول: إنّ هذه موجودات لا روح فيها ولا شعور ولا قيمة لها، لتعجبوا منه، أمّا إذا جحد أحدهم ربّه الرحمن الرحيم الذي عمّت آثار رحمته وعظمته الأرض والسماء وما من شيء إلا وفيه دليل على عظمته ورحمته، لما أثار إعجابهم.

ثم تشير إلى أمر آخر من الامور القبيحة لدى هذا الإنسان المتحلّل، فنقول: «خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٥٧

إنّ المراد من الإنسان هنا نوع الإنسان؛ والمراد من «عجل» هي العجلة والتعجيل.

إنّ تعبير «خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ» نوع من التأكيد، أي إنّ الإنسان عجول إلى درجة أنّه خلق من العجلة، وتشكّلت أنسجته ووجوده منها! وفي الواقع، فإنّ كثيراً من البشر العاديين هم على هذه الشاكلة، فهم عجولون في الخير وفي الشر.

وتضيف الآية في النهاية: «سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ».

التعبير ب (آياتي) هنا يمكن أن يكون إشارة إلى آيات العذاب وعلاماته والبلاء الذي كان يهدّد به النبي صلى الله عليه وآله ومخالفه، ولكن هؤلاء الحمقى كانوا يقولون مراراً: فأين تلك الإبتلاءات والمصائب التي تخوّفنا بها؟ فالقرآن الكريم يقول: لا تعجلوا

فلا يمضى زمن طويل حتى تحيط بكم.

ثم يشير القرآن إلى إحدى مطالب اولئك المستعجلين فيقول: «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ». فهؤلاء غافلون عن أن قيام القيامة يعنى تعاستهم وشقاءهم المرير.

وتجيبهم الآية التالية فتقول: «لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَمَّا يَكْفُفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَمَّا عَنِ ظُهُورِهِمْ وَلَمَّا هُمْ يُنصِرُونَ». أى إن هذه الأصنام التى يظنون أنها ستكون شفيعة لهم وناصرة، لا تقدر على أى شىء.

مما يلفت النظر أن العقوبة الإلهية لا يعين وقتها دائماً «بَلْ تَأْتِيهِمْ بَعْتَهُ فِتْنَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا» وحتى إذا استمهلوا، وطلبوا التأخير على خلاف ما كانوا يستعجلون به إلى الآن، فلا يجابون «وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ».

وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكُمْ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْنَا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥)

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٢٥٨

لاحظنا فى الآيات السابقة أن المشركين والكفار كانوا يستهزئون برسول الله صلى الله عليه وآله، فتقول الآية الأولى تسلياً للنبي: لست الوحيد الذى يستهزأ به «وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكُمْ». ولكن فى النهاية نزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزئون به «فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ».

وتقول الآية التالية: قل لهم إن أحداً لا يدافع عنكم أمام عذاب الله فى القيامة، بل وفى هذه الدنيا: «قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ». أى من عذابه، فلو أن الله سبحانه لم يجعل السماء- أى الجو المحيط بالأرض سقفاً محفوظاً كما مر فى الآيات السابقة- لكان هذا وحده كافياً أن تتهاوى النيازك وتمطركم الأجرام السماوية بأحجارها ليل نهار.

مما يستحق الإنتباه أن كلمة «الرحمن» قد استعملت مكان (الله) فى هذه الآية، أى انظروا إلى أنفسكم كم إقترفت من الذنوب حتى أغضبتم الله الذى هو مصدر الرحمة العامة؟!

ثم تضيف: «يَلْهُمُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ» فلا- هم يصغون إلى مواعظ الأنبياء ونصحهم، ولا- تهزّ قلوبهم نعم الله وذكره، ولا يستعملون عقولهم لحظة فى هذا السبيل.

ثم يسأل القرآن الكريم: أى شىء يعتمد عليه هؤلاء الكافرين الظالمين والمجرمين فى مقابل العقوبات الإلهية؟ «أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنْنَا يُصْحَبُونَ» (١). فهذه الأصنام لا تستطيع أن تنقذ نفسها من العذاب، ولا تكون مصحوبة بتأييدنا ورحمتنا.

ثم أشارت الآية التالية إلى أحد علل تمرد وعصيان الكافرين المهمة، فتقول: «بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ». إلا أن هذا العمر الطويل والنعم الوفيرة بدل أن تحرك فيهم حس الشكر والحمد، ويطأطأ رؤوسهم لعبودية الله، فإنها أصبحت سبب غرورهم وطغيانهم.

ولكن ألا يرى هؤلاء أن هذا العالم ونعمه زائلة؟ «أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا». فإن الأقوام والقبائل تأتى الواحدة تلو الاخرى وتذهب، وحتى العلماء والعظماء

(١) «يصحبون»: من باب الإفعال، وفى الأصل يعنى أن يجعلوا شيئاً تحت تصرفهم بعنوان المساعدة والحماية، وهو هنا يعنى أن هذه الأصنام لا تملك الدفاع ذاتياً، ولا وضعت تحت تصرفها مثل هذه القوة من قبل الله تعالى، ونحن نعلم أن أية قوة دفاعية فى عالم

الوجود إما أن تنبع من ذات الشيء، أو تمنح له من قبل الله تعالى. أي أنها إما ذاتية أو عرضية.

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٢٥٩

الذين كان بهم قوام الأرض قد أغمضوا أعينهم وودّعوا الدنيا! ومع هذا الحال «أَفَهْمُ الْعَالِيُونَ». إن الآية تريد أن تبين أن موت الكبار والعظماء والأقوام درس وعبرة للكافرين المغرورين الجاهلين ليعلموا أن محاربة الله تعالى لا تنتج سوى الإندحار.

ثم تقرّر الآية حقيقة أن وظيفة النبي صلى الله عليه وآله هي إنذار الناس عن طريق الوحي الإلهي، فتوجّه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله، فتقول: «قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ» وإذا لم يؤثر في قلوبكم القاسية، فلا- عجب من ذلك، وليس ذلك دليلاً على نقص الوحي الإلهي، بل السبب هو «وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ».

إنّ الاذن السميعة يلزمها أن تسمع كلام الله، أما الأذان التي أصمّتها حجب الذنوب والغفلة والغرور فلا تسمع الحقّ مطلقاً. وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧)

بعد أن كانت الآيات السابقة تعكس حالة غرور وغفلة الأفراد الكافرين، تقول الآية الاولى أعلاه: إن هؤلاء المغرورين لم يذكروا الله يوماً في الرخاء، ولكن: «وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ».

«نفحة»: تعني الشيء القليل، أو النسيم اللطيف، وبالرغم من أن هذه الكلمة تستعمل غالباً في نسمات الرحمة والنعمة غالباً، إلا أنها تستعمل في مورد العذاب أيضاً.

ولو انتبهوا حينئذ، فما الفائدة؟ فإنّ هذه اليقظة الاضطرارية لا تنفعهم.

أما الآية الأخيرة التي نبحتها فتشير إلى حساب القيامة الدقيق، وجزائها العادل، ليعلم الكافرون والظالمون أن العذاب على فرض أنه لم يعمهم في هذه الدنيا، فإنّ عذاب الآخرة حتمي، وسيحاسبون على جميع أعمالهم بدقة، فتقول: «وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ».

ونقرأ في الروايات الإسلامية أن موازين الحساب في القيامة هم الأنبياء والأئمة

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٢٦٠

والصالحون الذين لا توجد نقطة سوداء في صحيفة أعمالهم.

«القسط»: يعني أحياناً عدم التبعض، وأحياناً يأتي بمعنى العدالة بصورة مطلقة، وما يناسب المقام هو المعنى الثاني، ولهذا تضيف مباشرة: «فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا» فلا ينقص من ثواب المحسنين شيء، ولا يضاف إلى عقاب المسيئين شيء.

إلا أن نفى الظلم والجور هذا لا يعني عدم الدقة في الحساب، بل «وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ».

«الخردل»: نبات له حبة صغيرة جداً يضرب المثل بها في الصغر والحقارة.

لمحة من قصص الأنبياء: ذكرت هذه الآيات وما بعدها جوانب من حياة الأنبياء المشفوعة بأمور تربوية بالغة الأثر، وتوضّح البحوث السابقة حول نبوة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ومواجهته المخالفين بصورة أجلى مع ملاحظة الاصول المشتركة الحاكمة عليها.

تقول الآية الاولى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ».

«الفرقان»: يعني في الأصل الشيء الذي يميّز الحق عن الباطل، وهو وسيلة لمعرفة الإثنين. إن من الممكن أن يكون الفرقان إشارة إلى

التوراة، وإلى سائر معجزات ودلائل موسى عليه السلام.

ثم تعرّف الآية التالية المتقين بأنهم «الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ».

ولكلمة «الغيب» هنا تفسيران: الأول: إنه إشارة إلى ذات الله المقدّسة، أي مع أن الله سبحانه غائب عن الأنظار، فإنّ هؤلاء آمنوا به بدليل العقل.

والآخر: إن المتقين لا يخافون الله في العلانية وبين المجتمع فقط، بل يعلمون أنه حاضر وناظر إليهم حتى في خلواتهم.

فإنَّ المتقين يحبون يوم القيامة، لأنه مكان الثواب والرحمة، إلا أنهم في الوقت نفسه مشفقون من حساب الله فيه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦١

وقارنت الآية الأخيرة بين القرآن وباقي الكتب السابقة: «وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ». فهل ينكر مثل هذا الكتاب الذي يستبطن أدلته أحقيته فيه، وقد سطعت نورانيته، والذين يسرون في طريقه سعادة منتصرون؟!

ولكى نعرف مدى أثر القرآن في التوعية وما له من البركات، فيكفى أن نرى حال سكان جزيرة العرب قبل نزول القرآن عليهم، إذ كانوا يعيشون في جاهلية جهلاء وفقر وتعاسة وتفزق وتمزق، ثم نرى حالهم بعد نزول القرآن حيث أصبحوا أسوة ومثلاً حسناً للآخرين، ونرى كذلك حال الأقوام الآخرين قبل وصول القرآن إليهم وبعده.

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاءً إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)

قلنا: أن هذه السورة تحدثت عن جوانب عديدة من حالات الأنبياء، فقد اشير في الآيات السابقة إشارة قصيرة إلى رسالته موسى وهارون عليهما السلام، وعكست هذه الآيات وبعض الآيات الآتية جانباً مهماً من حياة إبراهيم عليه السلام ومواجهته لعبدة الأصنام، فتقول أولاً: «وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ». «الرشد»: في الأصل بمعنى السير إلى المقصد والغاية، ومن الممكن أن يكون هنا إشارة إلى حقيقة التوحيد، وأن إبراهيم عرفها وأطلع عليها منذ سنى الطفولة، وقد يكون إشارة إلى كل خير وصلاح بمعنى الكلمة الواسع.

والتعبير ب «مِنْ قَبْلُ» إشارة إلى ما قبل موسى وهارون عليهما السلام.

ثم أشارت إلى أحد أهم مناهج إبراهيم عليه السلام، فقالت: إنَّ رشد إبراهيم قد بان عندما قال لأبيه وقومه - وهو إشارة إلى عمه آزر، لأنَّ العرب تسمى العم أباً- ما هذه التماثيل التي تعبدونها؟ «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ».

وجملة «أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ» بملاحظة معنى «العكوف»: الذي يعنى الملازمة المقترنة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦٢

بالاحترام، توحى بأن أولئك كانوا يحبون الأصنام، وكأنهم كانوا ملازميها دائماً.

إنَّ مقولة إبراهيم عليه السلام هذه استدلال على بطلان عبادة الأصنام، لأنَّ ما نراه من الأصنام هو المجسمة والتمثال، والباقي خيال وظن وأوهام.

إلا أن عبدة الأصنام لم يكن عندهم - في الحقيقة - جواب أمام هذا المنطق السليم القاطع، سوى أن يبعدوا المسألة عن أنفسهم ويلقوها على عاتق آبائهم، ولهذا «قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ».

ولمَّا كانت حجتهم بأن «هذه العبادة هي سنة الآباء» غير مجدية نفعاً ... ولا نمتلك دليلاً على أن السابقين من الآباء والأجداد أعقل وأكثر معرفة من الأجيال المقبلة، بل القضية على العكس غالباً، لأنَّ العلم يتسع بمرور الزمن، فأجابهم إبراهيم مباشرة ف «قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

إنَّ هذا التعبير المقترن بأنواع التأكيدات، والحكاكى عن الحزم التام سبب أن يرجع عبدة الأصنام إلى أنفسهم قليلاً، ويتوجهوا إلى التحقق من قول إبراهيم، فأتوا إلى إبراهيم «قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ» لأنَّ أولئك الذين كانوا قد إعتادوا على عبادة الأصنام، وكانوا يظنون أن ذلك حقيقة حتمية، ولم يكونوا يصدقون أن أحداً يخالفها بصورة جديده، ولذلك سألوهم إبراهيم هذا السؤال تعجباً.

إِلَّا أَنْ إِبْرَاهِيمَ أَجَابَهُمْ بِصِرَاحَةٍ: «قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ».

إنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ بَيَّنَّ بِهَذِهِ الْكَلِمَاتِ الْقَاطِعَةَ أَنَّ الَّذِي يَسْتَحِقُّ الْعِبَادَةَ هُوَ خَالِقُهُمْ وَخَالِقُ الْأَرْضِ وَكُلِّ الْمَوْجُودَاتِ.

وَمِنْ أَجْلِ أَنْ يَثْبُتَ إِبْرَاهِيمَ جَدِيَّةَ هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَأَنَّهُ ثَابِتٌ عَلَىٰ عَقِيدَتِهِ إِلَىٰ أَعْدَادِ الْحُدُودِ، وَأَنَّهُ يَتَقَبَّلُ كُلَّ مَا يَتَرْتَّبُ عَلَىٰ ذَلِكَ بِكُلِّ وَجُودِهِ، أَضَافَ: «وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَمَكُمْ بَعْدَ أَنْ تَوَلُّوا مُدْبِرِينَ».

«أَكِيدَنَّ»: مَأْخُذَةٌ مِنَ الْكَيْدِ، وَهُوَ التَّخْطِيطُ السَّرِيُّ، وَالتَّفْكِيرُ الْمَخْفِيُّ وَكَانَ مُرَادُهُ أَنْ يَفْهَمَهُمْ بِصِرَاحَةٍ بِأَنَّي سَأَسْتَغْلِي فِي النِّهَايَةِ فِرْصَةَ مَنَاسِبَةٍ وَاحْطَمْتُ هَذِهِ الْأَصْنَامَ.

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ مِنْ دُونِ أَنْ يَحْذَرَ مِنْ مَعْبُوءِ هَذَا الْعَمَلِ، دَخَلَ الْمِيدَانَ بِرَجُولَةٍ وَتَوَجَّهَ إِلَىٰ حَرْبِ هَذِهِ الْآلِهَةِ الْجَوْفَاءِ بِشَجَاعَةٍ خَارِقَةٍ وَحَطَّمَهَا بِصُورَةٍ يَصِفُهَا الْقُرْآنُ فِيَقُولُ: «فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦٣

إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ» وَكَانَ هَدَفُهُ مِنْ تَرْكِهِ «لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ».

صَحِيحٌ أَنَّ أَذْهَانَنَا تَنْصَرِفُ مِنْ لَفْظِ عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ إِلَىٰ الْأَصْنَامِ الْحَجَرِيَّةِ وَالخَشَبِيَّةِ عَلَى الْأَكْثَرِ، إِلَّا أَنَّ الصَّنَمَ وَالصَّنْمِيَّةَ - مِنْ وَجْهَةِ نَظَرٍ - لَهَا مَفْهُومٌ وَاسِعٌ يَشْمَلُ كُلَّ مَا يُبْعَدُ الْإِنْسَانَ عَنِ اللَّهِ، بِأَيِّ شَكْلِ وَصُورَةٍ كَانَ.

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لِمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُّهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَغْيَنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَارْجِعُوا إِلَىٰ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكَسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧)

وَأخِيرًا عَبَدَةُ الْأَصْنَامِ دَخَلُوا الْمَعْبَدَ وَوَجَّهُوا مَنْظَرًا أُطَارَ عَقُولُهُمْ مِنْ رُؤُوسِهِمْ، فَقَدْ وَجَدُوا تَلًّا مِنَ الْأَيْدِي وَالْأَرْجُلِ الْمَكْسُورَةِ الْمُتْرَاكِمَةِ بَعْضُهَا عَلَىٰ الْبَعْضِ الْآخِرِ فِي ذَلِكَ الْمَعْبَدِ الْمَعْمُورِ، فَصَاحُوا وَ «قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا». وَلَا رَيْبَ أَنَّ مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ ف «إِنَّهُ لِمِنَ الظَّالِمِينَ» فَقَدْ ظَلَمَ آلِهَتَنَا وَمَجْتَمَعَنَا وَنَفْسَهُ، لِأَنَّهُ عَرَضَ نَفْسَهُ لِلْهَلَاكِ بِهَذَا الْعَمَلِ.

إِلْمًا أَنَّ جَمَاعَةً مِنْهُمْ تَذَكَّرُوا مَا سَمِعُوهُ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَإِزْدِرَائِهِ بِالْأَصْنَامِ وَتَهْدِيدِهِ لَهَا وَطَرِيقَةَ تَعَامُلِهِ السَّلْبِيَّ لِهَذِهِ الْآلِهَةِ الْمَرْغُومَةِ، «قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُّهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ».

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ شَابًا، وَرَبَّمَا لَمْ يَكُنْ سَنَّهُ يَتَجَاوَزُ (١٦) عَامًا.

إِنَّ الْمَأْلُوفَ - عَادَةً - عِنْدَمَا تَقَعُ جَرِيمَةٌ فِي مَكَانٍ مَا، فَإِنَّهُ وَمِنْ أَجْلِ كَشْفِ الشَّخْصِ الَّذِي قَامَ بِهَذَا الْعَمَلِ، تَبْحَثُ عِلَاقَاتُ الْخِصْمَةِ وَالْعِدَاءِ، وَمِنْ الْبَدِيهِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ شَخْصٌ فِي تِلْكَ الْبَيْئَةِ مِنْ يَعَادِي الْأَصْنَامِ غَيْرِ إِبْرَاهِيمَ، وَلِذَلِكَ تَوَجَّهَتْ إِلَيْهِ أَفْكَارُ الْجَمِيعِ، وَ «قَالُوا فَاتُوا بِهِ عَلَىٰ أَغْيَنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ» عَلَيْهِ بِالْجَرِيمَةِ.

فَنَادَى الْمُنَادُونَ فِي نَوَاحِي الْمَدِينَةِ: «لِيَحْضُرْ كُلٌّ مِنْ يَعْلَمُ بَعْدَاءَ إِبْرَاهِيمَ وَإِهَانَتِهِ لِلْأَصْنَامِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦٤

وَأخِيرًا تَشَكَّلَتِ الْمَحْكَمَةُ، وَكَانَ زَعَمَاءُ الْقَوْمِ قَدْ اجْتَمَعُوا هُنَاكَ، وَيَقُولُ بَعْضُ الْمَفْسِرِينَ: أَنَّ نَمْرُودَ نَفْسَهُ كَانَ مُشْرِفًا عَلَىٰ هَذِهِ الْمَحَاكِمَةِ، وَأَوَّلُ سُؤَالٍ وَجَّهَهُ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ هُوَ أَنْ: «قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ».

فَأَجَابَهُمْ إِبْرَاهِيمَ جَوَابًا أَفْحَمَهُمْ، وَجَعَلَهُمْ فِي حَيْرَةٍ لَمْ يَجِدُوا مِنْهَا مَخْرَجًا «قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ».

إِنَّ مِنْ أَسْوَاقِ عِلْمِ مَعْرِفَةِ الْجَرَائِمِ أَنْ يَكُونَ الْمَتَّهَمُ بِأَدْيَةِ عَلَيْهِ آثَارُ الْجَرِيمَةِ، وَالْمَلَاظِمُ هُنَا أَنَّ آثَارَ الْجَرِيمَةِ كَانَتْ بِأَدْيَةِ عَلَىٰ يَدِ الصَّنَمِ الْكَبِيرِ، [وَفَقًّا لِلرَّوَايَةِ الْمَعْرُوفَةِ: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ جَعَلَ الْفَأْسَ عَلَىٰ رِقْبَةِ الصَّنَمِ الْكَبِيرِ].

لَقَدْ هَزَّتْ كَلِمَاتُ إِبْرَاهِيمَ الْوَثْنِيِّينَ وَأَيَقُظَتْ ضَمَائِرُهُمُ النَّائِمَةُ الْغَافِلَةُ، وَأَنَارَ فِطْرَتَهُمُ التَّوْحِيدِيَّةَ مِنْ خَلْفِ حِجَابِ التَّعَصُّبِ وَالْجَهْلِ.

ورجعوا إلى فطرتهم ووجدانهم، كما يقول القرآن: «فَرَجِعُوا إِلَىٰ أَنفُسِكُمْ فَذُكِّرُوا بِاللَّهِ فَأَنصُرُوا» (٦٨). فقد ظلمتم أنفسكم ومجتمعكم الذي تنتمون إليه، وكذلك ساحة الله واهب النعم المقدسة.

ولكن للأسف، فإنَّ صداً الجهل والتعصب والتقليد الأعمى كان أكبر من أن يُصقل ويُحى تماماً بنداء بطل التوحيد. ولم تستمر هذه اليقظة الروحية المقدسة، ورجع كل شيء إلى حالته الأولى، وكم هو لطيف تعبير القرآن حيث يقول: «ثُمَّ نُكْسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ». ومن أجل أن يأتوا بعذر نيابة عن الآلهة البكم قالوا: «لَقَدْ عَلِمْتُمَا هَؤُلَاءِ يَتَّبِعُونَ». وأرادوا بهذا العذر الواهي أن يخفوا ضعف وذلة الأصنام.

وهنا فُتح أمام إبراهيم الميدان والمجال للاستدلال المنطقي ليوجه لهم أشد هجماته: «قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ».

ووسّع معلّم التوحيد دائرة الكلام، وإنهال بسياط التفرغ على روحهم التي فقدت الإحساس، فقال: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ». إلآ أنه لم يلح في توبيخهم وتقريرهم لنلأ يلجوا في عنادهم.

ويستفاد من التواريخ أن جماعة آمنوا به، وهم وإن قلوا عدداً، إلآ أنهم كانوا من الأهمية بمكان، إذ هيأوا الاستعداد النسبي لفئة أخرى.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦٥

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)

عندما تصير النار جنة: مع أن عبدة الأوثان اسقط ما في أيديهم نتيجة إستدلالات إبراهيم العلمية والمنطقية، إلآ أن عنادهم وتعصبهم الشديد منعهم من قبول الحق، ولذلك فلا-عجب من أن يتخذوا قراراً صارماً وخطيراً في شأن إبراهيم. يقول القرآن الكريم: «قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فاعِلِينَ».

فقد قالوا الكثير من أمثال هذه الخزعبلات وأثاروا الناس ضد إبراهيم بحيث إنهم لم يكتفوا بعدة حزم من الحطب تكفي لإحراق عدة أشخاص، بل أتوا بالآلاف الحزم وألقوها حتى صارت جبلاً من الحطب. فقد القى إبراهيم في النار وسط زغاريد الناس وسرورهم وصرخهم، وقد أطلقوا أصوات الفرخ طائنين أن محطّم الأصنام قد فنى إلى الأبد وأصبح تراباً ورماداً.

لكن الله الذي بيده كل شيء حتى النار لا تحرق إلآ بأذنه، شاء أن يبقى هذا العبد المؤمن المخلص سالماً من لهب تلك النار الموقدة ليضيف وثيقه فخر جديدة إلى سجل إفتخاراته، وكما يقول القرآن الكريم: «قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ».

لا شك أن أمر الله هنا كان أمراً تكوينياً، كالأمر الذي يصدره في عالم الوجود إلى الشمس والقمر، والأرض والسماء، والماء والنار، والنباتات والطيور.

والمعروف أن النار قد بردت برداً شديداً إصطكت أسنان إبراهيم منه، وحسب قول بعض المفسرين: إن الله سبحانه لو لم يقل: سلاماً، لمات إبراهيم من شدة البرد.

ويقول الله سبحانه في آخر آية من الآيات محل البحث على سبيل الاستنتاج بإقتضاب:

أَنَّهُمْ تَأْمَرُوا عَلَيْهِ لِيَقْتُلُوهُ وَلَكِنَّ النَّتِيجَةَ لَمْ تَكُنْ فِي صَالِحِهِمْ «وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ».

لا- يخفى أن الوضع قد اختلف تماماً ببقاء إبراهيم سالماً، وخدمت أصوات الفرخ. غير أن العناد ظل مانعاً من قبول الحق، وإن كان أصحاب القلوب الواعية قد استفادوا من هذه الواقعة، وزاد إيمانهم مع قتلهم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦٦

وَنَجَّيْنَاهُ وَ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كَلَّمَا جَعَلْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)

هجرة إبراهيم من أرض الوثنيين: لقد هزّت قصة حريق إبراهيم عليه السلام ونجاته الإعجازية من هذه المرحلة الخطيرة أركان حكومة نمرود، وأنه لو بقي في تلك المدينة والبلاد على هذا الحال، ومع ذلك اللسان المتكلم والمنطق القوي، والشهامة والشجاعة التي لا نظير لها، فمن المحتم أنه سيشكل خطراً على تلك الحكومة الجبارة الغاشمة.

ومن جهة اخرى، فإن إبراهيم كان قد أدّى رسالته وبذر بذور الإيمان والوعى في تلك البلاد، فلا بد من الهجرة إلى موطن آخر لإيجاد أرضية لرسالته هناك، ولذلك صمّم على الهجرة إلى الشام بصحبة لوط - وكان ابن أخ إبراهيم - وزوجته سارة، وربما كان معهم جمع قليل من المؤمنين، كما يقول القرآن الكريم: «وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ».

وبالرغم من أن اسم هذه الأرض لم يرد صريحاً في القرآن، إلا أنه بملاحظة الآية الأولى من سورة الإسراء يتضح أن هذه الأرض هي أرض الشام ذاتها، التي كانت من الناحية الظاهرية أرضاً غنيّة مباركة خضراء، ومن الجهة المعنوية كانت معهداً لرعاية الأنبياء. وأشارت الآية التالية إلى أحد أهم مواهب الله لإبراهيم، وهي هبته الولد الصالح، والنسل المفيد، فقالت: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ».

وتشير الآية الأخيرة إلى مقام إمامة وقيادة هذا النبي الكبير، وإلى جانب من صفات الأنبياء ومناهجهم المهمة القيمة بصورة جماعية. لقد عدّت في هذه الآية ستة أقسام من هذه الخصائص، وإذا اضيف إليها وصفهم بكونهم صالحين - والذي يستفاد من الآية السابقة - فستصبح سبعة.

يقول أولاً: «وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً». أي: إننا وهبناهم مقام الإمامة إضافة إلى مقام النبوة والرسالة، والإمامة هي آخر مراحل سير الإنسان التكاملي، والتي تعنى القيادة العامة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦٧

ثم يذكر في المرحلة التالية ثمره هذا المقام، فيقول: «يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا» ولا يعنى بالهداية الإرشاد وبيان الطريق الصحيح، والذي هو من شأن النبوة والرسالة. أما الموهبة الثالثة والرابعة والخامسة فقد عبر عنها القرآن بقوله: «وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ».

وفي آخر فصل أشار إلى مقام العبودية، فقال: «وَكَانُوا لَنَا عِبِيدِينَ» (١). والتعبير ب«كانوا» الذي يدلّ على الماضي المستمر في هذا المنهج، ربما كان إشارة إلى أن هؤلاء كانوا رجالاً صالحين موحدين مؤهلين حتى قبل الوصول إلى مقام النبوة والإمامة، وفي ظلّ ذلك المخطّط وهبهم الله سبحانه مواهب جديدة.

وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ (٧٤) وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)

نجاه لوط من أرض الفجرار: لما كان لوط من أقرباء إبراهيم وذوي أرحامه، ومن أوائل من آمن به، فقد أشارت الآيتان بعد قصة إبراهيم عليه السلام إلى جانب من إجهاده وسعيه في طريق إبلاغ الرسالة، والمواهب التي منحها الله سبحانه له، فتقول: «وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا».

لفظة «الحكم» جاءت في بعض الموارد بمعنى أمر النبوة والرسالة.

والمراد من العلم كل العلوم التي لها أثر في سعادة ومصير الإنسان.

لقد كان لوط من الأنبياء العظام وكان معاصراً لإبراهيم، وهاجر معه من أرض بابل إلى فلسطين، ثم فارق إبراهيم وجاء إلى مدينة (سدوم) لأن أهلها كانوا غارقين في الفساد والمعاصي، وخاصة الانحرافات الجنسية، وقد سعى كثيراً من أجل هداية هؤلاء القوم، وتحمل المشاق في هذا الطريق، إلا أنه لم يؤثر في اولئك العمي القلوب.

وأخيراً، نعلم أن الغضب والعذاب الإلهي قد حلّ بهؤلاء، وقلب عالي مدينتهم سافلها، واهلكوا جميعاً، إلا عائلة لوط باستثناء امرأته.

(١) تقديم كلمة (لنا) على (عابدين) يدل على الحصر، وإشارة إلى مقام التوحيد الخالص، لهؤلاء المقدمين الكبار، أى إن هؤلاء كانوا يعبدون الله فقط.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦٨

ولذلك أشارت الآية إلى هذه الموهبة التي وهبت للوط، وهي: «وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَاثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فٰسِقِينَ».

والتعبير بـ «الخبائث» بصيغة الجمع، إشارة إلى أنهم إضافة إلى فعل اللواط الشنيع، كانوا يعملون أعمالاً قبيحة وخبثه اخرى.

والتعبير بـ «الفاسيقين» بعد «قوم سوء» ربّما يكون إشارة إلى أن اولئك كانوا فاسقين من وجهة نظر القوانين الإلهية، وحتى مع قطع النظر عن الدين والإيمان، فإنهم كانوا أفراداً حمقى ومنحرفين فى نظر المعايير الإجتماعية بين الناس.

ثم أشارت الآية إلى آخر موهبة إلهية للنبي لوط، فقالت: «وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصّٰلِحِينَ».

وَنُوْحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلِ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَا لَهُ وَآهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاعْرِفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)

نجاه نوح من القوم الكافرين: بعد ذكر جانب من قصة إبراهيم وقصة لوط عليهما السلام، تطرقت السورة إلى ذكر جانب من قصة نبي آخر من الأنبياء الكبار - أى: نوح عليه السلام - فقالت:

«وَنُوْحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلِ» أى قبل إبراهيم ولوط.

إن هذا النداء - ظاهراً - إشارة إلى الدعاء واللعنة التي ذكرت فى الآية (٢٦ و ٢٧) من سورة نوح أو إنه إشارة إلى الجملة التي وردت فى الآية (١٠) من سورة القمر.

ثم تضيف الآية: «فٰسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَعَلْنَا لَهُ وَآهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ».

إنّ للأهل - هنا - معنى وسيعاً يشمل أهله المؤمنين وخواص أصحابه، وعلى هذا فإنّ الذين اعتنقوا دين نوح يعدّون فى الواقع من عائلته وأهله.

«الكرب»: تعنى الغمّ الشديد، وهى فى الأصل مأخوذة من تقلاب الأرض وحفرها، لأنّ الغمّ الشديد يقرب قلب الإنسان، ووصفه بالعظيم يكشف عن منتهى كربه وأساه.

وأى كرب أعظم من أن يدعو قومه إلى دين الحق (٩٥٠) عاماً، كما صرّح القرآن بذلك، لكن لم يؤمن به خلال هذه المدّة الطويلة إلاثمانون شخصاً.

وتضيف الآية التالية: «وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٦٩

فَاعْرِفْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ». إنّ هذه الجملة تؤكد مرّة اخرى على حقيقة أن العقوبات الإلهية لا- تتصف بصفة الإنتقام مطلقاً، بل هى على أساس إنتخاب الأصالح، أى إن حق الحياة والتنعم بمواهب الحياة لئناس يكونون فى طريق التكامل والسير إلى الله، أو أنهم إذا ساروا يوماً فى طريق الانحراف إنتبهوا إلى أنفسهم ورجعوا إلى جادة الصواب.

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شٰهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَ

عِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَهُ لِيُؤْتِيَ لَبِوسًا لِّكُمْ لِتُخَصِّصَ نَكْمًا مِنْ بَٰسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شٰكِرُونَ

(٨٠)

قضاء داود وسليمان عليهما السلام: بعد الحوادث والوقائع المتعلقة بموسى وهارون وإبراهيم ونوح ولوط عليهم السلام، تشير هذه

الآيات إلى جانب من حياة داود وسليمان، وفي البداية أشارت إشارة خفية إلى حادث قضاء وحكم صدر من جانب داود وسليمان، فتقول: «وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ» (١).

إن القصة كانت كما يلي: إن قطع أغنام لبعض الرعاة دخلت ليلاً إلى بستان فأكلت أوراقه وعناقيد العنب منه فأتلفته، فرفع صاحب البستان شكواه إلى داود، فحكم داود بأن تعطى كل الأغنام لصاحب البستان تعويضاً لهذه الخسارة الفادحة، فقال سليمان - والذي كان طفلاً آنذاك - لأبيه: يا نبي الله العظيم، غير هذا الحكم وعد له. فقال الأب: وكيف ذاك؟

قال: يجب أن تودع الأغنام عند صاحب البستان ليستفيد من منافعها ولبنها وصوفها، وتودع البستان في يد صاحب الأغنام ليسعى في إصلاحه، فإذا عاد البستان إلى حالته الأولى يرد إلى صاحبه، وترد الأغنام أيضاً إلى صاحبها؛ وأريد الله حكم سليمان في الآية التالية: «فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ». ولكن هذا لا يعنى أن حكم داود كان إشتباهاً وخطأً، لأنها تضيف مباشرة: «وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا».

ثم تشير إلى إحدى المواهب والفضائل التي كان الله سبحانه قد وهبها لداود عليه السلام، فتقول:

(١) «نفشت»: من مادة نَفَشَ على وزن (حرب)، أي التفرق والتبعثر في الليل، ولما كان تفرق الأغنام في الليل، وفي المزرعة سيقترن بالتهام نباتها حتماً، لذا قال البعض: إنها الرعى في الليل؛ و «نَفَشَ» (على وزن علم) تعنى الأغنام التي تتفرق في الليل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٠

«وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ». فإن ذلك ليس شيئاً مهماً أمام قدرتنا «وَكُنَّا فَعِلِينَ».

وأشارت الآية الأخيرة إلى موهبة أخرى من المواهب التي وهبها الله لهذا النبي الجليل، فقالت: «وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَهُ لِيُبَسِّطَ لِبُوسٍ لَكُمْ لِيُخَصِّصَ نَكْمًا مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ».

«البوس»: كل نوع من أنواع الأسلحة الدفاعية والهجومية، إلأى هنا تعنى الدرع التي لها صفة الحفظ في الحروب.

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَ يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)

الرياح تحت إمرة سليمان: تشير هاتان الآيتان إلى جانب من المواهب التي منحها الله لنبي آخر من الأنبياء - أي: سليمان عليه السلام - فتقول الآية الأولى منهما: «وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا». وهذا الأمر ليس عجبياً، لأننا عارفون به «وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ». فنحن مطلعون على أسرار عالم الوجود، والقوانين والأنظمة الحاكمة عليه.

«العاصفة»: تعنى الرياح القوية أو الهائجة، وهنا يمكن أن تكون من باب بيان الفرد الأهم، أي ليست الرياح الهادئة لوحدها تحت إمرته، بل حتى العواصف الشديدة كانت رهن إشارته أيضاً، لأن الثانية أعجب، وكانت تتحرك حيث أراد.

ثم تذكر الآية التالية أحد المواهب الخاصة بسليمان عليه السلام، فتقول: «وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ» لاستخراج الجواهر والأشياء الثمينة الأخرى «وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ» من التمرد والطغيان على أوامر سليمان عليه السلام.

إن هذه الجماعة كانوا أفراداً أذكاء نشطين فنانين صنّاعاً ماهرين في مجالات مختلفة.

وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَذَكَرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧١

أيوب ونجاته من المصاعب: تتحدث الآيتان عن نبي آخر من أنبياء الله العظماء وقصته الملهمة، وهو «أيوب» وهو عاشر نبي اشير إلى جانب من حياته في سورة الأنبياء.

إن لأيوب قصة حزينه، وهي في نفس الوقت عظيمة سامية، فقد كان صبره وتحمله عجيبين، خاصة أمام الحوادث المرّة، بحيث إن

صبر أيوب أصبح مضرِباً للمثل منذ القدم.

غير أن هاتين الآيتين تشيران - بصورة خاصة - إلى مرحلة نجاته وإنتصاره على المصاعب، وإستعادة ما فقدته من المواهب، فتقول: «وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ». «الضرُّ»: تطلق على كل سوء وأذى يصيب روح الإنسان أو جسمه، وكذلك لنقص عضو، وذهاب مال، وموت الأعرَّة وإنهيار الشخصية وأمثال ذلك، وكما سنقول فيما بعد، فإنَّ أيوب قد ابتلى بكثير من هذه المصائب.

وتقول الآية التالية: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ» ليعلم المسلمون أنَّ المشاكل كلما زادت، وكلما زادت الإبتلاءات، وكلما زاد الأعداء من ضغوطهم وضاعفوا قواهم، فإنَّها جميعاً ترفع وتحلَّ بنظرة ومنحة من لطف الله، فلا تجبر الخسارة وحسب، بل إنَّ الله سبحانه يعطى الصابرين أكثر ممَّا فقدوا جزاءً لصبرهم وثباتهم.

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)

إسماعيل وإدريس وذو الكفل عليه السلام: تعقياً على قصة أيوب عليه السلام التربوية، وصبره وثباته بوجه سيل الحوادث، تشير الآيتان - محلَّ البحث - إلى صبر ثلاثة من أنبياء الله الآخرين فتقول الأولى: «وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ».

ثم تبين الآية الأخرى موهبة إلهية لهؤلاء مقابل الصبر والثبات، فتقول: «وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ».

وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٢

نجاه يونس من السجن المرعب: تبين هاتان الآيتان جانباً من قصة النبي الكبير يونس عليه السلام، حيث تقول الأولى واذكر يونس إذ ترك قومه المشركين غاضباً عليهم: «وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا». «النون»: تعنى السمكة العظيمة. أو بتعبير آخر: تعنى الحوت. وبناءً على هذا فإنَّ «ذالنون» معناه صاحب الحوت.

إنَّه ذهب مغاضباً «فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ» «١». فقد كان يظنُّ أنه قد أدَّى كل رسالته بين قومه العاصين، ولم يترك حتى «الأولى» في هذا الشأن، مع أنَّ الأولى هو بقاؤه بينهم والصبر والتحمل والتجلد، فلعلهم ينتبهون من غفلتهم ويتجهون إلى الله سبحانه. وأخيراً، ونتيجة تركه الأولى هذا، ضيقنا عليه فابتلعه الحوت «فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ». فقد ظلمت نفسى، وظلمت قومى، فقد كان ينبغي أن أتقبل وأتحمل أكثر من هذه الشدائد والمصائب، واواجه جميع أنواع التعذيب والآلام منهم فلعلهم يهتدون.

وتقول الآية التالية: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ».

جملة «كَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ» العميقة المعنى توحى بأنَّ ما أصاب يونس من البلاء والنجاة لم يكن حكماً خاصاً، بل حكم عام مع حفظ تسلسل الدرجات والمراتب.

إنَّ كثيراً من الحوادث المؤلمة والإبتلاءات الشديدة والمصائب نتيجة لذنوبنا ومعاصينا، فمتى ما تبتَّ الإنسان إلى ثلاثة أمور [التي إنَّته إليها يونس فى مثل هذا الظرف فإنه سينجو حتماً:

١- التوجُّه إلى حقيقة التوحيد، وأنه لا معبود ولا سند إلا الله.

٢- تنزيه الله عن كل عيب ونقص وظلم وجور، وتجنُّب كل سوء ظنَّ بذاته المقدَّسة.

٣- الاعتراف بذنبه وتقديره.

فى تفسير الدرِّ المنثور عن سعد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «اسم الله الذى إذا دعى به أجاب، وإذا سئل به أعطى دعوة يونس بن مَتَّى». قلت يا رسول الله هى ليونس خاصة أم لجماعة المسلمين؟ قال: «هى ليونس خاصة وللمؤمنين إذا دعوا بها، ألم

تسمع قول الله «وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ»، فهو شرط من الله لمن دعاه».

(١) «نقدر»: من مادة قدر بمعنى التعسير والتضييق، لأنَّ الإنسان عند التضييق يأخذ من كل شيء قدرًا محدودًا، لا على نطاق واسع وبدون حساب.

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٢٧٣

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)

نجاه زكريا من الوحدة: تبين هاتان الآيتان جانبًا من قصة شخصيتين اخريين من أنبياء الله العظماء، وهما زكريا ويحيى عليهما السلام، فتقول الاولى: «وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ».

لقد مرّت سنين من عمر زكريا، واشتعل رأسه شيبًا، ولم يرزق الولد حتى ذلك الحين، ثم أن زوجته كانت عقيمًا، وقد كان يأمل أن يُرزق ولدًا يستطيع أن يكمل مناهجه الإلهية وأعماله التبليغية.

وعندئذ توجه إلى الله بكلّ وجوده وسأله ولدًا صالحًا.

فاستجاب الله هذا الدعاء الخالص المليء بعشق الحقيقة، وحقّق امنيته وما كان يصبوا إليه، كما تقول الآية: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ». ومن أجل الوصول إلى هذا المراد أصلحنا زوجته وجعلناها قادرة على الإنجاب «وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ».

ثم أشار الله سبحانه إلى ثلاث صفات البارزة لهذه الاسرة فقال: «إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ».

«رغبًا»: بمعنى الرغبة والميل والعلاقة؛ و«رهبًا»: بمعنى الخوف والرعب؛ و«الخشوع»: هو الخضوع المقرون بالإحترام والأدب، وكذلك الخوف المشفوع بالإحساس بالمسؤولية.

إنّ ذكر هذه الصفات الثلاث ربّما تكون إشارة إلى أنّ هؤلاء عندما يصلون إلى النعمة فلا يبتلون بالغفلة والغرور كما في الأشخاص الماديين من ضعفاء الإيمان.

وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)

مريم السيدة الطاهرة: اشير في هذه الآية إلى مقام مريم وعظمتها وعظمه ابنها المسيح عليهما السلام. إنّ ذكر مريم في ثنايا البحوث التي تتكلم على الأنبياء الكرام؛ إمّا من أجل

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٢٧٤

ولدها عيسى عليه السلام، أو لأنّ ولادته كانت تشبه ولادة يحيى بن زكريا عليهما السلام من جهات متعددة، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في ذيل آيات سورة مريم، أو ليوضح أنّ العظمة غير مختصة بالرجال، بل هناك نساء عظيمات يدلّ تاريخهن على عظمتهن، وكنّ

قدوة ومثلاً أسمى لنساء العالم. تقول الآية: واذكر مريم، «وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ».

«الفرج»: معناه في اللغة الفاصله والشقّ، واستعمل كناية عن العضو التناسلي.

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُفْلًا إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)

آية واحدة: لَمّا ورد في الآيات السابقة أسماء جمع من أنبياء الله، وكذلك مريم، تلك المرأة التي كانت مثلاً أسمى وجانب من قصصهم، فإنّ هذه الآيات تستخلص نتيجة مما مرّ، فنقول: «إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً». فقد كان منهجهم واحداً، وهدفهم واحداً

بالرغم من اختلافهم في الزمان والمحيط والخصائص والأساليب والطرائق.

إن توحيد ووحدة الخطط والأهداف هذه تعود إلى أنها جميعاً تصدر عن مصدر واحد، عن إرادة الله الواحد، ولهذا تقول الآية مباشرة: «وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ».

إن توحيد الأنبياء الإعتقادي في الواقع يقوم على أساس وحدة منبع الوحي.

«الامة»: تعنى كل جماعة تربطهم جهة مشتركة، وهنا إشارة إلى الأنبياء الذين مر ذكرهم في الآيات السابقة.

وأشارت الآية التالية إلى انحراف جماعة عظيمة من الناس عن أصل التوحيد، فقالت:

«وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ». فقد وصل بهم الأمر إلى أن يقف بعضهم ضد بعض، ويلعن بعضهم بعضاً ويتبرأ منه، ولم يكتفوا بذلك، بل

شهبوا السلاح فيما بينهم، وسفكوا الدماء الكثيرة، وكانت هذه الأحداث نتيجة الانحراف عن أصل التوحيد ودين الله الحق.

«تَقَطَّعُوا»: من مادة قطع، بمعنى تفريق القطع المتصلة بموضوع واحد. إن أولئك قد إستسلموا أمام عوامل التفرقة والنفاق، ورضوا بأن

يبتعد أحدهم عن الآخر، وأنهوا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٥

إتحادهم الفطرى والتوحيدي، فمِنُوا- نتيجة ذلك- بكل تلك الهزائم والشفاعة.

وتضيف في النهاية: «كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ». فإن هذا الاختلاف عرضي يمكن إقتلاعه، وسيسيرون في طريق الوحدة جميعاً في يوم القيامة.

وتبين الآية الأخيرة نتيجة الإنسجام مع الامة الواحدة في طريق عبادة الله، أو الإنحراف عنها وإتخاذ طريق التفرقة، فتقول: «فَمَنْ يَعْمَلْ

مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ». ومن أجل زيادة التأكيد قالت: «وَأِنَّا لَهُ كَاشِحُونَ».

إن هذه الآية ككثير من آيات القرآن الاخرى قد عدت الإيمان شرطاً لقبول الأعمال الصالحة.

وَ حَرَامٌ عَلَى قَوْمِهِ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَزْجَعُونَ (٩٥) حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ

الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)

الكافرون على أعتاب القيامة: كان الكلام في آخر الآيات السابقة عن المؤمنين العاملين للصلحات، وتشير الآية الاولى من هذه الآيات

إلى الأفراد في الطرف المقابل لأولئك، وهم الذين استمروا في الضلال والفساد إلى آخر نفس، فتقول: «وَ حَرَامٌ عَلَى قَوْمِهِ أَهْلَكْنَاهَا

أَنَّهُمْ لَا يَزْجَعُونَ».

إن هؤلاء اناس ترفع الحجب عن أعينهم وأنظارهم بعد مشاهدة العذاب الإلهي، أو بعد فنائهم وإنتقالهم إلى عالم البرزخ، وعندها

يأملون أن يرجعوا إلى الدنيا ليصلحوا أخطاءهم ويعملون الصالحات، إلّا أن القرآن يقول بصراحة: إن رجوع هؤلاء حرام تماماً، ولم يبق

طريق لجبران ما صدر منهم.

إن هؤلاء المغفلين في غرور وغفلة على الدوام، وتستمر هذه التعاسة حتى نهاية العالم، كما يقول القرآن: «حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ

وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ».

فتقول مباشرة: «وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا». لأن الرعب يسيطر على وجودهم إلى حد أن عيونهم تتوقف

عن الحركة وتصبح جاحظة لدى نظرهم إلى تلك الحوادث.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٦

في هذه الأثناء ترفع عن أبصارهم حجب الغفلة والغرور، فيرتفع صوتهم: «يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا». ولما كانوا لا يقدرّون على

تغطية ذنبهم بهذا العذر لبيروا أنفسهم، فإنهم يقولون بصراحة: «بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ».

كيف يمكن عادة مع وجود كل هؤلاء الأنبياء، والكتب السماوية، وكل هذه الحوادث المثيرة والعبء والدروس أن يكونوا في غفلة؟ إن

ما صدر من هؤلاء تقصير وظلم لأنفسهم وللآخرين.

«حذب»: على زنة «أدب» معناه ما يرتفع من الأرض بين منخفضاتها، وقد يطلق على ما يرتفع وبرز من ظهر الإنسان أيضاً.

«ينسلون»: من مادة «نسل» (على وزن فضول)، أى الخروج بسرعة.

«شاحصة»: من الشخوص، وهو فى الأصل الخروج من المنزل، أو الخروج من مدينة إلى اخرى، ولما كانت العين عند التعجب والدهشة كأنها تريد الخروج من الحدقة، فقد قيل لذلك «شخوص» إن هذه هى حالة المذنبين العاصين فى القيامة يصبحون حائرين كأن أعينهم تريد أن تخرج من أحداقهم.

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هُوَ لِإِلهَةٍ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَمَّا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)

حصب جهنم: متابعة للبحث السابق عن مصير المشركين الظالمين، فقد وجهت هذه الآيات الخطاب إليهم، وجسدت مستقبلهم ومستقبل آلهتهم بهذه الصورة: «إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ». «الحصب»: فى الأصل يعنى الرمى والإلقاء، وتقال بالذات لإلقاء قطع الحطب فى التنور.

إِنَّكُمْ وَأَلْهَتَكُمْ سَتَكُونُونَ حَطَبُ جَهَنَّمَ، وَسَتَلْقَوْنَ الْوَاحِدَ تَلُو الْآخِرَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ كَقَطْعِ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٧

الحطب التى لا-قيمة لها، ثم تضيف: «أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ». إنهم يلقون آلهتكم فى النار أولاً، ثم تردون عليها، فكأن آلهتكم تستقبلكم وتستضيفكم بالنار المنبعثة من وجودها.

ثم تقول كاستخلاص للنتيجة: «لَوْ كَانَ هُوَ لِإِلهَةٍ مَا وَرَدُوهَا». ولكن اعلموا أنهم لا يدخلون جهنم وحسب، بل «وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ».

ولمزيد الإيضاح عن حال هؤلاء «العابدين الضالين» المؤلمة المخزية قبال «آلهتهم الحقيرة»، تقول الآية محل البحث: «لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ».

«الزفير»: فى الأصل يعنى الصراخ المقترن بإخراج النفس. وهنا إشارة إلى الصراخ أو الضجيج المنبعث من الحزن وشدة الكرب.

إن هذا الزفير أو الأنين المؤلم لا يكون مقتصرأ على العباد فحسب، بل إن معبوداتهم من الشياطين أيضاً يصطرخون معهم.

ثم تذكر الجملة التالية أحد العقوبات الاخرى المؤلمة لهؤلاء، وهى «وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ». وهذه الجملة قد تكون إشارة إلى أن هؤلاء

لا يسمعون الكلام الذى يسرهم ويبهجهم، بل يسمعون أنين أهل جهنم المؤلم المنعص وصراخ ملائكة العذاب فقط.

وقال بعضهم: إن المراد هو أن هؤلاء يوضعون فى توابيت من نار بحيث لا يسمعون صوت أى أحد أبداً، فكأنهم لوحدهم فى العذاب،

وهذا بنفسه يعتبر عقوبة أشد.

ثم تبين الآية التالية حالات المؤمنين الحقيقيين من الرجال والنساء ليتبين وضع الفريقين من خلال المقارنة بينهما، فتقول أولاً: «إِنَّ

الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ». وهو إشارة إلى أننا سنفى بكل الوعود التى وعدنا بها المؤمنين فى هذه الدنيا،

وأحدها إبعادهم عن نار جهنم.

وتذكر الآيات الأخيرتان أربع نعم إلهية كبرى تغمر هذه الطائفة السعيدة.

فالاولى: إنهم «لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا». و «الحسيس»: الصوت المحسوس، وجاءت أيضاً بمعنى الحركة، أو الصوت الناشئ من الحركة،

ونار الجحيم المشتعلة دائماً لها صوت خاص، وهذا الصوت مرعب من جهتين: من جهة أنه صوت النار، ومن جهة أنه صوت حركة

النار والتهاهما.

والثانية: إنهم «وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ». فليس حالهم كما فى هذه الدنيا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٨

المحدودة، فإنهم ينالون كل نعمة يريدونها، مادية كانت أو معنوية، وليس ذلك على مدى يوم أو يومين، بل على إمتداد الخلود.

والثالثة: إنهم «لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ». وقد اعتبر بعضهم أن هذا الفرع الأكبر إشارة إلى أهوال يوم القيامة التى هى أكبر من كل هول

وفزع.

والرابعة: من أطف الله تعالى لهؤلاء هو ما ذكرته الآية محلّ البحث: «وَتَلَقَّهُمُ الْمَلِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ».

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (١٠٤)

يوم تطوى السماء: قرأنا في آخر آية من الآيات السابقة أن المؤمنين آمنون من الفزع الأكبر وهمه، وتجسّم هذه الآية رعب ذلك اليوم العظيم، وفي الحقيقة تبين وتجسد على عظمه وضخامته هذا الرعب، فتقول: «يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ» «١».

وفي هذه الآية تشبيه لطيف لطيّ سجل عالم الوجود عند إنتهاء الدنيا، ففي الوقت الحاضر فإنّ هذا السجل مفتوح، وتقرأ كل رسومه وخطوطه، وكل منها في مكان معين، أما إذا صدر الأمر الإلهي بقيام القيامة فإنّ هذا السجل العظيم سيطوى بكل رسومه وخطوطه. ثم تضيف: «كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ».

وفي النهاية تقول الآية: «وَعَدًّا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ».

ويستفاد من بعض الروايات أن المراد من رجوع الناس إلى الحالة الاولى، هو أنهم يرجعون حفاة عراة مرة اخرى كما كانوا في بداية الخلق. وهذا أحد صور رجوع الخلق إلى الصورة الاولى.

سيحكم الصالحون الأرض: بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى جانب من ثواب المؤمنين الصالحين، فقد أشارت السورة في هاتين الآيتين إلى أحد أوضح المكافآت الدنيوية لهؤلاء،

(١) «السَّجِّلُ»: الدلو العظيم؛ و «السِّجِلُ» حجر كان يكتب فيه، ثم سُمي كل ما يكتب فيه سجلاً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٧٩

فتقول: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ».

«الأرض»: تطلق على مجموع الكرة الأرضية. «الإرث»: يعني إنتقال الشيء إلى شخص بدون معاملة وأخذ وعطاء.

إنّ المراد من الزبور كتاب داود، والذكر بمعنى التوراة.

إنّ كلمة الصالحون لها معنى واسع، فستخطر على الذهن كل المؤهلات، الأهلية من ناحية التقوى، والعلم والوعى، ومن جهة القدرة والقوة، ومن جانب التدبير والتنظيم والإدراك الاجتماعي.

إنّ الآية التالية تقول من باب التأكيد المشدد: «إِنَّ فِي هَذَا لَبَلْغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ».

لقد فسّرت هذه الآية في بعض الروايات بأصحاب المهدي عليه السلام، وهو بيان مصداق عال وواضح، ولا تحدّ من عمومية مفهوم الآية مطلقاً.

إنّ نظام الخلقة سيكون دليلاً واضحاً على قبول نظام اجتماعي صحيح في المستقبل، في عالم الإنسانية، وهذا هو الذي يستفاد من الآية مورد البحث، والأحاديث المرتبطة بقيام المصلح العالمي العظيم، المهدي الموعود.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنِ أَدْرَىٰ أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِنِ أَدْرَىٰ لَعَلَّةَ فَتْنَةٍ لَّكُمْ وَ

مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)

النبي رحمة للعالمين: لما كانت الآيات السابقة قد بشرت العباد الصالحين بوراثه الأرض وحكمها، ومثل هذه الحكومة أساس الرحمة لكل البشر، فإنّ الآية الاولى أشارت إلى رحمة وجود النبي صلى الله عليه وآله العامة، فقالت: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ». فإنّ عامّة البشر في الدنيا، سواء الكافر منهم والمؤمن، مشمولون لرحمتك، لأنك تكفّلت بنشر الدين الذي يُنقذ الجميع.

إنّ التعبير ب «العالمين» له إطار واسع يشمل كل البشر وعلى إمتداد الأعصار والقرون،

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٠

ولهذا يعتبرون هذه الآية إشارة إلى خاتمية نبي الإسلام، لأن وجوده رحمة وقدوة لكل الناس إلى نهاية الدنيا. ولما كان أهم مظهر من مظاهر الرحمة، وأثبت دعامة لذلك هي مسألة التوحيد وتجلياته، فإن الآية التالية تقول: «قُلْ إِنَّمَا يُوحى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ».

وهذه الآية في الواقع تشير إلى ثلاث نقاط مهمة:

الاولى: إن التوحيد هو الدعامة الأساسية للرحمة، التوحيد في الاعتقاد، وفي العمل، والتوحيد في الكلمة، وتوحيد الصفوف، وفي القانون وفي كل شيء.

الثانية: إن كل دعوات الأنبياء تتلخص في أصل التوحيد، والتوحيد كالروح السارية في البدن.

والنقطة الثالثة: إن المشكلة الأساسية في جميع المجتمعات هي التلوث بالشرك بأشكال مختلفة، لأن جملة «فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ» توحى بأن المشكلة الأساسية هي الخروج من الشرك ومظاهره، ورفع اليد عن الأصنام وتحطيمها، ليس الأصنام الحجرية والخشبية فحسب، بل كل الأصنام، وفي أى شكل كانت، وخاصة طواغيت البشر.

ثم تقول الآية التالية: إنهم إذا لم يدعونا ويهتموا لدعواتنا ونداءاتنا هذه «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ». «آذنت»: من مادة الإيدان، أى الإعلان المقترن بالتهديد، والظاهر أن النبي أراد بهذا الكلام أن يعلن تنفره وإبتعاده عن اولئك، ويبين بأنه قد يئس منهم تماماً. ثم يبين هذا التهديد بصورة أوضح، فيقول بأننى لا أعلم هل أن موعد عذابكم قريب أم بعيد: «وَإِنْ أَدْرِي أَقْرِبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوَعَّدُونَ». فلا تظنوا أن هذا الوعيد بعيد، فربما كان قريباً وقريباً جداً.

قد يكون المراد من العذاب والعقوبة هنا عذاب القيامة، أو عذاب الدنيا، أو كليهما، ففي الصورة الاولى هو مختص بعلم الله، ولا يعلم أى أحد تاريخ وقوع القيامة بدقة حتى أنبياء الله، وفي الصورة الثانية والثالثة يمكن أن يكون إشارة إلى جزئياته وزمانه، وأنا لا أعلم بجزئياته.

ثم إنكم لا ينبغي أن تتوهموا أن عقوبتكم إذا تأخرت فهذا يعنى أن الله غير مطلع على أعمالكم وأقوالكم، فهو يعلم كل شيء، ف «إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ».

فإن الجهر والإخفاء له معنى بالنسبة لكم حيث إن علمكم محدود عادةً، أما بالنسبة لمن لا حدود لعلمه، فإن الغيب والشهادة، والسر والعلن سواء لديه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨١

وكذلك إذا رأيتم أن العقوبة الإلهية لا تحيط بكم فوراً، فلا تظنوا أن الله سبحانه غير عالم بعملكم، فلا أعلم لعله إمتحان لكم: «وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ». ثم يأخذكم أشد مأخذ ويعاقبكم أشد عقاب.

لقد أوضحت الآية في الواقع حكمتين لتأخير العذاب الإلهي:

الاولى: مسألة الامتحان والاختبار، فإن الله سبحانه لا يعجل في العذاب أبداً حتى يمتحن الخلق بالقدر الكافي، ويؤتم الحجة عليهم.

والثانية: إن هناك أفراداً قد تم اختبارهم وحققت عليهم كلمة العذاب حتماً، إلا أن الله سبحانه يوسع عليهم النعمة ليشدد عليهم العذاب، فإذا ما غرقوا في النعمة تماماً، وغاصوا في اللذائذ، أهوى عليهم بسوط العذاب ليكون أشد وألم، وليحسوا جيداً بألم وعذاب المحرومين والمضطهدين.

وتتحدث آخر آية هنا- وهي آخر آية من سورة الأنبياء- كالأية الاولى من هذه السورة عن غفلة الناس الجهال، فتقول حكاية عن النبي صلى الله عليه وآله في عبارة تشبه اللعن، وتعكس معاناته صلى الله عليه وآله من كل هذا الغرور والغفلة، وتقول: إن النبي صلى الله عليه وآله بعد مشاهدة كل هذا الإعراض «قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ» (١). وفي الجملة الثانية يوجه الخطاب إلى المخالفين ويقول:

«وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ».

إنه يتبه هؤلاء بكلمة (ربنا) إلى هذه الحقيقة، وهي أننا جميعاً مربوبون ومخلوقون، وهو ربنا وخالقنا جميعاً. والتعبير بـ «الرحمن»، والذي يشير إلى الرحمة العامة، يعيد إلى أسمع هؤلاء أن الرحمة الإلهية قد عمّت كل وجودنا، فلماذا لا تفكروا لحظة في خالق كل هذه النعمة والرحمة.

وجملته «الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ» يحذّر هؤلاء بأن لا- تظنوا أننا وحيدون أمام جمعكم وكثرتكم، ولا تتصوروا أن كل إتهاماتكم وأكاذيبكم، سواء كانت على ذات الله المقدسة، أو علينا، ستبقى بدون جواب وجزاء، كلاً مطلقاً، فإنه تعالى سندننا ومعتمدنا جميعاً، وهو قادر على أن يدافع عن عباده المؤمنين أمام كل أشكال الكذب والإفراء والإتهام.

«نهاية تفسير سورة الأنبياء»

(١) لا شك أن حكم الله سبحانه بالحق دائماً، وعلى هذا فإن ذكر كلمة (بالحق) هنا له صبغة التوضيح.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٣

٢٢ سورة الحج

محتوى السورة: سميت هذه السورة بـ «سورة الحج» لأن جزءاً من آياتها تحدّث عن الحج. ويمكن تقسيم مواضعها إلى عدّة أقسام هي:

- ١- تضمّنت آيات منها موضوع «المعاد» وأدلته المنطقية، وإنذار الغافلين عن يوم القيامة ونظائر ذلك التي تبدأ هذه السورة بها لتضمّ جزءاً كبيراً منها.
 - ٢- يتضمّن جزء ملحوظ من هذه الآيات جهاد الشرك والمشركين.
 - ٣- دعا جزء آخر من هذه السورة الناس إلى الاعتبار بمصير الأقوام البائدة، وما لاقت من عذاب إلهي.
 - ٤- وتناول جزء آخر منها مسألة الحج وتاريخه منذ عهد إبراهيم عليه السلام.
 - ٥- وتضمّن الجزء الآخر مقاومة الظالمين والتصدي لأعداء الإسلام المحاربين.
 - ٦- وإحتوى قسم آخر نصائح في مجالات الحياة المختلفة.
 - ٧- التشجيع على أعمال الصلاة والزكاة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوكل والتوجه إلى الله (سبحانه وتعالى).
- فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان: قال النبي صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الحج اعطى من الأجر كحجته حجّها، وعمره اعتمرها بعدد من حج واعتمر فيما مضى وفيما بقى».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٤

وهذا الثواب والفضل العظيم ليس لمجرد التلاوة اللفظية فقط، وإنما لتلاوة تنير الفكر، وتفكر يتبعه عمل وتطبيق.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرْوَنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)

زلزلة البعث العظيمة: تبدأ هذه السورة بآيتين تشيران إلى يوم البعث ومقدماته، وهما آيتان تبعدان الإنسان- دون إرادته- عن هذه الحياة المادية العابرة، ليفكر بالمستقبل المخيف الذي ينتظره، المستقبل الذي سيكون جميلاً وسعيداً إن فكرت فيه اليوم، ولكنه مخيف حقاً إن لم تعدّ العدة له، والآية المباركة: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ». خطاب للناس جميعاً بلا استثناء، فقله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ» دليل واضح على عدم التفريق بينهم من ناحية العنصر، واللغة، والزمان، والأماكن الجغرافية، والطوائف،

والقبائل، فهو موجه للجميع: المؤمن والكافر، والكبير والصغير، والشيخ والشاب، والرجل والمرأة، على إمتداد العصور. ثم بينت الآية التالية في عدّه جمل إنعكاس هذا الذعر الشديد، فقالت: «يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ» من شدة الوحشة والرعب.

«وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا».

وثالث إنعكاس لهذا الذعر الشديد: «وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ . وَعَلَهُ ذَلِكُ هُوَ شَدَّةُ الْعَذَابِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ «وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ». هذا العذاب الذي أربع الناس وأفقدهم صوابهم.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤) أتباع الشيطان: بعد أن أعطت الآيات السابقة صورة لرعب الناس حين وقوع زلزاله

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٥

القيامه، أوضحت الآيات اللاحقة حالة اولئك الذين نسوا الله، وكيف غفلوا عن مثل هذا الحدث العظيم، فقالت: «وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ».

نجد هؤلاء الناس يجادلون مرّة في أساس التوحيد ووحدانية الحق تبارك وتعالى، ومرّة يجادلون في قدرة الله على إحياء الموتى، وفي البعث والنشور، ولا دليل لهم على ما يقولون.

ثم تضيف هذه الآية: «وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ». فهؤلاء الأشخاص الذين لا يتبعون منطقاً أو علماً، وإنما يتبعون كل شيطان عنيد ومتمرد، ولا يخضعون لشيطان واحد، بل لجميع الشياطين! شياطين الإنس والجن، الذين لكل منهم برنامج وأحاييله وشراكه.

«مرید»: مشتقة من «مَرَدَ» وأصلها الأرض المرتفعة التي لا نبت فيها. وهنا يقصد بـ «المرید» الشخص الذي خلا من أى خير وسعادة. وطبعى أن يكون مثل هذا الشخص عنيداً وظالماً وعاصياً.

ومن هنا كانت الآية اللاحقة: «كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ» (١).

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَّئِيْن لَّكُمْ وَنُقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧)

دليل المعاد في عالم الأجنة والنبات: بما أن البحث في الآيات السابقة كان يدور حول

(١) «السعير»: مشتقة من «سَعَرَ» بمعنى لهب النار، وتعني هنا نار جهنم الحارقة التي تمتاز بأنها أكثر حرماً من أى نار.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٦

تشكيك المخالفين للمبدأ والمعاد، فالآيات محل البحث طرحت دليلين منطقيين قويين لإثبات المعاد الجسماني: أحدهما التغيرات التي تحدث في مراحل تكوين الجنين، والآخر هو التغيرات التي تحدث في الأرض عند خروج النبات. والخطاب القرآني يعم جميع الناس بنوره: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ» (١). كل ذلك من أجل أن نوضح لكم حقيقة قدرتنا على القيام بأى عمل «لَّئِيْن لَّكُمْ». فتبقى الأجنة في الأرحام إلى مدة معلومة نحن نحددها لتمرّ بمراحل تكاملها، ونسقط ما نريد منها فنخرجها من الأرحام في وسط الطريق قبل أن تكمل «وَنُقُرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى».

ثم تبدأ الأجنة مرحلة تطور جديدة، لنخرجكم أطفالاً من أرحام امهاتكم، «ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً» وبهذا تنتهي مرحلة حياتكم المحددة في

بطون امهاتكم. فتضعون أقدامكم فى محيط أوسع مملوء بالنور والصفاء، وإمكانات واسعة جداً، إلماً أن تكاملكم يستمر فى قطع المسافات بسرعة لتبلغوا الهدف، ألا وهو الرشد والكمال الجسمى والعقلى، «ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ». وهنا يتبدل الجهل إلى علم، والضعف إلى قوة، والتبعية إلى الاستقلال، لكن مسيرة حياتكم تطوى وتستمر فبعضكم يودع الحياة بينما يستمر آخرون حتى المرحلة الأخيرة من الحياة، أى مرحلة الشيخوخة بعد تكاملهم: «وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَقَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمْرِ».

أجل، فالمرء يصل إلى مرحلة لا يتذكر فيها شيئاً، حيث يسيطر عليه النسيان، ويصبح فى وضع وكأنه طفل «لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً». وهذا الضعف والخمول دليل على بلوغ المرء مرحلة إنتقالية جديدة كما نجد ضعف التحام الثمرة بالشجرة حين تبلغ مرحلة النضج مما يدل على وصولها إلى مرحلة الإنفصال.

ثم تتناول الآية بيان الدليل الثانى أى حياة النباتات، فتبين ما يلى: انظر إلى الأرض فى فصل الشتاء فتجدها جافّة وميتة، فإذا سقط المطر وحلّ الربيع، دبّت الحياة والحركة فيها ونبتت أنواع النباتات فيها ونمت «وَتَرَى الْمَارِضَ هَامِدَةً فَبِإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ» (٢).

(١) «المضغة»: مشتقة من «المضغ» وتعنى مقداراً من اللحم يمكن للإنسان مضغه فى لقمة واحدة، وهذا تشبيه رائع للجنين فى المرحلة التى تعقب مرحلة العلقة.

(٢) «الهامة»: تعنى فى الأصل النار التى أطفئت، ويطلق على الأرض التى جفت نباتاتها وأصبحت دون حركة (مفردات الراغب الاصفهاني). والبعض الآخر قال: إن كلمة «هامة» تطلق على الحد الفاصل بين الموت والحياة (تفسير فى ظلال القرآن). «إهتزت»: مشتقة من «الهز» وتعنى تحركت بشدة.

«ربت»: مشتقة من «الربو» وتعنى الزيادة والنمو، كما أن كلمة «ربا» مشتقة أيضاً من «الربو».

«بهيج»: تعنى الجميل الساحر السار.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٧

الآيتان اللاحقتان تشرحان ما توصلنا إليه، وذلك بإستعراض خمس ملاحظات:

١- إن ما إستعرضته الآيات الخاصة بالمراحل التى تسبق مراحل الحياة للإنسان وعالم النبات، من أجل أن تعلموا أن الله تعالى حق «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ». وبما أنه هو الحق، فالنظام الذى خلقه حق أيضاً، لهذا لا يمكن أن يكون هذا الخلق دون هدف.

وبما أن هذه الحياة ليست عبثاً، وأن لها هدفاً، وأننا لا نصل إلى تحقيق ذلك الهدف فى حياتنا، إذن نعلم من ذلك وجود المعاد والبعث حتماً.

٢- إن هذا النظام الذى يسيطر على عالم الحياة يقول لنا «وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى». إن الذى يلبس الأرض لباس الحياة، ويغير النطفة التافهة إلى إنسان كامل، ويمنح الحياة للأرض الميتة، لقادر على أن يمنح الحياة للموتى.

٣- الهدف الآخر هو أن نعلم «وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» ولا يستحيل على قدرته شىء.

هل يمكن لأحد تحويل الأرض الميتة إلى نطفة، ويطور هذه النطفة التافهة فى مراحل الحياة، أليس القادر على القيام بهذه الأعمال بقادر على أن يحيى الإنسان بعد موته؟!!

٤- إن كل هذا لتعلموا أن ساعة نهايه هذا العالم وبدايه عالم آخر، ستحلّ بلا شك فيها «وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّارْتَيْبٍ فِيهَا».

٥- ثم إن كل هذا مقدمة لنتيجة أخيره هى «وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ».

وعلى هذا الأساس أن البعث ليس ممكن فحسب، بل إنه سيقع حتماً.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةُ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)

الجدال بالباطل مرة اخرى: تتحدث هذه الآيات أيضاً عمن يجادلون في المبدأ والمعاد

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٨

جدالاً خاوياً لا أساس له، في البداية يقول القرآن المجيد: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنبِئٍ». وعبارته «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ» هي ذاتها التي ذكرت في آية سابقة، والآية السابقة الذكر دالة على وضع الأتباع الضالين الغافلين، في وقت تكون فيه هذه الآية دالة على قادة هذه المجموعة الضالة.

إنّ «العلم» إشارة إلى الاستدلال العقلي؛ و «الهدى» إشارة إلى إرشاد القادة الربانيين؛ و «الكتاب المنير» إشارة إلى الكتب السماوية، أي أنّها تعني الأدلة الثلاثة المعروفة «الكتاب» و «السنة» و «الدليل العقلي».

ثم يتطرق القرآن المجيد في جملة قصيرة عميقة المعنى إلى أحد أسباب ضلال هؤلاء القادة، فيقول: «ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ». إنهم يريدون أن يضلوا الناس عن سبيل الله بغرورهم وعدم إهتمامهم بكلام الله وبالأدلة العقلية الواضحة.

«ثاني»: مشتقة من «ثني» بمعنى التواء؛ و «عطف»: تعني «جانب» فالجملة تعني ثني الجانب، أي الإعراض عن الشيء وعدم الإهتمام به. ويعقب القرآن ذلك بيان عقابهم الشديد في الدنيا والآخرة بهذه الصورة: «لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ». ونقول له: «ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ». لا يعاقب الله أحداً بلا ذنب، ولا يضاعف عقاب أحد دون سبب، فهو العدل المطلق سبحانه «١».

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَ مَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُو لِمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مَن نَّفَعَهُ لَيْسَ الْمَوْلَى وَ لَيْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنْ اللَّهُ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (١٤)

(١) «ظلام»: صيغة مبالغة تعني كثير الظلم. وطبعي أن الله لا يظلم أبداً لا كثيراً ولا قليلاً، ويمكن أن يكون استخدام هذا التعبير هنا إشارة إلى أن العقاب دون مبرر من قبل الله تعالى - جلّ عن ذلك وعلا علواً كبيراً - مصداق ظلم كبير.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٨٩

سبب التزل

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت هذه الآية «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ» في جماعة كانوا يقدمون على رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة. فكان أحدهم إذا صحّ جسمه ونتجت فرسه وولدت إمرأته غلاماً، وكثرت ماشيته، رضى به، واطمأن إليه، وإن أصابه وجع في المدينة، وولدت امرأته جارية، قال: ما أصبت في هذا الدين إلأشراً.

التفسير

الواقف على حاقه وادى الكفر: تحدثت الآيات السابقة عن مجموعتين: الأتباع الضالين، والقادة المضلين، أما هذه الآيات، فتتحدث عن مجموعة ثالثة هم ضعاف الإيمان، قال القرآن المجيد عن هذه المجموعة: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ». أي إن بعض الناس يعبد الله بقلقة لسان، وإنّ إيمانه ضعيف جداً، ولم يدخل الإيمان إلى قلبه.

ثم تناول القرآن الكريم عدم ثبات الإيمان لدى هؤلاء الأشخاص «فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَ إِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ». إنهم يطمنون إذا ضحكت لهم الدنيا وغمرتهم بخيراتها، ويعتبرون ذلك دليلاً على أحقية الإسلام، إلأنهم يتغيرون ويتجهون إلى الكفر إن امتحنوا بالمشاكل والقلق والفقر، فالدين والإيمان لديهم وسيلة للحصول على ما يبتغون في هذه الدنيا، فإن تم ما يبتغونه كان الدين حقاً، وإلأ فلا.

ويضيف القرآن المجيد في الختام: «خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ» و «ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ». مؤكداً أن أفدح الضرر وأفظع الخسران، هو أن يفقد الإنسان دينه ودنياه.

وتشير الآية التالية إلى إعتقاد هذه الفئة الخليط بالشرك، خاصة بعد الإنحراف عن صراط التوحيد والإيمان بالله، فتقول: «يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْصُرُهُمْ وَمَا لَا يَنْفَعُهُمْ». أى إذا كان هذا الإنسان يسعى إلى تحقيق مصالحه المادية والإبتعاد عن الخسائر ويرى صحة الدين فى إقبال الدنيا عليه، وبطلانه فى إدبارها عنه، فلماذا يتوجه إلى أصنام لا يؤمل منها خير، ولا يخاف منها ضرر، فهى أشياء لا فائدة فيها، ولا أثر لها فى مصير البشر. أجل، «ذَلِكَ هُوَ الضَّلَلُ الْبَعِيدُ». إن هؤلاء لبيتعدون عن الصراط المستقيم بعداً حتى لا ترجى عودتهم إلى الحقِّ إلارجاء ضعيفاً جداً.

ويوسع القرآن الكريم هذا المعنى فيقول: «يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ». لأن هذا المعبود المختلق ينزل بفكرهم إلى الحضيض فى هذه الدنيا، ويدفعهم نحو الخرافات والجهل، ويدعهم فى الآخرة فى نار جهنم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٠

وتضيف الآية فى الختام: «لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ». فما أسوأه ناصرًا ومعينًا، وما أسوأه مؤنسًا ومعاشراً. وفى ختام الآية المباركة نلاحظ مقارنة بين الخير والشر كما هو دأب القرآن الكريم لتتضح النتائج بشكل أكبر، فتقول الآية: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ». فعاقبتهم معلومة ومنهج تفكيرهم وسلوكهم واضح فمولاهم هو الله تعالى، ورفاقهم وجلساؤهم فى الآخرة هم الأنبياء والصالحون والملائكة، وأن الله سبحانه يثيب المؤمنين العاملين للصالحات، جنات تجرى من تحتها الأنهار، لينعموا بالسعادة والسرور جزاء إستقامتهم على الحق وإستجابتهم له فى الحياة الدنيا «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ». وثوابهم يسير عليه - جلّ وعلا- يُشِيرَ عقاب الذين ظلموا أنفسهم بإيثار الباطل على الحق، وعبادتهم الأصنام من دون الله سبحانه.

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيبُ (١٥) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ (١٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)

البعث نهاية جميع الخلافات: بما أن الآيات السابقة كانت تتحدث عن ضعفاء الإيمان، فإن الآيات مورد البحث ترسم لنا صورة أخرى عن هؤلاء فتقول: «مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيبُ». هذه الآية تركّز على ملاحظة نفسه تخصّ الأشخاص الحادى المزاج، والضعفى الإيمان الذين يصابون بالهلع ويرتكبون أعمالاً جنونية كلما بلغت امورهم طريقاً مسدوداً فى الظاهر.

وأشارت الآية التالية إلى خلاصة الآيات السابقة، فقالت: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ».

لقد أوضحت الآيات السابقة أدلة المعاد والبعث، كالمراحل التى يمرّ بها الجنين الإنسانى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩١

ونموّ النباتات وإحياء الأرض بعد موتها، ولكن هذه الأدلة الواضحة والبراهين الدامغة لا تكفى لتقبل الحق، بل لابد من إستعداد ذاتى لذلك. ولهذا يقول القرآن المجيد فى نهاية الآية:

«وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ».

وأشارت آخر الآية هنا إلى ستّ فئات، إحداها مسلمة مؤمنة، وخمس منها غير مسلمة:

«إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَىٰ وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ».

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)

الوجود كله يسجد لله: بما أن الحديث في الآيات السابقة كان عن المبدأ والمعاد، فإن الآية- موضع البحث- بطرحها مسألة التوحيد، قد أكملت دائرة المبدأ والمعاد، وتخطب النبي صلى الله عليه وآله فتقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ». ولا يقتصر الحال على هذه المخلوقات، بل إن الكثير من الناس يشاركون عالم الموجود بالسجود لله تعالى سوى بعض الكفار الذين يتحركون من موقع العناد والجحود: «وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ». ثم تضيف: وهؤلاء ليست لهم قيمة عند الله تعالى، ومن كان كذلك فهو مهان: «وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ». أى إن من يهينه الله لا يكرمه أحد، وليست له سعادة ولا أجر، حقاً «إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ». فهو يكرم المؤمنين به، ويذل المنكرين له.

إن للموجودات مع ملاحظة ما ورد في الآية- موضع البحث- شكلين من السجود: «سجود تكويني» و «سجود تشريعي».

فالسجود التكويني هو الخضوع والتسليم لإرادة الله ونواميس الخلق والنظام المسيطر على هذا العالم دون قيد أو شرط، وهو يشمل ذرات المخلوقات كلها، حتى أنه يشمل خلايا أدمغة الفراعنة والمنكرين العنودين وذرات أجسامهم فجميع يسجدون لله تعالى تكويناً.

وحسبما يقوله عدد من الباحثين، فإن ذرات العالم كلها لها نوع من الإدراك والشعور، ولذا يسبحون الله ويحمدونه ويسجدون له ويصلون له بلسانهم الخاص (شرحنا ذلك في

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٢

تفسير الآية ٤٤ من سورة الإسراء) وإذا رفضنا هذا النوع من الإدراك والشعور، فلا مجال لإنكار تسليم الكائنات جميعاً للقوانين الحاكمة على نظام الوجود كله.

أما «السجود التشريعي» فهو غاية الخضوع من العقلاء المدركين العارفين لله سبحانه.

هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ (١٩) يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ (٢٠) وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٢٢) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطٍ الْحَمِيدِ (٢٤)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآية «هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ» في ستة نفر من المؤمنين والكفار، تبارزوا يوم بدر وهم: حمزة بن عبد المطلب قتل عتبة بن ربيعة وعلي بن أبي طالب عليه السلام قتل الوليد بن عتبة، وعبيدة بن الحرث بن عبد المطلب قتل شيبه بن ربيعة.

التفسير

خصمان متقابلان: أشارت الآية السابقة إلى المؤمنين وطوائف مختلفة من الكفار، وحددتهم بست فئات. أمّا هنا فتقول: «هَذَانِ خَصِمَانِ اِخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ».

ثم تبين الآية أربعة أنواع من عقاب الكافرين المنكرين لله تعالى بوعى منهم، والعقاب الأول حول لباسهم، فتقول الآية: «فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ».

ويمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى لباسهم الذي اعد لهم من قطع من نار، أو كناية عن إحاطة نار جهنم بهم من كل جانب.

ثم: «يُصَّبُ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ». أى يصب على رؤوسهم سائل حارق هو حميم

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٣

النار، وهذا الماء الحارق القوار ينفذ إلى داخل أبدانهم ليذيب باطنها وظاهرها «يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ» (١).

وثالث نوع من العقاب هو: «وَلَهُمْ مَقْمَعٌ مِنْ حَدِيدٍ» (٢). أى أعدت لهم أسواط من الحديد المحرق.

والرابع: «كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ». أى كلما أرادوا الخروج من جهنم والخلاص من آلامها وهمومها أعيدوا إليها، وقيل لهم ذوقوا عذاب الحريق.

وأوضحت الآيات التالية وضع المؤمنين الصالحين، مستخدمة أسلوب المقارنة، لتكشف بها عن وضع هاتين المجموعتين، وهنا تستعرض هذه الآيات خمسة أنواع من المكافئات للمؤمنين: «إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ».

فخلافاً للمجموعة الأولى الذين يتقلبون في نار جهنم، نجد أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يتمتعون بنعيم رياض الجنة على ضفاف الأنهر وهذه هي المكافأة الأولى، وأما لباسهم وزينتهم فتقول الآية: و «يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ» (٣). وهاتان مكافئتان يمن الله بهما كذلك على عباده العالمين في الجنة، يهبهم أفخر الملابس التي حرموا منها في الدنيا، ويحليهم بزينة الأساور التي منعوا عنها في الحياة الأولى، لأنها كانت تؤدي إلى إصابتهم بالغرور والغفلة، وتكون سبباً لحرمان الآخرين وفقدهم، أما في الجنة فينتهي هذا المنع ويباح للمؤمنين لباس الحرير والحلى وغيرها.

وأخيراً الهبة الرابعة والخامسة التي يهبها الله للمؤمنين الصالحين ذات سمة روحانية «وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ» حديث ينمى الروح. وألفاظ تشير حيوية الإنسان، وكلمات ملؤها النقاء والصفاء التي تبلغ بالروح درجة الكمال وتملأ القلب بهجة وسروراً، «وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ» (٤). هكذا يهدون إلى طريق الله الحميد، الجدير بالثناء، طريق معرفة الله

(١) «يصهر»: مشتقة من «صهر» على وزن «قهر» وتعنى تذويب الشحم؛ أما «الصهر» على وزن «فكر» فتعنى النسيب.

(٢) «المقماع»: جمع «مقمع» على وزن «منبر» وتعنى السوط أو العمود الحديدي يضرب به المذنب عقاباً له.

(٣) «أساور»: جمع «أسورة» على وزن «مشورة» وهي بدورها جمع لكلمة «سوار» على وزن «كتاب» وتعنى المعضد.

(٤) «الحميد»: تعنى المحمود، وتطلق على من يستحق الثناء، وهنا يقصد بها الله تعالى، وعلى هذا فإن «الصراط الحميد» يعنى السبيل إلى مقام مقرب من الله تعالى.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٤

والتقرب المعنوي والروحي إليه، سبيل العشق والعرفان. حقاً إن الله يهدى المؤمنين إلى هذا الطريق الذي ينتهى إلى أعلى درجات اللذة الروحية.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢٥)

الذين يصدون عن بيت الله الحرام: تحدثت الآيات السابقة عن عامة الكفار، وهذه الآية تشير إلى مجموعة خاصة منهم باءت بمخالفات وذنوب عظيمة، ذات علاقة بالمسجد الحرام ومراسم الحج العظيم. تبدأ هذه الآية ب «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ».

وكذلك يصدون ويمنعون المؤمنين عن مركز التوحيد العظيم: «وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ». أى سواء المقيمون فيه والذين يقصدونه من مكان بعيد. «وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ». أى كل من أراد الانحراف في هذه

الأرض المقدسة عن الحق ومارس الظلم والجور أذقناه عذاباً أليماً.

وهذه الفئة من الكفار ترتكب ثلاث جرائم كبيرة، إضافةً إلى إنكارها الحق، وجرائمها هي:

١- صدّ الناس عن سبيل الله والإيمان به والطاعة له.

٢- صدّهم عن حج بيت الله الحرام، وتوهم أنّ لهم إمتيازاً عن الآخرين.

٣- ممارستهم للظلم وإرتكابهم الإثم في هذه الأرض المقدسة، والله يعاقب هؤلاء بعذاب أليم.

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٤) وَ أَدْنَىٰ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعُمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٥

الدعوة العامة للحج: تناولت الآية السابقة فضيئة المسجد الحرام وحجاج بيت الله، أما هذه الآيات فتستعرض بناء الكعبة على يد إبراهيم الخليل عليه السلام، ووجوب الحج وفلسفته، وبعض أحكام هذه العبادة الجليلة. إذ بدأت بقصة تجديد بناء الكعبة: «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ». أي تذكر كيف أعددنا لإبراهيم مكان الكعبة ليقوم بينها.

«بِوَأ»: مشتقة من بواء، أي الأرض المسطحة، ثم أطلقت على إعداد المكان مطلقاً.

وتقصد هذه الآية أنّ الله هدى إبراهيم عليه السلام إلى مكان الكعبة بعد أن هدمت بطوفان نوح وخفيت معالمها، إذ حدثت عاصفة فأزالت التراب وكشفت عن اسس البيت، أو بعث الله سحابة ظللت مكان البيت، أو بأى أسلوب آخر كشف الله لإبراهيم عليه السلام أسس الكعبة، فقام هو وإبنيه إسماعيل عليهما السلام بتجديد بناء بيت الله الحرام.

وتضيف الآية الكريمة أنه عندما تمّ بناء البيت خوطب إبراهيم عليه السلام: «أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ».

فمهمّة إبراهيم عليه السلام كانت تطهير البيت وما حوله من أى نجس ظاهر أو باطن، ومن أى صنم أو مظهر للشرك، من أجل أن يوجه عباد الرحمن قلوبهم وأبصارهم إليه تعالى وحده في هذا المكان الطاهر، وليقوموا بأهمّ العبادات في هذه البقعة المباركة، ألا وهو الطواف والصلاة في محيط إيماني لا يخالطه شرك.

وبعد إعداد البيت للعبادة، أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام: «وَ أَدْنَىٰ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ».

«أَدْنَى»: مشتقة من «الأذان» أي «الإعلان»؛ و «رجال»: جمع «راجل» أي «ماشى»؛ و «الضامر»: تعنى الحيوان الضعيف؛ و «الفج»: في الأصل تعنى المسافة بين جبلين، ثم أطلقت على الطرق الواسعة؛ و «العميق»: تعنى هنا «البعيد».

في تفسير علي بن إبراهيم القمي: لما فرغ إبراهيم عليه السلام من بناء البيت أمره الله أن يؤذن في الناس بالحج فقال: «يا رب وما يبلغ صوتي». فقال الله: «أذن عليك الأذان وعلى البلاغ».

وارتفع على المقام وهو يومئذ ملصق بالبيت فارفع المقام حتى كان أطول من الجبال فنأدى وأدخل اصبعيه في اذنيه وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً يقول: أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربكم، فأجابوه من تحت البحور السبعة ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أطراف الأرض كلها ومن أصلاب الرجال وأرحام النساء بالتلبية: لييك

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٦

اللهم لييك أولاً- ترونهام يأتون يلبون فمن حج من يومئذ إلى يوم القيامة فهم ممن استجاب لله وذلك قوله «فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ» يعنى نداء إبراهيم على المقام بالحج. وتناولت الآية التالية فلسفة الحج فقالت: «لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ». أي إنّ على الناس الحج

إلى هذه الأرض المقدسة، ليروا منافع لهم بام أعينهم.

إن كلمة «المنافع» تشمل جميع المنافع والبركات المعنوية والمكاسب المادية، وكل عائد فردي واجتماعي، ومعطيات سياسية واقتصادية وأخلاقية، فما أحرى بالمسلمين أن يتوجهوا من أنحاء العالم إلى مكة ليشهدوا هذه المنافع.

ثم تضيف الآية: «وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مِا رَزَقَهُمْ مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ». أي أنه على المسلمين أن يحجوا إلى البيت ويقدموا القرابين من المواشى التي رزقهم الله، وأن يذكروا اسم الله عليها حين الذبح في أيام معينة تبدأ من العاشر من ذى الحجة وتنتهى بالثالث عشر منه.

وهذا الذكر إشارة إلى توجه الحاج إلى الله كل التوجه عند تقديم الاضحية، وهمه كسب رضى الله وقبوله القربان، كما أن الاستفادة من لحم الاضحية تقع ضمن هذا التوجه.

ويعتبر تقديم الأضاحي رمزاً لإعلان الحاج إستعداده للتضحية بنفسه في سبيل الله، على نحو ما ذكر من قصة إبراهيم عليه السلام ومحاولة التضحية بابنه إسماعيل عليه السلام. إن الحجاج بعملهم هذا يعلنون إستعدادهم للإيثار والتضحية في سبيل الله حتى بأنفسهم. وعلى كل حال فإن القرآن بهذا الكلام ينفي اسلوب المشركين الذين كانوا يذكرون أسماء الأصنام التي يعبدونها على أضحاهم، ليحيلوا هذه المراسم التوحيدية إلى شرك بالله، وجاء في ختام الآية: «فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ».

تتابع هذه الآيات البحث السابق عن مناسك الحج مشيرة إلى جانب آخر من هذه المناسك، فتقول أولاً: «ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ». أي ليظهروا أجسامهم من

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٧

الأوساخ والتلوث، ثم ليوفوا ما عليهم من ندور. «وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ». أي يطوفوا بذلك البيت الذى صانه الله عن المصائب والكوارث وحزره.

«تفت»: تعنى القذاره وما يلتصق بالجسم وزوائده كالأظافر والشعر. بتعبير آخر: تشير هذه العبارة إلى برنامج «التقصير» الذى يعد من مناسك الحج.

إنما سميت الكعبة بالبيت العتيق، و «العتيق»: مشتقة من «العتق»، أى التحرر من قيود العبودية، وربما كان ذلك لأن الكعبة تحررت من قيود ملكية عباد الله، ولم يكن لها مالك إلا الله، كما حررت من قيد سيطرة الجابرة كأبرهه.

ومن معانى «العتيق» أيضاً الشىء الكريم الثمين، وهذا المعنى يتجسد فى الكعبة بوضوح.

ومن المعانى الاخرى للعتيق «القديم»، فلا مانع من إطلاق العتيق على بيت الله بعد ملاحظه ما تتضمنه هذه الكلمه من معان.

والمراد من «الطواف» هنا طواف النساء، ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام فى قول الله عز وجل: «وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» قال: «طواف النساء» (١).

وأشارت الآية الأخيرة إلى خلاصه ما بحثته الآيات السالفه الذكر، حيث تبدأ بكلمه «ذَلِكَ» التى لها جملته محذوفه تقديرها «كذلك أمر الحج والمناسك». ثم تضيف تأكيداً لأهميه الواجبات التى شرحت: «وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ».

والمقصود هنا ب «الحرمت» - طبعاً - أعمال ومناسك الحج، ويمكن أن يضاف إليها احترام الكعبة خاصه والحرم المكي عامه.

ثم تشير هذه الآية وتناسباً مع أحكام الإحرام إلى حليه المواشى، حيث تقول:

«وَأَحَلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ».

وفى ختام هذه الآية ورد أمران يخصان مراسم الحج ومكافحة العادات الجاهلية:

الأول يقول: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ». و «الأوثان»: جمع «وثن» على وزن «كفن» وتعنى الأحجار التى كانت تُعبد زمن الجاهلية،

وهنا جاءت كلمه الأوثان إيضاحاً لكلمه «رجس» التى ذكرت فى الآية، حيث تقول: «اجْتَنِبُوا الرِّجْسَ». ثم تليها عبارة «مِنَ الْأَوْثَانِ». أى

الرجس هو ذاته الأوثان.

(١) وسائل الشيعة ٩/ ٣٩٠.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٨

والأمر الثاني هو: «وَأَجْتَبُوا قَوْلَ الزُّورِ». أى الكلام الباطل الذى لا أساس له من الصحة.

إن هذه الآية إشارة إلى كيفية تلبية المشركين فى مراسم الحج فى زمن الجاهلية، لأنهم يلبون بشكل يتضمّن الشرك بعينه، ويبعدونه عن صورته التوحيدية.

ومع هذا فإن إهتمام الآية المذكورة بأعمال المشركين، لا يمنع من تعميمها على بطلان أية عبادة للأصنام بأية صورة كانت، وإجتناّب أى قول باطل مهما كانت صورته.

حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَىٰ النِّبْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)

عقبت الآيات هنا المسألة التى أكدتها آخر الآيات السابقة، وهى مسألة التوحيد، وإجتناّب أى صنم وعبادة الأوثان، حيث تقول: «حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ». أى أقيموا مراسم الحج والتلبية فى حالة تخلصون فيها النية لله وحده لا يخالطها أى شرك أبداً.

«حففاء»: جمع «حنيف» أى الذى إستقام وإبتعد عن الضلال والانحراف. أو بتعبير آخر:

هو الذى سار على الصراط المستقيم.

إن الآية السابقة اعتبرت الإخلاص وقصد القربة إلى الله محرّكاً أساسياً فى الحج والعبادات الأخرى، حيث ذكرت ذلك بشكل عام، فالإخلاص أصل العبادة، والمراد به الإخلاص الذى لا يخالطه أى نوع من الشرك وعبادة غير الله.

ثم ترسم الآية- موضع البحث- صورة حيّة ناطقة عن حال المشركين وسقوطهم وسوء طالعهم، حيث تقول: «وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخَطَفَهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ» (١).

«السماء»: هنا كناية عن التوحيد؛ و «الشرك» هو السبب فى السقوط من السماء هذه.

والذى يسقط من السماء يفقد كل قدرة على اتّخاذ قرار ما، ويبتلى بفقدانه هذا المكان

(١) «تخطفه»: مشتقة من «الخطف» على وزن فعل، بمعنى الإمساك بالشيء أثناء تحرّكه بسرعة؛ و «سحيق»: تعنى «البعيد» وتطلق على

النخلة العالية كلمة «سحوق».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٢٩٩

السامى بأهوائه النفسية المعاندة وتزداد سرعة سقوطه لحظة بعد اخرى نحو العدم، ويصبح نسياً منسياً.

وأوجزت الآية التالية مسائل الحج وتعظيم شعائر الله ثانية فتقول «ذَلِكَ» أى إن الموضوع كما قلناه، وتضيف: «وَمَنْ يُعْظَمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ».

«الشعائر»: جمع «شعيرة» بمعنى العلامة والدليل، وعلى هذا فالشعائر تعنى علامات الله وأدلته، وهى تضمّ عناوين لأحكامه وتعاليمه العامة، وأول ما يلفت النظر فى هذه المراسم مناسك الحج التى تذكّرنا بالله سبحانه وتعالى.

ويمكن القول: إن شعائر الله تشمل جميع الأعمال الدينية التى تذكّر الإنسان بالله سبحانه وتعالى وعظمته، وإن إقامة هذه الأعمال دليل على تقوى القلوب.

ويستدلّ من بعض الأحاديث أنّ مجموعة من المسلمين كانوا يعتقدون بعدم جواز الركوب على الاضحية (الناقة أو ما شابهها) حين

جلبها من موطنهم إلى منى للذبح، كما يرون عدم جواز حلبها أو الإستفادة منها بأي شكل كان، ولكن القرآن نفى هذه العقيدة الخرافية حيث قال: «لَكُمْ فِيهَا مَنفَعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى». وتذكر الآية في ختامها نهاية مسار الاضحية: «ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ».

وعلى هذا يمكن الاستفادة من الانعام المخصصة للضحية ما دامت في الطريق إلى موضع الذبح، وبعد الوصول يجرى ما يلزم. وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَ الصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَ الْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥) بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ: يمكن أن يتساءل الناس عن الآيات السابقة. ومنها التعليمات الواردة بخصوص الاضحية، كيف شرع الإسلام تقديم القرابين لكسب رضى الله؟ وهل الله سبحانه بحاجة إلى قربان؟ وهل كان ذلك متبعاً في الأديان الاخرى، أو يخص المشركين وحدهم؟

تقول أول آية- من الآيات موضع البحث- لايضاح هذا الموضوع أن هذا الأمر لا يختص بكم، بل إن كل امه لها قرابين: «وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٠

مختصر الامثل ج ٣ ٣٤٩

ذبح حيوان باسم الله ولكسب رضاه يبين استعداد الإنسان للتضحية بنفسه في سبيل الله، والاستفادة من لحم الاضحية وتوزيعه على الفقراء أمر منطقي.

ولذا يذكر القرآن في نهاية هذه الآية: «فَالِهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ». وبما أنه إله واحد «فَلَهُ أَسْلِمُوا». وبشّر الذين يتواضعون لأحكامه الربانية و «بَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ» (١).

ثم يوضح القرآن المجيد في الآية التالية صفات المخبتين (المتواضعين) وهى أربع: إثنان منها ذات طابع معنوي، وإثنان ذات طابع جسماني.

يقول في الأول: «الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ». لا يخافون في غضبه دون سبب ولا يشكون في رحمته، بل إن خوفهم ناتج عن عظمة المسؤوليات التي بذمتهم، واحتمال تقصيرهم في أداؤها، وليقينهم بجلال الله سبحانه يقفون بين يديه بكل خشوع. والثانى: «وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ». فهؤلاء يصبرون على ما يكابدونه في حياتهم من مصائب وآلام، ولا يكفرون بأنعم الله أبداً، ويأجيز نقول: يستقيمون وينتصرون.

والثالث والرابع: «وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ». فمن جهة توطدت علاقتهم ببارئ الخلق وازدادوا تقرباً إليه، ومن جهة اخرى إشتد إرتباطهم بالخلق بالإنفاق.

وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)

لماذا الاضحية؟ عاد الحديث عن مراسم الحج وشعائره الإلهية والاضحية ثانية، ليقول أولاً: «وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ». إن «البدن»: وهى الإبل البدينة تعلقت بكم من جهة، ومن جهة اخرى هى من شعائر الله وعلائمه فى هذه العبادة العظيمة، فالاضحية فى

(١) «المخبتين»: مشتقة من «الإخبات» وأصلها «خبت» وهى الأرض المستوية الواسعة التى يمشى الإنسان فيها بكل سهولة، كما جاءت بمعنى الإطمئنان والخضوع، لأن السير فى هذه الأرض يلازمه الإطمئنان، ولهذا تكون خاضعة مستسلمة للسائرين عليها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠١

الحج من المظاهر الجلية لهذه العبادة التي أشرنا إلى فلسفتها من قبل.

ثم تضيف الآية: «لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ» فمن جهة تستفيدون من لحومها وتطعمون الآخرين، ومن جهة أخرى تستفيدون من آثارها المعنوية بإيثارككم وسماحكم وعبادتكم الله، وبهذا تتقربون إليه سبحانه وتعالى.

ثم تبين الآية كيفية ذبح الحيوان: «فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ». أى: اذكروا اسم الله حين ذبح الحيوان وفى حالة وقوفه مع نظائره فى صفوف.

وليس لذكر الله حين ذبح الحيوان أو نحر الناقة صيغة خاصة، بل يكفى ذكر اسم من أسماء الله عليها، كما يبدو من ظاهر الآية.

«صَوَافَّ»: جمع «صَافَّة» بمعنى الحيوان الواقف فى صفّ، وكما ورد فى الأحاديث فإنّ القصد من ذلك عقل رجلى الناقة الأماميتين معاً حين وقوفها من أجل منعها من الحركة الواسعة حين النحر، وطبيعى أن أرجل الناقة تضعف حين تنزف مقداراً من الدم، فتمتدّد على الأرض، ويقول القرآن المجيد هنا: «فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ». أى عندما تستقر ويهدأ جانبها (كناية عن لفظ الأنفاس الأخيرة) فكلوا منها وأطعموا الفقير القانع والسائل المعتر.

الفرق بين «القانع» و «المعتر» هو أن القانع يطلق على من يقنع بما يُعطى وتبدو عليه علائم الرضى والإرتياح ولا يعترض أو يغضب، أما المعترّ فهو الفقير السائل الذى يطالبك بالمعونة ولا يقنع بما تعطيه، بل يحتجّ أيضاً.

إنّ عبارة «كُلُوا مِنْهَا» توجب أن يأكل الحجاج من أضاحيهم، ولعلّها ترمى إلى مراعاة المساواة بين الحجاج والفقراء.

وتنتهى الآية بالقول: «كَذَلِكَ سَخَّرْنَاكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ». وإنّه لمن العجب أن يستسلم حيوان عظيم الجثّة هائل القوّة لطفل يعقل يديه معاً ثم ينحره.

تجيب الآية التالية عن هذه الأسئلة: «لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا». إنّ الله ليس بحاجة إلى لحوم الأضاحى، فما هو بجسم، ولا هو بحاجة إلى شىء، وإنّما هو موجد كل وجود وموجود. إنّ الغاية من الاضحية كما تقول الآية: «وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ». فالهدف هو أن يجتاز المسلمون مراحل التقوى ليلغوا الكمال ويتقربوا إلى الله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٢

إنّ جميع العبادات دروس فى التربية الإسلامية، فتقديم الاضحية - مثلاً - فيه درس الإيثار والتضحية والسماح والاستعداد للشهادة فى سبيل الله، وفيه درس مساعدة الفقراء والمحتاجين. وعبارة «لَنْ يَنَالَ اللَّهُ لُحُومَهَا وَلَا دِمَاؤُهَا» مع أنّ دماءها غير قابلة للاستفادة، ربّما تشير إلى الأعمال القبيحة التى كان يمارسها أعراب الجاهلية، الذين كانوا يلطّخون أصنامهم وأحياناً الكعبة بدماء هذه القرابين.

وقد اتّبعتهم فى ممارسته هذا العمل الخرافى مسلمون جاهلون، حتى نهتهم هذه الآية المباركة.

ثم تشير الآية ثانية إلى نعمته تسخير الحيوان قائله: «كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتَكْبُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ».

إنّ الهدف الأخير هو التعرف على عظمه الخالق جلّ وعلا، لهذا تقول الآية فى الختام:

«وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ». اولئك الذين استفادوا من هذه النعم الإلهية فى طاعة الله، وأنجزوا واجباتهم على خير وجه، ولم يقصروا فى الإنفاق فى سبيل الله أبداً.

وقد تؤدّى مقاومة خرافات المشركين التى أشارت إليها الآيات السابقة إلى إثارة غضب المتعصبين المعاندين، ووقوع إشتباكات محدودة أو واسعة، لهذا طمأن الله سبحانه وتعالى المؤمنين بنصره: «إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا».

لتتحد قبائل عرب الجاهلية مع اليهود والنصارى والمشركين فى شبه الجزيرة العربية للضغط على المؤمنين كما يحلو لهم، فلن يتمكنوا من بلوغ ما يطمحون إليه، لأنّ الله وعد المؤمنين بالدفاع عنهم وعداً تجلّى صدقه فى دوام الإسلام حتى يوم القيامة، ولا يختص الدفاع الإلهي عن المؤمنين فى الصدر الأوّل للإسلام وحسب، بل هو سارى المفعول أبد الدهر، فإن كُنّا على نهج الذين آمنوا. فالدفاع

الإلهي عنّا أكيد. ومن ذا الذي لا يلتمس دفاع الله سبحانه عن عباده الصالحين؟

وفى الختام توضّح هذه الآية موقف المشركين وأتباعهم بين يدي الله بهذه العبارة الصريحة: «إِنَّ اللَّهَ لَأَيُّحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ». اولئك الذين أشركوا بالله حتى أنهم ذكروا أسماء أوثانهم عند التلبية. فثبتت عليهم الخيانة والكفر لأنعم الله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٣

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَ لَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)

أول حكم بالجهاد: في تفسير مجمع البيان (والتفسير الكبير أيضاً) كان المشركون يؤذون المسلمين ولا يزال يجيء مشجوج ومضروب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ويشكون ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول لهم صلوات الله عليه وآله: «اصبروا فإنني لم أوامر بالقتال». حتى هاجر، فأنزل الله عليه هذه الآية بالمدينة، وهي أول آية نزلت في القتال.

ولما وعد الله المؤمنين بالدفاع عنهم في الآية السابقة يتضح جيداً الارتباط بين هذه الآيات. تقول الآية: إن الله تعالى أذن لمن يتعرض لقتال الأعداء وعدوانهم بالجهاد، وذلك بسبب أنهم ظلموا: «أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا». ثم أردفت بنصرة الله القادر للمؤمنين «وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ».

عليكم بالجد والعمل بكل ما تستطيعون من قدرة، وعندما تستحقون النصر بإخلاصكم ينجدكم الله وينصركم على أعدائه، وهذا ما حدث للرسول صلى الله عليه وآله في جميع حروبه التي كانت تُكَلَّلُ بالنصر.

ثم توضّح هذه الآيات للمظلومين - الذين أذن لهم بالدفاع عن أنفسهم - بواعث هذا الدفاع، ومنطق الإسلام في هذا القسم من الجهاد فتقول: «الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ». وذنبهم الوحيد أنهم موحدون: «إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ».

ثم تستعرض الآية واحداً من جوانب فلسفته تشريع الجهاد فتقول: «وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا». أي إن الله إن لم يدافع عن المؤمنين، وبدفع بعض الناس ببعضهم عن طريق الإذن بالجهاد،

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٤

لهدمت أديرة وصوامع ومعابد اليهود والنصارى والمساجد التي يذكر فيها اسم الله كثيراً.

وكل دعوة لعبادة الله وتوحيده مضادة للجباية الذين يريدون أن يعبدهم الناس تشبهاً منهم بالله تعالى، لهذا يهدمون أماكن توحيد الله وعبادته، وهذا من أهداف تشريع الجهاد والإذن بمقاتلة الأعداء. «الصوامع»: جمع «صومعة» وهي عادةً مكان خارج المدينة بعيد عن أعين الناس مخصّص لمن ترك الدنيا من الزهاد والعباد. و «البيع»: جمع بيعه بمعنى معبد النصارى، ويطلق عليها كنيسة أيضاً. و «الصلوات»: جمع صلاة، بمعنى معبد اليهود، ويرى البعض أنها معربة لكلمة «صلواتا» العبرية، التي تعني المكان المخصّص بالصلاة. وأمّا «المساجد»: فجمع مسجد، وهو موضع عبادة المسلمين. والصوامع والبيع، رغم أنها تخصّ النصارى، إلّا أنّ إحداها معبد عام والاخرى لمن ترك الدنيا.

وفى الختام أكّدت هذه الآية ثانية وعد الله بالنصر: «وَلَيُنصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ» ولا شك في إنجاز هذا الوعد، لأنه من رب العزة القائل: «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ»، من أجل ألا يتصور المدافعون عن خطّ التوحيد أنهم وحيدون في ساحة قتال الحق للباطل، ومواجهه جموع كثيرة من الأعداء الأقوياء.

و آخر آية تفسر المراد من أنصار الله الذين وعدهم بنصره في الآية السابقة، وتقول:

«الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ».

إنهم فئة لا تلهو ولا تلعب كالجباية بعد انتصارها، ولا يأخذها الكبر والغرور، إنما ترى النصر سلماً لإرتقاء الفرد والجماعة، إنها لن

تتحول إلى طاغوت جديد بعد وصولها إلى السلطة، لإرتباطها القوى بالله، والصلاة رمز هذا الارتباط بالخالق، والزكاة رمز للإلتحام مع الخلق، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر دعامتان قويتان لبناء مجتمع سليم، وهذه الصفات الأربع تكفي لتعريف هؤلاء الأفراد، ففي ظلها تتم ممارسة سائر العبادات والأعمال الصالحة، وترسم بذلك خصائص المجتمع المؤمن المتطور.

وتقول الآية في ختامها: «وَلِلَّهِ عِقَبُ الْأُمُورِ». وتعنى أن بداية أى قدره ونصر من الله تعالى، وتعود كلها فى الأخير إليه ثانية.

وقد أشارت هذه الآيات إلى أمرين مهمين فى فلسفة الجهاد:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٥

أولهما: جهاد المظلوم للظالم، وهو من حقوقه المؤكدة والطبيعية، التى يؤكدها عقل الإنسان وفطرته. وليس له أن يستسلم للظلم.

وثانيهما: جهاد الطواغيت الذين ينوون محو ذكر الله من القلوب بتهديم المعابد التى هى مراكز لبث الوعى وإيقاظ الناس.

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَوْمٍ أَحْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبُئِرٌ مُعَطَّلَةٌ وَقَصْرٌ مَشِيدٌ (٤٥)

لقد صدر أمر الجهاد للمسلمين بعد أن ذاقوا- كما ذكرت الآيات السابقة- وقد طمأنت الآيات- موضع البحث- الرسول صلى الله عليه وآله والمؤمنين وخففت عنهم من جهة، وبيئت لهم أن العاقبة السيئة تنتظر الكفرة من جهة اخرى، فقالت: «وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ». أى إذا كذبتك هؤلاء القوم فلا تبتئس ولا تحزن، فالأقوام السابقة قد كذبت رسلها أيضاً، وأضافت: «وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ».

وكذلك كذب أهالى مدينة «مدین» نبیهم «شعیب»، وكذب فرعون وقومه نبیهم «موسى» «وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى .

وإن هذه المعارضة والتكذيب لن تؤثر فى روحك الطاهرة ونفسك المطمئنة، مثلما لم تؤثر فى أنبياء كبار قبلك ولم تعق مسيرتهم التوحيدية ودعوتهم إلى الحق والعدل قط.

إلا أن هؤلاء الكفرة الأغبياء يتصورون إمكانية مواصلة هذه الأساليب المخزية.

«فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ». أجل، أمهل الله الكافرين ليؤدوا إمتحانهم وليتم الحجة عليهم فأغرقهم بِنعمه، ثم حاسبهم حساباً عسيراً.

«فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ» (١) ورأيت كيف أنكرت عليهم أعمالهم، وبيئت لهم أعمالهم القبيحة، لقد سلبت منهم نعمتى وجعلتهم على أسوأ حال ... سلبت سعادتهم الدنيوية وعوضتهم بالموت.

(١) «النكير»: تعنى الإنكار وهنا تعنى فرض العقاب.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٦

آخر آية موضع البحث يبين الله تعالى كيفية عقاب الكفار بجملة موجزة ذات دلالة واسعة: «فَكَأَيِّنْ مِنْ قَوْمٍ أَحْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ». وأضافت الآية أن سقف بيوتها قد بانت أسفل البناء: «فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا». أى إن الواقعة كانت شديدة حتى أن السقوف إنهارت أولمّا ثم الجدران على السقوف «وَبُئِرٌ مُعَطَّلَةٌ» فما أكثر الآبار المترعة بمياهها العذبة، ولكنها غارت فى الأرض بعد هلاك أصحابها فأصبحت معطلة لا نفع فيها.

«وَقَصْرٌ مَشِيدٌ» (١). أجل ما أكثر القصور المشيدة التى إرتفعت شاهقة وزُيّنت، إلا أنها أضحت خرائب بعد أن هلك أصحابها، والنتيجة إنهم تركوا مساكنهم وقصورهم المجللة، وأهملوا مياههم وعيونهم التى كانت مصدر حياتهم وعرمان أراضيهم وذهبوا، وكذلك الآبار الغتية بالماء أصبحت معطلة لا ماء فيها.

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ

(٤٦) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَكَأَيُّنَ مِنْ قَوْمٍ أَمَلِيَتْ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ (٤٨)

السير فى الأرض والعبرة: تحدثت الآيات السابقة عن الأقوام الظالمة التى عاقبها الله على ما إقترفت أيديهم فدمر أحياءهم، وأكدت الآية الاولى هذه القضية فقالت: «أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونُ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا».

أجل، تحدثنا عن خرائب قصور الظلمة، ومنازل الجبابرة المهدمه، وعبده الدنيا.

إن هذه الخرائب كتب ناطقة تتحدث عن ماضى هؤلاء الأقوام، ونتائج أعمالهم وسلوكهم فى الحياة، وعن أعمالهم المشؤومة، وأخيراً عن العقاب الذى صبّه الله عليهم.

ولإيضاح حقيقة هذا الكلام بشكل أفضل قال القرآن المجيد: «فَإِنَّهَا لَاتَعْمَى الْأَبْصُرُ

(١) «المشيد»: مشتقة من «شيد» ذات معنيين: أولهما الإرتفاع، والثانى الجصّ، فتعنى لفظه «قصر مشيد» القصر المرتفع.

والمعنى الثانى القصر الذى بنى على اسس ثابتة قويّة ليصان من حوادث الزمان، وبما أن معظم منازل ذلك العصر تبنى من الطين، فإنّ المنزل الذى يبنى بالجصّ يكون أقوى من هذه البيوت ويكون متميزاً عنها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٧

وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ.

إنّ الذين يفقدون بصرهم لا يفقدون بصيرتهم، بل تراهم أحياناً أكثر وعياً من الآخرين. أما العمى الحقيقيون فهم الذين تعمى قلوبهم، فلا يدركون الحقيقة أبداً. فى تفسير القمى عن رسول الله صلى الله عليه و آله: «شرّ العمى، عمى القلب». وفى الكافى: «وأعمى العمى عمى القلب».

وترسم الآية الثانية- موضع البحث- صورة اخرى لجهل الأغبياء وعديمى الإيمان فتقول: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ» فردّ عليهم ألا تعجلوا «وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ».

فلا فرق عنده بين الساعة واليوم والسنة: «وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ».

وفى آخر آية نجد تأكيداً على ما سبق أن ذكرته الآيات الأنفة الذكر من إنذار الكفار المعاندين بأنّه ما أكثر القرى والبلاد التى أمهلناها ولم نزل العذاب عليها ليفيقوا من غفلتهم، ولما لم يفيقوا ويتنبهوا أمهلناهم مرّة اخرى ليغرقوا فى النعيم والرفاهية، وفجأة نزل عليهم العذاب: «وَكَأَيُّنَ مِنْ قَوْمٍ أَمَلِيَتْ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا».

إنّ أولئك الأقوام كانوا مثلكم يشكون من تأخر العذاب عليهم، ويسخرون من وعيد الأنبياء، ولا يرونه إلّا باطلاً، إلّا أنّهم ابتلوا بالعذاب أخيراً ولم ينفعهم صراخهم أبداً «وَإِلَى الْمَصِيرِ». أجل كل الامور تعود إلى الله، وتبقى جميع الثروات فىكون الله وارثها.

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)

تحدثت الآيات السابقة عن تعجيل الكفر والعذاب الإلهى، وإنّ ذلك ليس من شأن النبى صلى الله عليه و آله وإتّما يرتبط بمشيئة الله تعالى، فأول آية من الآيات أعلاه تقول: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

وترسم الآيتان التاليتان صورةً للبشرى واخرى للإنذار، لأنّ رحمة الله واسعه، فتقدم على عقاب الله. تتحدث أولاً عن البشرى: «فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ». يتطهرون بماء المغفرة الإلهية أولاً، فتطمئن ضمائرهم، ثم تشملهم نعم الله ورحمته.

عبارة «رزق كريم» ذات مفهوم واسع يضمّ جميع الأنعم المادية والمعنوية.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٨

وأضافت الآية اللاحقة: «وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ» (١). أى إن الذين حاولوا تخريب الآيات الإلهية ومحوها، وكانوا يعتقدون بأن لهم القدرة على مغالبة إرادة الله المطلقة، فهم أصحاب الجحيم.

«جحيم»: من مادة «جحم» بمعنى شدة توقد النار، وتقال كذلك لشدة الغضب، فعلى هذا تطلق كلمة (الجحيم) على المكان المشتعل بالنيران، وهى هنا تشير إلى نار الآخرة.

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤)

وساوس الشياطين فى مساعى الأنبياء: تناولت الآيات السابقة محاولات المشركين والكفرة لمحو التعاليم الإلهية والإستهزاء بها، أما الآيات موضع البحث فقد تضمنت تحذيراً مهماً حيث قالت: إن هذه المؤامرات ليست جديدة، فالشياطين دأبوا منذ البداية على إلقاء وساوسهم ضد الأنبياء. فى البداية تقول الآية: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَمراً لصالح الدين والمجتمع وفكر فى خطئه لتطويع العمل «أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ» إِلَّا أَنْ اللَّهُ لَمْ يَتْرِكْ نَبِيَّهُ وَحْدَهُ إِزَاءَ إِلقاءات الشياطين «فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ». إن هذا العمل يسير على الله تعالى، لأنه عليم بجميع هذه المؤامرات الدنيئة، ويعرف كيف يحبطها «وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

إلا أن المؤامرات الشيطانية التى كان يحكيها المشركون والكفرة، كانت تشكل ساحة لإمتحان المؤمنين والمتأمرين فى آن واحد، إذ تضيف الآية: «لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً

(١) «سعوا»: مشتقة من «السعى» وتعنى فى الأساس الهروء، وهنا المحاولة فى تخريب الآيات الإلهية ومحوها.

«المعاجزون»: مشتقة من «العجز» وتعنى هنا الذى يحاول الغلبة على قدرة الله غير المحدودة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٠٩

لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ». «وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» فهم بعيدون عن الحق لشدة عداوتهم وعنادهم. وكذلك الهدف من هذا البرنامج: «وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ». وطبعى أن الله لا يترك المؤمنين الواعين المطالبين بحقوقهم والمدافعين عن الحق وحدهم فى هذا الطريق الوعر «وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

إن كلمة الرسول تطلق على أنبياء لهم رسالات من الله أمروا بنشرها بين الناس.

أما كلمة «النبي» وهو الذى ينبأ بالوحي الإلهى رغم أنه لم يكلف بإبلاغه بشكل واسع.

وَلَمَّا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ (٥٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هَرَجُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيُرْزَقَنَّهُمْ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ (٥٩)

تحدثت الآيات السابقة عن محاولات المخالفين فى محو الآيات الإلهية، أما الآيات التى نقف فى ضوءها، فأشارت إلى هذه المحاولات من قبل أشخاص متعصبين قساء. تقول الآية الاولى: «وَلَمَّا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ». بديهي أن الآية هنا قصدت فئة من الكفار لا الكفار كلهم، لأن الكثير منهم أسلموا والتحقوا بالنبي صلى الله عليه وآله وبصفوف المسلمين، قصدت الآية زعماء الكفار والمعاندين والمتعصبين بقوة والحاقدين الذين لم يؤمنوا قط، واستمروا فى عرقلة المسيرة الإسلامية.

وتعنى كلمة «مربة» الشك والترديد، وتبين لنا الآية أن هؤلاء الكفرة لم يكونوا يوماً على يقين ببطلان الإسلام ودعوة النبي صلى الله عليه وآله بالرغم من إظهارهم لذلك في كلماتهم.

والمراد من «الساعة» ختام العالم وعشية يوم القيامة، والتي رافقت كلمة «بغته».

ويقصد بـ «عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ» عقاب يوم القيامة، وقد وصف يوم القيامة بالعقم لأنه لا مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٠

يوم يليه لينهض المرء للقيام بأعمال خيرة تعوض عما فاتته وتؤثر في مصيره. ثم أشارت الآية التالية إلى السيادة المطلقة لرب العالمين يوم القيامة: «الْمَلِكُ يُؤَمِّدُ لِلَّهِ». وهذا أمر ملازم لله الحاكم الدائم والمالك المطلق، وليس ليوم القيامة فقط. ولكن كل هذا يزول وتتضح حقيقة وحدانية المالك والحاكم يومئذ.

وبما أن الله هو المالك الحقيقي، فهو إذن الحاكم الحقيقي، وتعم حكومته على المؤمنين والكافرين على السواء، ونتيجة ذلك كما يقول القرآن المجيد: «فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ». الجنات التي تتوفر فيها جميع المواهب وكل الخيرات والبركات.

ويضيف القرآن الكريم: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ».

عذاب يذل الكفرة والذين كذبوا بآيات الله، اولئك الذين عاندوا الله واستكبروا على خلقه يهينهم الله.

وبما أن الآيات السابقة تناولت المهاجرين من الذين طردوا من ديارهم وسلبت أموالهم، لأنهم قالوا: ربنا الله، ودافعوا عن شريعته، فقد اعتبرتهم الآية التالية مجموعة ممتازة جديرة بالرزق الحسن وقالت: «وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

في تفسير القرطبي: سبب نزول هذه الآية أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون وأبو سلمة بن عبد الأسد، قال بعض الناس: من قتل في سبيل الله أفضل ممن مات حتف أنفه، فنزلت هذه الآية مسوية بينهم، وأن الله يرزق جميعهم رزقاً حسناً. وظاهر الشريعة يدل على أن المقتول أفضل.

وعرضت الآية الأخيرة صورة من هذا الرزق الحسن: «لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ». فإذا طردوا من منازلهم في هذه الدنيا ولاقوا الصعاب، فإن الله يأويهم في منازل طيبة في الآخرة ترضيهم من جميع الجهات.

وتنتهي هذه الآية بعبارة: «وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ». أجل، إن الله عالم بما يقوم به عباده، وهو في نفس الوقت حلیم لا يستعجل في عقابهم، من أجل تربية المؤمنين في ساحة الإمتحان هذه، وليخرجوا منها وقد صلب عودهم وازدادوا تقرباً إلى الله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١١

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوِقِبَ بِهِ ثُمَّ بُعِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: إن الآية الاولى نزلت في قوم من مشركى مكة، لقوا قوماً من المسلمين لليلتين بقيتا من المحرم، فقالوا:

إن أصحاب محمّد لا يقاتلون في هذا الشهر. فحملوا عليهم، فناشدهم المسلمون أن لا يقاتلوهم في الشهر الحرام فأبوا، فأظفر الله المسلمين بهم.

التفسير

من هم المنتصرون؟ حدّثنا الآيات السابقة عن المهاجرين في سبيل الله، وما وعدهم الله من رزق حسن يوم القيامة. ومن أجل ألا يتصور المرء أن الوعد الإلهي يختص بالآخرة فحسب، تحدّث الآية- موضع البحث- في مطلعها عن إنتصارهم في ظل الرحمة الإلهية

في هذا العالم: «ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصِرَنَّهُ اللَّهُ». إشارة إلى أن الدفاع عن النفس ومجاهاة الظلم حق طبيعي لكل إنسان.

وبما أن الوعد بالنصر الذي يقوى القلب لا بد وأن يصدر من مقتدر على ذلك. لهذا تستعرض الآية قدرة الله في عالم الوجود التي لا تنتهي، فتقول: «ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ». فما أن يقل من أحدهما حتى يزداد في الآخر وفق نظام مدروس.

«يولج»: مشتقة من «الإلاج» وهو في الأصل من الولوج أي الدخول، وهذه العبارة تشير إلى التغييرات التدريجية المنظمة تنظيماً تاماً، كمسألة الليل والنهار، فما يقل أحدهما إلّا يزداد الآخر على مدى فصول السنة. وتنتهي الآية ب «وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ». أجل، إن الله يلبى حاجة المؤمنين، ويطلع على حالهم وأعمالهم، ويعينهم برحمته عند اللزوم، مثلما يطلع على أعمال ومقاصد أعداء الحق.

و آخر آية من الآيات السالفة الذكر في الواقع دليل على ما مضى، حيث تقول: «ذَلِكَ بِأَنَّ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٢

اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبُطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ».

إن شاهدتم إنتصار الحق وهزيمة الباطل، فإن ذلك بلطف الله الذي ينجد المؤمنين ويترك الكافرين لوحدهم. إن المؤمنين ينسجمون مع قوانين الوجود العامة، بعكس الكافرين الذين يكون مآلهم إلى الفناء والعدم بمخالفتهم تلك القوانين.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)

دلائل الله في ساحة الوجود: تحدت الآيات السابقة عن قدرة الله غير المحدودة وأنه الحق المطلق، وبينت هذه الآيات الأدلة المختلفة على هذه القدرة الواسعة والحق المطلق وتقول أولاً: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتَصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً».

لقد اخضرت الأرض المرتدية رداء الحزن- من أثر الجفاف- بعد ما نزل المطر عليها، فأصبحت تسر الناظرين. أجل «إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ». «لطيف»: مشتقة من «اللطف» بمعنى العمل الجميل الذي يمتاز برقته؛ وكلمة «الخبير»: تعني المطلع على الامور الدقيقة.

يرسل الله المطر بقدرة وبخبرة منه، فإن زاده صار سيلاً، وإن نقصه كثيراً ساد الجفاف في الأرض.

الآية التالية تعرض علامة اخرى على قدرة الله غير المتناهية، وهو قوله سبحانه وتعالى: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ».

فهو سبحانه خالق الجميع ومالكهم، وبهذا الدليل يكون قادراً عليهم، لذا فهم يحتاجون إليه جميعاً، ولا يحتاج هو إلى شيء أو إلى أحد.

ويزداد هذا المعنى إشراقاً في قوله سبحانه: «وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ».

والثمام صفتى الغنى والحמיד جاء فى غاية الإحكام، لأن عدداً كبيراً من الناس أغنياء،

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٣

إلّا أنهم بخلاء يستغلون الآخرين ويعملون لذاتهم فقط، أما غنى الله سبحانه فهو مزيج من اللطف والسماح والجود والكرم، لذا استحق الحمد والثناء من عباده.

وتشير الآية التالية إلى نموذج آخر من تسخير الله تعالى الوجود للإنسان «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ» وجعل تحت اختياركم جميع المواهب والإمكانات فيها لتستفيدوا منها بأى صورة تريدون، وكذلك جعل السفن والبواخر التي تتحرك وتمخر عباب البحار بأمره نحو مقاصدها. «وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ». إضافة إلى «وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ». وذلك

من رحمة الله لعباده ولطفه بهم، وهذا ما نلمسه في ختام الآية المباركة: «إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ». وتتناول الآية الأخيرة أهم قضية في الوجود، أي قضية الحياة والموت فتقول: «وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ». أي كنتم تراباً لا حياة فيه فألبسكم لباس الحياة «ثُمَّ يُمِيتُكُمْ» وبعد إنقضاء دورة حياتكم يميتكم «ثُمَّ يُحْيِيكُمْ». أي يمنحكم حياة جديدة يوم البعث. وتبين الآية ميل الإنسان إلى نكران نعم الله عليه قائلة: «إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ». فرغم كل ما أعقد الله على الإنسان من أنعم في الأرض والسماء، في الجسم والروح، لا- يحمد ولا- يشكره عليها، بل يكفر بكل هذه النعم. ومع أنه يرى كل الدلائل الواضحة والبراهين المؤكدة لوجود الله تبارك وتعالى، والشاهدة بفضله عليه وإحسانه إليه ينكر ذلك. فما أظلمه وأجهله.

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسِكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠)

لكل أمة عبادة: تناولت البحوث السابقة المشركين خاصة، ومخالفى الإسلام عامة، ممن جادلوا فيما أشرق به الإسلام من مبادئ نسخت بعض تعاليم الأديان السابقة، وكانوا يرون من ذلك ضعفاً في الشريعة الإسلامية، وقوة في أديانهم، في حين أن ذلك لا يشكل ضعفاً إطلاقاً، بل هو نقطة قوة ومنهج لتكامل الأديان ولذا جاء الفصل الرباني جلياً «لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنَسِكًا هُمْ نَاسِكُوهُ». «المناسك»: جمع «منسك» أي مطلق العبادات، ومن

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٤

الممكن أن تشمل جميع التعاليم الإلهية. لهذا فإن الآية تبين أن لكل أمة شرعاً ومنهاجاً يفى بمتطلباتها بحسب الأحوال التي تعيشها، لكن ارتقاءها يستوجب تعاليم جديدة تلتقي مطامحها المترقية، وهذا ما صدعت به الآية المباركة وأنارته قائلة: «فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ». فيما تقدم لا ينبغي لهم منازعتك في هذا الأمر. «وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ». تخاطب الآية النبي صلى الله عليه وآله أن يا أيها النبي لا يؤثر هؤلاء في دعوتك الراشدة باعتراضاتهم الضالة، فالمهتدى إلى الصراط المستقيم أقوى من الضارب في التيه. ثم أضافت الآية: «وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ». فلو استمروا في جدالهم ومنازعتهم معك، ولم يؤثر فيهم كلامك. فقل لهم: إن الله أعلم بأعمالكم، وستحشرون إليه في يوم يعود الناس فيه إلى التوحيد، وتحل جميع الاختلافات لظهور الحقائق لجميع الناس: «اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ».

وبما أن القضاء بين العباد يوم القيامة بحاجة إلى علم واسع بهم وإطلاع دقيق بأعمالهم، ختمت الآيات هاهنا بقوله تعالى: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». و «إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ». أجل، إن جميع ذلك قد ثبت في كتاب علم الله الذي لا حدود له، كتاب عالم الوجود وعالم العلة والمعلول، عالم لا يضيع فيه شيء، فهو في تغيير دائم، وكل هذه الموجودات حاضرة بين يدي الله سبحانه بجميع صفاتها وخصائصها، وهذا من معاني القدرة الإلهية التي نلمسها في قوله تعالى: «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ».

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَشِيطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَمُ النَّارُ وَعَذَابُ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَّ الْمَصِيرُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاشْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٥

معبودات أضعف من ذبابة: تابعت هذه الآيات الأبحاث السابقة عن التوحيد والشرك، فتحدثت ثانية عن المشركين وأفعالهم الخاطئة، فتقول الآية الأولى: «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا». وهذا يبين بطلان عقيدة الوثنيين الذين كانوا يرون أن الله سمح لهم بعبادة الأوثان وأنها تشفع لهم عند الله. وتضيف الآية «وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ». أي: يعبدون عبادة لا يملكون دليلاً على صحتها لا من

طريق الوحي الإلهي، ولا من طريق الاستدلال العقلي، ومن لا يعمل بدليل يظلم نفسه وغيره، ولا أحد يدافع عنه يوم الحساب، لهذا تقول الآية فى ختامها: «وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ».

وتشير الآية الثانية- موضع البحث- إلى عناد الوثنيين وإستكبارهم عن الإستجابة لآيات الله تعالى، فى جملة وجيزة لكنها ذات دلالات كبيرة: «وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ».

وهنا يسفر التناقض بين المنطق القرآنى القويم وتعصب الجاهلية الذى لا يرضخ للحق ولا يفتح قلبه لندائه الرحيم، فما تليت عليهم آيات ربهم إلّا ظهرت علائم الإستكبار عنها فى وجوههم حتى إنهم «يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتُلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا». أى كأنهم يريدون مهاجمة الذين يتلون عليهم آيات الله عزّ وجل وضربهم بقبضات أيديهم، تنفيساً عن التكبر البغيض فى قرارة أنفسهم.

«يسطون»: مشتقة من «السطوة» أى رفع اليد ومهاجمة الطرف الآخر.

وقد أمر القرآن المجيد الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله أن يجب هؤلاء المتعترسين هاتفاً «قُلْ أَفَأُتَّبِعُكُمْ بِشِرِّ مَن ذَلِكُمُ النَّارُ». أى: إن زعمتم أنّ هذه الآيات البينات شرّ، لأنها لا تنسجم مع أفكاركم المنحرفة، فإننى اخبركم بما هو شرّ منها، ألا وهو عقاب الله الأليم، النار التى أعدّها الله جزاءً: «وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشِّرِ الْمَصِيرِينَ».

وترسم الآية الآتية صورة معبرة لما كان عليه الوثنيون، وما يعبدونه من أشياء ضعيفة هزيلة تكشف عن بطلان آراء المشركين وعقيدتهم، مخاطبةً للناس جميعاً خطاباً هادياً أن «يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاذْكُرُوا لَهُ» وتدبروا فيه جيداً «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ». أجل، لو اجتمعت الأوثان كلها، وحتى العلماء والمفكرين والمخترعين جميعاً، لما استطاعوا خلق ذبابة. فكيف تجعلون أوثانكم شركاء لخالق السماوات والأرض وما فيهن من آلاف مؤلفه من أنواع المخلوقات فى البرّ والبحر، فى الصحارى والغابات، وفى أعماق الأرض؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٦

وتستكمل الآية البيان عن ضعف الأوثان وعجزها المطلق وأنها ليست غير قادرة على خلق ذبابة فحسب، بل «وَإِنْ يَسْأَلْنَهُمْ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّيَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ».

ويعلو صدى الحق فى تقرير ضعف الوثن وعبدته فى قوله تعالى: «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ».

وبعد أن عرض القرآن الكريم هذا المثل الواضح، قرّر حقيقة مهمة، وهى: «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ».

فالمشركون لو كانوا على أدنى معرفة بالله تعالى لما أنزلوا قدره إلى مستوى هذه الآلهة الضعيفة العاجزة ولما جعلوا مصنوعاتهم شركاء له، تعالى عما يفعلون علواً كبيراً، ولو كان لديهم أدنى معرفة بقدره الله لضحكوا من أنفسهم وسخروا من أفكارهم، وتقول الآية فى النهاية: «إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ». أجل، إنّ الله قادر على كل شىء ولا مثيل لقدرته ولا حدّ، فهو ليس كآلهة المشركين التى لو اجتمعت لما تمكّنت من خلق ذبابة، بل ليس لها القدرة على إعادة ما سلبه الذباب منها.

اللَّهُ يَضِيغُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مَلَّةً أَيْبِكُمْ إِزْرَاهِمِ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

سبب النزول

فى التفسير الكبير: قال الوليد بن المغيرة: أنزل عليه الذكر من بيننا؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية «اللَّهُ يَضِيغُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٧

التفسير

بما أن الآيات السابقة تناولت بحث التوحيد والشرك وآلهة المشركين الوهمية، وبما أن بعض الناس قد اتخذوا الملائكة أو بعض الأنبياء آلهة للعبادة، فإن أول الآيات موضع البحث تقول بأن جميع الرسل هم عباد الله وتابعون لأمره: «اللَّهُ يَصِطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ».

أجل، إختار الله من الملائكة رسلاً كجبرئيل، ومن البشر رسلاً كأنبيا الله الكبار.

وختام الآية: «إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ». أى: إن الله ليس كالبشر، لا يعلمون أخبار رسلهم في غيابهم، بل إنه على علم بأخبار رسله لحظة بعد اخرى، يسمع كلامهم ويرى أعمالهم.

وتشير الآية الثانية إلى مسؤولي الأنبياء في إبلاغ رسالة الله من جهة، ومراقبة الله لأعمالهم من جهة اخرى، فتقول: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ». إنه يعلم ماضيهم ومستقبلهم «وَالِلَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ». فالجميع مسؤولون في ساحة قدسه.

ليعلم الناس أن ملائكة الله سبحانه وأنبياءه عليهم السلام عباد مطيعون له مسؤولون بين يديه، لا يملكون إلأما وهبهم من لطفه، وقوله تعالى: «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» إشارة إلى واجب ومسؤولية رسل الله ومراقبته سبحانه لأعمالهم.

الآيتان التاليتان هما آخر آيات سورة الحج حيث تخاطبان المؤمنين وتبينان مجموعة من التعاليم الشاملة التي تحفظ دينهم ودنياهم وإنتصارهم في جميع الميادين، وبهذه الروعة والجمال تختم سورة الحج. في البداية تشير الآية إلى أربعة تعليمات: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اذْكُرُوا وَاشْكُرُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». وقد بينت الآية ركنين من أركان الصلاة، الركوع والسجود لأهميتهما الاستثنائية في هذه العبادة العظيمة.

ثم يصدر الله أمره الخاص بالجهاد بالمعنى الشامل للكلمة، فيقول عز من قائل: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ».

والمراد بالجهاد هي كل نوع من الجهاد في سبيل الله والإستجابة له وممارسة أعمال البر والجهاد مع النفس (الجهاد الأكبر) وجهاد الأعداء والظلمة (الجهاد الأصغر).

ولا شك في أن حق الجهاد له معنى واسع يشمل الكيف والنوع والمكان والزمان وسواها.

ولكن قد يثار سؤال هو: كيف يتحمل الجسم النحيف هذه الأعمال من المسؤوليات

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٨

والتعليمات الشاملة الواسعة؟ ولهذا تجيب بقية الآية الشريفة فتقول أولاً: «هُوَ اجْتَبَاكُمْ». أى: حملكم هذه المسؤوليات بإختياركم من بين خلقه.

والعبارة الاخرى قوله جلّ وعلا: «وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ». أى: إذا دققتم جيداً لم تجدوا صعوبة في التكليف الربانية لإنسجامها مع فطرتكم التي فطركم الله عليها، وهي الطريق إلى تكاملكم.

وثالث عبارة: «مَلَأَ أَيْدِيَكُمْ إِبراهيم».

إن إطلاق كلمة «الأب» على إبراهيم عليه السلام، إما بسبب كون العرب والمسلمين آنذاك من نسل إسماعيل عليه السلام غالباً، وإما لكون إبراهيم عليه السلام هو الأب الروحي للموحدين جميعاً.

ويليها تعبير: «هُوَ سَمَكُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا». أى هو سمام المسلمين في الكتب السماوية السابقة.

وخامس عبارة خص بها المسلمين وجعلهم قدوة للامم الاخرى هي قوله المبارك: «لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ».

وكون الرسول صلى الله عليه وآله شاهداً على جميع المسلمين يعنى إطلاعه على أعمال امته. فجميع الامم شهداء، والأئمة الطاهرين

شهود ممتازون على هذه الامة.

وأعادت الآية في ختامها بشكل مركز الواجبات الخمسة في ثلاث جمل هي «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا دِينَ الَّذِي كَانَتْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ مَعَهُ» فإن الله هو قائدكم وناصركم ومعينكم: «هُوَ مَوْلَاكُمْ» و «فَيَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ كَانُوا يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» أي: إن الله أمركم بالإعتصام به لكونه خير الموالى وأجدر الأعوان.

«نهاية تفسير سورة الحج»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣١٩

٢٣ سورة المؤمنون

محتوى السورة: يمكن تقسيم مواضع هذه السورة إلى الأقسام التالية:

- ١- إن السورة يبدأ بالآية «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ» وينتهي بعدد من الآيات التي تذكر صفات هي مدعاة لفلاح المؤمنين.
- ٢- وأشار هذه السورة إلى علائم اخرى للمؤمنين، التوحيد وآيات عظمة الله وجلاله في عالم الوجود.
- ٣- وشرح ما حدث لعدد من كبار الأنبياء.
- ٤- ووجه الخطاب سبحانه وتعالى إلى المستكبرين يحذرهم براهين منطقية تارة، واخرى بتعابير دافعة عنيفة، ليعيد القلوب إلى طريق الصواب بالعودة إليه عز وجل.
- ٥- ثم بين في بحث مركز المعاد.
- ٦- وتناول قسم آخر سيادة الله على عالم الوجود، وإطاعة العالم ولأوامره.
- ٧- بحثت هذه السورة عن حساب يوم القيامة، وجزاء الخير للمحسنين، وعقاب المذنبين. وينتهي السورة ببيان الغاية من خلق الإنسان. فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة المؤمنون ختم الله له بالسعادة إذا كان يدمن قراءتها في كل جمعة، وكان منزله في الفردوس الأعلى مع النبيين والمرسلين».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٠

ونؤكد أن فضيلة السورة، إنما يجب أن يرافق ذلك التمعن في معانيها والعمل بما أوجبه، لأن هذا الكتاب يبني الذات الإنسانية ويربها.

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

صفات المؤمنين البارزة: اختيار اسم المؤمنين لهذه السورة لأنه جاء في بدايتها آيات شرحت بعبارات وجيزة معبرة صفات المؤمنين، ومما يلفت النظر أنها أشارت إلى مستقبل المؤمنين السعيد قبل بيان صفاتهم، إستتارة للشوق في قلوب المسلمين للوصول إلى هذا الفخر العظيم باكتساب صفة المؤمنين. تقول الآية: «قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ».

«أفْلَح»: مشتقة من الفلاح والفلاح، وتعني في الأصل الحرث والشق، ثم اطلقت على أي نوع من النصر والوصول إلى الهدف والسعادة بشكل عام، ولكلمة الفلاح معنى واسعاً يضم الفلاح المادى والمعنوى، ويكون الإثنان للمؤمنين.

ثم تشرح الآية هذه الصفات فتؤكد قبل كل شيء على الصلاة فتقول: «الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ». «خاشعون»:

مشتقة من خشوع، بمعنى التواضع وحالة التأدب يتخذها الإنسان جسماً وروحاً بين يدي شخصيه كبيرة، أو حقيقة مهمة تظهر في

الإنسان وتبدو علاماتها على ظاهر جسمه.

والقرآن اعتبر الخشوع صفة المؤمنين، وليس إقامة الصلاة، إشارة منه إلى أن الصلاة ليست مجرد ألفاظ وحركات لا روح فيها ولا معنى، وإنما تظهر في المؤمن حين إقامة الصلاة حالة توجه إلى الله تفصله عن الغير وتلحقه بالخالق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢١

وروى- في تفسير مجمع البيان- أن النبي صلى الله عليه وآله رأى رجلاً يعث بلحيته في صلاته، فقال: «أما إنّه لو خشع قلبه لخشعت جوارحه».

إشارة منه صلى الله عليه وآله إلى أن الخشوع الباطني يؤثر في ظاهر الإنسان.

وثاني صفة للمؤمنين بعد الخشوع مما تذكره الآية: «وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ».

حقاً نرى جميع حركات وسكنات المؤمنين تتجه لهدف واحد مفيد وبناء.

وتشير الآية الرابعة إلى ثالث صفة من صفات المؤمنين الحقيقيين، وهي ذات جانب إجتماعي ومالي حيث تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ».

ورابع صفة من صفات المؤمنين هي الطهارة والعفة بشكل تام، وإجتنب أي معصية جنسية، حيث تقول الآية: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ» (١). يحفظونها مما يخالف العفة «إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ».

بما أن الغريزة الجنسية أقوى الغرائز عند الإنسان تمرداً، ولضبط النفس عنها يحتاج المرء إلى التقوى والإيمان القوى، لهذا أكدت الآية التالية على هذه المسألة: «فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ».

إن عبارة المحافظة على «الفروج» قد تكون إشارة إلى أن فقدان المراقبة المستمرة في هذا المجال تؤدي بالفرد إلى خطر التلوث بالانحرافات الكثيرة.

وأشارت الآية الثامنة- موضع البحث- إلى الصفتين الخامسة والسادسة من صفات المؤمنين البارزة، حيث تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ».

إن المحافظة على «الأمانة» بالمعنى الواسع للكلمة، وكذلك الالتزام بالعهد والميثاق بين يدي الخالق والخلق من صفات المؤمنين البارزة، وتعني الأمانة بمفهومها الواسع أمانة الله ورسوله إضافة إلى أمانات الناس، وكذلك ما أنعم الله على خلقه. وتضم أيضاً أمانة الله الدين الحق والكتب السماوية وتعاليم الأنبياء القدماء، وكذلك الأموال والأبناء والمناصب جميعها أمانات الله سبحانه وتعالى بيد البشر.

وهكذا أن الحكومة وديعة إلهية مهمة جداً يجب إيداعها بيد من هو أهلها.

وبيئت الآية التاسعة من الآيات موضع البحث آخر صفة من صفات المؤمنين حيث تقول: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَواتِهِمْ يُحَافِظُونَ».

(١) «الفروج»: جمع فرج، وهو كناية عن الجهاز التناسلي.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٢

ومما يلفت النظر أن أول صفة للمؤمنين كانت الخشوع في الصلاة، وآخرها المحافظة عليها، لأن الصلاة أهم رابطة بين الخالق والمخلوق، وأغنى مدرسة للتربية الإنسانية.

وإن الصلاة إن اقيمت على وفق آدابها اللازمة، أصبحت أرضية أمينة لأعمال الخير جميعاً.

بعد بيان هذه الصفات الحميدة، بيئت الآية التالية حصيلة هذه الصفات فقالت: «أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ».

اولئك الذين يرثون الفردوس و منازل عالية و حياة خالدة: «الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ». «الفردوس»: الجنة العالية، وأفضل

البساتين.

إن هذه المنزلة العالية- حسب ظاهر الآيات المذكورة أعلاه- خاصة بالمؤمنين الذين لهم هذه الصفات، ونجد أهل الجنة الآخرين فى منازل أقل أهمية من هؤلاء المؤمنين.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعِدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ (١٥) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)

مراحل تكامل الجنين فى الرحم: تبين الآيات موضع البحث- وقسم من الآيات التالية لها- السبيل لكسب الإيمان والمعرفة، حيث يمسك القرآن بيد الإنسان ليأخذه إلى «عالم النفس» وليكشف له أسرار باطنه وهو «السير الأنفسى»، وتشير الآيات التالية لها إنتباه الإنسان إلى عالم الظاهر والمخلوقات المدهشة فى عالم الوجود وسير عالم الآفاق، وهو «السير الآفاقي».

تقول الآيات أولاً: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ» (١).

وتضيف الآية التالية: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ».

وفى الواقع فإن الآية الاولى تشير إلى بداية وجود جمع البشر من آدم وأبنائه وأنهم خلقوا جميعاً من التراب، إلا أن الآية التالية تشير إلى تداوم واستمرارية نسل الإنسان بواسطة تركيب نطفة الذكر ببويضة الانثى فى الرحم.

(١) «السلالة»: تعنى الشيء الذى يستخلص من شيء آخر، وهى فى الحقيقة خلاصة ونتيجة منه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٣

والتعبير عن الرحم ب «قرار مكين»، أى القرار الآمن، إشارة إلى أهمية الرحم فى الجسم، حيث يقع فى مكان أمين محفوظ من جميع الجهات، يحفظه العمود الفقرى من جهة، وعظم الحوض القوى من جهة اخرى، وأعشيه البطن العديدة من جهة ثالثة، ودفاع اليدين يشكّل حرزاً رابعاً له، وكل ذلك شواهد على موضع الرحم الآمن.

ثم تشير الآية الثالثة إلى المراحل المدهشة والمثيرة لتدرج النطفة فى مراحلها المختلفة، واتخاذها شكلاً معيناً فى كل منها فى ذلك القرار المكين، حيث تقول: «إِنَّا جَعَلْنَا مِنْ تِلْكَ النُّطْفَةِ عَلَى شَكْلِ قِطْعَةٍ مِنْ دَمٍ مُتَخَثَرٍ (علقة) ثم بدلناها على شكل قطعة لحم ممضوغ (مضغ)، ثم جعلنا من هذه المضغ عظاماً، وأخيراً ألبسنا هذه العظام لحماً: «ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا».

وفى الختام أشارت الآية إلى آخر مرحلة والتى تعتبر- فى الحقيقة- أهم مرحلة فى خلق البشر، بعبارة عميقة وذات معنى كبير: «ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ». مرحباً بهذه القدرة الفريدة، التى خلقت فى ظلمات الرحم هذه الصورة البديعة، وصاغت من قطرة ماء كل هذه الامور المدهشة.

طوبى لهذا العلم والحكمة والتدبير، الذى خلق فى هذا الموجود البسيط كل هذه القابليات والجداره، تعالى الله فقد تجلّت قدرته فيما خلق.

وتنتقل الآية التالية من تناول مسألة التوحيد ومعرفة المبدأ- بشكل دقيق وجميل- إلى مسألة المعاد حيث تقول: «ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيْتُونَ».

ومن أجل أن لا- يعتقد المرء بأن الموت نهاية كل شيء، تقول الآية: «ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ». أى إن خلقكم بهذه الصورة المدهشة لم يكن عبثاً أو لتعيشوا أياماً معدودات، فتضيف الآية أنكم ستبعثون يوم القيامة فى مستوى أعلى وفى عالم أوسع.

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ

لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَبْغٍ لِلآكِلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٤

مرّة اخرى مع علائم التوحيد: تحدثت الآيات السابقة عن آيات الله العظيمة في وجودنا، وتناولت هذه الآيات بعدها عالم الظاهر وآفاق الكون وعظمه خلق الأرض والسموات، حيث قالت الآية الاولى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ». فإن الآية تعني طبقات السماء السبع.

وربما يتوهم أنّ العالم بهذه السعة والعظمة ألا يوجب أن يغفل الله تعالى عن إدارته؟ فتجيب الآية مباشرة: «وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَفِيلِينَ».

وأشارت الآية التالية إلى أحد مظاهر القدرة الإلهية، الذي يعتبر من بركات السماوات والأرض، ألا وهو المطر، حيث تقول: «وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ».

ثم أشارت الآية إلى قضيه أكثر أهميته، هي قضيه احتياطي المياه الجوفيه فتقول: «فَأَسْكَنَهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ». نحن نعلم أنّ القشرة السطحية من الأرض تتكوّن من طبقتين مختلفتين:

إنّ الله الرحيم جعل القشرة الاولى من سطح الأرض نافذة، وتليها قشرة غير نافذة تحافظ على المياه الجوفيه، فتكون احتياطاً للبشر يستخرجها عند الحاجة عن طريق الآبار، أو تخرج بذاتها عن طريق العيون، دون أن تفسد أو توجه للإنسان أقلّ أذى (١).

وتشير الآية التالية إلى الخير والبركة في نعمه المطر، أي المحاصيل الزراعيه الناتجه عنه فتقول: «فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ». فمضافاً إلى التمر والعنب اللذين يعتبران أهمّ المحاصيل الزراعيه فإنّ فيها أنواع اخرى من الفواكه كثيره.

ومما يلفت النظر من الآيات أعلاه أنّ منشأ حياة الإنسان في ماء النطفه، ومنشأ حياة النبات من ماء المطر، وفي الحقيقه ينبع هذان النموذجان للحياه من الماء.

ثم تشير الآية التالية إلى شجرة مباركه اخرى نمت من ماء المطر، إضافة إلى بساتين النخيل والكروم والأشجار والفاكهه الاخرى: «وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَبْغٍ لِلآكِلِينَ» (٢).

إنّ جملة «طُورٍ سَيْنَاءَ» إشارة إلى جبل الطور المعروف في صحراء سيناء أو ذات جانب

(١) ويجب ملاحظة أنّ الماء الملوّث يصفى عند مروره من القشرة النافذة في معظم الأوقات.

(٢) صبغ الآكلين: غذاء يؤكل مع الخبز.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٥

وصفى يعنى الجبل ذى الخيرات، أو الجبل ذى الأشجار الكثيرة، أو الجبل الجميل (لأنّ «الطور» يعنى الجبل، و«سيناء» تعنى ذات البركة والجمال والشجر).

«صبغ»: تعنى فى الأصل اللون، وبما أنّ الإنسان يلوّن خبزه مع المرق، لهذا اطلق على جميع أنواع المرق اسم الصبغ.

بعد بيان جانب من أنعم الله فى عالم النبات التى تنمو على المطر، يلى ذلك بحث جانب مهم من أنعم الله وهباته فى عالم الحيوان: «وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً».

ثم تشرح الآية «العبرة» فتقول: «نُسَقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا». أجل إنّ الحيوان يدرّ حليباً لذيذاً يعتبر غذاءً كاملاً، ويمنح الجسم حرارة

كبيرة، ويخرج الحليب من بين الدم على شكل دفعات كما ينزف الدم، لتعلموا قدرة الله حيث يتمكن من خلق غذاء طاهر لذيذ من بين أشياء تبدو ملوثة.

ثم تضيف الآية: «وَلَكُمْ فِيهَا مَنفَعٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ».

كما يستفاد من الحيوانات في الركوب في البر، والسفن في البحر «وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ».

كل هذه الخصائص والفوائد في الحيوان تعتبر - حقاً - عبرة لنا، تعرّف الإنسان على ما خلق الله من أنعم، كما تثير فيه الشعور بالشكر والثناء على الله.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى (٢٤) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ (٢٥)

منطق الجبناء المغرورين: تحدثت الآيات السابقة عن التوحيد ومعرفة الله وأسباب عظمته في عالم الخليقة، أما الآيات - موضع البحث والآيات المقبلة - فقد تناولت نفس الموضوع على لسان كبار الأنبياء ومن خلال تاريخ حياتهم، حيث بدأت بأول أنبياء اولى العزم والمنادى بالتوحيد نوح عليه السلام: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ». أى: مع هذا البيان الواضح كيف لا تجتنبون عبادة الأوثان؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٦

أمّا الأشراف الأثرياء والمغرورون والملا من الناس، وهم اللذين يملأون العين في ظاهرهم، والفارغون في واقعهم من قوم نوح عليه السلام: «فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ». وبهذا اعتبروا أول عيب له كونه إنساناً فاتهموه بالسلطوية، وحديثه عن الله والتوحيد والدين والعقيدة مؤامرة لتحقيق أهدافه، ثم أضافوا: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً». ولإتمام هذا الاستدلال الخاوى قالوا: «مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأُولَى».

إلّا أنّ هذا الكلام الفارغ لم يؤثر في معنويات هذا النبي الكبير، حيث واصل دعوته إلى الله، ولم يكن في عمله دليل على رغبته في الحصول على إمتياز على الآخرين، أو أن يتسلط عليهم، لهذا لجأوا إلى توجيه تهمة أخرى إليه، هي الجنون الذى كان يتهم به جميع أنبياء الله عبر التاريخ، حيث قالوا: «إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فترَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ».

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَمَّا تَخَاطَبَتْنِي فِي الدِّينِ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ أُنزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)

خاتمة حياة قوم معاندين: استعرضت الآيات السابقة التهم التى وجهها أعداء نوح عليه السلام إليه، إلّا أنه يستدل من آيات قرآنية أخرى - بشكل واضح - أن أذى القوم المعاندين لنوح عليه السلام لم يتحدّد بهذه الامور، بل شمل كل وسيلة يمكن بها إيذاؤه، فى حين بذل جميع ما فى وسعه فى سبيل هدايتهم وإنقاذهم من براثن الشرك والكفر. وعندما يس منهم حيث لم يؤمن بما جاء به إلّا مجموعة صغيرة، دعا الله ليعينه، حيث نقرأ فى الآية الاولى: «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي».

هنا نزل الوحي الإلهي، من أجل التمهيد لإنقاذ نوح عليه السلام وأصحابه القلة وهلاك المشركين المعاندين «فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٧

إنّ عبارة «بأعيننا» إشارة إلى أنّ سعيك فى هذا السبيل سيكون تحت حمايتنا.

وإستعمال عبارة «وحينا» يكشف لنا أن نوحاً عليه السلام تعلم صنع السفينة بالوحي الإلهي.

ثم تواصل الآية بأنه إذا جاء أمر الله، وعلامة ذلك فوران الماء في التنور، فاعلم أنه قد اقترب وقت الطوفان، فاختر من كل نوع من الحيوانات زوجاً (ذكر وانثى) واصعد به إلى السفينة: «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ». إشارة إلى زوجة نوح عليه السلام وأحد أبنائه.

ثم أضافت الآية: «وَلَا تُخْطِئِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرَقُونَ».

وتقول الآية التالية: «فَإِذَا اسْتَوَيْتِ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

وبعد الحمد والثناء عليه تعالى على هذه النعمة العظيمة، نعمة النجاة من مخالف الظلمة، ادعوه هكذا: «وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ».

وقد أشارت الآية الأخيرة- من الآيات موضع البحث- إلى مجمل هذه القصة فقالت: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ». ففي هذه الحوادث التي جرت على نوح عليه السلام وإنتصاره على أعدائه الظالمين، ونزول أشد أنواع العقاب عليهم، آيات ودلائل لأصحاب العقول السليمة. «وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ». أى إننا نمتحن الجميع بشكل قاطع.

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِن أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي يَا كَذِبُونَ (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيبَهُنَّ نَادِمِينَ (٤٠) فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ عُنَاءً فَبَعِيدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٨

المصير المؤلم لقوم ثمود: تحدت هذه الآيات عن أقوام آخرين جاؤوا بعد قوم نوح عليه السلام. ومنطقهم يتناغم ومنطق الكفار السابقين، كما شرحت مصيرهم الأليم، فأكملت بذلك ما بحثته الآيات السابقة. فهي تقول أولاً: «ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ». «القرن»: مشتق من الإقتران، بمعنى القرب، لهذا يطلق على الجماعة التي تعيش في عصر واحد، وقياس زمن القرن بثلاثين أو مائة سنة يتبع ما تعارفته الأقسام المختلفة.

وبما أن البشر لا يمكن أن يعيشوا دون قائد رباني، فقد بعث الله أنبياءه يدعون إلى توحيدهم وبقوم عدالته بين الناس، حيث تقول الآية التالية: «فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ».

وهذه هي الركيزة الأساسية لدعوة الأنبياء، إنها نداء التوحيد، أس جميع الإصلاحات الفردية والاجتماعية، وبعدها أكد رسول الله لهم القول: إنكم وبعد هذه الدعوة الصريحة ألا تتركون الشرك وعبادة الأوثان: «أَفَلَا تَتَّقُونَ».

إنهم قوم ثمود الذين عاشوا شمال الحجاز، وبعث الله النبي «صالح عليه السلام» لهدايتهم، إلا أنهم كفروا وطغوا فأهلكهم الله بالصيحة السماوية (الصاعقة القاتلة).

ولننظر الآن ماذا كان رد فعل هؤلاء القوم المعاندين إزاء التوحيد الذي أعلنه هذا النبي الكبير؟ يقول القرآن في الآية التالية:

«وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيقَاعِ الْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ».

أجل إن القوم بما كانوا يرون في دعوة نبي الله خلافاً لأهوائهم ومنافسةً لمصالحهم العدوانية فجادلوا نبيهم بنفس منطق المعاندين من قوم نوح.

ثم قال بعضهم للبعض الآخر: «وَلَيْنَ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ».

ومن ثم أنكروا المعاد، الذى كان دوماً سداً منيعاً لاتباع الشهوات وأرباب اللذات، وقالوا: «أَيَعِدُّكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظْمًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ». لتعيشون حياة جديدة «هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ». فقد تساءل الكفار: هل يمكن البعث والناس قد أصبحوا تراباً وتبعثت ذراتهم هنا وهناك؟ إن ذلك مستحيل.

وبهذا الكلام ازدادوا إصراراً على إنكار المعاد قائلين: إننا نشاهد باستمرار موت مجموعة وولادة مجموعة أخرى لتحل محلهم، ولا حياة بعد الموت: «إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٢٩

نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ».

وأخيراً لخصوا التهم التى وجهوها إلى نبيهم فقالوا: «إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ».

وعندما طغى عناد الكفار، تجاسروا على الله، وأنكروا رسالته إليهم، وأنكروا معجزات أنبيائه بكل صلافة، وقد أتم الله حجته عليهم، عندها توجه هذا النبى الكبير إلى الله سبحانه وتعالى و «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ». ربه: انصرنى فقد هتكوا الحرمات، وأتهمونى بما شاؤوا وكذبوا دعوتى.

فأجابه الله عز وجل كما ذكرت الآية: «قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ». ألا إنهم سيندمون يوم لا ينفع الندم.

وهكذا جرى «فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ» حيث نزلت عليهم صاعقة الموت برعبها الهائل ودمارها الماحق، وقلبت مساكنهم ونثرتها حطاماً، وكانت سرعته خاطفة إلى درجة لم تسمح لهم بالفرار، فدفنوا فى منازلهم كما بينت الآية الكريمة: «فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً». أى: جعلناهم كهشيم النبات يحمله السيل «فَبَعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

والغثاء، يعنى النباتات الجافة المتركمة والطافية على مياه السيول، كما يطلق الغثاء على الزبد المتركم على ماء القدر حين الغليان، وتشبيه الأجسام الميتة بالغثاء دليل على منتهى ضعفها وإنكسارها وتفاهتها.

وهذا إستنتاج نهائى من كل هذه الآيات، فما قيل بصدد إنكار وتكذيب الآيات الإلهية والمعاد والعاقبة المؤلمة والنهاية السيئة لا تختص بجماعة معينة، بل تشمل جميع الظلمة عبر التاريخ.

ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَشِبُّ مِنْ أُمَّةٍ أُجِّلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرَى كَلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤)

هلاك الأقسام المعاندين الواحد بعد الآخر: بعد أن تحدت القرآن عن قصة قوم نوح، أشار إلى أقوام أخرى جاءت بعدهم، وقبل النبى موسى عليه السلام حيث يقول: «ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ». لأن هذا أمر الله وسنته فى خلقه، فالفيض الإلهى لا ينقطع عن

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٠

عباده فلو سعى جماعة للوقوف فى وجه مسيرة التكامل الإنسانى للبشرية لمحققهم ودفع هذه المسيرة إلى أمام. ولهذه الأقسام تاريخ معين وأجل محدود: «مَا تَشِبُّ مِنْ أُمَّةٍ أُجِّلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ». فلو صدر الأمر الحتمى بنهاية حياتهم فسيهلكوا فوراً، دون تأخير لحظة أو تقديم لحظة.

«الأجل»: بمعنى العمر ومدّة الشىء، فالأجل المحتمّ انتهاء عمر الإنسان أو عمر قوم ما، ولا تغيير فيه. إن الآية السابقة تشير إلى «الأجل المحتمّ».

وتكشف الآية التالية حقيقة استمرار بعث الأنبياء عبر التاريخ بالدعوة إلى الله حيث تقول: «ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرًا».

«تتراً»: مشتقة من «الوتر» بمعنى التعاقب، و «تواتر الأخبار» تعنى وصولها الواحد بعد الآخر، ومن مجموعها يتيقن الإنسان بصدقها.

إن معلّمى السماء، كانوا يتعاقبون فى إرشاد الناس، إلّا أنّ الأقسام المعاندة كانوا يواصلون الكفر والإنكار، فإنّه: «كَلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رَسُولُهَا

كَذَّبُوهُ».

وعندما تجاوز هذا الكفر والتكذيب حده وتمت الحجة عليهم. «فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا». أى: أهلكتنا الامم المعاندة الواحدة بعد الاخرى ومحوناهم من الوجود.

وقد تم محوهم بحيث لم يبق منهم سوى أخبارهم يتداولها الناس «وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثًا». إشارة إلى أن كل امه تتعرض للهلاك، ويبقى منهم بعض الأفراد والآثار هنا وهناك، وأحياناً لا يبقى منهم أى أثر. وهذه الامم المعاندة والطاغية كانت ضمن المجموعة الثانية. وتقول الآية فى الختام، كما ذكرت الآيات السابقة: «فَبَعْدًا لِّقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ».

وهؤلاء لم يكونوا يعيدون عن رحمة الله فى هذه الدنيا فحسب، بل يعيدون عن هذه الرحمة فى الآخرة أيضاً، لأن تعبير الآية جاء عاماً يشمل الجميع.

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أُنزِلْنَا مِنَّا لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)

قيام موسى وهلاك الفراعنة: كان الحديث حتى الآن عن أقوام بعث الله لهم رسلاً قبل

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣١

موسى عليه السلام، وهلكوا. أما الآيات موضع البحث فقد تحدت باختصار جداً عن إنتفاضة موسى وهارون على الفراعنة ومصير هؤلاء القوم المستكبرين، فقالت:

«ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

إنّ «الآيات» تعنى المعجزات التى أعطها الله لموسى بن عمران (الآيات التسع). وتقصد عبارة «سلطان مبین» المنطق القوى والبرهان الدافع لموسى عليه السلام أمام الفراعنة.

أجل بعثنا موسى وأخاه هارون بهذه الآيات وسلطان مبین «إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِيهِ».

لعل ذلك إشارة إلى أنّ الفراعنة هم أساس الفساد، ولا يصلح أى بلد إلّابصلاح قادته، إلّا أنّهم «فَاسِدَتَّ كِبْرُؤًا» لأنهم لم يرضخوا لآيات الحق والسلطان المبین.

والفراعنة كانوا مستكبرين طاغين، كما تقول الآية: «وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ».

ومن الدلائل الواضحة على إحساسهم بالإستعلاء، قولهم: «وَقَالُوا أُنزِلْنَا مِنَّا لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ» (١). فقد تصدوا لموسى وأخيه هارون بهذه الأدلة الخاوية، مخالفة منهم للحق «فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ». وهكذا إنتهى أعداء بنى إسرائيل الذين كانوا سداً مانعاً لدعوة موسى وهارون إلى الله سبحانه.

وبدأت بعدها مرحلة تعليم وتربية بنى إسرائيل، فأنزل الله فى هذه المرحلة «التوراة» على موسى، الذى دعا بنى إسرائيل للإهتداء بهذا الكتاب وتطبيقه على ما ذكرته الآية الأخيرة هنا: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ».

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)

آية اخرى من آيات الله: أشارت الآية فى آخر مرحلة من شرحها لحياة الأنبياء إلى السيد المسيح عليه السلام وامه مريم، فقالت:

«وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً».

وقد استعملت «الآية» عبارة «ابن مريم» بدلاً من ذكر اسم عيسى، لجلب الإنتباه إلى حقيقة ولادته من ام دون أب بأمر من الله، وهذه الولادة هى بذاتها من آيات الله الكبيرة.

ثم أشارت الآية إلى الأنعم الكبيرة التى أسبغها الله على هذه الامم الزكية وإبناها فتقول: «وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ». «الربوة»: مشتقة من «الربا» بمعنى الزيادة والنمو،

(١) يطلق على الإنسان «البشر»، لأن بشرته وجلده عاريه، خلافاً لما عليه الحيوانات من لباس طبيعي خاص بكل نوع منهما.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٢

وتعني هنا المكان المرتفع؛ و «المعين»: مشتق من «المعن» بمعنى جريان الماء. إن هذا المكان الآمن هو مولد السيد المسيح عليه السلام في صحراء القدس، وقد جعله الله أمناً لهذه الام والوليد، وفجر لهما ماء معيناً ورزقهم من النخل الجاف رطباً جلياً.

فقد كانت الآية دليلاً على حماية الله تعالى الدائمة لرسله ولمن يدافع عنهم.

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْراً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤)

جميع الامة يد واحدة: تحدثت الآيات السابقة عن ماضى الأنبياء واممهم، أما هذه الآيات فخاطبت الجميع فقالت: «يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ».

بينت هذه الآية ثلاثة مؤثرات في العمل الصالح:

الأول: طيب الغذاء الذى يورث صفاء القلب ونقاوته.

والثانى: شكر الله تعالى على ما أنعم به من رحمته.

الثالث: الشعور اليقظ بمراقبة الله سبحانه للأعمال كلها.

ثم دعت الآية جميع الأنبياء وأتباعهم إلى توحيد الله والتزام تقواه: «وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً». فالإختلافات الموجودة بينكم، وكذلك بين أنبيائكم ليست دليلاً على التعددية إطلاقاً. «وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ». فنحن بين يدي دعوة واعية إلى وحدة الجماعة والقضاء

على ما يثير التفرقة، ليعيش الناس امه واحدة، كما أن الله ربهم واحد أحد.

ولهذا يجب أن ينتهج الناس ما نهجه الأنبياء عليهم السلام إذ دعوا إلى اتباع تعاليم موحدة، ذات أساس واحد فى كل مكان.

وقد حذرت الآية التالية البشر من الفرقة والاختلاف، بعد أن تمت فى الآية السابقة دعوتهم إلى التمسك بالوحدة، فقالت:

«فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْراً». ومما يثير الدهشة أن «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ».

«الزبر»: جمع «زبرة» تعنى بعض شعر الحيوان خلف رأسه، يجمعه الراعى ليفصله عن

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٣

باقى الشعر، ثم أطلقت هذه الكلمة على كل شىء ينفصل عن أصله، فتقول الآية: «فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْراً». إشارة منها إلى تفرق الامة إلى مجموعات وفئات مختلفة.

تستعرض الآية حقيقة نفسية واجتماعية هى أن التعصب الجاهلى للأحزاب والفئات يمنع وصولها إلى الحقيقة، لأن كلاً منها قد اتخذ سبيلاً خاصاً به.

وهذه الحالة نتجت عن حب الذات المفرط والعناد، وهما أكبر عدو للحقيقة، ولوحدة الامة.

ولهذا تقول الآية الأخيرة هنا: «فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ». أى: اتركهم على حالهم حتى يأتى أجلهم، أو يأتهم الله بعذاب منه،

فليس لهم سوى هذا، لأنهم أصروا على البقاء فى جهلهم ومتاهتهم.

«حين»: قد تكون إشارة إلى وقت الموت، أو نزول العذاب، أو كليهما.

«الغمرة»: على وزن «ضربة» فهى بالأصل من «غمر» أى إتلاف كل شىء، ثم أطلق غمر وغامر على الماء الكثير الذى يزيل كل شىء يواجبه، ويواصل جريانه، ثم أطلق على الجهل والبلايا التى يغرق فيها الإنسان، كما استعملته الآية السابقة بمعنى الغفلة والضياع

والجهل والضلال.

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِينَ (٥٥) نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَمَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)

تعرض ما سبق من الآيات المباركة للأحزاب والمجموعات المعاندة التي غلب عليها التعصب وحب الذات، بينما أشارت الآيات موضع البحث إلى بعض تصوراتهم الأنايية: «أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنِينَ» (١). هو من أجل أننا: «نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ». فهل يتصورون أن أموالهم الوافرة وكثرة أولادهم دليل على أنهم على حق، ودليل على

(١) وهذا هو ما أشارت إليه معظم آيات القرآن في قضية (الإستدراج في النعم).

«نمّد»: مشتقة من «الإمداد» وهو إتمام النقص والحيلولة دون القطع، وإيصال الشيء إلى نهايته.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٤

قرب منزلتهم من الله؟ «بَلْ لَا يَشْعُرُونَ» أن كثرة أموالهم وأولادهم نوع من العذاب، أو مقدمه للعذاب ولعقاب الله، إنهم لا يدركون أن ما أصدق عليهم ربهم من نعم إنما هو من أجل أن يتورطوا في العقاب الإلهي، ويمسى عقابهم أشد ألماً. وبعد نفى تصورات هؤلاء الغافلين، تستعرض هذه الآيات وضع المؤمنين والمسارعين في الخيرات، وتبين صفاتهم الرئيسية، فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ». و «الخشية»: تعني الخوف المقترن بالتعظيم والتقديس.

ثم تضيف الآية: «وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ».

وتأتي بعد مرحلة الإيمان بآيات الله، مرحلة تنزيهه عن كل شبهة وشريك، فتقول الآية: «وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَأَيُّشْرِكُونَ».

بعد هذا تأتي مرحلة الإيمان بالمعاد والبعث، والإهتمام الخاص الذي يوليه المؤمنون الحقيقيون لهذه القضية، التي تساعدهم عملياً في السيطرة على أعمالهم وأقوالهم، فتقول الآية: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ».

وبعد شرح الآيات السابقة لهذه الصفات الأربعة تقول الآية: «أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ».

وقد رسمت الآيات السابقة صورة واضحة لصفات هذه القدوة من المؤمنين، فبدأت أولاً بالخوف المتميز بتعظيم الله، وهو الدافع إلى الإيمان به ونفى الشرك عنه، وانتهت بالإيمان بالمعاد حيث محكمه العدل الإلهي، الذي يشكل الشعور بالمسؤولية، ويدفع الإنسان إلى كل عمل طيب، فهي تبين أربع خصال للمؤمنين ونتيجة واحدة. (فتأملوا جيداً).

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنْهَا لَا تَنْصِرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)

بما أن خصال المؤمنين هي سبب القيام بالأعمال الخيرة التي أشارت إليها الآيات السابقة، فهنا يثار هذا التساؤل بأن هذه الخصال والقيام بهذه الأعمال لا تيسر لكل أحد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٥

فتجيب أول آية- من الآيات موضع البحث- عن ذلك فتقول: «وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا». وكل إنسان يكلف حسب عقله وطاقته.

وهذه إشارة إلى أن الواجبات الشرعية هي في حدود طاقة الإنسان، وأنها تسقط عنه إذا تجاوزت هذه الحدود، وكما يقول علماء اصول الفقه: إن هذه القاعدة حاکمة على جميع الواجبات الشرعية ومقدمة عليها.

وقد يسأل: كيف يحاسب كل البشر على أعمالهم كلها صغيرها وكبيرها؟

فتجيب الآية: «وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ». فهناك صحيفة أعمال الإنسان المحفوظة لدى الله العلي القدير.

ولكون هذه الحقائق مؤثرة في الواعين من الناس فحسب، أضافت الآية التالية بأن هؤلاء الكفار المعاندين غارقون في دوامة الجهل والغفلة لدرجة أنهم غافلون عما ينتظرهم من الوعيد: «بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا».

وتضيف هذه الآية: «وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَمَلُونَ».

المهم هو الإنتباه إلى أن مصدر الأعمال الشريرة يكمن في إنغمار القلوب في الجهالة.

ولكن هؤلاء المترفين يقون في هذه الغفلة ما داموا في نعيمهم، فإذا جاءهم العذاب فهم يصرخون كالوحوش من شدة العذاب الإلهي، كما تقول الآية: «حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْرُونَ».

فيخاطبون: «لَا تَجْرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَاتَنْصُرُونَ».

وتكشف الآية التالية عن سبب هذا المصير المشؤوم: «فَدَكَانَتْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِبُونَ». بدلاً من الاستفادة منها والإنتباه للواقع.

«تنكصون»: مشتقة من النكوص، بمعنى السير بشكل معاكس.

«أعقاب»: جمع «عقب» على وزن «فعل» وتعني عقب القدم.

وهذه الجملة كناية عن شخص يسمع كلاماً غير مرغوب فيه، فيرتعب لدرجة يسير فيها القهقري على عقبى قدميه.

ثم إنه لا يرجع إلى الورا لمجرد سماعه آيات الله، وإنما يصبح ممن وصفتهم الآية: «مُتَّكِبِينَ بِهِ».

وإضافة إلى ذلك: «سَمِرًا تَهْجُرُونَ». أي يتسامرون في لياليهم ويتحدثون عن النبي والقرآن بالباطل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٦

«سامراً»: مشتقة من «سَمَرَ» على وزن «نصر» بمعنى التحدث ليلاً.

«تهجرون»: مشتقة من «هَجَرَ» وتعني بالأصل الإبتعاد والانفصال، وقد وردت بمعنى الهذيان الصادر من المريض، لأن كلامه في تلك

الحالة غير سليم، ويبعث على النفور كما أن الهجر (على وزن كُفر) يعني السباب، وهو أيضاً يبعث على الإبتعاد والقطيعة.

وقد جاءت كلمة «تهجرون» في الآية بالمعنى الأخير، فتقول: إنَّ المشركين من العرب كانوا يتسامرون حتى ساعات متأخرة من الليل، وهم يهدون ويكيلون السباب والشتائم كالمرضى.

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ

بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَ لَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنِ

ذِكْرِهِمْ مُّعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسَاءَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَجَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٧٣) وَ إِنَّ

الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّا كِينٌ (٧٤)

أعدار المنكرين المختلفة: تحدت الآيات السابقة عن إعراض الكفار وإستكبارهم إزاء الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله. وتناولت

هذه الآيات أعدارهم في هذا المجال والرد عليهم، وشرحت الدوافع الحقيقية لإعراض المشركين عن القرآن والرسول صلى الله عليه وآله و

آله، ويمكن تلخيصها في خمس مراحل:

الاولى: «أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ». فأول سبب لتعاستهم هو تعطيل التفكير في مضمون دعوة النبي صلى الله عليه وآله و آله ولو تفكروا ملياً لما

بقيت مشكلة لديهم.

وفي المرحلة الثانية تقول الآية: «أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأُولِينَ». سألت الآية مستنكرة: أكانت الدعوة إلى التوحيد والمعاد،

والهدى إلى الأعمال الصالحة مختصة بهم دون آبائهم الأولين، ليحتجوا بأنها بدعة، ويقولوا: لماذا لم يبعثه الله للأولين، وهو لطيف

بعباده؟

ليس لهم ذلك، لأن الإسلام من حيث المبادئ له مضمون سائر الرسالات التي حملها الأنبياء عليهم السلام فهذا التبرير غير منطقي

ولا معنى له.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٧

وفي المرحلة الثالثة تقول الآية: «أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ». أى: إذا كانت هذه الدعوة صادرة من شخص مجهول ومشكوك، فيحتمل أن يقولوا بأن كلامه حق، إلا أن هذا الرجل مشكوك وغير معروف لدينا، فيحتمل أن تُخدع بكلامه، ولكنهم يعرفون ماضيكم جيّداً، وكانوا يدعونكم محمّداً الأمين، ويعترفون بعقلك وعلمك وأمانك، ويعرفون جيّداً والديك وقبيلتك، فلا حجة لهم.

وفي المرحلة الرابعة تقول الآية: «أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ». أى إنه مجنون، فبعد إعتراهم بأنك لست مجهولاً بالنسبة لهم، إلا أنهم يشككون في سلامة عقلك وينسبونك إلى الجنون، لأن ما تدعو إليه لا ينسجم مع عقائدهم، فلذلك اتخذوا هذا دليلاً على جنونك. يقول القرآن المجيد لنفى هذه الحجة: «بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ». وكلامه شاهد على هذه الحقيقة، ويضيف: «وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَرهُونَ». أجل، إن كلمات الرسول راشدة حكيمة، إلا أنهم ينكرونها لعدم إنسجامها مع أهوائهم النفسية، فألصقوا به تهمة الجنون في الوقت الذي لا ضرورة في توافق الحق مع رغبات الناس: «وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ». لأنه لا يوجد مقياس يحدّد أهواء الناس، مضافاً إلى أنها تميل إلى الشر والفساد غالباً.

وتأكيداً لذلك تقول الآية: «بَلْ أَتَيْنَهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنِ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ». أى: منحاهم القرآن الذي هو أساس للذكر والتوجه إلى الله، وسبب لرفعتهم وشرفهم، إلا أنهم أعرضوا عن هذا المنار الذي يُضئ لهم درب السعادة والشرف. وفي المرحلة الخامسة تقول الآية: هل أن عذرهم في فرارهم من الحق هو أنك تريد منهم أجراً على دعوتك: «أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَّاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ».

والقرآن الكريم يوضحه هذه المراحل الخمس برهن على أن هؤلاء الحمقى (المشركين) لا يرضخون للحق، وأن أعدارهم في إنكار الحق أعدار واهية.

وجاءت الآية التالية باستنتاج عام لكل ما مضى: «وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

ورغم أن الروايات الإسلامية تفسّر الصراط المستقيم بولاية على عليه السلام، إلا أنها تكشف عن المصداق الأكمل لذلك، ولا تتنافى مع المصداق الأخرى كالقرآن والإيمان بالمبدأ والمعاد والتقوى والجهاد والعدل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٨

وتستعرض الآية التالية النتيجة الطبيعية لهذا الموضوع، فنقول: «وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَبُونَ».

«ناكب»: مشتقة من «النكب» و«النكوب» أى الانحراف عن الطريق. «نكبت الدنيا» تقع في مقابل إقبال الدنيا، وتعنى إدبار الدنيا وإعراضها عن المرء.

والصراط يقصد به هنا ما في الآية السابقة.

أوضحت الآيات السابقة عدداً من صفات القادة إلى طريق الحق، فهم المعروفون بالصلاح والإستقامة.

ويواصلون عملهم بإصرار دائم لنشر العقيدة الحقّة رغم رفض عدد كبير من الناس لهم وحقدهم عليهم.

والصفة الأخرى للأنبياء أنهم لم يطلبوا أجراً من الناس.

وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٥) وَ لَقَدْ أَخَذْنَاَهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ

(٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْسِئُونَ (٧٧) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

طرق التوعية الإلهية المختلفة: عرضت الآيات السابقة الحجج التي يتذرع بها منكرو الحق فى رفض الرسالات وإيذاء الأنبياء عليهم السلام، وتناولت هذه الآيات إتمام الحجة عليهم من قبل الله تعالى وتوعيتهم. فتقول أولاً: «إِنَّا تَارَةً نَشْمَلُهُمْ بِرِعَائِنَا وَنُرْزِقُهُمْ مِنْ وَفِيرِ النِّعْمَةِ لِيَتَّبِعُوا، وَلَكِنْ: «وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَّجُوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ».

والله تعالى يبتليهم لعلهم يعون حين لا تجدى بهم رحمته سبحانه، لكن طائفه غالبه منهم لم يستيقظوا حتى بالبلاء المذل: «وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِلرَّبِّهِمْ وَمَا يَنْصَرِعُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٣٩

فالله تعالى يواصل هذه الرحمة والنعمة والعقوبات، والمشركون يواصلون طغيانهم وعنادهم: «حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ» (١).

الواقع، أن نوعين من العقاب الإلهي: أولهما «عقاب الإبتلاء»، وثانيهما «عقاب الإستيصال» والإقتلاع من الجذور، والهدف من العقاب الأول وضع الناس فى صعوبات وآلام ليدرخوا مدى ضعفهم وليتركوا مركب الغرور.

أما هدف العقاب الثانى الذى ينزل بالمعاندین المستكبرين فهو إزالتهن عن مجرى الحياة، وتطهيرها من عراقيلهن.

ثم تناول القرآن المجيد القضية من باب آخر، فعدد النعم الإلهية لدفع الناس إلى الشكر: «وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ».

والتأكيد على (الاذن والعين والعقل) لأنها الأجهزة التى بها يتعرف الإنسان على المحسوسات والقضايا، فالأشياء الحسية يبلغها بالعين والاذن، والقضايا غير الحسية يدركها بالعقل.

وتناولت الآية اللاحقة خلق الله سبحانه للإنسان من التراب، فتقول: «وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ» (٢).

وبما أنه - جل اسمه - خلقكم من الأرض، لذلك ستعودون إليها مرة ثانية، ثم بيعثكم: «وَالِئِنَّهُ تُخْشَرُونَ».

ولو فكرتم فى خلقكم من تراب لا قيمة له، لذلك على خالق الوجود سبحانه، وعزفكم على كريم لطفه بكم وإحسانه إليكم، وقادكم إلى الإيمان به وبالمعاد.

وبعد ذكر خلق الإنسان، تناولت الآية المذكورة آنفاً دلائل اخرى من بديع صنع الله تعالى «وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

وبهذا الترتيب بدأ البيان القرآنى من الدافع لإستيقاظ القلب وإنبعائه على معرفة ربه سبحانه وإنتهى بذكر بعض أهم الآيات الأنفسية والآفاقية.

(١) «المبلس»: كلمة مشتقة من «الإبلاس» بمعنى الألم الشديد الناتج عن شدة أثر الحادثة، وتدفع بالإنسان إلى الصمت والحيرة واليأس.

(٢) «ذراً»: مشتقة من الذرة (على وزن زرع)، وهى فى الأصل بمعنى الخلق والإيجاد والإظهار.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٠

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠)

دعت الآيات السابقة منكرو الله والمعاد إلى التفكير فى خلق عالم الوجود وآيات الآفاق والأنفس، وأضافت هذه الآيات أن هؤلاء

تركوا عقولهم واتبعوا أسلافهم وقلدوهم تقليداً أعمى: «بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأُولُونَ».

ثم إن هؤلاء ملكهم التعجب و: «قَالُوا أءَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ».

إن ذلك لا يُصدّق، «لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ». فكانت وعوداً كاذبة، و «إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ».

ولكون الكفار والمشرّكين أشدّ خوفاً من اليوم الآخر وما فيه من هول الحساب وعدل الكتاب، وسدّدت الآيات موضع البحث إلى هذا المنطق الواهي من ثلاث طرق.

ومما يلفت النظر أن القرآن يأخذ من المشرّكين إقراراً بكل مسألة، فيعيد كلامهم ليثبت إقرارهم. يقول أولاً: «قُلْ لَمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

ثم تضيف الآية أنهم يؤمنون بالله خالق الوجود وفق نداء الفطرة النابع من ذاتهم، وسيجيئونك و: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ». فأجبههم:

«قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ». كيف تتصورون إستحالة إحياء الموتى بعد إقراركم الصريح؟

ثم يأمر رسوله مرّة ثانية أن يسألهم: «قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

فيأتي الجواب نابعاً من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وهي الإقرار بربوبيته تعالى

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٣٤١

«سَيَقُولُونَ لِلَّهِ». وبعد هذا الإقرار الواضح فلماذا لا تخافون الله، ولا تعترفون بالمعاد وبعث الإنسان مرّة ثانية: «قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ».

واسألهم مرّة أخرى عن سيادة الله على السماوات والأرض: «قُلْ مَنْ يَبْدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ». ومن الذي يجير اللاجئين وجميع

المحرّومين ولا يحتاج إلى اللجوء إلى أحد: «وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

فيعترفون بأن العالم ومالكيته وحكومته وإجارة الآخرين يعود لله فقط: «سَيَقُولُونَ لِلَّهِ». «قُلْ فَأَنَّى تُشْحَرُونَ». أى: كيف تقولون: إن

الرسول صلى الله عليه وآله سحركم رغم كل هذا الإقرار والإقرار منكم؟!!

وأخيراً يقول القرآن في عبارة مختصرة ذات دلالة كبيرة بأنه ليس سحراً ولا شعبذة ولا شيء آخر: «بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

«الأساطير»: جمع «اسطورة». قال بعض اللغويين: إنها مشتقة من «السطر» بمعنى الصف، فيطلق على الكلمات التي إصطفت في خطّ

واحد لفظ السطر. فالاسطورة: الكتابة أو السطور التي تركها لنا الآخرون، ولأنّ كتابات القدماء تحتوى على أساطير خرافية، تطلق

الأساطير على الحكايات والقصص الخرافية الكاذبة. وقد تكرّرت كلمة الأساطير في القرآن المجيد تسع مرّات، وجميعها جاء على

لسان الكفار لتوجيه مخالفتهم لأنبياء الله تعالى.

«الملكوت»: مشتقة من «الملك» (على وزن كُفِر)، بمعنى الحكومة والمالكية.

«العرش»: يعنى السرير ذا القوائم العالية، ويطلق أحياناً على السقف وشبهه، وعندما تتعلق هذه الكلمة بالله سبحانه، فإنها تعنى عالم

الوجود كلّ.

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١) عَالِمِ

الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)

الشرك يجزّ العالم نحو الدمار: تناولت الآيات السابقة بحثاً في المعاد والملك والحكم والربوبية، أما هذه الآيات فقد تناولت نفى

الشرك، وإستعرضت جانباً من إنحرافات المشرّكين، وردّها عليهم بالأدلة الساطعة، قائلة: «مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ».

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٣٤٢

إنّ المسيحيين يرون النبي عيسى عليه السلام ابناً لله، والمشرّكون يرون الملائكة بنات لله، وهذا أوضح مظهر للشرك.

ثم بينت الآية بطلان الشرك: أنه لو كان هناك آلهة متعدّدة تحكم العالم، فسيكون لكل إله مخلوقاته الخاصة به يحكم عليها ويدبّر

امورها.

وسيكون تبعاً لذلك أنظمة متعددة للعالم، لأن كل واحد من الآلهة يدير منطقته بنظام خاص: «إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ».

وهذا يناق في وحدة النظام الحاكم في هذا العالم.

«وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ» وهذه نتيجة محتومة لكل صراع، إذ يسعى كل طرف فيه لغلبة الآخرين والهيمنة عليهم، وهذا سيكون بذاته سبباً آخر لتفكك النظام الموحد السائد في العالم.

وجاء في ختام الآية تقديس لله سبحانه «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ»، والآية التالية تردّ على المشركين المغالطين فتقول: «عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ». أي: إن الله يعلم ظاهر الأشياء وباطنها، فكيف تتصورون وجود إله آخر تعرفونه أنتم ولا يعرفه الرب الذي خلقكم والذي يعلم الغيب والشهادة في هذا العالم؟

وبهذه العبارة يبطل تصوراتهم الخرافية: «فَتَعَلَىٰ غَمًّا يُشْرِكُونَ».

وختام هذه الآية يشبه ختام الآية (١٨) من سورة يونس، كما أنّ هذه العبارة تهدد موجّه للمشركين بأنّ الله الذي يعلم السرّ والعلن، يعلم ما تقولونه، وسيحاسبكم عليه يوم القيامة في محكمته العادلة.

قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تَرِيئِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلِمَا تَجْعَلِنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥) اذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (٩٨) مع مخاطبة هذه الآيات للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، واصلت مقاصد الآيات السابقة في تهديد الكفار والمشركين المعاندين بأنواع العذاب الإلهي: «قُلْ رَبِّ إِنَّمَا تَرِيئِي مَا يُوعَدُونَ». «رَبِّ فَلِمَا تَجْعَلِنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٣

والمراد بهذا العذاب أنّه العقاب الدنيوي الذي ابتلى الله به المشركين.

وتأكيداً لهذا الموضوع ولنفي كل شك لدى الأعداء، ولتسليّة خاطر الرسول صلى الله عليه وآله والمؤمنين، أضافت الآية اللاحقة: «وَإِنَّا عَلَىٰ أَنْ نُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ».

ولقد تجلّت قدرة الله سبحانه في ساحات مختلفه بعد ذلك.

ثم يأمر الله الرسول صلى الله عليه وآله باتباع سياسة اللين في الدعوة إلى الهدى ودين الحق: «اذْفَعِ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ» (١). أي: ادفع عدوانهم وسيئاتهم بالعفو والصفح والإحسان، وكلامهم البذي بالكلام المنطقي الموزون: «نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ». والله يعلم أنّ أعمالهم القبيحة وكلامهم البذيء وأذاهم القاسي يؤلم الرسول صلى الله عليه وآله، إلّا أنّه عزّ وجل يدعو إلى عدم الردّ بالمثل، بل يوجب أن يكون الردّ بالتي هي أحسن. وهذا خير سبيل لإيقاظ الغافلين والمخدوعين.

ثم نقرأ أمراً ربانياً بالاستعاذه بالله من مكائد الشيطان: «وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ». إنّ دعاءه بالإنقاذ من ترصّ الشيطان ومكره الخفي، ولا يقف الدعاء عند همزات الشياطين بل يستمر في الاستعاذه من حضورهم عنده: «وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ». أي: حضور الشياطين في اجتماعات النبي صلى الله عليه وآله الذي يؤدّي إلى إغفال المجتمعين وإضلالهم، فعلى محبّي الحق والذاتين عنه وناشديه أن يفوضوا أمرهم إلى الله، ليحفظهم من وساوس الشياطين ومكائدهم.

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)

طلب المستحيل: تابعت هاتان الآيتان ما تناولته الآيات السابقة من عناد المشركين والمذنبين وتمسكهم بالباطل، فتناولت حالهم الوخيم حين الموت. وأنهم يستمرون في باطلهم: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ».

حينما يجبر المذنب والمشرك على ترك الدنيا لينتقل إلى عالم آخر، تزول عنه حجب الغفلة والغرور، فيرى بام عينه مصيره المؤلم، فلا مال ولا جاه، فقد عاد كل ما يعنيه هباءً في

(١) والجدير بالذكر أن هذا الأمر خاص بحالات لا يسىء العدو الاستفادة من هذا المبدأ.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٤

هباء، وهو يشاهد اليوم عاقبه أمره، وما ارتكبه من ذنوب ومعاص، فيرتفع صراخه وعويله: «قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ». ارجعني يا رب «لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ». ولكن قانون الخلق العادل لا يسمح بمثل هذه العودة، لا يسمح بعودة الصالح ولا الطالح، فيأتيه النداء الدامغ «كَلَّا». «إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا». كلام لم يصدر من أعماقه، ومتى هدأت العاصفة بوجههم عادوا لسابق أعمالهم القبيحة.

وتشير الآية في نهايتها إلى عالم البرزخ الغامض بعبارة قصيرة ذات دلالة كبيرة «وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ» (١).
فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وَجُوهُهُمْ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)

جانب من عقاب المسيئين: تحدت الآيات السابقة عن عالم البرزخ، وأعقبتها آيات تناولت القيامة بالبحث، وتناولت كذلك جانباً من وضع المذنبين في عالم الآخرة. فهي تقول أولاً: «فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ».

من المعلوم- بالاستناد إلى آيات القرآن الكريم- أن النفخ في الصور يجرى مرتين: اوليها في نهاية هذا العالم، حيث يموت من في الأرض والسموات، وفي ثانيتهما يبدأ بعث من في القبور ليعودوا لحياة جديدة وليستعدوا للحساب والجزاء.

إن الآية السابقة أشارت إلى ظاهرتين من ظواهر يوم القيامة:

اوليها: إنتهاء مسألة النسب، لأن رابطة الاسرة والقبيلة التي تسود حياة الناس في هذا العالم تؤدي في كثير من الحالات إلى نجاة المذنبين من العقاب، إذ يستجدون بأقربائهم في حل مشاكلهم، أما الوضع يوم القيامة فيختلف، حيث كل إنسان وعمله، فلا معين له، ولا

(١) «البرزخ»: في الأصل الشيء الذي يقع حائلاً بين شيئين، ثم استعملت لكل ما يقع بين أمرين، ولهذا أتت كلمة البرزخ للدلالة على

عالم يقع بين عالم الدنيا والآخرة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٥

نفع في ولده، أو أخيه، أو والده.

وثانيتهما: سيطرة الخوف على الجميع، فلا يسأل أحد عن حال غيره بسبب الخوف الشديد من العقاب الإلهي، هو يوم كما أطلعنا عليه في مطلع سورة الحج: «يَوْمَ تَرُؤِنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ».

وبعد وقوع القيامة تبدأ مرحلة الحساب وقياس الأعمال بميزان خاص بيوم القيامة: «فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

«الموازن»: جمع «ميزان» وهو وسيلة للقياس، وكما ورد في الأحاديث المختلفة أنه ميزان تقاس به الأعمال والناس، وهم قادة الإسلام الكبار، في الحديث: «إن أمير المؤمنين والأئمة من ذريته عليهم السلام هم الموازن» (١).

وعلى هذا فإن الرسل وأوصياءهم هم الذين يقاس الناس وأعمالهم بهم، ليتبين إلى أي درجة يشبهونهم.

«وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ». وهم الذين فقدوا الإيمان والعمل الصالح، فوزنهم خفيف يوم القيامة لأنهم خسروا رأسمال وجودهم: «فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ».

عبارة «خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» تصريح بحقيقة خسران المذنبين لأكثر رأسمال لهم- أي وجودهم- في سوق تجارة الدنيا دون أن يحصلوا على مقابل.

وتشرح الآية التالية عذابهم الأليم: «تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ». ألسنة النار ولهيبها المحرق تضرب وجوههم كضرب السيف، «وَهُمْ فِيهَا كَلِحُونَ» وهم من شدة الألم وعذاب النار، في عبوس واكفهرار.

«تلفح»: تعنى فى الأصل ضربته السيف، وقد وردت هنا كناية، لأن لهيب النار، أو نور الشمس المحرقة، وريح السموم، تضرب وجه الإنسان كضرب السيف.

«كالح»: بمعنى التعيس واكفهرار الوجه.

(١) بحار الأنوار ٧ / ٢٥٢.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٦

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا عَلَبْنَا عَلَيْنَا شِفْوَتْنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)

تحدثت الآيات السابقة عن العذاب الأليم لأهل النار، وتناولت الآيات - موضع البحث - إستعراض جانب من كلام الله مع أهل النار، إذ خاطبهم سبحانه وتعالى بعتاب: «أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ».

وهم يعترفون فى ردهم: «قَالُوا رَبَّنَا عَلَبْنَا عَلَيْنَا شِفْوَتْنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ».

«الشقوة» و «الشقاوة»: نقيض السعادة، وتعنى توفر وسائل العقاب والبلاء. أو بتعبير آخر: هى الشر والبلاء الذى يصيب الإنسان.

ولعلهم فى إعترافهم هذا يودون نيل رضى الله ورحمته، لهذا يضيفون مباشرة: «رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ».

يقولون ذلك وكأنهم لا يعلمون أن القيامة دار جزاء وليست دار عمل، وأن العودة إلى الدنيا أمر محال.

لهذا يرددهم الله سبحانه وتعالى بقوة: «قَالَ اخْسِئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ».

وعبارة «اخسؤا» التى هى فعل أمر، تستعمل لطرده الكلاب، فمتى ما استخدمت للإنسان فإنها تعنى تحقيره ومعاقبته.

ثم يبين الله عز وجل دليل ذلك بقوله: هل نسيتم، «إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ».

ولكنكم كنتم تستهزئون بهم إلى درجة أن كثرة الإستهزاء والسخرية منهم أنساكم ذكرى: «فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي

وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ» على أعمالهم وعقائدهم وأخلاقهم «إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ».

وأما أنتم فقد إبتليتكم بأسوأ حالة، وبأكثر العذاب ألماً، ولا ينجدكم أحد من مصيركم الذى تستحقونه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٧

قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ

(١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)

الدنيا وعمرها القصير: بما أن الآيات السابقة تناولت جانباً من عذاب أهل النار الأليم، عقب الآيات - موضع البحث - ذلك بذكر نوع

آخر من العذاب، هو العذاب النفسى الموجه من قبل الله تعالى لأهل النار للإستهانة بهم. تقول الآية الاولى: «قَالَ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ

عَدَدَ سِنِينَ». يخاطبهم سبحانه وتعالى يوم القيامة قائلاً: كم سنه عشتم فوق الأرض؟

إلا أنهم يرون فى هذه المقارنه أن الدنيا قصيرة جداً: «قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ».

والحقيقة أن الأعمار الطويلة فى الدنيا كسحابه صيف لو قارناها بحياة الآخرة، حيث النعم الخالدة والعقاب غير المحدود.

وللتأكيد أو للرد بدقه قالوا: «فَسَلِّ الْعَادِينَ». أى: رباه أسأل الذين يعرفون أن يعدوا الأعداد ويحسبونها بدقه حين مقارنه بعضها مع

بعض.

وهنا يؤنبهم الله ويستهزى بهم: «قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ».

وإستعملت الآية اسلوباً مؤثراً آخر لإيقاظ هذه الفئة وتعليمها: «أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ».

هذه العبارة الموجزة والعميقة تبين واحداً من أقوى الأدلة على البعث وحساب الأعمال والجزاء، وتعنى أن الحياة الدنيا تصبح عبثاً إن لم تكن القيامة والمعاد، فالدنيا بما فيها من مشاكل وما وضع فيها الله من مناهج ومسؤوليات وبرامج، تكون عبثاً وبلا معنى إن كانت لأيام معدودات فقط، كما سنشرح ذلك في المسائل الآتية.

وبما أن عدم عبثية الخلق أمر مهم يحتاج إلى دليل رصين، أضافت الآية: «فَتَعَلَى اللَّهِ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ». وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَمْ يَزِهِ إِنْ لَهُ بِهِ فَاِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٨

المفلحون والخائبون: بما أن الآيات السابقة تحدثت عن قضيه المعاد، واستعرضت الصفات الإلهية، فإن الآية الأولى أعلاه تناولت التوحيد نافية الشرك مؤكدة للمبدأ والمعاد في قوله تعالى: «وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ». أجل، إن المشركين ينكرون المعاد على الرغم من وضوح أدلته وإشراق حقيقته، ويقبلون الشرك من غير دليل صحيح عليه. وفي النهاية تقول الآية: «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ».

ما أجمل بداية هذه السورة «فَسَدُّ أَلْسِنَةِ الْمُؤْمِنِينَ» وما أجمل نهايتها المؤكدة لبدايتها: «لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ» هذه هي صورة جامعة لحياة المؤمنين والكافرين من البداية إلى النهاية.

وختمت السورة بهذه الآية الشريفة كاستنتاج عام بأن وجهت الكلام إلى الرسول صلى الله عليه وآله: «وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ».

والآن وقد إختارت فئة الشرك سبيلاً، وجارت فئة اخرى وظلمت، فأنت أيها الرسول ومن معك تدعون الله ربكم أن يغفر لكم ويرحمكم بلطفه الواسع الكريم.

«نهاية تفسير سورة المؤمنون»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٤٩

٢٤ سورة النور

محتوى السورة: يمكن اعتبار هذه السورة خاصة بالطهارة والعفة، وكفاح الإنحطاط الخلقى، والقرآن الكريم يحقق هذا الهدف عبر مراحل، هي:

١- بيان العقاب الشديد للمرأة الزانية والرجل الزانى، وهو ما ورد حاسماً في الآية الثانية من هذه السورة.

٢- بيان حد الزنا الذى لا تنبغى إقامته إلا بشروط مشددة للغاية.

ثم طرحت الآية بهذه المناسبة الحديث المعروف باسم الإفك، وما فيه من إتهام إحدى نساء النبي صلى الله عليه وآله.

٣- وتناولت الآية أحد السبل المهمة لاجتناب التدهور الأخلاقى، من أجل ألا يتصور أن الإسلام يهتم فقط بمعاقبة المذنبين.

فطرحت الآية نظر الرجال إلى النساء بشهوة أو بالعكس، وحجاب المرأة المسلمة، لأن أحد أسباب الانحراف الجنىسى المهمة ناجم عن هاتين المسألتين.

٤- وكخطوة للنجاة من التلوث بما يخل بالشرف، دعا القرآن المجيد إلى الزواج اليسير التكليف.

٥- ويثبت الآيات جانباً من آداب المعاملة، ومبادئ تربية الأولاد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٠

مختصر الامثل ج ٣ ٣٩٩

٦- وجاء ذكر مسائل خاصة بالتوحيد والمبدأ والمعاد والإمتثال لتعاليم النبي صلى الله عليه و آله. كل ذلك خلال البحوث المطروحة. وتطرت بحوث هذه الآيات إلى حكومه المؤمنين الصالحين العالمية.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «حَصَّنُوا أَمْوَالَكُمْ وَفَرَّجَكُمْ بِتَلَاوَةِ سُورَةِ النُّورِ وَحَصَّنُوا بِهَا نِسَاءَكُمْ، فَإِنَّ مِنْ أَدْمَنَ قَرَأَتْهَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ أَوْ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَمْ يَزِنْ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ أَبَدًا حَتَّى يَمُوتَ. فَإِذَا مَاتَ شِيعَهُ إِلَى قَبْرِهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، يَدْعُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّهِ لَهُ حَتَّى يَدْخُلَ إِلَى قَبْرِهِ».

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١) الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢) الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (٣)

حد الزاني والزانية: سميت هذه السورة بالنور لأن آية النور فيها من أهم آياتها، واولى آيات هذه السورة المباركة بمثابة إشارة إلى مجمل بحوث السورة: «سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

إن «سورة» بناء جميل مرتفع، وهذه الكلمة تطلق أيضاً على قسم من بناء كبير، وتطلق السورة على أقسام القرآن المختلفة المفصلة بعضها عن بعض.

إن هذه العبارة إشارة إلى كون أحكام ومواضيع هذه السورة- من اعتقادات وآداب وأوامر إلهية- ذات أهمية فائقة، لأنها كلها من الله.

وبعد هذا الإستعراض العام، تناولت السورة أول حكم حاسم للزاني والزانية: «الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ». ولتأكيد هذا الحكم قالت: «وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».

وأشارت الآية في نهايتها إلى مسألة أخرى لإكمال الاستنتاج من العذاب الإلهي «وَلَيَشْهَدُ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». وتشتمل هذه الآية على ثلاثة تعاليم:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥١

١- الحكم بمعاقبة النساء والرجال الذين يمارسون الزنا.

٢- إقامة هذا الحكم الإلهي بعيداً عن الرأفة بمن يقام عليه.

٣- أوجب الله حضور عدد من المؤمنين في ساحة معاقبة الزناة ليتعظ الناس بما يرون من إقامة حكم الله العادل على المذنبين.

وبعد بيان حد الزنا، جاء بيان حكم الزواج من هؤلاء في الآية الثالثة كما يلي: «الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ».

إن الآية تبين واقعه ملموسه، فالمنحطون يختارون المنحطات، وكذلك يفعلن هن في اختيارهن، بينما يسيرمو المتطهرون المؤمنون عن ذلك. كما تبين في هذه العبارة حكماً شرعياً وأمرأ إلهياً يمنع المؤمنين من الزواج مع الزانيات، ويمنع المؤمنات من الزواج مع الزناة، لأن الانحرافات الأخلاقية كالأضرار الجسمية المعديّة في الغالب.

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)

عقوبة البهتان: قد يستغل المعترضون ما نصت عليه الآيات السابقة من عقوبات شديدة للزاني والزانية فيسيئون للمتطهرين، فبينت الآيات

اللاحقة هنا عقوبات شديدة للذين يرمون المحصنات. تقول الآية: «وَالَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ» (١). فالأشخاص الذين يتهمون النساء العفيفات بعمل ينافي العفة (أى: الزنا)، ولم يأتوا بأربعة شهود عدول لإثبات إدعائهم. فحكمهم: «فَأَجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً». وتضيف الآية حكمين آخرين: «وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ». «القذف»: إذا جرى بلفظ صريح، وبأى لغة وأية صورة فحده هو ثمانون جلدة، وإذا لم يكن صريحاً فيعزّر القاذف. وهذا التشديد في الحكم المشرّع لحفظ الشرف والطهارة، ليس خاصاً بهذه المسألة، ففي كثير من التعاليم الإسلامية نراه ماثلاً أمامنا.

(١) «الزّمي» في الأصل هو اطلاق السهم أو قذف الحجر وأمثالهما، وقد استخدمت الكلمة هنا كناية عن اتّهام الأشخاص وسبابهم ووصفهم بما لا يليق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٢

وفي الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِذَا اتَّهَمَ الْمُؤْمِنُ أَخَاهُ انْمَاثَ الْإِيمَانَ مِنْ قَلْبِهِ كَمَا يَنْمِثُ الْمَلْحُ فِي الْمَاءِ». ولكن المولى العزيز الحكيم سبحانه وتعالى لا يسدّ باب رحمته في وجه التائبين، الذين تابوا من ذنوبهم وطهروا أنفسهم، وندموا على ما فرطوا، وسعوا في تعويض ما فاتهم من البرّ «إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ». فمعنى ذلك قبول شهادتهم بعد التوبة وإزالته الحكم بفسقهم.

وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ (٦) وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٧) وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (٨) وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٩) وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس، قال سعد بن عباد: لو أتيت لكاع وقد يفخذها رجل، لم يكن لي أن اهيجه حتى آتى بأربعة شهداء، فوالله ما كنت لآتى بأربعة شهداء حتى يفرغ من حاجته ويذهب، وإن قلت ما رأيت فإنّ في ظهري لثمانين جلدة. وبنزول الآيات السابقة علم المسلمون الحل السليم لهذه المشكلة.

التفسير

عقاب توجيه التهمة إلى الزوجة: يستنتج من سبب النزول أن هذه الآيات في حكم الاستثناء الوارد على حدّ القذف، فلا يطبق حدّ القذف (ثمانين جلدة) على زوج يتهم زوجته بممارسة الزنا مع رجل آخر، وتقبل شهادته لوحدها ويمكن في هذه الحالة أن يكون صادقاً كما يمكن أن يكون كاذباً في شهادته وهنا يقدم القرآن المجيد حلاً أمثل هو: على الزوج أن يشهد أربع مرات على صدق إدعائه: «وَالَّذِينَ يَزْمُونَ أَرْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٣

شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ». وبهذا على الرجل أن يعيد هذه العبارة: «أشهد بالله إنّي لمن الصادقين فيما رميتها من الزنا». أربع مرات لإثبات إدعائه من جهة، وليدفع عن نفسه حدّ القذف من جهة أخرى. ويقول في الخامسة: «لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين».

وهنا تقف المرأة على مفترق طريقيين، فإما أن تقرّ بالتهمة التي وجهها إليها زوجها، أو تنكرها على وفق ما ذكرته الآيات التالية. ففي الحالة الاولى تثبت التهمة؛ وفي الثانية: «وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ».

وبهذا الترتيب تشهد المرأة خمس مرات مقابل شهادات الرجل الخمس - أيضاً - لتنفى التهمة عنها بأن تكرر أربع شهادات:

«أشهد بالله إنه لمن الكاذبين فيما رمانى من الزنا». وفي الخامسة تقول: «أن غضب الله على إن كان من الصادقين».

وهذه الشهادات منهما هي ما يسمى بـ «اللعان»، لاستخدام عبارة اللعن في الشهادة.

وليرتب على هذين الزوجين أربعة أحكام نهائية.

أولها: انفصالهما دون طلاق.

وثانيها: تحرم الزوج على الزوجة إلى الأبد، أى لا يمكنهما العودة إلى الحياة الزوجية معاً بعقد جديد.

وثالثها: سقوط حدّ القذف عن الرجل، وحد الزنا عن المرأة.

ورابعها: الطفل الذى يولد بعد هذه القضية لا ينسب إلى الرجل، وتحفظ نسبته للمرأة فقط.

ولم ترد تفاصيل الحكم السابق فى الآيات المذكورة أعلاه، وإنما جاء فى آخر الآية موضع البحث: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَإِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ».

فهذه الآية إشارة إجمالية إلى تأكيد الأحكام السابقة، لأنها تدل على أن اللعان فضل من الله، إذ يحل المشكلة التى يواجهها الزوجان، بشكل صحيح.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٤

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا تحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١) لَوْ لَمَّا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ (١٢) لَوْ لَمَّا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةٍ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٣) وَلَوْ لَمَّا فَضَّلُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٤) إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (١٥) وَلَوْ لَمَّا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ (١٦)

حديث الإفك المثير: يستفاد من مجموع الآيات هو أنه قد اتهم شخص برىء بعمل مخل بالعمه والشرف حين نزول هذه الآيات، وأن الشائعات كانت منتشرة فى المدينة، وأن مجموعة من المنافقين المتظاهرين بالإسلام أرادوا الاخلال بالمجتمع الإسلامى إلى أحسن السبل لتلوّث سمعة النبى صلى الله عليه وآله والحط من شأنه المقدس لدى الناس، بترويجهم هذه الشائعة، فنزلت هذه الآيات، وتصدت لهذه الحادثة بقوة، ودفعت المنحرفين والمنافقين الحاقدين إلى جحورهم. وهذه الأحكام نافذة فى كل بيئه وزمان. تقول أول آية من الآيات موضع البحث، دون أن تطرح أصل الحادثة: «إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ».

«الإفك»: على وزن «فكر» يقصد بها كل مصروف عن وجهه، الذى يحق له أن يكون عليه، ومنه قيل للرياح العادله عن المهاب «مؤتفكة»، ثم اطلقت على كل كلام منحرف عن الحق ومجانب للصواب، ومن ذلك يطلق على الكذب «إفك».

و«العصبة»: على وزن «فُعْلَمَة» مشتقة من العَصَب، وجمعها أعصاب، وهى التى تربط عضلات الجسم بعضها مع بعض، وعلى شكل شبكة منتشرة فى الجسم، ثم اطلقت كلمة «عصبة» على مجموعة من الناس متحدة وذات عقيدة واحدة.

واستخدام هذه الكلمة يكشف عن الإرتباط الوثيق بين المتآمرين المشتركين فى ترويج حديث الإفك، حيث كانوا يشكّلون شبكة قوية منسجمة ومستعدة لتنفيذ المؤامرات.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٥

إِنَّ الْقُرْآنَ طَمَأَن وَهَدَىٰ رُوحَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ آلَمَهُمْ تَوْجِيهَ هَذِهِ التَّهْمَةِ إِلَىٰ شَخْصِيَّةٍ مُّطَهَّرَةٍ: «لَاتَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ»، لأنه كشف عن حقيقة عدد من الأعداء المهزومين أو المنافقين الجبناء.

ولو لم تكن هذه الحادثة، لما افتضح أمرهم بهذا الشكل، ولكانوا أكثر خطراً على المسلمين.

إِنَّ هَذَا الْحَادِثَ عَلَّمَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ اتِّبَاعَ الَّذِينَ يَرُوجُونَ الشَّائِعَاتِ يَجْرَهُمْ إِلَى الشَّقَاءِ، وَأَنَّ عَلَيْهِمْ أَنْ يَقِفُوا بِقُوَّةِ أَمَامِ هَذَا الْعَمَلِ.

ثم تعقب هذه الآية بذكر مسألتين:

أوليهما: «لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ». إشارة إلى أن المسؤولية الكبرى التي تقع على عاتق كبار المذنبين لا تحول دون تحمل الآخرين لجزء من هذه المسؤولية، ولهذا يتحمل كل شخص مسؤوليته إزاء أية مؤامرة. والمسألة الثانية: «وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ». وقائد هذه المجموعة سيعاقب عقاباً عظيماً لكبر ذنبه.

ثم توجهت الآية التالية إلى المؤمنين الذين انخدعوا بهذا الحديث فوقعوا تحت تأثير الشائعات، فلامتهم بشدة: «لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا». أى: لماذا لم تفقوا في وجه المنافقين بقوة، بل استمعتم إلى أقوالهم التي مسّت مؤمنين آخرين كانوا بمنزلة أنفسكم منكم. ولماذا لم تدفعوا هذه التهمة وتقولوا بأن هذا الكلام كذب وافتراء: «وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ». أنكم كنتم تعرفون جيداً الماضي القبيح لهذه المجموعة من المنافقين.

ثم تهتم الآيات بالجانب القضائي للمسألة فنقول: «لَوْلَا جَاءُو عَلَيْهِمْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ». أى لماذا لم تطلبوا منهم الإتيان بأربعة شهود. «فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ».

إن هذه الملامة تبين أن الحكم بأداء أربعة أشخاص لشهادتهم، وكذلك حدّ القذف في حالة عدمه قد نزل قبل الآيات التي تناولت حديث الإفك.

وأخيراً جمعت الآية التالية هذه الملامات، فقالت: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٦

ونظراً لأن «أفضتم» مشتقة من الإفاضة، بمعنى خروج الماء بكثرة، واستعملت في حالات اخرى للتوغل في الماء، نتج من هذه العبارة أن شائعة الإتهام توسعت بشكل شملت المؤمنين مضافاً إلى مروجيها الأصليين (المنافقين).

وتبين الآية التالية البحث السابق وهو كيف ابتلى المؤمنون بهذا الذنب العظيم نتيجة تساهلهم، فتقول: «إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ». أى تذكروا كيف رحبتم بهذه التهمة الباطلة فتناقلتموها: «وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَّا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ». وتشير هذه الآية إلى ثلاثة أنواع من ذنوبهم العظيمة في هذا المجال:

الأول: تقبل الشائعة: استقبالها وتناقلها.

الثاني: نشر الشائعة دون أى تحقيق أو علم بصدقها.

الثالث: استصغار الشائعة واعتبارها وسيلة للهو وقضاء الوقت. فى نهج البلاغة عن الإمام على عليه السلام قال: «أشدّ الذنوب ما استهان به صاحبه».

ونظراً لهول هذه الحادثة التي استصغرها بعض المسلمين، أكدت الآية ثانية، فأنبتهم مرة اخرى ولذعتهم بعباراتها إذ قالت: «وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَّا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَنٌ عَظِيمٌ».

وسبق لهذه الآية أن وجهت اللوم لهم لسوء ظنهم بالذى وجه إليه الإتهام باطلاً، وهنا تقول الآية: إضافة إلى وجوب حسن الظن بالمتهم يجب ألا تسمحوا لأنفسكم بالتحدث عنه، ولا تناولوا التهمة الموجهة إليه، فكيف بكم وقد كنتم سبباً لنشرها.

يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧) وَيَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨) إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩) وَلَوْ لَمَا فَضَّلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠)

حرمة إشاعة الفحشاء: تحدثت هذه الآيات أيضاً عن حديث الإفك، والنتائج المشؤومة والأليمة لاختلاق الشائعات ونشرها، فذكر أولاً:

«يَعْظُمُكَ اللَّهُ أَنْ تَعُوذُوا لِمِثْلِهِ». أى أن من علامات الإيمان أن لا يتوجه الإنسان نحو الذنوب العظام، والجملة المذكورة تشكل أحد

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٧

أركان التوبة، إذ أن الندم على الماضى لا- يكفى، بل يجب التصميم على عدم تكرار ارتكاب الذنوب فى المستقبل، لتكون توبة كاملة.

وللتأكيد أكثر على أن هذا الكلام ليس اعتيادياً، بل صادر عن الله العليم الحكيم، وليبان الحقائق ذات الأثر الفعال فى مصير الإنسان، يقول سبحانه وتعالى: «وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ». فهو يعلم حاجاتكم وما يضرّكم وما ينفعكم بمقتضى علمه الواسع، ويصدر أحكامه وأوامره المتناسبة لاحتياجاتكم بمقتضى حكمته.

ولشيت الأمر نقل الكلام من مورده الخاص إلى بيان عام لقانون شامل دائم، فقال: «إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

ولجملة (تشيع الفاحشة) مفهوم واسع يضم كل عمل يساعد فى نشر الفحشاء والمنكر.

وتختم الآية بالقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَمَّا تَعْلَمُونَ». إنه يعلم الذين يبيتون فى قلوبهم حب هذا الذنب، ويعلم الذين يمارسونه تحت واجهات خداعه، أما أنتم فلا تعلمون ذلك ولا تدركونه.

وكررت الآية الأخيرة- مما نحن بصدده من الآيات التى تناولت حديث الإفك ومكافحة إشاعة الفحشاء، وقذف المؤمنين المتطهرين- هذه الحقيقة لتؤكد القول: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَعُوفٌ رَحِيمٌ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١) وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَمْ تُحِبُّوا أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢) إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَ نَدِيقُوفِيهِمْ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٢٦)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٨

على الرغم من عدم متابعة هذه الآيات حديث الإفك بصراحه، إلا أنها تعتبر مكمله لمضمون ذلك البحث، وتحذر المؤمنين جميعاً من تأثير الأفكار الشيطانية فعلى هذا حينما يشعر الفرد بأول وسوسه شيطانية بإشاعة الفحشاء أو ارتكاب أى ذنب آخر فيجب التصدى له بقوة حاسمه، حتى يمنع من انتشاره وتوسعه.

وتخاطب الآية الاولى المؤمنين، فتقول: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَمَّا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ».

وحيث لا يمكن جزأى إنسان مؤمن متطهر مره واحده إلى الفساد، فإن ذلك يتم خطوه بعد اخرى فى طريق الفساد.

وأخيراً الإبتلاء بالكبائر، وهذه معنى جملة «خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ».

ثم تشير الآية إلى أهم النعم الكبيره التى من الله بها على الإنسان فى هدايته فتقول: «وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ».

ولا- شك فى أن الفضل والرحمة الإلهية ينقذان الإنسان من الإنحطاط والانحراف من الذنوب جميعاً، فالله منحه العقل، ولطف به فأرسل إليه الرسل، ويسير له سبل الإرتقاء والإهداء، وأعانه على استكمال الخير، وإضافه إلى هذه المواهب شمل الله الذين تطهروا بتوفيقاته الخاصه، وإمداداته التى يستحقونها، والتى تعتبر أهم عنصر فى تطهير وتركيبه النفس.

وذكر عدد من المفسرين - ومنهم الطبرسي في المجمع - سبباً لنزول الآية الثانية - من الآيات موضع البحث - يكشف عن تلاحمها مع الآيات السابقة، قال: نزلت في جماعة من الصحابة أقسموا على أن لا يتصدقوا على رجل تكلم بشيء من الإفك ولا يواسوهم. فنزلت هذه الآية لمتنعهم من رد فعل قاس، وأمرتهم بالعتو والسماح.

نعود الآن إلى تفسير الآية بملاحظة سبب النزول هذا. يقول القرآن: «وَلَمَّا يَأْتِلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعْيُ أَنْ يُوْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمُسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

إن هذا التعبير يكشف أن عدداً ممن تورط في قضية الإفك كانوا من المهاجرين في سبيل الله إذ خدعهم المنافقون، ولم يجز الله طردهم من المجتمع الإسلامي لماضيهم المجيد، كما لم يسمح بعقابهم أكثر مما يستحقونه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٥٩

«يأتل»: مشتقة من «ألية» أى اليمين.

ثم تضيف الآية: «وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا». لتشجيع المسلمين وترغيبهم في العفو والصفح بقولها: «أَلَا تَحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ». فإنكم مثلما تأملون من الله العفو عنكم وأن يغفر خطاياكم، يجب عليكم العفو والصفح عن الآخرين: «وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

وترسم هذه الآيات صورة للتبادل الإسلامي في جذبه ودفعه، وتشكل آيات الإفك والعقوبات الشديدة التي تفرض على الذين يتهمون الآخرين في شرفهم «قوة الدفع». وأما الآية موضع البحث التي تتحدث عن العفو والصفح وكون الله غفوراً رحيماً.

فإنها تكشف عن «قوة الجذب».

ثم تعود الآية إلى قضية القذف وأتاهم النساء العفيفات المؤمنات في شرفهن، فتقول بشكل حازم: «إِنَّ الَّذِينَ يَزْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغُفْلَتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعُنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ».

في تفسير الميزان: هذه الآية أخذ الصفات الثلاث الإحصان والغفلة والإيمان للدلالة على عظم المعصية فإن كلاً من الإحصان بمعنى العفة والغفلة والإيمان سبب تام في كون الرمي ظلماً والرامي ظالماً والمرمية مظلومة فإذا اجتمعت كان الظلم أعظم ثم أعظم، وجزاؤه اللعن في الدنيا والآخرة والعذاب العظيم (١).

والمراد من «الغفلات» أنهن لا يعلمن بما ينسب إليهن من بهتان في الخارج، ولهذا لسن في صدد الدفاع عن أنفسهن، وفي النتيجة فإن الآية تطرح موضوعاً جديداً للبحث، لأن الآيات السابقة تحدثت عن مثيري التهم الذين يمكن التعرف عليهم ومعاقبتهم. إلا أن الحديث هنا يدور حول مثيري الشائعات الذين أخفوا أنفسهم عن العقاب والحد الشرعي، فتقول الآية: إن الله تعالى سيبعدهم عن رحمته في هذه الدنيا، كما ينتظرهم العذاب العظيم في الآخرة.

وتحدد الآية التالية وضع الذين يتهمون الناس بالباطل في ساحة العدل الإلهي، قائلة: «يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

تدور ألسنتهم بما لا تشتهي أنفسهم لتستعرض الحقائق.

(١) الميزان في تفسير القرآن ٩٤/١٥.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٠

وتشهد أيديهم وأرجلهم، وكما ذكرت الآيات القرآنية: تنطق جلودهم، حقاً إنه يوم البروز والإفضاح، ويوم تنكشف فيه السرائر.

ثم تقول الآية: «يَوْمَئِذٍ يُؤْفِقُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقُّ». واستناداً إلى هذا الدليل أيضاً «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ».

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٢٧) فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ

أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ (٢٩)

لا تدخلوا بيوت الناس حتى يؤذن لكم: بينت هذه الآيات جانباً من أدب المعاشرة، والتعاليم الإسلامية الاجتماعية التي لها علاقة وثيقة بقضايا عامة حول حفظ العفة، حيث تقول أولاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتَسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا». وبهذا الترتيب عندما تعزمون على الدخول لابد من إخبار أصحاب البيت بذلك ونيل موافقتهم.

يجب أن يكون محيط المنزل آمناً إلى حد كاف؛ حتى أن جميع قوانين العالم تمنع الدخول إلى منازل الآخرين دون استئذان وتعاقب عليه. ونصت الأحكام الإسلامية على تعاليم وآداب خاصة في هذا المجال، لا يشاهد نظيرها إلا نادراً. روى - في التفسير الكبير - أن أبا سعيد الخدرى استأذن على الرسول صلى الله عليه وآله وهو مستقبل الباب فقال: «لا تستأذن وأنت مستقبل الباب».

وفي الدرر المنتور عن عبدالله بن بشر قال: كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر فيقول: «السلام عليكم السلام عليكم». ومما يلفت النظر في هذا الحكم الذى يتصف بأبعاد إنسانية وعاطفية واضحة، مرافقه لجملتين، أولاهما: «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ» وثانيتها: «لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

وأردف القرآن هذا الحكم بجملة اخرى فى الآية التالية: «فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦١

قد يكون المراد من هذه العبارة أنه ربما كان فى المنزل أحد، ولكن من لديه حق إعطاء الإذن بالدخول غير موجود، ففى هذه الحالة لا يحق للمرء الدخول إلى المنزل.

ثم تضيف الآية: «وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ».

إشارة إلى أنه لا لزوم لانزعاج المرء إن لم يؤذن له بالدخول، فلعل صاحب المنزل فى وضع غير مريح، أو أن منزله لم يهيا لاستقبال الضيوف.

وبما أن بعض الناس قد يدفعهم حب الإطلاع والفضول حين رفضهم استقباله على استراق السمع، أو التجسس من ثقب الباب لكشف خفايا أهل المنزل وليطلع على أسرارهم، لهذا قالت الآية: «وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ».

وبما أن لكل حكم استثناء، لرفع المشكلات والضرورات بشكل معقول عن طريقه، تقول آخر آية موضع البحث: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ».

وتضيف فى الختام: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ». ولعل ذلك إشارة إلى استغلال البعض هذه الاستثناءات، فيتذرع بأن المنزل غير مسكون فيدخله بهدف الكشف عن بعض الأسرار، أو الدخول إلى منازل مسكونة متذرعاً بعدم علمه بأنها مسكونة، إلا أن الله يعلم بكل هذه الأعمال، ويعلم الذين يسيئون الاستفادة من هذا الاستثناء.

قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠) وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَا يَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَائِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوْ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولَى الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٢

سبب النزول

في الكافي عن الإمام الباقر عليه السلام قال: «استقبل شاب من الأنصار امرأة بالمدينة وكان النساء يتقنعن خلف آذانهن، فنظر إليها وهي مقبله، فلما جازت نظر إليها ودخل في زقاق قد سماه بنى فلان، فجعل ينظر خلفها واعترض وجهه عظم في الحائط أو زجاجة فشقَّ وجهه، فلما مضت المرأة نظر فإذا الدماء تسيل على صدره وثوبه، فقال: واللَّه لآتين رسول الله صلى الله عليه وآله وأخبرته». قال: «فأتاه فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: ما هذا؟ فأخبره، فهبط جبرئيل عليه السلام بهذه الآية: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ»».

التفسير

مكافحة السفور وخائنة الأعين: قلنا في البداية: إنّ هذه السورة اختصت بالعفة والطهارة وتطهير الناس من جميع الانحرافات الجنسية، ولا يخفى على أحد ارتباط هذا البحث بالبحوث الخاصة بالقذف. تقول الآية أولاً: «قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ». «يغضوا»: مشتقة من «غَضَّ» من باب «رَدَّ» وتعني في الأصل التنقيص، لهذا لم تأمر الآية أن يغمض المؤمنون عيونهم، بل أمرت أن يغضوا من نظرهم.

إنّ الإسلام نهى عن هذا العمل المندفع مع الأهواء النفسية والشهوات، لأنّ «ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ». كما نصّت عليه الآية- موضع البحث- في ختامها.

ثم تحذر الآية أولئك الذين ينظرون بشهوة إلى غير محارمهم، ويررون عملهم هذا بأنه غير متعمد، فتقول: «إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ». وتناولت الآية التالية شرح واجبات النساء في هذا المجال، فأشارت أولاً إلى الواجبات التي تشابه ما على الرجال، فتقول: «وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ».

وبهذا حرم الله النظر بريئة على النساء أيضاً مثلما حرّمه على الرجال، وفرض تغطية فروجهنّ عن أنظار الرجال والنساء مثلما جعل ذلك واجباً على الرجال.

ثم أشارت الآية إلى مسألة الحجاب في ثلاث جمل:

أ) «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا». فلا يحق للنساء الكشف عن زينتهنّ المخفية، وإن كانت لا تُظهر أجسامهنّ، أي لا يجوز لهنّ الكشف عن لباس يتزيّن به تحت اللباس

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٣

العادي أو العباءة، بنص القرآن الذي نهاهن عن ذلك.

ب) وثاني حكم ذكرته الآية هو: «وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ». «خُمْر»: جمع «خِمار» في الأصل تعني «الغطاء»، إلّا أنّه يطلق بصورة اعتيادية على الشيء الذي تستخدمه النسوة لتغطية رؤوسهنّ؛ و «الجيوب»: جمع «جيب» على وزن «غيب» بمعنى ياقه القميص، وأحياناً يطلق على الجزء الذي يحيط بأعلى الصدر لمجاورته للياقة.

ويستنتج من هذه الآية أنّ النساء كنّ قبل نزولها، يرمين أطراف الخمار على أكتافهنّ أو خلف الرأس بشكل يكشفن فيه عن الرقبة وجانباً من الصدر، فأمرهن القرآن برمي أطراف الخمار حول أعناقهنّ؛ أي فوق ياقه القميص ليسترن بذلك الرقبة والجزء المكشوف من الصدر.

ج) وتشرح الآية في حكمها الثالث الحالات التي يجوز للنساء فيها الكشف عن حجابهن وإظهار زينتهن، فتقول: «وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا». ١- «لِبُعُولَتِهِنَّ». ٢- «أَوْ عَابَائِهِنَّ». ٣- «أَوْ عَابَائِهِنَّ». ٤- «أَوْ أَبْنَائِهِنَّ». ٥- «أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ». ٦- «أَوْ إِخْوَانِهِنَّ». ٧- «أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ». ٨- «أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ». ٩- «أَوْ نِسَائِهِنَّ».

١٠- «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ».

١١- «أَوْ التَّبَعِينَ غَيْرِ أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ». أي: الرجال الذين لا رغبة جنسية عندهم أصلاً بالعنن أو بمرض غيره.

١٢- «أَوِ الْطِفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ».

(د) وتبين الآية رابع الأحكام فتقول: «وَلَا يَضْرِبَنَّ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ». أى: على النساء أن يتحفظن عفتهن.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٤

ويجب أن يراقبن تصرفهن بشدة بحيث لا- يصل صوت خلخالهن إلى آذان غير المحارم. وانتهت الآية بدعوة جميع المؤمنين رجالاً ونساءً إلى التوبة والعودة إلى الله ليفلحوا: «وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ». وتوبوا أيها الناس مما ارتكبتم من ذنوب في هذا المجال، بعدما اطلعتهم على حقائق الأحكام الإسلامية، وعودوا إلى الله لتفلحوا.

فلسفة الحجاب: مما لا شك فيه أن الحديث عن الحجاب للمتغربين في عصرنا الذي سمّوه بعصر التعري والحريّة الجنسية، ليس حديثاً ساراً حيث يتصورونه اسطورة يعود لعصور خلت. إلا أنّ الفساد الذي لا حد له، والمشاكل المتزايدة والناجمة عن هذه الحريات التي لا قيد لها ولا حدود، أدّى بالتدريج إلى إيجاد الاذن الصاغية لهذا الحديث.

والقضية المطروحة (نقولها مع الاعتذار): هل من الصحيح أن تُستغل النساء للتلذذ من جانب الرجال عن طريق السمع والنظر واللمس (باستثناء المجامعة) وأن يكن تحت تصرف جميع الرجال، أو أن تكون هذه الامور خاصة لأزواجهن؟

يقول الإسلام: إنّ الامور الجنسية سواءً كانت مجامعة أو استلذاذاً عن طريق السمع أو البصر أو اللمس خاص بالأزواج، ومحرم على غيرهم، لأنّ ذلك يؤدّي إلى تلويث المجتمع وانحطاطه، وعبارة «ذَلِكَ أَرْكَى لَهُمْ» التي جاءت في الآية السابقة تشير إلى هذه المسألة. إنّ فلسفة الحجاب ليست خافية على أحد للأسباب التالية:

١- إنّ تعري النساء وما يرافقه من تجميل ودلال- وما شاكل ذلك- يحرك الرجال- خاصية الشباب- ويحطّم أعصابهم، وتراهم قد غلب عليهم الهياج العصبى، وأحياناً يكون ذلك مصدراً للأمراض النفسية.

خاصة إذا لاحظنا أنّ الغريزة الجنسية، أقوى الغرائز في الإنسان وأكثرها عمقاً، وكانت عبر التاريخ السبب في أحداث دامية وإجرامية مرعبة، حتى قيل: إنّ وراء كل حادثه مهمة امرأة.

أليس إثارة الغرائز الجنسية لعباً بالنار؟ وهل هذا العمل عقلائي؟

٢- تبين إحصاءات موثقة ارتفاع نسب الطلاق وتفكك الاسرة في العالم، بسبب زيادة التعري، لأنّ في سوق التعري والحريّة الجنسية، حيث المرأة سلعة تباع وتشترى أو في أقل تقدير موضع نظر وسمع الرجال، عندها يفقد عقد الزواج حرمة.

٣- انتشار الفحشاء وازدياد الأبناء غير الشرعيين يعتبران من أنكى نتائج إلغاء

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٥

الحجاب، فشواهدنا ظاهرة في المجتمع الغربي، واضحة بدرجة لا تحتاج إلى بيان.

٤- قضية «ابتدال المرأة» وسقوط شخصيتها في المجتمع الغربي ذات أهمية كبيرة فعندما يرغب المجتمع في تعري المرأة، فمن الطبيعي أن يتبعه طلبها لادوات التجميل والتظاهر الفاضح والإنحدار السلوكى، وتسقط شخصية المرأة في مجتمع يركز على جاذبيتها الجنسية، ليجعلها وسيلة إعلامية يُروّج بها لبيع سلعة أو لكسب سائح.

وهذا السقوط يفقدها كل قيمتها الإنسانية، إذ يصبح شبابها وجمالها وكأنه المصدر الوحيد لفخرها وشرفها، حتى لا يبقى لها من إنسانيتها سوى أنّها أداة لإشباع شهوات الآخرين، الوحوش الكاسرة في صور البشر.

كيف يمكن للمرأة في هذا المجتمع أن تبرز علمياً وتسمو أخلاقياً؟!

وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢) وَ لَيْسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَمَا تَكْرَهُوا فَبَيِّاتِكُمْ عَلَى الْبُعَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لَبِثْتُمْ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهْنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ

إِكْرَاهِيَهُنَّ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٣) وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٣٤)

الترغيب في زواج يسير التكاليف: طرحت هذه الآية- منذ بدايتها حتى الآن- سبلاً أمينه متعددة للحيلولة دون الإنحطاط الخلقى والفساد إلى عالم أرحب من الطهر والاستقامة، ويحول دون تفهقها أو انحدارها في مهاوى الرذيلة، وقد أشارت الآيات- موضع البحث- إلى أهم طرق مكافحة الفحشاء، ألا وهو الزواج اليسير الذي يتم بعيداً عن أجواء الرياء والبذخ، لأنَّ إشباع الغرائز بشكل سليم وشرعى خير سبيل لاقتلاع جذور الذنوب. لهذا تقول بداية الآية موضع البحث: «وَأَنْكَحُوا الْيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ». «الأيامى»: جمع «أيم» على وزن «قيم» وتعنى فى الأصل المرأة التى لا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٦

زوج لها، وكذلك تطلق هذه الكلمة على الرجل الذى لا زوجة له، فيدخل فى هذا المفهوم كل من ليس له زوج، سواء كان بكرة أم ثيباً. وعبارة «أنكحوا» أى «زوجوا» فالمراد من هذا الأمر بالتزويج التمهيدي للزواج عن طريق تقديم العون المالى عند الحاجة، أو العثور على زوجة مناسبة، أو التشجيع على الزواج، ولا اختلاف فى أن أصل التعاون الإسلامى يوجب تقديم العون من قبل المسلمين بعضهم لبعض.

وجاء ذلك هنا بصراحة ليؤكد أهمية الزواج الخاصة، وهى أهمية بالغه المدى.

فى الكافى عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «قال أمير المؤمنين عليه السلام: أفضل الشفاعات أن تشفع بين اثنين فى نكاح حتى يجمع الله بينهما».

وبما أن بعض الأعدار كالفقر أو عدم وجود وتوفر الإمكانيات اللازمة قد تقف حائلاً دون الزواج، أو هو عذر للفرار من الزواج وتشكيل الاسرة. يقول القرآن بهذا الصدد: «إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ».

إنَّ المتزوج يكتسب شخصية اجتماعية، حيث يجد نفسه مسؤولاً عن المحافظة على زوجته، وماء وجه اسرته، وتأمين حياة سعيدة ومستقبل زاهر لها، ويستغل المتزوج جميع طاقاته للحصول على دخل معتبر، فتراه يقتصد فى نفقاته ليتغلب على الفقر بأسرع وقت ممكن، ولا جدال فى أن الإمدادات الإلهية والقوى الروحية الخفية تساعد هذا الشخص الذى تزوج ليحفظ نفسه ويطهرها.

ولكن أحياناً بالرغم من بذل الجميع جهودهم لتهيئة مستلزمات زواج إنسان ما لا يفلحون فى ذلك، مما يضطره إلى مضى فترة من الزمن محروماً من الزواج، ولكى لا يظن أن إقدامه على الفساد أمراً مباحاً تقتضيه الضرورة أسرع الآيه التالية لتأمره بالطهارة والعفة فقالت: «وَلَيْسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ».

ويهتم الإسلام كعادته بالعبء الضعفاء اجتماعياً من أجل تيسير حريتهم، فيتناول القرآن المجيد مسألة المكاتبه (١) فتقول الآية:

«وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاثِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا».

ولأجل ألا يقع العبيد فى مشاكل لا يتمكنون من حلها ويعجزون عن تسديد ما

(١) إنَّ عقد المكاتبه نوع من الإتفاقات يتم بين المولى وعبده، يلتزم العبد فيه بإعداد مبلغ من المال من عمل حرّ، ليدفع أقساطاً لسيدته، فإذا دفع آخر قسطينال حرته.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٧

بذمتهم، يدعو القرآن الكريم إلى مساعدتهم فيقول: «وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ».

والهدف الحقيقى هو أن يشمل المسلمون هذه الطبقة المستضعفة بمساعداتهم لتتحرر بأسرع وقت ممكن.

وعقبت هذه الآية بإشارة إلى أحد الأعمال القبيحة التى كان يمارسها عباد الدنيا إزاء جواريتهم: «وَلَا تُكْرَهُوا فَتِيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَعُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا».

وهذه الآية تكشف عن مدى الرذيلة والانحطاط الخلقى الذي كان سائداً في عهد الجاهلية، وقد واصل البعض أعماله القبيحة هذه حتى بعد ظهور الإسلام، حتى نزلت الآية السابقة، وأنهت هذه الأعمال.

ومع بالغ الأسف نجد عصرنا الذي سمي بجاهلية القرن العشرين، تمارس البشرية هذا العمل بقوة وعلى قدم وساق في بلدان تدعى المدنية والحضارة والدفاع عن حقوق الإنسان.

وفي الختام- على حسب الاسلوب الذي يتبعه القرآن- يفتح طريق التوبة للمذنبين، ويشجعهم على إصلاح أنفسهم: «وَمَنْ يُكْرِهْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ إِكْرَاهِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

وعلى نهج القرآن، نجد آخر الآيات- موضع البحث- تستنتج وتلخص الموضوع المطروح خلال إشارتها إلى البحوث السابقة: «وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ». وكذلك دروس وعبر من الأقوام الماضية تنفعكم في يومكم هذا: «وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ».

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) فِي بُيُوتِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ (٣٧) لِيَجْزِيَ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَزِرُّقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٨

آية النور: تحدث الفلاسفة والمفسرون والعرفاء الإسلاميون كثيراً عن مقاصد الآيات أعلاه، وهي مرتبطة بما سبقها من الآيات الشريفة التي عرضت لقضية العفة ومكافحة الفحشاء بمختلف السبل.

وبما أن ضمانته تنفيذ الأحكام الإلهية، وخاصة السيطرة على الغرائز الثائرة، ولا سيما الغريزة الجنسية التي هي أقوى الغرائز، لا تتم دون الاستناد إلى الإيمان، ومن هنا إمتد البحث إلى الإيمان وأثره القوي، فقالت الآية أولاً: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وإذا أردنا تشبيه الذات المقدسة لرب العالمين (رغم منزلته العظيمة التي لا نظير لها ولا شبيهه) فلا نجد خيراً من النور! الله الذي خلق كل شيء في عالم الوجود ونوره، فأحيا المخلوقات الحية ببركته، ورزقها من فضل، ولو انقطعت رحمته عنها لحظتها، لأصبح الجميع في ظلمات الفناء والعدم.

ومما يلفت النظر أن كل مخلوق يرتبط بالله بمقدار معين يكتسب من النور بنفس ذلك المقدار:

القرآن نور لأنه كلام الله.

والدين الإسلامي نور لأنه دينه.

الأنبياء أنوار لأنهم رسله.

والأئمة المعصومون عليهم السلام أنوار إلهية، لأنهم حفظه دينه بعد النبي صلى الله عليه وآله.

والإيمان نور، لأنه رمز الإلتحام به سبحانه وتعالى.

والعلم نور، لأنه السبيل إلى معرفته- عز وجل-.

ولهذا: «اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وإذا استعملنا كلمة «النور» بمعناها الواسع، أي الظاهر في ذاته والمظهر لغيره في هذه الحالة يصبح استعمال كلمة النور الذات الله المقدسة حقيقة ولا تشبيه فيها، لأنه لا يوجد أظهر من الله تعالى في العالم، وكل الأشياء تظهر من بركات وجوده.

وبهذا تأخذ أنوار الوجود نورها من نوره وتنتهي إلى نوره الطاهر.

وقد أوضح القرآن بعد بيانه الحقائق السالفة ذلك، إذ ذكر مثالا رائعاً دقيقاً لكيفية النور الإلهي: «مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٦٩

عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

«المشكاة»: في الأصل تعني الكوة التي تخصص في الجدار لوضع المصابيح الزيتية فيها لحفظها من الرياح.

«الزجاجة»: تطلق في الأساس على الأحجار الشفافة، وهنا تعني الزجاجة التي توضع فوق المصباح لتحفظ شعلته، وتنظم جريان الهواء، لتزيد من نور الشعلة.

«المصباح»: يتألف من وعاء للزيت وفتيل.

عبارة «زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ» تشير إلى الطاقة التي تُجهّز هذا المصباح بوقود لا- ينضب معينه، وزيت الزيتون من أجود الوقود المستعمل للمصابيح، ثم إن هذا الزيت يُحصل عليه من زيتون شجر يتعرض للشمس من جميع جوانبه بشكل متساو، لا أن تكون الشجرة في الجانب الشرقي من البستان وبجانب حائط يمنع وصول أشعة الشمس إليها، كما لا تكون في جهة الغرب ليتعرض جانب واحد منها على أشعة الشمس.

وتوضيح هذا المثال: إن نور الإيمان الموجود في قلوب المؤمنين يحتوي على العناصر الأربعة المتوفرة في المصباح المضىء، هي:

«المصباح» وهو شعلة الإيمان في قلب المؤمن يضىء طريق الهداية.

و «الزجاجة» هي قلب المؤمن ينظم الإيمان في ذاته ويحفظه من كل سوء.

و «المشكاة» صدر المؤمن. أو بعبارة أخرى: شخصيته بما فيها وعيه وعلمه وفكره الذي يصون إيمانه من الأعاصير والأخطار.

«شجرة مباركة زيتونة» هي الوحي الإلهي الذي يكون بمنتهى الصفاء والطهارة وتوقد شعلة إيمان المؤمنين - في الحقيقة - من نور الله الذي ينير السماوات والأرض وقد أشرق من قلوب المؤمنين، فأضاء وجودهم ونور وجوههم.

فتراهم يمزجون الأدلة العقلانية بنور الوحي، فيكون مصداق «نور على نور».

ولهذا ترى القلوب المستعدة لاستقبال النور الإلهي تهتدي، وهي المقصودة بعبارة «يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ».

وتجب المحافظة على نور الوحي من التلوث والميول المادية والانحراف إلى الشرق أو الغرب الذي يؤدي إلى التفسخ والاندثار.

ولتعبء قوى الإنسان بشكل سليم بعيداً عن كل فكر مستورد وانحراف، لتكون

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٠

مصداقاً ل «يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ». ويجب أن نعرف الآن أين موضع هذا المصباح، وشكل موضعه، ليتضح لنا ما كان ضرورياً إيضاحه في هذا المجال، لهذا تقول الآية التالية: إن هذه المشكاة تقع «فِي بُيُوتٍ أُذِنَ اللَّهُ أَنْ تَرْفَعَ» لكي تكون في مأمن من الشياطين والأعداء والانتهازين، «وَيُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُهُ» ويتلى فيها القرآن والحقائق الإلهية.

ثم تبين المقصود من هذه البيوت في آخر الآية حيث تقول: أنه في هذه البيوت يسبح أهلها صباحاً ومساءً: «يَسْبُحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ». «رِحَالٌ لَأَتْلِهِمْ تَجَرَّةٌ وَلَمَّا بَيْعَ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ». إن هذه الخصائص تكشف عن أن هذه البيوت هي المراكز التي حُصّنت بأمر من الله، وأنها مركز لذكر الله وليان حقيقة الإسلام وتعاليم الله، ويضم هذا المعنى الواسع المساجد وبيوت الأنبياء والأولياء خاصة بيت النبي صلى الله عليه وآله وبيت علي عليه السلام.

وأشارت آخر هذه الآيات إلى الجزاء الوافي لحراس نور الهداية وعشاق الحق والحقيقة، فقالت: «لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مِمَّا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ». أي: أن الله يكافىء جميع أعمالهم بموجب أفضلها، ويشمل ذلك أبسط أعمالهم وأوسطها، حيث يجعلها الله

بمستوى أفضل الأعمال حين منحه المكافأة.

ولا عجب في ذلك، لأن الفضل الإلهي لمن كان جديراً به غير محدود: «وَاللَّهُ يَزُوقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ».

وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩) أَوْ كظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)

أعمال سرابية: تحدثت الآيات السابقة عن نور الله، نور الإيمان والهداية، وإتمام هذا البحث ولتوضيح المقارنه بين الذين نور الله قلوبهم وبين الآخرين تناولت هذه الآيات عالم الكفر والجهل والإلحاد المظلم. الكلام في الآية الاولى عن الذين يبحثون عن الماء في مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧١

صحراء جافة حارقة، ولا يجدون غير السراب فيموتون عطشاً، في الوقت الذي عثر فيه المؤمنون على نور الإيمان، ومنع الهداية الرائعة، فاستراحوا بجنبها، فتقول أولاً: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا». ولكن يجد الله عند أعماله: «وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْفَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ».

ثم تناولت الآية الثانية مثلاً آخر لأعمال الكفار وقالت: «أَوْ كظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ». وبهذا المنوال تكون «ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها».

أجل، إن النور الحقيقي في حياة البشر هو نور الإيمان فقط، ومن دونه تسود الحياة الظلمات، ونور الإيمان هذا إنما هو لطف من عند الله: «وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ».

فقد شبّهت الآية أعمال غير المؤمنين بنور كاذب كسراب يراه ظمآن في صحراء جافة.

ثم ينتقل القرآن من الحديث عن هذا النور الكاذب، الذي هو عبارة عن أعمال المنافقين إلى باطن هذه الأعمال، الباطن المظلم والمخيف والموحش حيث تتعطل فيه حواس الإنسان، وتظلم عليه الدنيا حتى لا يرى نفسه.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَوَافَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صِلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٤١) وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٤٢)

الجميع يسبح لله: تحدثت الآيات السابقة عن نور الله، نور الهداية والإيمان، وعن الظلمات المضاعفة للكفر والضلال، أما الآيات موضع البحث، فإنها تتحدث عن دلائل الأنوار الإلهية وأسباب الهداية، وتخطب الآية النبي صلى الله عليه وآله فتقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ». وكذلك الطير يسبحن لله في حال أنها باسطات اجنحتهن في السماء «وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صِلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ».

وبما أن هذا التسبيح العام دليل على خلقه تعالى لجميع المخلوقات، وخالقيته دليل على مالكيته للوجود كله، وكذلك دليل على أن كل ما في الوجود يرجع إليه سبحانه، فتضيف الآية: «وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٢

إن القصد من التسبيح والحمد هما ما نعبر عنه بعبارة «لسان حاله». أي نظام الوجود وأسراره المدهشة الكامنة في كل مخلوق تتحدث بصراحة عن عظمة الخالق وعلمه وحكمته التي لا حدود لها، إذ كل مخلوق جميل، وكل أثر فني بديع يثير الدهشة والإعجاب، حتى أن لوحة فنية وقطعة شعرية جميلة، تحمد وتسيح لمبدعها. فمن جهة تكشف عن صفاته (بحمدها له) ومن جهة أخرى تنفي عنه أي عيب أو نقص (فتسبحه)، فكيف وهذا الكون العظيم بما فيه من عجائب وغرائب لا تنتهي.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَسرى الْوُودُقُ يُخْرُجُ مِنْ خِطَائِهِ وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ

(٤٤) وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥)

جانب آخر من الخلق العجيب: نواجه ثانية- في هذه الآيات- جانباً آخر من مسألة الخلق المدهشة، وما احتوته من آيات العلم والحكمة والعظمة، وكل ذلك من أدلة توحيد ذات الله الطاهرة. يخاطب القرآن المجيد النبي صلى الله عليه وآله ثانية ويقول: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا». وبعد أن تتراكم السحب ترى قطرات المطر تخرج من بين السحاب وتهبط على الجبال والسهول والصحارى، «فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ».

«يزجي»: مشتقة من «الإزجاع»، أى سوقه بأسلوب لين لترتيب المخلوقات المتبعثرة هنا وهناك بقصد جمعها.

«ركام»: على وزن «غلام»، بمعنى الأشياء المتراكمة بعضها فوق بعض.

«الودق»: على وزن «شرق»، أنها حبات المطر.

فهو الذى يحيى الأرض بعد موتها ويبعث الحياة فى الأشجار والنباتات، ويروى عطش البشر والحيوان.

وأشار القرآن إلى ظاهرة أخرى من ظواهر السماء المدهشة، وهى السحاب، حيث قال:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٣

«وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ». أى من جبال السحب فى السماء تنزل قطرات المطر على شكل ثلج وبرد، فتكون بلاء لمن يريد الله عذابه فتصيب هذه الثلوج المزارع والثمار وتلفها وقد تصيب الناس والحيوانات فتؤذيهم، «فَيَصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ». ومن لم يرد تعذيبه دفع عنه هذا البلاء، «وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَن يَشَاءُ».

أجل، إنه هو الذى ينزل الغيث المخصب من سحابة تارة... وهو الذى يصيره برداً بأدنى تغيير بأمره فيصيب به (بالأذى) من يشاء، وربما يكون مهلكاً أحياناً.

وهذا يدل على منتهى قدرته وعظمته إذ جعل نفع الإنسان وضرره وموته وحياته متقارنة، بل مزج بعضها ببعض.

وفى نهاية الآية يشير إلى ظاهرة أخرى من الظواهر السماوية التى هى من آيات التوحيد فيقول سبحانه: «يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ». فالسحب المؤلفة من ذرات الماء تحمل فى طياتها الشحنات «الكهربائية»، وتومض إيماضاً يذهل برقها (العيون) والأبصار ويصكك رعداها السمع من صوته، وربما اهتزت له جميع الاجواء.

إن هذه الطاقة الهائلة بين هذا البخار اللطيف لمثيرة للدهشة حقاً...

وأشارت الآية التالية إلى إحدى معجز الخلق ودلائل عظمه الله، وهو خلق الليل والنهار بما فيهما من خصائص، حيث تقول: «يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ».

إن لتعاقب الليل والنهار والتغيرات التدريجية الحاصلة منه أثر فعال فى استدامة الحياة وبقاء الإنسان، وفى ذلك عبرة لآولى الأبصار.

وأشارت آخر الآيات موضع البحث- إلى أوضح دليل على التوحيد، وهى مسألة الحياة بصورها المختلفة، فقالت: «وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ». أى أن أصلها جميعاً من ماء، ومع هذا فلها صور مختلفة: «فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ» كالزواحف؛ «وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ» كالإنسان والطيور؛ «وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ» كالدواب.

وليس الخلق محددًا بهذه المخلوقات، فالحياة لها صور أخرى متعددة بشكل كبير، سواء كانت أحياء بحرية أم حشرات بأنواعها المتعددة التى تبلغ آلاف الأنواع، لهذا قالت الآية فى الختام: «يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٤

لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤٦) وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ (٤٨) وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ

يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ (٤٩) أ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) سبب النزول

في تفسير مجمع البيان قيل: نزلت الآيات في رجل من المنافقين كان بينه وبين رجل من اليهود حكومة، فدعاه اليهودى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ودعاه المنافق إلى كعب بن الأشرف.

التفسير

الإيمان وقبول حكم الله: تحدثت الآيات السابقة عن الإيمان بالله وعن دلائل توحيده وعلائمه في عالم التكوين، بينما تناولت الآيات- موضع البحث- أثر الإيمان وانعكاس التوحيد في حياة الإنسان، وإذعانه للحق والحقيقة. تقول أولاً: «لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبَيِّنَاتٍ». آيات تنور القلوب بنور الإيمان والتوحيد، وتريد في فكر الإنسان نوراً وبهجة، وتبدل ظلمات حياته إلى نور على نور. وطبيعى أن هذه الآيات المبيّنات تُمهّد للإيمان، إلّا أنّ الهداية الإلهية هي صاحبة الدور الأساسى: «وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ».

وكما نعلم فإنّ إرادة الله ومشيئته ليست دون حساب، فهو سبحانه وتعالى يدخل نور الهداية إلى القلوب المستعدة لتقبله. ثم استنكرت الآية الثانية وذمّت مجموعة من المنافقين الذين يدعون الإيمان في الوقت الذى خلت فيه قلوبهم من نور الله، فتقول الآية عن هذه المجموعة: «وَيَقُولُونَ ءَأَمَّنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ».

ما هذا الإيمان الذى لا يتجاوز حدود ألسنتهم، ولا أثر له في أعمالهم.

ثم تذكر الآية التى بعدها دليلاً واضحاً على عدم إيمانهم: «وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ».

ولتأكيد عبادة هذه المجموعة للدنيا وفضح شركهم، تضيف الآية: «وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُدْعِينَ» وبكامل التسليم والخضوع.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٥

وبيّنت الآية الأخيرة في ثلاث جمل، الجذور الأساسية ودوافع عدم التسليم إزاء تحكيم الرسول صلى الله عليه وآله، فقالت أولاً: «أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ».

هذه صفة من صفات المنافقين يتظاهرون بالإيمان، ولكنهم لا يسلمون بحكم الله ورسوله، ولا يستجيبون له، إمّا بسبب انحرافهم قليلاً عن التوحيد أو الشك والتردد: «أَمْ ارْتَابُوا»، وطبيعى أن الذى يتردد في عقيدته، لن يستسلم لها أبداً. وثالثها فيما لو لم يلحدوا ولم يشكوا، أى كانوا من المؤمنين: «أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ».

في الوقت الذى يعتبر هذا تناقضاً صريحاً، إذ كيف للذى يؤمن برسالة محمد صلى الله عليه وآله ويعتبر حكمه حكم الله تعالى أن ينسب الظلم إلى الرسول صلى الله عليه وآله؟!!

وهل يمكن أن يظلم الله أحداً؟ أليس الظلم وليد الجهل أو الحاجة أو الكبر؟

إنّ الله تعالى مقدس عن كل هذه الصفات؛ «بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ». إنهم لا يقتنعون بحقهم، وهم يعلمون أنّ النبى الأكرم صلى الله عليه وآله لا يجحف بحق أحد، ولهذا لا يستسلمون لحكمه.

إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) وَأَفْسَسُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لِيُنْزِلَ عَلَيْهِمْ لِيُخْرِجَنَّ قُلُوبَهُمْ طَاعَةً مَّعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٥٣) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (٥٤)

الإيمان والتسليم التام إزاء الحق: لاحظنا في الآيات السابقة ردّ فعل المنافقين لحكم الله ورسوله صلى الله عليه وآله، أمّا الآيات- موضع البحث- فإنّها تشرح موقف المؤمنين إزاء حكم الله ورسوله، فتقول: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا».

كيف يمكن أن يرحم شخص حكم شخص آخر على حكم الله، وهو يعتقد بأن الله عالم بكل شيء، ولا حاجة له بأحد، وهو الرحمن الرحيم؟ وكيف له أن يقوم بعمل إزاء حكم الله إلا السمع والطاعة؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٦

لهذا تختتم الآية حديثها بالقول: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ». ولا شك في أن الفلاح نصيب الذي يسلم أمره إلى الله، ويعتقد بعدله وحكمه في حياته المادية والمعنوية.

وتابعت الآية الثانية هذه الحقيقة بشكل أكثر عمومية، فنقول: «وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ».

لحن الآية التالية - وكذلك سبب نزولها الذي ذكرته بعض التفاسير - يعنى أن بعض المنافقين تأثروا جداً على ما هم فيه، بعد نزول الآيات السابقة والتي وجهت اللوم الشديد إليهم، فجاءوا إلى النبي صلى الله عليه وآله وأقسموا يمينا مغلظة أننا نسلم أمرنا إليك، ولهذا أجابهم القرآن بشكل حاسم: «وَأَقْسِمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجْنَ» إلى ميدان الجهاد، أو يخرجوا من أموالهم وبيوتهم فقل لهم: لا حاجة إلى القسم، وعليكم عملاً طاعة الله بصدق وإخلاص: «قُلْ لَأَتَّقِسْمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ». إن كلمة «ليخرجن» في هذه الآية يقصد منها عدم التهاكك على المال والحياة، وأتباع الرسول صلى الله عليه وآله أينما رحل وحل وطاعته.

لهذا أكدت الآية التالية - التي هي آخر الآيات موضع البحث - هذا المعنى، وتقول للرسول صلى الله عليه وآله أن: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ».

ثم تضيف الآية أن هذا الأمر لا يخرج عن إحدى حالتين: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ». ففي صورة العصيان فقد أدى وظيفته وهو مسؤول عنها كما أنكم مسؤولون عن أعمالكم حين أن وظيفتكم الطاعة، ولكن «وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا» لأنه قائد لا يدعو لغير سبيل الله والحق والصواب.

في كل الأحوال: «وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ». وإنه صلى الله عليه وآله مكلف بإبلاغ الجميع ما أمر الله به، فإن أطاعوه استفادوا، وإن لم يطيعوه خسروا.

وَعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٧

سبب التزلزل

في تفسير مجمع البيان: لما قدم رسول الله صلى الله عليه وآله وأصحابه المدينة، وآوتهم الأنصار رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا مع السلاح ولا يصبحون إلا فيه. فقالوا: ترون أننا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله؟ فنزلت هذه الآية.

التفسير

حكومة المستضعفين العالمية: تحدثت الآية السابقة عن طاعة الله ورسوله والتسليم له، وقد وصلت الآية - موضع البحث - هذا الموضوع، وبينت نتيجة هذه الطاعة ألا وهي الحكومة العالمية التي وعداها الله المؤمنين به. فقالت الآية مؤكدة: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ» ويجعله متجذراً وثابتاً وقوياً بين شعوب العالم.

«وَلَيَبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا». وبعد سيادة حكم التوحيد في العالم وإجراء الأحكام الإلهية، واستقرار الأمن واقتلاع جذور الشرك، «وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ».

وعلى كل حال يبدو من مجمل هذه الآية أن الله يبشّر مجموعة من المسلمين الذين يتصفون بالإيمان والعمل الصالح بثلاث بشائر:

١- استخلافهم وحكومتهم في الأرض.

٢- نشر تعاليم الحق بشكل جذري وفي كل مكان (كما يستفاد من كلمة «تمكين»...).

٣- انعدام جميع عوامل الخوف والإضطراب.

وينتج من كل هذا أن يُعبد الله بكل حرية، وتُطبق تعاليمه ولا يشرك به، ويتم نشر عقيدة التوحيد في كل مكان. الذين وعدهم الله باستخلاف الأرض: لقد وعد الله المؤمنين ذوى الأعمال الصالحة بالإستخلاف في الأرض وتمكينهم من نشر دينهم وتمتعهم بالأمن الكامل، فما هي خصائص هؤلاء الموعودين بالإستخلاف؟

إنّ هذه الآية تشمل المسلمين الأوائل، كما أنّ حكومة المهدي عليه السلام مصداق لها، إذ يتفق

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٨

المسلمون كافة من شيعة وسنة على أنّ المهدي عليه السلام يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد أن ملئت جوراً وظلماً. ومع كل هذا لا مانع من تعميمها، وينتج من ذلك تثبيت اسس الإيمان والعمل الصالح بين المسلمين في كل عصر وزمان، وأنّ لهم الغلبة والحكم ذات الأساس الثابتة.

إنّ جميع الجهود- من حرب وسلام وبرامج تثقيفية واقتصادية وعسكرية- تنصب في ظلّ هذه الحكومة في مسيرة العبودية لله الخالية من كل شائبة من شوائب الشرك.

وَ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ أَطِيعُوا الرُّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)

استحالة الفرار من حكومته تعالى: وعدت الآية السابقة المؤمنين الصالحين بالخلافة في الأرض، وتهيء هاتان الآيتان الناس للتمهيد لهذه الحكومة، فهي تقول أولاً: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ». وهي الوسيلة التي توثق الصلة بين الخالق والمخلوق، وتقرب الناس إلى بارئهم، وتمنع عنهم الفحشاء والمنكر.

«وَأَتُوا الزَّكَاةَ». وهي الوسيلة التي تربط الإنسان بأخيه الإنسان، وتقلل الفواصل بينهما، وتقوى ارتباطهما العاطفي.

وبشكل عام يكون في كل شيء تبعاً للرسول: «وَأَطِيعُوا الرُّسُولَ». طاعة تكونون بسببها من المؤمنين الصالحين الجديرين بقيادة الحكم في الأرض، «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» وتكونون لائقين لحمل راية الحق والعدل.

وإذا احتملت أن الأعداء الأقوياء المعاندين يمنعوكم من تحقق ما وعدكم الله إياه، فذلك غير ممكن، لأنه قادر على كل شيء، ولا يحجب إرادته شيء، ولهذا: «لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ». فهؤلاء الكفار لا يستطيعون الفرار من عقاب الله وعذابه في الأرض، ولا يقتصر ذلك على الدنيا فقط، بل إنهم في الآخرة، «وَمَا أُوَيْهَهُمُ النَّارُ وَ لَبِئْسَ الْمَصِيرُ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٧٩

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صِدْمَةِ الْفَجْرِ وَ حِينَ تَصُدُّونَ رِجَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَ مِنْ بَعْدِ صِدْمَةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَ لَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ عَلَى بَعْضِ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٨) وَ إِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٩) وَ الْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَمَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ رِجَالَهُنَّ مِنْ حَيْثُ يَرْتَضِينَ وَ أَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٦٠)

آداب الدخول إلى المكان الخاص بالوالدين: إنّ أهم مسألة تابعتها هذه السورة هي مسألة العفاف العام ومكافحة كل انحطاط خلقى، بأبعاده المختلفة. وقد تناولت الآيات- موضع البحث- إحدى المسائل التي ترتبط بهذه المسألة، وشرحت خصائصها. فتقول أولاً: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ».

فيجب على عبيدكم وأطفالكم الإستئذان في ثلاث أوقات: «مَنْ قَبِلَ صِلْوَةَ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهْرِ وَمِنْ بَعْدِ صِلْوَةِ الْعِشَاءِ». «ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ». أى هذه ثلاث أوقات للخلوة خاصة بكم.

«العورة»: مشتقة من «العار»، أى: العيب، وأطلق العرب على العضو التناسلى العورة، لأن الكشف عنه عار.

إن إطلاق كلمة «العورة» على هذه الأوقات الثلاثة بسبب كون الناس في حالة خاصة خلال هذه الأوقات الثلاثة، حيث لا يرتدون الملابس التي يرتدونها في الأوقات الأخرى.

وطبيعى أن المخاطب هنا هم أولياء الأطفال ليعلموهم هذه الاصول، لأن الأطفال لم يبلغوا بعد سن التكليف لتشملهم الواجبات الشرعية.

كما أن عمومية الآية تعنى شمولها الأطفال البنين والبنات.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٠

وتختتم الآية بالقول: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ». فلا حرج ولا إثم عليكم وعليهم إذا دخلوا بدون إستئذان في غير هذه الأوقات الثلاثة، أجل: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

وبيئت الآية التالية الحكم بالنسبة للبالغين، حيث تقول: «وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ».

«الحلم»: على وزن «كتب»، بمعنى العقل والكناية عن البلوغ، الذى يعتبر توأماً لطفرة عقلية وفكرية، ومرحلة جديدة في حياة الإنسان.

ويستفاد من الآية السابقة، أن الحكم بالنسبة للبالغين يختلف عنه بالنسبة للأطفال غير البالغين، لأن أولئك يجب عليهم إستئذان الوالدين في الأوقات الثلاثة فقط، لأن حياتهم قد امتزجت مع حياة والديهم بدرجة يستحيل بها الإستئذان كل مرة، وكما أنهم لم يعرفوا المشاعر الجنسية بعد، أما الشباب البالغ، فهم مكلفون في جميع الأوقات بالإستئذان حين الدخول على الوالدين.

ويخص هذا الحكم المكان المخصص لاستراحة الوالدين.

وتقول الآية فى الختام للتأكيد والإهتمام الفائق: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ».

وفى آخر الآيات موضع البحث - استثناء لحكم الحجاب، حيث استثنت النساء العجائز والمسنتات من هذا الحكم، فقال:

«وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ».

ولهذا الإستثناء شرطان:

أولهما: وصول هذه العجائز إلى عمر لا يتوقع أن يتزوجن فيه. أو بعبارة أخرى: أن يفقدن كل جاذبية انثوية.

وثانيهما: ألا يتزينن بزينة بعد رفع حجابهن.

كما أن - من الواضح - أنه لا يقصد برفع العجائز للحجاب اباحة خلع الملابس كلها والتعري، بل خلع اللباس فوقانى فقط.

وكما عبرت عنه بعض الأحاديث بالجلباب والخمار.

وتضيف الآية فى ختامها: «وَأَنْ يَسْتَغْفِنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨١

فالإسلام يرغب فى أن تكون المرأة أكثر عففة وأنقى وأطهر. ولتحذير النساء اللواتى يستن من سوء الاستفادة من هذه الحرية، بأن يتحدثن أو يتصرفن بأسلوب لا يليق بشرفهن، تقول الآية محذرة إياهن: «وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» كلما تقولونه يسمعه الله، وما تكتمون فى قلوبكم أو فى أذهانكم يعلمه الله أيضاً.

لَيْسَ عَلَى الْمَاعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَاعْرِجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتاً فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

مُبَارَكَةٌ طَيِّبَةٌ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٤١)

البيوت التي يسمح بالأكل فيها: تحدث الآيات السابقة عن الاستئذان في أوقات معينة، أو بشكل عام حين الدخول إلى المنزل الخاص بالأب والام، أما الآية موضع البحث فإنها استثناء لهذا الحكم، حيث يجوز للبعض وبشروط معينة، الدخول إلى منازل الأقرباء وأمثالهم، وحتى أنه يجوز لهم الأكل فيها دون استئذان، حيث تقول هذه الآية أو لَمَّا: «لَيْسَ عَلَى الْمَاعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ».

لأن أهل المدينة كانوا- كما ورد بصراحة في بعض الأحاديث- وقبل قبولهم الإسلام، يمنعون الأعمى والأعرج والمريض من المشاركة في مائدتهم، ويتنفرون من هذا العمل.

وقد استفسر من الرسول صلى الله عليه وآله عن هذا الموضوع، فنزلت الآية السابقة التي نصت على عدم وجود مانع من مشاركة الأعمى والأعرج والمريض للصحیح غذاءه على مائدة واحدة.

ثم يضيف القرآن المجيد: «وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ».

والمقصود بعبارة بيوتكم، الأبناء أو الزوجات.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٢

«أَوْ بُيُوتِ إِيَّائِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ عَمَتِكُمْ». «أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ». «أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ». «أَوْ صِدَاقِكُمْ». «الصدقة»: تعنى هنا بالتأكيد الأصدقاء الخاصين الذين تربطهم علاقات وثيقة، وهذه العلاقة توجب التزاوج فيما بينهم والأكل من طعام الآخر.

بالطبع فإن هذا الحكم له شروط وإيضاحات سيأتى ذكرها في آخر تفسير الآية.

ثم تضيف الآية: «لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا».

ولا يوجد خلاف بين الفقهاء حول عدم جواز الأكل من غذاء الآخرين دون استئذان الذي نهت عنه الآية بصراحة مع العلم بهذا النهي. ذكر الشيخ الطوسى رحمه الله فى تفسير التبيان أنّ مجموعة من المسلمين كانوا إذا نزل بهم الضيف تخرجوا أن يأكلوا معه، فأباح الله الأكل منفرداً ومجتمعاً.

ثم تشير الآية إلى أحد التعاليم الأخلاقية فتقول: «فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبْرَكَةٌ طَيِّبَةٌ».

واختتمت بهذه العبارة: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ».

يجب السلام عند الدخول إلى أى منزل كان، ويجب أن يسلم المؤمنون بعضهم على بعض، ويسلم أهل المنزل أحدهم على الآخر، وأما إذا لم يجد أحداً فى المنزل فيجيب المرء نفسه «١»، حيث تعود هذه التحيات بالسلامة على الإنسان ذاته.

(١) فيقول: «السلام عليكم من قبل ربنا». أو: «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٣

سبب التزول

فى تفسير على بن ابراهيم: نزلت الآية الاولى فى قوم كانوا إذا جمعهم رسول الله صلى الله عليه وآله لأمر من الأمور فى بعث يبعثه أو حرب قد حضرت يتفرقون بغير إذنه فنهاهم الله عز وجل عن ذلك وقوله «فَإِذَا اسْتَدْنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» قال نزلت فى حنظلة بن أبى عياش وذلك أنه تزوج فى الليلة التى فى صبيحتها حرب احد، فاستأذن رسول الله صلى الله عليه وآله أن يقيم عند أهله فنزل الله هذه الآية «فَأَذِّنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ» فأقام عند أهله ثم أصبح وهو جنب فحضر القتال واستشهد، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «رَأَيْتَ الْمَلَائِكَةَ تَغْسِلُ حَنْظَلَةَ بِمَاءِ الْمِزْنِ فِى صَحَائِفِ فِضَّةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ». فكان يسمى غسيل الملائكة.

التفسير

لا تركوا النبي وحده: إن الآيات السابقة تحدثت عن ضرورة طاعة الله ورسوله، ومن علائم طاعته عدم تركه أو القيام بعمل ما دون إذن منه، لهذا تحدثت الآيات - موضع البحث - حول هذا الموضوع، فنقول أولاً: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ».

والمراد من «أمر جامع» كل عمل يقتضى اجتماع الناس فيه ويتطلب تعاونهم، سواء كان عملاً استشارياً، أو مسألة حول الجهاد ومقاتلة العدو، أو صلاة جمعة في الظروف الإستثنائية وأمثالها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٤

وفي الحقيقة إن هذا من شروط النظم والتنظيم ولا يمكن لأية مجموعة منظمة منسجمة أن تهمله، فغياب شخص واحد قد تترتب عليه صعوبات ويلحق ضرراً بالهدف النهائي، فإذا وجد القائد أن غياب هذا الشخص يلحق ضرراً، فمن حقه أن لا يأذن له، وعليه أن يضحى بمصلحته من أجل هدف أسمى لهذا تضيف الآية: «إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَدْتُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذْنِ لِمَن شِئْتَ مِنْهُمْ».

وتقول الآية في الختام: «وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ».

تبيّن هذه العبارة ضرورة عدم الإستئذان بالقدر الممكن، واتباع التضحية والإيثار حتى لا يتورطوا بارتكاب عمل تركه أولى كمغادرة الجماعة لعمل بسيط.

ومن الطبيعي أن لا- تخصّ هذه التعاليم التنظيمية الرسول صلى الله عليه وآله وأصحابه فقط، وإنما هي واجبة الإلتزام إزاء كل قائد إلهي، سواء كان نبياً أم إماماً أم عالماً نائباً لهما، حيث يتوقف مصير المسلمين على هذه الطاعة، كما يحتمه - إضافة إلى القرآن - العقل والمنطق.

ثم بينت الآية التالية حكماً آخر له علاقة بتعاليم النبي صلى الله عليه وآله حيث تقول: «لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا».

إن الرسول صلى الله عليه وآله عندما يدعوكم للاجتماع، فإنه لا بد من أن يكون لمسألة إلهية مهمة، لهذا يجب عليكم الإهتمام بدعوته، والإلتزام بتعاليمه، وألا تهملوها، فأمره من الله ودعوته منه سبحانه وتعالى.

ثم تضيف الآية: «قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

«يتسللون»: مشتقة من «تسلل»، وتعنى سحب الشيء من موضعه، كما يطلق على الذين يفرون سرّاً من مكان تجمع محدد لهم، كلمة «متسللون».

«لواذاً»: مشتقة من «ملاوذة» بمعنى الإختفاء، وتعنى هنا اختفاء البعض وراء البعض أو خلف جدار. أو بتعبير آخر:

استغلال الآخرين ثم الفرار من مكان تجمعهم، وهذا ما كان يقوم به المنافقون حينما يوجه الرسول صلى الله عليه وآله الدعوة للجهاد أو لأمر مهم آخر.

و آخر آية من الآيات موضع البحث - والتي هي آخر سورة النور - إشارة بليغة إلى قضية المبدأ والمعاد حيث تقول: «أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

فإن الله العالم بكل شيء، «قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ». أى: يعلم أسلوبكم في التعامل

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٥

وأعمالكم واعتقادكم ومقاصدكم، فكلها واضحة له سبحانه وتعالى، وثابته في لوحه علمه «وَيَوْمَ يُزْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا». ويجازيهم بها «وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

ومما يلفت النظر تأكيد الآية ثلاث مرات على علم الله بأعمال البشر، ليشعر الإنسان أنه مراقب بشكل دائم، ولا يخفى على الله شيء من أعمال هذا الإنسان أبداً، ولهذا الاعتقاد أثره التربوي الكبير ويضمن سيطرة الإنسان على نفسه إزاء الانحرافات والذنوب.

«نهاية تفسير سورة النور»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٧

٢٥ سورة الفرقان

محتوى السورة: تتألف هذه السورة في مجملها من ثلاثة أقسام:

- ١- الذى يشكل مطلع هذه السورة، يدحض منطق المشركين بشدة، ويستعرض ذرائعهم، ويردّ عليها، ويخوفهم من عذاب الله، وحساب يوم القيامة، وعقوبات جهنم الأليمة، ويدكرهم بمقاطع من قصص الأقوام الماضية.
 - ٢- ولأجل إكمال هذا البحث، تبحث الآيات بعض دلائل التوحيد ومظاهر عظمة الله فى الأكوان.
 - ٣- مختصر جذاب، وجامع لصفات المؤمنين الحقيقيين (عباد الرحمن) وعباد الله المخلصين، فى مقايسته مع الكفار المتعصين الذين ذكروا فى القسم الأول، فتحدد منزله كل من الفريقين تماماً، كما أننا سنرى أنّ هذه الصفات مجموعة من الاعتقادات والأعمال الصالحة ومكافحة الشهوات، وامتلاك الوعى الكافى، والإحساس والالتزام بالمسؤولية الإجتماعية.
- واسم هذه السورة قد اخذ من آيتها الاولى، التى تعبر عن القرآن ب «الفرقان» (الفصل بين الحق والباطل).
- فضيلة تلاوة السورة: فى فى تفسير مجمع البيان قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الفرقان مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٨»

بعث يوم القيامة وهو يؤمن أنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من فى القبور».

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا (١) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (٢)

المقياس الأعلى للمعرفة: تبدأ هذه السورة بجملة «تبارك» من مادة «بركة»، ونعلم أنّ الشىء ذو بركه، عبارة عن أنه ذو دوام وخير ونفع كامل. يقول تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا».

الملفت للانتباه أنّ ثبوت البركة لذات الخالق عزّ وجل بواسطة نزول الفرقان، يعنى أنه أنزل قرآنًا فاصلاً بين الحق والباطل، وهذا يدل على أنّ أعظم الخير والبركة هى أن يمتلك الإنسان بيده وسيلة المعرفة- معرفة الحق من الباطل.

فمقام العبودية والإنقياد التامين هو الذى يحقق اللياقة لنزول الفرقان، ولتلقى موازين الحق والباطل.

وعبارة «للعالمين» كاشفة عن أنّ شريعته الإسلام عالمية، بل إنّ بعضهم قد استدل منها على خاتمية النبى صلى الله عليه وآله.

الآية الثانية تصف الله الذى نزل الفرقان بأربع صفات، صفة منها هى الأساس، والبقية نتائج وفروع لها، فتقول أولًا: «الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

وبالالتفات إلى تقدم «له» على «ملك السماوات» الذى هو دليل الحصر فى اللغة العربية يستفاد أنّ الحكومة الواقعية والحاكمة المطلقة فى السماوات والأرض منحصرة به تبارك وتعالى.

ثم يتناول تفنيد عقائد المشركين واحدة بعد الاخرى، فيقول تعالى: «وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا».

وبهذا الترتيب، يدحض اعتقاد النصارى بأنّ «المسيح» ابن الله، أو ما يعتقد اليهود أنّ «العزيز» ابن الله، وكذلك يدحض اعتقاد مشركى العرب.

ثم يضيف جلّ ذكره: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ».

فإذا كان لمشركي العرب اعتقاد بوجود الشريك أو الشركاء، ويتوهمونهم شركاء لله في

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٨٩

العبادة، فإن القرآن يدين ويدحض كل هذه الأوهام.

ويقول تعالى في العبارة الأخيرة: «وَحَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا».

ليس كمثل اعتقاد الثنويين الذين يعتقدون بأن قسماً من موجودات هذا العالم مخلوقات «الله»، وأن قسماً منها مخلوقات «الشیطان».

وبهذا الترتيب كانوا يقسمون الخلق والخلق بين الله والشیطان.

وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ وَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا وَ لَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُورًا (٣) وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتِرَاءِ وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَ زُورًا (٤) وَ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أُصِيلًا (٥) قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا (٦)

الإتهامات المتعددة الألوان: هذه الآيات تنمى للبحث الذي ورد في الآيات السابقة، في مسألة المواجهه مع الشرك وعبادة الأوثان. الآية

الاولى تجر المشركين إلى المحاكمه، ولتحريك وجدانهم تقول بمنطق واضح وبسيط، وفي نفس الوقت قاطع وداحض:

«وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ».

وبعد، فماذا يمكن أن تكون دوافعهم لعبادة الأوثان التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضرراً، ولا تملك موتاً ولا حياة ولا نشوراً، فما بالك

بما تستطيعه للآخرين؛ «وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا وَ لَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَ لَا حَيَاةً وَ لَا نُشُورًا».

والاصول المهمة عند الإنسان هي هذه الامور الخمسة بالذات: النفع والضرر، والموت، والحياة، والنشور.

فمن يكن بحق مالكا أصيلاً لهذه الامور، يكن بالنسبه إلينا جديراً بالعباده.

هذه الأوثان ليست عاجزة في الدنيا عن حل مشكله ما لعبدها فحسب، بل إنها لا يؤمل منها شيء في الآخرة أيضاً.

الآية التاليه- تتناول تحليلات الكفار- أو حججهم على الأصح- في مقابل دعوة النبي صلى الله عليه و آله، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتِرَاءِ وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخِرُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٠

لكن القرآن يرد عليهم في جمله واحده فقط، تلك هي: «فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَ زُورًا» «١».

«الظلم» هنا لأن رجلاً أميناً طاهراً وصادقاً مثل الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله اتهموه بالكذب والإفتراء على الله، وبالإشراك مع

جماعه من أهل الكتاب، فظلموا أنفسهم والناس أيضاً. و «الزور» هنا أن قولهم لم يكن له أساس مطلقاً، لأن النبي صلى الله عليه و آله

دعاهم عدّه مرات إلى الإتيان بسورة وآيات مثل القرآن، فعجزوا وضعفوا أمام هذا التحدى.

كلمه «زور» في الأصل من «زور» (على وزن غور) أخذت بمعنى: أعلى الصدر، ثم أطلقت على كل شيء يتمايل عن حدّ الوسط، وبما

أن «الكذب» انحرف عن الحق، ومال إلى الباطل، فقد سمّوه «زوراً».

تتناول الآية التاليه لونا آخر من التحليلات المنحرفه والحجج الواهيه للمشركين فيما يتعلق بالقرآن، فتقول: «وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ

اكْتَتَبَهَا» «٢».

وهو يستلهمها من الآخرين طيله اليوم من أجل الوصول إلى هذا الهدف: «فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أُصِيلًا».

إنه يتلقى المعونه لأجل هدفه في الأوقات التي يقل فيها تواجد الناس، أي بكره وعشيا.

لذا فالآية الأخيرة تصرح بصيغه الرد على هذه الإتهامات الواهيه، فتقول: «قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ».

إشارة إلى أن محتوى هذا الكتاب، والأسرار المتنوعه فيه من علوم ومعارف وتاريخ الأقسام الأولين، والقوانين والاحتياجات البشريه،

وحتى أسرار عالم الطبيعه والأخبار المستقبلية، تدل على أن ليس من صنع ومتناول عقل البشر، ولم ينظم بمساعدة هذا أو ذاك، بل

بعلم الذى هو جدير بأسرار السماء والأرض، والمحيط بكل شىء علماً.

لكن مع كل هذا، فإن القرآن يترك طريق التوبة مفتوحاً أمام هؤلاء المغرضين والمنحرفين، فيقول تبارك وتعالى فى ختام الآية: «إِنَّهُ كَانَ عَفُوًّا رَحِيمًا».

فبمقتضى رحمته أرسل الأنبياء، وأنزل الكتب السماوية، وبمقتضى غفورته سيعفو فى ظل الإيمان والتوبة عن ذنوبكم التى لا تحصى.

(١) «جاء»: من مادة «مجىء»، يراد بها عادة معنى «القدوم»، لكنّها وردت هنا بمعنى «الإتيان».

(٢) فى الواقع إن أولئك كانوا يريدون أن يتهموا النبى صلى الله عليه وآله من هذا الطريق، بأنّه يقرأ ويكتب، لكنّه كان يظهر نفسه أمياً عمداً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩١

وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٧) أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسِيحُورًا (٨) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩) تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا (١٠)

سبب النزول

فى كتاب الاحتجاج للطبرسى رحمه الله وعن أبى محمد الحسن العسكرى عليه السلام قال: قلت لأبى على بن محمد عليهما السلام هل كان رسول الله صلى الله عليه وآله يناظر اليهود والمشركين إذا عاتبوه ويحاجهم؟ قال: مراراً كثيرة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان قاعداً ذات يوم بمكة بفناء الكعبة، إذ اجتمع جماعة من رؤساء قريش .. فابتدأ عبد الله بن أبى أمية المخزومى فقال: يا محمّد زعمت أنك رسول الله رب العالمين، وما ينبغى لرب العالمين وخالق الخلق أجمعين أن يكون مثلك رسوله بشراً مثلنا، تأكل كما نأكل وتشرب كما نشرب، وتمشى فى الأسواق كما نمشى .. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «اللهم أنت السامع لكل صوت، والعالم بكل شىء، تعلم ما قاله عبادك». فأنزل الله عليه: يا محمّد «وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ...» إلى قوله تعالى: «وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا». والحديث طويل أخذنا منه موضع الحاجة.

التفسير

لم لا يملك هذا الرسول كنوزاً وجنات؟ استعرض القرآن فى الآيات السابقة قسماً من إشكالات الكفار فيما يخص نزول القرآن المجيد، وأجاب عليها، ويعرض فى هذه الآيات قسماً آخر يتعلق بشخص الرسول ويجب عنها، فيقول تعالى: «وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ».

وفى الوقت الذى يريد هذا الرسول التبليغ بالدعوة الإلهية، ويريد أيضاً السلطنة على الجميع.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٢

لقد كان المشركون يرون أنه لا يليق بدوى الشأن الذهاب إلى الأسواق لقضاء حوائجهم، بل ينبغى أن يرسلوا خدمهم ومأموريهم من أجل ذلك.

ثم أضافوا: «لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا». فلم لم يرسل إليه - على الأقل - ملك من عند الله، شاهد على صدق دعوته، وينذر معه الناس؟ حسن جداً، لنفرض أننا وافقنا على أن رسول الله يمكن أن يكون إنساناً، ولكن لماذا يكون فقيراً فاقداً للثروة والمال؟! «أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا».

ولم يكتفوا بهذا أيضاً، فقد اتهموه آخر الأمر بالجنون بما ابتنوه من استنتاج خاطىء، كما نقرأ فى ختام هذه الآية نفسها:

«وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسِيحُورًا». ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن السحرة يستطيعون أن يتدخلوا فى فكر وعقول الأفراد

فيستلبونهم قوام عقولهم.

الآية التالية تبين جواب جميع هذه الإشكالات في عبارة موجزة: «انظُرْ كَيْفَ صَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا».

إنَّ (الأمثال) هنا، بمعنى الأقوال الفارغة الواهية.

هذه العبارة الموجزة أداء بليغ عن هذه الحقيقة، فهم من خلال مجموعة من الأقوال الواهية التي لا أساس لها وقفوا أمام دعوة الحق والقرآن- الذي محتواه شاهد ناطق على إرتباطه بالله- ليخفوا وجه الحقيقة.

الآية الأخيرة مورد البحث- كالأية التي قبلها- توجه خطابها إلى النبي صلى الله عليه وآله على سبيل تحقير مقولات اولئك، وأنها لا تستحق الإجابة عليها. يقول تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي إِنِ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّنْ ذَلِكَ جَنَّتِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُورًا».

وإلّا، فهل أحد غير الله أعطى الآخرين القصور والبساتين؟ من غير الله خلق جميع هذه النعم والجمال في هذا العالم؟ ترى أيستحيل على الله القادر المَنَّان أن يجعل لك أفضل من هذه القصور والبساتين!؟

لكنه لا يريد أبداً أن يعتقد الناس أن مكانتك مردّها المال والثروة والقصور، ويكونوا غافلين عن القيم الواقعية.

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٣٩٣

بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا (١١) إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا (١٢) وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا (١٣) لَمَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا (١٤) قُلْ أَدْرَاكُمْ أَنِ لَكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا (١٥) لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا (١٦)

في هذه الآيات- على أثر البحث في الآيات السابقة حول انحراف الكفار في مسألة التوحيد والنبوة- يتناول القرآن الكريم قسماً آخر من انحرافاتهم في مسألة المعاد، ويتضح مع بيان هذا القسم أنهم كانوا أسارى التزلزل والانحراف في تمام أصول الدين. يقول تعالى أولاً: «بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ».

ذلك أنه إذا آمن الإنسان بهكذا محكمة عظمى وبالجزاء الإلهي، فلن يتلقى الحقائق بمثل هذا الإستهزاء واللامبالاة، ولن يتذرع بالحجج الواهية ضد دعوة النبي وبراهينه الظاهرة، لكن القرآن هنا لم يتقدم برد استدلالى، ذلك لأن هذه الفئة لم تكن من أهل الاستدلال والمنطق، بل واجههم بتهديد مخيف وجسد أمام أعينهم مستقبلهم المشؤوم والأليم، فهذا الاسلوب قد يكون أقوى تأثيراً لمثل هؤلاء الأفراد يقول أولاً: «وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا» (١).

ثم وصف هذه النار المحرقة وصفاً عجيباً، فيقول تعالى: «إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا».

في هذه الآية تعبيرات بليغة متعددة، تخبر عن شدة هذا العذاب الإلهي ويدل على أن نار جهنم المحرقة تنتظر هذه الفئة من المجرمين كانتظار الحيوان المفترس الجائع لغذائه «نستجير بالله».

هذه حال جهنم حينما تراهم من بعيد، أما حالهم في نار جهنم فيصفها تعالى: «وَإِذَا أَلْقَا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقْرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا». لأن جهنم مكان واسع، لكن اولئك يُحصرون مكاناً ضيقاً في هذا المكان الواسع، فهم «يستكروهن في النار كما يستكره الودد في الحائط».

(١) «سعير»: من «سعر» بمعنى التهاب النار، وعلى هذا يقال للسعير: النار المشتعلة والمحيطة والمحرقة.

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٣٩٤

«مقرنين»: من «قرن» بمعنى قرب واجتماع شيئين أو أكثر مع بعضهما، ويقولون للحبل الذى يربطون به الأشياء «قرن»، ويقولون أيضاً لمن تقيد يده ورجله مع بعضهما بالغل والسلاسل «مقرن».

«ثبور»: فى الأصل بمعنى «الهلاك والفساد». فحينما يجد الإنسان نفسه أمام شىء مخيف ومهلك، فإنه يصرخ عالياً «واثبوراً» التى

مفهوما ليقع الموت على.

لكنهم يجابون عاجلاً: «لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا».

فلن تنفعكم استغاثتكم في شيء، ولن يكون ثمة موت أو هلاك، بل ينبغي أن تظلوا أحياء لتذوقوا العذاب الأليم.

ثم يوجه الخطاب إلى الرسول صلى الله عليه وآله، ويأمره أن يدعو اولئك إلى المقايضة، فيقول تعالى: «قُلْ أَذِلَّكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا».

تلك الجنة التي «لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ».

تلك الجنة التي سيقون فيها أبداً «خَالِدِينَ».

أجل، إنه وعد الله الذي أخذه على نفسه: «كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا».

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ (١٧) قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا (١٨) فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا (١٩)

المحاكمة بين المعبودين وعبدهم الضالين: كان الكلام في الآيات السابقة حول مصير كل من المؤمنين والمشركين في القيامة وجزاء هذين الفريقين، وتواصل هذه الآيات نفس هذا الموضوع بشكل آخر، فتبين السؤال الذي يسأل الله عنه معبودى المشركين في القيامة وجوابهم، على سبيل التحذير. فيقول تعالى: واذكر يوم يحشر الله هؤلاء المشركين وما يعبدون من دون الله:

«وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ».

والمقصود بالمعبودين إنساناً (مثل المسيح) أو شيطاناً (مثل الجن) أو (الملائكة)، حيث إن كل واحد منها كان قد اتخذ فريق من المشركين معبوداً لهم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٥

فيسأل المعبودين: «فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ».

ففي الإجابة: «قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ».

فليس فقط أننا لم ندعهم إلى أنفسنا، بل أننا كنا نعترف بولايتك وربوبيتك، ولم نقبل غيرك معبوداً لنا ولغيرنا.

وكان سبب انحراف أولئك هو: أن الله تعالى رزقهم الكثير من مواهب الدنيا ونعيمها فتمتعوا هم وآبائهم وبدلاً من شكر الله تعالى غرقوا في هذه الملذات ونسوا ذكر الله: «وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ». فالحياء المرفهة لجماعة ضيقة الأفق، ضعيفة الإيمان، تبعث على الغرور، ولهذا هلكوا واندثروا «وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا».

«بور»: من مادة «بور» وهي في الأصل بمعنى شدة كساد الشيء، ولأن شدة الكساد تبعث على الفساد، فهذه الكلمة بمعنى الفساد، ثم اطلقت بعد هذا على الهلاك.

وعلى هذا فإن قوله تعالى: «وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا» إشارة إلى أن هذا الفريق على أثر انغماسهم في الحياة المادية المرفهة، ونسيانهم الله واليوم الآخر، صاروا إلى الفساد والهلكة.

هنا يوجه الله تبارك وتعالى الخطاب إلى المشركين فيقول: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ».

لأن الأمر هكذا، وكنتم أنتم قد أضللتهم أنفسكم فليس لديكم القدرة على دفع العذاب عنكم: «فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِّنْكُمْ نُدِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا».

لا شك أن «الظلم» له مفهوم واسع، ومع أن موضوع البحث في الآية هو «الشرك» الذي هو أحد المصاديق الجلية للظلم، إلا أنه لا يقدر بعمومية المفهوم.

والملفت للنظر أن «من يظلم» جاءت بصيغة الفعل المضارع، وهذا يدل على أن القسم الأول من البحث وإن كان مرتبطاً بمناقشات البعث، لكن الجملة الأخيرة خطاب لهم في الدنيا، لعل قلوب المشركين تصبح مستعدة لقبول الإيمان على أثر سماعها محاورات العبادين والمعبودين في القيامة، فيحوّل الخطاب من القيامة إلى الدنيا فيقول لهم: «وَمَنْ يَظْلِمُ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا». وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا (٢٠)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٦

سبب النزول

في تفسير القرطبي: هذه الآية نزلت جواباً للمشركين حيث قالوا: مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى في الأسواق؟ وقال ابن عباس: لما عير المشركون رسول الله صلى الله عليه وآله بالفاقة وقالوا: مال هذا الرسول يأكل الطعام الآية، حزن النبي صلى الله عليه وآله لذلك فنزلت تعزیه له فقال جبرئيل عليه السلام: السلام عليك يا رسول الله! الله ربك يقرئك السلام ويقول لك: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ». أى يتغون المعاش في الدنيا.

التفسير

في عدة آيات سابقة وردت واحدة من ذرائع المشركين وأجيب عليها بجواب إجمالي أما الآية مورد البحث فتعود إلى نفس الموضوع لتعطى جواباً أكثر تفصيلاً. فيقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ». فقد كانوا من البشر ويعاشرون الناس، وفي ذات الوقت: «وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً» وامتحاناً. وهذا الإمتحان، قد يكون بسبب أن اختيار الأنبياء من جنس البشر ومن أوساط الجماهير المحرومة هو امتحان عظيم بذاته، لأن البعض يأبون أن ينقادوا لمن هو من جنسهم، خاصة إذا كان في مستوى واطىء من حيث الإمكانيات المادية. وعلى أثر هذا القول، جعل الجميع موضع الخطاب فقال تعالى: «أَتَصْبِرُونَ». ذلك لأن أهم ركن للنجاح في جميع هذه الامتحانات هو الصبر والاستقامة والشجاعة ...

ويقول تعالى في ختام الآية بصيغة التحذير: «وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا». فينبغي ألا يتصور أحد أن شيئاً من تصرفاته حيال الاختبارات الإلهية يظل خافياً ومستوراً عن عين الله وعلمه الذى لا يخفى عليه شىء، إنه يراها بدقة ويعلمها جميعاً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٧

الإدعاءات الكبيرة: الآيات الحالية، تطرح شكلين آخرين من ذرائع المشركين وتجب عليها، فيقول تعالى أولاً: «وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا». فعلى فرض أننا سنقبل أن النبي يستطيع أن يعيش الحياة العادية مثلنا، لكن أن يتنزل الوحي عليه وحده، ولا نراه نحن، فهذا ما لا يمكن القبول به.

وأفضل دليل على أنهم لم يكونوا يقولون هذه الأقوال من أجل التحقيق حول نبوة النبي، هو أنهم طلبوا أن يشاهدوا الخالق، وأنزلوه إلى حدّ جسم يمكن رؤيته، ذلك الطلب نفسه الذى طلبه مجرمو بنى إسرائيل أيضاً، فسمعوا الجواب القاطع على ذلك، حيث ورد شرحه في الآية (١٤٣) من سورة الأعراف. لذا يقول القرآن في الإجابة على هذه الطلبات في آخر الآية مورد البحث:

«لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًا كَبِيرًا». «العتو»: على وزن «غلو»، بمعنى الإمتناع عن الطاعة، والتمرد على الأمر، مصحوباً بالعناد واللجاجه.

وتعبير «في أنفسهم» من الممكن أن يكون بمعنى: أن هؤلاء صاروا أسارى الغرور والتكبر في أنفسهم. ومن الممكن أن يكون أيضاً بمعنى أنهم أخفوا كبرهم وغرورهم في قلوبهم وأظهروا هذه المعاذير.

ثم يقول تعالى بصيغة التهديد: إن هؤلاء الذين يطلبون أن يروا الملائكة، سوف يرونهم آخر الأمر، لكن «يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى

يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ».

بلى سوف لن يُسروا برؤية الملائكة في ذلك اليوم، لأنهم سيرون علامات العذاب برؤيتهم الملائكة، وسوف يغمرهم الرعب إلى حد أنهم سيطلقون صرخات الاستغاثة التي كانوا يطلقونها في الدنيا حال الإحساس بالخطر أمام الآخرين، فيقولون: الأمان .. الأمان، اعفوا عنا: «وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا».

«حجر»: على وزن «قشر»، تقال في الأصل للمنطقة التي حجروها وجعلوها ممنوعة ورود، وعندما يقال «حجر إسماعيل» فلائحائطاً انشىء حوله فحجز داخله. يقولون للعقل أيضاً «حجراً» لأنه يمنع الإنسان من الأعمال المخالفة. وأيضاً «اصحاب الحجر» الذين ورد اسمهم في القرآن (الآية ٨٠ من سورة الحجر) وهم قوم صالح الذين كانوا ينحتون لأنفسهم بيوتاً حجريه محكمة في قلوب الجبال، فكانوا يعيشون في أمانها.

أما جملة «حجراً محجوراً» فقد كانت اصطلاحاً بين العرب، إذا التقوا بشخص يخافونه، فأنهم يقولون هذه الجملة أمامه لأخذ الأمان. مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٨

الآية التي بعدها تجسد مصير أعمال هؤلاء المجرمين في الآخرة، فتقول: «وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا». يعني أن أعمال اولئك لا قيمة لها ولا اثر إلى حد كأنهم لم يعملوا شيئاً، لأن الشيء الذي يعطى عمل الإنسان الشكل والمحتوى، هو النية وغاية العمل النهائية، فأهل الإيمان يتوجهون لإنجاز أعمالهم بدافع إلهي وعلى أساس أهداف مقدسة طاهرة، في حين أن من لا إيمان لهم، فغالباً يقعون أسارى التظاهر والرياء والغرور والعجب، فيكون سبباً في انعدام أية قيمة لأعمالهم.

وبما أن القرآن - عادة - يضع الحسن والسيء متقابلين حتى يتضح وضع كل منهما بالمقاييسه فإن الآية التي بعدها تتحدث عن أهل الجنة فتقول: «أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّشْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا». «مستقر»: بمعنى محل الاستقرار؛ و «مقيل»: بمعنى محل الإستراحة في منتصف النهار، من مادة «قيلولة»، وقد جاءت بمعنى النوم منتصف النهار.

وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنَزَلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا (٢٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا (٢٦)

تشقق السماء بالغمام: مره اخرى يواصل القرآن في هذه الآيات البحث حول القيامة، ومصير المجرمين في ذلك اليوم، فيقول أولاً: إن يوم محنة وحزن المجرمين هو ذلك اليوم الذي تنشق فيه السماء بواسطة الغيوم: «وَيَوْمَ تَشْقُقُ السَّمَاءُ بِالْغَمِّ وَنَزَلَ الْمَلِكَةُ تَنْزِيلًا». «الغمام»: من «الغم» بمعنى ستر الشيء، لذلك فالغيم الذي يغطي الشمس يقال له «الغمام»، وكذلك الحزن الذي يغطي القلب يسمونه «الغم».

هذه الآية رد على طلبات المشركين، وعلى إحدى ذرائعهم، لأنهم كانوا يتوقعون أن يأتي الله والملائكة طبقاً لأساطيرهم وخرافاتهم من خلال الغيم، فيدعونهم إلى الحق، وفي أساطير اليهود جاء - أيضاً - أن الله أحياناً يظهر ما بين الغيوم. والمقصود من تشقق السماء بالغمام، هو أن ترتفع حجب العالم المادي عن عين الإنسان من جهة، فيشاهد عالم ما وراء الطبيعة، ومن جهة اخرى ستلاشى الأجرام السماوية، وتظهر الغيوم الانفجارية، فتبرز التشققات ما بينها في ذلك اليوم، يوم نهاية هذا العالم وبداية النشور، يوم أليم جداً للمجرمين الظالمين المعاندين الذين لا إيمان لهم.

بعد ذلك يتناول القرآن الكريم أوضح علائم ذلك اليوم فيقول: «الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٣٩٩

حتى اولئك الذين كان لهم في هذا العالم نوع من الملك المجازي والمحدود والفاني والسريع الزوال، يخرجون أيضاً من دائرة الملك، فتكون الحاكمية من كل النواحي وجميع الجهات لذاته المقدسة خاصة، وبهذا: «وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا». في الوقت الذي يكون على المؤمنين سهلاً يسيراً وهيناً جداً.

وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا (٢٧) يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمَّ اتَّخَذْتُ فُلَانًا خَلِيلًا (٢٨) لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ

بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا (٢٩)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قال ابن عباس: نزل قوله تعالى «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ» في عقبه بن أبي معيط، وابي بن خلف، وكانا متخالفين، وذلك أن عقبه كان لا يقدم من سفر إصنع طعاماً فدعا إليه أشرف قومه، وكان يكثر مجالسة الرسول فقدم من سفره ذات يوم فصنع طعاماً ودعا الناس، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله إلى طعامه، فلما قربوا الطعام قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ما أنا بأكل من طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله». فقال عقبه: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. وبلغ ذلك ابي بن خلف فقال: صبات يا عقبه؟ قال: لا والله ما صبات، ولكن دخل على رجل فأبى أن يطعم من طعامي إلا أن أشهد له فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم. فقال ابي: ما كنت براص عنك أبداً حتى تأتية فتبزيق في وجهه! ففعل ذلك عقبه وارتد، وأخذ رحم دابةً فألقاها بين كتفيه. فقال النبي صلى الله عليه وآله: «لا- ألقاك خارجاً من مكة إلا علوت رأسك بالسيف». فضرب عنقه يوم بدر صبراً.

وأما ابي بن خلف فقتله النبي صلى الله عليه وآله يوم احد بيده في المبارزة.

نزلت الآيات أعلاه لترسم صورة مصير الرجل الذي يُبتلى بخليل ضال، ويجره إلى الضلال.

التفسير

يوم القيامة له مشاهد عجيبة، حيث ورد بعض منها في الآيات السابقة، وفي هذه الآيات اشارة إلى قسم آخر منها، وهي مسألة حسرة

الظالمين البالغة على ماضيهم، يقول

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٠

مختصر الامثل ج ٣ ٤٤٩

تعالى أولاً: «وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا».

«يعضّ»: من مادة «عضّ»، ويستخدم هذا التعبير عادة بالنسبة إلى الأشخاص المهووسين من شدة الحسرة والأسف. وهذا العمل يصدر من هؤلاء الأشخاص حينما يطلعون على ماضيهم، ويعتبرون أنفسهم مقصرين، فيصممون على الإنتقام من أنفسهم بهذا الشكل لتهدئة سورة الغضب في نفوسهم والشعور بالراحة.

ثم يضيف القرآن الكريم أن هذا الظالم المعتدى الغارق في عالم الأسف، يقول: «يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا» (١).

والمقصود ب «فلان» هو ذلك الذي أضله: الشيطان أو صديق السوء أو القريب الضال.

ثم يستمر ويقول: «لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي».

«الذكر» في الجملة أعلاه، له معنى واسع، ويشمل كل الآيات الإلهية التي نزلت في الكتب السماوية، بل يدخل في إطاره كل ما يوجب يقظة ووعى الإنسان.

وفي ختام الآية يقول تعالى: «وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا». ذلك لأنه يجر الإنسان إلى مواقع الخطر والطرق المنحرفة، ثم يتركه حيران ويذهب لسبيله.

وحقيقة الخذلان هي أي يعتمد الشخص على صديقه تمام الاعتماد، ولكن هذا الصديق يرفع يده عن مساعدته وإعانتته تماماً في اللحظات الحساسة.

نقرأ في حديث عن الإمام محمد التقى الجواد عليه السلام قال: «اياك ومصاحبة الشرير، فإنه كالسيف المسلول، يحسن منظره ويقبح أثره» (٢).

وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَ

نَصِيرًا (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا (٣٢) وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) الَّذِينَ يُحْشِرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُرًّا مَكَانًا وَّأَضَلُّ سَبِيلًا (٣٤)

(١) «خليل»: تطلق بمعنى الصديق الخاص الحميم حيث يجعله الإنسان مشاوراً لنفسه.

(٢) بحار الأنوار ٧١ / ١٩٨.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠١

إلهي، إن الناس قد هجروا القرآن: كما تناولت الآيات السابقة أنواعاً من ذرائع المشركين والكافرين المعاندين، تناول الآية الأولى في مورد البحث هنا حزن وشكايه الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله بين يدي الله عز وجل من كيفية تعامل هذه الفئة مع القرآن، فتقول: «وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا».

قول الرسول صلى الله عليه وآله هذا، وشكواه هذه، مستمران إلى هذا اليوم من فتنه عظيمة من المسلمين، يشكو بين يدي الله أنهم دفنوا القرآن بيد النسيان، القرآن الممتلىء ببرامج الحياة، هجروا هذا القرآن فمدوا يد الإستجداء إلى الآخرين، حتى في القوانين المدنية والجزائية.

إن القرآن بينهم كتاب للمراسم والتشريفات، يذيعون ألفاظه وحدها بأصوات عذبة عبر محطات البث، ويستخدمونه في زخرفة المساجد بعنوان الفن المعماري، ولافتتاح منزل جديد، أو لحفظ مسافر، وشفاء مريض، وعلى الأكثر للتلاوة من أجل الثواب. تقول الآية التي بعدها في مواساة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، حيث كان يواجه هذا الموقف العدائي للخصوم: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ».

لست وحدك قد واجهت هذه العداوة الشديدة لهذه الفئة، فقد مر جميع الأنبياء بمثل هذه الظروف، حيث كان يتصدى لمخالفتهم فريق من (المجرمين) فكانوا يناصبونهم العدا.

ولكن إعلم أنك لست وحيداً، وبلا- معين، «وَكَفَىٰ بَرِيكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا». فلا وساوسهم تستطيع أن تضلوك، لأن الله هاديك، ولا مؤامراتهم تستطيع أن تحطمك، لأن الخالق معينك، الخالق الذي علمه فوق كل العلوم، وقدرته أقوى من كل القدرات. الآية التي بعدها تشير أيضاً إلى ذريعة أخرى من ذرائع هؤلاء المجرمين المتعللين بالمعاذير، فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً».

وأساساً فقد كان الأفضل للنبي صلى الله عليه وآله أيضاً أن يكون ذا اطلاع على جميع هذا القرآن دفعة واحدة، كما يجب الناس فوراً على كل ما يسألونه ويريدون منه.

ولكن القرآن في تنمة هذه الآية نفسها يجيبهم: «وَكَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا».

إن القرآن مجموعة من أوامر ونواهي، أحكام وقوانين، تاريخ وموعظة، ومجموعة من الخطط ذات المدى الطويل أو القصير في مواجهة الأحداث التي كانت تبرز أمام مسير الامة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٢

الإسلامية، كتاب- كهذا- يبين وينفذ جميع مناهجه حتى قوانينه الكلية عن طريق الحضور في ميادين حياة الامة، لا يمكن أن ينظم ويُدوّن دفعة واحدة. وهذا من قبيل أن يقوم قائد عظيم بكتابه ونشر جميع بياناته وإعلاناته وأوامره ونواهي- التي يصدرها في المناسبات المختلفة- دفعة واحدة من أجل تسيير الثورة، ترى هل يعتبر هذا العمل عقلاً؟!

ثم للتأكيد أكثر على هذا الجواب يقول تعالى: «وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا». أي أنهم لا يأتون بمثل أو مقولة أو بحث لاضعاف دعوتك ومقابلتها.

وبما أن هؤلاء الأعداء الحاقدين استنتجوا- بعد مجموعة من إشكالاتهم- أن محمداً وأصحابه مع صفاتهم هذه وكتابهم هذا وبرامجهم هذه شرّ خلق الله- العياذ بالله- ولأنّ ذكر هذا القول لا يتناسب مع فصاحة وبلاغة القرآن، فإنّ الله سبحانه يتناول الإجابة على هذا القول في الآية الأخيرة مورد البحث دون أن ينقل أصل قولهم، يقول: «الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا».

وهذا علامة على مهانتهم وذلتهم، لأنهم كانوا في الدنيا في غاية الكبر والغرور والإستهانة بخلق الله، هذا من جهة.

ومن جهة أخرى تجسيد لضلالتهم في هذا العالم، ذلك أنّ من يسحبونه بهذه الصورة لا يرى ما أمامه بأى شكل، وغافل عما حوله.

فريق لهم قامات منتصبه كشجر السرو، ووجوه منيرة كالقمر، وخطوات واسعة، يتوجهون بسرعة إلى الجنة.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا (٣٥) فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمْزَنَاهُمْ تَدْمِيرًا (٣٦) وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا (٣٨) وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا (٣٩) وَلَقَدْ أُتُوا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَتَّخِذُونَ نَذِيرًا (٤٠)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٣

أشار القرآن المجيد في هذه الآيات إلى تاريخ الامم الماضية ومصيرهم المشؤوم مؤكداً على ست أمم. يقول أولاً: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا».

فقد القيت على عاتقهما المسؤولية الثقيلة في جهاد الفراعنة، ويجب عليهما مواصلة هذا العمل الثوري بمساعدة أحدهما الآخر حتى يثمر: «فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا». فإنهم قد كذبوا دلائل الله وآياته التي في الآفاق وفي الأنفس وفي كل عالم الوجود، ومن جهة أخرى أعرضوا عن تعاليم الانبياء السابقين وكذبوهم.

ولكن بالرغم من جميع الجهود والمساعى التي بذلها موسى وهارون، بالرغم من رؤية كل تلك المعجزات العظيمة والبيانات المتنوعة، أصروا أيضاً على طريق الكفر والإنكار، لذا «فَدَمْزَنَاهُمْ تَدْمِيرًا». «تدمير»: من مادة «دمار» بمعنى الإهلاك بأسلوب يثير العجب. وكذلك: «وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَعْرَفْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا». وكذلك: «وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرِّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا».

«قوم عاد» هم قوم النبي «هود» العظيم، الذي بعث في منطقته (الأحقاف) أو (اليمن). و «قوم ثمود» قوم نبي الله «صالح» الذي بعث في منطقة وادي القرى (بين المدينة والشام).

«رس»: في الأصل بمعنى الأثر القليل، و «أصحاب الرس» كانوا قوماً يعبدون شجرة صنوبر كان يافث بن نوح غرسها وكان لهم إثننا عشرة قرية معمورة على شاطئ نهر يقال له «الرس»، ولما طال منهم الكفر بالله وعبادة الشجرة، بعث الله إليهم رسولاً من بني إسرائيل من ولد يهودا، فدعاهم برهه إلى عبادة الله وترك الشرك، فلم يؤمنوا، فدعا على الشجرة فبيست، فلما رأوا ذلك ساءهم، فاجتمعت آراؤهم على قتله فحفروا بئراً عميقاً وألقوه فيها، فأتبعهم الله بعذاب شديد أهلكتهم عن آخرهم.

«قرون»: جمع «قرن» وهي في الأصل بمعنى الجماعة الذين يعيشون معاً في زمان واحد، ثم أطلقت على الزمان الطويل (أربعين أو مائة سنة).

لكننا لم نجاز أولئك على غفلة أبداً، بل «وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ».

أجبنا على إشكالاتهم، مثل الإجابة على الإشكالات التي يوردونها عليك، أخطرناهم، أنذرناهم، كررنا عليهم مصائر وقصص الماضين، لكن حين لم ينفع أي من ذلك أهلكتناهم

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٤

ودمرناهم تدميراً: «وَكَلَّمَ تَبْرُونَ تَتَبِيرًا» (١). وفي نهاية المطاف - في الآية الأخيرة مورد البحث - يشير القرآن المجيد إلى خرائب مدن قوم لوط التي تقع على بداية طريق الحجازيين إلى الشام، وإلى الأثر الحى الناطق عن المصير الأليم لأولئك الملوئين والمشركين، فيقول تعالى: «وَلَقَدْ آتَوْنَا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوِيًّا أَلَمْ يَكُونُوا يَرُونَهَا».

نعم، لقد كانوا يرون مشهد الخرائب هذه، لكنهم لم يأخذوا منها العبرة، ذلك لأنهم: «بَلْ كَانُوا لَا يَتَدَبَّرُونَ نَشُورًا». وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَلَّا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا (٤١) إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٢) أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣) أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا (٤٤)

الآيات الحالية تتناول لونا آخر من منطق المشركين وكيفية تعاملهم مع رسول الخاتم صلى الله عليه وآله ودعوته الحقّة. يقول تعالى أوّلاً:

«وَإِذَا رَأَوْكَ إِذْ يَتَخَذُونَكَ إِلَّا هُزُؤًا أَلَّا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا».

ثم يواصل القرآن ذكر مقولات المشركين فينقل عن لسانهم: «إِنَّ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا».

لكن القرآن يجيبهم من عدّة طرق، ففي البداية من خلال جملة واحدة حاسمة يرد على مقولات هذه الفئة التي ما كانت أهلاً للمنطق: «وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَنْ أَضَلُّ سَبِيلًا».

يمكن أن يكون هذا العذاب إشارة إلى عذاب القيامة، أو عذاب الدنيا مثل الهزيمة المنكرة يوم «بدر» وأمثالها.

(١) «تتبير»: من مادة «تبر» (على وزن ضرر، وعلى وزن صبر) بمعنى الإهلاك التام.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٥

الجواب القرآني الثاني على مقولاتهم ورد في الآية التي بعدها، موجهاً الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله على سبيل المواساة وتسلية خاطر، وأيضاً على سبيل بيان الدليل على أصل عدم قبول دعوة النبي من قبل اولئك، فيقول: «أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ». فهل أنت قادر مع هذا الحال على هدايته والدفاع عنه، «أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً».

يعنى إذا وقف اولئك أمام دعوتك بالإستهزاء والإنكار وأنواع المخالفات، فلم يكن ذلك لأنّ منطقتك ضعيف ودلائلك غير مقنعة، وفي دينك شك أو ريب، بل لأنهم ليسوا أتباع العقل والمنطق، فمعبودهم أهواؤهم النفسية، واتباع الهوى مصدر الغفلة ومنع الكفر وعدم الإيمان.

وأخيراً فإنّ الجواب القرآني الثالث لهذه الفئة الضالة، هو قوله: «أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا».

يعنى لا يؤذنينك استهزاؤهم ومقولاتهم السيئة وغير المنطقية أبداً، لأنّ الإنسان إمّا أن يكون ذا عقل، ويستخدم عقله، فيكون مصداقاً لـ «يعقلون». أو أنّه فاقد للعقل ولكنه يسمع قول العلماء، فيكون مصداقاً لـ «يسمعون»، لكن هذه الفئة لا من اولئك ولا من هؤلاء، وعلى هذا فلا فرق بينهم وبين الانعام، بل هم أتعس من الانعام وأعجز، إذ أنّ الانعام لا تعقل ولا فكر لها، وهؤلاء لهم عقل وفكر، وتسافلوا إلى حال كهذه.

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا (٤٥) ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا (٤٦) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِيَأْسَوا وَالنُّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا (٤٧) وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا (٤٨) لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسِفِيهَ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيًا كَثِيرًا (٤٩) وَلَقَدْ صَيَّرْفَنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا

حركة الظلال: في هذه الآيات كلام في أقسام مهمّة من النعم الإلهية، وكلام في نعمه «الظلال» ثم في آثار وبركات «الليل» و «النوم والإستراحة» و «ضياء» النهار و «هبوب الرياح» و «نزول المطر» و «إحياء الأراضى الموات» و «سقاية» الأنعام والناس. يقول تعالى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٦

أَوَّلًا: «أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظَّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا».

هذا الظل الممتد والمنتشر هو ذلك الظل المنتشر على الأرض بعد طلوع الفجر وقبل طلوع الشمس، وأهنا الظلال والساعات هي تلك؛ لأنه تعالى يقول على أثر ذلك: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا». إشارة إلى أن مفهوم الظل لم يكن ليتضح لو لم تكن الشمس. بعد ذلك يبين تعالى: ثم إننا نجمعه جمعاً ويبدأ، «ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا».

من المعلوم أن الشمس حينما تطلع فإن الظلال تزول تدريجياً، حتى يحين وقت الظهر حيث ينعدم الظل تماماً في بعض المناطق، وفي مناطق أخرى يصل إلى أقل من طول الشاخص، ولهذا فالظل لا يظهر ولا يختفي دفعةً واحدةً، وهذا نفسه حكمه الخالق، ذلك لأنّ الإنتقال من النور إلى الظلمة بشكل فجائي يكون ضاراً بجميع المخلوقات.

بعد ذكر نعمه الظلال، تناول القرآن الكريم بالشرح نعمتين أخريين متناسبتين معها تناسباً تاماً، فيكشف جانباً آخر من أسرار نظام الوجود الدالة على وجود الله، يقول تعالى: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الَّيْلَ لِيَأْسًا».

هذا الحجاب الظلامي الذي لا يستر الناس فقط، بل كل الموجودات على الأرض ويحفظها كاللباس، ويلتحفه الإنسان كالغطاء الذي يستفيد منه أثناء النوم، أو لإيجاد الظلام.

ثم يشير تعالى إلى نعمه النوم: «وَالنَّوْمُ سُبَاتًا».

«السبات»: في اللغة من «سبت» بمعنى القطع، ثم جاء بمعنى تعطيل العمل للإستراحة.

هذا التعبير إشارة إلى تعطيل جميع الفعاليات الجسمانية أثناء النوم.

النوم في وقته وبحسب الحاجة إليه، مجدد لجميع طاقات البدن، وباعث للنشاط والقوة، وأفضل وسيلة لهدوء الأعصاب.

وفي ختام الآية أشار تعالى إلى نعمه «النهار» فقال تعالى: «وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا».

«النشور»: في الأصل من النشر بمعنى البسط، في مقابل الطي وربما كان هذا التعبير إشارة إلى انتشار الروح في أنحاء البدن، حين

اليقظة التي تشبه الحياة بعد الموت، أو إشارة إلى انتشار الناس في ساحة المجتمع، والحركة للمعاش على وجه الأرض.

فضياء النهار من حيث روح وجسم الإنسان باعث على الحركة حقاً، كما أن الظلام باعث على النوم والهدوء.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٧

بعد بيان هذه المواهب العظيمة- التي هي أهم ركائز الحياة الإنسانية- يتناول القرآن الكريم موهبة أخرى مهمة جداً فيقول: «وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا».

لا- يخفى أن دور الرياح هو أنها الطلائع المتقدمة لنزول الرحمة الإلهية، لأنّ إذا لم تحمل الرياح هذه الغيوم المتقلبة من أعالي المحيطات باتجاه الأراضى اليابسة، فستتحول هذه الغيوم إلى مطر وستهطل على نفس ذلك البحر.

إنّ قسماً من هذه الرياح المتقدمة لقطعات الغيوم في حركتها وامتزاجها برطوبة ملائمة، تبعث النسيم المنعش الذي تشم منه رائحة المطر، هذه الرياح مثل البشير الذي يُنبئ عن قدوم مسافر عزيز.

التعبير ب «الرياح» بصيغة الجمع لعله إشارة إلى أنواع مختلفة منها، فبعض شمالي، وبعض جنوبي، وبعض يهب من الشرق إلى الغرب، ومنها ما يهب من الغرب إلى الشرق، فتكون سبباً في انتشار الغيوم في كل الآفاق.

المهم هنا هو أن «الماء» قد وصف ب «الطهور» التي هي صيغة مبالغة من الطهارة والنقاء ولهذا فمفهوم الطهارة والتطهير يعني أن الماء

طاهر بذاته ويطهر الأشياء الملوثة.

فمضافاً إلى خاصية الإحياء، فإن للماء خاصية كبيرة الأهمية هي التطهير، فلولا الماء فإن أجسامنا ونفوسنا وحياتنا تتسخ وتلوث في ظرف يوم واحد.

مضافاً إلى أن تنقية الروح من التلوث بواسطة الغسل والوضوء تكون بالماء، إذن فالماء مطهر للروح والجسم معاً.

لكن خاصية التطهير هذه مع ما لها من الأهمية، اعتبرت في الدرجة الثانية، لذا يضيف القرآن الكريم في الآية التي بعدها بأن الهدف من نزول المطر هو الإحياء: «لَنَحْيِي بِهِ بَلَدَهُ مَيِّتًا». وأيضاً: «وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَمًا وَنَاسِيًّا كَثِيرًا».

في الآية الأخيرة- مورد البحث- يشير تعالى إلى القرآن فيقول: جعلنا هذه الآيات بينهم بصور مختلفة ومؤثرة ليتذكروا وليتعرّفوا من خلاله على قدرة الخالق، لكن كثيراً من الناس لم يتخذوا موقفاً إزاء ذلك إلا الإنكار والكفران: «وَلَقَدْ صَيَّرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٨

وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا (٥١) فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا (٥٢) وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبُحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَ هَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا (٥٣) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا (٥٤) وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا (٥٥)

الآية الاولى- مورد البحث- أشارت إلى عظمة مقام النبي صلى الله عليه وآله، يقول تعالى: لو أردنا لبعثنا نبياً في كل مدينة وبلد، لكننا لم نفعل هذا وألقينا مسؤولية هداية العالمين على عاتقك، «وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا». لأنّ تمرکز النبوة في وجود فرد واحد يكون باعثاً على وحدة وانسجام الناس، ومانعاً من كل فرقة وتشتت.

إنّ هذه الآية دليل على عظمة مقام النبي صلى الله عليه وآله، فهي دليل كذلك على وجوب وحدة القائد، وعلى ثقل عبء مسؤوليته. وبنفس هذا الدليل، يبين الله تبارك وتعالى في الآية التالية أمرين إلهيين مهمين يشكلان منهجين أساسيين للأنبياء، فيوجه الخطاب أولاً إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله ويقول: «فَلَا تُطِيعُ الْكَافِرِينَ». لا- تخطأ أياً خطوة على طريق التوافق مع انحرافاتهم، فإنّ التوافق مع المنحرفين آفة الدعوة إلى الله.

أما القانون الثاني فهو: جاهد اولئك بالقرآن: «وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا».

جهاداً كبيراً بعظمة رسالتك، وبعظمة جهاد كل الأنبياء الماضين، الجهاد الذي يشمل جميع الأبعاد الروحية والفكرية للناس، ويشمل كل الأصعدة المادية والمعنوية.

هذا التعبير يجسد أيضاً عظمة مقام القرآن، ذلك لأنه وسيلة هذا الجهاد الكبير وسلاحه القاطع، فإن قدرته البيانية واستدلاله وتأثيره العميق وجاذبيته فوق تصور وقدرة البشر.

ثم يتناول القرآن الكريم مجدداً الاستدلال على عظمة الخالق عن طريق بيان نعمه في النظام الكوني، فيشير بعد ذكر المطر في الآيات السابقة إلى عدم الاختلاط بين المياه العذبة والمالحة: «وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبُحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٠٩

«مرج»: من مادة «المرج» (على وزن فلج) بمعنى الخلط أو الإرسال، وهنا بمعنى المجاورة بين الماء العذب والمالح.

«عذب»: بمعنى سائغ وطيب وبارد، و «فرات» بمعنى لذيذ وهنيء.

«ملح»: بمعنى مالح، و «أجاج» بمعنى مَرٌّ و حار.

«برزخ»: بمعنى حجاب وحائل بين شيئين.

فهذه الآية تصور واحداً من المظاهر المدهشة لقدرة الخالق في عالم مخلوقاته، وكيف يستقر حجاب غير مرئي، وحائل خفى بين البحر المالح والبحر العذب، فلا يسمح لهما بالاختلاط.

وقد اتضح اليوم أنّ هذا الحجاب اللامرئي، هو ذلك «التفاوت بين كثافة المالح والعذب» وفي الإصطلاح «تفاوت الوزن النوعي» لهما، حيث يكون سبباً في عدم امتزاجهما إلى مدة طويلة.

إنّ جعل هذه الآية وسط آيات تتعلق بـ «الكفر» و «الإيمان» ربّما تكون أيضاً إشارة وتمثيلاً لهذا الأمر، ففي المجتمع الواحد أحياناً، وفي المدينة الواحدة، بل حتى في البيت الواحد أحياناً، يتواجد أفراد مؤمنون كالماء العذب والفرات، مع أفراد بلا إيمان كالماء المالح الأجاج ... مع طرازين من الفكر، ونوعين من العقيدة، ونمطين من العمل، طاهر وغير طاهر، دون أن يمتزجا.

في الآية التالية - بمناسبة البحث في نزول المطر، وفي البحرين العذب والأجاج المتجاورين - يتحدث القرآن الكريم عن خلق الإنسان من الماء، فيقول تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا». أي إنّ الإنسان الأول خلق من ماء، وأن تكون جميع أفراد البشر من ماء النطفة أيضاً، وأنّ الماء يشكل أهم مادة في بناء جسم الإنسان أيضاً ... الماء الذي يعتبر من أبسط موجودات هذا العالم، كيف صار مبدأ إيجاد مثل هذا الخلق الجميل؟! وهذا دليل يبين على قدرته تبارك وتعالى.

بعد ذكر خلق الإنسان، يورد جلّ ذكره الكلام عن انتشار الإنسان، فيقول: «فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا».

المقصود من «النسب» هو القرابة التي تكون بين الناس عن طريق الذرية والولد، مثل ارتباط الأب والابن، أو الإخوة بعضهم مع بعض، أمّا المقصود من «صهر» التي هي في

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٠

الأصل بمعنى «الختن» هو الإرتباط الذي يقام بين طائفتين عن هذا الطريق، مثل إرتباط الإنسان بأقرباء زوجته. في ختام الآية يقول تبارك وتعالى بصيغته التأكيد على المسائل الماضية: «وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا».

ويبين القرآن الكريم في نهاية المطاف في الآية الأخيرة - مورد البحث - انحراف المشركين عن أصل التوحيد، من خلال المقايضة بين قدرة الأصنام وقدرة الخالق، حيث مرّت نماذج منها في الآيات السابقة، يقول: «وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ».

من المسلم أنّ وجود المنفعة والضرر لا- يكون وحده معيار العبادة، لكن القرآن يبين من خلال هذا التعبير هذه النكته، وهي أنّهم يفتقدون أية حجة في هذه العبادة، لأنّ الأصنام موجودات عديمة الخاصية تماماً، وفاقدة لأية قيمة، ولأى تأثير سلبي أو إيجابي.

ويضيف القرآن الكريم في ختام الآية: أنّ الكفرة يعين بعضهم بعضاً في مواجهة خالقهم «في طريق الكفر» «وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا». ويعبثون القوى وقيمون العراقيل ضد دين الله ونيّته والمؤمنين الحقيقيين.

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)

أجرى هو هدايتكم: كان الكلام في الآيات السابقة حول إصرار الوثنيين على عبادتهم الأصنام التي لا تضرّ ولا تنفع، وفي الآية الحالية الاولى يشير القرآن إلى مهمة النبي صلى الله عليه وآله قباله هؤلاء المتعصبين المعاندين، فيقول تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا».

إذا لم يتقبل هؤلاء دعوتك، فلا جناح عليك، فقد أدت مهمتك في البشارة والإنذار.

هذا الخطاب، كما يشخص مهمة النبي صلى الله عليه وآله، كذلك يسليّه، وفيه نوع من التهديد لهذه الفئة الضالة، وعدم المبالاة بهم.

ثم يأمر النبي صلى الله عليه وآله أن يقول لهم أنني لا أريد منكم في مقابل هذا القرآن وابلاغكم رسالة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١١

السماء أى أجر و عوض: «قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ». ثم يضيف: إنَّ الأجر الوحيد الذى أطلبه أن يهتدى الناس إلى طريق الله «إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا».

يعنى أجرى و جزائى هو هدايتكم فقط، وبكامل الإرادة والاختيار أيضاً، فلا إكراه ولا إجبار فيه، وكم هو جميل هذا التعبير الكاشف عن غاية لطف ومحبة النبى صلى الله عليه و آله لأتباعه، ذلك لأنه عدَّ أجره وجزاءه سعادتهم. وتبين الآية التى بعدها المعتمد الأساس للنبى صلى الله عليه و آله: «وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ». فمع هذا المعتمد والملجأ فلا حاجة لك بأجر وجزاء هؤلاء، ولا خوف عليك من ضررهم ومؤامراتهم. والآن حيث الأمر على هذه الصورة فسيح الله تنزيهاً له من كل نقص، وأحمده إزاء كل هذه الكمالات: «وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ». ثم يضيف القرآن الكريم: لا تقلق من بهتان ومؤامرات الأعداء، لأنَّ الله مطلع على ذنوب عباده وسيحاسبهم: «وَكَفَىٰ بِهِ بُذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا».

الآية التالية بيان لقدرة الخالق فى ساحة عالم الوجود، ووصف آخر لهذا الملاذ الأمين. يقول تعالى: «الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ». «ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ» فأخذ بتدبير العالم. إنَّ من له هذه القدرة الواسعة يستطيع أن يحفظ المتوكلين عليه من كل خطر وحادثه.

وفى ختام الآية يضيف تعالى: «الرَّحْمَنُ»: من شملت رحمته العامة جميع الموجودات، فالمطيع والعاصى والمؤمن والكافر يغترفون من خوان نعمته التى لا انقطاع فيها.

والآن، حيث ربك الرحمن القادر المقدر، فإذا أردت شيئاً فاطلب منه فإنه المطلع على احتياجات جميع عباده: «فَسَلِّ بِهِ خَبِيرًا». وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٥٦) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَنْ شَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا (٥٧) وَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَ سَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَ كَفَىٰ بِهِ بُذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا (٥٨) الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا (٥٩)

البروج السماوية: كان الكلام فى الآيات الماضية عن عظمة وقدره الله، وعن رحمته

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٢

أيضاً، ويضيف الله تعالى فى الآية الاولى هنا: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ». نحن لا نعرف «الرحمن» أصلاً، وهذه الكلمة ليس لها مفهوم واضح عندنا، «أَتَشِجْدُ لِمَا تَأْمُرُنَا». نحن لا نخضع لأى أحد، وسوف لن نكون أتباع أمر هذا أو ذاك، «وَرَادَهُمْ نُفُورًا». أى أنهم يتكلمون بهذا الكلام ويزدادون ابتعاداً ونفوراً عن الحق.

لا شك أن أنسب اسم من أسماء الله للدعوة إلى الخضوع والسجود بين يديه، هو ذلك الاسم الممتلىء جاذبية «الرحمن» مع مفهوم رحمته العامة الواسعة، لكن أولئك بسبب عمى قلوبهم ولجاجتهم، لم يظفروا تأثيراً حيال هذه الدعوة، بل تلقوها بالسخرية والاستهزاء، وقالوا على سبيل التحقير: «وَمَا الرَّحْمَنُ».

الآية التالية إجابة على سؤالهم حيث كانوا يقولون: «وما الرحمن؟» وإن كانوا يقولون هذا على سبيل السخرية، لكن القرآن يجيبهم إجابة جادة، يقول تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا». «البروج»: جمع «برج» فى الأصل بمعنى «الظهور» ولذا يسمون ذلك القسم الأعلى والأظهر من جدار أطراف المدينة أو محل تجمع الفرقة العسكرية «برج». فالبروج السماوية إشارة إلى الصور الفلكية الخاصة حيث تستقر الشمس والقمر فى كل فصل وكل موضع من السنة إزاء واحد منها، يقولون مثلاً: استقرت الشمس فى برج «الحمل» يعنى أنها تكون بمحاذاة «الصورة الفلكية»، «الحمل»، أو القمر فى «العقرب» يعنى وقفت كرة القمر أمام الصورة الفلكية «العقرب».

بهذا الترتيب، أشارت الآية إلى منازل الشمس والقمر السماوية، وتضيف على أثر ذلك: «وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا».

مع هذه الدلائل الواضحة، ومع هذه المنازل البديعة والدقيقة للشمس والقمر، فهل ما زلتم تجهلونه وتقولون: «وما الرحمن؟!» في الآية الأخيرة يواصل القرآن الكريم التعريف بالخالق سبحانه، ويتحدث مرّة أخرى في قسم آخر من نظام الوجود، فيقول تعالى: «وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا».

هذا النظام البديع الحاكم على الليل والنهار، لولاه لانعدمت حياة الإنسان نتيجةً لشدة النور والحرارة أو الظلمة والعتمة، وهذا دليل رائع للذين يريدون أن يعرفوا الله عزّ وجل.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٣

وَ عِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا (٦٤) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا (٦٥) إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٦٦) وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَان بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (٦٧)

الصفات الخاصة لعباد الرحمن: هذه الآيات - فما بعد - تستعرض بحثاً جامعاً فذاً حول الصفات الخاصة لعباد الرحمن، وتبين اثنتي عشر صفة من صفاتهم الخاصّة، إكمالاً للآيات الماضية حيث كان المشركون المعاندون حينما يذكر اسم الله «الرحمن» يقولون وملء رؤوسهم استهزاء وغرور «وما الرحمن؟!» ورأينا أن القرآن يعرّف لهم «الرحمن» ضمن آيتين، وجاء الدور الآن ليعرّف «عباد الرحمن». إن أول صفة ل «عباد الرحمن» هو نفى الكبر والغرور والتعالي، الذي يبدو في جميع أعمال الإنسان حتى في طريقة المشي، لأن الملكات الأخلاقية تظهر نفسها في حنايا أعمال وأقوال وحركات الإنسان بحيث إن من الممكن تشخيص قسم مهم من أخلاقه - بدقه - من أسلوب مشيته. يقول تعالى: «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا» (١).

نعم، إنهم متواضعون، والتواضع مفتاح الإيمان، في حين يعتبر الغرور والكبر مفتاح الكفر.

الصفة الثانية ل «عباد الرحمن» الحلم والصبر، كما يقول القرآن في مواصلته هذه الآية: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا». السلام الذي هو علامة اللامبالاة المقترنة بالعظمة، وليس الناشئ عن الضعف؛ وليس سلام التحية الذي هو علامة المحبة ورابطة الصداقه، بل السلام الذي هو علامة الحلم والصبر والعظمة.

وتتناول الآية الثانية، خاصيتهم الثالثة التي هي العبادة الخالصة لله، فيقول تعالى:

(١) «هون»: مصدر، وهو بمعنى الناعم والهادي المتواضع، واستعمال المصدر في معنى اسم الفاعل هنا للتوكيد؛ يعني أنهم في ما هم عليه كأنهم عين الهدوء والتواضع.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٤

«وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا».

في عتمة الليل حيث أعين الغافلين نائمة، وحيث لا مجال للتظاهر والرياء، حرّموا على أنفسهم لذّة النوم، ونهضوا إلى ما هو ألدّ من ذلك، حيث ذكر الله والقيام والسجود بين يدي عظمته عزّ وجلّ. الصفة الرابعة لهم هي الخوف من العذاب الإلهي: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا». أي شديداً ومستديماً. «إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا».

ومع أنهم مشغولون بذكر الله وعبادته في الليالي، ويقضون النهار في إنجاز تكاليفهم، فإن قلوبهم أيضاً مملوءة بالخوف من المسؤوليات.

«غرام»: في الأصل بمعنى المصيبة والألم الشديد الذي لا يفارق الانسان. وتطلق هذه الكلمة على «جهنم» لأنّ عذابها شديد ودائم لا يزول.

في الآية الأخيرة يشير جل ذكره إلى الصفة الممتازة الخامسة ل «عباد الرحمن» التي هي الاعتدال والابتعاد عن أي نوع من الإفراط

والتفريط في الأفعال، خصوصاً في مسألة الإنفاق، فيقول تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا».

الملفت للانتباه أنه يورد الكلام في كيفية إنفاقهم فيقول: إن إنفاقهم إنفاق عادل (معتدل) بعيد عن أى إسراف وبخل، فلا يبذلون بحيث تبقى أزواجهم وأولادهم جيعاً، ولا يقترون بحيث لا يستفيد الآخرون من مواهبهم وعطاياهم.

إن «الإسراف» هو أن ينفق المسلم أكثر من الحد، وفي غير حق، وبلا داع، و «الإقتار» هو أن ينفق أقل من الواجب. «قوام»: لغه بمعنى العدل والإستقامة والحد والوسط بين شيئين.

وَالَّذِينَ لَمَّا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلا يَزْنُونَ وَ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَ مَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)

ميزة «عباد الرحمن» السادسة التي وردت في هذه الآيات هي التوحيد الخالص الذى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٥

يبعدهم عن كل أنواع الشرك والثنوية والتعددية في العبادة، فيقول تعالى: «وَالَّذِينَ لَمَّا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ».

الصفة السابعة: طهارتهم من التلوث بدم الأبرياء: «وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ».

ويستفاد جيداً من الآية أعلاه أن جميع الأنفس الإنسانية محترمة في الأصل، ومحرم إراقه دماها إلا إذا تحققت أسباب ترفع هذا الإحترام الذاتى فتبيح إراقه الدم.

صفتهم الثامنة: هي أن عفاهم لا يتلوث أبداً: «وَلَا يَزْنُونَ».

إنهم على مفترق طريقين: الكفر والإيمان، فينتخبون الإيمان، وعلى مفترق طريقين: الأمان واللاأمان فى الأرواح، فهم يتخيرون الأمان، وعلى مفترق طريقين: الطهر والتلوث، فهم يتخيرون النقاء والطهر. إنهم يهيئون المحيط الخالى من كل أنواع الشرك والتعدى والفساد والتلوث، بجدهم واجتهادهم.

وفى ختام هذه الآية يضيف تعالى من أجل التأكيد أكثر: «وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا».

«الإثم» و «آثام»: فى الأصل بمعنى الأعمال التى تمنع من وصول الإنسان إلى المثوبة، ثم أطلقت على كل ذنب، لكنها هنا بمعنى جزاء الذنب.

تتكىء الآية التالية أيضاً على ما سبق، من أن لهذه الذنوب الثلاثة أهمية قصوى فيقول تعالى: «يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا».

والمقصود من مضاعفة العذاب أن كل ذنب من هذه الذنوب الثلاثة المذكورة فى هذه الآية سيكون له عقاب منفصل، فتكون العقوبات بمجموعها عذاباً مضاعفاً.

فضلاً عن أن ذنباً ما يكون أحياناً مصدر الذنوب الأخرى، مثل الكفر الذى يسبب ترك الواجبات وارتكاب المحرمات، وهذا نفسه موجب لمضاعفة العذاب الإلهى.

لكن القرآن المجيد كما مرّ سابقاً، لم يغلق طريق العودة أمام المجرمين فى أى وقت من الأوقات، بل يدعو المذنبين إلى التوبة ويرغبهم فيها، ففي الآية التالية يقول تعالى هكذا: «إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا».

تبديل السيئات حسنات: هنا عدّة تفاسير، يمكن القبول بها جميعاً:

١- حينما يتوب الإنسان ويؤمن بالله، تتبدل سيئات أعماله فى المستقبل حسنات، فإذا كان قاتلاً للنفس المحترمة فى الماضى، فإنه

يتبنى مكانها فى المستقبل الدفاع عن المظلومين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٦

ومواجهة الظالمين. وهذا التوفيق الالهي يناله العبد في ظل الإيمان والتوبة.

٢- إن الله تبارك وتعالى بلطفه وكرمه وفضله وإنعامه يمحو سيئات أعمال العبد بعد التوبة، ويضع مكانها حسنات. ٣- والمقصود من السيئات آثارها السيئة التي تنطبع بها روح ونفس الإنسان، فحينما يتوب ويؤمن تجتث تلك الآثار السيئة من روحه ونفسه. الآية التالية تشرح كيفية التوبة الصحيحة، فيقول تعالى: «وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا» (١). يعني أن التوبة وترك الذنب ينبغي ألا تكون بسبب قبح الذنب، بل ينبغي - إضافة إلى ذلك - أن يكون الدافع إليها خلوص النية، والعودة إلى الله تبارك وتعالى.

الصفة التاسعة ل «عباد الرحمن»، هي احترام وحفظ حقوق الآخرين: إن هؤلاء لا يشهدون بالباطل مطلقاً: «وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ». والمقصود من «الشهود» هو «الحضور» يعني أن عباد الرحمن لا يتواجدون في مجالس الباطل. فعباد الرحمن لا يؤدون الشهادة الكاذبة، ولا يشهدون مجالس اللهو والباطل والخطيئة، ذلك لأن الحضور في هذه المجالس - فضلاً عن ارتكاب الذنب - فإنه مقدمة لثوث القلب والروح.

ثم يشير تعالى في آخر الآية إلى صفتهم الرفيعة العاشرة، وهي امتلاك الهدف الإيجابي في الحياة، فيقول: «وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغُورِ مَرُّوا كِرَامًا».

إنهم لا يحضرون مجالس الباطل، ولا يتلوثون باللغو والبطلان.

وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغُورِ مَرُّوا كِرَامًا (٧٢) وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا (٧٣) وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (٧٤) أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا (٧٥) خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا (٧٦)

الصفة الحادية عشر لهذه النخبة امتلاك العين الباصرة والاذن السامعة حين مواجهتهم

(١) «متاب»: مصدر ميمي بمعنى التوبة، ولأنه مفعول مطلق هنا، فهو للتوكيد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٧

آيات الخالق، فيقول تعالى:

«وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا».

من المسلم أن المقصود ليس الإشارة إلى عمل الكفار، ذلك لأنهم لا اعتناء لهم بآيات الله أصلاً، بل إن المقصود: فئة المنافقين أو مسلمو الظاهر، الذين يقعون على آيات الله بأعين وآذان موصدة، دون أن يتدبروا حقائقها، ويستهدوه في أعمالهم.

التلقى الواعي عن الدين هو المعين الأساس للمقاومة والثبات والصمود، لأن من اليسير خداع من يقتصر على ظواهر الدين، وبتحريفه يتم الانحراف عن الخط الأصيل، فيهوى بهم ذلك إلى وادي الكفر والضلالة وعدم الإيمان.

الصفة الثانية عشر الخاصة هؤلاء المؤمنين الحقيقيين، هي التوجه الخاص إلى تربية أبنائهم وعوائلهم، وإيمانهم بمسؤوليتهم العظيمة إزاء هؤلاء: «وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَرْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ».

بديهي أن معنى هذا ليس أن يقبعوا في زاوية ويتضرعوا بالدعاء، بل إن الدعاء دليل شوقهم وعشقهم الداخلي لهذا الأمر، ورمز جدهم واجتهادهم.

والصفة الثالثة عشر ل «عباد الرحمن»، التي هي أهم هذه الصفات من وجهة نظر معينة: هي أنهم لا يقنعون أبداً أنهم على طريق الحق، بل إن هممتهم عالية بحيث يريدون أن يكونوا أئمة وقداوات للمؤمنين، ليدعوا الناس إلى هذا الطريق أيضاً. إنهم ليسوا كالزهاد

المنزوين في الزوايا، وليس همهم انقاذ أنفسهم من الغرق، بل إن سعيهم هو أن ينقذوا الغرقى. لذا يقول في آخر الآية، إنهم الذين يقولون: «وَأَجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا».

نعم، إنهم عباد الرحمن، وكما أن رحمة الله العامة تشمل الجميع فإن رحمة الله بهؤلاء العباد عامة أيضاً من أكثر من جهة، فعلمهم وفكرهم وبياناتهم وقلمهم ومالهم وقدرتهم تخدم بلا انقطاع في طريق هداية خلق الله.

اولئك نماذج الإنسان الكامل والاسوة في المجتمع الإنساني.

اولئك قدوات المتقين.

بعد إكمال هذه الصفات الثلاثة عشرة، يشير تعالى إلى عباد الرحمن هؤلاء مع جميع هذه الخصائص، وفي صورة الكوكبة الصغيرة، فيبين جزاءهم الإلهي: «أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا». «غرفة»: من مادة «غرف» (على وزن حرف) بمعنى رفع الشيء وتناوله، ويقال

لما يغترف ويتناول «غرفة»، ثم اطلقت على الأقسام العليا من البناء، ومنازل

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٨

الطبقات العليا، وهي هنا كناية عن أعلى منازل الجنة.

المهم أن الصبر ليس وصفاً جديداً لهم، بل هو ضمانته تطبيق جميع الصفات السابقة، وعلى هذا فللصبر هنا مفهوم واسع، فالتحمل والصمود أمام مشكلات طريق الحق، والجهاد والمواجهة ضد العصاة، والوقوف أمام دواعي الذنوب، تجتمع كلها في ذلك المفهوم.

ثم يضيف تعالى: «وَيَلْقَوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا».

أهل الجنة يحيى بعضهم بعضاً، وتسلم الملائكة عليهم، وأعلى من كل ذلك أن الله يحييهم ويسلم عليهم.

ثم يقول تبارك وتعالى للتأكيد أكثر: «خَالِدِينَ فِيهَا حَسَنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا».

لولا- دعاؤكم، لما كانت لكم قيمة: هذه الآية التي هي الآية الأخيرة في سورة الفرقان، جاءت في الحقيقة نتيجة لكل السورة،

وللأبحاث التي بصدد صفات «عباد الرحمن» في الآيات السابقة، فيقول تبارك وتعالى مخاطباً النبي صلى الله عليه وآله: «قُلْ مَا يَعْجُبُ

بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ». وبناء على هذا، إن ما يعطيكم الوزن والقيمة والقدر عند الله هو الإيمان بالله والتوجه إليه، والعبودية له.

ثم يضيف تعالى: «فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا».

يعنى: أنكم قد كذبتهم فيما مضى بآيات الله وبأنبيائه، فإذا لم تتوجهوا إلى الله، ولم تسلكوا طريق الإيمان به والعبودية له، فلن تكون

لكم أية قيمة أو مقام عنده، وستحيط بكم عقوبات تكذيبكم.

«نهاية تفسير سورة الفرقان»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤١٩

٢٦ سورة الشعراء

محتوى السورة: إننا نعلم أن السور المكية التي أنزلت في بداية دعوة الإسلام، تستند على بيان الاصول الاعتقادية:

التوحيد والمعاد، ودعوة أنبياء الله، وأهمية القرآن.

وتدور جميع موضوعات سورة الشعراء حول هذه المسائل تقريباً.

ويمكن تلخيص محتوى هذه السورة في عدة أقسام:

١- مطلع هذه السورة الذي يتكون من الحروف المقطعة، ثم يتحدث في عظمة القرآن، وتسلياً النبي صلى الله عليه وآله في مواجهة إصرار وحمافة المشركين، والإشارة إلى بعض دلائل التوحيد، وصفات الله تبارك وتعالى.

٢- يحكى جوانب من قصص سبعة أنبياء عظام ومواجهاتهم مع أقوامهم، والذي يشبه كثيراً منطوق مشركى عصر النبي صلى الله عليه وآله و

آله، فكان هذا سبباً في تسليته النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين الأوائل.

وفيه بشكل خاص أيضاً، تركيز على العذاب العظيم والإبتلاءات المروعة التي حلت بهذه الأمم، والذي هو بذاته تهديد مؤثر لأعداء النبي في تلك الشرائط.

٣- وتغلب عليه جنبه الإستنتاج من القسمين الأوليين، يتناول الحديث حول النبي صلى الله عليه وآله، وعظمة القرآن، وتكذيب المشركين، والأوامر الصادرة إلى النبي صلى الله عليه وآله فيما يتعلق بطريقة الدعوة، وكيفية التعامل مع المؤمنين، ويختم السورة بالبشرى للمؤمنين الصالحين، وبالتهديد الشديد للظالمين.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٠

وبالمناسبة، فإن اسم هذه السورة أخذ من مجموعة الآيات الأخيرة التي تتحدث حول الشعراء غير المؤمنين.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «من قرأ سورة الشعراء كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بنوح عليه السلام وكذب به، وهود وشعيب وصالح وابراهيم عليهم السلام وبعدد من كذب بعيسى عليه السلام وصدق بمحمد صلى الله عليه وآله».

والمراد من التلاوة هي ما كانت مقدمة للتفكير، ثم العزم والعمل.

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَنْ يُكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٣) إِنْ نَشَأْ نُزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ (٤) وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخْبِتٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ (٥) فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٦)

مرّة أخرى نواجه في بداية هذه السورة مثلاً آخر من الحروف المقطعة وهو: «طسم».

ورد في روايات متعددة عن النبي صلى الله عليه وآله أو بعض أصحابه في تفسير «طسم» أن هذه الحروف علامات «مختصرة» عن أسماء الله تعالى، أو أسماء القرآن، أو الأمكنة المقدسة، أو بعض أشجار الجنة.

وهذه الروايات تؤيد التفسير الذي نقلناه في مستهل سورة الأعراف في هذا الصدد، كما أنها في الوقت ذاته لا تنافي ما قلناه في مستهل سورة البقرة من أن المراد من هذه الحروف بيان إعجاز القرآن وعظمته، حيث إن هذا الكلام العظيم مؤلف من حروف بسيطة وصغيرة.

والآية التالية تبين عظمة القرآن بهذا النحو: «تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ».

ووصف القرآن ب «المبين» المشتق من «البيان»، هو إشارة إلى كونه جلياً بيناً عظيماً معجزاً - فكلما أمعن الإنسان النظر في محتواه تعرّف على إعجازه أكثر فأكثر ... ثم بعد هذا فإن القرآن يبين الحق ويميزه عن الباطل، ويوضح سبيل السعادة والنصر والنجاة من الضلال.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢١

وتتحرك الآية التالية لتسرى عن قلب النبي صلى الله عليه وآله وتثبته فتقول: «لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ». «باخع»:

مشتق من «البخع»، ومعناه إهلاك النفس من شدة الغم.

أجل، كان جميع الأنبياء على هذه الشاكلة من الإشفاق على اممهم ولا سيما الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله الذي ورد في شأنه هذا التعبير القرآني أكثر من مرّة ...

قال بعض المفسرين: إن سبب نزول الآية الآنف الذكر هو أن النبي صلى الله عليه وآله كان يدعو أهل مكة إلى توحيد الله باستمرار، إلّا أنهم لم يؤمنوا، فأسف النبي وتأثر تأثراً بالغاً حتى بدت أماراته في وجهه، فنزلت الآية آنفه الذكر لتسرى عن قلب النبي صلى الله عليه وآله «١».

ولبيان أن الله على كل شيء قدير حتى أنه يستطيع أن يسوقهم إلى الإيمان به سوقاً ويضطرهم إلى ذلك، فإن الآية التالية تقول: «إن نَشَأُ نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ».

وهي إشارة إلى أن الله قادر على إنزال معجزة مذهلة- من السماء- أو أن يرسل عليهم عذاباً شديداً فيذعنوا له، ويطأطئوا برؤوسهم خضوعاً له، ويستسلموا لأمره وحكمه، إلّا أن الإيمان يكرهه لا قيمة له. فالمهم أن يخضعوا للحق عن إرادة ووعي وإدراك وتفكير. ثم يتحدث القرآن عن مواقف المشركين والكفار من آيات القرآن فيقول: «وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنَ الرَّحْمَنِ مُخْبِتٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ».

والتعبير بـ «الرحمن» إشارة إلى أن نزول هذه الآيات من قبل الله إنما هو من رحمته العامة، إذ تدعو جميع الناس دون استثناء إلى السعادة والكمال.

والتعبير بـ «محدث»- أي جديد- إشارة إلى أن آيات القرآن تنزل واحدة تلو الأخرى، وكل منها ذو محتوى جديد. ثم يضيف القرآن: «أَنْ هُوَ لَا يَقْفُونَ عِنْدَ حُدُودِ الْإِعْرَاضِ، بَلْ يَتَجَاوَزُونَ إِلَى مَرَحَلَةِ التَّكْذِيبِ، بَلْ إِلَى أَشَدِّ مِنْهُ لِيَصِلُوا إِلَى الْإِسْتِهْزَاءِ بِهِ، فَيَقُولُ: «فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ»». «الأنباء»: جمع «أنباء»، أي الخبر المهم، والمراد من هذه الكلمة ما سيصيبهم من العقاب الشديد الدنيوي والأخروي.

والتحقيق في هذه الآية والآية السابقة يكشف أن الإنسان حين ينحرف عن الجادة المستقيمة فإنه يفصل نفسه عن الحق - بشكل مستمر.

(١) تفسير روح الجنان ٨ / ٣٢٤.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٢

ففي المرحلة الاولى يعرض عن الحق ويصرف بوجهه عنه ... ثم بالتدرج يبلغ مرحلة الإنكار والتكذيب .. ثم يتجاوز هذه المرحلة إلى السخرية والإستهزاء ... ونتيجة لذلك ينال عقاب الله وجزاءه (وقد ورد نظير هذا التعبير في الآيتين ٤ و ٥ من سورة الأنعام).
أَ و لَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ (٧) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)

الزوجية في النباتات: كان الكلام في الآيات المتقدمة عن إعراض الكفار عن الآيات التشريعية (أي القرآن المجيد)، أما في الآيات محل البحث فالكلام عن الآيات التكوينية ودلائل الله في خلقه وما أوجده سبحانه؛ فتقول الآية الاولى من هذه الآيات: «أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ». «كريم»: في الأصل تعنى كل شيء قيم وثمانين. والمراد من «كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ» هو النباتات المهمة ذوات الفائدة.

وتأتى الآية التالية لتقول مؤكدة بصراحة: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً». إلّا أن أولئك الذين طُبع على قلوبهم في غفلة وجهل إلى درجة يرون معها آيات الله بأعينهم، ومع ذلك يجحدونها ويكفرون بها، ويطرسخ في قلوبهم العناد والجدل. لذلك فإن الآية هذه تعقب قائلة: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ». أي إن عدم الإيمان لدى أولئك أمسى كالفئة الراسخة فيهم، فلا عجب أن لا ينتفعوا من هذه الآيات. وفي آخر آية من الآيات محل البحث يرد الخطاب في تعبير يدل على التهديد والترهيب والتشويق والترغيب، فيقول سبحانه: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

«العزيم»: معناه المقنن الذي لا يغلب ولا يقهر، فهو قادر على إظهار الآيات العظمية، كما أنه قادر على إهلاك المكذبين وتدميرهم .. إلّا أنه مع كل ذلك رحيم، ورحمته وسعت كل شيء، ويكفي الرجوع بإخلاص إليه في لحظة قصيرة، لتشمل رحمته من أناب إليه وتاب، فيعفو عنه بلطفه ورحمته.

وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اثْبِتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَمْ يَتَّقُونَ (١١) قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (١٢) وَيَضِيقُ صُدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ (١٣) وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (١٤) قَالَ كَلَّا فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُمْ مُشْتَرِعُونَ (١٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٣

بداية رسالة موسى: قلنا إن في هذه السورة بياناً لقصص سبعة من الأنبياء الكرام العظام، ليكون درس اعتبار لعامة المسلمين، ولا سيما المسلمين الأوائل في عصر النبي صلى الله عليه وآله ... فأول قصة تناولها هذه السورة هي قصة موسى عليه السلام، وتشرح جوانب مختلفة من حياته ومواجهته لفرعون وأتباعه حتى هلاكهم بالغرق في النيل.

ومما يلفت النظر تكرار عبارة: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ»، بعد تمام الحديث عن كل نبي ... وهو التعبير ذاته الوارد في بداية هذه السورة في شأن النبي محمد صلى الله عليه وآله .. وهذا الإتساق في التعبير شاهد حي على أن ذكر هذه الجوانب من قصص الأنبياء إنما هو للظروف المتشابهة التي أكتنفت المسلمين من حيث الحالة النفسية والاجتماعية كما كان عليها الأنبياء السابقون ...

فتقول الآياتن الاوليان من الآيات محل البحث: «وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَىٰ أَنِ اثْبِتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَمْ يَتَّقُونَ». و يتركون ظلمهم وفسادهم وعنادهم للحق.

وينبغي الالتفات إلى أن الصفة الوحيدة المذكورة عن قوم فرعون هنا هي الظلم، ومن الواضح أن الظلم له معنى جامع واسع ومن مصاديقه الشرك كما تقول الآية (١٣) من سورة لقمان: «إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ».

كما أن استعباد بنى إسرائيل واستثمارهم وما قارنهما من زجر وتعذيب من المصاديق الأخرى أيضاً، ثم بعد هذا كله فإن قوم فرعون ظلموا أنفسهم بأعمالهم المخالفة، وهكذا يمكن تلخيص أهداف دعوة الأنبياء جميعهم بمبارزة الظلم بجميع أبعاده ...

ويحكي القرآن مقالته موسى الكليم لرب العزة وما طلبه منه من مزيد القوة والعون لحمل الرسالة العظمى، فيقول في الآية التالية: «قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ». وأخشى أن اطرده قبل أن أكمل أداء رسالتي بما الاقيه من صخب وتكذيب فلا يتحقق الهدف المنشود ...

وكان لموسى الحق في كلامه هذا تماماً، لأن فرعون وأتباعه وحاشيته كانوا مهيمين على مصر، بحيث لم يكن لأحد أن يخالفهم ولو برأيه، وإذا أحسوا بأدنى نغمة مخالفة لأي شخص بادروا إلى الإجهاز عليه فوراً ..

وإضافة إلى ذلك فإن صدري لا يتسع لاستيعاب هذه الرسالة الإلهية: «وَيَضِيقُ صُدْرِي».

ثم بعد هذا كله فلساني قد يعجز عن بيانها: «وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي» ...

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٤

فلذلك فإنني أطلب أن تشد أزرى بأخي: «فَأَرْسِلْ إِلَىٰ هَارُونَ». لتؤدي رسالتك الكبرى بأكمل وجه بتعاضدنا في مواجهة الظالمين والمستكبرين.

وبغض النظر عن كل ذلك فإن قوم فرعون يطاردونني «وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ» كما يعتقدون لأنني قتلت واحداً منهم - حين كان يتنازع مع إسرائيلي مظلوم - بضربة حاسمة، وأنا قلق من ذلك: «فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ».

إن موسى لم يكن خائفاً على نفسه، بل كان خوفه أن لا يصل إلى الهدف والمقصد للأسباب آنفه الذكر، لذلك فقد كان يطلب من الله سبحانه مزيد القوة لهذه المواجهة ...

فاستجاب الله طلب موسى ودعوة الصادقة و «قَالَ كَلَّا». فلن يستطيعوا قتلك، أو كلاً لن يضيق صدرك وينعقد لسانك، وقد أجبنا دعوتك أيضاً في شأن أخيك، فهو مأمور معك في هذه المهمة: «فَادْهَبَا بِآيَاتِنَا» لتدعوا فرعون وقومه إلى توحيد الله.

ولا تظننا بأن الله بعيد عنكم أو لا يسمع ما تقولان: «إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ» ...

فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦) أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٧) قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (١٨) وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (١٩) قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (٢٠) فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢١) وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ (٢٢)

مواجهه فرعون مواجهه منطقية وقاطعة: انتهت في الآيات المتقدمة المرحلة الاولى لمأوريه موسى عليه السلام وهي موضوع الوحي والرسالة وطلبه أسباب الوصول إلى هذا الهدف الكبير ... وتعبيراً على المرحلة الآنفه تأتي الآيات- محل البحث- لتمثل المرحلة الثانية، أى مواجهه موسى وهارون لفرعون، والكلام المصيرى الذى جرى بينهم. تقول الآية الاولى من هذه الآيات مقدمه لهذه المرحلة: «فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

وضمن دعوتكما لفرعون بأنكما رسولا رب العالمين اطلبا منه أن يرسل بنى إسرائيل ويرفع يده عنهم: «أَنْ أَرْسِلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ». وبديهي أن المراد من الآية أن يرفع فرعون عن بنى إسرائيل نير العبودية والقهر

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٥

والإستعباد، ليتحرروا ويأتوا مع موسى وهارون، وليس المراد هو إرسال بنى إسرائيل معهما فحسب.

وهنا يلتفت فرعون فيتكلم بكلمات مدروسة وممزوجة بالخبث والشيطنة لينفى الرسالة ويقول لموسى «أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا...». إذ التقطناك من أمواج النيل الهادرة فانقذناك من الهلاك، وهياناً لك مرضعه، وعفونا عن الحكم الصادر فى قتل أبناء بنى إسرائيل الذى كنت مشمولاً به، فتربيت فى محيط هادىء آمن منعماً ... وبعد أن تربيت فى بيتنا عشت زماناً «وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ». ثم توجه إلى موسى وذكره بموضوع قتل القبلى فقال: «وَفَعَلْتَ فَعَلَتِكَ الَّتِي فَعَلْتَ». ثم بعد هذا كله: «وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ».

وعندما سمع موسى كلمات فرعون الممزوجة بالخبث والشيطنة أجاب على إشكالات فرعون الثلاثة، إلّا أنه قدّم الإجابة على الإشكال الثانى نظراً لأهميته. (أو أنه أساساً لم يجد الإشكال الأول يستحق الإجابة، لأنّ تربية الشخص لا تكون دليلاً على عدم جواز هداية مربيّه إن كان المربي ضالاً، ليسلك سبيل الرشاد) وأجابه موسى عليه السلام: «قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ». إنّ موسى عليه السلام استخدم التورية فى تعبيره جواباً على كلام فرعون، فقال كلاماً ظاهره أنه لم يعرف طريق الحق فى ذلك الزمان ... لكن الله عرفه إياه بعدئذ، ووهب له حكماً- فجعله من المرسلين، إلّا أنه كان يقصد فى الباطن أنه لم يدر أن عمله حينئذ سيؤدى إلى هذه النتيجة من الجهد والعناء واضطراب البال- مع أن أصل عمله كان حقاً ومطابقاً لقانون العدالة.

ثم يضيف موسى قائلاً: «فَفَرَزْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

ثم يردّ موسى عليه السلام على كلام فرعون الذى يمنّ به عليه فى أنه رباه وتعهده منذ طفولته وصباه، معترضاً عليه بلحن قاطع فيقول: «وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

حتى أمرت أن يُقتل الأطفال الذكور وتستحيا النساء للخدمة.

فهذا الظالم المفرط من قبلك، كان سبباً لأن تضعنى امى فى الصندوق حفاظاً على، وتلقينى فى أمواج النيل، وكانت مشيئة الله أن تسوق الأمواج «زورقى» الصغير حتى توصله إلى قصرك ... أجل إنّ ظلمك الفاحش هو الذى جعلنى رهين متتك وحرمنى من بيت أبى الكريم، وصيرنى فى قصرك الملوّث ...

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٦

قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢٣) قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (٢٤) قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ (٢٥) قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ (٢٦) قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (٢٧) قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ

كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (٢٨) قَالَ لَيْنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩)

حين واجه موسى عليه السلام فرعون بلهجة شديدة وأجابه بضرس قاطع، وأفحم فرعون في رده، غير فرعون مجرى كلامه، وسأل موسى عن معنى كلامه أنه رسول رب العالمين، و «قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ». وفرعون قد سأل موسى عليه السلام هذا السؤال متجاهلاً ومستهنئاً.

إلا أن موسى لم يجد يُدأ أن يجيب على فرعون بجد... وحيث إن ذات الله سبحانه بعيدة عن تناول أفكار الناس، فإنه أخذ يحدثه عن آيات الله في الآفاق وآثاره الحية إذ: «قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ».

وينبغي الالتفات إلى أن عبدة الأوثان كانوا يعتقدون أن لكل موجود في هذا العالم رباً، وكانوا يعدون العالم تركيباً من نظم متفرقة، إلماً أن كلام موسى عليه السلام يشير إلى أن هذا النظام الواحد المتحكم على هذه المجموعة في عالم الوجود دليل على أن له رباً واحداً...

وجملته «إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ» لعلها إشارة إلى أن موسى عليه السلام يريد أن يفهم فرعون ومن حوله - ولو تلويحاً - أنه يعرف أن الهدف من هذا السؤال ليس إدراك الحقيقة... لأنه لو أراد إدراك الحقيقة والبحث عنها لكان استدلاله كافياً.. لتصحوا نظرتكم نحو الكون.

إلا أن فرعون عاد لمواصله الاستهزاء والسخرية، واتبع طريقة المستكبرين القديمة بغرور، و «قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمْعُونَ».

ومعلوم من هم الذين حول فرعون، فهم أشخاص من نسيجه وجماعه من أصحاب القوة والظلم والقهر والمال.

وكان الهدف من كلام فرعون أن لا يترك كلام موسى المنطقي يؤثر في القلوب المظلمة لأولئك الرهط... فعده كلاماً بلا محتوى وغير مفهوم.

إلماً أن موسى عليه السلام عاد مرّة أخرى إلى كلامه المنطقي دون أي خوف ولا وهن ولا إيهام، فواصل كلامه و «قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٧

إن موسى عليه السلام بدأ في المرحلة الأولى ب «الآيات الآفاقية»، وفي المرحلة الثانية أشار إلى «الآيات الأنفسية»، إلماً أن فرعون تمادى في حماقته، وتجاوز مرحلة الاستهزاء إلى اتهام موسى بالجنون، ف «قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ».

وذلك ما اعتاده الجبارة والمستكبرون على مدى التاريخ من نسبة الجنون إلى المصلحين الربانيين، إلماً أن هذه التهمة لم تؤثر في روح موسى عليه السلام ومعنوياته العالية، وواصل بيان آثار الله في عالم الإيجاد في الآفاق والأنفس، مبيناً خط التوحيد الأصيل ف «قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ».

فإذا كنت - يا فرعون - تحكم حكماً ظاهرياً في أرض محدودة تدعى مصر، فإن حكومته ربي الواقعية تسع المشرق والمغرب وما بينهما جميعاً، وآثاره تشرق في وجوه الموجودات.

غير أن هذا المنطق المتين الذي لا يتزعزع غاظ فرعون بشدة، فالتجأ إلى استعمال «حربة» يفرع إليها المستكبرون عند الإندحار، فجابه موسى و «قَالَ لَيْنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لِأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ».

إن فرعون يريد أن يسكت موسى بهذا المنطق الإرهابي، لأن مواصلة موسى عليه السلام بمثل هذه الكلمات ستكون سبباً في إيقاظ الناس.

قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ (٣٠) قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (٣٢) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ (٣٣) قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (٣٥) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٣٦) يَا تُوتَك بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ (٣٧)

رأينا في الآيات المتقدمة أن فرعون يلجأ إلى التهديد بالسجن والإعدام، وهنا يقبل موسى عليه السلام صفحة جديدة، فعليه أن يسلك طريقة أخرى يخذل فيها فرعون ويعجزه. عليه أن يلجأ إلى القوة أيضاً، القوة الإلهية التي تنبع من الإعجاز، فالتفت إلى فرعون متحدثاً و «قَالَ أَوْلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ».

وهنا وجد فرعون نفسه في طريق مغلق مسدود، لأن موسى عليه السلام أشار إلى خطئه جديدة ولفت انظار الحاضرين نحوه، إذ لو أراد فرعون أن لا يعتد بكلامه، لإعترض عليه الجميع.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٨

فاضطر فرعون إلى الاستجابة لاقتراح موسى عليه السلام و «قَالَ فَاتِّبِعْ بِهٖ اِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ». «فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ» «بأمر الله».

ثم أظهر إعجازاً آخر حيث أدخل يده في جيبه (أعلى الثوب) وأخرجها فإذا هي بيضاء منيرة: «وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ». إن هاتين المعجزتين الكبيرتين، إحداهما كانت مظهر الخوف، والاخرى مظهر الأمل، فالاولى تناسب مقام الإنذار، والثانية للبشارة. غير أن فرعون اضطرب لهذا المشهد المهول وغرق في وحشة عميقة ولكي يحافظ على قدرته الشيطانية التي أحدق بها الخطر بظهور موسى عليه السلام، وكذلك من أجل أن يرفع من معنويات أصحابه والملا من حوله في توجيه معاجز موسى ولفت نظرهم عنها، فقد «قَالَ لِلْمَلَآئِكَةِ حَوْلَهُ اِنْ هٰذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ».

ذلك الإنسان الذي كان يدعوه مجنوناً إلى لحظات آنفه، وإذا هو الآن يعبر عنه بالعليم.

ومن أجل أن يعبئ الملا ويثير حفيظتهم ضد موسى عليه السلام، قال لهم: «يُرِيدُ اَنْ يُخْرِجَكُم مِّنْ اَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ». والغريب في الأمر أن فرعون الذي قال هذا الكلام هو الذي كان يقول من قبل: «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ». والآن حيث يرى عرشه مترعزاً ينسى مالكيته المطلقة لهذه الأرض، ويعدها ملك الناس، فيقول لهم: أرضكم في خطر.

يقول لمن حوله: «ماذا تأمرون؟!». إنها استشارة عاجزة ومن موقف الضعف فحسب.

وبعد المشاورة فيما بينهم التفت الملا من قوم فرعون إليه و «قَالُوا اَرْجِهْ وَاخَاهُ وَاَبْعَثْ فِي الْمِدْيٰنِ حٰشِرِيْنَ» «١». أي: أمهلها وابعث رسلك إلى جميع المناطق والأمصار، «يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ».

وقالوا: لحسن الحظ إن في بلادنا العريضة سحرة كثيرين، فلا بد من جمع السحرة لإحباط سحر موسى عليه السلام.

(١) «أرجه»: مشتقة من «الإرجاء» ومعناها التأخير وعدم الاستعجال في القضاء.

«حاشرين»: مأخوذة من مادة «الحشر» ومعناه التعبئة والسوق لميدان الحرب وأمثال ذلك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٢٩

فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ اَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا تَتَّبِعُ السَّحْرَةَ اِنْ كَانُوا هُمُ الْعٰلِيْنَ (٤٠) فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ اِنْ لَّنَا لَآجْرٌ اِنْ كُنَّا نَحْنُ الْعٰلِيْنَ (٤١) قَالَ نَعَمْ وَاِنْ كُنْتُمْ اِذًا لَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ (٤٢)

اجتماع السحرة من كل مكان: في هذه الآيات يُعرض مشهداً آخر من هذه القصة المثيرة، إذ تحرك المأمورون بحسب اقتراح أصحاب فرعون إلى مدن مصر لجمع السحرة والبحث عنهم، وكان الوعد المحدد: «فَجَمَعَ السَّحْرَةَ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ».

وبتعبير آخر: إنهم هياوهم من قبل لمثل هذا اليوم.

وطلب من الناس الحضور في هذا المشهد: «وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ اَنْتُمْ مُّجْتَمِعُونَ».

وقيل للناس: إن الهدف من هذا الحضور والاجتماع هو أن السحرة إذا انتصروا فمعنى ذلك انتصار الآلهة وينبغي علينا اتباعهم: «لَعَلَّنَا تَتَّبِعُ السَّحْرَةَ اِنْ كَانُوا هُمُ الْعٰلِيْنَ». فلا بد من تهيج الساحة للمساعدة في هزيمة عدو الآلهة إلى الأبد.

كل هذا من جهة، ومن جهة اخرى كان السحرة يحلمون بالجائزة من قبل فرعون: «فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّا لَنَا أَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ».

وكان فرعون قلقاً مضطرب البال، لأنه في طريق مسدود، وكان مستعداً لأن يمنح السحرة أقصى الإمتيازات، لذلك فقد أجابهم بالرضا و «قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ».

قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٤٣) فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ (٤٤) فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (٤٥) فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (٤٦) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٧) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ (٤٨) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَمَا قَطَّعْنَ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصِيبُنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (٤٩) قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (٥٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (٥١)

حين اتفق السحرة مع فرعون ووعدهم بالأجر والقرب منه، وشد من عزمهم، فإنهم

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٠

بدأوا بتهيئة المقدمات ووفروا خلال ماسنحت لهم الفرصة عصيتهم وحبالهم، ويظهر أنهم صيروها جوفاء وطلوها بمادة كيميائية كالزئبق - مثلاً - بحيث تتحرك وتلمع عند شروق الشمس عليها. وأخيراً كان اليوم الموعد والميقات المعلوم، وانثال الناس إلى ساحة العرض ليشهدوا المبارزة التاريخية: «قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ».

وأما السحرة الغارقون بغرورهم، والذين بذلوا أقصى جهودهم لانتصارهم في هذا «الميدان»، فقد كانوا مستعدين ومؤملين لأن يغلبوا موسى عليه السلام: «فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ» (١).

وهنا - كما يبين القرآن في الآية (٦٦) من سورة طه - تحركت العصي كأنها الأفاعي والثعابين و «يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى» .

فتهللت أسارير وجوه الناس ووجه فرعون فرحاً، وأشرق الأمل في عيني فرعون وأتباعه، إلّا أن موسى عليه السلام لم يمهل الحاضرين ليستمر هذا المشهد ويدوم هذا الفصل المثير، فتقدم: «فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ» فتحولت إلى ثعبان عظيم وبدأت بالتهام وسائل وأدوات السحرة بسرعة بالغة: «فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ» (٢).

وهنا فر جماعة من مكانهم وبقي آخرون يترقبون نهاية المشهد، وأفواه السحرة فاغرة من الدهشة ...

وتبدل كل شيء، وثاب السحرة إلى رشدهم بعد أن كانوا - إلى تلك اللحظة - مع فرعون غارقين في الشيطنة، ولأنهم كانوا عارفين بقضايا السحر ودقائقه، فإنهم تيقنوا أن عصا موسى لم تكن سحراً، بل هي معجزة إلهية كبرى: «فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ».

واقترن هذا العمل العبادي - وهو السجود - بالقول بلسانهم ف «قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ». ولئلا يبقى مجال للإيهام والغموض والتردد، ولئلا يفسر فرعون ذلك تفسيراً آخر فإنهم قالوا: «رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ».

(١) «الحبال»: جمع «حبل» على وزن (طبل) ومعناها واضح؛ و «العصي»: جمع العصا.

(٢) «تلقف»: مشتق من «اللقف» على زنه (السقف) ومعناه إمساك الشيء بسرعة، سواء كان ذلك باليد أم الفم، ومعلوم أن المراد هنا الإمساك بالفم والإبتلاع.

«يأفكون» مشتق من «الإفك» ومعناه الكذب، وهي إشارة إلى وسائلهم الباطلة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣١

أما فرعون، فحيث وجد نفسه مهزوماً معنوياً ويرى من جانب آخر أن وجوده وسلطانه في خطر، وخاصة أنه كان يعرف أي تأثير عميق لإيمان السحرة في قلوب سائر الناس، ومن الممكن أن يسجد جماعة آخرون كما سجد السحرة، فقد تدرع بوسيلة جديدة وابتكار ماكر، فالتفت إلى السحرة و «قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ».

لقد تربع على عرش الإستبداد سنين طوالاً، كان ترقبه أن تكون قلوب الناس وأفكارهم مرهونةً به وبأمره، إلّا أن فرعون لم يقنع بهذا المقدار، بل أضاف جملتين اخريين ليثبت موقعه كما يتصور أولاً، وليحول بين أفكار الناس اليقظين فيعيدهم غفلةً نيماً. فاتهم السحرة أولاً بأنهم تأمروا مع موسى عليه السلام على أهل مصر جميعاً، فقال: «إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ». إلّا أنني لا أدعكم تنتصرون في هذه المؤامرة، وسأخفق المؤامرة في مهدها «فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ».

إلّا أن فرعون لم يحقق هدفه هنا، لأن السحرة قبل لحظة- والمؤمنين في هذه اللحظة- قد غمر قلوبهم الإيمان، بحيث لم يهزهم تهديد فرعون، فأجابوه بضرر قاطع واحبطوا خطته و «قَالُوا لَأَضَيِّرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ». ثم أضافوا بأنهم واجهوا النبي موسى عليه السلام من قبل بالتكذيب وأذنبوا كثيراً، ولكن مع ذلك ف «إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَاَنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ».

إننا لا نستوحش اليوم من أى شيء، لا من تهديداتك، ولا من تقطيع الأيدي والأرجل من خلاف ولا من الصلب على جذوع النخل. وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ (٥٢) فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ (٥٦) فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)

في الآيات المتقدمة رأينا كيف أن موسى خرج منتصراً من تلك المواجهه وهذه الامور هيأت أرضيه ملائمه لأن ينشر موسى عليه السلام دعوته بين الناس، ويتم الحجّه عليهم.

ومرّت سنون طوال على هذا المنوال، وموسى عليه السلام يظهر المعاجز تلو المعاجز، ولما أتم موسى على أهل مصر الحجّه البالغه، وامتازت صفوف المؤمنين من صفوف المنكرين، نزل الوحي على موسى أن يخرج بقومه من مصر، والآيات التاليه تجسد هذا المشهد فتقول أولاً:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٢

«وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ». وفعلاً امثل موسى عليه السلام هذا الأمر، وعبأ بنى إسرائيل بعيداً عن أعين أعدائهم، وأمرهم بالتحرك، إلّا أن من البديهي أن حركة جماعه بهذا الشكل ليس هيناً يسيراً يمكن إخفاؤه لزمان طويل، فما كان أسرع أن رفع جواسيس فرعون هذا الخبر إليه، وكما يحدثنا القرآن عن ذلك أن فرعون أرسل رسله وأعوانه إلى المدن لجمع القوات: «فَأَرْسَلْ فِرْعَوْنَ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ».

ولتعبئه الناس - ضمناً- وتهيبه الأرضيه لإثارتهم ضد موسى وقومه، أمر فرعون أن يعلن «إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ».

فبناء على ذلك فنحن منتصرون عند مواجهتنا لهذه الفئه القليله حتماً.

«الشردمه»: في الأصل تعنى القله من الجماعه، كما تعنى ما تبقى من الشيء، ويطلق على اللبوس الممزق الخلق «شراذم»، فبناء على هذا يكون المعنى أن هؤلاء «أى موسى وقومه» بالإضافة إلى أنهم قليلون فهم متفرون، فكأن فرعون، بهذا التعبير أراد أن يجسد عدم انسجام بنى إسرائيل من حيث إعداد الجيش فيهم ...

ثم تضيف الآيه الاخرى حاكيه عن لسان فرعون: «وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ». فمن يسقى مزارعنا غداً، ومن يخدم فى البيوت والقصور غيرهم؟!!

ثم إننا من مؤامرتهم يجب أن نكون على حذر سواء أقاموا أم رحلوا: «وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَادِرُونَ» ومستعدون جميعاً لمواجهتهم.

ثم يذكر القرآن النتيجة الإجمالية لعاقبه فرعون وقومه وزوال حكومته، وقيام حكومه بنى إسرائيل، فيقول: «فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ».

أجل، «كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ».

فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (٦٠) فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَضْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢) فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ (٦٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٦٧) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦٨)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٣

عاقبه فرعون وأتباعه الوخيمة: في هذه الآيات يبرز المشهد الأخير من قصة موسى وفرعون، وهو كيفية هلاك فرعون وقومه، ونجاة بني إسرائيل وانتصارهم، وكما قرأنا في الآيات المتقدمة فإن فرعون أرسل المدائن حاشرين، وهياً مقداراً كافياً من «القوة» والجيش. تحركوا في جوف الليل ليدر كورهم بسرعة، فبلغوهم صباحاً كما تقول الآية الأولى من الآيات محل البحث: «فَأَتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَضْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ». فأماننا بحر خضم متلاطم بالمواج، ومن ورائنا بحر من الجيوش المتعطشة للدماء بتجهيزاتها الكاملة ... هؤلاء الغاضبون علينا.

وهنا مرّت لحظات عسيرة على بني إسرائيل ... لحظات مرّة لا- يمكن وصف مرارتها ... ولعل جماعة منهم تزلزل إيمانهم وفقدوا معنوياتهم وروحياتهم، إلّا أنّ موسى عليه السلام كان مطمئناً هادئ البال، وكان يعرف أنّ وعد الله في هلاك فرعون وقومه ونجاة بني إسرائيل لا يتخلف أبداً ولن يخلف الله وعده رسله ...

لذلك التفت إلى بني إسرائيل الفرعين بكمال الإطمئنان والثقة و «قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ».

وفي هذه الحال التي قد يكون البعض سمعوا كلامه دون أن يصدقوه، وكانوا ينتظرون آخر لحظات حياتهم، صدر أمر الله كما يقول القرآن: «فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ...». فامتثل موسى عليه السلام أمر ربه فضرب البحر، فإذا أمامه مشهد رائع عجيب، تهللت له أسارير وجوه بني إسرائيل، إذا انشق البحر «فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ». «انفلق»: مأخوذ من «الفلق» ومعناه الإنشاق؛ و «فَرَقَ» من مادة «فَرَقَ» على زنه «حلق» ومعناه الانفصال. وبتعبير آخر، كما يقول الراغب في مفرداته: إنَّ الفرق بين (فلق) و (فرق) هو أنّ الأوّل يشير إلى الإنشاق (أو الإنشطار) والثاني يشير إلى الانفصال.

«الطود»: معناه الجبل العظيم، ووصف الطود بالعظمة في الآية تأكيد آخر على معناه.

إلّا أنّ فرعون وأتباعه بالرغم من مشاهدتهم هذه المعجزة الكبرى الواضحة لم يذعنوا للحق، ولم ينزلوا عن مركب غرورهم، فاتبعوا موسى ورهطه ليلغوا مصيرهم المحتوم، كما يقول القرآن في هذا الشأن: «وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخِرِينَ». وهكذا ورد فرعون وقومه البحر أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٤

وتقول الآية التالية: «وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ».

وحين خرج آخر من كان من بني إسرائيل من البحر، ودخل آخر من كان من أتباع فرعون البحر، صدر أمر الله فعادت الأمواج إلى حالتها الأولى.

ويبين القرآن هذه الحالة بعبارة موجزة متينة فيقول: «ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ».

وهكذا إنتهى كل شيء في لحظة واحدة ... فالأرقاء أصبحوا أحراراً، وهلك الجبابرة، وانتهت تلك الحضارة المشيدة على دماء المستضعفين، وورث الحكومة والملك المستضعفون بعدهم.

أجل، «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ». فكان في أعينهم عمى، وفي آذانهم قرأ، وعلى قلوب أقبالاً.

فحيث لا- يؤمن فرعون وقومه مع ما رأوا من المشاهد العجيبة، فلا تعجب إذا أُلّا يؤمن بك المشركون- يا محمّد- ولا تحزن عليهم

لعدم إيمانهم.

والتعبير ب «أكثرهم» إشارة إلى أن جماعة من قوم فرعون آمنوا بموسى والتحقوا بأصحابه.

أما آخر آية من هذه الآيات فتشير إلى قدرة الله ورحمته المطلقة واللامتناهية، فتقول: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فمن عزته أنه متى شاء أن يهلك الأمم المسرفة الباغية أصدر أمره فأهلكها، فيكفى أن يهلكها بما هو سبب حياتها، كما أهلك فرعون وقومه بالنيل الذي كان أساس حياتهم و ثروتهم وقدرتهم، فإذا هو يقبرهم فيه.

ومن رحمته أنه لا يعجل في الأمر أبداً، بل يمهل سنين طوالاً، ويرسل معاجزه إتماماً للحجّة، ومن رحمته أن يخلص هؤلاء المستعبدين من قبضة الجابرة الظالمين.

وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عِدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٥

تعقب هذه الآيات على قصة موسى وفرعون المليئة بالدروس لتبين قصة إبراهيم ومواجهاته المشركين، وتبدأ هذه الآيات بمحاورة إبراهيم لعمه آزر فتقول: «وَآتَلْ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ».

ومن بين جميع الأخبار المتعلقة بهذا النبي العظيم يركز القرآن الكريم على هذا القسم: «إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ».

فأجابوه مباشرة: «قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ». وهذا التعبير يدل على أنهم يحسوا بالخجل من عملهم هذا، بل يفتخرون به، إذا كان كافياً أن يجيبوه: نعبد أصناماً، إلا أنهم أضافوا هذه العبارة: «فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ».

إن إبراهيم لما سمع كلامهم رشقهم بنبال الإشكال والإعتراض بشدة، وقمعهم بجملتين حاسمتين جعلهم في طريق مغلق، ف «قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ».

إن أقل ما ينبغي توفره في المعبود هو أن يسمع نداء عابده، وأن ينصره في البلاء، أو يضره عند مخالفته أمره ... إلا أن هذه الأصنام ليس فيها ما يدل على أن لها أقل إحساس أو شعور أو أدنى تأثير في عواقب الناس.

إلا أن عبدة الأصنام الجهلة المتعصبين واجهوا سؤال إبراهيم بجوابهم القديم الذي يكررونه دائماً، ف «قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ».

وهذا الجواب الذي يكشف عن تقليدهم الأعمى لأسلافهم الجهلة هو الجواب الوحيد الذي استطاعوا أن يردوا به على إبراهيم عليه السلام، وهو جواب دليل بطلانه كامن فيه.

فالتفت إبراهيم مؤبخاً لهم ومبيناً موقفه منهم و «قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عِدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ».

أجل ... إنهم جميعاً أعدائي وأنا معاديهم، ولا أسألهم أبداً ...

ثم يصف إبراهيم الخليل رب العالمين ويذكر نعمه المعنوية والمادية، ويقايسها بالأصنام التي لا تسمع الدعاء ولا تنفع ولا تضر، ليوضح الأمر جلياً ...

فيبدأ بذكر نعمه الخلق والهداية فيقول: «الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٦

وبعد بيان أولى مراحل الربوبية، وهي الهداية بعد الخلق، يذكر إبراهيم الخليل عليه السلام النعم المادية فيقول: «وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ».

ولست مشمولاً بنعمه في حال الصحة فقط، بل في كل حال، «وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ». ومع أن المرض أيضاً قد يكون من الله، إلا أن إبراهيم نسبه إلى نفسه رعاية للأدب في الكلام ...

ثم يتجاوز مرحلة الحياة الدنيا إلى مرحلة أوسع منها ... إلى الحياة الدائمة في الدار الآخرة، فيقول: «وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ».

وحين أريدُ عرضات يوم القيامة اعلق حبل رجائي على كرمه: «وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ».

ومما لا شك فيه أن الأنبياء معصومون من الذنب، وليس عليهم وزر كي يغفر لهم ... إلا أنه - كما قلنا سابقاً - قد تعدد حسنات الأبرار سيئات المقربين أحياناً، وقد يستغفرون أحياناً من عمل صالح لأنهم تركوا خيراً منه ... فيقال عندئذ في حق أحدهم: ترك الأولى.

فإبراهيم عليه السلام لا يعول على أعماله الصالحة، فهي لا شيء بإزاء كرم الله، ولا تقاس بنعم الله المتواترة، بل يعول على لطف الله فحسب، وهذه هي آخر مرحلة من مراحل الإنقطاع إلى الله ...

رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ (٨٥) وَاعْفُزْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ (٨٦) وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ (٨٧)

دعاء إبراهيم عليه السلام: من هنا تبدأ أدعية إبراهيم الخليل وسؤالاته من الله، فكأنه بعد أن دعا قومه الضالين نحو الله، يتجه بوجهه نحو الله ويعرض عنهم، فأول ما يطلبه إبراهيم من ساحته المقدسة هو «رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ».

إن إبراهيم عليه السلام يطلب من الله قبل كل شيء المعرفة العميقة الصحيحة المقرونة بالحكمة، لأن أي منهج لا يتحقق دون هذا الأساس.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٧

وبعد هذا الطلب يسأل من الله إلحاقه بالصالحين، وهو إشارة إلى الجوانب العملية، أو كما يصطلح عليها «الحكمة العملية» في مقابل الطلب السابق وهو «الحكمة النظرية» ...

وبما أنه ليس للحكمة حد معين، ولا لصلاح الإنسان حد، فهو يطلب ذلك ليلبغ المراتب العليا من العلم والعمل يوماً بعد يوم، حتى وهو في موقع النبوة، وأنه من أولى العزم .. لا يكتفى بهذه العناوين.

وبعد هذين الطلبين يطلب موضوعاً مهماً آخر بهذه العبارة: «وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ». أي: اجعلني بحال تذكروني الأجيال الآتية بخير.

فاستجاب الله دعاء إبراهيم كما يقول سبحانه في الآية (٥٠) من سورة مريم: «وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا».

ثم ينظر إبراهيم إلى أفق أبعد من أفق الدنيا، ويتوجه إلى الدار الآخرة، فيدعو بدعاء رابع فيقول: «وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ».

«جنة النعيم» التي تتماوج فيها النعم المعنوية والمادية، النعم التي لا زوال لها ولا اضمحلال ... النعم التي لا يمكن أن نتصورها.

إن التعبير بالإرث في شأن الجنة إيماءاً لأن معنى الإرث الحصول على الشيء دون مشقة وعناء، أو أن ذلك - طبقاً لما ورد في بعض الروايات - لأن كل إنسان له بيت في الجنة وآخر في النار، فإذا دخل النار ورث الآخرون بيته في الجنة.

وفي خامس أدعيته يتوجه نظره إلى عمه الضال، وكما وعده أنه سيستغفر له، فإنه يقول في هذا الدعاء: «وَاعْفُزْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ».

وأخيراً فإن دعاءه السادس من ربه في شأن يوم التغابن، يوم القيامة، بهذه الصورة: «وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ». «تخزني»:

مأخوذ من مادة «خزى» على زنة (حزب)، وكما يقول الراغب في مفرداته، معناه الذل والإنكسار الروحي الذي يظهر على وجه الإنسان من الحياء المفرط، أو من جهة الآخرين حين يحرجونه ويخجلونه.

وهذا التعبير من إبراهيم، بالإضافة إلى أنه درس للآخرين، هو دليل على منتهى الإحساس بالمسؤولية والاعتماد على لطف الله العظيم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٨

يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩) وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ (٩٠) وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ (٩١) وَقِيلَ لَهُمْ
 أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٩٢) مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ (٩٣) فَكَبَّكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ
 (٩٥) قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ (٩٦) تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨) وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ (٩٩)
 فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ (١٠٠) وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ (١٠١) فَلَمَوْ أَنْ لَنَا كَرَّةٌ فَنُكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٢) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
 مُؤْمِنِينَ (١٠٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٠٤)

اشير في آخر آية من البحث السابق إلى يوم القيامة ومسألة المعاد، أما في هذه الآيات فلنلاحظ تصوير يوم القيامة ببيان جامع، كما
 نلاحظ فيها أهم المتاع «في تلك السوق»، وعاقبة المؤمنين وعاقبة الكافرين والضالين وجنود إبليس، فأول ما تبدأ به هذه الآيات هو:
 «يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ».

إن هاتين الدعامين المهمتين في الحياة الدنيا «المال والبنون» ليس فيهما أدنى نفع لصاحبهما يوم القيامة.
 وبديهي أن المراد من المال والبنين هنا ليس هو ما يكون - من المال والبنين - في مرضاة الله، بل المراد منه الإستناد إلى الامور
 المادية، فالمراد إذاً هو أن هذه الدعوات المادية لا تحلّ معضلاً في ذلك اليوم.
 ثم يضيف القرآن في ختام الآية، على سبيل الإستثناء: «إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ».
 وياله من تعبير رائع جامع، تعبير يتجسد فيه الإيمان والنية الخالصة، كما يحتوى على كل ما يكون من عمل صالح، ولم لا يكون لمثل
 هذا القلب من ثمر سوى العمل الصالح.

ثم يبين القرآن الجنة والنار بالنحو التالي فيقول: «وَأَزْلَفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ وَبُرَزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ». أي الضالين.
 وهذا الأمر قبل ورود كل من أهل الجنة والنار إليهما، فكل طائفة ترى مكانها من قريب .. فيفرح المؤمنون ويستولى الرعب على
 الغاوين، وهذا أول جزائهما هناك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٣٩

ثم يتحدث القرآن عن ملامه هؤلاء الضالين، وما يقال لهم من كلمات التوبيخ أو العتاب، فيقول: «وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ». فهل يستطيعون معونتكم في هذه الشدة التي أنتم فيها، أو أن يطلبوا منكم أو من غيركم النصر والمعونة، «هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ
 يَنْتَصِرُونَ» (١).

إلّا أنهم لا يملكون جواباً لهذا السؤال، كما لا يتوقع أحد منهم ذلك ... «فَكَبَّكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ».

كما يقول بعض المفسرين: إن كلاً منهم سئلقى على الآخر يوم القيامة: «وَجُنُودٌ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ».

وفي الحقيقة أن هذه الفرق الثلاث، الأصنام والعابدین لها وجنود إبليس الدالین على هذا الإنحراف، يساقون جميعاً إلى النار ... ولكن
 بهذه الكيفية ... وهي أن تلقى الفرق فرقةً بعد أخرى في النار.

إلّا أن الكلام لا يقف عند هذا الحد، بل يقع النزاع والجدال بين هذه الفرق أو الطوائف الثلاث، فيجسم القرآن مخاصمتهم هنا،
 فيقول: «قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ».

أجل ... إن العبد الضالين الغاوين يقسمون بالله فيقولون: «تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا
 الْمُجْرِمُونَ».

المجرمون الذين كانوا سادة مجتمعاتنا ورؤساءنا وكبراءنا، فأضلونا حفظاً لمنافعهم، وجرونا إلى طريق الشقوة والغواية.

«فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ وَلَا صِدِّيقٍ حَمِيمٍ». والخلاصة أن الأصنام لا تشفع لنا كما كنا نتصور ذلك في الدنيا، ولا يتأتى لأي صديق أن يعيننا
 هنالك.

إلّا أنهم ما أسرع أن يلتفتوا إلى واقعهم المرّ، إذ لا جدوى هناك للحسرة ولا مجال للعمل في تلك الدار لجبران ما فات في دنياهم،

فيتمنون العودة إلى دار الدنيا ... ويقولون: «فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وأخيراً بعد الإنتهاء من هذا القسم من قصة إبراهيم، يكرر الله آيتين مشيرتين بمثابه النتيجة لعباده جميعاً، وهاتان الآيتان وردتا في ختام قصة موسى وفرعون، كما وردتا في

(١) قد يكون المراد من «يتصورون» هو أن يطلبوا العون والنصر لأنفسهم أو لغيرهم ... أو مجموعهما، لأننا سنلاحظ في الآيات المقبلة أن العبدَ ومعبودهم يساقون إلى النار.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٠

قصص الأنبياء الآخرين من السورة ذاتها فيقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ». وتكرار هاتين الآيتين، هو للتسرية عن قلب النبي صلى الله عليه وآله وتسليته ومن معه من الصحابة القلة وكذلك المؤمنين في كل عصر ومصر لثلا يستوحشوا في الطريق من قلة أهله وكثرة الأعداء ... وليطمئنوا إلى رحمة الله وعزته، كما أن هذا التكرار بنفسه تهديد للغاوين الضالين، وإشارة إلى أنه لو وجدوا الفرصة في حياتهم وأمهلهم الله إمهالاً فليس ذلك عن ضعف منه سبحانه، بل هو من رحمته وكرمه.

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٠٦) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٠٧) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١٠٨) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا (١١٠) قَالُوا أُنزِلْنَا نَزْلًا مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّا لَنُؤْمِنُ بِكَ وَاتَّبِعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥)

يتحدث القرآن الكريم بعد الإنتهاء مما جرى لإبراهيم وقومه الضالين عن قوم نوح عليه السلام حديثاً للعبرة والإيعاز ... فيذكر عندهم وشدتهم في موقفهم من نوح عليه السلام وعدم حياتهم وعاقبتهم الأليمة ضمن عدة آيات ... فيقول أولاً: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ». وواضح أن قوم نوح إنما كذبوا نوحاً فحسب ... ولكن لما كانت دعوة المرسلين واحدة من حيث الأصول، فقد عدت تكذيب نوح تكذيباً للمرسلين جميعاً.

ثم يشير القرآن الكريم إلى هذا الجانب من حياة نوح عليه السلام، الذي سبق أن أشار إليه في كلامه حول إبراهيم وموسى عليهما السلام، فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

والتعبير بكلمة «أخ» تعبير يبين منتهى المحبة والعلاقة الحميمة على أساس المساواة، وهو يلهم جميع القادة والأدلاء على طريق الحق أن يراعوا في دعواتهم منتهى المحبة المقرونة بالاجتناب عن طلب التفوق لجذب النفوس نحو مذهب الحق، ولا يستثقله الناس.

وبعد دعوة نوح قومه إلى التقوى التي هي أساس كل أنواع الهداية والنجاة، يضيف

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤١

القرآن فيقول على لسان نوح وهو يخاطب قومه: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا» فَإِنَّ إِطَاعَتِي مِنْ إِطَاعَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ. ومرّة أخرى يتمسك نوح عليه السلام بحقانيه دعوته، ويأتي بدليل آخر يقطع به لسان المتذرعين بالحجج الواهية، فيقول: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ».

ثم يذكر القرآن ذلك التعبير نفسه الذي جاء على لسان نوح، بعد التأكيد على رسالته وأمانته، إذ يقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا». إلما أن المشركين الحمقى، حين رأوا سبل ما تذرّعوا به من الحجج الواهية موصدة، تمسكوا بهذه المسألة، ف «قَالُوا أُنزِلْنَا نَزْلًا مِنْ رَبِّكَ وَإِنَّا لَنُؤْمِنُ بِكَ وَاتَّبِعَكَ الْأَرْذَلُونَ».

وصحيح أنهم كانوا صادقين ومصيبين في أن الزعيم يعرف عن طريق أتباعه، إلما أن خطأهم الكبير هو عدم معرفتهم مفهوم الشخصية

ومعيارها ... إذ كانوا يرون معيار القيم في المال والثروة والألبسة والبيوت والمراكب الغالية والجميلة، وكانوا غافلين عن النقاء والصفاء والتقوى والطهارة وطلب الحق، والصفات العليا للإنسانية الموجودة في الطبقات الفقيرة والقلّة من الأشراف. إلّا أنّ نوحاً عليه السلام جابههم وردّهم بتعبير متين، وجرّدهم من سلاحهم و«قَالَ وَمَا عَلِمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ». فما مضى منهم مضى، والمهم هو أنهم اليوم استجابوا لدعوة النبي، وقالوا له: ليبيك، وتوجهوا لبناء شخصياتهم، ومكنوا الحق من أن ينفذ إلى قلوبهم.

وإذا كانوا في ما مضى من الزمن قد عملوا صالحاً أو طالحاً، فلست محاسباً ولا مسؤولاً عنهم آنثذ: «إِنْ حَسِبْنَا لَهُمْ عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ».

وإنّما عليّ أن أبسط جناحي لجميع طلب الحق: «وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ».

وهذه العبارة جواب ضمنى لطلب هؤلاء المثريين الأغنياء المغرورين، الذين كانوا يطلبون من نوح أن يطرد طائفة الفقراء من حوله. ولكن المسؤولية الملقاة على عاتقي هي أن أنذر الناس فحسب «إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ».

فمن سمع إنذارى وعاد إلى الصراط المستقيم بعد ضلاله، فهو من أتباعي كائناً من كان، وفي أي مستوى طبقي ومقام اجتماعي أو مادي.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٢

قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ (١١٦) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨) فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ (١٢٠) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٢١) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٢٢)

نجاه نوح وغرق المشركين: كان ردّ فعل هؤلاء القوم الضالين في مواجهة نبيهم نوح عليه السلام، هو منهج المستكبرين على امتداد التاريخ وهو الإعتقاد على القوة والتهديد بالموت والفناء: «قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنْتَهَ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ».

«الرجم»: مأخوذ من «رجام» على وزن (كتاب) وهو جمع «رجمة» على وزن (لقمة) ومعناها القطعة من الحجر التي توضع على القبر، أو ما يطوف حوله عبدة الأوثان، كما يعنى الرجم القذف بالحجارة حتى القتل، كما يأتي أحياناً بمعنى القتل بأيّ شكل كان، لأنّ القتل كان بالحجر سابقاً.

والتعبير ب «من المرجومين» يدلّ على أنّ الرجم بالحجارة بينهم كان جارياً في شأن المخالفين.

ونوح شكّا إلى ربه أخيراً، وضمن بيان حاله، سأل ربه أن ينجيّه من قبضة الظالمين، وأن يُبعده عنهم ... إذ: «قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ».

ثم يلتفت إلى ربه فيقول: والآن حيث لم يبق طريق لهداية هؤلاء القوم فاقض بيننا وأفضل بيني وبينهم: «فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا».

«الفتح»: معناه واضح، وهو ما يقابل الغلق ويضاده، وله استعمالان: فتارة يستعمل في القضايا المادية كفتح الباب مثلاً، وتارة يستعمل في القضايا المعنوية كفتح الهمّ ورفع الغم.

ثم يضيف فيقول: «وَنَجِّنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ».

وهنا يعبر القرآن عن إدراك رحمة الله نوحاً، وإهلاك المكذبين بعاقبه وخيمه مفعه، إذ يقول: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّكَ الْمَشْحُونِ». أي الملىء بالناس وانواع الحيوانات: «ثُمَّ أَعْرَفْنَا بَعْدَ الْبَاقِينَ». «المشحون»: مأخوذ من مادة «شحن» على وزن «صحن» ومعناه

الملء، وقد يستعمل بمعنى التجهيز؛ و«الشحناء» تطلق على العداوة التي تستوعب جميع

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٣

جوانب الإنسان، والمراد من «المشحون» هنا هو أنّ ذلك الفلك [أي السفينة] كان مملوءاً من البشر وجميع الوسائل ... ولم يكن فيه

أى نقص ... أى إنَّ الله بعد ما جهز السفينة وأعدّها للحركة، أرسل الطوفان لثلاثين نوح وجميع من فى الفلك بأى نوع من أنواع الأذى ... وهذا بنفسه إحدى نعم الله عليهم.

وفى ختام هذه القصة القصيرة، يقول القرآن ما قاله فى ختام قصة موسى وإبراهيم عليهما السلام، فيكرر قوله: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً». أى فى ما جرى لنوح عليه السلام ودعوته المستمرة وصبره ونجاته وغرق مخالفيه: «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ». ولهذا فلا- تحزن يا رسول الله من إعراض المشركين وعنادهم، واستقم كما امرت ... فَإِنَّ عَاقِبَتَكَ وَعَاقِبَةُ أَصْحَابِكَ عَاقِبَةُ نُوحٍ وَأَصْحَابِهِ، وَعَاقِبَةُ الضَّالِّينَ مِنْ قَوْمِكَ كَعَاقِبَةُ الضَّالِّينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ. «وَاعْلَمِ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فرحمته تقتضى أن يمهلهم ويتم عليهم الحجة بإعطاء الفرصة الكافية، وعزته تستلزم أن ينصرك عليهم، وتكون عاقبة أمرهم خسراً. كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٢٥) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (١٢٦) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢٧) أَتَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبُوثُونَ (١٢٨) وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ (١٢٩) وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ (١٣٠) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (١٣١) وَأَتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ (١٣٢) أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ (١٣٣) وَجَنَاتٍ وَعُيُونٍ (١٣٤) إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣٥)

جنايات عاد وأعمالهم العدوانية: والآذنى يأتى الكلام عن «عاد» قوم «هود» إذ يعرض القرآن جانباً من حياتهم وعاقبتهم، وما فيها من دروس العبر، ضمن ثمانى عشرة آية من آياته. فيقول القرآن: «كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ». بالرغم من أنهم كذبوا هوداً فحسب، إلّا أنه لما كانت دعوة هود هى دعوة الأنبياء جميعاً، فكأنهم كذبوا الأنبياء جميعاً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٤

وبعد ذكر هذا الإجمال يقع التفصيل، فيتحدث القرآن عنهم فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ». لقد دعاهم إلى التوحيد والتقوى فى منتهى الشفقة والعطف والحرص عليهم، لذلك عبر عنه القرآن بكلمة «أخوهم». ثم أضاف قائلاً: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ». وما سبق من حياتى بين ظهرانيكم يدل على هذه الحقيقة، فإننى لم أخنكم أبداً ولم تجدوا منى غير الصدق والحق.

ثم يضيف مؤكداً: لما كنتم تعرفوننى جيداً «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ». لأن إطاعتكم إياى إطاعة لله سبحانه ... ولا تتصوروا بأنى أدعوكم لأنتفع من وراء دعوتى إياكم فى حياتى الدنيا وأنال المال والجاه، فلست كذلك، «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِي إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ». فجميع النعم والبركات من عنده سبحانه، وإذا أردت شيئاً طلبته منه، فهو رب العالمين جميعاً.

والقرآن الكريم يستند فى هذا القسم من سيره «هود» فى قومه إلى أربعة أمور على الترتيب:

فالأمر الأول: هو محتوى دعوة «هود» الذى يدور حول توحيد الله وتقواه، وقرأنا ذلك بجلاء فى ما مضى من الآى.

أما الامور الثلاثة الأخرى فيذكرها القرآن حاكياً عن لسان هود فى ثوب الإستفهام الإنكارى، فيقول: «أَتَتَّبِعُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبُوثُونَ». «الريح»: فى الأصل يطلق على المكان المرتفع؛ و «تعبتون»: مأخوذ من «العبث» ومعناه العمل بلا هدف صحيح، ومع ملاحظة كلمة «آية» التى تدل على العلامة، يتضح معنى العبارة بجلاء، وهو أن هؤلاء القوم المثرتين، كانوا يبنون على قمم الجبال والمرتفعات الأخرى مباني عالية للظهور والتفاخر على الآخرين، وهذه المباني (كالأبراج وما شاكلها) لم يكن من ورائها أى هدف سوى لفت أنظار الآخرين.

وأما الأمر الثالث الذى ذكره القرآن حاكياً على لسان هود منتقداً به قومه، فهو قوله: «وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ». «المصانع»: جمع «مصنع» ومعناه المكان أو البناء المجلل المحكم، والنبى هود لا- يعترض عليهم لأن لديهم هذه البنايات المريحة الملائمة، بل يريد أن يقول لهم: إنكم غارقون فى أمواج

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٥

الدنيا، ومنهمكون بعبادة الزينة والجمال والعمل في القصور حتى نسيتم الدار الآخرة. في تفسير مجمع البيان روى عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: «إِنَّ لِكُلِّ بِنَاءٍ بِنِي وَبَالَ عَلَيَّ صَاحِبِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا مَا لَابَدَّ مِنْهُ». ثم ينتقد النبي (هود) قومه على قسوتهم وبطشهم عند النزاع والجدال فيقول: «وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ». يدل هذه الآيات الثلاث أعلاه على أن عشق الدنيا كان قد هيمن عليهم، وأغفلهم عن ذكر الله حتى ادعوا الألوهية. والقسم الثالث من حديث هود مما بينه لقومه، هو ذكر نعم الله على عباده ليحرك فيهم - عن هذا الطريق - الإحساس بالشكر لعلمهم يرجعون نحو الله.

وفي هذا الصدد يتبع النبي هود أسلوبى الإجمال والتفصيل، وهما مؤثران في كثير من الأبحاث، فإلتفت نحوهم أولاً فيقول: «وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ» (١).

وبعد هذا التعبير المجمل يذكر تفصيل نعم الله عليهم، فيقول: «أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَمٍ وَبَيِّنَ». ثم يضيف بعد ذلك: «وَجَنَّتِ وَعُيُونٌ».

وهكذا فقد وفر الله لكم سبل الحياة جميعاً، من حيث الأبناء أو القوّة الإنسانية، والزراعة والتدجين ووسائل الحمل والنقل. وأخيراً، فإنّ هوداً في آخر مقطع من حديثه مع قومه ينذرهم ويهددهم بسوء الحساب وعقاب الله لهم، فيقول: «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ».

وعادة - يستعمل لفظ (اليوم العظيم) في القرآن، ويراد منه يوم القيامة العظيم من كل وجه، إلما أنه قد يستعمل في القرآن في اليوم الصعب الموحش المؤلم على الامم. فبناء على هذا قد يكون التعبير ب «يوم عظيم» في الآية محل البحث، إشارة إلى اليوم الذى ابتلى به المعاندون من قوم هود (عاد) بالعذاب الأليم.

كما يمكن أن يكون إشارة إلى يوم القيامة وعذابه، أو إلى العذابين معاً، فيوم الاعصار يوم عظيم، ويوم القيامة يوم عظيم أيضاً.

(١) «أمدّ»: مأخوذ من «الإمداد»، ويطلق في الأصل على أمور توضع بعضها بعد بعض بشكل منظم، وحيث إنّ الله يرسل نعمه بشكل منظم إلى عباده استعملت هذه الكلمة هنا أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٦

لا تتعب نفسك في نصحنأ: رأينا في الآيات المتقدمة أحاديث النبي هود المحترق القلب شفقةً على قومه المعاندين «عاد» وما حملته هذه الأحاديث من معان غزيرة سامية، والآن ينبغي أن نعرف جواب قومه الجارح وغير المنطقى ولا المعقول، يقول القرآن في هذا الصدد: «قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَزَّتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ». فلن يؤثر ذلك فينا، فلا تتعب نفسك. أما اعتراضك علينا بهذه الامور فلا محل له من الاعراب: «إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ».

وليس الأمر كما تقول، فإنه لا شيء بعد الموت، «وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّينَ»، لا فى هذا العالم، ولا فى العالم الآخر.

«الخُلُقُ»: - بضم الخاء واللام - معناه العادة والسلوك والأخلاق لأنّ هذه الكلمة جاءت بصيغة الأفراد بمعنى الطبع والسجية والعادة الأخلاقية، وهى هنا إشارة إلى الأعمال التى كانت تصدر منهم كعبادة الأصنام، وبناء القصور العالية الجميلة، وحب الذات، والتفاخر عن طريق تشييد الأبراج على النقاط المرتفعة، وكذلك البطش عند الإنتقام أو الجزاء، أى إنّ ما نقوم به من أعمال هو ما كان يقوم به السلف فلا مجال للاعتراض والانتقاد.

ويبين القرآن عاقبة قوم هود الويلة فيقول: «فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ».

وفى ختام هذه الأحداث يذكر القرآن تلكما الجملتين المعبرتين، اللتين تكررتا فى نهاية قصص نوح وإبراهيم وموسى عليهم السلام،

فيقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً» على قدرة الله، واستقامته الأنبياء وعاقبه المستكبرين السيئة، ولكن مع ذلك «وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فيمهل إمهالاً كافياً، ويمنح الفرصة، ويبين الدلائل الواضحة للمضلين ليهتدوا، إلا أنه عند المجازاة والعقاب، وبعد إتمام الحجة يأخذ أخذاً عسيراً لا مفر لأحد منه أبداً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٧

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٤٢) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٤٣) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (١٤٤) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٤٥) أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا آمِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاضِمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ (١٤٩) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ (١٥١) الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (١٥٢)

القسم الخامس من قصص الأنبياء في هذه السورة، هو قصة «ثمود» الموزة القصيرة، ونبئهم «صالح» الذين كانوا يقطنون في «وادي القرى» بين المدينة والشام، وكانت حياتهم مترفة مرفهة.

وبداية القصة هذه مشابهة لبداية قصة عاد (قوم هود) وبداية قصة نوح وقومه، وهي تكشف كيف يتكرر التاريخ، فتقول: «كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ».

وبعد ذكر هذا الإجمال يفصل القرآن ما كان بين صلاح وقومه، فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

ثم يقول لهم معرفاً نفسه: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» وسوابقى معكم شاهد مبين على هذا الأمر «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ». إذ لا أريد إلأرضاً الله والخير والسعادة لكم.

ولذلك فأنا لا- أطلب عوضاً منكم في تبليغي إنيكم، «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ»، فأنا أدعوكم له، وأرجو الثواب منه سبحانه.

ثم يضع «صالح» اصبعه على نقاط حساسة من حياتهم، فيتناولها بالنقد ويحاكمهم محاكمة وجدانية، فيقول: «أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ءَامِنِينَ».

وتتصورون أن هذه الحياة المادية التي تستغفل الإنسان دائمة له.

وبالأسلوب المتين، أسلوب الإجمال والتفصيل، يشرح النبي صالح لقومه تلك الجملة المغلقة والمجملة بقوله: وتحسبون أنكم مخلدون «فِي جَنَّةٍ وَعُيُونٍ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَعَتْ هَاضِمٌ» (١).

(١) «الطلع»: مأخوذ من مادة «الطلع» ويستعمل في ما يكون منه الرطب بعدئذ، وقد يستعمل الطلع في الثمرة الأولى للنخل؛ و«الهضيم»: من مادة «هضم»، وله معان مختلفة، فتارة يراد منه الثمرة الناضجة، وتارة يطلق على الثمر اللين القابل للهضم، وتارة يطلق على المهضوم، وقد يستعمل بمعنى المنظوم المنضد، فإذا كان الطلع في الآية محل البحث بمعنى العذق أول طلوعه، فالهضيم معناه المنضود، وإذا كان الطلع أول الثمر فالهضيم معناه الناضج اللين اللطيف.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٨

ثم ينتقدهم على بيوتهم المرفهة المحكمة فيقول: «وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ». «الفاره»: مشتق من «فره» ومعناه في الأصل السرور المقرون باللامبالاة وعبادة الهوى.

وبعد ذكر هذه الإنتقادات يتحدث النبي صالح عليه السلام في القسم الثالث من كلامه مع قومه، فيقول: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ». «الإسراف»: هو التجاوز عن حد قانون التكوين وقانون التشريع ... وأي تجاوز

عن الحد موجب للفساد والاختلال. بتعبير آخر: إن مصدر الفساد هو الإسراف، ونتيجة الإسراف هي الفساد أيضاً. قَالَوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ (١٥٣) مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٥٤) قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (١٥٥) وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٥٦) فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ (١٥٧) فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٥٨) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٥٩)

عناد قوم صالح ولجاجتهم: لقد استمعتم إلى منطق صالح عليه السلام المتين والمحب للخير، مع قومه المضلين - في الآيات المتقدمة - والآن لنستمع إلى جواب قومه في هذه الآيات.

إنهم واجهوه بكلام خشن و «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسْحَرِينَ». فلذلك فقدت عقلك وتكلم بكلمات غير موزونة ولا معقولة. ثم بعد هذا كله «مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا». وكل عاقل لا يبيع لنفسه أن يطبع إنساناً مثله «فَأْتِ بآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ» لكي تؤمن بك وتنبعك.

«المسحر»: مشتقة من «السحر» ومعناها المسحور، أي المصاب بالسحر، إذ كانوا يعتقدون أن السحرة كانوا عن طريق السحر يعطلون عمل العقل. أجل، إنهم كانوا يرون بمعيار العقل أن يكون الإنسان متوافقاً مع البيئة والمحيط، ويطبق نفسه على جميع المفاسد ... مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٤٩

فلو أن رجلاً مصلحاً إلهياً دعا الناس للقيام والنهوض بوجه العقائد الفاسدة وإصلاحها، عدوه - بحسب منطقهم - مجنوناً «مسحراً». إن هؤلاء المعاندين من قوم صالح، طلبوا منه معجزة لا من أجل معرفته الحق، بل تذرغاً بالحجة الواهية، وعلى نبيهم أن يتم الحجة عليهم، فاستجاب لهم - وبأمر الله - «قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ». هذه الناقة لم تكن ناقة كسائر النياق الطبيعية، كانت هذه الناقة بحالة من الإعجاز بحيث خرجت من قلب الجبل، ومن خصائصها أنها كانت تشرب ماء الحى في يوم، واليوم الآخر لأهل الحى «أو القرية».

وكان على صالح عليه السلام أن يعلمهم أن هذه الناقة ناقة عجيبه وخارقة للعادة، وهى آية من آيات عظمة الله المطلقة فعليهم أن يدعوا على حالها، وقال: «وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ». وبديهي أن المترفين قوم صالح المعاندين كانوا يعلمون أن يقظة الناس ستؤدى إلى الإضرار بمنافعهم الشخصية فتأمروا على نحر الناقة: «فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَادِمِينَ» (١). لأنهم رأوا أنفسهم قاب قوسين من العذاب الإلهي. ولما تجاوز طغيانهم الحد، وأثبتوا بأعمالهم أنهم غير مستعدين لقبول الحق، اقتضت إرادة الله ومشيتته أن يطهر الأرض من وجودهم الملوث «فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ».

ويقول القرآن في ختام هذه الحادثة ما قاله في ختام حوادث قوم هود وقوم صالح وقوم نوح وقوم إبراهيم، فيعبر تعبيراً بليغاً موجزاً يحمل بين ثناياه عاقبة أولئك الظالمين: إن في قصة قوم صالح، وفي صبره وتحمله واستقامته ومنطقه القويم من جهة، وعناد قومه وغرورهم وانكارهم للمعجزة البينة، والمصير الأسود الذى آلو إليه دروس وعبر: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ». أجل، ليس لأحد أن يغلب ربه؛ فما فوق قوته من قوة، وهذه القوة وهذه القدرة العظيمة لا تمنع أن يرحم أوليائه، بل أعداءه أيضاً: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

(١) «عقروها»: مأخوذة من مادة «عقر» ومعناها فى الأصل أساس الشئ وجذره، وقد تأتى بمعنى حز الرأس، وتأتى بمعنى قطع الأرجل من الحيوان، وما إلى ذلك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٠

مختصر الامثل ج ٣ ٤٩٩

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ (١٦١) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٦٢) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَاتَّقُوا النَّاسَ أَكْثَرَهُمْ مَوْجِبِينَ (١٦٣) وَمَا أَشَأْلكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٤) أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ (١٦٥) وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ (١٦٦)

السفلة المعتدون: سادس نبى - ورد جانب من حياته وحياء قومه المنحرفين فى هذه السورة - هو لوط عليه السلام. يقول القرآن أولاً فى هذا الصدد: «كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ».

ثم يشير القرآن الكريم إلى دعوة لوط التى تنسجم مع دعوة الأنبياء الآخرين الماضين، فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ».

ولحن كلماته وقلبه المتحرق لهم، العميق فى تودده إليهم، يدل على أنه بمثابة «الأخ» لهم.

ثم أضاف لوط قائلاً: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ». فلم تعرفوا عنى خيانه حتى الآن ... وسأرعى الأمانة فى إيصال رساله الله إليكم أبداً ... «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا». فأنا زعيمكم إلى السعادة والنجاه.

ولا تتصوروا أن هذه الدعوة وسيله اتخذها للحياه والعيش، وأن وراءها هدفاً مادياً، كلا: «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ».

ثم يتناول بالنقد أعمالهم القبيحه، وقسماً من انحرافاتهم الأخلاقية ... وحيث إن أهم نقطه فى انحرافاتهم ... هى مسأله الانحراف الجسدى، لذلك فإنه ركز عليها وقال: «أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ». فتختارون الذكور من بين الناس لاشباع شهواتكم.

أى، إنكم على الرغم مما خلق الله لكم من الجنس المخالف «النساء» حيث تستطيعون أن تعيشوا معهن بالزواج المشروع عيشاً طاهراً هادئاً، إلا أنكم تركتم نعمه الله هذه وراءكم، ولوئتم أنفسكم بمثل هذا العمل القبيح المخزى ...

ثم أضاف قائلاً: «وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ».

فالحاجه والغريزه الطبيعیه، سواء كانت روحیه أم جسمیه لم تجرکم إلى هذا العمل الانحرافى الشنيع أبداً، وإنما جرکم الطغيان والتجاوز، فتلوئتم وخزيتم به ...

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥١

قَالُوا لَيْسَ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (١٦٧) قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ (١٦٨) رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (١٦٩) فَنجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٧٠) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغَابِرِينَ (١٧١) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٧٢) وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ (١٧٣) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٧٤) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (١٧٥)

عاقبه قوم لوط: إن قوم لوط الغارقين بالغرور والتماديه بهم رياح الشهوه، بدلاً من أن يذعنوا لنصائح هذا القائد الإلهى، فتدخل مواظه فى قلوبهم ويخلصوا من تلك الأمواج الرهيبه، فإنهم نهضوا لمواجهته و «قَالُوا لَيْسَ لَمْ تَنْتَهَ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ».

إن فعل هؤلاء الضالين - بلغ بهم أن يعدوا التقوى والتطهر بينهم أكبر عيب، وأن يفخروا بالرجس وعدم الطهاره.

ويستفاد من عباره «لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ» أن هذه الجماعه الفاسده كانوا قد أخرجوا اناساً طاهرين من حيتهم.

إلا أن لوطاً لم يكثر بتهديدهم، وواصل نصحه لهم و «قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ».

إنه يريد أن يقول: سأواصل انتقادى إياكم ... فافعلوا ما شئتم ... فأنا لا أترك مواجهه هذه الأعمال القبيحه بالإعتراض والنقد ...

والتعبير ب «من القالين» يدل أيضاً على أن جماعه كانوا مثل النبى لوط يرفضون هذه الأعمال ويعترضون عليها.

«القالين»: جمع «قال» من ماده «قلى أو قلى» (على وزنى حلق وشرىك) ومعناها العداوه الشديده التى تترك أثرها فى قلب الإنسان، وهذا التعبير يكشف عن شده تنفر لوط من أعمالهم.

وأخيراً بدّل الفساد مجتمعهم كله إلى مستنقع عفن ... وتمت الحجه عليهم بمقدار كاف، وبلغت رساله لوط مرحلتها النهائيه.

فسأل لوط ربه أن يخلصه من قومه، فقال: «رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ».

فاستجاب الله دعائه كما تقول الآية التالية: «فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ» (١). وهذه العجوز لم تكن سوى زوج النبي لوط التي لم تؤمن به أبداً.

(١) «الغابر»: من مادة (الغبور) ومعناه الباقي، ومتى ما تحركت جماعته وبقى شخص في المكان فإنه يدعى (غابراً)، ولهذا السبب سمي التراب الباقي غباراً... والغبرة: الباقي من اللبن في ثدي الحيوان.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٢

أجل، لقد نجى الله لوطاً والمؤمنين القلّة معه، فأمر أن يخرج بهم ليلاً من تلك المدينة- أو القرية- فترك قومه الغارقين بالفسق والفجور على حالهم، فنزل عذاب الله في الغداة، فترزلت بهم الأرض وانهارت عليهم الأبنية والقصور الجميلة حتى أصبح عاليها سافلها وهلكوا جميعاً في ديارهم، وقد عبر القرآن عن ذلك بعبارة موجزة بليغة، فقال: «ثُمَّ دَمَرْنَا الْأَخْرِينَ»، ولم يكف ذلك بل «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا». وأى مطر، إنه وابل من احجار نزل على تلك الخرائب ليمحو أثرها من الانظار، «فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ».

والأمطار عادة تمنح الحياة، إلا أن هذا المطر كان موحشاً مهلكاً مخزباً...

ويستفاد من الآية (٨٢) من سورة هود أن قري قوم لوط ومدنهم قلب عاليها سافلها أولاً، ثم أمطرت بالحجر النضيد المتراكم.

ومرة أخرى نواجه في نهاية هذه القصة الجملتين اللتين تكررتا في القصص المشابهة لها في هذه السورة، في شأن خمسة أنبياء كرام آخرين، إذ يقول القرآن: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ». «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ». وأية رحمة أعظم من أنه لا يعاقب أقواماً فاسقين كقوم لوط فوراً، بل يمهلهم إمهالاً كافياً لعلهم يهتدون، ويجددوا نظرهم في أعمالهم.

وأية رحمة أعظم من أن لا يخلط عقابه «الأخضر باليابس» بل لو كان في ألف أسره غير صالحه أسرة واحدة صالحه، فإنه ينجيها منها وينزل العذاب على اولئك.

وأية عزة أعظم من أن ترى بطرفه عين واحدة ديار الفاسقين قد دُمرت تدميراً ولم يبق منها أي أثر.

كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ (١٧٩) وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٨٠) أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَمَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّ الْأُولَى (١٨٤)

شعيب وأصحاب الأيكة: هذه هي القصة السابعة، والحلقة الأخيرة من قصص الأنبياء

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٣

الواردة في هذه السورة، وهي قصة شعيب عليه السلام وقومه المعاندين.

كان هذا النبي يقطن في «مدين»، وهي مدينة تقع جنوب الشامات.

تقول الآية الاولى من الآيات محل البحث: «كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ».

«أيكة»: على وزن (ليلة)، قرية أو أرض معمورة على مقربة من مدين.

ثم يتحدث القرآن إجمالاً عن شعيب عليه السلام وعنهم فيقول: «إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ».

إن دعوة شعيب عليه السلام انطلقت من النقطة التي ابتدأها سائر الأنبياء، وهي التقوى ومخافة الله التي تعد أساس المناهج الإصلاحية والتغييرات الأخلاقية والاجتماعية جمعاء.

ثم أضاف شعيب قائلاً: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ». فطاعتكم لي طاعة لله.

واعلموا أنني أبتغي ثوابه ووجهه، «وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ».

و «شعيب» كسائر الأنبياء الذين ورد جانب من تاريخ حياتهم في هذه السورة، فهو يدعو قومه بعد الدعوة العامة للتقوى وطاعة الله،

إلى إصلاح انحرافاتهم الأخلاقية والاجتماعية وينتقدهم على هذه الانحرافات، وحيث إن أهم انحراف عند قومه كان الاضطراب الاقتصادي، والاستثمار والظلم الفاحش في الأثمان والسلع، والتطيف في الكيل، لذلك فقد اهتم بهذه المسائل أكثر من غيرها، وقال لهم: «أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

«تبخسوا»: مأخوذة من «البخس» وهو في الأصل النقص ظلماً من حقوق الناس ... وقد يأتي أحياناً بمعنى الغش أو التلاعب المنتهى إلى تضييع حقوق الآخرين ... فبناء على ما تقدم، فإن الجملة الآنفه «وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ» لها معنى واسع يشمل جميع أنواع الغش والتزوير والتضليل، والتلاعب في المعاملات، وعمط حقوق الآخرين.

وأما جملة «وَلَمَّا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ» فمعناه واسع أيضاً، إذ يشمل بالإضافة إلى البخس والتطيف كل ما من شأنه أن يكون سبباً للخسارة وإيذاء الطرف الآخر في المعاملة.

ثم إن «شعبياً» في آخر تعليماته - في هذا القسم - يدعوهم مرد أخرى إلى تقوى الله فيقول: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبْلَةَ الْأُولَى». مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٤

«الجبل»: مأخوذة من «الجبل» وهو معروف «ما ارتفع من الأرض كثيراً» ويسمى الطود أحياناً، فالجبله تطلق على الجماعة الكثيرة التي هي كالجبل في العظمة.

قال بعضهم: الجبله مقدار عددها عشرة آلاف. كما تطلق الجبله على الطبيعة والفطرة الإنسانية، لأنها لا تتغير، كما أن الجبل لا يتغير عادةً.

والتعبير المتقدم لعله إشارة إلى أن شعبياً يقول: إنما أدعوكم إلى ترك الظلم والفساد، وأداء حقوق الناس ورعايته العدل، لأن ذلك موجود في داخل الفطرة الإنسانية منذ الخلق الأول، وأنا جئتكم لإحياء هذه الفطرة.

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحَرِينَ (١٨٥) وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٨٧) قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨٨) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٨٩) إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (١٩٠) وَإِنَّ رَبَّكَ لَهَوَّ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (١٩١)

عاقبه الحمقى: لما رأى قوم شعيب الظالمون - أنهم لا يملكون دليلاً ليواجهوا به منطلقه المتين، ومن أجل أن يسيروا على نهجهم ويواصلوا طريقهم، رشقوه بسيل من التهم والأكاذيب. فالتهمة الاولى هي ما يلصقها الجابره دائماً والمجرمون بالانبياء، وهي السحر فاتهموه بها و «قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمَسْحَرِينَ» (١).

ثم ما الفارق بينك وبيننا لتبعك؟! ولا مزية لك علينا، «وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نُنْظِنُكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ».

وبعد إلقاء هذا الكلام المتناقض، إذ تارة يدعوهم (من الكاذبين) ورجلاً انتهازياً، وتارة يدعوهم مجنوناً أو من المسحرين، وكان كلامهم الأخير هو: إن كنت نبياً «فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ». حيث كنت تهددنا دائماً بهذا اللون من العذاب. «كِسْفٌ»: جمع «كِسْفَةٌ» على وزن (قطعة)، ومعناها قطعة أيضاً، والمراد من هذه «القطع من السماء» هي قطع الأحجار التي تهوى من السماء.

(١) «المسحر»: هو المسحور ... أو الذي يقع عليه السحر من قبل السحرة لينفذوا في عقله ويطلوا عمله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٥

إلّا أن شعبياً عليه السلام، وهو يواجه هذه التعبيرات غير الموزونة والكلمات القبيحة وطلبهم عذاب الله، كان جوابه الوحيد لهم أن «قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ».

فإذا لم تنفع المواعظ وتمت الحجة اللازمة، فإن عذابه لا مرد له.

إِنَّ عَذَابَ اللَّهِ أَزْفَ موعده- وكما يعبر القرآن عنه فى الآية التالية قائلاً: «فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظَّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابٍ عَظِيمٍ». (الظلة): فى الأصل معناها القطعة من السحاب المظلل: أى ذى الظل.

إِنَّ حَرًّا شَدِيدًا مَحْرَقًا حَلَّ فى أرضهم سبعة أيام، ولم يهب نسيم بارد مطلقاً، فإذا قطعه من السحاب تظهر فى السماء- بعد السبعة أيام- وتحرك نسيم عليل فخرجوا من بيوتهم، واستظلوا تحت السحاب من شدة الحر.

وفجأة سطعت من بين السحابة صاعقة مميته بصوتها المذهل، واحرقتهم بنارها وزلزلت الأرض وهلكوا جميعاً. وتختتم القصة هذه بما ختمت القصص الست السابقة عن أنبياء الله الكرام، إذ يقول القرآن: إِنَّ فى حكاية أصحاب الايكة ودعوة نبيهم شعيب وعنادهم وتكذيبهم، وبالتالى نزول العذاب على هؤلاء المتكبرين درس وعبرة لمن اعتبر «إِنَّ فى ذلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ».

ومع ذلك كله فإنَّ الله رحيم ودود يمهلهم لعلمهم يرجعون ويصلحون أنفسهم، فإذا تمادوا فى الغى واستوجبا عذاب الله، أخذهم أخذ عزيز مقتدر.

أجل، «وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

فى ختام قصص هؤلاء الأنبياء السبعة ينبغى أن نلتفت إلى هذه «اللطفة» وهى أن قصص هؤلاء الأنبياء جميعاً جاءت فى سور آخر من القرآن أيضاً، إلا أنها لم تعرض بهذا العرض بحيث نجد أن بداية دعوتهم منسجمة، كما أن نهاياتها منسجمة أيضاً. وهذا الإنسجام- قبل كل شىء- يدل على تجلى مفهوم وحدة دعوات الأنبياء، بحيث كانوا ذوى منهج واحد وبداية واحدة ونهاية واحدة.

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥) وَإِنَّهُ لَفى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ (١٩٦) أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٩٧)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٦

عظمة القرآن فى كتب السابقين: بعد بيان سبع قصص عن الأنبياء السابقين، والعبر الكامنة فى تأريخ حياتهم، يعود القرآن مرّة اخرى إلى البحث الذى شرعت به السورة، بحث عظمة القرآن وحقانية هذا الكلام الإلهى المبين، إذ يقول: «وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ». لذلك تضيف الآية التالية قائلة: «نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ».

ولو كان القرآن لم يُنزل ملك الوحي «الروح الأمين من قبيل الله» لم يكن بهذا الإشراق والصفاء والخلو من الخرافات والأساطير والأباطيل.

فالروح هى أساس الحياة، والأمانة، هى شرط أصيل فى الهداية والقيادة.

أجل، إِنَّ هذا الروح الأمين نزل بالقرآن «عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ».

إِنَّ الهدف من بيان تأريخ السالفين لم يكن مجرد شرفاً فكرياً ولملء الفراغ، بل إيجاد الإحساس بالمسؤولية واليقظة، والهدف هو التربية وبناء شخصية الإنسان.

ولئلا تبقى حجة لأحد ولا عذر، فإنَّ القرآن انزل «بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ».

والجدير بالذكر أن أحد معانى «عربى» هو ذو الفصاحة والبلاغة؛ وفى هذه الصورة فإنه ليس المعول على لسان العرب، بل الأساس صراحة القرآن ووضوح مفاهيمه.

و الآية التالية تشير إلى دليل آخر من دلائل حقانية القرآن فتقول: «وَإِنَّهُ لَفى زُبُرِ الْأَوَّلِينَ».

وخاصة أن أوصاف هذا النبى العظيم وأوصاف هذا الكتاب السماوى الخالد، جاءت فى توراة موسى عليه السلام بحيث أن علماء بنى إسرائيل كانوا يعرفون كل ذلك. لذا فإنَّ القرآن يضيف هنا قائلاً: «أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ».

وواضح أنه مع وجود اولئك العلماء من بنى إسرائيل في ذلك المحيط المليء بالمشركين، لم يكن من الممكن أن يتحدث القرآن عن نفسه «جزافاً» واعتباطاً؛ لأنه كان سيرد عليه من كل حدب وصوب بالإنكار، وهذا بنفسه دليل على أن هذا الموضوع كان جلياً في ذلك المحيط، بحيث لم يبق مجال للإنكار حين نزول الآيات - محل البحث.

وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ (١٩٨) فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ (١٩٩) كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (٢٠٠) لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٢٠١) فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٢٠٢) فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ (٢٠٣)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٧

لو نزل القرآن على الأعاجم: في هذه الآيات يتكلم القرآن على واحدة من الذرائع الإحتمالية من قبل الكفار وموقفه منها، ويستكمل البحث السابق في نزول القرآن بلسان عربى مبین، فيقول: «وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ».

بعض العرب ممن يتمسك بالعرقية ويعبد القومية كانوا متعصبين إلى درجة بحيث لو نزل القرآن على غير العرب لما آمن به ورغم أن القرآن نزل على عربى شريف من أسرة كريمة، في بيان رائع رائق بليغ وقد بشرت به الكتب السماوية السابقة، وشهد بذلك علماء بنى إسرائيل، ومع ذلك كله لم يؤمن به الكثير من العرب، فكيف إذا كان نيهم ليس فيه أية صفة من الصفات المذكورة.

ثم تضيف الآية لمزيد التأكيد: «كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ».

في بيان بليغ ولسان رجل من بينهم، وهم يعرفونه ويعرفون سيرته وأخلاقه، وبمحتوى بشرت به الكتب السماوية السابقة. والخلاصة إننا نسلكه بجميع هذه الأوصاف في قلوب المجرمين ليكون مقبولاً سهلاً مطبوعاً إلا أن هذه القلوب المرضى تمتنع عن قبوله، فمثله كمثل الطعام الطيب النافع الذى تلفظه المعدة السقيمة.

ولذلك تقول الآية: «لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ». أى: إن هؤلاء المجرمين المعاندين، يظنون على حالهم حتى نزول العذاب. أجل، إنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب «فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

لا شك أن المراد من هذا العذاب، هو عذاب الدنيا والبلاء المهلك وعقاب الإستئصال.

لذا فإن القرآن يحكى عن حالهم فيقول: إنهم فى هذه الحال يرجعون إلى أنفسهم، ويندمون على أفعالهم، ويتملكهم الخوف من المصير المرعب، ويودون بأن يعطوا فرصة لجبران ما فات والإيمان بالرسالة الإلهية: «فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ».

أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (٢٠٤) أَمْ قَرَأْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ (٢٠٧) وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ (٢٠٨) ذِكْرَىٰ وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ (٢٠٩) وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُوُونَ (٢١٢)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٨

تهمه اخرى للقرآن: حيث إن الآيات المتقدمة ختمت بجملة «هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ» التى يقولها المجرمون عندما يأتهم العذاب بغته وهم على أبواب الهلاك، طالبين الإمهال والرجوع للتعويض عما فاتهم من الأعمال، فالآيات محل البحث ترد عليهم عن طريقين: الأول قوله تعالى: «أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ».

والآخر أنه: «أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ». فعلى فرض أنهم امهلوا ثانية (ولن يُمهّلوا بعد إتمام الحجة عليهم) الا يكون عملهم التمتع والتلذذ بالمواهب المادية فحسب. وهل يعوضون عما فاتهم؟! كلا أبداً.

وهنا يثار سؤال وهو أنه مع الإلتفات إلى أن الله عالم بمستقبل كل قوم وجماعه، فما الحاجة إلى الإمهال؟

ثم أن الامم السالفة كذبت أنبياءها واحداً بعد الآخر، فعلام يأتي الأنبياء منذرين ومبشرين!؟

فالقرآن يجب على هذا السؤال بأن ذلك سنة الله: «وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمِهِ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ». فرسل الأنبياء لهم لإتمام الحجة وتقديم النصح والموعظة ليتذكروا ويستيقظوا من غفلتهم «ذِكْرَى».

ولو كنا نأخذهم بدون إتمام الحجّة، وذلك بإرسال المنذرين والمبشرين - من قِبَلِ اللَّهِ - لكان ظلماً منا «وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ».

فمن الظلم أن نهلك غير الظالمين، أو نهلك الظالمين دون إتمام الحجّة عليهم.

ثم يردّ القرآن على إحدى الذرائع أو التُّهم الباطلة من قِبَلِ أعداء القرآن وهي أن النبي مرتبط ببعض الجن، وهو يعلمه هذه الآيات، والحال أن القرآن يؤكد أن هذه الآيات هي من «تنزيل رب العالمين».

فيضيف هنا قائلاً: «وَمَا تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيْطَانُ».

ثم يبين جواب هذه التهمة الواهية التي اختلقها الأعداء، فيقول: «وَمَا يَتَّبِعِي لَهُمْ». أي: أن محتوى هذا الكتاب العظيم الذي يدعو إلى الحق والطهارة والعدل والتقوى، ونفى كل أنواع الشرك، يدلّ دلالة واضحة على أنه لا شباهاً له بأفكار الشياطين وما يلقونه. ثم إن الشياطين ليست لهم القدرة على ذلك «وَمَا يَشْتِطُّعُونَ».

إذا كانت لهم القدرة فينبغي على سائر من كان في محيط نزول القرآن كالكهنة المرتبطين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٥٩

بالشياطين أن يأتوا بمثل هذا القرآن، مع أنهم عجزوا عن الإتيان بمثله. «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُؤُونَ».

ويستفاد من سائر آيات القرآن أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع من الملائكة، فينقلون ما يدور بين الملائكة من مطالب إلى أوليائهم، إلّا أنه بظهور نبي الخاتم صلى الله عليه وآله وولادته انقطع استراق السمع تماماً، وزال الإرتباط الخبرى بين الشياطين وأوليائهم.

فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠)

وأندر عشيرتك الأقربين: تعقيباً على الأبحاث الواردة في الآيات السابقة في شأن مواقف المشركين من الإسلام والقرآن، فإن الله سبحانه يبين لنيّبه - في الآيات محل البحث - منهجه وخطته في خمسة أوامر، في مواجهة المشركين.

وقبل كل شيء فإن الله يدعو النبي صلى الله عليه وآله إلى الإعتقاد التام بالتوحيد؛ التوحيد الذي هو أساس دعوات الأنبياء جميعاً. يقول سبحانه: «فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ».

ثم يأمره الله في مرحلة أخرى أن ينطلق إلى مدى أرحب في دعوته قائلاً: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» (١).

ولا شك أنه للوصول إلى منهج تغييرى ثورى واسع، لابد من الابتداء من الحلقات الأدنى والأصغر.

أمّا المرحلة الثالثة، فإن الله يوصى النبي في دائرة أوسع فيقول: عليك أن تعامل أتباعك

(١) «العشيرة»: مشتقة من «العشرة» العدد المعروف [١٠] وحيث إن العشرة تعتبر في نفسها عدداً كاملاً، فقد سمي أقرباء الرجل الذين يكمل بهم عشيرته، ولعلّ المعاشرة مأخوذة من هذا المعنى، لأنها تجعل الناس بصورة مجموعة كاملة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٠

باللطف والمحبّة: «وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». وهذا التعبير الجميل الرائع كناية عن التواضع المشفوع بالمحبّة واللطف، كما أن الطيور تخفض أجنحتها لأفراخها محبةً منها لها، وتجعلها تحت أجنحتها لتكون مصانّةً من الحوادث المحتملة، ولتحفظها من التشتت والتفرّق، فكذلك الأمر بالنسبة للنبي إذ امر أن يخفض جناحه للمؤمنين الصادقين.

ثم تأتي المرحلة الرابعة وهي أن الأعداء لم يقبلوا دعوتك وعصوا أوامرَكَ. فلا تبتئس ولا تحزن: «فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ». أي إذا لم يدعنا بعد دعوتك إياهم للحق، وواصلوا شركهم وعنادهم، فعليك أن تبين موقفك منهم.

وأخيراً فالأمر الإلهي الخامس للنبي صلى الله عليه وآله لإكمال مناهجه السابقة، هو: «وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ». ذلك الله «الَّذِي يَرِيكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّجْدِينَ». أجل، «إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

وهكذا تذكر الآيات ثلاث صفات لله بعد وصفه بالعزیز الرحيم وكل منها يمنح الأمل ويشد من عزم النبي على مواصلة طريقه، إذ أن الله يرى جهوده وأتباعه وحر كاته وسكناته، وقيامه وسجوده وركعاته. ذلك الله الذي يسمع صوته. الله الذي يعلم حاجاته وطلباته حاجته.

«التقلب»: معناه الحركة والانتقال من حال إلى حال، وهذا التعبير لعله إشارة إلى سجود النبي صلى الله عليه وآله بين الساجدين في أثناء الصلاة، أو إلى حركة النبي صلى الله عليه وآله وتنقله بين أصحابه وهم مشغولون بالعبادة، وكان يتابع أحوالهم ويسأل عنهم. وفي المجموع فإن هذا التعبير إشارة إلى أن الله سبحانه لا يخفى عليه شيء من حالاتك وسعيك، سواء كانت شخصية فردية، أم كانت مع المؤمنين في صورة جماعية، لتدبير أمور العباد ولنشر مبدأ الحق. إنذار الأقرين (حديث يوم الدار): وفقاً لما ورد في التواريخ الإسلامية، أمر النبي في السنة الثالثة بدعوته الأقرين من عشيرته، فدعا النبي صلى الله عليه وآله «عشيرته» إلى بيت عمه أبي طالب، وكانوا في ذلك اليوم حوالي أربعين رجلاً. مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦١

وبعد أن تناولوا الطعام، قال صلى الله عليه وآله: «يا بني عبد المطلب، إنني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم بخير الدنيا والآخرة... وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأياكم يؤازرنى على أمرى هذا، على أن يكون أخى ووصيى وخليفتى فيكم؟» فأحجم القوم عنها غير على، وكان أصغرهم (سنناً)، فقال: «يا نبي الله، أنا أكون وزيرك عليه»، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله برقبته، وقال: «إن هذا وصيى وخليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا».

هَيْلٌ أَنْبَتُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلَ الشَّيَاطِينُ (٢٢١) تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (٢٢٢) يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ (٢٢٣) وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ (٢٢٧)

هذه الآيات - محل البحث - هي آخر الآيات من سورة الشعراء، تعود ثانية لتردد على الإتهام السابق - من قبل الأعداء - بأن القرآن من إلقاء الشياطين، ترددهم بيان أحاذ بليغ مفحم، فنقول: «هَيْلٌ أَنْبَتُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلَ الشَّيَاطِينُ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ». أى الكاذب المذنب، حيث يلقون إليهم ما يسمعون مع إضافة أكاذيب كثيرة عليه «يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ» (١). وملخص الكلام أن ما تلقيه الشياطين له علائم واضحة، ويمكن معرفته بعلائمه أيضاً. فالشيطان موجود مؤذ ومخرب، وما يلقىه يجرى في مسير الفساد والتخريب، وأتباعه هم الكذابين المجرمون، وليس شيء من هذه الأمور ينطبق على القرآن، ولا على مبلغه، وليس فيها أى شبه بهما.

وفي الآية الرابعة - من الآيات محل البحث - يرد القرآن على إتهام آخر كان الكفار يرمون به النبي فيدعونه شاعراً، كما في الآية (٥) من سورة الأنبياء: «بَلْ هُوَ شَاعِرٌ». وربما

(١) «أفَّاك»: من «الإفك» والإفك هو الكذب الكبير، فمعنى الأفلاك من يكذب كثيراً أكاذيب كبيرة... و «أثيم»: من مادة «إثم» على وزن (إسم) ومعناه فى الأصل: العمل الذى يؤخر صاحبه عن الثواب، ويطلق عادة على الذنب، فالأثيم هو المذنب.

دعوه بالشاعر المجنون، كما جاء في الآية (٣٦) من سورة الصافات:

«وَيَقُولُونَ أَأَنَّا لَتَارِكُوا آلَهُنَّ إِنَّا لَشَاعِرٌ مِّمَّنُّونَ».

فالقرآن يردهم هنا ببيان بليغ منطقي، بأن منهج النبي يختلف عن منهج الشعراء؛ فالشعراء يتحركون في عالم من الخيال، وهو يتحرك على أرض الواقع والواقعات، لتنظيم العالم الإنساني.

والشعراء يبحثون عن العيش واللذة والغزل (كما هي الحال بالنسبة لشعراء ذلك العصر في الحجاز خاصة حيث يظهر ذلك من أشعارهم بوضوح).

ولذا فإن أتباعهم هم الضالون: «وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ».

ثم يضيف القرآن على الجملة آفة الذكر معقبا: «أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ».

فهم غارقون في أختيلتهم وتشبيهاتهم الشعرية، حتى أن القوافي تجرهم إلى هذا الاتجاه أو ذاك، ويهيمون معها في كل واد.

ومتى سخطوا على أحد هجوه هجواً مرةً وأنزلوه في شعرهم إلى أسفل السافلين، وإن كان موجوداً سماوياً.

ثم إن الشعراء عادةً هم رجال خطابة وجماهير لا أبطال قتال، وكذلك أصحاب أقوال لا أعمال، لذلك فإن الآية التالية تضيف فتقول عنهم: «وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ».

غير أن النبي الكريم صلى الله عليه وآله رجل عمل من قرنه إلى قدمه، وقد اعترف بعزيمه الراسخ واستقامته العجيبة حتى أعداؤه، فأين الشاعر من النبي صلى الله عليه وآله.

ولما كان بين الشعراء اناس مخلصون هادفون وأهل أعمال لا أقوال، ودعاة نحو الحق والصدق «وإن كان مثل هؤلاء الشعراء قليلاً يومئذ». فالقرآن من أجل أن لا يضيع حق هؤلاء الشعراء المؤمنين المخلصين الصادقين، استثناهم عن بقية الشعراء، فقال عنهم: «إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ».

هؤلاء المستثنون من الشعراء لم يكن هدفهم الشعر فحسب، بل يهدفون في شعرهم أهدافاً الهيئية وإنسانية، ولا يغرقون في الأشعار فيغفلون عن ذكر الله، بل كما يقول القرآن: «وَذَكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا».

وأشعارهم تذكر الناس بالله أيضاً... وإذا ما ظلموا كان شعرهم انتصاراً للحق «وَأَن تَصْرُوهُ مِن بَعْدِ مَا ظَلَمُوا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٣

وهكذا فقد بين القرآن أربع صفات للشعراء الهادفين، وهي الإيمان، والعمل الصالح، وذكر الله كثيراً، والانتصار للحق من بعدما ظلموا، مستعينين بشعرهم في الذب عنه.

وحيث إن معظم آيات هذه السورة هو للتسليّة عن قلب النبي، والتسريّة عنه، وعن المؤمنين القلّة في ذلك اليوم في قبال كثرة الأعداء، وحيث إن كثيراً من آيات هذه السورة في مقام الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله ضد التهم الموجهة إليه من قبل أعدائه، وغير اللائقة به، فإن السورة تختتم بجملة ذات معنى غزير، وفيها تهديد لأولئك الأعداء الألداء، إذ تقول: «وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ».

«نهاية تفسير سورة الشعراء»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٥

٢٧ سورة النمل

محتوى السورة: محتوى هذه السورة - بصورة عامة - كمحتوى سائر السور المكية، فأكثر إهتمامها - من الوجهة الاعتقادية - ينصب على المبدأ والمعاد.

وأما من ناحية المسائل العملية والأخلاقية، فالقسم الكبير منها يتحدث عن قصص خمسة أنبياء كرام ومواجهاتهم لأممهم المنحرفة، لتكون هذه السورة تسلياً للمؤمنين القلة بمكة في ذلك اليوم، وفي الوقت ذاته تكون إنذاراً للمشركين المعاندين الظالمين ليروا عواقب أمرهم في صفحات تاريخ الظلمة الماضين، فلعلهم يحذرون ويرجعون إلى الرشد. وأحد خصائص هذه السورة هي بيان قسم مهم من قصة النبي سليمان عليه السلام وملكه سبأ، وكيفيه إيمانها بالتوحيد، وكلام الطير- كالهدهد، والحشرات كالنمل- مع سليمان عليه السلام.

وهذه السورة سميت سورة «النمل» لورود ذكر النمل فيها، والعجيب أنها سميت بسورة «سليمان» كما في بعض الروايات. وتحدث هذه السورة ضمناً عن علم الله غير المحدود، وهيمته وسلطانه على كل شيء في عالم الوجود، وحاكميته على عباده... والإلتفات إلى ذلك له أثره الكبير في المسائل التربوية للإنسان.

وتبدأ هذه السورة بالبشرى وتنتهي بالتهديد، بالبشرى للمؤمنين، والتهديد للناس بأن الله غير غافل عن أعمالكم. مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٦

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ومن قرأ طس سليمان كان له من الأجر عشر حسنات بعدد من صدق بسليمان وكذب به، وهود وشعيب وصالح وإبراهيم ويخرج من قبره وهو ينادى لا إله إلا الله».

طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ (١) هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ (٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخِسُونَ (٥) وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦)

القرآن منزل من لدن حكيم عليم: نواجه مرة أخرى- في بداية هذه السورة- الحروف المقطعة من القرآن «طس» وبملاحظة أن ما بعدها مباشرة هو الكلام عن عظمة القرآن، فيبدو أن واحداً من أسرار هذه الحروف هو أن هذا الكتاب العظيم والآيات البينات منه، كل ذلك يتألف من حروف بسيطة... وإن الجدير بالثناء هو الخالق العظيم الموجد لهذا الأثر البديع من حروف بسيطة كهذه الحروف.

ثم يضيف القرآن قائلاً: «تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ».

والإشارة للبعد بلفظ (تلك) لبيان عظمة هذه الآيات السماوية، والتعيرب (المبين) تأكيد على أن القرآن واضح بنفسه وموضح للحقائق أيضاً.

وفي الآية التالية وصفان آخران للقرآن إذ تقول: «هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ». لأنه إذا لم يكن في قلب الإنسان أدنى مرحلة من التقوى والتسليم والإيمان بالواقع، فإنه لا يتجه نحو الحق، ولا يبحث عنه، ولا يفيد من نور هذا الكتاب المبين. «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ».

وهكذا فإن اعتقاد المؤمنين راسخ في شأن المبدأ والمعاد، وإرتباط متين بالله وخلقه أيضاً... فالأوصاف المتقدمة تشير إلى اعتقادهم الكامل ومنهجهم العملي الجامع.

وتحدث الآية التالية عن الأشخاص في المقابلة للمؤمنين، وتصف واحدة من أخطر حالاتهم فتقول: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ». أي: حيارى في حياتهم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٧

فهم يرون الملوث نقياً، والقبيح حسناً، والعيب فخراً، والشقاء سعادةً وانتصاراً.

وهذا التغير في القيم، أو اضطراب المعايير في نظر الإنسان، يؤدى إلى الحيرة في متاهات الحياة... وهو من أسوأ الحالات التي تصيب الإنسان.

ثم تبين الآية التالية نتيجة «تزيين الأعمال» وعاقبة أولئك الذين شغفوا بها فتقول: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ». فهم في الدنيا سيمسون حيارى آيسين نادمين، وسينالون العقاب الصارم في الآخرة «وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ».

وأما الآية الأخيرة- من الآيات محل البحث- فهي بمثابة إكمال البيانات السابقة في صدد عظمة محتوى القرآن، ومقدمة لقصص الأنبياء التي تبدأ بعدها مباشرة فتقول: «وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ عَلِيمٍ».

وبالرغم من أن الحكيم والعليم كلاهما إشارة إلى علم الله سبحانه، إلا أن الحكمة تبين الجوانب العملية، والعلم يبين الجوانب النظرية ... وبتعبير آخر: إن العليم يخبر عن علم الله الواسع، والحكيم يدل على الهدف من إيجاد هذا العالم وإنزال القرآن على قلب النبي (محمد صلى الله عليه وآله).

إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا سَاتِيكُمْ مِنْهَا بَخْرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٧) فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٨) يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٩) وَآتَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَى الْمُؤْمِنِينَ (١٠) إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ يَدُلُّ حُدُونا بَعْدَ سُوءٍ فَأِنَّى غَفُورٌ رَحِيمٌ (١١) وَأَدْخَلَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (١٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٣) وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٤)

موسى يقتبس النور: يجرى الكلام في هذه السورة- كما أشرنا من قبل- بعد بيان أهمية القرآن، عن قصص خمسة أنبياء عظام، وذكر امهم، والوعد بانتصار المؤمنين وعقاب

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٨

الكافرين. فأول نبى تتحدث عنه هذه السورة، هو موسى عليه السلام أحد الأنبياء «أولى العزم» وتبدأ مباشرة بأهم نقطة من حياته وأكثرها «حساسية» وهي لحظة نزول الوحي على قلبه وإشراقه فيه، وتكليم الله إياه، إذ تقول الآية: «إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنستُ نارا» (١). أى رأيت نارا من بعيد، فامكثوا هنيهة «سَاتِيكُمْ مِنْهَا بَخْرٌ أَوْ آتِيكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» (٢).

في تلك الليلة الظلماء، كان موسى عليه السلام يسير بزوجه بنت النبي شعيب عليه السلام فى طريق مصر- وفى الصحراء- فهبت ريح باردة، وكانت زوجته (أهله) مقرباً، فأحست بوجع الطلق، فوجد موسى عليه السلام نفسه بمسيس الحاجة إلى النار لتصطفى المرأة بها، لكن لم يكن فى الصحراء أى شىء، فلما لاح له النار من بعيد ستر كثيراً، وعلم أنها دليل على وجود إنسان أو أناس، فقال: سأمضى وآتيكم منها بخبر أو شعله للتدفئة.

وهكذا فقد ترك موسى أهله فى ذلك المكان واتجه نحو «النار» التى آنسها «فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

إن المراد من «مَنْ فِي النَّارِ» هو موسى نفسه، حيث كان قريباً منها ومن الشجرة الخضراء التى عندها، فكأن موسى كان فى النار نفسها؛ وأن المراد من «مَنْ حَوْلَهَا» هم الملائكة المقربون من ساحة القدس، الذين كانوا يحيطون بتلك الأرض المقدسة فى ذلك الوقت. أو أن المراد- على عكس ما ذكرنا آنفاً- فمن فى النار: هم الملائكة المقربون، ومن حولها هو موسى عليه السلام.

ومرة أخرى نودى موسى بالقول: «يَمُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

وذلك يزول عن موسى عليه السلام كل شك وتردد، وليعلم أن الذى يكلمه هو رب العالمين، لا شعله النار ولا الشجرة، الرب القوى العزيز الذى لا يغلب ولا يُقهر، والحكيم ذو التدبير فى جميع الامور.

وحيث إن الصدع بالرسالة والبلاغ (وأية رسالة وبلاغ ... رسالة إلى جبار مستكبر ظالم

(١) «آنست»: فعل ماض مأخوذ من «الإيناس»، وهو الرؤية المقرونة بالراحة النفسية والسكينة وإنما يطلق على الإنسان فهو لهذا المعنى.

(٢) «الشهاب»: هو النور الذي ينبثق من النار كالعمود، وكل نور له عمود يدعى شهاباً؛ و «القبس»: شعله من النار تنفصل عنها؛ و «تصطلون»: من الاصطلاء وهو الدفء (بالنار).

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٦٩

كفرعون)، لا بد له من قوة ظاهرية وباطنية وسند على حقايقته ... فلذا أمر موسى بأن يلقي عصاه: «وَأَلْقِ عَصَاكَ». فألقى موسى عصاه، فتبدلت ثعباناً عظيماً، فلما رآه موسى يتحرك بسرعة كما تتحرك الحيات الصغار خاف وولّى هارباً ولم يلتفت إلى الوراء: «فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ».

وهنا خوطب موسى مرة أخرى أن «يُمُوسَى لَاتَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ».

ومعنى الآية: أن يا موسى إنك بين يدي خالق الوجود العظيم، والحضور عنده ملازم للأمن المطلق.

إلا أن في الآية التالية استثناءً للجملة السابقة، حيث ذكره القرآن فقال: «إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ».

أما المعجزة الثانية التي أمر موسى أن يظهرها، فهي اليد البيضاء، إذ تقول الآية: «وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ». والقييد «مِنْ غَيْرِ سُوءٍ» إشارة إلى أن بياض اليد ليس من برص ونحوه، بل هو بياض نوراني يلفت النظر، وهو بنفسه كاشف عن إعجاز وأمر خارق للعادة.

ومن أجل أن يظهر الله تعالى عنايته ولطفه لموسى أكثر، وكذلك منح الفرصة للمنحرفين للهداية أكثر، قال لموسى بأن معاجزه ليست منحصرة بالمعجزتين الآفتين، بل «فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ».

ويستفاد من ظاهر الآية أن هاتين المعجزتين من مجموع تسع معاجز «آيات» موسى المعروفة.

وأخيراً تعبأ موسى بأقوى سلاح - من المعاجز - فجاء إلى فرعون وقومه يدعوهم إلى الحق، كما يصرح القرآن بذلك في آية التالية: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ».

ومعلوم أن هذا الإتهام «بالسحر» لم يكن خاصاً بموسى عليه السلام، بل اتخذته المعاندون ذريعاً بوجه الأنبياء، ليجعلوه سداً في طريق الآخرين، والإتهام بنفسه دليل واضح على عظمه ما يصدر من الأنبياء خارقاً للعادة، بحيث اتهموه بالسحر.

ومما يلفت النظر أن القرآن يضيف في آخر الآية - محل البحث - قائلاً: إن هذا الإتهام لم

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٠

يكن لأنهم كانوا في شك من أمرهم ومترددين فعلاً، بل كذبوا معاجز أنبيائهم مع علمهم بحقايقها، «وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا». ويستفاد من هذا التعبير أن الإيمان له حقيقة وواقعية غير العلم واليقين، ويمكن أن يقع الكفر جحوداً وإنكاراً بالرغم من العلم بالشيء.

إن القرآن يذكر عاقبة فرعون وقومه على أنه درس من دروس العبرة، في جملة موجزة ذات معنى كبير، مشيراً إلى هلاكهم وغرقهم فيقول: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ».

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (١٦)

حكومة داود وسليمان عليهما السلام: بعد الكلام عن جانب من قصة موسى عليه السلام في هذه السورة، يتحدث القرآن الكريم عن نبين آخرين من الأنبياء العظام، وهما «داود» و «سليمان» ... لأنهما كانا من أنبياء بني إسرائيل أيضاً، وما نجده من اختلاف بين تاريخهما وتاريخ الأنبياء الآخرين، هو أنهما - ونتيجة للاستعداد الفكري وملائمة المحيط الاجتماعي في عهدهما - قد وقفا إلى تأسيس حكومة عظيمة، وأن ينشرا بالاستعانة والإفادة من حكومتها دين الله، لذلك لا نجد هنا أثراً أو خبراً عما عهدناه من أسلوب في تلك الآيات التي كانت تتكلم عن الأنبياء الآخرين، وهم يواجهون قومهم المعاندين، وربما نالوا منهم الأذى والطرده والخراج من مدنهم

وقراهم .. فالتعابير هنا تختلف عن تلكم التعابير تماماً.

والطريف، أن القرآن يبدأ من مسألة «موهبة العلم» التي هي أساس الحكومة الصالحة القويّة، فيقول: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا». إن من الواضح أن العلم هنا له مفهوم واسع، بحيث يحمل في نفسه علم التوحيد والإعتقادات المذهبية والقوانين الدينية، وكذلك علم القضاء، وجميع العلوم التي ينبغي توفرها لمثل هذه الحكومة الواسعة القويّة.

وبعد هذه الجملة ينقل القرآن ما قاله داود وسليمان من ثناء لله: «وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧١

والذي يجلب النظر هو أنه بعد بيان هذه الموهبة الكبيرة «العلم» يجرى الكلام عن «الشكر» مباشرة ... ليكون واضحاً أن كل نعمة لابد لها من شكر، وحقيقته الشكر هو أن يستفاد من النعمة في طريقها الذي خلقت من أجله.

و الآية التالية تتكلم على إرث سليمان أباه داود أولاً، فتقول: «وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ».

ثم تضيف الآية حاكية عن لسان سليمان: «وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ».

وجملة «أُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» فهي تشمل جميع الأسباب اللازمة لإقامته حكومة الله في ذلك الحين.

وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٧) حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ (١٩)

سليمان في وادي النمل: يستفاد من آيات هذه السورة، وآيات سورة سبأ أن «حكومة سليمان» لم تكن حكومة مألوفة، بل حكومة مقرونة بما يخرق العادات والمعجزات المختلفة. وفي الحقيقة فإن الله أظهر قدرته في هذه الحكومة وما سخر لها من قوى.

وأول ما تبدأ هذه الآيات بقوله تعالى: «وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ».

وكانت جنوده من الكثرة بحيث كانوا عند التحرك والمسير، ومن أجل المحافظة على النظم، يؤمرون بتوقف مقدمة الجيش لتلحق بها مؤخرتها «فَهُمْ يُوزَعُونَ». «يوزعون»: من مادة «وزع» على وزن (جمع) ومعناه الحبس والإيقاف، وهذا التعبير متى اطلق على الجند أو الجيش فيعني إيقاف أول الجيش ليلحق به آخره، لكي يحفظ من التشتت والتفرق.

ويستفاد من هذا التعبير أن جنود سليمان كانوا كثيرين، كما كانوا يخضعون للنظم والانضباط.

«حشر»: فعل ماض من «الحشر» على وزن (نشر) ومعناه إخراج الجمع من المقر، والتحرك نحو الميدان للقتال، وما أشبه ذلك.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٢

إن سليمان عليه السلام تحرك بهذا الجيش العظيم «حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ» فخاطبت نملته من النمل أصحابها محذرة، كما تقول الآية: «قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

ويستفاد ضمناً من جملة «لَا يَشْعُرُونَ» أن عدل سليمان كان ظاهراً وواضحاً حتى عند النمل، لأن مفهوم الجملة أن سليمان وجنوده لو شعروا والتفتوا إلى النملة الضعيفة لما وطأوها بالأقدام، وإذا وطأوها فإنما ذلك لعدم توجههم والتفاتهم: «فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا».

إن سليمان توجه نحو الله .. داعياً وشاكراً مستريداً فضله: «وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ» «١». أي، لتكون لي القدرة أن استعمل هذه النعم جميعها في ما أمرتني به وما يرضيك، ولا أنحرف عن طريق الحق «وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ». وهو يشير إلى أن بقاء هذا الجيش وحكومته وتشكيلاتها الواسعة غير مهم بالنسبة إليه، بل المهم أن يؤدي عملاً صالحاً يرضى به ربه.

والطلب الثالث الذي طلبه سليمان من ربه، كما حكته الآية، هو أن يجعله في زمرة الصالحين، إذ قال: «وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ».

وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (٢٠) لَأَعَدُّنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٢١) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَ جِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنِيٍّ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَنْ يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٢٦)

قصة الهدهد وملكه سبأ: يشير القرآن في هذا القسم من الآيات إلى جانب آخر من

(١) «أوزعني»: من مادة «إيزاع» ومعناه «الإلهام»، أو المنع عن الانحراف، أو إيجاد العشق والتعلق، إلماً أن أغلب المفسرين إختاروا المعنى الأول.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٣

حياة سليمان عليه السلام المدهشة، وما جرى له مع الهدهد وملكه سبأ. فيقول أولاً: «وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ». وهذا التعبير يكشف هذه الحقيقة، وهي أنه كان يراقب وضع البلاد بدقة، وكان يتحرى أوضاع حكومته لئلا يخفى عليه غياب شيء، حتى لو كان طائراً واحداً.

وما لا شك فيه أن المراد من الطير هنا هو الهدهد، لأن القرآن يضيف استمراراً للكلام: «فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ».

ومن أجل أن لا يكون حكم سليمان غائباً، وأن لا يؤثر غياب الهدهد على بقاء الطيور، فضلاً عن الأشخاص الذين يحملون بعض المسؤوليات، أضاف «سليمان» قائلاً: «لَأَعَدُّنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ».

إن سليمان قبل أن يقضى غائباً ذكر تهديده اللازم في صورة ثبوت التخلف.

وقد برهن «سليمان» ضمناً أنه - حتى بالنسبة للطائر الضعيف - يستند في حكمه إلى المنطق والدليل، ولا يعول على القوة والقدرة أبداً. ولكن غيبة الهدهد لم تطل «فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ» عاد الهدهد وتوجه نحو سليمان: «فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنِيٍّ يَقِينٍ».

إن الهدهد أخذ يفصل لسليمان ما حدث فقال: «إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ».

لقد بين الهدهد لسليمان بهذه الجمل الثلاث جميع مواصفات هذا البلد تقريباً، وأسلوب حكومته.

ولما سمع سليمان عليه السلام كلام الهدهد غرق في تفكيره، إلماً أن الهدهد لم يمهل طويلاً فأخبره بخبر جديد ... خبر عجيب، مزعج مريب، إذ قال: «وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ». فكانوا يفخرون بعبادتهم للشمس وبذلك صددهم الشيطان عن طريق الحق «فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ». وقد غرقوا في عبادة الأصنام حتى أتى لا أتصور أنهم يثوبون إلى رشدهم «فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ».

ثم أضاف الهدهد قائلاً: «أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَ مَا تُعْلِنُونَ».

«خبء»: على وزن (صبر) معناها كل شيء خفي مستور، وهي هنا إشارة إلى إحاطة علم الله بغيب السماوات والأرض، أي:

لِمَ لَا يَسْجُدُونَ لِلَّهِ الَّذِي يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٤

والأرض وما فيهما من أسرار؟! وأخيراً يختتم الهدهد كلامه هكذا: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ».

وهكذا يختتم الهدهد كلامه مستنداً إلى «توحيد العبادة» و «توحيد الربوبية» لله تعالى، مؤكداً نفى كل أنواع الشرك عنه سبحانه.

قَالَ سَيَنْظُرُ أَ صَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧) اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَاَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ (٢٨) قَالَتْ يَا أَيُّهَا

الْمَلَأَ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَنْ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣) قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٣٤) وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمَنْ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ (٣٥)

الملوك مفسدون مخزبون: لقد أصغى سليمان عليه السلام إلى كلام الهدهد بكل اهتمام .. وفكر ملياً، فينبغي أن لا يكتبني بمخبر واحد، بل ينبغى التحقيق أكثر في هذا المجال: «قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

سليمان عليه السلام لم يتهم الهدهد فيحكم عليه بالكذب .. ولم يصدق كلامه دون أى دليل ... بل جعله أساساً للتحقيق. وعلى كل حال، فقد كتب كتاباً وجزياً ذا مغزى عميق، وسلمه إلى الهدهد وقال له: «أَذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ».

يستفاد من التعبير «أَلْقَهُ إِلَيْهِمْ» أن يلقي الكتاب عندما تكون ملكة سبأ حاضرة بين قومها، لثلاث تعبت به يد النسيان أو الكتمان. فتحت ملكة سبأ كتاب سليمان، وأطلعت على مضمونه، وحيث إنها كانت من قبل قد سمعت بأخبار سليمان واسمه، ومحتوى الكتاب يدل على إقدامه وعزمه الشديد في شأن بلده «سبأ»، لذلك فكرت ملياً، ولما كانت في مثل هذه المسائل المهمة تستشير من حولها، لذلك

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٥

فقد دعتهم وتوجهت إليهم و «قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ».

وقول الملكة: «إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ» «أى قيم» لعله لمحتواه العميق، أو لأنه بديء باسم الله أو لأنه ختم بامضاء صحيح. ثم إن «ملكة سبأ» تحدثت عن مضمون الكتاب فقالت: «إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ». وبعد أن ذكرت ملكة سبأ محتوى كتاب سليمان لقومها ... التفتت إليهم و «قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ». «أفتوني»: مشتقة من «الفتوى»، معناها فى الأصل الحكم الدقيق والصحيح فى المسائل الغامضة والصعبة. «تشهدون»: مأخوذ من مادة «الشهود»، ومعناه الحضور ... الحضور المقرون بالتعاون والمشورة.

فالتفت إليها أشراف قومها وأجابوها على استشارتها ف «قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ».

وهكذا فقد أظهروا لها تسليمهم وإذعانهم لأوامرها ... كما أبدوا رغبتهم فى الإعتماد على القوة والحضور فى ميدان الحرب.

ولما رأت الملكة رغبتهم فى الحرب خلافاً لميلها الباطنى، ومن أجل إطفاء هذا الظماً وأن تكون هذه القضية مدروسة، لذلك:

«قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً».

ولمزيد التأكيد أردفت قائلة: «وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ».

إن ملكة سبأ التى كانت بنفسها ملكة، كانت تعرف نفسية الملوك بصورة جيدة، وأن سيرتهم تتلخص فى شيئين:

١- الإفساد والتخريب.

٢- وإذلال الأعزة ...

لأنهم يفكرون فى مصالحهم الشخصية، ولا يكثرثون بمصالح الامه وعزتها ... وهما على طرفى نقيض دائماً.

ثم أضافت الملكة قائلة: علينا أن نختبر سليمان وأصحابه، لنعرف من هم وما يريدون؟ وهل سليمان نبى حقاً أو ملك؟ وهل هو مصلح

أو مفسد؟ وهل يذل الناس أم يحترمهم ويعزهم؟

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٦

فينبغى أن نرسل شيئاً إليه «وَإِنِّي مُرْسَلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَاطِرَةٌ بِمَنْ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ».

فالملوک لهم علاقة شديدة بالهدايا، ونقطه الضعف كانه في هذا الأمر، فيمكن أن يدعونا للهدايا الغالية ... فإذا أذعن سليمان بهذه الهدية فهو ملك، وينبغي أن نواجهه بالقوة فنحن أقوىاء ... وإذا ألح على كلامه ولم يكثر بنا فهو نبي، وفي هذه الصورة ينبغي التعامل معه بالحكمة والتعقل.

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ (٣٦) اِرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ (٣٧)

لا تخدعوني بالمال: خرج رسل ملكه سباً بقافلة الهدايا وتركوا اليمن وراءهم قاصدين مقر سليمان «في الشام» ظناً منهم أن سليمان سيكون مسروراً بمشاهدته هذه الهدايا ويرحب بهم، لكن ما إن حضروا عند سليمان حتى رأوا ما يدهش الإنسان ... فإن سليمان عليه السلام مضافاً إلى عدم استقباله واكتراثه بتلك الهدايا، «قَالَ أَتُمِدُّونَ بِمَالٍ فَمَا آتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُمْ».

فما قيمة المال، ازاء مقام النبوة والعلم والهداية والتقوى، «بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ». وهكذا فقد حقر سليمان عليه السلام معيار القيم عندهم، وأوضح لهم أن هناك معياراً آخر للقيمة تضمحل عنده معايير عبدة الدنيا ولا تساوى شيئاً.

ومن أجل أن يريهم سليمان موقفه الحاسم من الحق والباطل، قال لرسول ملكه سباً الخاص: «ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ».

لأنهم لم يدعوا- ويسلموا- للحق ... وإنما قصدوا الخداع والمكر.

قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣٨) قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ (٣٩) قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٧

حضور العرش في طرفه عين: وأخيراً عاد رسل ملكه سباً بعد أن جمعوا هداياهم وأمتعتهم إلى بلدهم، وأخبروا ملكه سباً بما شاهدوه من عظمة ملك سليمان عليه السلام المعجز وجهازه الحكومي، وكل واحد من هذه الامور دليل على أنه لم يكن كسائر الأفراد ولا ملكاً كسائر الملوک، بل هو مرسل من قبل الله حقاً، وحكومته حكومه إلهية. لذلك قررت الملكة أن تأتي بنفسها مع أشرف قومها إلى سليمان، ويتفحصوا عن هذه المسألة ليتعرفوا على دين سليمان؟

فوصل هذا الخبر- عن أي طريق كان- إلى سمع سليمان عليه السلام، فعزم على إظهار قدرته العجيبة- والملكة وأصحابها في الطريق إليه- ليعرفهم قبل كل شيء على إعجازه، ليدعوا له ويسلموا لدعوته ... لذلك التفت إلى من حوله و «قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ».

وهنا أظهر شخصان استعدادهما لإمتثال طلب سليمان عليه السلام، وكان أمر أحدهما عجباً والآخر أعجب، إذ «قَالَ عِفْرِيْتُ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ». فهذا الأمر على يسير، ولا أجد فيه مشقة، كما أنني لا أخونك أبداً، لأنني قادر على ذلك «وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ». «العفريت»: معناه المارد الخيث.

وجمله «وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ» المشفوعة بالتأكيدات من عدّه جهات تشر إلى احتمال خيانه هذا العفريت ... لذلك فقد أظهر الدفاع عن نفسه بأنه أمين وفيّ.

أما الشخص الآخر فقد كان رجلاً صالحاً له علم ببعض ما في الكتاب، ويتحدث عنه القرآن فيقول: «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ».

فلما وافق سليمان عليه السلام على هذا الأمر، أحضر عرش بلقيس بطرفة عين بالإستعانة بقوته المعنوية: «فَلَمَّا رآه مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا

مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ».

ثم أضاف قائلاً: «وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ».

الفرق بين «علم من الكتاب» و «علم الكتاب»: في كتاب ينايع المودة للقندوزي عن أبي سعيد الخدري قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وآله عن هذه الآية «قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ» قال: «ذاك وزير أخى سليمان بن داود عليه السلام». وسألته عن قول الله عز وجل «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» قال: «ذاك أخى على بن أبى طالب».

والإلتفات إلى الفرق بين «علم من الكتاب» الذى يعنى (العلم الجزئى) و «علم الكتاب»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٨

الذى يعنى (العلم الكلى)، يكشف البون الشاسع بين آصف وعلى عليه السلام.

نور الإيمان فى قلب الملكة: نواجه فى هذه الآيات مشهداً آخر، مما جرى بين سليمان عليه السلام وملكة سبأ فسلیمان من أجل أن يختبر عقل ملكة سبأ ودرائتها، ويهوىء الجوّ لإيمانها بالله، أمر أن يغيروا عرشها وينكروها ف «قَالَ نَكُرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ». والمراد من جملة «أَتَهْتَدِي» هى معرفة عرشها. «فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ» إن ملكة سبأ أجابت جواباً دقيقاً و «قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ».

ومع كل ذلك فإن ملكة سبأ استطاعت أن تعرف عرشها رغم كل ما حصل له من تغييرات ... فقالت مباشرة: «وَأَوْتَيْنَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ». أى: إذا كان مراد سليمان عليه السلام من هذه المقدمات هو اطلاعنا على معجزته لكى تؤمن به، فإننا كنا نعرف حقايتها بعلائم آخر ... كنا مؤمنين به حتى قبل رؤية هذا الأمر الخارق للعادة فلم تكن حاجة إلى هذا الأمر.

وهكذا فإن سليمان عليه السلام منعها «وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ» بالرغم من «إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ».

وفى آخر آية من الآيات محل البحث يجرى الكلام عن مشهد آخر من هذه القصة، وهو دخول ملكة سبأ قصر سليمان الخاص.

وكان سليمان عليه السلام قد أمر أن تصنع إحدى ساحات قصوره من قوارير، وأن يجرى الماء

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٧٩

من تحتها، فلما وصلت ملكة سبأ إلى ذلك المكان «قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ» (١). فلما رآته ظنته نهراً جارياً فرفعت ثوبها لتمر وسط الماء وهى متعجبة عن سبب وجود هذا الماء الجارى، وكما يقول القرآن: «فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِيهَا» (٢).
إلما أن سليمان عليه السلام التفت إليها و «قَالَ إِنَّهُ صَيْرُوحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ» (٣). فلا- حاجة إلى الكشف عن ساقيك فلا يمس الماء قدميك.

وهنا ينقدح سؤال هام، وهو أن سليمان نبي كبير، فلم كان لديه هذا البناء الفائق والتزين الرائع ... والصرح الممرّد والبساط الممهّد .. وصحيح أنه كان حاكماً مبسوط اليد، إلّا أن الأنسب أن يكون له بساط مألوف كسائر الأنبياء.

إلّا أنه، ما يمنع أن يرى سليمان ملكة سبأ التى كانت ترى قدرتها وعظمتها بالعرش والتاج والقصر العظيم والزينة .. يريها هذا المشهد لتدعن لأمره، ولتحتقر ما عندها؟! وهذه نقطة انعطاف فى حياتها لتعيد النظر فى ميزان القيم ومعيار الشخصية.

وبتعبير آخر: إن هذه النفقات المالية إزاء أمن منطقته واسعه، وقبول دين الحق، والوقايه عن الإنفاق المفرط للحرب- لم تكن أمراً مسرفاً. ولذلك حين رأت ملكة سبأ هذا المشهد الرائع: «قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

لقد كنت فى ما مضى أسجد للشمس وأعبد الأصنام، وكنت غارقة فى الزينة والتجميل، وكنت أتصور أنى أعلى الناس فى الدنيا. أما الآن فإننى أفهم أنني ضعيفة جداً.

رباه ... أتيت إليك مسلمة مع سليمان نادمة عن سالف عمرى، خاضعة عنقى إليك.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ تَمُودَ أَهْلَهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ (٤٥) قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْ لَا

تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٤٦) قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ (٤٧)

(١) «صرح»: معناه الفضاء الواسع، وقد يأتي بمعنى البناء العالى والقصر وفى الآية المشار إليها آنفاً معناه ساحة القصر أى فضاءه الواسع ظاهراً.

(٢) «اللجة»: فى الأصل مأخوذة من اللجاج، ومعناه الشدة، ثم أطلق على ذهاب الصوت وإيابه فى الحجرة تعبير «لجة»، أما الأمواج المتلاطمه فى البحر فتسمى «لجة» وهى هنا فى الآية بهذا المعنى الأخير.

(٣) «الممرد»: معناه الصافى؛ و«القوارير»: جمع قارورة وهى الزجاجه.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٠

صالح فى ثمود: بعد ذكر جانب من قصص موسى وداود وسليمان عليهم السلام فإن هذه الآيات تتحدث عن قصة رابع نبى - وتبين جانباً من حياته مع قومه - فى هذه السورة، وهى ما جاء عن صالح عليه السلام وقومه «ثمود»، إذ يقول القرآن: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ». وكما قيل من قبل: إن التعبير «أخاهم» الوارد فى قصص كثير من الأنبياء، هو إشارة إلى منتهى المحبة والإشفاق من قبل الأنبياء لأممهم، كما أن فى بعض المواطن إشارة إلى علاقة القربى «الروابط العائليّة للأنبياء بأقوامهم». إن جميع دعوة هذا النبى العظيم تلخصت فى جملة «أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ». أجل، إن عبادة الله هى عصاره كل تعليمات رسل الله تعالى. ثم يضيف قائلاً: «فَإِذَا هُمْ قَرِيبًا يَخْتَصِمُونَ».

فأخذ صالح عليه السلام يندرهم ويحذرهم من عذاب الله الأليم ... إلّا أنّ اولئك لم يستجيبوا له وتمسكوا بعنادهم وطلبوا منه باصرار أن إذا كنت نبياً فليحل بنا عذاب الله «وقد صرحت الآية (٧٧) من سورة الأعراف بأنهم سألوها نبيهم نزول العذاب»: «وَقَالُوا يَا صَالِحُ إِنَّا بِمَا تَعْدُنَا إِن كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

إلّا أنّ صالحاً أجابهم محذراً و «قَالَ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ».

إنّ عذاب الله إذا حلّ بساحتكم ختم حياتكم ولا يبقى مجال للإيمان.

تعالوا واختبروا صدق دعوتى فى البعد الإيجابى والأمل فى رحمته الله فى ظل الإيمان به «لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ».

وهذا أمر عجيب حقاً أن يريد الإنسان اختبار صدق دعوة نبيه عن طريق العقاب المهلك، لا عن طريق طلب الرحمة.

إنّ هؤلاء القوم المعاندين بدلاً من أن يصغوا لنصيحه نبيهم ويستجيبوا له، واجهوه باستنتاجات واهية وكلمات باطله ... منها أنّهم «قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَنْ مَعَكَ». ولعل تلك السنه كانت سنه قحط وجدب، فقالوا: إنّ هذا البلاء والمشاكل والعقبات كلها بسبب قدوم هذا النبى وأصحابه.

لكنه ردّ عليهم و «قَالَ طَائِرُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ» فهو الذى يتليكم بسبب أعمالكم بهذه المصائب التى أدت إلى هذه العقوبات.

فى الحقيقة إنّ ذلك اختبار وامتحان إلهى كبير لكم، أجل: «بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨١

هذه امتحانات وفتن إلهية ... هذه إنذارات وتنبهات ليتنبه - من فيهم اللياقه من غفلتهم، ويصلحوا انحرافهم ويتجهوا نحو الله.

وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ (٤٨) قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٤٩) وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَمَّا يَشْعُرُونَ (٥٠) فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاَهُمْ وَقَوْمَهُمْ

أَجْمَعِينَ (٥١) فَمَلَكَ بِئُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥٢) وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٥٣)

تآمر تسعة رهط فى وادى القرى: نقرأ هنا قسماً آخر من قصة صالح وقومه، حيث يكمل القسم السابق ويأتى على نهايته، وهو ما يتعلق بالتآمر على قتل صالح من قبل تسعة «رهط» من المنافقين والكفار، وفشل هذا التآمر فى وادى القرى منطقة النبى صالح وقومه. يقول

القرآن في هذا الشأن: «وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ». «الرهط»: يعنى فى اللغة الجماعة التى تقل عن العشرة أو تقل عن الأربعين، فإنه يتضح أن كلاً من المجموعات الصغيرة التسع كان لها منهج خاص، وقد اجتمعوا على أمر واحد، وهو الإفساد فى الأرض والاخلال بالمجتمع (ونظامه الاجتماعى) ومبادئ العقيدة والأخلاق فيه.

ولا ريب أن ظهور «صالح» بمبادئه السامية قد ضيق الخناق عليهم، ولذلك تقول الآية التالية فى حقهم: «قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ».

الطريف أن اولئك كانوا يقسمون بالله، ويعنى هذا أنهم كانوا يعتقدون بالله، مع أنهم يعبدون الأصنام، وكانوا يبدؤون باسمه فى المسائل المهمة.

جاء فى التواريخ أن المؤامرة كانت بهذه الصورة، وهى أن جبلاً كان فى طرف المدينة وكان فيه غار يتعبد فيه صالح، وكان يأتيه ليلاً بعض الأحيان يعبد الله فيه ويتضرع إليه،

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٢

فصموا على أن يكمنوا له هناك ليقتلوه عند مجيئه فى الليل، ويحملوا على بيته بعد استشهاده ثم يعودوا إلى بيوتهم، وإذا سئلوا أظهروا جهلهم وعدم معرفتهم بالحادث.

فلما كمنوا فى زاوية واختبأوا فى ناحية من الجبل انثالت صخور من الجبل تهوى إلى الأرض، فهوت عليهم صخرة عظيمة فأهلكتهم فى الحال. لذلك يقول القرآن فى الآية التالية: «وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

ثم يضيف قائلاً: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ».

وكلمة «مكر» تستعملها العرب فى كل حيلة وتفكير للتخلص أو الإهتداء إلى أمر ما .. ولا- تختص بالامور التى تجلب الضرر، بل تستعمل بما يضر وما ينفع .. فإذا نسبت هذه الكلمة إلى الله فإنها تعنى إحباط المؤامرات الضارة من قبل الآخرين.

ثم يعبر القرآن عن كفيته هلا-كهم وعاقبه أمرهم فيقول: «فَتَلَكَّ بِيُوتَهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا». أجل، لقد أذهبهم ريح عتوهم وظلمهم، واحترقوا بنار ذنوبهم فهلكوا جميعاً «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ».

إلا أن الأخضر لم يحترق باليابس، والأبرياء لم يؤخذوا بجرم الأشقياء ... بل سلم المتقون «وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ».

وَلَوْ طَأَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٥٤) أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَاتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (٥٥)

انحراف قوم لوط: إن النبى الخامس الذى وردت الإشارة إليه فى هذه السورة: نبى الله العظيم «لوط». يقول القرآن فى الآيتين محل البحث أولاً: «وَلَوْ طَأَّ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ». «الفاحشة»: تعنى الأعمال السيئة القبيحة، والمراد منها الإنحراف

الجنسى وعمل اللواط المخزى.

ثم يضيف القرآن قائلاً: «أَلَيْسَ لَكُمْ لَتَاتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ».

ولكى يتضح بأن الدافع على هذا العمل هو الجهل، فالقرآن يضيف قائلاً: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٣

تجهلون بالله، وتجهلون هدف الخلق ونواميسه، وتجهلون آثار هذا الذنب وعواقبه الوخيمة.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهَرُونَ (٥٦) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلاَّ امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا هَا مِنْ الْغَابِرِينَ

(٥٧) وَآمَظْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ (٥٨) قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَ سَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللهُ خَيْرٌ أَمْ يُشْرِكُونَ (٥٩)

عندما تعدد الظهارة عيباً كبيراً: والآن، لنستمع إلى جواب هؤلاء المنحرفين بماذا أجابوا منطق «لوط». يقول القرآن: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْتَهَرُونَ». فجوابهم كاشف عن انحطاطهم الفكرى والسقوط الأخلاقى

البعيد.

جاء في الروايات أن لوطاً كان يبلغ قومه حوالي ثلاثين عاماً وينصحهم، إلا أنه لم يؤمن به إلا أسرته وأهله باستثناء زوجته فإنها كانت من المشركين وعلى عقيدتهم.

بديهي أن مثل هؤلاء القوم لا أمل في إصلاحهم في عالم الدنيا، فينبغي أن يطوى «طومار» حياتهم، لذلك تقول الآية التالية في هذا الشأن: «فَأَنجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا مِنَ الْغَابِرِينَ» (١).

وبعد أن خرج آل لوط في الموعد المعين «سحر ليلة كانت المدينة غارقة فيها بالفساد» فلما أصبح الصباح نزلت عليهم الحجارة من السماء، وتزلزلت الأرض بهم، فدفنوا جميعاً تحت الحجارة والأنقاض، وإلى هذا تشير الآية التالية: «وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ».

وفي آخر آية من الآيات محل البحث، وبعد بيان ما جرى على لوط وقومه المنحرفين، يتوجه الخطاب إلى النبي الكريم «محمد صلى الله عليه وآله» ليستنتج مما سبق، فيقول له: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ».

الحمد والثناء الخاص لله، لأنه أهلك امماً مفسدين كقوم لوط، لثلاث تلوث الأرض من وجودهم.

ثم يضيف قائلاً: «وَسَلِّمْ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ».

سلام على موسى وصالح ولوط وسليمان وداود، وسلام على جميع الأنبياء والمرسلين

(١) «الغابرين»: جمع الغابر ومعناه هنا الباقي من الذاهبين من المكان.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٤

وعباد الله الصالحين، ومن والاهم بإحسان.

ثم يقول: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ».

أَمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٠) أَمْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًا وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَكْثَرُ هُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٦١) أَمْ يُحِبُّ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَدْكُرُونَ (٦٢) أَمْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُزِيلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَدْكُرُونَ (٦٣) أَمْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا تَدْكُرُونَ (٦٤)

أمع كل هذه الأدلة ما تزالون مشركين: في آخر آية من آيات البحث السابق، القى هذا السؤال الوجيه المتين: «إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ». أمّا في الآيات محل البحث فتفصيل السؤال .. وتوجه للمشركين خمس آيات تبدأ بخمسة أسئلة، لتناقش المشركين وتحاكمهم، وتكشف دلائل التوحيد في الآيات الخمس في اثني عشر مثلاً.

فالآية الاولى من هذه الآيات تتحدث عن خلق السماوات والأرض، ونزول الماء من السماء والبركات الناشئة عنه، فتقول:

هل أن معبوداتكم أفضل «أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ».

«الحدائق»: جمع «الحديقة»، وهي البستان الذي يحيطه الجدار أو الحائط، وله ماء كاف؛ و «البهجة»: معناها الجمال وحسن الظاهر الذي يسر الناظرين.

ويتوجه الخطاب نحو العباد في ختام الآية فيقول: «مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا».

فأنتم تستطيعون أن تنشروا البذور وتسقوا الأرض، لكن الذي جعل الحياة في قلب البذرة، وأمر الشمس أن تشرق على الأرض، والماء ينزل من السماء حتى تنبت البذرة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٥

فتكون شجراً، هو الله فحسب.

وبتعبير آخر: فإن التوحيد في الخلق يؤدى إلى «توحيد الخالق»، والتوحيد في الربوبية «توحيد مدبر هذا العالم» باعث على «توحيد العبادة».

ولذلك فالقرآن يقول في نهاية الآية: «أَءَلَّهُ مَعَ اللَّهِ» ولكن هؤلاء جهلوا عدلوا عن الله وعبدوا ما لا ينفعهم ولا يضرهم «بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعِدُلُونَ» (١).

والسؤال الثانى بحث عن موهبة استقرار الأرض وثباتها، وأنها مقر الإنسان فى هذا العالم، فيقول: هل أن أصنامكم أفضل، «أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلْفَهَا أَنْهَرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَّ» (٢). كما تحافظ على القشرة الأرضية من الزلازل، كما «وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا» ومانعاً من اختلاط البحر المالح بالبحر العذب.

وهكذا فقد ورد فى هذه الآية ذكر أربع نعم عظيمة، ثلاث منها تتحدث عن استقرار الأرض.

ترى هل يمكن أن يكون هذا النظام قد وُلد عن طريق الصدفة العمياء الصماء، والمبدأ الفاقد للعقل والحكمة؟! وهل للأصنام تأثير فى هذا النظام البديع المثير للدهشة؟!

حتى عبدة الأصنام لا يدعون مثل هذا الإدعاء! لذلك يكرر القرآن فى ختام الآية هذا السؤال: «أَءَلَّهُ مَعَ اللَّهِ». حاش لله «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

السؤال الثالث من هذه الأسئلة الخمسة التى تحكى عن محاوره ومحاكمة المعنوية يتحدث عن حلّ المشكلات، وفتح الطرق الموصدة، وإجابة الدعاء، إذ تقول الآية التالية: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ».

أجل، عندما تُغلق جميع أبواب عالم الأسباب بوجه الإنسان، ويغدو مضطراً حيراناً لا حيلة له، فإن الذى يحلّ المعضلة، ويفتح أبواب الرحمة بوجه الناس المتحيرين، هو الله لا غير.

وحيث إن الناس يدركون هذه الحقيقة بالفطرة فى أعماق نفوسهم جميعاً، فإن المشركين

(١) قد يكون «يعدلون» من مادة «العدول» أى الانحراف والرجوع من الحق إلى الباطل، أو أنه مادة «عَدَل» على وزن (قشر) ومعناه المعادل والنظير .. ففى الصورة الاولى مفهوم الآية أنهم ينحرفون عن الله الواحد إلى غيره، وفى الصورة الثانية مفهومها أنهم يجعلون له عدلاً.

(٢) «الخلال»: فى الأصل معناه الشق بين الشئين؛ و «الرواسي»: جمع «راسية» وهى الثابتة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٦

حين يقعون بين أمواج البحر المتلاطمة ينسون جميع معبوديهم ويتوجهون نحو لطف الله، كما نقرأ فى الآية (٦٥) من سورة العنكبوت: «فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ». لذلك تضيف الآية قائله: إنه لا ينقذكم من هذه المآزق والشدائد فحسب، بل: «وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَلَّهُ مَعَ اللَّهِ» ولكنكم لا تتعضون بهذه الدلائل .. «قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ».

ويشير القرآن فى السؤال الرابع مسألة الهداية فيقول: هل أن الأصنام أفضل، «أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ» بواسطة النجوم «وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ».

فالرياح التى تدل على نزول الغيث، وكأنها رسل البشرى تتحرك قبل نزول الغيث.

ويخاطب القرآن فى ختام الآية المشركين مرة أخرى فيقول: «أَلَّهُ مَعَ اللَّهِ».

ثم يضيف دون أن ينتظر الجواب قائلاً: «تَعَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

أما فى آخر آية من الآيات محل البحث، فيشير القرآن السؤال الخامس فى شأن المبدأ والمعاد بهذه الصورة، فيقول: هل أن أصنامكم

أفضل، «أَمَّنْ يَّيْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَعْلَهُ مَعَ اللَّهِ» .. فهل بعد ذلك تعتقدون بوجود معبود غير الله «قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

والمراد من (الرزق السماوي) هو الغيث ونور الشمس وأمثال ذلك، أما (الرزق الأرضي) فالنباتات والمواد الغذائية المختلفة التي تنمو على الأرض مباشرة، أو عن طريق غير مباشر كالأنعام والمعادن والمواد المختلفة التي يتمتع بها الإنسان في حياته.

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ (٦٦) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ (٦٧) لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٦٨)

لما كان البحث في آخر الآيات السابقة عن القيامة والبعث، فإن الآيات - محل البحث -

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٧

تعالج هذه المسألة من جوانب شتى، فتجيب أولاً على السؤال الذي يثيره المشركون دائماً، وهو قولهم: متى تقوم القيامة؟ ومتى هذا الوعد؟ فتقول: «قُلْ لَّيَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ».

لا شك أن علم الغيب - ومنه تاريخ وقوع القيامة - خاص بالله، إلا أنه لا منافاة في أن يجعل الله بعض ذلك العلم عند من يشاء من عباده، كما نقرأ في الآيتين (٢٦ و ٢٧) من سورة الجن: «عِلْمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا* إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ». ثم يتكلم القرآن عن عدم علم المشركين بيوم القيامة وشكهم وجهلهم، فيقول: «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ».

«ادارك»: في الأصل «تدارك» ومعناه التتابع أو لحوق الآخر بالأول، فمفهوم جملة «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ»: أنهم لم يصلوا إلى شيء بالرغم مما بذلوه من تفكير، وجمعوا المعلومات في هذا الشأن، لذلك فإن القرآن يضيف مباشرة بعد هذه الجملة: «بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ». لأن دلائل الآخرة ظاهرة في هذه الدنيا، فعودة الأرض الميتة إلى الحياة في فصل الربيع، وإزهار الأشجار وإثمارها مع أنها كانت في فصل الشتاء جرداء ... ومشاهدة عظمة قدرة الخالق في مجموعة الخلق والوجود، كلها دلائل على إمكان الحياة بعد الموت، إلا أنهم كالعُمى الذين لا يبصرون كل شيء.

و الآية التالية توجز منطق منكري القيامة والبعث في جملة واحدة، فنقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَأَنَّا لَمُخْرَجُونَ».

مع أنهم كانوا أول الأمر تراباً وخلقوا من التراب، فما يمنع أن يعودوا إلى التراب، ثم يرجعون أحياء بعد أن كانوا تراباً.

ثم يحكى القرآن عما يضيفه المشركون من قول: «لَقَدْ وَعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ»، ولكن لم نجد أثراً لهذا الوعد ولن يوجد، «إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، فما هي سوى خرافات وخزعبلات القدماء.

فبناءً على هذا فإنهم يبدؤون من الاستبعاد ثم يجعلونه أساساً للإنكار المطلق.

ويستفاد - ضمناً من هذا التعبير - أنهم أرادوا أن يسخروا من كلام النبي في شأن يوم القيامة، ويطعنوا عليه، فيقولوا: إن هذه الوعود الباطلة سبقت لأسلافنا، فلا جديد فيها يستحق بذل التفكير والمراجعة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٨٨

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩) وَ لِمَا تَحْزَنُ عَلَيْهِمْ وَ لَأ تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (٧٠) وَ يَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٧١) قُلْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ رَدْفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ (٧٢) وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ (٧٣) وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٧٤) وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٧٥)

لا يضيق صدرك بمؤامراتهم: كان الكلام في الآيات السابقة عن إنكار المعاندین الكفار للمعاد، واستهزائهم وتكذيبهم باليوم الآخر.

ولما كان البحث المنطقي غير مُجدد لهؤلاء القوم المعاندين والأعداء الألداء، بالإضافة إلى ما أقامته الآيات الأخر من الدلائل الوافرة على المعاد مما يُرى كل يوم في عالم النباتات وفي عالم الأجنه، وما إلى ذلك، فإن الآيات محل البحث بدلاً من أن تأتيهم بدليل، هددتهم بعذاب الله الذي شمل من سبقهم من الكفار، وأذرتهم بعقابه المخزى ... فوجهت الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله قائلةً: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عِقَابُ الْمُجْرِمِينَ».

فأنتم تعترفون أن هذه الوعود تلقاها أسلافكم، فلم يكثرثوا بها، ولم يروا ضرراً.

وحيث إن الرسول صلى الله عليه وآله كان يشفق عليهم لإنكارهم، ويحزن لعنادهم، ويحترق قلبه من أجلهم، إذ كان حريصاً على هدايتهم، وكان يواجه مؤامراتهم أيضاً.. فإن الآية التالية تسرى عن قلب النبي فتقول له: «وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ».

إلا أن هؤلاء المنكرين المعاندين، بدلاً من أن يأخذوا إنذار النبي المشفق عليهم مأخذ الجد فيتعظوا بوعظه ويسترشدوا بنصحه، أخذوا يسخرون منه «وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

وهنا يرد القرآن على استهزائهم وسخريتهم بلهجة موضوعية، فيقول مخاطباً نبيه: «قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ».

والمراد من العذاب الذي كانوا يستعجلون به، فقيل: هو ما أصابهم يوم بدر من هزيمة كبرى.

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٤٨٩

كما ويحتمل أن المراد منه العقاب العام الذي دفع أخيراً، ببركة وجود النبي إذ كان رحمة للعالمين، والآية (٣٣) من سورة الأنفال شاهدة عليه: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ».

ثم يتحدث القرآن في الآية التالية عن هذه الحقيقة وهي أن الله إذا لم يعجل في عقابكم، فذلك بفضلته وبرحمته، حيث يمهل عباده الإمهال الكافي لإصلاح أنفسهم، فيقول: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ».

وإذا كانوا يتصورون أن تأخير العقاب لعدم علم الله سبحانه لما يدور في خلدهم من نيات سيئة وأفكار ضالة، فهم في غاية الخطأ: «وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ» (١). فهو يعلم خفاياهم بمقدار ما يعلم من ظاهرهم وما يعلنون، والغيب والشهادة عنده سيان.

ثم يضيف القرآن قائلاً: إنه ليس علم الله منحصراً بما تكن القلوب وما تعلن، بل علمه واسع مطلق. «وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ».

إن هذا القرآن يقصص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلِفون (٧٦) وإِنَّهُ لَهْدَى وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (٧٨) فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩) إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الدُّعَاءَ إِذَا وَلُوا مَدْبِرِينَ (٨٠) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٨١)

كان الكلام في الآيات السابقة عن المبدأ والمعاد، أمياً في الآيات - محل البحث - فيقع الكلام على مسألة النبوة، وحقانية القرآن، ليكتمل بهما هذا البحث.

أضف إلى ذلك أن الخطاب كان فيما سبق من الآيات موجهاً للمشركين، وهنا يوجه الخطاب نحو الكفار الآخرين كاليهود واختلافاتهم. فتقول الآيات أولاً: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقْضَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ».

(١) «تكن»: مأخوذ من كنّ (على وزن جنّ)، وهذا الفعل يطلق على ما تستر فيه الأشياء وتحفظ، وهنا كناية عن ما يخطر في قلوب الكفار من خواطر وأفكار عدوانية.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٠

لقد اختلف بنو إسرائيل فيما بينهم في مسائل كثيرة، فقد اختلفوا في شأن مريم وعيسى عليهما السلام. وفي شأن النبي الذي بشرت به «التوراة» من هو؟ كما أنهم اختلفوا في ما بينهم في كثير من المسائل الدينية والأحكام الشرعية... فجاء القرآن موضحاً هذه الامور بجلاء.

ولما كانت مواجهة الاختلافات والوقوف بوجهها مدعاة للهدى والرحمة، فإن الآية التالية تشير إلى هذا «الأصل الكلي» وتقول: «وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ».

إنه هدى ورحمة من حيث حسم الخلافات ومبارزة الخرافات.

وحيث إن جماعة من بنى إسرائيل وقفت بوجه القرآن والحقائق الواردة فيه، لأوامر الله، فإن الآية التالية تقول في شأنهم: «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ». وهذا الكلام إضافة إلى أنه يبين عظمة القرآن، وهو تهديد لبنى إسرائيل، فهو في الوقت ذاته تسلية عن قلب النبي وتسريه عنه، لذا فالآية التالية تقول: «فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ». توكل على الله العزيز الذي لا يغلب، والعليم بكل شيء.. فتوكل عليه ولا تقلق من المشركين والمعاندين، لأنه يراعاك و«إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ».

وهنا ينقدح هذا السؤال، وهو: إذا كان القرآن حقاً مبيناً فلماذا خالفوه؟ فالآيات التالية تجيب على هذا السؤال، فتقول: إذا كان اولئك لا يدعون للحق المبين، ولا يؤثر في قلوبهم هذا الكلام المتين، فلا مجال للعجب.. ل «إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمُوتَى».

بل تسمع الأحياء الذين يبحثون عن الحق وأرواحهم تواقه إليه، أما إحياء الموتى - أو موتى الأحياء - لتعصبهم وعنادهم واستمرارهم على الذنب، فلا ترهق فكرك ونفسك من أجلهم وحتى لو كانوا أحياء فإنهم صم لا يسمعون فلا يمكنهم أن يسمعوا صوتك، وخاصة إذا أداروا إليك ظهورهم وابتعدوا عنك، «وَلَا تَسْمَعُ الصَّوْمَ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ».

كما أنهم لو كانوا مع هذه الحال يبصرون بأعينهم لا هتدوا إلى الصراط المستقيم، ولو ببعض العلامات، إلا أنهم عمى «وَمَا أَنْتَ بِهَدَى الْعُمَىٰ عَن ضَلَّتِّهِمْ».

وهكذا فقد أوصدت جميع طرق إدراك الحقيقة بوجههم، فقلوبهم ميتة، وآذانهم صم موقرة، وأعينهم عمى.

فأنت يا رسول الله: «إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُّسْلِمُونَ» ويشعرون في أنفسهم بالاذعان للحق.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩١

وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (٨٢) وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ (٨٣) حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوا قَالَ أَ كَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ دَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨٤) وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ (٨٥)

لما كانت الآية السابقة تتحدث عن استعجال الكفار بالعذاب ونزوله، فإن الآيات - محل البحث - تشير إلى بعض الحوادث التي تقع بين يدى القيامة، وتجسد عاقبة المنكرين الوخيمة، فتقول: «وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ». «الدابة»: معناها ما يدب ويتحرك. وقد طبق هذا المفهوم في روايات كثيرة على أمير المؤمنين عليه السلام، والروايات الكثيرة في تفسير الآية، تدل على أن المراد من «دابة الأرض» هنا إنسان نشط فعال بما ذكرنا له من خصائص آنفاً، فهو يميز الحق من الباطل والمؤمن من المنافق والكافر.

إنسان يخرج في آخر الزمان قبيل يوم القيامة، وهو بنفسه آية من آيات عظمة الخالق.

ثم تشير الآيات إلى علامة أخرى من علامات القيامة، فتقول: «وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ». «الحشر»:

معناه إخراج جماعة ما من مقرها والسير بها نحو ميدان الحرب أو غيره؛ «الفوج»: الجماعة التي تتحرك بسرعة؛ و «يوزعون»: معناه

حبس الجماعة وإيقافها حتى يلحق الآخر منها بالأول.

فبناء على هذا استفاد من مجموع الآية أن يوماً سوف سيأتي يحشر الله فيه من كل امه جماعة، ويهيؤهم للحساب والجزاء على أعمالهم.

والكثير من الأعظم يعتقدون بأن هذه الآية تشير إلى مسألة الرجعة وعودة جماعة من الصالحين وجماعة من الطالحين إلى هذه الدنيا قبيل يوم القيامة.

«حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بآيَاتِي وَلَمْ تُحِطُوا بِهَا عِلْمًا أَمْ آذًا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

وقائل هذا الكلام هو الله سبحانه. والمراد من «الآيات» هي المعاجز التي يأتي بها الأنبياء، أو أوامر الله، أو الجميع.

وبديهي أن هؤلاء المجرمين لا يستطيعون الإجابة على أي من هذين السؤالين، لذلك فإن الآية الأخيرة من الآيات محل البحث تضيف قائله: «وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٢

وهذا القول أو العذاب دنيوي، إذا فسّرنا الآية بالرجعة، أو هو عذاب الآخرة إذا فسّرنا الآية بيوم القيامة (١).

أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَةً لِّكُنُوفِهِمُ وَالنَّهَارَ مُبْشَرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٨٦) وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ (٨٧) وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ بِهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨)

حركة الأرض إحدى معاجز القرآن العلمية: مرة أخرى نتحدث هذه الآيات عن مسألة المبدأ والمعاد، وآثار عظمة الله، ودلائل قدرته في عالم الوجود، وحوادث القيامة، فتقول: «أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَةً لِّكُنُوفِهِمُ وَالنَّهَارَ مُبْشَرًا». وفي ذلك علائم ودلائل واضحة على قدرة الله وحكمته لمن كان مستعداً للإيمان «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». والآية التالية نتحدث عن مشاهد القيامة ومقدماتها، فتقول: «وَأَذْكُرُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ». أي خاضعين.

ويستفاد من مجموع آيات القرآن أن النفخ في الصور يقع مرتين أو ثلاث مرات:

فالمرة الأولى يقع النفخ في الصور عند نهاية الدنيا وبين يدي القيامة، وبها يفزع من في السماوات والأرض إلّا من شاء الله.

والثانية «عند النفخ» يموت الجميع من سماع الصيحة، ولعل هاتين النفختين واحدة.

والمرة الثالثة ينفخ في الصور عند البعث وقيام القيامة.. إذ يحيا الموتى جميعاً بهذه إلّا أن الظاهر من الآية يدل على أن النفخة هنا إشارة إلى النفخة الأولى التي تقع في نهاية الدنيا.

والآية التالية تشير إلى إحدى آيات عظمة الله في هذا العالم الواسع، فتقول: «وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ بِهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ».

فمن يكون قادراً على كل هذا النظم والإبداع في الخلق، لا ريب في علمه و «إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ».

(١) و «الرجعة» من عقائد الشيعة المعروفة، وتفسيرها في عبارة موجزة بهذا النحو: بعد ظهور المهدي عليه السلام وبين يدي القيامة، يعود طائفة من المؤمنين الخالص، وطائفة من الكفار الأشرار، إلى هذه الدنيا.. فالطائفة الأولى تصعد في مدارج الكمال... والطائفة الثانية تنال عقابها الشديد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٣

إن الآية آنفه الذكر من قبيل آيات التوحيد ودلائل عظمة الله في هذه الدنيا، وتشير إلى حركة الأرض التي لا نحس بها، فالآية آنفه الذكر تعدد من معاجز القرآن العلمية.

مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرْعِ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ (٨٩) وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَبَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَيْلًا تُجْرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٠) إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّتِي حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ (٩٢) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٣)

كان الكلام في الآيات السابقة عن أعمال العباد وعلم الله بها، أما الآيات محل البحث فيقع الكلام في مستهلها عن جزائهم وثواب أعمالهم وأمنهم من فرع يوم القيامة، إذ يقول سبحانه: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَرْعِ يَوْمِئِذٍ آمِنُونَ». إن معنى الآية واسع كما أن الحسنه هنا معناها واسع أيضاً، فهي تشمل الصالحات والأعمال الخالصة، ومن ضمنها الإيمان بالله وبرسوله وولاية الأئمة من أهل البيت عليهم السلام، التي تعد في طليعه الأعمال الحسنه، ولا يمنع أن تكون هناك أعمال صالحة أخرى تشملها الآية.

ثم يتحدث القرآن عن الطائفة الأخرى التي تقابل أصحاب الحسنات فتقول: «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكَبَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ». وليس لهذه الطائفة أي توقع غيرها «هَلْ تُجْرُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

«كَبَتْ»: مأخوذ من «كَبَّ» على وزن «جَدَّ» ومعناه في الأصل إلقاء الشيء على وجهه على الأرض، فبناء على هذا فإن ذكر «وجوههم» في الآية هو من باب التوكيد.

إن أولئك حين كانوا يواجهون الحق يُلَوِّنُونَهُمْ ووجوههم ورؤوسهم، وكانوا يواجهون الذنوب بتلك الوجوه فرحين... فالآن لابد أن يبتلوا بمثل هذا العذاب.

ثم يوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله في الآيات الثلاث من آخر هذه السورة، ويؤكد له هذه الحقيقة وهي أن يخبر أولئك المشركين بأن عليه أن يؤدي رسالته ووظيفته، سواء آمنتم أم لم تؤمنوا؟! فتقول الآية الأولى من هذه الآيات: «إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ».

هذه البلدة المقدسة التي يتلخص كل وجودكم وشرفكم بها.

أجل، أعبد رب هذه البلدة المقدسة «الَّتِي حَرَّمَهَا» وجعل لها خصائص وأحكاماً

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٤

وحرمة، وأموراً آخر لا تتمتع بها أية بلدة أخرى في الأرض.

لكن لا تتصوروا أن هذه البلدة وحدها لله، بل له كل شيء في عالم الوجود «وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ».

والأمر الثاني الذي أمرت به، هو أن أسلم وجهي له «وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

وهكذا فإن الآية بينت وظيفتين أساسيتين على النبي وهما (عبادة الواحد الأحد، والتسليم المطلق لأمره).

و الآية التالية تبين أسباب الوصول إلى هذين الهدفين فتقول: «وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ».

أتلوه فاستضيء بنوره، وأنتهل من عذب معينه الذي يهب الحياة، وأن أعول في جميع مناهجي على هديه. أجل، فالقرآن وسيلتي للوصول إلى هذين الهدفين المقدسين، والمواجهة لكل أنواع الشرك والانحراف والضلال ومكافحتها.

ثم تعقب الآية لتحكي عن لسان الرسول وهو يخاطب قومه: لا- تتصوروا أنكم إذا آمنتم انتفعت من وراء ذلك لنفسي، كما أن الله غني عنكم، بل: «فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ».

وكل ما يترتب على الهداية من منافع دنيوية، كانت أم أخروية فهي عائدة للمهتدي نفسه والعكس صحيح «وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ».

والأمر الأخير- في آخر آية من هذه السورة- موجه للنبي أن يحمد الله على هذه النعم الكبرى، ولا سيما نعم الهداية فيقول:

«وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ».

هذا الحمد أو الثناء يعود لنعمه القرآن، كما يعود للهداية أيضاً، ويمكن أن يكون مقدمه للجملة التالية: «سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا». وهذا التعبير إشارة إلى أنه مع مرور الزمان وتقدم العلم والمعرفة، سينكشف كل يوم بعض أسرار عالم الوجود، ويرفع ستار جديد عنها.. وستعرفون نعم الله وعظمه قدرته وعمق حكمته يوماً بعد يوم.. وإراءة الآيات هذه مستمرة دائماً ولا تنقطع مدى عمر البشر. إلّا أنكم إذا واصلتم طريق الخلاف والانحراف، فلن يترككم الله سدى «وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ». ولا تتصوروا بأن الله إذا أخرج عقابكم بلطفه، فهو غير مطلع على أعمالكم، وأنها لا تسجل في اللوح المحفوظ. وجملة «وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ» الواردة بنفسها أو مع شيء من التفاوت اليسير في تسع آيات من القرآن جملة موجزة، وهي تهديد ذو معنى عميق، وإنذار لجميع الناس.

«نهاية تفسير سورة النمل»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٥

٢٨ سورة القصص

محتوى السورة: هذه السورة نزلت في مكة، وفي ظروف كان المؤمنون في قبضة الأعداء الأقوياء وبين مخالبيهم، الأعداء الذين كانوا أكثر عدداً وأشدّ قدرةً وقوةً ونفيراً.

وبما أن هذه الحالة كانت كثيرة الشبه بالحالة التي كان عليها بنو إسرائيل وهم بين مخالبي الفراعنة، فإنّ قسماً من محتوى هذه السورة يتحدث عن قصة بنى إسرائيل وموسى عليه السلام والفراعنة.

في بداية السورة يبشر المستضعفين بحكومة الحق والعدل لهم وكسر شوكة الظالمين، بشرى تمنحهم الإطمئنان والقدرة. و «القسم الآخر» من هذه السورة يتحدث عن «قارون»، ذلك الرجل المستكبر الثرى الذي كان يعتمد على علمه و ثروته، حتى لقي أثر غروره ما لقيه فرعون من مصير أسود.

احدهما غريق في الماء والآخر دفين في الأرض.

وبين هذين القسمين دروس حيّة وقيمة من التوحيد والمعاد وأهمية القرآن، وبيان حال المشركين في يوم القيامة، ومسألة الهداية والضلالة، والإجابة على حجج الأفراد الضعاف، وهي «نتيجة» الأوّل و «مقدمة» للقسم الثاني.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه و آله قال: «ومن قرأ طسم القصص

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٦

اعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بموسى وكذب به، ولم يبق ملك في السماوات والأرض إلّا شهد له يوم القيامة أنّه كان صادقاً».

وبديهي أنّ كل هذا الأجر والثواب هو لأولئك الذين يقرأون ويتفكرون، وعلى ضوء هذه السورة يخططون لحياتهم وعملهم.

طسم (١) تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِفُ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُدْبِحُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦)

هذه هي المرّة الرابعة عشرة التي نواجه بها بدايات السورة بالحروف المقطعة في القرآن، وقد تكررت فيها «طسم» ثلاث مرات، وهي هنا- أى «طسم»- ثالث المرات وآخرها.

إنّه يظهر من كثير من الروايات في شأن «طسم» أنّ هذه الحروف إشارات موجزة عن صفات الله سبحانه وتعالى، أو أنّها أماكن

مقدسيه، ولكنها فى الوقت ذاته لا تمنع من ذلك التفسير المعروف الذى أكدنا عليه مراراً، وهو أن الله تعالى يريد أن يوضح هذه الحقيقة للجميع، وهى أن هذا الكتاب السماوى العظيم الذى هو أساس التغيير الكبير فى تاريخ البشرية وحامل المنهج المتكامل للحياة الكريمة للإنسانية يتشكل من امور بسيطة كهذه الحروف «ألف باء ...» التى يستطيع أن يتلفظ بها كل صبى.

ومن هنا تتجلى عظمه القرآن وأهميته القصوى، إذ يتألف من هذه الحروف البسيطة التى هى فى اختيار الجميع. ولعل هذا السبب كان داعياً لأن يكون الحديث بعد الحروف المقطعة مباشرة عن عظمه القرآن، إذ يقول: «تلك آيت الكتب المبين». والقرآن بعد ذكر هذه المقدمة يحكى قصة «فرعون» و «موسى» فيقول: «تتلوا عليكم من

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٧

نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون».

والتعبير «بالحق» إشارة إلى أن ما ورد هنا خال من كل خرافة واسطورة، وبعيد عن الأباطيل والأكاذيب، فهى إذن تلاوة مقترنه بالحق والواقعية.

والتعبير ب «لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» هو تأكيد على هذه الحقيقة، وهى أن مؤمنى ذلك العصر الذين كانوا يرزخون تحت ضغوط المشركين والأعداء، عليهم أن يدركوا هذه الحقيقة، وهى أن الأعداء مهما تعاضمت قواهم وتزايدوا عدداً وعدداً، وأن المؤمنين مهما قلوا وكانوا تحت ضغط أعدائهم وكانوا ضعافاً بحسب الظاهر، فلا ينبغي أن يهنوا وينكصوا عن طريق الحق، فكل شىء عند الله سهل يسير.. ثم يفصل القرآن ما أجمله بقوله: «إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ».

فقد كان عبداً ضعيفاً، وعلى أثر جهله وعدم معرفته أضاع شخصيته ووصل إلى مرحلة من الطغيان حتى أنه ادعى الربوبية. والتعبير ب «الأرض» إشارة إلى أرض مصر وما حولها.

إن فرعون- من أجل تقوية قواعده الإستكبارية- قد أقدم على عدّة جرائم كبرى، فالجريمة الأولى، أنه فرق بين أهل مصر «وجعل أهلها شيعاً».

فلا يمكن أن تحكم الأقلية- التى لا تعدّ شيئاً- على الأكثرية إلا بالخطأ المعروفة «فرّق تشد» فهم مستوحشون من «كلمة التوحيد» و «توحيد الكلمة» ويخافون منهما أبداً، ويخافون من التفاف الناس بعضهم حول بعض.

إن فرعون قسم أهل مصر إلى طائفتي «الأقباط» و «الأسباط».

فالأقباط هم أهل مصر «الأصليون» الذين كانوا يتمتعون بجميع وسائل الرفاه والراحة، وكانت فى أيديهم القصور ودوائر الدولة والحكومة.

و «الأسباط» هم المهاجرون إلى مصر من بنى إسرائيل الذين كانوا على هيئة العبيد والخدم «فى قبضة الأقباط» وكانوا محاطين بالفقر والحرمان.

والجريمة الثانية هى استضعافه لجماعه من أهل مصر بشكل دموى سافر كما يعبر عن ذلك القرآن بقوله: «يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَاءَهُمْ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٨

ولكون ورود جملة «يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ» بعد جملة «يَسْتَضِعُّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ» فإن مسألة اخرى تتجلى أمامنا، وهى أن الفراعنة اتخذوا خطة لاستضعاف بنى إسرائيل بذبح الأبناء، لئلا يستطيع بنو إسرائيل أن يواجهوا الفراعنة ويحاربوهم، وكانوا يتركون النساء اللاتى لا طاقة لهن على القتال والحرب، ليكبرن ثم يخدمن فى بيوتهم. وفى آخر جملة تأتى الآية بتعبير جامع، وفيه بيان العلة أيضاً فتقول: «إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ».

والتعبير ب «يُذَبِّحُ» المشتق من مادة «المذبح» تدل على معاملة الفراعنة لبنى إسرائيل كمعاملة القصابين للأغنام والأنعام الاخرى، إذ

كانوا يذبحون هؤلاء الناس الأبرياء ويحترقون رؤوسهم.

ثم تأتي الآية الاخرى لتقول: إِنَّ إِرَادَتَنَا وَمَشِيئَتَنَا إِقْتَضَتْ اِحْتَوَاءَ الْمُسْتَضْعَفِينَ بِلُطْفِنَا وَكِرْمَانَا؛ «وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ» وأن تشملهم رعايتنا ومواهبنا تكون بيد الحكومة ومقاليد الأمور: «وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ». ويكونون اولى قوة وقدره في الأرض «وَنُمَكِّنْ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ». فهي بشارة في صدد إنتصار الحق على الباطل والإيمان على الكفر.

وهي بشارة لجميع الأحرار الذين يريدون العدالة وحكومة العدل وانطواء بساط الظلم والجور. وحكومة بنى إسرائيل وزوال حكومة الفراعنة ما هي إلا نموذج لتحقيق هذه المشيئة الإلهية والمثل الأكمل هو حكومة نبي الأعظم صلى الله عليه وآله وأصحابه بعد ظهور الإسلام.

والمثل الأكبر والأوسع هو ظهور حكومة الحق والعدالة على جميع وجه البسيطة-والكرة الأرضية- على يد «المهدي» أرواحنا له الفداء.

ومن الطبيعي أن حكومة المهدي عليه السلام العالمية في آخر الأمر لا تمنع من وجود حكومات إسلامية في معايير محدودة قبلها من قبل المستضعفين ضد المستكبرين، ومتى ما تمت الظروف والشروط لمثل هذه المحكومات الإسلامية فإن وعد الله المحتوم والمشية الإلهية سيتحققان في شأنها، ولا بد أن يكون النصر حليفها بإذن الله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٤٩٩

وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاذًا خَفَتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)
فَالْقَلْبَةُ آلَ فِرْعَوْنَ لِيُكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩)

في قصر فرعون: من أجل رسم مثل حي لانصار المستضعفين على المستكبرين، يدخل القرآن المجيد في سرد قصة موسى وفرعون. يقول القرآن: «وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَاذًا خَفَتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَمَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ».

وهذه الآية على إيجازها تشتمل على أمرين ونهيين وبشارتين، وهي خلاصة قصة كبيرة وذات أحداث ومجريات نقلها بصورة مضغوطة:

كانت سلطة فرعون وحكومته الجائرة قد خطت تخطيطاً واسعاً لذبح «الأطفال» من بنى إسرائيل حتى أن القوابل [من آل فرعون كن يراقبن النساء الحوامل] من بنى إسرائيل، ومن بين هؤلاء القوابل كانت قابلة لها علاقة مودة مع أم موسى عليه السلام «وكان الحمل خفياً لم يظهر أثره على أم موسى» وحين أحست أم موسى بأنها مقرب وعلى أبواب الولادة أرسلت خلف هذه القابلة وأخبرتها بالواقع، وأنها تحمل جيناً في بطنها وتوشك أن تضعه، فهي بحاجة- هذا اليوم- إليها.

وحين ولد موسى عليه السلام سطع نور بهي من عينيه فاهتزت القابلة لهذا النور وطبع حبه في قلبها، وأثار جميع زوايا قلبها، فالتفتت القابلة إلى أم موسى وقالت لها: كنت أروم أن أخبر الجهاز الفرعوني بهذا الوليد ولكن ما عسى أن أفعل وقد وقع حبه الشديد في قلبي، فاهتمى بالمحافظة عليه، وأظن أن عدونا المتوقع سيكون هذا الطفل أخيراً.

ثم خرجت القابلة من بيت أم موسى فرآها بعض الجواسيس من جلاوزة فرعون وصمموا على أن يدخلوا البيت، فعرفت أخت موسى ما أقدموا عليه فأسرعت إلى أمها وأخبرتها بأن تنهياً للأمر، وفي هذه الحالة من الإرتباك وهي ذاهلة لفت وليدها «موسى» بخرقه وألقته في التنور فإذا بالمأمورين والجواسيس يقتحمون الدار، فلم يجدوا شيئاً إلا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٠

مختصر الامثل ج ٣ ٥٥٠

التنور المشتعل ناراً. وقد جعل الله النار عليه برداً وسلاماً «الله الذي نجى إبراهيم الخليل من نار النمرود» فأخرجت وليدها سالماً من التنور.

لكن الام لم تهدأ إذ أن الجواسيس يمضون هنا وهناك ويفتشون البيوت.

وفي هذه الحال اهتدت ام موسى بإلهام جديد، فجاءت إلى نجار مصرى «وكان النجار من الأقباط والفراعنة أيضاً» فطلبت منه أن يصنع صندوقاً صغيراً.

والوقت كان فجرًا والناس - بعد - نيام، وفي هذه الحال خرجت ام موسى وفي يديها الصندوق الذي أخفت فيه ولدها موسى، فاتجهت نحو النيل وأرضعت موسى حتى ارتوى، ثم ألقته الصندوق في النيل فتلقفته الأمواج.

ورد في الأخبار أن فرعون كانت له بنت مريضة، وكانت هذه البنت تعاني من آلام شديدة لم ينفعها علاج الأطباء، فلجأ إلى الكهنة فقالوا له: تنكهن ونتوقع أن إنساناً يخرج من البحر يكون شفاؤها من لعاب فمه حين يدهن به جسدها، وكان فرعون وزوجه «آسية» فى انتظار هذا «الحادث» وفى يوم من الأيام .. فجأة لاح لعيونهما صندوق تتلاطمه أمواج النيل فلفت الأنظار، فأمر فرعون عماله أن يأتوا به ليعرفوا ما به؟!!

ومثل الصندوق «المجهول» الخفى أمام فرعون، فلما وقعت عين آسية عليه سطع منه نور فأضاء قلبها، ودخل حبه فى قلوب الجميع، وحين شفيت بنت فرعون من لعاب فمه زادت محبته أكثر فأكثر.

ولنعد الآن إلى القرآن الكريم لنسمع خلاصة القصة من لسانه. يقول القرآن فى هذا الصدد: «فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا».

«التقط»: مأخوذة من مادة «التقاط» ومعناها فى الأصل الوصول إلى الشىء دون جهد وسعى، وإنما سميت الأشياء التى يعثر عليها «لقطة» للسبب نفسه أيضاً ..

ثم تختتم الآية بالقول: «إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَّ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَطِينَ». وأى خطأ أعظم من أن يحددوا عن طريق العدل والحق، وأن يبنوا قواعد حكمهم على الظلم والجور والشرك.

وأى خطأ أعظم أن يذبوا آلاف الأطفال ليقتلوا موسى عليه السلام، ولكن الله سبحانه أودعه فى أيديهم وقال لهم: خذوا عدوكم هذا وربوه ليكبر عندكم.

ويستفاد من الآية التالية أن شجاراً حدث ما بين فرعون وامرأته، ويحتمل أن بعض

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠١

أتباعه كانوا قد وقفوا عند رأس الطفل ليقتلوه، لأن القرآن الكريم يقول فى هذا الصدد: «وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنٌ لِي وَلَكِّ لَاتَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا».

إن فرعون وجد فى مخايل الطفل والعلائم الاخرى أن هذا الطفل من بنى إسرائيل، فأراد أن يجرى قانون إجرامه عليه. ولكن آسية امرأة فرعون التى لم ترزق ولداً ذكراً، وقفت بوجه فرعون وأعوانه ومنعتهم من قتله.

وإذا أضفنا قصة شفاء بنت فرعون بلعاب فم موسى - على ما قدمناه - فسيكون دليلاً آخر يوضح كيفية انتصار آسية فى هذه الازمة.

ولكن القرآن - بجملة مقتضيه وذات مغزى كبير - ختم الآية قائلاً: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

أجل، إنهم لم يشعروا أن أمر الله النافذ ومشيته التى لا تقهر، اقتضت أن يتربى هذا الطفل فى أهم المراكز خطراً ... ولا أحد يستطيع أن يرد هذه المشيئة، ولا يمكن مخالفتها أبداً ..

وَاصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَىٰ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ

جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَيْلٌ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢)
فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَتَلْعَلِمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)

عودة موسى إلى حضن أمه: في هذه الآيات تتجسد مشاهد جديدة.. فام موسى التي قلنا عنها: إنها ألفت ولدها في أمواج النيل، بحسب ما فضّلنا آنفاً.. اقتحم قلبها طوفان شديد من الهم على فراق ولدها، فأوشكت أن تصرخ من أعماقها وتذيع جميع أسرارها، لكن لطف الله تداركها، وكما يعبر القرآن الكريم: «وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». «الفارغ»: معناه الخالي، والمقصود به هنا أن قلب أم موسى أصبح خالياً من كل شيء إلا من ذكر موسى؛ «ربطنا»: من مادة «ربط» ومعناها في الأصل شدّ وثاق الحيوان أو ما أشبهه بمكان ما ليكون محفوظاً في مكانه.

والمقصود من «ربط القلب» هنا تقويته.. أي تثبيت قلب ام موسى، لتؤمن بوعد الله

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٢

وتتحمل هذا الحادث الكبير. وعلى أثر لطف الله أحست ام موسى بالاطمئنان، ولكنها أحببت أن تعرف مصير ولدها، ولذلك أمرت أختها أن تتبع أثره وتعرف خبره: «وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ».

«قُصِّيهِ»: مأخوذة من مادة «قص» ومعناها البحث عن آثار الشيء، وإنما سميت القصة قصة لأنها تحمل في طياتها أخباراً مختلفة يتبع بعضها بعضاً.

فاستجابت «أخت موسى» لأمر أمها، وأخذت تبحث عنه بشكل لا يثير الشبهة، حتى بصرت به من مكان بعيد، ورأت صندوقه الذي كان في الماء يتلطفه آل فرعون.. ويقول القرآن في هذا الصدد: «فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ».

ولكن اولئك لم يلتفتوا إلى أن أخته تتعقبه: «وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ».

وعلى كل حال، فقد اقتضت مشيئة الله أن يعود هذا الطفل إلى أمه عاجلاً ليطمئن قلبها، لذلك يقول القرآن الكريم:

«وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ» (١).

وطبيعي أن الطفل الرضيع حين تمر عليه عدة ساعات فإنه يجوع ويبكى.

كان عمال القصر يركضون من بيت لآخر بحثاً عن مرضع له، والعجيب في الأمر أنه كان يأبى أئداء المرضعات.

وهذا هو التحريم التكويني من قبل الله تعالى إذ حرم عليه المرضع جميعاً.

والطفل يبكى وعمال فرعون يدورون به بحثاً عن مرضع حتى صادفوا بنتاً أظهرت نفسها بأنها لا تعرف الطفل: «فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ».

فسرّ بها هؤلاء وجاءوا بام موسى إلى قصر فرعون، فلما شمّ الطفل رائحة أمه التقم ثديها بشغف كبير.

في التفسير الكبير: لما قبل ثديها قال هامان إنك لأمه. قالت: لا. قال: فما بالك قبل ثديك من بين النسوة؟ قالت: أيها الملك إنني

إمرأة طيبة الريح حلوة اللبن ماشم ريحي صبي إلا أقبل على ثديي. قالوا: صدقت. فلم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالذهب والجواهر.

أجل، إن الله أراد لموسى أن يرتضع من لبن طاهر كلبن أمه ليستطيع أن ينهض بوجه

(١) «المرضع»: جمع «مرضع» ومعناها المرأة التي تسقى الطفل لبنها من ثديها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٣

الأرجاس ويحارب الآثمين.

وتّم كل شيء بأمر الله: «فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَتَلْعَلِمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ».

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤) وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ (١٥) قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦) قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ (١٧)

موسى عليه السلام وحماية المظلومين: فى هذه الآيات نواجه المرحلة الثالثة من قصة موسى عليه السلام وما جرى له مع فرعون، وفيها مسائل تتعلق ببلوغه، وبعض الأحداث التى شاهدها وهو فى مصر قبل أن يتوجه إلى «مدين» ثم سبب هجرته إلى مدين. تقول الآيات فى البداية: «وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ».

«أشد»: مشتقة من مادة «الشد» وهى القوة.

«استوى»: مشتقة من «الاستواء» ومعناها كمال الخلقة واعتدالها.

والمراد بالحكم والعلم هنا ليس النبوة والوحى، بل المقصود من الحكم والعلم هما المعرفة والنظرة الثاقبة والقدرة على القضاء الصحيح وما شابه ذلك، وقد منح الله هذه الامور لموسى عليه السلام لطهارته وصدقه وأعماله الصالحة.

وعلى كل حال فإن موسى «دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا».

يحتمل أن هذه المدينة هى عاصمته مصر.

والمقصود من جملة «عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا» هو أول الليل، لأن الناس يتركون أعمالهم ويعطون دكاكينهم ومحلاتهم ابتغاء الراحة والنوم، وجماعة يذهبون للتنزه، وآخرون لأماكن اخرى .. هذه الساعة هى المعبر عنها بساعة الغفلة فى بعض الروايات الإسلامية. فى معانى الأخبار قال النبى صلى الله عليه وآله: «تَنَفَّلُوا فِي سَاعَةِ الْغَفْلَةِ لَوْ بَرَكَتَيْنِ خَفِيفَتَيْنِ فَإِنَّهُمَا تَوَرَّثَانِ دَارَ الْكِرَامَةِ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٤

قيل: يا رسول الله ومتى ساعة الغفلة؟ قال: «ما بين المغرب والعشاء». والحق أن هذه الساعة ساعة غفلة وكثيراً ما تحدث الجنايات والفساد والانحرافات الأخلاقية فى مثل هذه لساعة من أول الليل .. فلا الناس مشغولون بالكسب والعمل، ولا هم نائمون، بل هى حالة غفلة عمومية تغشى المدينة عادةً فى هذه الساعة.

وموسى دخل المدينة، وهنالك واجه مشادةً ونزاعاً، فاقترب من منطقة النزاع «فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ». والتعبير «شيعته» يدل على أن موسى قبل أن يبعث كان له أتباع وأنصار وشيعة من بنى إسرائيل.

فلما بصر الإسرائيلى بموسى استصرخه، «فَاسْتَعَاثَ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ».

فجاءه موسى عليه السلام لإستنصاره وتخليصه من عدوه الظالم .. الذى يقال عنه أنه كان طباحاً فى قصر فرعون، وكان يريد من الإسرائيلى أن يحمل معه الحطب إلى القصر، فضرب موسى هذا العدو بقبضة يده القوية على صدره، فهوى إلى الأرض ميتاً فى الحال. تقول الآية: «فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ» (١).

ومما لا شك فيه، فإن موسى لم يقصد أن يقتل الفرعونى، لذلك فإن موسى عليه السلام أسف على هذا الأمر: «قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ».

فإن موسى عليه السلام كان يريد أن يبعد الفرعونى عن الرجل الإسرائيلى، وإن كان الفرعونيون يستحقون أكثر من ذلك، لكن ظروف ذلك الوقت لم تكن تساعد على مثل هذا العمل.

ثم يتحدث القرآن عن موسى عليه السلام فيقول: «قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ».

ومن المسلم به أن موسى عليه السلام لم يصدر منه ذنب هنا، بل ترك الأولى، فكان ينبغي عليه أن يحتاط لثلاث يقع فى مشكلة، ولذلك فإنه استغفر ربه وطلب منه العون.

لذلك فإن موسى عليه السلام حين نجا بلطف الله من هذا المأزق: «قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ» من عفوك عني وانقاذي من يد الأعداء وجميع ما أنعمت علي منذ بداية حياتي لحد الآن «فَلَنْ

(١) «وكر»: مأخوذ من «الوكر» ومعناه الضرب بقبضة اليد، وهناك معان أخرى لا تناسب المقام.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٥

أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ»، ومعيناً للظالمين.

ويريد موسى عليه السلام أن يقول: «إنه لا يكون بعد هذا مع فرعون وجماعته أبداً.. بل سيكون إلى جانب الإسرائيليين المضطهدين ..».

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨) فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (١٩) وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (٢٠) فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ (٢٢)

موسى يتوجه إلى مدين حُفَيْة: نواجه في هذه الآيات المقطع الرابع من هذه القصة ذات المحتوى الكبير، حيث إن مقتل الفرعوني في مصر انتشر بسرعة، ولعل اسم موسى عليه السلام كان مذكوراً من بين بنى إسرائيل المشتبه فيهم. لذلك يقول القرآن في بداية هذا المقطع: «فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ» (١). وهو على حال من الترقب والحذر، فوجيء في اليوم التالي بالرجل الإسرائيلي الذي آزره موسى بالأمس يتنازع مع قبلي آخر وطلب من موسى أن ينصره: «فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ» (٢).

ولكن موسى تعجب منه واستنكر فعله و «قَالَ لَهُ مُوسَى إِنَّكَ لَعَوِيٌّ مُبِينٌ». إذ تحدث كل يوم نزاعاً ومشادة مع الآخرين. ولكنه كان مظلوماً في قبضة الظالمين (وسواء كان مقصراً في المقدمات أم لا) فعلى موسى عليه السلام أن يعينه وينصره. «فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا» صاح ذلك القبلي: «قَالَ يَا مُوسَى أَتُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ». ويبدو من عملي هذا أنك لست إنساناً منصفاً، «إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ

(١) «يتربق»: مأخوذ من «الترقب»، ومعناه الإنتظار، وموسى هنا في انتظار نتائج هذه الحادثة.

(٢) «يستصرخ»: مشتقة من مادة «الإستصراخ»، ومعناها الإستغاثة، ولكنها في الأصل تعني الصباح أو طلب الصباح من الآخر، وهذا عادة ملازم للإعانة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٦

الْمُصْلِحِينَ». وهذه العبارة تدل بوضوح على أن موسى عليه السلام كان في نيته الإصلاح من قبل، سواء في قصر فرعون أو خارجه. ومن جهة أخرى فإن الأخبار وصلت إلى قصر فرعون فأحس فرعون ومن معه في القصر أن تكرار مثل هذه الحوادث يندره بالخطر، فعقد جلسة شوري مع وزرائه وانتهى «مؤتمرهم» إلى أن يقتلوا موسى، وكان في القصر رجل له علاقة بموسى فمضى إليه وأخبره بالمؤامرة.. وكما يقول القرآن الكريم: «وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ».

وهذا الرجل هو «مؤمن آل فرعون» الذي كان يكتف إيمانه ويدعى «حزقيل» وكان من أسرة فرعون.

أما موسى عليه السلام فقد تلقى الخبر من هذا الرجل بجديته وقبل نصحه ووصيته في مغادرته المدينة، «فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ».

وتضرع إلى الله بإخلاص وصفاء قلب ليدفع عنه شر القوم و «قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ».

ثم قرر موسى عليه السلام أن يتوجه إلى مدينه «مدين» التي كانت تقع جنوب الشام وشمال الحجاز، وكانت بعيدة عن سيطرة مصر والفراعنة؛ إلا أنه كان لديه في هذا الطريق وعواطفه رأس مال كبير وكثير لا ينفد أبداً، وهو الإيمان بالله والتوكل عليه، لذا لم يكثر بأى شيء وواصل السير .. «وَلَمَّا تَوَجَّهَ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ» (١).

وَلَمَّا وَرَدَ مِيَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءَ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤) فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥)

(١) «تلقاء»: مصدر أو اسم مكان، ومعناه هنا: الجهة والصوب الذي قصده.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٧

عمل صالح يفتح لموسى أبواب الخير: نواجه هنا المقطع الخامس من هذه القصة، وهي قضية ورود موسى عليه السلام إلى مدينه مدين.

قيل: إن هذا الشاب الطاهر قطع الطريق في ثمانية أيام، حتى لقي ما لقي من النصب والتعب، وورمت قدماه من كثرة المشى.

وكان يقات من نبات الأرض وأوراق الشجر دفعا لجوعه.

وبدأت معالم «مدين» تلوح له من بعيد شيئا فشيئا، وأخذ قلبه يهدأ ويأنس لإقترابه من المدينه. يقول القرآن في هذا الصدد: «وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ» (١).

فحركه هذا المشهد ... حفته من الشبان الغلاظ يملأون الماء ويسقون الأغنام، ولا يفسحون المجال لأحد حتى يفرغوا من أمرهم .. بينما هناك امرأتان تجلسان في زاوية بعيدة عنهم، وعليهم آثار العفة والشرف، جاء إليهما موسى عليه السلام ليسألهما عن سبب جلوسهما هناك و «قَالَ مَا خَطْبُكُمَا» (٢).

لم يرق لموسى عليه السلام أن يرى هذا الظلم، فلم يتحمل ذلك كله، فهو المدافع عن المحرومين ومن أجلهم خرج من وطنه.

فقالت البنتان: إنهما تنتظران تفرق الناس وأن يسقى هؤلاء الرعاء أغنامهم: «قَالَتَا لَأَسْقِيَنَّ حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ» (٣).

ومن أجل أن لا يسأل موسى: أليس لكما أب؟ ولماذا رضى بإرسال بناته للسقى مكانه، أضافتا مكملتين كلامهما: «وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ». فتأثر موسى عليه السلام من سماعه حديثهما بشدة، فتقدم وأخذ الدلو وألقاها في البئر .. يقال: إن هذه الدلو كان يجتمع عليها عدة نفر ليخرجوها بعد امتلائها من الماء، إلا أن موسى عليه السلام استخرجها بقوته وشكيمته وهمته بنفسه دون أن يعينه أحد: «فَسَقَى لَهُمَا» أغنامهما.

ولكن موسى عليه السلام بالرغم من تعب السير في الطريق والجوع ملأ الدلو وسحبها بنفسه وسقى أغنام المرأتان جميعها .. «ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ».

(١) «تذودان»: مشتقة من «ذود» ومعناها المنع، فهما إذا كانتا تذودان أغنامهما لئلا تختلط بالأغنام الاخرى.

(٢) ما خطبكما: أى ما شأنكما وما شغلكما هنا!؟

(٣) «يصدر»: مأخوذ من مادة «صدر» ومعناها الخروج من الماء؛ و «الرعاء»: جمع راع، وهو سائس الغنم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٨

أجل .. إنه متعب وجائع، ولا أحد يعرفه في هذه المدينة. لكن هلم إلى العمل الصالح، فكم له من أثر محمود، خطوة نحو الله، فتح لموسى فصلاً جديداً، وهياً له من عالم عجيب من البركات المادية والمعنوية .. ووجد ضالته التي ينبغي أن يبحث عنها سنين طوالياً. وبداية هذا الفصل عندما جاءته إحدى البنيتين تخطو بخطوات ملؤها الحياء والعفة ويظهر منها أنها تستحي من الكلام مع شاب غريب: رجوعهما إليه بهذه السرعة على غير ما اعتادتاهما عليه، فقصتا عليه الخبر، فأرسل خلفه «فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ» فلم ترد على أن «قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا».

فلمع في قلبه إشراق من الأمل، وكأنه أحس بأن سيواجه رجلاً كبيراً .. رجلاً عارفاً بالحق وغير مستعد أن يترك أي عمل حتى لو كان ملء الدلو أن يجزيه عليه. أجل، لم يكن ذلك الشخص الكبير سوى «شعيب».

تحرك موسى عليه السلام ووصل منزل شعيب، وطبقاً لبعض الروايات، فإن البنت كانت تسير أمام موسى لتدله على الطريق، إلا أن الهواء كان يحرك ثيابها وربما انكشف ثوبها عنها، ولكن موسى لما عنده من عفة وحياء طلب منها أن تمشي خلفه وأن يسير أمامها، فإذا ما وصلا إلى مفترق طرق تدله وتخبره من أي طريق يمضي إلى دار أبيها شعيب.

دخل موسى عليه السلام منزل شعيب عليه السلام، يقول القرآن في هذا الصدد: «فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ». فالتفت موسى إلى أنه وجد استاذاً عظيماً .. كما أحس شعيب أنه عثر على تلميذ جدير ولائق. قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)

موسى في دار شعيب: هذا هو المقطع السادس من قصة حياة موسى عليه السلام المثيرة، جاء موسى إلى منزل شعيب، وبعد أن قص عليه قصته، بادرت إحدى بنتي شعيب بالقول: إنني أقترح أن تستأجره لحفظ الأغنام ورعايتها: و «قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٠٩

اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ».

فرضى شعيب عليه السلام باقتراح ابنته، وتوجه إلى موسى و «قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِي حِجَجٍ». ثم أضاف قائلاً: «فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ».

فلا أريد إيداعك «وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ».

واستجابة لهذا القرار والعقد الذي أنشأه شعيب مع موسى .. وافق موسى و «قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ». ثم أردف مضيفاً بالقول:

«أَيَّمَا الْأَجْلَيْنِ فَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ». أي سواء قضيت عشر سنين أو ثمانين سنين «حجج» فلا عدوان عليّ.

ومن أجل استحكام العقد بينهما جعل موسى عليه السلام الله كفيلاً وقال: «وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ».

وبهذه البساطة أصبح موسى صهراً لشعيب على ابنته.

فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (٢٩) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٣٠) وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ (٣١) اسْمُكَ يَدُوكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمُمُ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَانِكَ بُزْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلِيهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ (٣٢) قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (٣٣) وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْضَى حُ مِنْي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ

رَدَّأَ يُصِدُّ قُنِي إِنْ أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (٣٤) قَالَ سَيَنْشُدُ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكَ سُلْطَانًا فَلَا يَصَدُّ لِمَنْ إِلَيْكُمْ بَايَاتِنَا أَنْتَمَا وَمَنْ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ (٣٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٠

الشرارة الاولى للوحى: نصل الآن- إلى المقطع السابع- من هذه القصة ..

لا يعلم أحد- بدقه- ما جرى على موسى فى سنواته العشر مع شعيب، ولا شك أن هذه السنوات العشر كانت من أفضل سنوات العمر لموسى عليه السلام. ومن البديهى أن موسى عليه السلام لا يقنع فى قضاء جميع عمره برعى الغنم، وإن كان وجود «شعيب» إلى جانبه يعد غنيمه كبرى، فعليه أن ينهض إلى نصره قومه، وأن يخلصهم من قيود الأسر، وينقذهم من حالة الجهل وعدم المعرفة.

إن القرآن يقول فى أول من آية هذا المقطع: «فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا». ثم التفت إلى أهله و «قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ». أى (تندفون).

«آنست»: مشتقة من مادة «إناس»، ومعناها المشاهدة والرؤية المقترنة بالهدوء والراحة. «جذوة»: هى القطعة من النار.

ويستفاد من قوله «لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ» أنه كان أوضاع الطريق، كما يستفاد من جملة «لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ» أن الوقت كان ليلاً بارداً. «فَلَمَّا آتَتْهَا». أى أتى النار التى آنسها ورآها، فتعجب موسى من ذلك: «نُودَى مِنَ الشَّجَرَةِ أَن يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ».

«الشاطيء»: معناه الساحل؛ و «الوادى»: معناه الطريق بين الجبلين، أو ممر السيول؛ و «الأيمن»: مشتق من «اليمن» خلاف اليسار، وهو صفة للوادي؛ و «البقعة»: القطعة من الأرض المعروفة الأطراف.

ولا شك أن الله سبحانه قادر على أن يجعل الأمواج الصوتية فى كل شىء، فأوجد فى الوادى شجرة ليكلم موسى.

ومع الإلتفات إلى أن موسى عليه السلام سيتحمل مسؤوليه عظيمه وثقله .. فينبغى أن تكون عنده معاجز عظيمه من قبل الله تعالى مناسبة لمقامه النبوى، وقد أشارت الآيات إلى قسمين مهمين من هذه المعاجز:

الاولى قوله تعالى: «وَأَنْ أَلْقِي عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ».

فى هذه الحال سمع موسى عليه السلام مره اخرى النداء من الشجرة: «يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١١

«الجان»: فى الأصل معناه الموجود غير المرئى، كما يطلق على الحيات الصغار اسم (جان) أيضاً؛ لأنها تعبر بين الأعشاب والأحجار بصورة غير مرئية.

كانت المعجزة الاولى آية «من الرعب»، ثم أمر أن يظهر المعجزة الثانية وهى آية اخرى «من النور والأمل» ومجموعهما سيكون تركيباً من «الإنذار» و «البشارة» إذ جاءه الأمر: «اسْمُكَ يَدُكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ». فالبياض الذى يكون على يده للناس لم يكن ناشئاً عن مرض - كالبرص ونحوه- بل كان نوراً إلهياً جديداً.

لقد هزت موسى عليه السلام مشاهدته لهذه الامور الخارقة للعادات فى الليل المظلم وفى الصحراء الخالية .. ومن أجل أن يهدأ روع موسى من الرعب، فقد أمر أن يضع يده على صدره: «وَأَضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ».

وجاء موسى النداء معقباً: «فَدْنِكَ بُرْهَانَانِ مِنْ رَبِّكَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَسِقِينَ».

هنا تذكر موسى عليه السلام حادثه مهمه وقعت له فى حياته بمصر، وهى قتل القبطى، وتعبئه القوى الفرعونيه لإلقاء القبض عليه وقتله. لذلك فإن موسى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ».

وبعد هذا كله فإنى وحيد ولسانى غير فصيح، «وَأَخِي هُرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْتُهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ». «أفصح»: مشتقة من «الفصيح» وهو فى الأصل كون الشىء خالصاً، كما تطلق على الكلام الخالص من كل حشو وزيادة كلمة

«الفصيح» أيضاً. و «الردء»: معناه المعين والمساعد.

فأجاب الله دعوته، وطمأنه بإجابة ما طلبه منه و «قَالَ سَيَنْشُدُ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سَيْلِطَانًا» فالسلطة والغلبة لكما في جميع المراحل.

وبشرهما بالنصر والفوز، وأنه لن يصل إليهما سوء من أولئك؛ إذ قال سبحانه: «فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا». فهذه الآيات والمعجز لن يستطيعوا قتلكما أو الاضرار بكما «أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَائِبُونَ».

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٣٦) وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٣٧)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٢

موسى فى مواجهة فرعون: نواجه المقطع الثامن من هذه القصة العظيمة .. لقد تلقى موسى عليه السلام من ربه الأمر بأن يصدع بالنبوة والرسالة فى تلك الليلة المظلمة والأرض المقدسة، فوصل إلى مصر، وأخبر أخاه هارون بما حُمِّل .. فذهبا معاً إلى فرعون ليبلغاه رسالة الله. يقول القرآن فى أول آية من هذا المقطع: «فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرَى».

وأنكروا أن يكونوا سمعوا مثل ذلك، «وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ».

فواجهوا موسى متوسلين بحربة توسل بها جميع الجبابرة والضالون على طول التاريخ، حين رأوا المعجز من أنبيائهم .. وهى حربة «السحر».

لكن موسى عليه السلام أجابهم بلهجة التهديد والوعيد، حيث يكشف لنا القرآن هذا الحوار «وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَى مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ».

إشارة إلى أن الله يعلم حالى، وهو مطلع على بالرغم من اتهامكم إياى بالكذب ..

ثم بعد هذا، لو كان كلامى كذباً فأنا ظالم و «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ».

وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٣٨) وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُزْجَعُونَ (٣٩) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصِرُونَ (٤١) وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (٤٢)

كيف كان عاقبة الظالمين: نواجه هنا المقطع التاسع من هذا التاريخ المليء بالأحداث والعبر.

فقد شاع خبر إنتصار موسى عليه السلام على السحرة فى مصر، وموقع الحكومة الفرعونية أصبح فى خطر جدى شديد. فيجب صرف أفكار الناس، واشغالهم بسلسلة من المشاغل الذهنية، لإغفال الناس وتحميقيهم. وفى هذا الصدد يتحدث القرآن الكريم عن جلوس

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٣

فرعون للتشاور فى معالجة الموقف، إذ نقرأ فى أول آية من هذا المقطع: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي».

فأنا إلهكم فى الأرض .. أما إله السماء فلا دليل على وجوده، ولكننى سأتحقق فى الأمر ولا أترك الإحتياط، فالتفت إلى وزيره هامان وقال: «فَأَوْقِدْ لِي يَا هَمُّنُ عَلَى الطِّينِ». ثم أصدر الأوامر ببناء برج أو قصر مرتفع جداً لأصعد عليه واستخبر عن إله موسى. «فَاجْعَلْ لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ».

ولما بلغ البناء تمامه .. جاء فرعون بنفسه يوماً وصعد بتشريفات خاصة.

المعروف أنه رمى سهماً إلى السماء، فرجع السهم مخضباً بالدم على أثر إصابته لأحد الطيور أو أنها كانت خديعة من قبل فرعون من قبل .. فنزل فرعون من أعلى القصر وقال للناس: اذهبوا واطمأنوا فقد قتلت إله موسى.

ومن المسلم به أن جماعة من البسطاء الذين يتبعون الحكومة اتباعاً أعمى وأصم، صدقوا ما قاله فرعون ونشروه في كل مكان، وشغلوا الناس بهذا الخبر لإغفالهم عن الحقائق.

بعد هذا كله يتحدث القرآن عن استكبار فرعون ومن معه، وعدم إذعانهم لمسألتي «المبدأ والمعاد» بحيث كان فرعون يرتكب ما يشاء من إجرام وجنایات بسبب إنكار هذين الأصلين فيقول: «وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَأِيْرُجَعُونَ».

لكن لننظر إلى أين وصل هذا الغرور بفرعون وجنوده؟ يقول القرآن الكريم: «فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ». أجل، لقد جعلنا سبب موتهم في مصدر معيشتهم، وجعلنا النيل الذي هو رمز عظمتهم وقوتهم مقبرة لهم.

إنّ تعبير «نبذناهم» من مادة «نبد»، ومعناه رمى الأشياء التي لا قيمة لها وطرحها بعيداً.

ثم، يختتم الآية بالتوجه إلى النبي صلى الله عليه وآله قائلاً: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ».

ثم يضيف القرآن قائلاً في شأنهم: «وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصِرُونَ». فكما أنهم كانوا في هذه الدنيا أئمة الضلال، فهم في الآخرة- أيضاً- أئمة النار، لأن ذلك العالم تجسم كبير لهذا العالم.

ولمزيد التأكيد يصور القرآن صورتهم وماهيتهم في الدنيا والآخرة: «وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٤

هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِّنَ الْمَقْبُوحِينَ».

لعنة الله معناها طردهم من رحمته، ولعنة الملائكة والمؤمنين هي الدعاء عليهم صباحاً ومساءً.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٣) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعُرْبِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٤٤) وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًّا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (٤٥) وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٤٦)

نصل في هذا القسم من الآيات إلى «المقطع العاشر» وهو القسم الأخير من الآيات التي تتعلق بقصة موسى وما تحمله من معان كبيرة، وهي تتحدث عن نزول الأحكام، والتوراة، أي إنها تتحدث عن انتهاء الدور السلبي «الطاغوت» وبداية «الدور الإيجابي» والبناء. يبدأ هذا المقطع بالآية التالية: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

وفي أن المقصود من «القرون الأولى» من هم؟ قال بعض المفسرين: هو إشارة إلى الكفار من قوم نوح وعاد وثمود وأمثالهم، لأنه بتقادم الزمان ومضيّه تمحي آثار السابقين.

وقال بعض المفسرين: هو إشارة إلى هلاك قوم فرعون الذين كانوا بقايا الأقسام السابقين، لأن الله سبحانه أتى موسى كتاب «التوراة» بعد هلاكهم.

ولكنه لا مانع من أن يكون المقصود بالقرون الأولى في الآية شاملاً لجميع الأقسام.

«البصائر»: جمع «بصيرة» ومعناها الرؤية، والمقصود بها هنا الآيات والدلائل التي تستوجب إنارة قلوب المؤمنين .. و «الهدى» و «الرحمة» أيضاً من لوازم البصيرة .. وعلى أثرها تتيقظ القلوب.

ثم يبين القرآن الكريم هذه الحقيقة، وهي أن ما ذكرناه لك يا رسول الله، في شأن موسى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٥

وفرعون وما جرى بينهما بدقائقه، هو في نفسه دليل على حقايق القرآن، لأنك لم تكن «حاضراً» في هذه «الميادين» التي كان يواجه موسى فيها فرعون وقومه، ولم تشهدا بعينيك .. بل هو من الطاف الله عليك، إذ أنزل عليك هذه الآيات لهداية الناس .. يقول

القرآن: «وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعُرْبِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ». أي الأمر بالنبوة؛ «وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ».

ثم يضيف القرآن: «وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ». وتقادم الزمان حتى اندرست آثار الأنبياء وهدايتهم في قلوب الناس، لذلك أنزلنا عليك القرآن وبتنا فيه قصص الماضين ليكون نوراً وهدى للناس.

ثم يضيف القرآن الكريم: «وَمَا كُنْتَ تَأْوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ [/ أي: على أهل مكة] آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ» (١). وأوحينا إليك هذه الأخبار الدقيقة التي تتحدث عن آلاف السنين الماضية .. لتكون عبرة للناس وموعظة للمتقين (٢).

وتأكيداً على ما سبق بيانه يضيف القرآن الكريم قائلاً: «وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا». أي: نادينا موسى بأمر النبوة، ولكننا أنزلنا إليك بهذه الأخبار رحمة من الله عليك «وَلَكِن رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ». ولَوْ لَا أَن تَصِبَ بِهِمْ مَّصِيبَةً بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتُنَبِّحَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ (٤٨) قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥٠)

(١) «ثاوى»: مشتق من (ثوى) ومعناه الإقامة المقرونة بالإستقرار، ولذا سُمي المستقر والمكان الدائم بالمشوى

(٢) كان بين ظهور موسى عليه السلام وظهور النبي (محمد صلى الله عليه و آله) حدود ألفى عام.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٦

ذريعة للفرار من الحق: حيث إن الآيات - آنفه الذكر - كانت تتحدث عن إرسال النبي صلى الله عليه و آله لينذر قومه، ففي هذه الآيات يبين القرآن ما ترتب من لطف الله على وجود النبي في قومه فيقول: «إِنَّا وَقَبْلَ أَنْ نُرْسِلَ إِلَيْهِمْ رَسُولًا إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُنَزِّلَ الْعَذَابَ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِ ظَلْمِهِمْ وَسَيِّئَاتِهِمْ قَالُوا: لِمَاذَا لَمْ تَرْسِلْ لَنَا رَسُولًا يَبَيِّنُ لَنَا أَحْكَامَكَ لِنُؤْمِنَ بِهِ: «وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتُنَبِّحَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ». هذه الآية تشير إلى موضوع دقيق، وهو أن طريق الحق واضح وبين ... وكل «عقل» حاكم ببطلان الشرك وعبادة الأصنام ..

وقبح كثير من الأعمال التي تقع نتيجة الشرك وعبادة الأصنام - كالمظالم وما شاكلها - هي من مستقلات حكم العقل.

ثم تتحدث الآيات عن معاذير أولئك، وتشير إلى أنهم - بعد إرسال الرسل - لم يكفوا عن الحيل والذرائع الواهية، واستمروا على طريق الانحراف، فتقول الآية: «فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوْتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَى .

فلم لم تكن عصا موسى في يده؟ ولم لا تكون يده بيضاء «كيد موسى»؟ ولم لا ينشق البحر له كما انشق لموسى؟ ولم لم ... الخ.

فيجيب القرآن على مثل هذه الحجج، ويقول: «أَوَلَمْ يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا». أي: موسى وهارون، تعاونا فيما بينهما ليضلونا عن الطريق «وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ».

إن مشركي مكة المعاندين كانوا يصرون على أنه لم يأت النبي صلى الله عليه و آله بمعجز كمعجز موسى، ومن جهة أخرى لم يكونوا يعترفون بما يجدونه في «التوراة» من علائمه وأوصافه ولا يؤمنون بالقرآن المجيد وآياته العظيمة. لذا يخاطب القرآن النبي محمداً صلى الله عليه و آله ليتحداهم بأن يأتوا بكتاب أسمى من القرآن: «قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ».

ثم يضيف القرآن: «فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ». ولكن من أضيع منهم، «وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ».

ومن الطريف هنا أن روايات عديدة تفسر الآية بأن المراد منها من ترك إمامه وقائده

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٧

الإلهي واتبع هواه.

وهذه الروايات هي من قبيل المصداق البارز. وبتعبير آخر: إن الإنسان محتاج لهداية الله ... هذه الهداية تارة تنعكس في كتاب الله، واخرى في وجود النبي وسنته، واخرى في أوصيائه المعصومين، واخرى في منطق العقل.

المهم أن يكون الإنسان في خط الهداية الإلهية غير متبع لهواه، ليستطيع أن يستضيء بهذه الأنوار.

وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥)

سبب النزول

نقل المفسرون ورواه الأخبار روايات كثيرة ومختلفة في شأن نزول الآيات المتقدمة، والجامع المشترك فيها واحد، وهو إيمان طائفة من علماء اليهود والنصارى والأفراد الذين يتمتعون بقلوب طاهرة- بالقرآن ونبي الخاتم صلى الله عليه وآله.

قال سعيد بن جبيرة نزلت في سبعين من القسيسين بعثهم النجاشي فلما قدموا على النبي صلى الله عليه وآله قرأ عليهم «يس والقرآن الحكيم» حتى ختمها فجعلوا يبكون وأسلموا.

التفسير

طلاب الحق من أهل الكتاب آمنوا بالقرآن: حيث إن الآيات السابقة كانت تتحدث عن حجج المشركين الواهية أمام الحقائق التي يقدمها القرآن الكريم، فإن هذه الآيات محل البحث تتحدث عن القلوب المهتأة لقبول قول الحق. يقول القرآن في هذا الصدد: لقد أنزلنا لهم آيات القرآن تباعاً، «وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ».

إِلَّا أَنْ (اليهود والنصارى) «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ». لأنهم

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٨

يرونه منسجماً مع ما ورد في كتبهم السماوية من علامات ودلائل.

ثم يضيف القرآن في وصفهم قائلاً: «وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا».

ثم يضيف القرآن متحدثاً عنهم: إننا مسلمون لا في هذا اليوم فحسب، بل «إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ». ثم يتحدث القرآن الكريم عن هذه الجماعة التي آمنت بالنبي من غير تقليد أعمى، وإنما طلباً للحق، فيقول: «أُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا».

فمرة لإيمانهم بكتابهم السماوي الذي كانوا صادقين أوفياء لعهدهم معه ... ومرة أخرى لإيمانهم بنبي الإسلام العظيم صلى الله عليه وآله النبي الموعود المذكور عندهم في كتبهم السماوية.

ثم يشير القرآن الكريم إلى بعض أعمالهم الصالحة من قبيل «دفع السيئة بالحسنة» و«الإنفاق مما رزقهم الله» و«المرور الكريم باللغو والجاهلين» وكذلك الصبر والإستقامة، وهي خصال أربع ممتازة. حيث يقول في شأنهم القرآن الكريم: «وَيَدْرَأُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ». والخصلة الأخرى في هؤلاء الممدوحين بالقرآن أنهم: «وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ».

وليس الإنفاق من الأموال فحسب، بل من كل ما رزقهم الله من العلم والقوى الفكرية والجسمية والوجاهة الإجتماعية، وجميع هذه الامور من مواهب الله ورزقه- فهم ينفقون منها في سبيل الله.

وآخر صفة ممتازة بينها القرآن في شأنهم قوله: «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ».

ولم يردوا الجهل بالجهل واللغو باللغو، بل «وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلكُمْ أَعْمَالُكُمْ».

ثم يضيف القرآن في شأنهم حين يواجهون الجاهلين يقولون: «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَانْتَبَغَى الْجَاهِلِينَ». أجل، هؤلاء العظام هم الذين يستطيعون أن يستوعبوا رسالة الإيمان في نفوسهم، والذين بذلوا جهداً وقاموا أنواع الصعاب ليصلوا إلى معنى «الإيمان».

إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦) وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَنْخَطِفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧)

الهداية بيد الله وحده: إن الآيات السابقة كانت تتحدث عن طائفتين: طائفة من

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥١٩

مشركي أهل مكة المعاندين، كان رسول صلى الله عليه وآله شديد الإصرار على هدايتهم؛ وطائفة من أهل الكتاب والأفراد البعيدين عن مكة، تلقوا هداية الله برحابة صدر، ولم يستوحشوا من الضغوط والعزلة وما إلى ذلك.

فمع الالتفات إلى كل هذه الامور، نلاحظ أن الآية الاولى من هاتين الآيتين تكشف الستار عن هذه الحقيقة فتقول: «إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ».

والمقصود من الهداية ليس «إراءة الطريق»، لأن إراءة الطريق هي من وظيفة النبي صلى الله عليه وآله، وتشمل جميع الناس دون استثناء، بل المقصود من الهداية هنا هو «الإيصال للمطلوب والهدف»، والإيصال إلى المطلوب وإلى الهدف هو بيد الله وحده.

إن هذه الآية بمثابة التسلية والتثبيت لقلب النبي ليطمئن إلى هذه الحقيقة، وهي إنه لا إصرار المشركين وعنادهم وإن كانوا من أهل مكة، ولا إيمان أهل الحبشة ونجران وغيرهما أمثال سلمان الفارسي وبحيرا الراهب من دون دليل وسبب.

فعليه أن لا يكثر لعدم إيمان الطائفة الأولى.

وفي الآية الثانية- من الآيتين محل البحث- يتحدث القرآن الكريم عن طائفة اعترفوا بالإسلام في واقعهم وأيقنت به قلوبهم، إلا أنهم لم يظهروا إيمانهم بسبب منافع شخصية وملاحظات ذاتية، حيث يقول: «وَقَالُوا إِنْ تَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ تَنْخَطِفْ مِنْ أَرْضِنَا».

هذا الكلام لا يقوله إلا من يستضعف قدرة الله ولا يعرف كيف ينصر الله أوليائه ويخذل أعداءه. لذلك يقول القرآن رداً على مثل هذه المزاعم: «أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِّنْ لَّدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (١).

الله سبحانه الذي جعل هذه الأرض المألحة والملينة بالصخور والخالية من الأشجار والأنهار، جعلها حرماً تهفوا إليه القلوب، ويؤتى إليه بالثمرات من مختلف نقاط العالم، كل ذلك بيد قدرته القاهرة.

كيف لا يكون قادراً على أن يحفظكم من هجوم حفته من الجاهليين عباد الأوثان؟

(١) «نمکن»: في الآية بمعنى نجعل؛ و «يجبى»: مشتق من مادة «جباية»، والجباية معناها الجمع، لذلك يطلق على الحوض الذي يجمع فيه الماء جابية.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٠

فكيف يمكن أن يحرمكم الله منهما بعد الإسلام؟

لتكن قلوبكم قوية وآمنوا بما انزل اليكم فإن رب الكعبة ورب مكة معكم.

وَ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَوْمٍ بِطَرَفِ مَعِيذَتِهَا فَنَلَكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تَسِيكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَ كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ (٥٨) وَ مَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَّسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَ مَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَ أَهْلَهَا ظَالِمُونَ (٥٩) وَ مَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ زِينَتِهَا وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَ أَبْقَىٰ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠)

لا تخدعنكم علائق الدنيا: كان الحديث في الآيات المتقدمة يدور حول ما يدعيه أهل مكة، وقولهم: إن نتبع الهدى معك نتخطف من أرضنا بهجوم العرب علينا، وتتكدر حياتنا ويختل وضعنا المعاشي والاقتصادي، وفي هذه الآيات مورد البحث ردان آخران على كلامهم:

الأول: يقول .. على فرض أنك لم تؤمنوا، وحيثم في ظل الشرك مرفهين مادرياً، ولكن لا- تنسوا أن تعتبروا بحياء من قبلكم، «وَكَمْ

أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا» (١).

أجل، إن الغرور دعاهم إلى أن يبطروا من النعم، والبطر أساس الظلم، والظلم يجزّ حياتهم إلى النار ... «فَلَيْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسَيِّكُنْ مَنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا».

بلى ... بقيت بيوتهم خالية خربة متهدمة مظلمة لم يزرها ولم يسكنها أحد إلا لفترة قليلة «وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ».

جملة «كُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ» إشارة إلى أن مالكها الحقيقي هو الله سبحانه المالك لكل شيء، وإذا ما أعطى ملكاً «اعتبارياً» لأحد، فإنه لا يدوم له طويلاً حتى يرثه الله أيضاً.

والآية الثانية جواب عن سؤال مقدر، وهو: إذا كان الأمر كذلك، بأن يهلك الله الطغاة، فلم لم يهلك المشركين من أهل مكة والحجاز، الذين بلغوا حدّاً عظيماً من الطغيان، ولم يكن إثم ولا جهل إلا وارتكبه، ولم لم يعذبهم الله بعذابه الأليم؟

(١) «بطرت»: مشتقة من «بطر»، ومعناه الطغيان والغرور على أثر وفرة النعم.

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٥٢١

يقول القرآن في هذا الصدد: «وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَّهَاتِ رُسُلًا يَلْتَمِسُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا».

أجل ... لا يعذب الله قوماً حتى بعد إتمام الحجّة، فما لم يصدر ظلم يستوجب العذاب فإن الله لا يعذبهم، وهو يراقب أعمالهم، «وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ».

والتعبير «مَا كُنَّا» أو «وَمَا كَانَ رَبُّكَ» دليل على أن سنة الله الدائمة والأبدية التي كانت ولا زالت، هي أن لا يعذب أحداً إلا بعد إتمام الحجّة الكافية.

و آخر آية من هذا المقطع محل البحث تحمل الردّ الثاني على أصحاب الحجج الواهية، الذين كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وآله: «إِن تَتَّبِعِ الْهَيْدَى مَعَكَ تَتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا» وبعدها العرب من ديارنا، وهو قوله تعالى: «وَمَا أُوْتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنَّتْهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى مِمَّا عِنْدَكُمْ مِنَ النِّعَمِ الْفَانِي .. إِذْ إِنَّ نِعْمَ الدُّنْيَا تَشُوْبُهَا الْأَكْدَارُ وَالْمَشَاكِلُ الْمُخْتَلِفَةُ، وليس من نعمة مادية خالية من الضرر والخطر أبداً.

إضافة إلى ذلك فإن النعم التي عند الله «الباقية» لا تقاس مع النعم الدنيوية الزائلة، فنعم الله - إذن - خير وأبقى.

فبموازنة بسيطة يعرف كل إنسان عاقل أنه لا ينبغي أن يضحى بنعم الآخرة من أجل نعم الدنيا، ولذلك تختتم الآية بالقول: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعِدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٦٢) قَالِ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِلَّا فِئَةٌ يَعْْبُدُونَ (٦٣) وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ (٦٤)

كان الحديث في الآيات المتقدمة عن الذين فضّلوا الكفر على الإيمان بسبب منافعهم الشخصية، ورجحوا الشرك على التوحيد، وفي الآيات التي بين أيدينا يبين القرآن حال هذه الجماعة يوم القيامة قبال المؤمنين الصادقين. ففي بداية هذه الآيات يلقي القرآن سؤالاً يقارن فيه بين المؤمنين والكافرين، ويشير الوجدان ويجعله حكماً فيقول: «أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٥٢٢

وَعِدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ».

جملة «هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ» إشارة إلى الإحضر في محضر الله يوم القيامة للحساب. وجملة «الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» التي تكررت في سور مختلفة من القرآن الكريم، إشارة إلى حقارة هذه الحياة بالنسبة للحياة الأخرى، لأن كلمة «دنيا» في الأصل مأخوذة من «دنو»

ومعناها القرب في المكان أو الزمان أو المنزلة والمقام، ثم توسع هذا المفهوم ليطلق بلفظ «دنيا» أو «أدنى على الموجودات الصغيرة التي تحت اليد في مقابل الموجودات الكبيرة، وقد يطلق هذا اللفظ على الموضوعات التي لا قيمة لها في مقابل الأشياء ذات القيمة العالية، وربما استعمل في القرب في مقابل البعد، وحيث إن هذه «الحياة» في مقابل العالم الآخر صغيرة ولا قيمة لها وقريبة أيضاً، فإن تسميتها بالحياة الدنيا تسمية مناسبة جداً.

ثم يأتي الكلام عن عرصات يوم القيامة ومشاهدها ليجسده أمام الكفار، مشاهد يقشعر منها البدن حين يتصورها الإنسان، فيقول القرآن: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ».

فهذا السؤال في الحقيقة فيه نوع من الإهانة والتوبيخ والعقوبة.

ولكنهم بدلاً من أن يجيبوا بأنفسهم، فإن معبوديهم هم الذين يردون الجواب، ويتبرؤون منهم، ويتنفرون من عبادة المشركين إياهم. ونعرف أن معبودات المشركين وآلهتهم على ثلاثة أنواع: فإما أن يكونوا أصناماً «وأحجاراً وخشباً» أو من المقدسين كالملائكة والمسيح، وإما أن يكونوا من الشياطين والجن. فالذين يردون على السؤال ويجيبون هم النوع الثالث، كما حكى عنهم القرآن: «قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ».

وتعقياً على السؤال عن آلهتهم وعجز المشركين عن الجواب، يطلب أن يدعوهم لنصرتهم «وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ» (١).

وحيث يعلم المشركون أن دعاءهم غير نافع، وأن المعبودين «الشركاء» لا يمكن أن يفعلوا شيئاً من شدة الهلع والوحشة، أو استجابة لأمر الله، يتوجهون إلى الشركاء ويدعونهم كما يقول القرآن الكريم: «فَدَعَوْهُمْ».

(١) التعبير «شركاءكم» مع أن هؤلاء الشركاء كانوا قد جعلوا شركاء الله سبحانه، هو إشارة إلى أن هؤلاء الشركاء من صنعكم وهم متعلقون بكم لا بالله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٣

ومن الواضح أنه لا أثر لهذا النداء والطلب، ولا يقال لهم «لييك» .. «فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ». فحينئذ لا ينفعهم شيء «وَرَأَوْا الْعَذَابَ». ويتمنون «لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ».

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ (٦٥) فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ (٦٦) فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ (٦٧) وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٨) وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠)

تعقب الآيات محل البحث، على ما كان في الآيات السابقة في شأن المشركين وما يسألون يوم القيامة. فبعد أن يسألوا عن شركائهم ومعبوديهم، يسألون عن مواقفهم وما أبدوه من عمل إزاء أنبيائهم: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ».

ومن المسلم به أن هؤلاء «المشركين» لا يملكون جواباً لهذا السؤال. فكل ما يقولون كاشف عن فضيحتهم وشقائهم، حتى أن الأنبياء والمرسلين في ذلك اليوم يجيبون ربهم حين يسألون: «مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَاعَلِمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْغُيُوبَ» (١).

ما الذي يقوله في ذلك اليوم وفي ذلك المكان عمى القلوب من المشركين؟ لذلك يكشف القرآن عن حالهم هناك فيقول:

«فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ». أي يسأل بعضهم بعضاً ولا يعرفون جواباً.

وحيث إن أسلوب القرآن هو ترك الأبواب مفتوحة بوجه الكافرين والاثمين دائماً، لعلهم يتوبون ويرجعون إلى الحق في أي مرحلة كانوا من الإثم، فإنه يضيف في الآية التي بعدها: «فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ».

فسيبيل النجاة- حسب ما يوضحه القرآن- يتلخص في ثلاث جمل هي العودة والتوبة إلى الله، والإيمان، والعمل الصالح، وعاقبتهما النجاة والفلاح حتماً.

و الآية التي بعدها دليل على نفى الشرك وبطلان عقيدة المشركين، إذ تقول: «وَرَبُّكَ

(١) سورة المائدة/ ١٠٩.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٤

يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ». فالخلق بيده، والتدبير والاختيار بيده أيضاً، وهو ذو الإرادة.

فمع هذه الحال، كيف يسلك هؤلاء طريق الشرك ويتجهون نحو غير الله؟ لذلك فإن الآية تنزه الله عن الشرك وتقول:

«سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ».

أمّا الآية التي بعدها فتتحدث عن علم الله الواسع، وهي تأكيد أو دليل على الاختيار الواسع في الآية السابقة، إذ تقول هذه الآية: «وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تَكُنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ».

فإحاطته بكل شيء دليل على اختياره لكل شيء، كما هي - ضمناً - تهديد للمشركين، لئلا يظنوا أن الله غير مطلع على سرائرهم ونياتهم و «مؤامراتهم».

و الآية الأخيرة من هذا المقطع، هي نتيجة الحكم، وتوضيح للآيات السابقة في مجال نفى الشرك، وهي ذات أربعة أوصاف من أوصاف الله، وجميعها فرع على خالقيته واختياره.

فالأول: أنه «وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

فمن يتوسل بالأصنام لتشفع له عند الله فهو من المضلين الخاطئين.

والثاني: أن جميع النعم دنيوية كانت أم اخروية هي منه، وهي من لوازم خالقيته المطلقة، لذلك يقول القرآن في هذا الصدد:

«لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ».

الثالث: أنه «وَلَهُ الْحُكْمُ». فهو الحاكم في هذا العالم، وفي العالم الآخر.

والرابع: «وَأِلَيْهِ تُرْجَعُونَ» للحساب والثواب والعقاب.

فالله الخالق، وهو المطلع، وهو الحاكم يوم الجزاء، وبيده الحساب والثواب والعقاب.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَمْ لَكُمْ تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ

عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَكُمْ تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣) وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٧٤) وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ

أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٧٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٥

نعمتا الليل والنهار العظيمتان: هذه الآيات - محل البحث - تتحدث عن قسم كبير من مواهب الله سبحانه، التي تدل على التوحيد ونفى

الشرك من جهة، كما أنها تكمل البحث السابق .. وتذكر مثلاً للنعم التي تستوجب الحمد والثناء. ففي الآية الاولى من هذه الآيات

إشارة إلى نعمه النهار والنور الذي هو أساس لأي شيء حركه، فتقول الآية: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ

إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَمْ لَكُمْ تَسْمَعُونَ».

كما تتحدث الآية الاخرى عن نعمه الظلمة فتقول: «قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم

بَلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَمْ لَكُمْ تُبْصِرُونَ».

أمّا الآية الثالثة فتحكى عن نتيجة النعمة المشار إليها في الآيتين السابقتين فيقول: «وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

إِنَّ سَعَةَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَسْتَوْجِبُ أَنْ تَضْمَنَ جَمِيعَ عَوَامِلِ حَيَاتِكُمْ.

ومرّة أخرى - بعد ذكر جانب من دلائل التوحيد ونفى الشرك - يعود القرآن الكريم على السؤال الأوّل الذي أثير في الآيات السابقة ليقول: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ».

وهذه الآية مكررة في السورة نفسها، إذ وردت بنصّها في الآية (٦٢)، ولعلّ هذا التكرار ناشىء عن السؤال مرتين في يوم القيامة، مرّة بصورة انفرادية ليعودوا إلى وجدانهم فيدخلوا من أنفسهم، ومرّة بصورة عامّة في محضر الشهود، وهو ما أشير إليه في الآية التي بعدها .. ليخجلوا أيضاً من حضورهم. لذلك تأتي الآية التي بعدها فتقول: «وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَيَّا تَوَابُهَا نُكُومُ» (١). أيها المشركون الضالون.

وحين تنكشف المسائل وتتجلى الامور لا تبقى خافية، «فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

هؤلاء الشهود هم الأنبياء بقرينة الآيات الاخرى في القرآن، إذ أنّ كل نبي شاهد على امته، ونبي الخاتم صلى الله عليه وآله الذي هو خاتم الأنبياء هو شهيد على جميع الأنبياء والامم.

(١) التعبير «نزعنا» التي تعنى جذب الشىء من مقرّه، هي إشارة إلى إحضار الشهود من بين كل جماعة وامة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٦

إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْفِينِ (٧٧) قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨)

الثرى الإسرائيلي البخيل: جاء تفصيل قصه موسى عليه السلام العجيبه ومواجهته ومواقفه مع فرعون في قسم كبير من الآيات السابقة في هذه السورة .. وفي القسم الآخر من آيات هذه السورة، وقع الكلام على مواجهه بنى إسرائيل مع رجل ثرى منهم يدعى «قارون». المعروف أنّ «قارون» كان من أرحام موسى وأقاربه (ابن عمه أو ابن خالته) وكان عارفاً بالتوراه، وكان في بدايه أمره مع المؤمنين، إلّا أنّ غرور الثروه جرّه إلى الكفر ودعاه إلى أن يقف بوجه موسى عليه السلام وأماته ميته ذات عبره للجميع، حيث نقرأ شرح ذلك في الآيات التاليه. يقول القرآن في شأنه أولاً: «إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ». وسبب بغيه وظلمه أنّه كان ذا ثروه عظيمه، ولأنّه لم يكن يتمتع بإيمان قوى وشخصيه متينه فقد غرّته هذه الثروه الكبيره وجرّته إلى الانحراف والاستكبار.

يصف القرآن ما عنده من ثروه فيقول: «وَأَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ». «المفتاح»: جمع «مفتاح» معناه المكان الذي يدخّر فيه الشىء، كالصندوق الذي يحفظ فيه المال، وهو ما يسميه بعض التجار ب «القاصه». فيكون المعنى: إنّ قارون كان ذا مال كثير ووفير من الذهب والفضه، بحيث كان يصعب حمل صناديقها على الرجال الأشداء «أولى القوه». «تنوؤ»:

مشتقّه من «النوء» ومعناه القيام بمشقه وثقل، وتستعمل في حمل الأثقال التي لها ثقل ووزن كبير، بحيث لو حملها الإنسان لمال إلى أحد جانبيه.

والآن لنرى ما قال بنو إسرائيل لقارون، يقول القرآن في هذا الصدد: «إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ» (١).

(١) «الفرحين»: جمع الفرح، وتعنى من يكون مغروراً على أثر تملكه الشىء وامتكراً بطراً منتشياً من ربح النصر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٧

ثم يقدمون له أربع نصائح قيمه اخرى ذات تأثير مهم على مصير الإنسان، بحيث تتكامل لديه حلقه خماسيه من النصائح مع ما تقدم

من قولهم له: «لَاتَفْرَحْ».

فالنصيحة الاولى قولهم له: «وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ». وهذا إشارة إلى أن المال والثروة ليس أمراً سيئاً كما يتصوره بعض المتوهمين، المهم أن تعرف فيم يستعمل المال، وفي أى طريق ينفق. وكان قارون رجلاً ذا قدرة على الأعمال الاجتماعية الكبيرة بسبب أمواله الطائلة، ولكن ما الفائدة منها وقد أعماه غروره عن النظر إلى الحقائق.

والنصيحة الثانية قولهم له: «وَلَا تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا». والآية تشير إلى مسألة واقعية، وهى أن لكل فرد منا نصيباً من الدنيا، فالأموال التى يصرفها على بدنه وثيابه ليظهر بمظهر لائق هى أموال محدودة، وما زاد عليها لا تزيد مظهره شيئاً، وعلى الإنسان أن لا ينسى هذه الحقيقة ... فالإنسان ... كم يستطيع أن يأكل من الطعام؟ وكم يستطيع أن يلبس من الثياب؟ وكم يمكن أن يحوز من المساكن والمراكب؟ وإذا مات وكم يستطيع أن يأخذ معه من الأكفان؟ فالباقى - إذن - رضى أم أبى هو من نصيب الآخرين. وما أجمل قول الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة حيث يقول: «يا بن آدم ما كسبت فوق قوتك فأنت فيه خازن لغيرك». والنصيحة الثالثة هى: «وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ».

وبتعبير آخر: كما أن الله تفضل عليك وأحسن، فأحسن أنت إلى الناس.

والنصيحة الرابعة والأخيرة أن لا- تغرنك هذه الأموال والإمكانات المادية فتجرك إلى الفساد: «وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَأِيْحِبُّ الْمُفْسِدِينَ».

وهذا أيضاً حقيقة واقعية أخرى، إن كثيراً من الأثرياء وعلى أثر جنون زيادة المال - أحياناً - أو طلباً للاستعلاء، يفسدون فى المجتمع، فيجرون إلى الفقر والحرمان، ويحتكرون جميع الأشياء فى أيديهم.

والآن لنلاحظ ما كان جواب هذا الإنسان الباغى والظالم الإسرائيلى لجماعته الواعظين له.

فأجابهم قارون بتلك الحالة من الغرور والتكبر الناشئة من ثروته الكبيرة، و «قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي».

هذا لا يتعلق بكم، وليس لكم حق أن ترشدونى إلى كيفية التصرف بمالى.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٨

وهنا يجب القرآن على قول قارون وأمثاله من المتكبرين الضالين، فيقول: «أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا».

أتقول: «إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي» ونسيت من كان أكثر منك علماً وأشدَّ قوَّةً وأثرى مالاً، فهل استطاعوا أن يفروا من قبضة العذاب الإلهى؟!!

وفى ختام الآية إنذار ذو معنى كبير آخر لقارون، جاء فى غاية الإيجاز: «وَلَا يُسَلِّ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ».

بعبارة اخرى: أن العلماء من بنى إسرائيل نصحوا قارون هذا اليوم وكان لديه مجال والجواب، لكن بعد إتمام الحجَّة ونزول العذاب الإلهى، عندئذ لا مجال للتفكير والجواب، فإذا حلَّ العذاب الإلهى بساحته فهو الهلاك الحتمى.

فَحَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَكُدُو حَظٌّ عَظِيمٌ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُ إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيُكَانُّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَانَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)

جنون الثروة: المعروف أن أصحاب الثروة يتلون بأنواع الجنون ... وواحد منها «جنون عرض الثروة وإظهارها» فهؤلاء يشعرون باللذة عندما يعرضون ثروتهم على الآخرين، فإن قارون لم يكن مستثنى من هذا القانون، بل كان يعدُّ مثلاً بارزاً له، والقرآن يتحدث عنه فى

جملة موجزة في بعض آياته فيقول: «فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ». امام قومه من بنى اسرائيل. وجملة «في زينته» ناطق عن هذه الحقيقة، وهي أنه أظهر جميع قدرته وقوته ليبدى ما لديه من زينة وثروة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٢٩

هنا أصبح الناس طائفتين - بحسب العادة فطائفه وهم الأكثرية - من عبدة الدنيا - أثارهم هذا المشهد، فاهترت قلوبهم ... «قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ».

وأمام هذه الطائفة التي ذكرناها آنفاً طائفة أخرى من العلماء والمتقين الورعين، فهؤلاء كانوا هناك، وكان لهم موقف آخر من قارون، وكما يعبر عنهم القرآن «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلِكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا». ثم أردفوا مؤكدين: «وَلَمَا يُلَاقُوا إِلَّا الصَّابِرُونَ».

في الدر المنثور عن ابن عباس أن قارون كان من قوم موسى، قال: كان ابن عمه وكان يبتغي العلم حتى جمع علماً فلم يزل في أمره ذلك حتى بغى على موسى وحسده.

فقال له موسى عليه السلام: إن الله أمرني أن آخذ الزكاة فأبى. فقال: إن موسى يريد أن يأكل أموالكم جاءكم بالصلاة وجاءكم بأشياء فاحتملتموها فتحتملوه أن تعطوه أموالكم؟ قالوا: لا - نحتمل فما ترى؟ فقال لهم: أرى أن أرسل إلى بغيا بنى إسرائيل فترسلها إليه فترميه بأنه أرادها على نفسها فأرسلوا إليها فقالوا لها: نعطيك حكمك على أن تشهدى على موسى أنه فجر بك. قالت: نعم.

فجاء قارون إلى موسى عليه السلام قال: اجمع بنى إسرائيل فأخبرهم بما أمرك ربك قال: نعم. فجمعهم فقالوا له: بم أمرك ربك؟ قال:

أمرني أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وأن تصلوا الرحم وكذا وكذا وقد أمرني في الزاني إذا زنى وقد أحصن أن يرجم. قالوا: وإن كنت أنت؟ قال: نعم. قالوا: فإنك قد زنت، قال: أنا؟

فأرسلوا إلى المرأة فجاءت، فقالوا: ما تشهدين على موسى؟ فقال لها موسى عليه السلام أنشدتك بالله إلماً صدقت. قالت: أما إذا نشدتنى فإنهم دعوني وجعلوا لي جعلاً على أن أقذفك بنفسى وأنا أشهد أنك برىء وأنتك رسول الله.

فخرّ موسى عليه السلام ساجداً يبكي فأوحى الله إليه: ما يبكيك؟ قد سلطناك على الأرض فمرها فتطيعك، فرفع رأسه فقال: خذيتهم فأخذتهم إلى أعقابهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى. فقال: خذيتهم فأخذتهم إلى أعناقهم فجعلوا يقولون: يا موسى يا موسى فقال: خذيتهم فغيبتهم فأوحى الله: «يا موسى سألك عبادى وتضرعوا إليك فلم تجبهم فو عزتى لو أنهم دعوني لأجبتهم» (١).

(١) الميزان في تفسير القرآن ٨٣ / ١٦.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٠

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: «فَحَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ».

يا للعجب ... ففرعون يهوى في ماء النيل ... وقارون في أعماق الأرض.

الماء الذى هو سرّ الحياة وأساسها يكون مأموراً بهلاك فرعون، والأرض التى هى مهاد الاطمئنان والدعة تنقلب قبراً لقارون واتباعه. ومن البديهي أن قارون لم يكن لوحده فى ذلك البيت فقد كان معه أعوانه وندماءه ومن أعانه على ظلمه وطغيانه، وهكذا توغلوا فى أعماق الأرض جميعاً. «فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُوهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ».

أما آخر آية - محل البحث - فتحكى عن التبدل العجيب لأولئك الذين كانوا يتفرجون على استعراض قارون بالأمس ويقولون: يا ليت لنا مثل ما أوتى قارون، وما شابه ذلك. وإذا هم اليوم يقولون: واهاً له، فإن الرزق بيد الله؛ «وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ

وَيَكُنَّ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ».

لذلك شكروا الله على هذه النعمة وقالوا: «لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيُكَأَنَّهُ لَا يَفْلِحُ الْكٰفِرُونَ». فالآن نرى الحقيقة بأعيننا، وعاقبة الغرور والغفلة ونهاية الكفر والشهوة.

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٤)

نتيجة حبّ التسلط والفساد في الأرض: بعد البيان المثير لما حدث لثرى مستكبر ومتسلط، وهو قارون، تبدأ الآية الأولى من هذا المقطع ببيان استنتاج كلي لهذا الواقع وهذا الحدث، إذ تقول الآية: «تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا». إنّ ما يكون سبباً لحرمان الإنسان من مواهب الدار الآخرة، هو هذان الأمران: «الرغبة في العلو» أي الاستكبار؛ و «الفساد في الأرض» وهما الذنوب.

ويقول القرآن في نهاية الآية: «وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ». و «العاقبة» بمفهومها الواسع هي النتيجة الصالحة، وهي الانتصار في هذه الدنيا، والجنة ونعيمها في الدار الاخرى ...

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣١

وبعد ذكر هذه الواقعية، وهي أنّ الدار الآخرة ليست لمن يحب السلطة والمستكبرين، بل هي للمتقين المتواضعين وطلبة الحق، تأتي الآية الثانية لتبين قانوناً كلياً وهو مزيج بين العدالة والتفضل، ولتذكر ثواب الإحسان. فتقول: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا». وهذه هي مرحلة التفضل، أي أنّ الله سبحانه لا يحاسب الناس كما يحاسب الإنسان نظيره بعين ضيقه، فإذا أراد الإنسان أن يعطى أجر صاحبه فإنه يسعى أن يعطيه بمقدار عمله، إلّا أنّ الله قد يضاعف الحسنه بعشر أمثالها وقد يضاعفها بمئات الأمثال وربما بالآلاف، إلّا أنّ أقلّ ما يتفضل الله به على العبد أن يجازيه عشرة أضعاف حسناته، حيث يقول القرآن في الآية (١٦٠) من سورة الأنعام: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا».

ثم يعقب القرآن ليذكر جزاء المسيئين فيقول: «وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

وهذه هي مرحلة العدل الإلهي، لأنّ المسيء لا يجازى إلّا بقدر إساءته، ولا تضاف على إساءته أية عقوبة.

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٨٥) وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦) وَلَا يَصُدُّنَكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلْتُ إِلَيْكَ وَإِدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٨٧) وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان عن ابن عباس: لما نزل النبي صلى الله عليه وآله بالجحفة في مسيره إلى المدينة، لما هاجر إليها، اشتاق إلى مكة فأتاه جبرائيل عليه السلام فقال: أتشتاق إلى بلدك وهو مولدك؟! فقال: نعم. قال جبرائيل: فإنّ الله يقول: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ» (٨٧). يعني مكة ... ونعلم إنّ هذا الوعد العظيم تحقق أخيراً.

(١) راجع تفسير الميزان، تفسير القرطبي، ومجمع البيان، «التفسير الكبير» للفخر الرازي، وتفسير غيرها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٢

فعلى هذا تعدّ الآية آنفة الذكر من الإخبار الإعجازي السابق لوقوعه، إذ أخبر القرآن عن رجوع النبي صلى الله عليه وآله إلى مكة بصورة قطعية ودون أي قيد وشرط، ولم تطل المدّة حتى تحقق هذا الوعد الإلهي الكبير.

التفسير

الوعد بعودة النبي إلى حرم الله الآمن: قلنا: إن الآية الاولى من هذه الآيات طبقاً لما هو مشهور بين المفسرين نزلت في «الجحفة» في مسير النبي صلى الله عليه وآله، إلى المدينة إذ كان متوجهاً إلى يثرب لتتحول بوجوده إلى «مدينة الرسول» ... لكن هذا الحنين والشوق والتعلق بمكة يؤلمه كثيراً، وليس من اليسير عليه الإبتعاد عن حرم الله الآمن.

وهنا يشرق في قلبه الطاهر نور الوحي، ويبشّره بالعودة إلى وطنه الذي ألفه فيقول: «إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ». فلا تكثرث ولا تُذهب نفسك حسرات، فالله الذي أعاد موسى إلى أمته هو الذي أرجعه أيضاً إلى وطنه بعد غياب عشر سنوات في مدين.

هو الله سبحانه الذي يردك إلى مكة بكل قوة وقدره، ويجعل مصباح التوحيد على يدك مشرقاً في هذه الأرض المباركة. ثم يضيف القرآن في خطابه للنبي صلى الله عليه وآله، أن يجيب على المخالفين الضالين بما علمه الله: «قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ».

إن طريق الهداية واضح، وضلالهم بين، وهم يتعبون أنفسهم عبثاً، فالله يعرف ذلك جيداً، والقلوب التي تعشق الحق تعرف هذه الحقيقة أيضاً.

أما الآية التالية فتحدث عن نعمه اخرى من نعم الله العظيمة على النبي صلى الله عليه وآله فتقول: «وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ».

ثم يضيف القرآن في خطابه للنبي صلى الله عليه وآله أن طالما كنت في هذه النعمة: «فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ». ومن المسلم به أن النبي صلى الله عليه وآله لم يكن ظهيراً للكافرين أبداً، إلا أن الآية جاءت في مقام التأكيد على النبي صلى الله عليه وآله وبيان المسؤولية للآخرين.

وفي هاتين الآيتين أربعة أوامر من الله لنبيه صلى الله عليه وآله، وأربعة صفات لله تعالى، وبها يكتمل ما ورد في هذه السورة من أبحاث.

يقول أولاً: «وَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْ آيَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٣

إِلَيْكَ». وبالرغم من أن النهي موجه إلى الكفار، إلا أن مفهوم الآية عدم تسليم النبي صلى الله عليه وآله أمام صد الكافرين، وإحباطهم ومؤامراتهم.

وبهذا الأسلوب يأمر الله النبي صلى الله عليه وآله أن يقف راسخ القدم عند نزول الآيات ولا يتردد في الأمر، وأن يزيل الموانع من قارعة الطريق مهما بلغت، وليسر نحو هدفه مطمئناً، فإن الله حاميهم ومعه أبداً.

وبعد هذا الخطاب الذي فيه جنبه نهى، يأتي الخطاب الثاني وفيه سمة إثبات فيقول: «وَأَدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ».. فالله الذي خلقك وهو الذي ربّاك ورعاك ...

والأمر الثالث، بعد الأمر بتوحيد الله، هو نفى جميع أنواع الشرك وعبادة الأصنام «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ».

والأمر الرابع تأكيد آخر على نفى جميع أنواع الشرك، إذ يقول تعالى: «وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ».

وهذه الأوامر المتتابعة كل واحد منها يؤكد الآخر، يوضح أهمية التوحيد في المنهج الإسلامي، إذ بدونها يكون كل عمل زيفاً ووهماً. وبعد هذه الأوامر الأربعة تأتي أوصاف أربعة لله سبحانه، وهي جميعاً تأكيد على التوحيد أيضاً:

فالأول قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ».

والثاني قوله: «كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ».

والوصف الثالث: «لَهُ الْحُكْمُ» والحاكمية في عالمي التشريع والتكوين.

والرابع: أن معادنا إليه «وإليه تُرْجَعُونَ».

والأوصاف الثلاثة الأخيرة يمكن أن تكون دليلاً على إثبات التوحيد وترك جميع أنواع عبادة الأصنام، الذي أشير إليه في الوصف الأول.

«نهاية تفسير سورة القصص»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٥

٢٩ سورة العنكبوت

محتوى السورة: إن أبحاث هذه السورة تتلخص في أربعة أقسام:

- ١- في البداية يتحدث عن مسألة «الامتحان»، وموضوع «المنافقين»، وهذان الأمران متلازمان لا يقبلان الانفكاك.
 - ٢- وقسم آخر من هذه السورة هو لتسليق قلب النبي صلى الله عليه وآله والمؤمنين القلة الأوائل، عن طريق بيان جوانب من حياة الأنبياء العظام السابقين، أمثال نوح وإبراهيم ولوط وشعيب عليهم السلام وعواقبهم؛ إذ واجهوا أعداءً ألداءً أمثال نمرود وطواغيت المال البخلاء.
 - ٣- ثم يتحدث عن التوحيد ودلائل الله في عالم خلقه، والمواجهة مع المشركين، ويدعوا الفطرة والوجدان إلى الإحتكام والقضاء الحق.
 - ٤- وفي قسم آخر من هذه السورة، ففيه مباحث متنوعة عن عجز الأصنام المصنوعة التي تعبد من دون الله، وعبادها الذين مثلهم كمثل العنكبوت، وبيان عظمة القرآن، ودلائل حقانية نبي الخاتم، ولجاجة المخالفين، كما تتعرض لسلسلة من المسائل التربوية أمثال: الصلاة، والعمل الصالح، والإحسان إلى الوالدين، وأسلوب مناقشة المخالفين، وما إلى ذلك.
- وتسمية السورة هذه ب «العنكبوت» مأخوذة من الآية (٤١) من هذه السورة، التي تشبه عبدة الأوثان من دون الله بالعنكبوت، التي تبنى بيتها من نسيجها، وهو أوهن البيوت.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٦

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «من قرأ سورة العنكبوت كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل المؤمنين والمنافقين».

وفي ثواب الأعمال عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من قرأ سورة العنكبوت والروم في شهر رمضان ليلة ثلاث وعشرين فهو والله من أهل الجنة، لا أستثنى فيه أبداً، ولا أخاف أن يكتب الله عليّ في يميني إثمًا، وإنّ لهاتين السورتين من الله مكانًا».

ولا شك أن محتوى هاتين السورتين الغزير، والدروس العملية المهمة منها في التوحيد، وما إلى ذلك، كلّ كاف لأن يسوق أيّ إنسان ذى لب وفكر وعمل إلى الجنة والخلود فيها.

الم (١) أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ (٣)

نواجه في بداية هذه السورة الحروف المقطعة «الم» أيضاً.. وقد بينا تفسيرها عدة مرات من وجوه مختلفة «١».

وبعد هذه الحروف المقطعة يشير القرآن إلى واحدة من أهم مسائل الحياة البشرية، وهي مسألة الشدائد والضغوط والامتحان الإلهي فيقول أولاً: «أَحْسِبَ النَّاسَ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ» «٢».

ثم يذكر القرآن هذه الحقيقة- بعد الآية المتقدمة مباشرة- وهي أن الامتحان سنه إلهية دائمة جارية في جميع الأمم المتقدمة، إذ يقول: «وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ».

ووقعوا أيضاً- تحت تأثير ضغوط الأعداء القساء والجهلة المعاندين ..

وينبغي أن يكون الأمر كذلك، لأنه في مقام الإدعاء يمكن لكل أحد أن يذكر عن نفسه أنه أشرف مجاهد وأفضل مؤمن وأكثر الناس تضحية .. فلا بد من معرفة قيمة هذه الإدعاءات بالامتحان، وينبغي أن تعرف النيات والسرائر إلى أي مدى تنسجم مع هذه الادعاءات.

(١) يراجع بداية تفسير سورة البقرة وبداية سورة آل عمران وبداية تفسير سورة الأعراف.

(٢) «يفتونون»: مشتق من «الفتنة» وهي في الأصل وضع الذهب في النار لمعرفة مقدار خلوصه، ثم أطلق هذا التعبير على كل امتحان ظاهري ومعنوي.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٧

أجل: «فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ».

من البديهي أن الله يعرف جميع هذه الامور جيداً- قبل أن يخلق الإنسان- إلا أن المراد من العلم هنا هو ظهور الآثار والشواهد العملية ... ومعناه أنه ينبغي أن يرى علم الله في هذه المجموعه عملياً في الخارج، وأن يكون لها تحقق عيني.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَ مَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧)

لا- مهرب من سلطان الله: كان الكلام في الآيات السابقة عن امتحان المؤمنين الشامل، والآية الاولى من الآيات أعلاه تهديد شديد للكفار والمذنبين، لثلا يتصوروا أنهم حين يضيقون على المؤمنين ويضغظون عليهم دون أن يعاقبهم الله فوراً، فإن الله غافل عنهم أو عاجز عن عذابهم، تقول الآية هذه: «أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ». فلا ينبغي أن يغزهم إمهال الله إياهم فهو امتحان لهم، كما أنه فرصة للتوبة والعودة إلى ساحة الله تعالى.

ثم يتحدث القرآن مرّة اخرى عن سير المؤمنين ومناهجهم، ويقدم النصح لهم، فيقول: «مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ».. فعليه أن يعمل ما في وسعه على امتثال الأوامر الإلهية والأحكام الشرعية، لأن الوقت المعين سيأتي حتماً «فإنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ».

ثم إن الله سبحانه يسمع أحاديثكم، وهو مطلع على أعمالكم وثباتكم ... لأنه «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

إنَّ «لقاء الله» في يوم القيامة ليس لقاءً حسيّاً بل نوعاً من الشهود الباطني.

وكما يقول العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان: إن المقصود من لقاء الله، هو أن العباد يكونون في موقف لا يكون بينهم وبين الله حجاب، لأن طبيعة يوم القيامة هي ظهور الحقائق كما يقول القرآن: «وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ». سورة النور الآية (٢٥).

أما الآية التي تليها فهي تعليل لما سبق بيانه في الآية الآنفه، إذ تقول: إن على المؤمنين

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٨

الذين يرغبون في لقاء الله السعي بما اوتوا من قدره وقابلية من أجل ذلك فإن نتيجة كل ذلك السعي والجهاد وتحمل الشدائد ترجع ثمارها للعامل نفسه: «وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ». إن خطة الامتحان الإلهي هي الجهاد، جهاد النفس وهواها، وجهاد الأعداء الألداء، لحفظ الإيمان والتقوى والطهارة، ونفع ذلك يعود للإنسان ...

و آخر آية- محل البحث- توضيح لما تقدم ذكره في الآية السابقة بشكل مبهم تحت عنوان الجهاد، فهنا يكشف القرآن حقيقة الجهاد فيقول: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ».

إذن أول فائدة كبيرة لهذا الجهاد الكبير (وهو الإيمان والعمل الصالح) هي تكفير الذنوب وسترها على الإنسان، كما أن الثواب

سيكون من نصيبهم، كما يقول القرآن في نهاية هذه الآية أيضاً: «وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ».

«نكفر»: مشتقة من مادة «تكفير» ومعناها في الأصل التغطية والستر، والمقصود بتغطية الذنوب هنا عفو الله وصفحه.

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤) مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٥) وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٧) وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٨) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ (٩)

سبب النزول

وردت روايات مختلفة في شأن نزول الآية الآنفه الذكر، ومضمون الجميع واحد وهي أن بعض الرجال الذين كانوا في مكة وأسلموا «١»، حين سمعت امهاتهم بذلك صممن على أن لا يتناولن طعاماً ولا يشربن ماءً حتى يرجع أبناؤهن عن الإسلام، وبالرغم من أن أية واحدة من هؤلاء الامهات لم تف بقولها، ورجعت عن إضرابها عن الطعام، إلا أن الآية المتقدمة نزلت لتوضح للجميع اسلوب المعاملة بين الأبناء والآباء والامهات، في مجال الكفر والإيمان.

(١) ورد في بعض الروايات اسم (سعد بن أبي وقاص) وفي بعضها اسم (عياش بن أبي ربيعة المخزومي).

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٣٩

التفسير

أفضل الوصايا بالنسبة للوالدين: إن واحداً من أهم الامتحانات الإلهية، هي مسألة «التضاد» بين خط الإيمان والتقوى وبين علاقة العاطفية والقرباة.. والقرآن في هذا المجال يوضح وظيفة المسلمين بجلاء. في البداية يتحدث عن قانون كلي يستمد من جذور العواطف الإنسانية وردّ الجميل فيقول: «وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ».

إن التعبير «الإنسان» هنا يلفت النظر.. فهذا القانون لا يختص بالمؤمنين، بل كل من كان جديراً بأن يحمل اسم الإنسان ينبغي أن يكون عارفاً بحق الأبوين... وأن لا ينسى تكريمهما واحترامهما والإحسان إليهما طيلة عمره.. وإن كان كل ذلك لا يفي بحقوقهما. بعد ذلك، ومن أجل أن لا يتبادر إلى الذهن أن العلاقة العاطفية بالوالدين يمكن أن تكون حاكمة على العلاقة بين الإنسان وربّه وإيمانه، يأتي استثناء صريح ليوضح هذا الموضوع في الآية، فيقول تعالى: «وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا». جملة «مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ» إشارة إلى عدم منطقيّة الشرك، لأنّ الشرك لو كان صحيحاً واقعاً لكان عليه دليل بين.

وبتعبير آخر: متى ما لم يعلم الإنسان بشيء فلا ينبغي أن يتبعه فكيف إذا كان يعلم بطلانه؟ فهذا الاتباع هو اتباع للجهل، فلو أنّ الوالدين أمراك باتباع الجهل فلا تطعهما.

ثم يضيف تعالى في نهاية الآية: «إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ».

وهذه الجملة تهديد لأولئك الذين يسرون في طريق الشرك، والذين يدعون الآخرين إلى هذا الطريق..

و الآية التي بعدها تؤكد الحقيقة في اولئك المؤمنين الذين يعملون الصالحات، وتكرر هذا المضمون أيضاً: «وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ».

وأساساً فإن عمل الإنسان يترك في الإنسان أثره.. فالعمل الصالح يصنع الإنسان بلونه ويدخله في زمرة «الصالحين».

كما أن العمل السيء يدخله في زمرة «الخاطئين والمسيئين».

إنّ الكلام في الآيات المتقدمة كان عن غفران الذنوب وتكفير السيئات وما يستحقه المؤمنون من الجزاء، إلا أنه هنا إشارة عن مقامهم الرفيع الذي هو في نفسه ثواب آخر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٠

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ (١١) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٢) وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣)

شركاء في الانتصار أميا في الشدة فلا: حيث إن الآيات المتقدمة تحدثت عن المؤمنين الصالحين والمشركين بشكل صريح، ففي الآيات الاولى من هذا المقطع يقع الكلام على الفريق الثالث- أي المنافقين- فيقول القرآن فيهم: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ». فلا- يصبرون على الأذى والشدائد، ويحسبون تعذيب المشركين لهم وأذى الناس أنه عذاب من الله «وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ». فنحن معكم في هذا الافتخار والفتح.

ترى هل يظنون أن الله خفى عليه ما في أعماق قلوبهم فلا يعرف نياتهم «أوليس الله بأعلم بما في صدور العالمين». ولعل التعبير ب «آمنا» بصيغة الجمع، مع أن الجملة التي تليه جاءت بصيغة المفرد، هو من جهة أن هؤلاء المنافقين يريدون أن يقحموا أنفسهم في صف المؤمنين، فذلك يقولون «آمنا» أي آمنا كسائر الناس الذين آمنوا.

وجملة «أُوذِيَ فِي اللَّهِ» معناه أُوذِيَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أي إنهم قد يتعرض لهم العدو- أحيانا- وهم في سبيل الله والإيمان فيؤذيهم. وفي الآية التالية- لمزيد التأكيد- يضيف القرآن قائلا: «وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ». فلو تصوروا أنهم إذا أخفوا الحقائق فإنهم سيكونون في منأى عن علم الله فهم في خطأ كبير جدا.

إن التعبير بالمنافقين لها معنى واسع، ويشمل حتى الأفراد ضعاف الإيمان الذين يبدلون عقيدتهم لأذنى مكروه يصيبهم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤١

و الآية الاخرى بعدها تشير إلى منطق المشركين الخاوى والملتوى، الذي لا يزال موجودا في طبقات المجتمع الواسعة فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ».

واليوم نرى كثيرا من الخبثاء يقولون للآخرين عند دعوتهم إلى أمر: إن كان فيه ذنب فعلى رقابنا في حين أننا نعلم أنه لا يمكن لأحد أن يتحمل وزر أحد، فالله عادل سبحانه ولا يؤاخذ أحدا بجرم الآخر.

لذلك فإن القرآن يقول بصراحة في الجملة التالية: «وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ».

وبعد ذلك، ومن أجل أن لا يتصور أن هؤلاء الدعاء للكفر والشرك وعبادة الأصنام والظلم، لا شيء عليهم من العقاب لهذا العمل، فإن القرآن يضيف في الآية التالية قائلا: «وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ أَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ».

وثقل الذنب هذا ... هو ثقل ذنب الإغراء والإغواء وحث الآخرين على الذنب، وهو ثقل السنة التي عبر عنها النبي صلى الله عليه وآله فقال: «من سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من وزره شيء» (١).

وتختتم الآية بالقول: «وَلَيَسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ».

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١٤) فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (١٥) وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٦) إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١٧) وَإِنْ تَكْذَبُوا فَسُدُّوا كَذَّبَ أُمِّمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٨) أَوْ لَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩)

ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١٩)

(١) التفسير الكبير ٢٥ / ٤٠.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٢

إشارة لقصتي نوح وإبراهيم: لما كان الكلام في البحوث السابقة عن الإمتحانات العامة في الناس، فإن الكلام هنا- وفي ما بعد- يقع على الإمتحانات الشديدة للأنبياء.

تبدأ الآيات أولًا بالكلام على أول نبي من أولى العزم وهو نوح عليه السلام وتتحدث عنه بعبارات موجزة، لتجمل قسمًا من حياته التي تناسب- كثيرًا- الواقع الراهن للمسلمين- آنذ- فتقول: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا». كان نوح مشغولًا ليل نهار بالتبليغ ودعوة قومه إلى توحيد الله- فرادى ومجتمعين، مستفيدًا من جميع الفرص في هذه المدة الطويلة (أى تسعمائة وخمسين عامًا) يدعوهم إلى الله ... ولم يشعر بالتعب والنصب من هذا السعي المتتابع ولم يظهر عليه الضعف والفتور. ومع كل هذا الجهد الجهد لم يؤمن به إلا جماعة قليلة في حدود الثمانين شخصًا كما تنقل التواريخ (أى: بمعدل نفر واحد لكل اثنتي عشرة سنة).

فعلى هذا لا تظهروا الضعف والتعب في سبيل الدعوة إلى الحق ومواجهة الانحرافات، لأن منهجكم أمام منهج «نوح» سهل للغاية.

لكن لاحظوا كيف كانت عاقبة قوم نوح الظالمين الألداء: «فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ».

ويضيف القرآن الكريم في الآية الاخرى: «فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ».

ثم يعقب على قصة نوح وقومه التي وردت بشكل مضغوط، ويأتى بقصة إبراهيم عليه السلام، ثانياً الأنبياء الكبار من أولى العزم فيقول: «وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ». إذ ينجيكم من دنياكم الملوثة بالذنوب والشقاء، وتكون آخرتكم هي السعادة الأبدية.

ثم يذكر إبراهيم عليه السلام أدلة بطلان عبادة الأصنام والأوثان، ويبين في تعابير مختلفة يتضمن كل منها دليلاً على فساد مذهبهم وبطلانهم فيقول أولًا: «إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا».

الأصنام التي ليس لها إرادة، ولا عقل، وهي فاقدة لكل شيء، بحيث إن شكلها بنفسه هو دليل على بطلان عقيدة «عبادة الأوثان».

ثم يتوسع في حديثه ويمضى إلى مدى أبعد فيقول: ليست هذه الأوثان بهيئتها تدل على أنها لا تستحق العبادة فحسب، بل أنتم تعلمون بأنكم تكذبون وتضعون اسم الآلهة على هذه الأوثان: «وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٣

ثم يبين الدليل الثالث وهو أن عبادتكم لهذه الأوثان إما لأجل المنافع المادية، أو لعاقبتكم في «الآخرة» وكلا الهدفين باطل ... وذلك: «إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا».

وأنتم تعتقدون بأن هذه الأصنام لم تكن خلقتكم، بل الخالق هو الله، فالذى يتكفل بالرزق هو الله، «فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ».

ولأنه هو الذى يرزقكم فتوجهوا إليه «وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ».

وإذ كنتم تبتغون الدار الآخرة فإنه «إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ».

فالأصنام لا تصنع شيئاً هنا ولا هناك.

وبهذا الأدلة الموجزة والواضحة ألجم منطقهم الواهى وأفحمهم.

ثم يلتفت إبراهيم عليه السلام مهتدداً لهم ومبدياً عدم اكرائه بهم قائلاً: «وَإِن تَكذَّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَّمٌ مِّن قَبْلِكُمْ» كذبوا أنبياءهم فنالوا الخزي بتكذيبهم والعاقبة الوحيمه «وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلْغُ الْمُبِينُ» سواء استجاب له قومه، أم لم يستجيبوا له دعوته وبلاغه.

والمقصود بالامم قبل امه إبراهيم عليه السلام، امه نوح عليه السلام وما بعده من الامم.

والقرآن يترك قصة إبراهيم هنا مؤقتاً، ويكمل البحث الذى كان لدى إبراهيم فى صدد التوحيد وبيان رسالته بدليل المعاد، فيقول:

«أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ». أى كيف لا يعرف هؤلاء خلق الله؟ فالذى له القدرة على الإيجاد أولاً قادر على إعادته أيضاً.

ويضيف فى آخر الآية على سبيل التأكيد: «إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ». لأن تجديد الحياة قبل الإيجاد الأول يُعدّ أمراً بسيطاً. وطبعى أن هذا التعبير يناسب منطق الناس وفهمهم، وإلا فإنّ السير والعسير لا مفهوم لهما عند من قدرته غير محدودة والمطلقة. قُلْ سَيُرَوُّوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٠) يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ (٢١) وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٣)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٤

الآيسون من رحمة الله: هذه الآيات تواصل البحث فى المعاد أيضاً، فإنّ القرآن يدعو فى الآية الاولى من هذا المقطع الناس إلى «السير فى الآفاق» فى مسألة المعاد ... فى حين أن الآية السابقة كانت السمة فيها «السير فى الأنفس» أكثر. يقول القرآن: «قُلْ سَيُرَوُّوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ». انظروا إلى أنواع الموجودات الحية، والاقوام والامم المتنوعة والمختلفة، وكيف أن الله تعالى خلقها أولاً، ثم إن الله نفسه الذى أوجدها فى البداية من العدم قادر أيضاً على ايجادها فى الآخرة: «ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ» ولأنه أثبت قدرته على كل شىء حين خلق الخلق أولاً، إذن ف «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ». فهذه الآية والآية التى قبلها- أيضاً- أثبتتا بواسطة قدرته الواسعة إمكان المعاد ..

«النشأة»: فى الأصل، تعنى إيجاد الشىء وترتيبه، وقد يعبر أحياناً عن الدنيا بالنشأة الاولى، كما يعبر عن الاخرى بالنشأة الآخرة. ثم يتعرض القرآن الكريم إلى إحدى المسائل المتعلقة بالمعاد، وهى مسألة الرحمة والعذاب، فيقول: «يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ».

ومع أن رحمة الله مقدمه على غضبه، إلّا أنّ الآية هنا تبدأ أولاً بذكر العذاب ثم الرحمة، لأنها فى مقام التهديد، وما يناسب مقام التهديد هو هذا الاسلوب.

وإكمالاً لهذا البحث الذى يبين أن الرحمة والعذاب هما بيد الله والمعاد إليه، يضيف القرآن: إذا كنتم تتصورون أنكم تستطيعون أن تهربوا من سلطان الله وحكومته ولا يمسّكم عذابه، فأنتم فى خطأ كبير ... فليس الأمر كذلك؛ «وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ» (١).

وإذا كنتم تتصورون أنكم تجدون من يدافع عنكم وينصركم هناك، فهذا خطأ محض أيضاً: «وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ».

وهكذا يعلق القرآن جميع أبواب الفرار بوجه هؤلاء المجرمين .. لذلك يقول فى الآية التى بعدها بشكل قاطع: «وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي». ثم يضيف مؤكداً: «وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ». هذا «العذاب الأليم» هو لزم اليأس من رحمة الله.

(١) «معجزين»: مشتقة من مادة «عجز»، ومعناها فى الأصل التخلف والتأخر عن الشىء، ولذلك تستعمل هذه الكلمة فى الضعف الباعث على التخلف والتأخر؛ «المعجزة»: معناه الذى يجعل الآخر عاجزاً، وحيث إن الأفراد الذين يفرون من سلطان أحد وقدرته، يعجزونه عن ملاحقتهم، لذلك استعملت كلمة «معجز» فى هذا الصدد أيضاً.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٥

والمراد ب «آيات الله» هى جميع الآيات فى عالم الوجود والتشريع.

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٤) وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ كَمَا بَغِضَ بَعْضُكُمْ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٥) فَمَا مَن لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٦) وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧)

اسلوب المستكبرين في جوابهم لإبراهيم: والآن علينا أن نعرف ماذا قال هؤلاء القوم الضالون لإبراهيم عليه السلام رداً على أدلته الثلاثة في مجال التوحيد والنبوة والمعاد؟!

إنهم - قطعاً - لم يكن لديهم جواب منطقي وكجميع الأقوياء المستكبرين فقد توسلوا بقدراتهم الشيطانية وأصدروا أمراً بقتله، حيث يصرح بذلك القرآن الكريم فيقول: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ».

وأخيراً رُجِحَ الرأي الأول، لأنهم كانوا يعتقدون أن أشد حالات الإعدام هو الإحراق بالنار. وفي هذه الآية الكريمة لم يرد كلام عن كيفية إحراق إبراهيم عليه السلام بالنار سوى هذا المقدار الذي استكملت به الآية الكريمة، وهو «فَأَنْجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ».

غير أن تفصيل ما جرى عليه من الإحراق ورد في سورة الأنبياء الآيات (٦٨-٧٠) وقد بينا ذلك هناك، فلا بأس بمراجعته.

ويضيف القرآن في الختام: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

إن إبراهيم عليه السلام نجى من النار بصورة خارقة للعادة وبلطف الله سبحانه، غير أنه لم يترك أهدافه .. بل نهض بالأمر وازداد همة وأعطى لأهدافه حرارة أكثر.

ثم توجه إبراهيم إلى المشركين، «وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٥٤٤

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا». ولكن هذه المودة والمحبة تتلاشى في الآخرة، «ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ كَمَا بَغِضَ بَعْضُكُمْ وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ».

إن عبادة الصنم أو الوثن كانت رمزاً للوحدة لكل قوم ولكل قبيلة، كما تربط بينهم وبين اسلافهم. ثم بعد هذا كله فإن سراة الكفار كانوا يدعون أتباعهم إلى عبادة الأوثان، وكان هذا الأمر بمثابة «حلقة الاتصال» بين السراة والأتباع.

ولكن هذه العلاقات والوشائج والإرتباطات الخاوية تتقطع جميعها يوم القيامة.

وفي الآية التي بعد تلك الآية إشارة إلى إيمان لوط وهجرة إبراهيم، إذ تقول: «فَمَا مَن لَّهُ لُوطٌ».

«لوط» نفسه من الأنبياء العظام، وكانت له مع إبراهيم علاقة قري «يقال إنه كان ابن أخت إبراهيم عليه السلام» وحيث إن أتباع شخص عظيم - لإبراهيم - بمنزلة أفراد امه كاملة فقد تحدث سبحانه - خاصة - عن إيمان «لوط» وشخصيته الكبرى المعاصرة لإبراهيم عليه السلام، ليتضح أنه إذ لم يؤمن الآخرون، فإن ذلك ليس مهماً.

ثم تضيف الآية عن هجرة إبراهيم عليه السلام، فتقول: «وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ».

فلذلك تحرك إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة - بمعنئ لوط - من بابل إلى أرض الشام مهد الأنبياء والتوحيد، ليستطيع أن يكتسب جماعة هناك ويوسع دعوة التوحيد.

وفي آخر آية من هذا المقطع يقع الكلام على المواهب الأربع التي منحها الله لإبراهيم عليه السلام بعد الهجرة العظيمة:

الموهبة الاولى: الأبناء الصالحون، من أمثال إسحاق ويعقوب، ليسرجوا مصباح الإيمان والنبوة في بيته وأسرته ويحافظوا عليه، إذ يقول القرآن: «وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ». وهما نبيان كبيران واصل كل منهما السير على منهاج إبراهيم محطم الأصنام.

الموهبة الثانية: «وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ».

الموهبة الثالثة: «وَأَتَيْنَهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا». فما هو هذا الأجر الذي لم يوجهه القرآن؟ لعله إشارة إلى امور مختلفة مثل الاسم الحسن، ولسان الصدق والثناء بين جميع الامم، لأن الامم كلها تحترم إبراهيم عليه السلام على أنه نبي عظيم الشأن، ويفتخرون بوجوده ويسمونونه «شيخ مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٧ الأنبياء».

الموهبة الرابعة، هي: «وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ». وهكذا تشكل هذه المواهب مجموعة كاملة من المفاجر. وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٨) أ إِنَّكُمْ لَأْتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَ تَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٩) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (٣٠)

المنحرفون جنسياً: بعد بيان جانب مما جرى لإبراهيم عليه السلام يتحدث القرآن عن قسم من قصة حياة النبي المعاصر لإبراهيم «لوط عليه السلام» فيقول: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأْتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ». «الفاحشة»: مشتقة من مادة «فحش» وهي في الأصل تعني كل فعل أو كلام سىء للغاية، والمراد بها هنا الانحراف الجنسي. (اللواط). لوط عليه السلام هذا النبي العظيم، كشف أخيراً ما في نفسه وقال لقومه: «أَتَيْنَكُمُ لَأْتَأْتُونَ الرِّجَالَ». أفتريدون أن تقطعوا النسل «وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ».

ولا ترعونون عن الأعمال المخزية في مجالسكم العامة «وَأَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ». «الننادى»: مشتق من «النداء» وهو يعنى المجلس العام، كما يأتى أحياناً بمعنى مكان التنزه، لأن الأفراد هناك ينادى بعضهم بعضاً وترتفع أصواتهم.

ورد في التواريخ: إنهم كانوا يتسابون بكلمات الفحش والابتذال، أو يضرب أحدهم الآخر على ظهره، أو يلعبون القمار، ويستعملون أنواع الآلات الموسيقية، ويكشفون عوراتهم في مجتمعهم ويغدون عراه ... الخ «١». والآن فلنلاحظ ماذا كان جواب هؤلاء القوم الضالين المنحرفين، على كلمات النبي لوط عليه السلام المنطقية. يقول القرآن: «فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ». وهنا لم يكن للوط عليه السلام بد إلا أن يلتفت إلى الله بقلب حزين مهموم ... و «قَالَ رَبِّ انصُرْنِي

(١) تفسير مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٨

عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ». القوم المنحرفين، المتمادين في الأرض فساداً، والذين تركوا تقواهم وأخلاقهم الإنسانية وألقوا العفة والطهارة خلف ظهورهم، ومزجوا عبادة الأوثان بفسد الأخلاق والظلم، وهددوا نسل الإنسان بالفناء والزوال. وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنْ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ (٣١) قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٢) وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئَاءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجِيُكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٣٣) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٣٤) وَ لَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)

وهذه هي عاقبة المنحرفين: لقد استجيب دعاء لوط أخيراً، وصدر الأمر من الله تعالى بالعقاب الصارم والشديد لهؤلاء القوم المنحرفين والمفسدين، فمّر الملائكة المأمورون بعذاب قوم لوط بالأرض التي فيها إبراهيم عليه السلام لأداء رسالته اخرى قبل أن ينزلوا العقاب

بقوم لوط، وهذه الرسالة التي سبقت العذاب، هي بشارتهم لإبراهيم عليه السلام بالولد: «بشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب». والآيات المتقدمة تذكر أولاً قصة مرورهم بإبراهيم عليه السلام فتقول: «وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ».

والتعبير بـ «هذه القرية» يدل على أن مدين قوم لوط كانت قريبة من أرض إبراهيم عليه السلام.

والتعبير بـ «الظالمين» هو لأجل كونهم يظلمون أنفسهم باتخاذهم سبيل الشرك والفساد الأخلاقي وعدم العفة، وظلمهم الآخرين حتى شمل العابرين والقوافل التي كانت تمر على طريقهم.

فلما سمع «إبراهيم» هذا النبأ حزن على لوط النبي العظيم و «قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٤٩

فما عسى أن تكون عاقبته؟

إلما أنهم أجابوه على الفور: «قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا» فلا تحزن عليه، لأننا لا نحرق «الأحضر واليابس» معاً، وخطتنا دقيقة ومحسوبة تماماً... ثم أضافوا: «لَنَنْجِيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ».

إنتهى كلام الملائكة مع إبراهيم هنا، وتوجهوا إلى ديار لوط عليه السلام وقومه، يقول القرآن في هذا الشأن: «وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا».

فقد جاؤوا إليه بهيئة فتیان ذی وجوه ملیحة، ومجىء أمثال هؤلاء الضیوف فی مثل هذا المحیط الملوّث، ربّما كان یجرّ علی لوط الوبال.

«سوء»: مشتقة من «ساء» ومعناه سوء الحال؛ و «الذرع»: معناه «القلب» «الحلق»، فعلى هذا يكون معنى «ضاق بهم ذرعاً» أى ضاق قلبه وانزعج.

إلما أن الضیوف حین أدركوا عدم إرتیاحه كشفوا عن «هویتهم» وعرفوا أنفسهم ورفعوا عنه الحزن: «وَقَالُوا لَمَّا تَخَفْ وَلَمَّا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ».

وبعد هذا، ولكي تتضح خطه عملهم في شأن عاقبه هؤلاء القوم المنحرفين أكثر، أضافوا: «إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ».

والمراد بـ «القرية» هي «سدوم» من قرى قوم لوط عليه السلام.

والمراد من «الرجز» هنا هو العذاب.

وهنا لم يذكر القرآن كيفية العذاب الأليم، سوى أنه قال: «وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيْنَهُمْ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ».

إلما أن في سورة هود الآية (٨٢) منها وكذلك سورة الأعراف الآية (٨٤) منها، تفصيلاً في بيان العذاب، وهو أنه أصابت قراهم في البداية زلزلة شديدة فجعلت عاليها سافلها، ثم أمطرت عليها حجارة من السماء.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٠

وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْبُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٣٦) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٣٧) وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِينِهِمْ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ (٣٨) وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠)

تنوع العذاب للظالمين: بعد بيان قصه لوط وقومه يقع الكلام عن أقوام آخرين أمثال قوم شعيب وعاد وثمود، وقارون وفرعون، وقد

أشير في هذه الآيات - محل البحث - إلى كل منهم إشارة موجزة «مكتفة» للإستنتاج والعبارة. في البداية تقول الآية: «وَإِلَى مَدِينٍ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا».

والتعبير بكلمة «أخاهم»، هو إشارة إلى منتهى محبة هؤلاء الأنبياء إلى امهم، وإلى عدم طلبهم السلطة، وبالطبع فإن هؤلاء الأنبياء كانت لهم علاقة قرابة بقومهم أيضاً.

و «مدين» مدينة واقعة جنوب غربى الأردن، وتدعى اليوم ب «معان» وهى فى شرق خليج العقبة، وكان شعيب عليه السلام وقومه يقطنون فيها.

وشعيب كسائر أنبياء الله العظام، بدأ بالدعوة إلى الاعتقاد بالمبدأ والمعاد، وهما أساس كل دين وطريقة: «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ».

فالإيمان بالمبدأ يكون سبباً لإحساس الإنسان بأن الله يراقبه مراقبةً دقيقةً بشكل دائم ويسجل أعماله؛ والإيمان بالمعاد يذكر الإنسان بمحكمة عظيمة يحاسب فيها عن كل شيء وكل عمل مهما كان تافهاً ...

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥١

مختصر الامثل ج ٣ ٥٩٣

والمبدأ الثالث هو بمثابة خطة عمل جامعة، تحمل بين طياتها جميع الخطط الإجتماعية، إذ قال: «وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ».

وللفساد مفهوم واسع يشمل كل نقص انحراف، وتدمير، وظلم .. الخ .. ويقابله الصلاح والإصلاح، ومفهومهما يشمل جميع الخطط البتاءة.

«تعثوا»: من مادة «عثى» ومعناه إحداث الفساد أو الإفساد، غاية ما فى الأمر أن هذا التعبير كثيراً ما يستعمل فى الموارد التى تكون فيها «مفاسد أخلاقية»، فعلى هذا يكون ذكر كلمة «مفسدين» بعدها تأكيداً على هذا المفهوم.

إلا أن تلك الجماعة بدلاً من أن تصغى لمواعظه ونصائحه بأذان القلوب، خالفته ولم تصغ إليه «فكذبوه».

وكان هذا التكذيب سبباً فى أن تصيبهم زلزلة شديدة «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصَّ بِحُورِ فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ». أى مكبوبين على وجوههم ميتين.

«الجاثم»: مشتق من «جثم» ومعناه الجلوس على الركبة والتوقف فى مكان ما ... ولا يبعد أن يكونوا نائمين عند وقوع هذه الزلزلة الشديدة .. فهذا التعبير إشارة إلى أنهم عند وقوع هذه الحادثة نهضوا وجثوا على الركب، إلبان الحادثة لم تمهلهم حيث انهارت الجدران عليهم ونزلت عليهم الصاعقة التى تزامنت معها فماتوا.

أمّا الآية التى بعده فتتحدث عن «عاد» و «ثمود» قومي (هود وصالح)، دون أن تذكر ما قاله نبيهما لهما، وما ردّ عليهما قومهما المعاندون، لأنهما مذكوران فى آيات عديدة من القرآن، وهما أى قوم هود وقوم صالح معروفان، فلذلك، تقول الآية: «وَعَادًا وَثَمُودًا».

ثم تضيف الآية: «وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِّنْ مَّسَاكِينِهِمْ» المتهمه والذى هى على طريقكم فى منطقة الحجر واليمن.

ثم تشير الآية إلى السبب الأصلي لشقائهم وسوء حظهم، إذ تقول: «وَرَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانَ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ».

وكانت فطرتهم على فطرة الله وتقواه، ولم يأل الأنبياء جهداً فى هدايتهم، وبدلوا قدراً كافياً من النصيح والإرشاد لهم، لكنهم حادوا «وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ». و الآية الاخرى تذكر أسماء ثلاثة من الجبابرة الذين كان كل واحد منهم بارزاً للقدرة الشيطانية، فتقول: «وَقُرُونٌ وَفِرْعَوْنٌ وَهَمْنٌ».

فقارون كان مظهر الثروة المقرونة بالغرور وعبادة «الذات» والأنانية والغفلة.

وفرعون كان مظهر القدرة الإستكبارية المقرونة بالشيطنة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٢

وأما هامان، فهو مثل لمن يعين الظالمين المستكبرين.

ثم يضيف القرآن: «وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ» والدلائل «فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ». فاعتمد قارون على ثروته وخزائنه وعلمه، واعتمد فرعون وهامان على جيشهما وعلى القدرة العسكرية، وعلى قوة إعلامهم وتضليلهم لطبقات الناس المغفلين الجهلة. لكن .. برغم كل ذلك لم يفلحوا «وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ».

كلمة «سابقين» تعنى من يتقدم ويكون أمام الآخرين، فمفهوم قوله تعالى: «وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ». أى إنهم لم يستطيعوا أن يهربوا من سلطان الله برغم ما كان عندهم من إمكانات، بل أهلكهم الله فى اللحظة التى أراد، وأرسلهم إلى ديار الفناء والذلة والخزى. كما يذكر فى الآية التى بعدها: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ».

فإنه يذكر فى هذه الآية بحسب الترتيب أنواع عذابهم فيقول: «فَمِنْهُمْ مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا». «الحاصب»: معناه الاعصار الذى يحمل حصى كثيرة معه.

والمقصود ب «منهم» هنا هم «عاد» قوم هود.

«وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ» وهذا هو العذاب الذى عذب الله به ثمود «قوم هود» كما عذب آخرين ...

«وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ». وهذا هو عقاب قارون الثرى المغرور المستكبر من بنى إسرائيل.

«وَمِنْهُمْ مَّنْ أَعْرَفْنَا». وهذا الكلام إشارة إلى عقاب فرعون وهامان وجنودهما.

ويبين فى ختام الآية التأكيد على هذه الحقيقة، وهى أن ما أصابهم هو بسبب أعمالهم، «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

أجل، إن عقاب هذه الدنيا والآخرة هو تجسيد أعمالهم، حيث يغلقون جميع طرق الإصلاح فى وجوههم، فالله أكثر عدلاً وأسمى من أن يظلم الإنسان أدنى ظلم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٣

دعامة واهية كبيت العنكبوت: بينت الآيات السابقة ما آل إليه المشركون والمفسدون الظلمة والأثانيون من مصير وخيم وعاقبة سوداء وعذاب أليم ... وبهذه المناسبة، فى الآيات التى بين أيدينا، يبين القرآن الكريم مثلاً بليغاً ومؤثراً يعبدون غير الله ويتخذون من دونه أولياء، وكلما أمعنا النظر فى هذا المثال وفكرنا فيه ملياً انقذت فى أذهاننا منه لطائف دقيقة، يقول تعالى: «مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ».

والجدير بالذكر، أن بيت العنكبوت ونسيج خيوطه المضروب به المثل، هو نفسه من عجائب الخلق، والتدقيق فيه يعرف الإنسان على عظمة الخالق أكثر.

فلو دققنا النظر فى بيوت العنكبوت لرأينا منظرًا طريفاً مثل الشمس وأشعتها مستقرة على قواعد هذا «البناء النسيجي»، وبالطبع فإن هذا البيت مناسب للعنكبوت وكاف، ولكنه فى المجموع لا يمكن تصور بيت أوهن منه، وهكذا بالنسبة إلى آلهة الضالين ومعبودهم، إذ تركوا عبادة الله والتجأوا إلى الأصنام والأحجار والأوثان.

أما الآية التالية فيها تهديد لهؤلاء المشركين الغفلة الجهلة .. إذ تقول: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ» ولا يخفى على الله شركهم الظاهر ولا شركهم الخفى «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» على الإطلاق.

وإذا أمهلهم، فليس بسبب العجز والضعف، أو عدم العلم، أو أن قدرته محدودة، بل كل ذلك من حكمته التى توجب أن يمنحوا الفرصة الكافية لتتم الحجة البالغة لله عليهم، فيهدى من هو جدير بالهدى.

و الآية الثالثة- من الآيات محل البحث- لعلها تشير إلى ما استشكله أعداء الإسلام على النبى صلى الله عليه وآله فى هذه الأمثلة التى

ضربها الله، وكانوا يقولون: الله الذي خلق السماوات والأرض كيف يضرب الأمثال بالعنكبوت والذباب والحشرات وما شاكلها؟
فیرد القرآن بقوله: «وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ».

وفي آخر آية- من الآيات محل البحث- يضيف القرآن الكريم: «خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّمُؤْمِنِينَ». ليس في عمل الله باطل أو عبث ... فإذا التشبيه بالعنكبوت وبيته الخاوي هو أمر محسوب بدقته، وإذا ما إختار موجوداً صغيراً للتمثيل به فهو لبيان الحق، وإلاً فهو خالق أعظم المجزآت والمنظومات الشمسية وغيرها.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٤

أَثَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥)
إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر: بعد الفراغ من بيان أقسام مختلفه من قصص الامم السابقة وأنبياهم العظام، يتوجه الخطاب- على سبيل تسليئة خاطر، وإراءة الخط الكلى أو الخطوط العامه- للنبي صلى الله عليه وآله ويأمره بما ينبغى عليه أن يفعل. فيبدأ أولاً بقوله: «أَثَلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ» ... أى إقرأ هذه الآيات فسوف تجد فيها ما تبتغيه وتطلبه من العلم والحكمة والنصح، ومعيار معرفة الحق من الباطل.

وبعد بيان هذا الأمر الذى يحمل طابعاً تعليمياً، يأتى الأمر الثانى الذى هو محور أصيل للتربيه فيقول تعالى: «وَأَقِمِ الصَّلَاةَ».

ثم يبين فلسفه الصلاة الكبرى فيقول: «إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ» (١).

طبيعة الصلاة- حيث إنها تذكر بأقوى رادع للنفس، وهو الاعتقاد بالمبدأ والمعاد- فإنها تردع عن الفحشاء والمنكر.

إن النهى عن الفحشاء والمنكر له سلسله درجات ومراتب كثيرة، وكل صلاة مع رعاية الشروط لها نسبة من هذه الدرجات.

فى تفسير مجمع البيان عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «من أحب أن يعلم أقبلت صلاته أم لم تقبل، فلينظر هل منعت صلاته عن الفحشاء والمنكر، فبقدر ما منعته قبلت منه».

ويقول القرآن تعقيباً على ما ذكره ومن شأن الصلاة: «وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ».

وظاهر الجملة هو بيان غاية وحكمة اخرى فى الصلاة، أى أن أثراً آخر من آثار الصلاة وبركاتها أهم من كونها تنهى عن الفحشاء والمنكر هو تذكير الإنسان بربه، هذا الذكر هو أساس السعادة والخير، بل العامل الأصلى للنهى عن الفحشاء والمنكر أيضاً هو ذكر الله، وكونه أكبر لأنه العلة والأساس للصلاة.

وحيث إن نيات الناس، وميزان حضور القلب منهم فى الصلاة وسائر العبادات، كل ذلك متفاوت جداً، فإن الآية تختتم بالقول: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ». أى يعلم ما تصنعون

(١) إن الفحشاء هى إشارة للذنوب الكبيرة الخفية، وأميا المنكر فهو الذنوب الكبيرة الظاهرة، أو أن الفحشاء هى الذنوب التى تنتج بغلبة القوى الشهوانية، والمنكر من أثر القوى الغضبية.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٥

من أعمال فى الخفاء أو العلى، والنيات التى فى قلوبكم أو الكلمات التى تجرى على ألسنتكم.

وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمُ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦) وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ (٤٧) وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّ بِيَمِينِكَ إِذًا لِآرْتَابِ الْمُبِطِلُونَ (٤٨) بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ (٤٩)

اتبعوا أحسن الأساليب فى البحث والجدال: كان أكثر الكلام فى الآيات المتقدمة فى كيفية التعامل مع المشركين المعاندين وكان

مقتضى الحال أن يكون الكلام شديد اللهجة حاداً، أما في هذه الآيات - محل البحث - فيقع الكلام في شأن مجادله أهل الكتاب الذين ينبغي أن يكون الكلام معهم لطيفاً، فيقول القرآن في هذا الصدد: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ». «تجادلوا»: مشتق من «جدال» ومعناه في الأصل قتل الحبل وإحكامه، كما تستعمل هذه المفردة في البناء المحكم وما أشبهه، وحين يتناقش اثنان في بحث معين فكل واحد منهما يريد أن يلوى صاحبه عن عقيدته وفكرته .. لذا فقد سُمي هذا النقاش جدالاً. والمراد من قوله «وَلَا تُجَادِلُوا»، المناقشات المنطقية.

والتعبير ب «الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» تعبير جامع يشمل الأساليب والطرق الصحيحة والمناسبة للتباحث أجمع. فعلى هذا إن ألفاظكم ينبغي أن تكون بطريقة مؤدبة، والكلام ذا مودة، والمحتوى مستدلاً، وصوتكم هادئاً غير خشن. وبالطبع فإن هذا الأصل الكلي في البحث والمجادلة الإسلامية، فقد يُعدّ في بعض الموارد ضعفاً، أو يكون الطرف الآخر مغروراً إلى درجة أن هذا التعامل الإنساني يزيده جراً وعدواناً وتكبراً، لذلك فإن القرآن يضيف مستثناً: «إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ». وهم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا الآخرين، وكنتموا كثيراً من الآيات، لنلا يطلع الناس مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٦

على أوصاف النبي محمد صلى الله عليه وآله. ويختتم الآية بمصداق بارز من «المجادلة التي هي أحسن» ويمكنه أن يكون قدوة لأي بحث، فيقول القرآن الكريم: «وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ». وهذا مثل واحد من المجادلة التي هي أحسن التي ينجذب إليها كل من يسمعها، ويدل على أن الإنسان يجب أن يكون بعيداً عن التحزب أو طلب التفرقة.

و الآية الاخرى تؤكد على الاصول الأربعة التي سبق ذكرها في الآية المتقدمة، فتقول: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ». أي القرآن. أجل ... نزل هذا القرآن على أساس توحيد المعبود، وتوحيد دعوة جميع الأنبياء إلى الحق، والتسليم دون قيد أو شرط لأمر الله؛ والمجادلة التي هي أحسن.

ثم يضيف القرآن الكريم: «فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ» ويعتقدون بصدقه إذ أنهم وجدوا علائمه في كتبهم، كما أن محتواه من حيث الاصول العامة والكلية منسجم مع كتبهم.

ويضيف القرآن بعدئذ: «وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ». أي أهل مكة والمشركون العرب.

ثم يقول القرآن في كفر الطائفتين من اليهود والنصارى: «وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ».

ومع الإلتفات إلى أن مفهوم الجحود، هو أن يعتقد الإنسان بشيء بقلبه وينكره بلسانه، فإن مفهوم الجملة المتقدمة أن الكفار يعترفون في قلوبهم بعظمة هذه الآيات، ويرون علامات الصدق عليها، إلا أنهم ينكرون ذلك عناداً وتعصباً، وتقليداً أعمى لأسلافهم ولآبائهم، ولحفظ منافعهم الشخصية.

ثم يضيف القرآن مشيراً إلى علامة أخرى من علائم حقانية دعوة النبي صلى الله عليه وآله الجلية والواضحة، وهي تأكيد على محتوى الآية السابقة، فيقول: «وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لِأَنَّ تَابَ الْمُجْطَلُونَ». وقالوا إن ما جاءنا به هذا النبي هو حصيلة مطالعته لكتب الماضين.

وفي الآية التالية علامة أخرى أيضاً على حقانية القرآن، إذ تقول: «بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ».

والتعبير ب «الآيات البينات» كاشف عن هذه الحقيقة وهي أن دلائل حقانية القرآن

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٧

تجلى بنفسها عياناً، وتشرق في أرجائه، فدليلها معها.

ثم بعد هذا كله، فإن أتباع هذه الآيات وطلابها المشدودة قلوبهم إليها هم أولوا العلم والإطلاع، بالرغم من أن أيديهم خالية وأرجلهم

حافية.

وَتُخْتَمُ الْآيَةُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ» ... لَأَنَّ دَلِيلَهَا وَاضِحٌ، وَقَدْ وَرَدَتْ عَلَانِيَتُهَا فِي الْكُتُبِ الْمَتَقَدِّمَةِ. وَقَالُوا لَوْ لَمَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٥٢) وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْ لَأَجَلَ مَسْمًى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٣) يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٥٤) يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَ يَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٥)

أليس القرآن كافياً فى إعجازه: الأشخاص الذين لم يدعوا ويسلموا للبيان الاستدلالي والمنطقي الذى جاء به القرآن بسبب عنادهم وإصرارهم على الباطل، ولم يقبلوا بكتاب كالتقرآن ... تذرعو بحججه أخرى على سبيل الاستهزاء والسخرية، وهى أنه لم لا تأت - يا محمد - بمعجزة من المعاجز التى جاء بها موسى وعيسى: «وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ». ومن دون شك فإن النبى صلى الله عليه وآله كانت لديه معاجز غير القرآن الكريم، إلا أن أولئك لم يكن قصدهم من وراء كلامهم الحصول على معجزة.

إن القرآن، للرد على ذرائع هؤلاء المحتالين ذوى الحجج الواهية، يدخل من طريقين: فيقول أولاً فى خطابه لنبية: «قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ». أى قل لأولئك المعاندين أن الله يدرى أية معجزة تناسب أى زمان وأى قوم. مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٨

ثم يضيف القرآن معقبا أن قل: «وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ». والجواب الآخر هو قوله تعالى: «أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ». فهم يطلبون معاجز مادية «جسمانية»، والقرآن بحد ذاته أعظم معجزة معنوية ... معجزة خالدة تتلى آياته ليل نهار عليهم وعلى الأجيال من بعدهم.

وفى نهاية الآية يضيف القرآن للتأكيد والتوضيح بصورة أجلى، فيقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». «ذلك» هنا إشارة إلى الكتاب المنزل من السماء، وهو القرآن.

أجل، إن القرآن رحمة «وسيلة» للذكرى والتذكر أيضاً، فهو للمؤمنين الذين فتحوا قلوبهم بوجه الحقيقة. ولعل الفرق بين «الرحمة» و «الذكرى» أن القرآن ليس معجزة وذكرى فحسب، بل هو إضافة إلى كل ذلك يحتوى على القوانين التى تمنح الرحمة والمناهج التربوية والإنسانية.

فمثلاً كانت عصى موسى معجزة فحسب، إلا أنها لم يكن لها أثر فى حياة الناس اليومية، غير أن القرآن معجزة، هو فى الوقت ذاته منهج كامل الحياة ورحمة أيضاً.

ولما كان كل مدع بحاجة إلى الشاهد، فالقرآن يبين فى الآية الاخرى أن خير شاهد هو الله: «قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا». وبديهي أنه كلما كان إطلاع الشاهد وشهادته أكثر، فإن قيمة الشهادة تكون أهم، لذلك يضيف القرآن بعدئذ قائلاً: «يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

يحتمل أن تكون هذه الشهادة شهادة عملية، لأنه حين يؤتى الله نبية معجزة كبرى كالتقرآن، فقد وقع على سند حقانته وأمضاه. وإضافةً للشهادة العملية المتقدمة، نقرأ فى آيات كثيرة من القرآن شهادة قولية فى نبوة النبى صلى الله عليه وآله. ويمكن أن المراد من شهادة الله فى الآية هى ما سبق من الوعد والذكر فى كتب الله السابقة «كالتوراة والإنجيل» ويعلم بذلك علماء أهل الكتاب بصورة جيدة.

وتختتم الآية بنحو من الوعيد والتهديد لأولئك الكفار بالله، فيقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْبَطْلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَسِرُونَ». وأى خسران أعظم من أن يعطوا جميع قواهم الجسمانية والإمكانات الاجتماعية والفردية في سبيل الإعلام والتبليغ لمذهبهم الوثني وأهملوا ذكر الله، فلم يُعد عليهم هذا إلّا بالضرر والخسران.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٥٩

أما في الآية التالية فإشارة إلى الذريعة الثالثة إذ تقول: «وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ». إذ يقولون: لو كان عذاب الله حقاً على الكافرين فلم لا يأتينا؟!

فيجيب القرآن على هذه الذريعة بثلاثة أجوبة.

الأول: «وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ».

وهذا الزمان المعين (الأجل) إنما هو لهدف أصلي، للإرعواء عن باطلهم وتيقظهم، أو إتمام الحجة عليهم.

والثاني: إن أولئك الذين يتذرعون بهذا القول ما يديرهم لعل العذاب يأخذهم على حين غرة من أنفسهم «وَلِيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ» (١).

وبالرغم من أن موعد العذاب معين ومقرر إلّا أنّ المصلحة تقتضى ألاّ يطلعوا عليه، وأن يأتيهم دون مقدمات، لأنه لو عرف وقته لكان باعثاً على تجرؤ الكفار والمذنبين وجسارتهم .. وحين يأزف الوعد بالعذاب فإنهم سيتجهون بالتوبة إلى الله وينيبون إليه. والحكمة التربوية لمثل هذا العقاب تقتضى أن يكتفم مواعده، لتكون كل لحظة ذات أثر بنفسها، ويكون الخوف والإستيحاش منها عاملاً على الردع.

وأخيراً فإنّ الجواب القرآني الثالث يتبين في الآية إذ يقول: «يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ».

فإذا تأخر عنهم عذاب الدنيا، فإنّ عذاب الآخرة واقع لا محالة، ومحيط بهم تماماً وسيصيبهم حتماً بحيث إن القرآن يذكره بصورة أمر فعلي (وكانّ جهنم الآن محيطه بهم).

ويوجد تفسير آخر أكثر دقة لهذه الآية، وهو أن جهنم محيطه، الآن فعلاً بالكافرين، من جهتين - بالمعنى الواقعي للكلمة.

الجهة الاولى: إنّها جهنم الدنيا، إذ هم على أثر شركهم وتلوّثهم بالذنوب يحترقون بجهنم التي أعدوها لأنفسهم.

والجهة الثانية: طبقاً لظاهر الآيات في القرآن فإنّ جهنم موجودة فعلاً، فإنّ جهنم موجودة في باطن الدنيا، وبهذا فهي محيطه بهم على نحو الحقيقة.

ثم يضيف القرآن: «يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا

(١) «البغته»: مشتقة من «البغت» ومعناه التحقق المفاجيء وغير المنتظر لأمر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٠

كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ».

يمكن أن تكون هذه الآية توضيحاً لإحاطة عذاب جهنم في يوم القيامة بالكفار، ويمكن أن تكون بياناً مستقلاً لذلك العذاب الأليم لهم الذي يحيط بهم اليوم على أثر أعمالهم، وفي غدٍ يتجلى هذا العذاب بوضوح ويكون محسوساً ظاهراً. أما جملة «ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» التي يظهر أنّ قائلها هو الله تعالى، فهي بالإضافة إلى أنّها نوع من العقوبة النفسية لمثل هؤلاء الأشخاص، فهي كاشفة عن هذه الحقيقة، وهي أنّ عذاب الله ليس إلّا انعكاساً للأعمال التي يقوم بها الإنسان نفسه في النشأة الآخرة.

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ (٥٦) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرًا لِلْعَامِلِينَ (٥٨) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

(٥٩) وَكَأَيُّنْ مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قيل: نزلت الآية الاولى في المستضعفين من المؤمنين بمكة امرؤا بالهجرة عنها. ونزل قوله «وَكَأَيُّنْ مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا» في جماعة كانوا بمكة يؤذيهم المشركون فأمرؤا بالهجرة إلى المدينة فقالوا: كيف نخرج إليها وليس لنا بها دار، ولا غفار ومن يطعمنا ومن يسقينا؟

التفسير

لابد من الهجرة: حيث إن الآيات السابقة كانت تتحدث عن مواقف المشركين المختلفة من الإسلام والمسلمين، ففي الآيات محل البحث يقع الكلام عن حال المسلمين ومسؤولياتهم قبال المشاكل المختلفة، أى مشاكل أذى الكفار وضغوطهم وقلّة عدد المسلمين وما إلى ذلك، فتقول الآية الاولى: «يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّيَ فَاعْبُدُونِ».

لأن الهدف من خلق الإنسان أن يكون عبداً لله، فمتى ما أصبح هذا الهدف الأساسى

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦١

والنهائى مستحيلاً، فلا سبيل عندئذ إلا الهجرة.

وحيث إن البعض بقوا في ديار الشرك، ولم يرغبوا بالهجرة بذريعة أنهم يخشون الخروج من ديارهم ويخافون أن يحدق بهم الموت بسبب الأعداء أو الجوع أو العوامل الاخرى التى تهددهم ... إضافة إلى فراق الأحبة والمتعلقين والأبناء والأصدقاء، فإن القرآن يرددهم بجواب جامع قائلاً: «كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ».

لا تظنوا أن الموت نهاية كل شىء، لأنكم جميعاً «إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ» ... إلى الله العظيم، وإلى نعمه التى لا حد لها ولا انتهاء لأمدها.

و الآية التالية تبين جانباً من هذه النعم فتقول: «وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» (١).

والامتياز الآخر لغرف الجنة أنها دائمة «خَالِدِينَ فِيهَا».

ويضيف القرآن معقباً فى ختام الآية: «نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ».

والمراد بالعاملين هنا مع قرائن الجمل السابقة، هم الذين يعملون الصالحات المقرونة بإيمانهم، وإن كانت كلمة العاملين مطلقة.

و الآية التالية تصف أهم ما يتحلّى به المؤمنون العاملون فتقول: «الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ».

إذ يبتعدون عن الزوجة والأولاد والأهل والبيت والأحباب والأصدقاء وكل شىء عزيز عليهم، لكنهم يصبرون برغم الفراق يذوقون مرارة الغربة والتهجير عن أوطانهم ويصبرون.

وإذ أمعنا النظر وفكرنا جيداً رأينا أن الصبر والتوكل هما أساس جميع الفضائل الإنسانية، فالصبر هو عامل الاستقامة أمام العوائق والمشاكل، والتوكل هو الهدف والباعث على الحركة فى هذا الطريق المديد الملتوى.

وفى آخر آية- من الآيات محل البحث- جواب لأولئك الذين كان لسان حالهم أو لسان مقالهم يقول إذا خرجنا عن ديارنا وأهلينا، فمن سيطعمنا ويرزقنا؟ يخاطبهم القرآن أن لا- تحزنوا على الرزق ولا تحملوا ثقل الذلة والأسر، فالرازق هو الله، لا لكم فحسب بل: «وَكَأَيُّنْ مِّنْ دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ».

(١) «لنُبَوِّئَنَّهُمْ»: من مادة «تبوءة»، معناها إعطاء السكنى للإقامة والبقاء الدائم.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٢

فالقرآن يؤكّد فى نهاية الآية قائلاً: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ».

يسمع كلامكم كلّه، ويعرف لسان حالكم، ولسان حال جميع الدواب، وهو خبير بحاجات الجميع، ولا يخفى على علمه الذى لا حد له

شئاً أبداً.

وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١) اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢) وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَمَّا يَعْقِلُونَ (٦٣) وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤) فَبِأَذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ (٦٥) لِيُكْفِرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٦٦)

الإقرار بالتوحيد في الباطن والشرك في الظاهر: كان الحديث في الآيات السابقة موجهاً إلى المشركين الذين أدركوا حقايق الإسلام، إلّا أنهم لم يكونوا مستعدين للإيمان والهجرة، خوفاً من انقطاع الرزق عليهم، أما في هذه الآيات، فالحديث موجه للنبي صلى الله عليه وآله، وفي الواقع لجميع المؤمنين، وهو يبين دلائل التوحيد عن طرق «الخلق»، و«الربوبية»، و«الفطرة»، أى عن ثلاث طرائق متفاوتة، ويريهم أنّ مصيرهم وعاقبة أمرهم بيد الله الذى يجدون آثاره فى الآفاق وفى أنفسهم، لا بأيدى الأصنام والأوثان التى لا تضر ولا تنفع.

فتبدأ الآية الاولى من هذه الآيات محل البحث، مشيرة إلى خلق السموات والأرض وتستعين باعتقاداتهم الباطنية ... فتقول: «وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ».

لأنّ من المسلم به أنّه لا عبدة الأصنام ولا غيرهم ولا أى أحد آخر يقول: إنّ خالق السموات والأرض ومسخر الشمس والقمر حفنة من الأحجار والخشب المصنوعة بيد الإنسان.

وبتعبير آخر: لا يشك فى «توحيد الخالق» حتى عبدة الأصنام حيث كانوا مشركين فى عبادة الخالق، وكانوا يقولون: إنّما نعبد أوثاناً ليقرّبونا إلى الله زلفى، فهم الوسطاء بيننا وبين الله.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٣

وهم غافلون عن أنّه لا تفصل بين الخالق والمخلوق أيّة فاصلة.

إنّ الآية بعد ذكر هذا الدليل الواضح تتساءل: «فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ». أى مع هذا المال كيف يعرضون عن عبادة خالقهم ويستبدلونها بعبادة مجموعة من الأحجار والأخشاب؟!

«يؤفكون»: مشتقة من «إفك» ومعناها إعادة الشئ من صورته الواقعية والحقيقية.

والتعبير بـ «يؤفكون» بصيغة المجهول إشارة إلى أنّهم لا قدرة لهم على التصميم، فكأنّهم منجذبون إلى عبادة الأوثان دون إرادة. والمراد من تسخير الشمس والقمر النظم التى أقرها الله تعالى، وجعل الشمس والقمر فى دائرة هذه النظم فى خدمة الإنسان، ومنافعه. ثم يضيف القرآن تأكيداً لهذا المعنى، وهو أنّ الله خالق الخلق ورازقهم، فيقول: «اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ». فمفتاح الرزق بيده لا بيد الناس ولا بيد الأصنام.

وإذا كانوا يتصورون أنّ الله قادر، إلّا أنّه غير مطّلع على حالهم، فهذا خطأ كبير لـ «إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ».

وفى المرحلة الثانية يقع الكلام عن «التوحيد الربوبى» ونزول مصدر الأرزاق من قبله عليهم، فيقول: «وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ». فهذا هو ما يعتقد عبدة الأصنام فى الباطن، ولا يتأبون من الاعتراف على ألسنتهم، فهم يعرفون أنّ الخالق هو الله، وأنّه ربّ العالم ومدبره.

ثم يضيف القرآن مخاطباً نبيه: «قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ». فالحمد والثناء لمن أنعم جميع النعم.

وحيث إنّ أقوال المشركين من جهة، وأعمالهم وأفعالهم وكلماتهم من جهة أخرى، يناقض بعضها بعضاً، فإنّ الآية تختتم بإضافة الجملة التالية: «بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَمَّا يَعْقِلُونَ».

وإلّا فكيف يمكن للإنسان العاقل أن يتناقض فى كلماته، فتارةً يرى أنّ الخالق والرازق والمدبر للعالم هو الله، وتارةً يسجد للأوثان التى

لا تأثير لها بالنسبة لعواقب الناس.

ومن أجل أن يحوّل القرآن أفكارهم من أفق هذه الحياة المحدودة إلى عالم أوسع من خلال منظار العقل، فإنه يبيّن في الآية التالية كيفية الحياة الدنيا قياساً إلى الحياة الأخرى الخالدة، في عبارة موجزة وملثمة بالمعاني، فيقول: «وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». «اللهو»: معناه الإنشغال، أو كل عمل يصرف الإنسان إليه ويشغله عن مسائل الحياة الأساسية. أما «اللعب»: فيطلق على الأعمال التي

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٤

فيها نوع من النظم الخيالي، والهدف الخيالي أيضاً. فالقرآن في هذا الصدد يشرح حال الدنيا وحال الآخرة، مبيّناً أنّ الحياة الدنيا هي نوع من الإنشغال واللعب، ثم يطوى كل شيء ويغدو في سلة النسيان. أما الحياة الحقيقية التي الافناء بعدها، فهي الحياة الآخرة فحسب.

وينبغي الإلتفات إلى أنّ المراد من «الحيوان» هو الحياة، فهذه الكلمة تحمل معنى مصدرياً. وهذا التعبير: «وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ» إشارة إلى أنّ الحياة الحقيقية هي في الأخرى، لا في هذه الدار الدنيا- فكأنّ الحياة في الأخرى تفور من جميع أبعادها، ولا شيء هناك إلّا الحياة.

وبديهى أنّ القرآن لا يريد أن ينسى وينفى مواهب الله في هذه الدار الدنيا، بل يريد أن يجسد قيمة هذه الدنيا بالقياس إلى الأخرى قياساً صريحاً وواضحاً... وإضافةً إلى كل ذلك فإنه ينذر الإنسان لثلاثاً يكون أسيراً لهذه المواهب، بل ينبغي أن يكون أميراً عليها، ولا يؤثرها على القيم الأصيلة أبداً.

وفي المرحلة الثالثة... يتجه القرآن نحو الفطرة والجملة الإنسانية، ونحو تجلّي نور التوحيد في أشدّ الأزمات في أعماق روح الإنسان، وضمن مثالٍ بديع جداً وبلغ فيقول: «فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ». أجل، إنّ الشدائد والأزمات هي التي تهىء الأرضية لتفتح الاجتماعية «الفطرة» الإنسانية، لأنّ نور التوحيد مخفى في أرواح الناس جميعاً.

إلّا أنّ التعليمات الخاطئة والغفلة والغرور- وخاصة عند السلامة ووفور النعمة- تلقي عليها أستاراً، غير أنّ طوفان الحوادث يزيل هذه الأستار، وتتجلى نقطة النور آنذاك.

وفي آخر آية- من الآيات محل البحث- وبعد ذكر جميع هذه الدلائل على التوحيد وعبادة الله، يواجه القرآن المشركين والكفار بتهديد شديد فيقول: «إِنَّ هَؤُلَاءِ أَنْكَرُوا آيَاتِنَا وَكَفَرُوا بِمَا رَزَقْنَاهُمْ مِنَ النِّعَمِ فَلْيَتَمَتَّعُوا بِهَا أَيَّاماً قَلِيلًا: «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ» عاقبة كفرهم وشركهم.

أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَّا وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَنِعْمَةَ اللَّهِ يَكْفُرُونَ (٦٧) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٦٨) وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٥

سبب النزول

في الدرّ المنثور عن ابن عباس أنّ جماعة من المشركين قالوا: يا محمّد ما يمنعنا أن ندخل في دينك إلّا مخافة أن يتخطفنا الناس لقلتنا والعرب أكثر منّا فمتى بلغهم أنّا قد دخلنا في دينك اختطفنا فكنا أكلة رأس، فأنزل الله: «أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَّا» الآية.

التفسير

أشارت الآيات- التي سبق ذكرها- إلى بعض الحجج الواهية للمشركين، وهي أنّنا نخاف على حياتنا إذا أظهرنا الإيمان ثم هاجرنا

معك يا رسول الله، وقد ردّ عليها القرآن بطرق مختلفة، وفي الآيات - محل البحث - يردّ القرآن عليهم بطريق آخر فيقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا». أي أرض مكة المكرمة.

في حين أنّ العرب كانوا يعيشون في حالة غير آمنة خارج مكة، وكانت قبائلهم مشغولة بالنهب والسلب والغارات، إلّا أنّ هذه الأرض باقية على أمنها «وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ».

فإنّ الله المقتدر على أن يجعل في هذا البحر المتلاطم والظوفان المحقق بأرض الحجاز «من الفتن» حرم مكة كالجزيرة الهادئة الآمنة وسط البحر، كيف لا يمكنه أن يحفظهم من أعدائهم؟! وكيف يخافون الناس الضعاف قبال قدرة الله العظيمة جلّ وعلا؟ «أَقْبَالِ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ».

وبعد ذكر هذا الدليل الواضح ينتهي القرآن إلى هذه النتيجة في الآية التالية: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ». لقد قدمنا دلائل واضحة لكم على أنه لا شيء أحق بالعبادة وأحرى بها من الله، لكنكم كذبتهم على الله، وصنعتهم له شركاء بأيديكم.

إنّ الشرك مصدر جميع المفسدات الاجتماعية، وفي الواقع إنّ المظالم الأخرى تسترقد منه، عبادة الهوى، عبادة المقام، عبادة الدنيا، كل منها نوع من الشرك.

ولكن اعلّموا أنّ عاقبة الشؤم والخزي للمشركين «أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ». و آخر آية - من الآيات محل البحث - وهي في الوقت ذاته آخر آية سورة العنكبوت، تبيّن واقعاً مهماً، وهي عصاره جميع هذه السورة، وتنسجم مع بدايتها. تقول الآية ... بالرغم من أنّ المشاكل المتعددة تحيط بطريق المسير إلى الله، من قبيل مشكلة معرفة الحق، ومشكلة وساوس الشياطين من الإنس والجن، ومشكلة عناد الأعداء الألداء الظالمين الذين لا

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٦

يرحمون، ومشكلة الانحرافات الاحتمالية، لكن هنا حقيقة ثابتة، وهي أنّ الله يمنحك القوة والاطمئنان قبال المشاكل ويدافع عنكم، تقول الآية: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ».

إنّ التعبير بالجهاد له معنى واسع مطلق، ومثله التعبير بكلمة «فينا» فالتعبير يشمل كل سعي وجهاد في سبيل الله ومن أجله، وللوصول إلى الأهداف الإلهية، كل ذلك يصدق عليه «جاهدوا فينا» سواء كان في سبيل كسب المعرفة، أو جهاد النفس، أو مواجهة الأعداء، أو الصبر على الطاعة، أو الصبر على المعصية، أو في إعانة الضعفاء، أو في الإقدام على أي عمل حسن وصالح.

وعلى هذا أنّنا إذا أصبنا بأي نوع من الهزيمة عدم الموقفية، فسبب ذلك وعلته أحد أمرين: إمّا أننا قصّرنا في جهادنا، أو لم يكن لدينا إخلاص في العمل.

«نهاية تفسير سورة العنكبوت»

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٧

٣٠ سورة الروم

محتوى السورة: يمكن تلخيص مضامين هذه السورة في سبعة أقسام:

١- التنبؤ بانتصار الروم على الفرس في معركة تحدث في المستقبل.

٢- جانب من طريقة التفكير عند غير المؤمنين وكيفية أحوالهم.

٣- قسم مهم من آيات «عظمة الله» في الأرض والسماء، وفي وجود الإنسان.

٤- الكلام عن التوحيد «الفطري» بعد بيان دلائله في الآفاق وفي الأنفس لمعرفة الله سبحانه.

٥- العودة إلى شرح أحوال غير المؤمنين والمذنبين وتفصيل حالاتهم، وظهور الفساد في الأرض نتيجة لآثامهم وذنوبهم.

٦- إشارة إلى مسألة التملك، وحق ذوى القربى، وذم الربا.

٧- العودة- مرة أخرى- إلى دلائل التوحيد، وآيات الله وآثاره، والمسائل المتعلقة بالمعاد.

فضيلة تلاوة السورة: في تفسير مجمع البيان عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «ومن قرأها كان له من الأجر عشر حسنات بعدد كل ملك سبح لله ما بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيع في يومه وليلته».

ومن البديهي أن من جعل محتوى هذه السورة في روحه وقلبه، وراقب الله في كل لحظة،

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٨

فإن تقوى الله تملأ قلبه حتى يكون حقيقاً بهذا الأجر والثواب.

الم (١) غَلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعِيدٍ عَلَيْهِمْ سَيِّغْلِبُونَ (٣) فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعِيدٍ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بَنَصِيرٍ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعِيدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧)

سبب النزول

في تفسير مجمع البيان: قال المفسرون: غلبت فارس الروم وظهروا عليهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وفرح بذلك كفار قريش من حيث إن أهل فارس لم يكونوا أهل كتاب وساء ذلك المسلمين. وكان بيت المقدس لأهل الروم، كالكعبة للمسلمين. فدفعتهم فارس عنه. فنزلت الآيات الأنفة وقالت: لئن غلب الفرس الروم لياتين النصر والغلبة للروم خلال فترة قصيرة، وقد حددت الفترة لانتصار الروم على الفرس «فِي بَضْعِ سِنِينَ».

وهذا الكلام السابق لأوانه، هو من جهة دليل على إعجاز القرآن، هذا الكتاب السماوي الذي يستند علمه إلى الخالق غير المحدود، ومن جهة أخرى كان فألاً حسناً للمسلمين في مقابل فآل المشركين، حتى أن أبابكر ناحب بعض المشركين قبل أن يحرم القمار على شيء، إن لم تغلب فارس في سبع سنين. فقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «لم فعلت فكل ما دون العشرة بضع». فكان ظهور فارس على الروم في تسع سنين ثم أظهر الله الروم على فارس زمن الحديبية ففرح المسلمون بظهور أهل الكتاب.

التفسير

تنبؤ عجيب: هذه السورة ضمن مجموع تسع وعشرين سورة تبدأ بالحروف المقطعة «الم». وقد بحثنا مراراً في تفسير هذه الحروف المقطعة وخاصة في بداية سورة البقرة وآل عمران والأعراف. والفارق الوحيد الذي نلاحظه هنا عن بقية السور، ويلفت النظر، هو أنه خلافاً لكثير من السور التي تبدأ بالحروف المقطعة، التي يأتي الحديث بعدها على عظمة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٦٩

القرآن الكريم، بل بحثاً عن اندحار الروم وانتصارهم في المستقبل، ولكن مع التدقيق يتضح أن هذا البحث يتحدث عن عظمة القرآن الكريم أيضاً... لأن هذا الخبر الغيبي المرتبط بالمستقبل هو من دلائل إعجاز القرآن، وعظمة هذا الكتاب السماوي. يقول القرآن بعد الحروف المقطعة: «غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ».

والمراد بـ «أدنى الأرض» المكان القريب من بلاد فارس، أي إن المعركة وقعت في أقرب نقطة بين الفرس والروم.

ثم يضيف القرآن: «وَهُمْ مِّنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّغْلِبُونَ». وهم أي الروم.

ثم يبين الفترة القصيرة من هذه السنين بهذا التعبير: «فِي بَضْعِ سِنِينَ». والمعلوم أن «بضع» ما يكون أقله الثلاث وأكثره التسع.

وإذا أخبر الله عن المستقبل، فلائنه «لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ».

إن هذه العبارة تريد أن توضح هذه اللطيفة، وهي أن القادر بالذات والمالك على الإطلاق هو الله، وكل من لديه شيء فهو منه.

ثم يضيف القرآن: أنه إذا فرح المشركون اليوم بانتصار الفرس على الروم فإنه ستغلب الروم «وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ». أجل، يفرحون «بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ».

إن المسلمين «المؤمنين» فرحوا في ذلك اليوم لجهات متعددة:

١- من إنتصار أهل الكتاب على المجوس، لأنه ساحة لإنتصار الموحدين على المشركين.

٢- من الإنتصار المعنوي لظهور إعجاز القرآن.

٣- ومن الإنتصار المقارن لذلك الإنتصار، ويحتمل أن يكون صلح الحديبية، أو بعض فتوحات المسلمين الاخر.

ولزيادة التأكيد يضيف أيضاً: «وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». والسبب في عدم علم الناس، هو عدم معرفتهم بالله وقدرته، فهم لم يعرفوا الله حق معرفته، فهم لا يعلمون هذه الحقيقة، وهي أن الله محال عليه أن يتخلف عن وعده، لأن التخلف عن الوعد إما للجهل، أو للضعف وعدم القدرة، لكن الله لا يتخلف عن الوعد، لأنه يعرف عواقب الامور، وقدرته فوق كل شيء.

ثم يضيف القرآن معقبا: «يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَفْلُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٠

ولو كانوا يعلمون باطن الحياة وواقعها في هذه الدنيا، لكان ذلك كافياً لمعرفة الآخرة، لأن التدقيق في هذه الحياة العابرة، يكشف أنها حلقة من سلسلة طويلة ومرحلة من مسير مديد كبير، كما أن التدقيق في مرحلة تكوين الجنين يكشف عن أن الهدف النهائي ليس هو هذه المرحلة من حياة الجنين فحسب، بل هي مقدمة لحياة أوسع. إعجاز القرآن من جهة علم الغيب: إن واحداً من طرق إثبات إعجاز القرآن، هو الإخبار بالمغيبات، ومثله الواضح في هذه الآيات- محل البحث- ففي عدة آيات يخبر بأنواع التأكيدات عن إنتصار كبير لجيش منزه بعد بضع سنين .. ويعد ذلك وعداً إلهياً غير مكذوب ولا يتخلف أبداً.

ويحدثنا التاريخ أنه لم تمض تسع سنوات حتى تحققت هاتان الحادثتان ... فقد انتصر الروم في حربهم الجديدة على الفرس، واقرن زمان هذا الإنتصار ب «صلح الحديبية» وطبقاً لرواية اخرى أنه كان مقارناً لمعركة بدر، إذ حقق المسلمون إنتصاراً ملحوظاً على الكفار.

أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمِمَّا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أُسَاءُوا السُّوءَ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ (١٠)

كان الكلام في آخر آية من البحث السابق عن السطحين وأصحاب الظاهر، حيث كان أفق فكرهم لا يتجاوز حدود الدنيا والعالم المادي .. وكانوا جاهلين بما وراء الطبيعة ويوم القيامة، أما في هذه الآيات- محل البحث- والآيات المقبلة، فيقع الكلام على مطالب متنوعة حول المبدأ والمعاد، فتبدأ هذه الآيات أولاً على صورة استفهام فتقول: «أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧١

أَنْفُسِهِمْ مِمَّا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمِمَّا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى». أي: لو أنهم فكروا جيداً ورجعوا إلى عقولهم في الحكم ووجدانهم، لكانوا يطلعون جيداً على هذين الأمرين:

أولاً: إن العالم خلق على أساس الحق، وتحكمه أنظمه هي دليل على أن الخالق لهذا العالم ذو علم مطلق وقدره كاملة.

وثانياً: هذا العالم يمضى إلى الزوال، وحيث إن الخالق الحكيم لا يمكن أن يخلقه عبثاً، فيدل ذلك على وجود عالم آخر هو الدار الباقية بعد هذه الدنيا.

لذلك يضيف القرآن في نهاية الآية قائلاً: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ» فينكرون لقاء الله؛ أو إنهم ينكرون المعاد أصلاً؛

أو إنهم لا ينكرون بلسانهم، لكن أعمالهم «ملوثة» ومخزية تدل على أنهم غير معتقدين بالمعاد، إذ لو كانوا يعتقدون بالمعاد لم يكونوا فاسدين أو مفسدين.

وحيث إن التعبير «أَجَلٌ مُّسَمًّى» كاشف عن أن هذه الحياة على كل حال لا تدوم، وهذا إنذار لجميع عبدة الدنيا، فإن القرآن يضيف في الآية التالية قائلاً: «أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوةً وأناروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات». أى بالدلائل الواضحات... إلانهم أهملوا ذلك، ولووا رؤوسهم، ولم يستسلموا للحق، فابتلوا بعقاب الله الأليم، «فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ».

أمياً آخر آية- من الآيات محل البحث- فتبين آخر مرحلة من كفرهم فتقول: «ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسْأَأُ الشُّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ».

أجل، إن الذنب أو الإثم يقع على روح الإنسان كالمريض الخبيث، فيأكل إيمانه ويعدمه، ويبلغ الأمر حدّاً يكذب الإنسان فيه آيات الله، وأبعد من ذلك أيضاً إذ يحمل الذنب صاحبه على الاستهزاء بالأنبياء، والسخرية بآيات الله، ويبلغ مرحلة لا ينفع معها وعظ ونصيحة أبداً، ولا تؤثر فيه أية حكمه وأية آية، ولا يبقى طريق سوى أسواط عذاب الله المؤلمة له.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٢

اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ (١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِنُ يَنْفَرِقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦)

مصير المجرمين ومآلهم يوم القيامة: كان الكلام في الآيات المتقدمة عن الذين يكذبون ويستهزؤون بآيات الله، وفي الآيات- محل البحث- تستكمل البحوث السابقة عن المعاد، مع بيان جوانب منه، ومآل المجرمين في القيامة. فتبدأ الآيات بالقول: «اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ». ويبين في هذه الآية استدلال قصير موجز، وذو معنى كبير، على مسألة المعاد، وقد ورد هذا المعنى بعبارة أخرى في بعض آيات القرآن الأخرى ومنها: «قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ» (١). و الآية الأخرى تجسد حالة المجرمين يوم القيامة: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ».

«يبلس»: مأخوذ من مادة «إبلاس» وتعنى فى الأصل الغم والحزن المترتبان على أثر شدة اليأس والقنوط.

فيحق للمجرمين أى يياسوا ويبلسوا فى ذلك اليوم، إذ ليس لديهم إيمان وعمل صالح فيشفع لهم فى عرصات المحشر، ولا صديق حميم، ولا مجال للرجوع إلى الدنيا وتدارك ما مضى. لذلك يضيف القرآن فى الآية التالية قائلاً: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِّنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ». فلذلك يكفرون بهذا المعبودات من دون الله ويبرأون منها «وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ».

ثم يشير القرآن إلى الجماعات المختلفة من الناس فى يوم القيامة، فيقول: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِنُ يَنْفَرِقُونَ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ».

(١) سورة يس / ٧٩-٨١.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٣

«يحبرون»: مأخوذة من مادة «حبر» على زنة «قشر» ومعناها الأثر الرائق الرائع، كما يطلق هذا التعبير على حالة السرور والفرح التى يظهر أثرها على الوجه أيضاً.

و «الروضة»: معناها المكان الذى تكثر فيه الأشجار والماء، ولذلك تطلق هذه الكلمة على البساتين النضرة بأشجارها واخضرارها.

«وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا بآيَاتِنَا وَلِقَائِ الْأَخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُخَضَّرُونَ».

فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)

التسييح والحمد في جميع الأحوال لله: بعد الأبحاث الكثيرة التي وردت في الآيات السابقة في شأن المبدأ والمعاد، وقسم من ثواب المؤمنين، وجزاء المشركين وعقابهم، ففي الآيات محل البحث يذكر التسييح والحمد والتقدير والتنزيه لله من جميع أنواع الشرك والنقص والعيب، إذ تقول الآية: «فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ».

وعلى هذا فقد ورد في هاتين الآيتين ذكر لأربع أوقات لتسييح الله:

١- بداية الليل «حِينَ تُمْسُونَ».

٢- وطلوع الفجر «حِينَ تُصْبِحُونَ».

٣- وعصراً «عَشِيًّا».

٤- وعند الزوال- في الظهر- «حِينَ تُظْهِرُونَ».

وفي الآية التالية عودة إلى المعاد، ويرد القرآن المنكرين له عن طريق آخر، فيقول: «يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ». أي: إن ميدان «المعاد» وميدان «نهاية الدنيا» المتمثل أحدهما بخروج «الحى من الميت» والآخر «خروج الميت من الحى» يتكرران أمام أعينكم، فلا مجال للتعجب من أن تحيا الكائنات جميعاً، ويعود الناس في يوم القيامة إلى الحياة مرة أخرى.

أما التعبير ب «يخرج الحى من الميت» المستعمل للأراضى الموات، واضح أن الأرض تبدوا ميتة في فصل الشتاء، ولكن في فصل الربيع مع سقوط الغيث واعتدال الهواء، تدب

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٤

الحركة في الأرض، وهذا ميدان المعاد الذى نراه في هذه الدنيا. وأما مسأله «إخراج الميت من الحى» فهى ليست شيئاً خافياً ولا مستتراً. وأمياً ما يتعلق ب «إخراج الحى من الميت» فبالرغم من أنه من المسلم به- فى العصر الحاضر على الأقل- أنه لم ير فى المختبرات والمشاهدات اليومية أن موجوداً حياً يتولد من موجود ميت، غير أن الثابت علمياً والمسلم به أنه كانت الأرض فى البداية قطعة ملتتهبة من النار، ولم يوجد عليها أى موجود حى، ثم وفقاً لظروف خاصة لم يكتشفها العلم- حتى الآن- بصورة دقيقة، تولدت الموجودات الحية من مواد لا روح فيها بقفزة كبيرة.

لكن الذى نلمسه وندركه، هو أن الموجودات الميتة دائماً تكون جزءاً من الموجودات الحية وتكسى ثوب الحياة، فالماء والطعام اللذان نتناولهما ليسا من الموجودات الحية، لكنهما حين يكونان فى البدن ويصيران جزءاً منه يتحولان إلى موجود حى وتضاف كريات جديدة وخلايا جديدة إلى كريات البدن وخلاياه.

فعلى هذا يمكن القول بأن فى نظام الطبيعة دائماً يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى، وبهذا الدليل فإن الله الذى خلق الطبيعة قادر على إحياء الموتى فى العالم الآخر.

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافَ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَالِدَاتِ إِذَا حَمَلْنَ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ (٢٢)

آيات الله فى الآفاق وفى الأنفس: تحدثت هذه الآيات- وبعض الآيات الأخرى التى تليها- عن طرائف ولطائف من دلائل التوحيد، وآيات الله وآثاره فى نظام عالم الوجود، وهى تكمل البحوث السابقة.

ويتحدث القرآن هنا أولاً عن خلقه الإنسان التي تعد أول موهبة إلهية له، وأهمهما أيضاً، فيقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْشُرُونَ».

في هذه الآية إشارة دليلين من أدلة عظمة الله.

الأول: خلق الإنسان من التراب، وربما كان إشارة إلى الخلق الأول للإنسان، أي آدم عليه السلام، أو خلق جميع الناس من التراب، لأن المواد الغذائية التي تشكل وجود الإنسان، جميعها من التراب بشكل مباشرة أو غير مباشر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٥

الثاني: كثرة النسل «الآدمي» وانتشار أبناء «آدم» على سطح المعمورة.

و الآية الثانية من الآيات محل البحث تتحدث أيضاً عن قسم آخر من الآيات في الأنفس، التي تمثل مرحلة ما بعد خلق الإنسان، فتقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا». أي من جنسكم والغاية هي السكينة الروحية والهدوء النفسي.

وحيث إن استمرار العلاقة بين الزوجين خاصة، وبين جميع الناس عامة، يحتاج إلى جذب قلبي وروحاني، فإن الآية تعقب على ذلك مضيئة: «وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً».

ولمزيد التأكيد تختتم الآية بالقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ».

ومن هنا يمكن الاستنتاج بأن الذين يهملون هذه السنة الإلهية وجودهم ناقص، لأن مرحلة تكاملية منهم متوقفة، (إلا أن توجب الظروف الخاصة والضرورة في بقائهم عزاباً).

أما آخر آية- من الآيات محل البحث- فهي مزيج من آيات الآفاق وآيات الأنفس، فتبدأ بالإشارة إلى خلق السماء والأرض، فتقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ».

السموات بجميع ما فيها من كرات، وبجميع ما فيها من منظومات ومجرات، السماوات التي مهما خلق فيها الفكر عجز عن إدراك عظمتها ومطالعتها ... وكلما تقدم علم الإنسان تتجلى له نقاط جديدة من عظمتها.

ثم ينتقل القرآن إلى آية من آيات الأنفس الكبيرة فيقول: «وَاخْتَلَفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَأْنِكُمْ». لذلك خلق الله الأصوات والألوان واختلاف الألسنة لتنظيم المجتمع البشري.

ويقول القرآن في نهاية الآية الآنفه الذكر: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ».

فالعلماء يعرفون هذه الأسرار قبل كل أحد.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٦

آيات عظمتها- مرة أخرى: تعقياً على الأبحاث السابقة حول آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، تتحدث هذه الآيات- محل البحث- حول قسم آخر من هذه الآيات العظيمة. فتتحدث في البداية عن ظاهرة «النوم» على أنها ظاهرة مهمة من ظواهر الخلق ومثل بارز من

نظام الحكيم الخالق، فتقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ».

وتختتم الآية بإثارة العبرة بالقول: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ».

هذه الموهبة العظيمة تؤدي إلى أن يحصل جسم الإنسان وروحه على الراحة اللازمة، فيرتفع التعب بطرو النوم الذي بمثابة وقفه لعمل البدن، ونوع من التعطيل له.

ومن المسلم به أنه لولا النوم لتصدت روح الإنسان وذبل جسمه وانهار بسرعة، ولعجل عليه العجز والشيخوخة.

و الآية التي تلتها، والتي تبين خامس آية من آيات عظمة الله، تتجه أيضاً إلى «الآيات في الآفاق» وتتحدث عن البرق والرعد والغيث وحياء الأرض بعد موتها، فتقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا».

«الخوف»: مما يخطر على البال من احتمال نزول الصاعقة مع البرق؛ و «الطمع»: من جهة نزول الغيث الذي ينزل بعد البرق والرعد على

هيئته قطر أو مزنة.

وعلى هذا فإن البرق السماوي مقدمة لنزول الغيث.

ثم يضيف القرآن معقبا: «وَيُنزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا».

ويؤكد القرآن في نهاية هذه الآية مضيفا: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» ويفهمون أن وراء هذه الخطأ المدروسة يداً قادرة تقودها وتهديها، ولا يمكن أن تكون المسألة وليدة الصدفة والضرورة العمياء الصماء أبداً.

وفي آخر آية من الآيات محل البحث، يقع الكلام عن آية أخرى من الآيات الآفاقية، وذلك عن تدبير نظام السماء والأرض وبقائهما ودوامهما، إذ تقول: «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ». أى إن خلق السماوات - المشار إليه في الآيات السابقة - ليس آية وحدة فحسب، بل بقاؤها ودوام نظامها أيضاً آية أخرى، فهذه الأجرام العظيمة في دورانها المنظم حول نفسها تحتاج إلى أمور كثيرة، وأهمها المحاسبة المعقدة للقوة الجاذبة والدافعة.

وفي نهاية الآية وبالاستفادة من عامل التوحيد لإثبات المعاد، ينقل القرآن البحث إلى هذه المسألة فيقول: «ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٧

والتعبير بـ «دعاكم» إشارة إلى أنه كما أن أمراً واحداً منه كاف للتدبير ولنظم العالم، فإن دعوة واحدة منه كافية لأن تبعثكم من رقدتكم وتشركم من قبوركم ليوم القيامة.

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩)

المالكية لله وحده: كانت الآيات المتقدمة تتحدث حول توحيد الخالق، وتوحيد الرب، أما الآية الأولى من هذه الآيات محل البحث فتتحدث عن فرع آخر من فروع التوحيد، وهو توحيد الملك فتقول: «وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

ولأنهم ملك يده ف «كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ» وخاضعون.

أى إن زمام أمر الجميع من جهة القوانين التكوينية كله في يده، وهم مستسلمون لقانون عالم التكوين وفق مشيئة الله، شأؤوا أم أبوا. والدليل على هذه «المالكية» هو الخالقية والربوبية، فإن من خلق الموجودات في البداية وتكفلها بالتدبير، فمن المسلم أنه هو المالك الأصلي لها لا سواه.

وحيث إن المسائل المرتبطة بالمبدأ والمعاد هي كالنسيج الواحد في انسجامها في سلسلة الآيات الآنفه، والتي ستأتي في ما بعد، ففي الآية التالية يعود القرآن إلى موضوع المعاد، فيقول: «وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ».

إن القرآن يثبت في هذه الآية - بأوجز الاستدلال - مسألة إمكان المعاد، إذ يقول لهم: إنكم تعتقدون أن بداية الخلق من قبل الله، فعودة الخلق مرة أخرى أيسر وأهون من بداية الخلق.

ولكن من الضروري أن نلتفت إلى هذه «اللطيفة»، وهي أن التعبير بالهين والصعب، هو

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٧٨

من خلال نافذتنا الفكرية، وأما بالنسبة للقادر المطلق فلا فرق عنده بين «الصعب والسهل». وربما كان لهذا السبب أن عقب القرآن في ذيل الآية مباشرة بالقول: «وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ».

لأننا لو تصورنا أى وصف كمالى لأى موجود فى السماء والأرض، من علم وقدره وملك وعظمه وجود وكرم، فمصادقه الأتم

والأكمل هو عند الله، لأنّ الجميع لديهم المحدود من الصفات، إلّا هو وحده فإنّ لديه الأوصاف غير المحدودة، والجميع لديهم أوصاف عارضة، أمّا أوصاف الله ذاتية، وهو مصدر الكمالات وأساسها.

وتنتهي الآية بما هو ضرب من التأكيد أو الدليل، إذ يقول سبحانه: «وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ». هو عزيز لا يقهر، إلّا أنّه وفي منتهى قدرته غير المحدودة لا يصدر منه فعل غير دقيق، فكلّ أفعاله وفق حكمته.

وبعد بيان قسم آخر من دلائل التوحيد والمعاد في الآيات المتقدمة، يتناول القرآن موضوع «نفي الشرك» في مثال بين فيقول: «ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ».

هذا المثال هو لو كان لديكم - أيها المشركون - عبيد ومماليك ف «هَلْ لَّكُمْ مِّنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَآ رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَحَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسِكُمْ». أي إن عبيدكم هؤلاء يشاركونكم في أموالكم وفي ما رزقناكم، بحيث تكونون أنتم وعبيدكم سواء في مالكيّة هذه الأموال والنعم وتخافون أن يتصرفوا في هذه الأموال بشكل مستقل كما هو الحال في تصرف شركاءكم الأحرار فيها أو في الميراث مثلاً ... فأنتم غير مستعدين لأن يتصرفوا في أموالكم.

فلو كان لكم عبيد وملك يمين «وهو ملك مجازي» لما رضيتم بمثل هذا الفعل منهم، فكيف تتصورون المخلوقات التي هي ملك حقيقي لله شركاءه، أو تزعمون أن بعض الأنبياء كاليسوع المسيح أو ملائكة الله أو بعض المخلوقات الأخرى كالجن أو الأصنام الحجرية والخشبية شركاءه، ألا ساء ما تحكمون.

والتعبير «مَا رَزَقْنَاكُمْ» يشير إلى هذه اللطيفة، وهي أنّكم لستم المالكين الحقيقيين لهؤلاء العبيد والمماليك، ولا المالكين الواقعيين للمال، لأنّ كل ذلك لله وحده.

ويعقب القرآن في ختام الآية للتأكيد والدقة على مضمون السؤال، فيقول: «كَذَلِكَ

مختصر الامثال، ج ٣، ص: ٥٧٩

نُفَّصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ». أجل، نذكر لكم الحقائق من الأمثلة الواضحة في حياتكم لتفكروا فيها، ولكيلا تنسبوا لله - على الأقل - ما لا ترضون أن تنسبوه لأنفسكم.

غير أنّ هذه الآيات البينات وهذه الأمثلة الواضحة هي لأولى الألباب، لا للظالمين عبدة الهوى الجهلة الذين قلوبهم أسدال الجهل، واستوعبت آفاقهم الخرافات والعصبيات، لذلك يضيف القرآن في الآية التالية قائلاً: «بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ». ولذلك فإنّ الله خلّى بينهم وبين أنفسهم بسبب أعمالهم السيئة، فتأهوا في وادي الضلالة «فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ».

ولا شك أنّ من يتركهم الله ويخلّى بينهم وبين أنفسهم «وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ»

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَمَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنْبِئِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢)

كان لدينا حتى الآن أبحاث كثيرة حول التوحيد ومعرفة الله، عن طريق مشاهدة نظام الخلق، وتعقيباً على الآيات الآنفه الذكر، فإنّ الآية الأولى - من هذه الآيات محل البحث - تتحدث عن التوحيد الفطري، أي الإستدلال على التوحيد عن طريق المشاهدة الباطنية والدرك الضروري والوجداني، إذ يقول القرآن في هذا الصدد: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا»، لأنها «فَطَرَتِ اللَّهُ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لِاتَّبِيدِلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ». «الوجه»: معناه معروف، وهو مقدم الرأس. والمراد به هنا الوجه الباطني، ووجه القلب والروح؛ وكلمة «أقم»: مشتقة من الإقامة، ومعناه الاستقامة والوقوف بثبات (على قدم راسخة) ... وكلمة «حنيف»: مشتقة من «حَنَفٌ»، ومعناها الميل من الباطل نحو الحق، ومن الاعوجاج نحو الاستواء والاستقامة. فمعنى الدين الحنيف هو الدين المائل نحو العدل والاستواء عن كل انحراف وباطل وخرافة وضلال.

إِنَّ جَمَلَهُ «لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ» وبعدها جملة «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيْمُ» تأكيداً آخران على مسألة كون الدين فطرياً، وعدم إمكان تغيير هذه الفطرة ...

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٠

ويضيف القرآن في الآية التالية: ينبغي أن يكون التفاتكم للدين الحنيف والفطرى حالة كونكم «مُنْبِيئِينَ إِلَيْهِ» فأصلكم وأساسكم على التوحيد، وينبغي أن تعودوا إليه أيضاً.

«منبين»: من مادة «إنابة» وهى فى الأصل تعنى الرجوع المكرر، وتعنى هنا الرجوع نحو الله والعودة نحو الفطرة (التوحيدية). ويعقب على الأمر بالإنابة والعودة إليه، بالأمر بالتقوى، وهى كلمة تجمع معانى أوامر الله ونواهيته، إذ يقول: «وَاتَّقُوا» أى اتقوا مخالفة أوامره.

ثم يؤكد القرآن على موضوع الصلاة من بين جميع الأوامر فيقول: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ». لأن الصلاة فى جميع أبعادها، هى أهم منهج لمواجهة الشرك، وأشد الوسائل تأثيراً فى تقويته أسس التوحيد والإيمان بالله سبحانه. كما أنه يؤكد فى نهيه عن «الشرك» من بين جميع النواهي فيقول: «وَلَمَّا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ». لأن الشرك أعظم الذنوب وأكبر الكبائر، فإن الله لا يغفره.

وفى آخر آية- من الآيات محل البحث- يبين القرآن واحداً من آثار الشرك وعلائمه فى عبارة موجزة ذات معنى كبير، فيقول: لا تكونوا من المشركين الذين انقسموا فى دينهم على فرق واحزاب كثيرة: «مَنْ الدِّينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا». والعجيب فى الأمر أنهم على تضادهم واختلافهم فإن «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ». أجل، إن واحدة من علائم الشرك هى التفرقة، لأن المعبودات المختلفة هى منشأ الأساليب المتفاوتة وهى أساس الانفصال والتفرق. بحث

التوحيد باعث داخل قوى: كما أن الدلائل العقلية والمنطقية توجه الإنسان، فإن فى داخله دوافع وموانع أيضاً .. بحيث تعين له الجهة «أحياناً» من حيث يدرى أو لا يدرى.

وفلسفة وجودها فى داخل الإنسان، هى أن الإنسان لا- يستطيع- دائماً- أن ينتظر إبعاز العقل والمنطق، لأن هذا العمل قد يعطل الأهداف «الحياتية» بعض الأحيان.

فمثلاً لو أراد الإنسان أن يستلهم من منطق «لزوم بدل ما يتحلل» ضرورة تناول الطعام .. أو «لزوم استمرار النسل عن طريق التوالد والتناسل» ضرورة الممارسة الجنسية، وأن يعمل ويتحرك وفق المنطق فى كل ذلك، لكان ينبغي أن ينقرض الإنسان- قبل هذا الزمان بكثير- إلا أن الغريزة الجنسية من جهة وجاذبيتها، والإشتهاء للطعام من جهة

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨١

أخرى، يجرانه نحو هذا الهدف شاء أم أبى. وكلما كانت الأهداف حياتية أكثر وعمومية، كانت هذه «الدوافع» أشد وأقوى أيضاً. لكن ينبغي الالتفات إلى أن هذه الدوافع على نحوين:

فبعضها باطنية (غير واعية) لا تحتاج إلى وساطة العقل والشعور، كما ينجذب الحيوان نحو الطعام والجنس دون الحاجة إلى التفكير. وقد يكون تأثير الدوافع عن طريق الوعى، أى إن هذه الدوافع الداخلية تترك أثرها فى العقل والتفكير وتدفعه إلى انتخاب الطريق. وعادة يطلق على النوع الأول من هذه الدوافع «الغريزة» وعلى النوع الثانى «الفطرة» (فلاحظوا بدقّة).

عبادة الله والاتجاه نحوه لهما مكانه فى نفوس جميع الناس، وهو ما يصطلح عليه ب «الفطرة».

إن لدينا دلائل وشواهد مختلفة توضح بجلاء كون «الميل إلى الله» فطرياً، بل تؤكد هذا الميل فى جميع اصول الدين وأبعاده:

١- إن دوام الاعتقاد الدينى والإيمان بالله على إمتداد التاريخ البشرى بنفسه دليل على الفطرة، لأنه إذا كان ذلك على سبيل العادة،

لما كانت له جنبه عمومية ولا جنبه دائمية، فهذا العموم وهذا الدوام دليل على فطرية الحالة.

٢- إن المشاهدات عياناً في العالم المعاصر تكشف أنه مع جميع ما بذل الطغاة والمستبدون- وأنظمتهم الجائرة من جهود وسعى لمحو الدين وآثاره وعن طرق مختلفة- لم يستطيعوا أن يستأصلوا الدين وجذوره من أعماق هذه المجتمعات.

٣- الكشوفات الأخيرة من قبل النفسانيين وعلماء النفس في مجال أبعاد الروح الإنسانية، شاهد آخر على هذا المدعى، إذ أنهم يقولون: «إن التحقيقات في المجالات النفسية تشير إلى بعد أصيل هو «البعد الديني». أو بتعبير آخر: «بعد قدسي» أو «رباني» وربما عدوا هذا البعد أساساً للأبعاد الثلاثة الأخرى وهي «البعد العلمي» و «البعد الجمالي» و «البعد الخيري».

إذ يدعون بأن البواعث الأساسية للروح البشرية هي هذه:

أ) دافع البحث عن الحقيقة (الشعور العلمي) وهو مصدر أنواع العلوم، والأهداف التحقيقية المستمرة، والمتابعات في معرفة عالم الوجود.

ب) حس «الإحسان والعمل الصالح» الذي يجذب الإنسان نحو المفاهيم الأخلاقية

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٢

كالتضحية والإيثار والعدل والشهامة وأمثالها. ج) الحس «الجمالي»: وهو يجذب الإنسان نحو الفن الأصيل والأدب والمسائل الذوقية، وربما أصبح مصدر التحول في حياة الفرد أو المجتمع أحياناً.

د) الحس «الديني»، أي الإيمان بمبدأ عال وعبادته واتباعه.

٤- إن التجاء الإنسان في الشدائد والمحن إلى قوة خفية وراء الطبيعة، وطلب حل المشاكل والازمات من قبل هذه القوة، لهو أيضاً شاهد آخر على أصالة هذا الدافع الباطني والإلهام الفطري، ويمكن- بضمها إلى مجموع الشواهد التي ذكرناها آنفاً- أن نوقفنا على مثل هذا الدافع الباطني في داخلنا نحو الله سبحانه.

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا آذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِن تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦)

إن الآية الأولى من المقطع الذي بين أيدينا، هي في الحقيقة استدلال وتأكيد على البحث السابق في مجال كون التوحيد فطرياً، وتفتح هذا النور الإلهي عند الشدائد والصعاب، إذ تقول الآية: «وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ».

إلا أنهم إلى درجة من السطحية والغباء التعصب والتقليد الأعمى لأسلافهم المشركين، بحيث أنه بمجرد انتهاء المشكلة وهبوب نسيم الرحمة الإلهية... «ثُمَّ إِذَا آذَقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ».

جملة «مُنِيبِينَ إِلَيْهِ» إشارة لطيفة للمعنى التالي، وهو أن الأساس في الفطرة هو توحيد الله وعبادته، والشرك أمر عارض، حيث متى ما يسوا منه فهم يعودون نحو الإيمان والتوحيد، شاؤوا أم أبوا.

والطريف هنا أن «الرحمة» في الآية مسندة إلى «الله»، فهو سبحانه مصدر الرحمة للعباد، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر إلا أن الضر لم يسند إليه سبحانه، لأن كثيراً من الإبتلاءات والمشاكل التي تحوطنا هي من نتائج أعمالنا وذنوبنا.

و كلمة «رَبَّهُمْ» التي تكررت في الآية تكررت في الآية مرتين، تؤكد على أن الإنسان

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٣

يحسّ بالتدبير الإلهي وربوبية الله على وجوده ما لم تؤثر عليه التعليمات الخاطئة فتسوقه نحو الشرك والضلال.

أما الآية الأخرى فجاءت بعنوان التهديد لؤلئك المشركين، الذين ينسون ربهم عند نيل النعم، إذ تقول: اتركهم «لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ» وليفعلوا ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ثم يخاطب المشركين بأن يتمتعوا بهذه النعم والمواهب الدنيوية الفانية. وسوف يرون العاقبة

السيئة لذلك: «فَتَمَتُّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ».

والقرآن في الآية الاخرى يصوغ الكلام في صيغة الاستفهام المقرون بالتوبيخ فيقول: «أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ شَيْطَانًا فَهَوَّ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ». «السلطان»: معناه ما يدل على السلطة وينتهي إلى الانتصار عادةً، ومعناه هنا هو الدليل المحكم المقنع. أمّا آخر آية من الآيات محل البحث، فهي ترسم طريقة تفكير وروحية هؤلاء الجهلة الاغبياء الذين يقنطون ويحزنون لأقل مصيبة، فتقول: «وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ». في حين أنّ المؤمنين الصادقين هم الذين لا يغفلون عن ذكر الله عند النعم، ولا يقنطون عند الشدائد والمصيبة، إذ هم يشكرون الله على نعمه، ويرون المصيبة امتحاناً واختباراً، أو يعدونها نتيجة أعمالهم، فيصبرون ويتجهون إلى الله تعالى. ويستفاد ضمناً من هذه الآية بصورة جيدة أنّ قسماً من المصائب والإبتلاءات التي تحل بالإنسان هي - على الأقل - نتيجة أعماله وذنوبه.

إنّ جملة «فَرِحُوا بِهَا» ليس المراد منها هنا السرور بالنعمة فحسب، بل السرور المقرون بالغرور ونوع من السكر والنشوة.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٤

الآية الاولى من الآيات محل البحث تتحدث عن التوحيد والربوبية أيضاً، وانسجماً مع سياق الآيات السابقة التي كانت تتحدث عن غرور بعض الناس الماديين عند إقبال النعمة عليهم، ويأسهم وقنوطهم عند مواجهتهم الشدائد والبلاء، فإنّها تقول: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ».

إنّ العالم هو عالم الأسباب، لكن هذه القاعدة في الوقت ذاته ليست دائمية ولا كلية، إذ يتفق أن نرى أناساً جديرين وجادين يركضون من هنا وهناك، إلّا أنّهم لا يصلون إلى نتيجة يبلغون هدفهم، وعلى العكس منهم قد نشاهد أناساً لا يسعون ولا يجدون وتفتح عليهم أبواب الرزق من كل حذب وصوب.

وهذه الاستثناءات كأنّها لبيان أنّ الله بالرغم من جميع ما جعل للأسباب من تأثير، لا ينبغي أن يُنسى في عالم الأسباب، ولا ينبغي للإنسان أن يغفل أنّ وراء هذا العالم يداً قوية اخرى تديره كيف شاءت.

لذلك يقول القرآن في نهاية الآية: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ».

وحيث إنّ كل نعمة وموهبة ينالها الإنسان تحمّله وظائف ومسؤوليات وعليه أداؤها، فإنّ القرآن يوجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله في الآية التالية قائلاً: «فَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ».

والتعبير بـ «حَقَّهُ» كاشف عن أنّهم شركاء في أموال الإنسان، وإذا دفع المرء شيئاً من ماله إليهم فإنّما يؤدي حقهم، وليس له منّ عليهم.

إنّ القرآن يبيّن في نهاية الآية ترغيباً للمحسنين، وشرط القبول ضمناً، فيقول: «ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ».

ومع الإلتفات إلى أنّ المراد من «وَجْهَ اللَّهِ» ذاته المقدّسه، فإنّ هذه الآية تشير إلى أنّ الإنفاق وإيتاء حقّ الأقارب وأصحاب الحقّ الآخرين ليس كافياً، بل المهم هو الإخلاص والنية الطاهرة والخالية من أي أنواع الرياء والمنه والتحقير وانتظار الأجر والثواب.

وتشير الآية التالية - بمناسبة البحث المتقدم عن الإنفاق الخالص - إلى نوعين من الإنفاق: أحدهما لله، والآخر يراد منه الوصول إلى مال الدنيا، فتقول: «وَمَا آتَيْتُم مِّن رَّبِيًّا لِّيَرْبُؤَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَمَا يَرْبُؤُوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ».

«الربا»: معناه في الأصل «الزيادة»، وهنا أنّ المراد من الربا هو الهدايا التي يقدمها بعض

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٥

الأفراد للآخرين، ولا سيما إلى أصحاب الثروة والمال، كي ينالوا منهم أجراً أحسن وأكثر.

وبديهى أنه فى مثل هذه الهدايا لا يؤخذ بنظر الاعتبار استحقاق الطرف الآخر ولا الجدارة والأولوية، بل كل ما يهدف إليه أن تصل الهدية إلى مكان، تعود على مُهديها بمبلغ أوفر ومن الطبيعي أن مثل هذه الهدايا ليس فيها «جنبه» إخلاص، فلا قيمة لها من الجهة الأخلاقية والمعنوية.

فعلى هذا يكون معنى «الربا» فى هذه الآية هو «الهدية والعطية»، والمراد من جملة «لِيُرَبُّوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ» هو أخذ الأجر الوافر من الناس. ولا شك أن أخذ مثل هذه الأجرة ليس حراماً، إذ ليس فيه شرط أو قرار، إلا أنه فاقد للقيمة الأخلاقية والمعنوية ...

وفى الآية الأخيرة- من الآيات محل البحث- عودة أخرى إلى مسألة المبدأ والمعاد، وهى الموضوع الأساس الذى ورد فى كثير من آيات هذه السورة ... وتصف الآية «الله» بأربعة أوصاف لتكون إشارة للتوحيد ومواجهة الشرك، ودليلاً على المعاد أيضاً فتقول: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَمْ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ».

و من المسلم به أن المشركين لم يكن أى منهم يعتقد بأن الخلق كان من قبل الأوثان، أو أن أرزاقهم بيد الأوثان والأصنام، أو أن نهاية حياتهم بأيدى هذه الأوثان كذلك، فعلى هذا يكون الجواب على هذه الأسئلة هو النفى، والاستفهام هنا استفهام إنكارى.

إن القرآن يقول: عندما يكون الخلق والرزق والموت والحياة بيد الله، فالعبادة ينبغى أن تكون له فقط، ويكشف هذه الحقيقة بقوله: «سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ» وهى أن المشركين أهانوا كثيراً مقام رب العزة إذ أشركوه فى العبادة مع أوثانهم.

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢) فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَ لَهُمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لِمَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٦

أساس الفساد ومصدره أعمال الناس أنفسهم: كان الكلام فى الآيات السابقة عن الشرك، ونعلم أن أساس جميع المفساد هو الغفلة عن أصل التوحيد والتوجه نحو الشرك، لذلك فإن القرآن- فى هذه الآيات محل البحث- يتحدث عن ظهور الفساد فى الأرض بسبب أعمال الناس أنفسهم، فيقول: «ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ». والله يريد أن يريهم ما قدموه و «لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ».

والآية الآنفه الذكر تبين المعنى الواسع حول ارتباط الفساد بالذنوب، الذى لا يختص بأرض «مكة» والحجاز، ولا بعصر النبى صلى الله عليه وآله.

وفى الآية التالية يأمر الله الناس بالسير فى الأرض ليروا شواهد كثيرة «حيتية» من مسألة ظهور الفساد فى الأرض بسبب المعاصى والذنوب من قبل الناس. ويوصى نبيه صلى الله عليه وآله أن يأمرهم بذلك، فيقول: «قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ».

أجل «كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ». والشرك أساس الفساد والانحراف والضلال.

وحيث إن التصور والوعى والإنابة، ثم العودة والإنابة إلى الله، كل ذلك لا يكون- دائماً- مفيداً ومؤثراً، ففى الآية التالية يوجه القرآن الخطاب للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله قائلاً: «فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ».

أى يتفرقون «فريق فى الجنة وفريق فى السعير».

ووصف الدين بأنه «قيم» مع ملاحظة أن «القيم»: معناه الثابت والقائم، هو إشارة إلى أن هذا التوجه المستمر «أو الإقامة» هى للدين ..

أى لأن الإسلام دين ثابت ومستقيم وذو نظام قائم فى الحياة المادية والمعنوية للناس، فلا تمل عنه أبداً، بل أقم وجهك للدين القيم.

وإنما وجه الخطاب للنبي صلى الله عليه وآله ليعرف الآخرون واجبه ووظيفتهم أيضاً.

والتعبير بـ «يَصِدُّعُونَ» من مادة «صدع» معناه في الأصل: كسر الإناء، ثم انتقل بالتدرج إلى أى نوع من أنواع التفرق والتشتت، وهنا إشارة إلى انفصال صفوف أهل الجنان عن صفوف أهل النيران.

و الآية التالية بيان لهذا الانفصال في يوم القيامة، إذ تقول: «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسَهُمْ يَمْهَدُونَ».

«يمهدون»: مشتقة من «المهد» وكما يقول الراغب في مفرداته فَإِنَّ معناه السرير المعد

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٧

للطفل، ثم توسعوا في المعنى فصار المهد والمهاد لكل مكان مهياً ومعد «وفيه منتهى الدعة والراحة» وقد انتخب هذا التعبير لأهل الجنة والمؤمنين الصالحين، من هذه الجهة.

ومن الطريف أن القرآن اكتفى في شأن الكفار بالتعبير بـ «مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ» ولكن بالنسبة للمؤمنين تضيف الآية التالية: أن المؤمنين لا يرون أعمالهم فحسب، بل يوليهم الله من مواهبه وفضله فيقول: «لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ».

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَ لِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاتَّقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنِيْرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَ يَجْعَلُهُ كَيْفَ يَشَاءُ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَ إِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُنْسِقِينَ (٤٩) فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)

ومن المسلم به أن هذا الفضل لا يشمل الكفار إذ: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكُفْرِينَ».

قلنا: إن في هذه السورة قسماً مهماً «يستلقت النظر» من دلائل التوحيد وآيات الله، مبيناً في سبع آيات تبدأ كل منها بقوله:

«وَمِنْ آيَاتِهِ» قرأنا ست آيات منها بصورة متتابعة، والآية الاولى من الآيات أعلاه هي سابع الآيات التي مرّت، وآخرها.

وحيث كان الكلام في الآيات السابقة عن الإيمان والعمل الصالح، فبيان دلائل التوحيد - أيضاً - تأكيداً على ذلك. تقول هذه الآية:

«وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَّاحَ مُبَشِّرَاتٍ». فهي تمضى سابقةً للغيث في حركتها، فتجمع القطع المتفرقة من الغيوم وتربط بينها وتولفها وتحملها إلى الأرض اليابسة العطشى، وتغطي صفحة السماء، ومع تغير درجة حرارة الجو تهبط المطر للنزول من هذه الغيوم.

ولذلك فنحن نقرأ في تعقيب الآية قوله تعالى: «وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَ لِيَجْزِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ وَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٨

أجل، إن الرياح هي وسيلة لتكاثر النعم العديدة في مجال الزراعة والتدجين، وهي وسيلة للحمل والنقل أيضاً، وأخيراً فهي سبب للإزدهار التجاري. وفي الآية التالية يقع الكلام عن إرسال الأنبياء إلى قومهم، في حين أن الآية التي بعدها تتحدث عن هبوب الرياح مرة أخرى، ولعل وجود هذه الآية بين آيتين تتحدثان عن نعمة هبوب الرياح له جانب اعتراضى.

ولعل ذكر النبوة إلى جانب هذه المسائل، إنما هو لإكمال البحث المتعلق بالمبدأ والمعاد.

إن الآية تقول: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ». أى المعجزات والدلائل الواضحة والبراهين العقلية، فاستجاب جماعة منهم لهذه الدلائل، ولم يستجب آخرون لها برغم النصائح «فَاتَّقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرُمُوا» ونصرنا المؤمنين «وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ».

وبالمجموع تعطى الآية هذا المعنى: «إِنَّ نَصْرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمَسْلُومِ بِهِ هُوَ فِي عَهْدِنَا وَهَذَا الْوَعْدُ سَنَجْعَلُهُ عَمَلِيًّا دُونَ الْحَاجَةِ إِلَى نَصْرِ مِنَ الْآخِرِينَ».

أما الآية الاخرى فتعود ثانية لذكر نعمة هبوب الرياح فتقول: «اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنِيْرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَ يَجْعَلُهُ

كِسْفًا» (١). أى القطع الصغيره المتراكمة ثم تخرج قطرات المطر منها على شكل حبات صغيرة: «فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَلِهِ» (٢).
ويضيف القرآن فى نهاية الآية قائلاً: «فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ». ثم تأتى الآية الاخرى بعدها فتقول: «وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّنْ قَبْلِهِ لَمُتَسَلِّينَ» (٣).
وإنما يدرك هذا اليأس أو تلك البشارة أمثال العرب الذين يعيشون فى رحلاتهم وتنقلهم فى الصحراء، ولحياتهم علاقة وصله قريبه مع هذه القطرات.

(١) «الكِسْف»: جمع «كِسْفَةٌ» ومعناها القطعة، وهى هنا- كما يبدو- إشارة إلى القطعات (من الغيوم) المتراكمة بعضها فوق بعض فتجعلها غليظة وشديدة، وذلك حين تكون الغيوم مهيأة لنزول المطر.
(٢) «الودق»: على وزن (الحلق)، وتطلق على ذرات الماء الصغيرة كمثل الغبار أحياناً، إذ تتناثر عند نزول الغيث فى السماء، كما تطلق على قطرات «المطر» المتفرقة أحياناً.
(٣) «مبلس»: مأخوذة من مادة الإبلاس، ومعناها اليأس وعدم الرجاء.
مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٨٩

وفى آخر آية- من الآيات محل البحث- يتوجه الخطاب إلى النبى صلى الله عليه وآله قائلاً: «فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا».

والتعبير بـ «رَحْمَتِ اللَّهِ» فى شأن المطر هو إشارة الآثار المباركة فيه من جهات مختلفة.
ومع الإلتفات إلى العلاقة بين المبدأ والمعاد فى المسائل المختلفة، فإن «القرآن» يضيف قائلاً فى نهاية الآية: «إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ».

وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الضُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)

حيث إن الكلام كان- فى الآيات السابقة- عن الرياح المباركة التى كانت مبشرات بالغيث والرحمة، ففى أول آية من الآيات أعلاه إشارة إلى الرياح المدمرة التى تجلب الضرر، إذ يقول القرآن فى هذا الصدد: «وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ».

اولئك هم الضعفاء الحمقى فهم قبل نزول الغيث مبلسون آيسون، وبعد نزوله مستبشرون، وإذا هبت ريح صفراء فى بعض الأيام وابتلوا مؤقتاً تراهم يتصارخون وبالكفر يجأرون ويتجأرون.

على العكس من المؤمنين الصادقين الذين هم بنعمة الله مستبشرون وعليها يشكرون، وعند نزول المصائب والمشاكل تراهم صابرون. «مصفرًا»: مشتقة من «الصفرة» وهى لون معروف؛ ويعتقد أكثر المفسرين أن الضمير فى «رأوه» يعود على الشجر والنباتات التى تصفر وذبل على أثر هبوب الرياح المخربة.

وفى الآيتين التاليتين بمناسبة البحث الوارد فى الآية السابقة- فإن الناس يقسمون إلى أربعة طوائف:

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٩٠

١- طائفة «الموتى» الذين لا يدركون أية حقيقة، وإن كانوا أحياء فى الظاهر.

٢- طائفة «الضم» الذين هم غير مستعدين للاستماع إلى الكلام الحق.

٣- طائفة «العمى» الذى حُرِّموا من رؤية وجه الحق.

٤- وأخيراً طائفة المؤمنين الصادقين الذين لهم قلوب يفقهون بها، ولهم أعين يبصرون بها، ولهم آذان يسمعون بها. فتقول الآية الأولى: «فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ، وَلِلذَلِكَ لَا تُوَثَّرُ مَوَاعِظُكَ فِي أَصْحَابِ الْقُلُوبِ الْمَيِّتَةِ. وَكَذَلِكَ «وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وُلُّوا مُدْبِرِينَ».

وتأتى الآية الثانية لبيان بقية الطوائف فتقول: «وَمَا أَنْتَ بِهَدِ الْعُمَى عَن ضَلَلَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ». إن القرآن لديه ما هو أفضل من «الحياة والموت الماديين والجسمانيين» وأفضل من السمع والبصر الظاهريين فلديه نوع اسمى من هذه الحياة والموت والسمع والبصر، وتكمن فيها سعادة الإنسان أو شقاؤه.

وفى آخر آية- من الآيات محل البحث- يشير القرآن إلى دليل آخر من أدلة التوحيد، وهو دليل الفقر والغنى، ويكمل البحوث التى تدور حول التوحيد فى هذه السورة، فيقول: «اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً».

كنتم فى البداية ضعافاً إلى درجة أنكم لم تكن لكم القدرة على طرد الذباب عنكم، أو أن تحافظوا على لعب أفواهكم أن يسيل، هذا من الناحية الجسمية، أمّا من الناحية الفكرية فمصادقه قوله تعالى: «لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا» بحيث لم تعرفوا حتى أبويكم المشفقين عليكم. لكن - قليلاً قليلاً- صرتم ذوى رشد وقوة، وصار لكم جسم قوى، وفكر جيد، وعقل مقدر إدراك واسع. ومع هذه الحال لم تستطيعوا أن تحافظوا على هذه القوة، فمثلكم كمن يصعد من طرف الجبل إلى قمته، ثم يبدأ بالإنحدار من القمة إلى قعر الوادى، الذى يمثل «مرحلة ضعف الجسم والروح».

هذا التغير والصعود والنزول خير دليل لهذه الحقيقة، وهى أنه لم تكن القوة من عندكم ولا الضعف، فكل منهما كان من جهة أخرى. أمّا آخر جملة فى الآية فهى إشارة إلى علم الله الواسع وقدرته المطلقة: «يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ». وهى بشارة وإنذار فى الوقت ذاته، أى إن الله مطلع على جميع نياتكم، وهو قدير على مجازاتكم وثوابكم.

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعَدْرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْتَطَلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخَفِّعُكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠)

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٩١

فى هذه الآيات- محل البحث- يعقب القرآن على البحوث التى كانت حول المبدأ والمعاد أيضاً، فيعود إلى بيان مشهد من مشاهد يوم القيامة الأليمة، وذلك بتجسيمه حالة المجرمين فى ذلك اليوم، إذ يقول: «وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ» فى عالم البرزخ. أجل، «كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ» فإنهم فيما سبق كانوا محرومين من إدراك الحقائق ومصروفين عنها. والتعبير «الساعة» عن يوم القيامة هو إمّا لأنّ يوم القيامة يقع فى لحظة مفاجئة، أو لأنّه من جهة أن أعمال العباد تحاسب بسرعة هناك، لأنّ الله سريع الحساب.

أمّا الآية التالية فتحدث عن جواب المؤمنين المطلعين على كلام المجرمين الغافلين عن حالة البرزخ والقيامة فتقول: «وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ».

وتقديم العلم على الإيمان هو لأنّ العلم أساس الإيمان.

وجملة «فى كِتَابِ اللَّهِ» لعلّه إشارة إلى الكتاب التكويني، أو إلى الكتاب السماوى، أو إشارة إليهما معاً، أى كان- بأمر الله التكويني والتشريعي- مقدراً أن تلبثوا مثل هذه المدة فى البرزخ، ثم تحشرون فى يوم القيامة.

فحين يواجه المجرمون واقعهم المرير المؤلم يظهرون ندمهم ويتوبون ويعتذرون ممّا صنعوا، لكن القرآن يقول فى هذا الصدد:

«فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ».

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٩٢

وواحد من أعتذارهم أنهم يلقون تبعات ذنوبهم على أسيخهم في الكفر والنفاق.

وأحياناً يلقون اللوم على الشيطان في تضليلهم وانحرافهم وأنه وسوس لهم.

وفي الآية التالية إشارة لجميع المواضيع الوارد بيانها في هذه السورة... إذ تقول: «وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ». لقد ذكرنا فيه الوعد والوعيد، الأمر والنهي، البشارة والإنذار، الآيات الآفاقية والأنفسية، دلائل المبدأ والمعاد والأخبار الغيبية والخلاصة ذكرنا فيه كل شيء يمكن أن يؤثر في نفوس الناس.

وفي الحقيقة، إن في القرآن - بشكل عام - وسورة الروم - بشكل خاص - حيث نحن الآن في مراحلها النهائية، مجموعة من المسائل والدروس الموقظة لكل فئة، ولكل طبقة، ولكل جماعة، ولكل فكر وأسلوب.

ومع هذه الحال، فهناك طائفة لا يؤثر في قلوبهم المظلمة السوداء أي من هذه الامور، لذلك يقول القرآن في شأنهم: «وَلَيْنَ جِئْتَهُمْ بَآيَةً لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْتَطَلُونَ».

والتعبير ب «مبتطلون» تعبير جامع يحمل كل معاني الدجل والإفتراء والنسب الكاذبة والفاضة من قبل المشركين.

والآية التي بعدها تبين السبب في مخالفة هذه الطائفة، فتقول: «إِنْ لَجَّاجَةٌ هَؤُلَاءِ الَّتِي لَا حَدَّ لَهَا وَعَدَاءُ هُمْ لِلْحَقِّ، إِنَّمَا هُوَ لِفَقْدَانِهِمُ الْإِحْسَاسَ وَالْإِدْرَاقَ بِسَبَبِ كَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ، وَلَآئِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً...» إذ تقول: «كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ».

«يطبع»: مأخوذة من الطبع، ومعناها ختم الشيء، وهي إشارة إلى ما كان يجري في السابق، وهو جار أيضاً اليوم إذ يختم على الشيء كيلا يتصرف به ويُغلق بإحكام، وقد يضعون عليه القفل ويضربون عليه مادة لزوجه مختومه بإشارة معينه كما بينا بحيث لا يمكن فتح ذلك الشيء إلا بكسره، فيفتضح أمره بسرعة.

وكان القرآن استعمل هذا التعبير كناية عن القلوب التي لا - ينفذ إليها النصح، والذين فقدوا الوجدان والعقل والعلم، ولا أمل في هدايتهم.

ومما يسترعى الانتباه أن في الآيات السابقة ذكر العلم أساساً للإيمان، وفي هذه الآية ذكر الجهل أساساً للكفر وعدم التسليم للحق.

أمّا آخر آية من السورة الروم، فهي تأمر النبي صلى الله عليه وآله أمرين مهمين، وتبشره بشاره كبرى، لتحتة على مواصلة الوقوف والتصدي للمشركين والجاهلين والسفهاء بالاستقامة والصبر.

مختصر الامثل، ج ٣، ص: ٥٩٣

تقول أولاً: إذا كان الأمر كذلك، فعليك بالصبر والاستقامة أمام الحوادث المختلفة، وفي مقابل أنواع الأذى والبهتان والمصاعب «فَاصْبِرْ».

لأن الصبر والاستقامة هما مفتاح النصر الأصيل.

وليكون النبي صلى الله عليه وآله أكثر اطمئناناً، فإن الآية تضيف: «إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ». فقد وعدك والمؤمنين بالنصر، والاستخلاف في الأرض، وغلبة الإسلام على الكفر، والنور على الظلمة، والعلم على الجهل، وسوف يلبس هذا الوعد ثوب العمل.

وتأمر ثانياً بضبط الأعصاب والهدوء وعدم الانحراف في المواجهة الشديدة والمتابعة، حيث تقول الآية: «وَلَا يَسْرِخَنَّكَ الَّذِينَ لِأَيُّوقُنُونَ».

«يستخفّنك»: مشتقة من «الخفة» وهي خلاف الثقل. أي: كن رزيناً قائماً على قدميك لئلا يهزك مثل هؤلاء الأفراد ويحركوك من مكانك، وكن ثابتاً ومواصلاً للمسيرة باطمئنان، إذ أنهم فاقدوا اليقين، وأنت مركز اليقين والإيمان.

هذه السورة بدأت بوعده إنتصار المؤمنين على الأعداء، وانتهت أيضاً بهذا الوعد، إلّا أنّ شرطها الأساس هو الصبر والاستقامة.

«نهاية تفسير سورة الروم»

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).

قال الإمام علي بن موسى الرضا - عليه السلام: رَحِمَ اللَّهُ عَبْدًا أَحْيَا أَمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَيُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بِنَادِرُ الْبِحَار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا(ع)، الشَّيْخُ الصَّدُوقُ، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الثقافي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - رَحِمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من جهايز هذه المدينة، الذي قد اشتهر بشغفه بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) ولاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ ولهذا أسس مع نظره و درايته، في سنة ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم ينطفيء مصباحها، بل تتبّع بأقوى و أحسن موقف كل يوم.

مركز "القائمية" للتحري الحاسوبى - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطه من سنة ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامي - دام عزه - و مع مساعده جمع من خريجي الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافه الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأذق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعه - مكان البلايتي المتبدله أو الرديئه - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامع ثقافيه على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعه ثقافه القراءه و إغناء أوقات فراغه هواة برامج العلوم الإسلاميه، إناله المنابع اللازمه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعه، و... - منها العداله الاجتماعيه: التي يمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - في آكناف البلد - و نشر الثقافه الإسلاميه و الإيرانيه - في أنحاء العالم - من جهه أخرى. - من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهريه، مع إقامة مسابقات القراءه

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل في الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية

(و) الإطلاق و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقاديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كاشك، و الرسائل القصيره SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعيه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جمكران و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسه

(ي) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربيه المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" ومفترق "وفائي" / "بناية" القائمية "

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الإلكتروني: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الإلكتروني: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٢-٢٣٥٧٠ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية والمبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكومية، و غير ربحية، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد والمتسع للامور الدينية والعلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمة) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقيه الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ والله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

